

وجه الأرض. وبدل لهذا المعنى قوله بعده - يليه -: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ لأن الدين لا يكون كله لله إلا إذا لم يبق على وجه الأرض شرك، فعندئذ يكون الدين كله لله. ويؤيد هذا المعنى وهذا التفسير الذي دلت عليه القرينة القرآنية قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»^(١). هذا هو الأظهر. وجاء في صحيح البخاري في تفسير هذه الآية عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) ما يدل على أن المراد بالفتنة: فتنة الرجل عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمن حبسوه وأوثقوه، أو قتلوه حتى يترك دينه^(٢)، يعني: قاتلوهم حتى ينتشر الإسلام، وتنكسر شوكة الكفر، بحيث لا يقدر على رد إنسان عن دينه، ولا قتل إنسان ولا ضربه ولا إيثاره بسبب الإسلام؛ لأنهم كانوا في أول الإسلام يفتنون الضعفاء عن دينهم، فكان أمية بن خلف - قبحه الله - يعذب بلالاً فيضجعه في نهار الصيف في رمضاء مكة، فيضع الحجارة على صدره ويعذبه ليكفر بمحمد ﷺ، وهو يقول: أحد أحد. وكذلك أودوا كثيراً، فقتل في ذلك أبو عمار بن ياسر وأمه، وأما هو فلما أرادوا أن يفعلوا به ذلك وخاف القتل قال كل ما يريدون منه، فسب رسول الله ﷺ، وسيأتي - إن شاء الله - إيضاح قصته في الآية النازلة به في سورة النحل في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ الآية [النحل: الآية ١٠٦]. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] والقول الأول يدخل فيه هذا؛ لأنه إذا انتفى الشرك لا يكون هناك كافر يفتن المسلمين عن دينهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن كفرهم وأسلموا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿يَمَّا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾. حديث رقم: (٤٦٥٠) (٣٠٩/٨). وانظر الحديث بعده رقم: (٤٦٥١).

يَعْلَمُونَ بَصِيرًا ﴿٤٠﴾ فهو بصير بعملهم يجازيهم عليه، ﴿لَئِنْ قَوْلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] أعرضوا ولم يرجعوا عن كفرهم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَوْلَانَكُمْ﴾ ناصركم عليهم، لا يحزنكم توليهم وإعراضهم وإصرارهم على الكفر، فالله مولاكم ناصركم عليهم، و (المولى) وزنه في الميزان الصرفي (مفعل) من الولاية، والمولى في لغة العرب^(١): هو كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن عصبية العمومة تجعله ينتصر لك وتنتصر له. وقد أطلق المولى على العصبية في قوله: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: الآية ٣٣] العصبية الوارثون. ومنه قول الفضل بن العباس من ذرية أبي لهب^(٢):

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا لَا تَظْهَرُوا لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا
ومن هذا المعنى قول طرفة بن العبد^(٣):

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذَلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ
ولكون المولى في لغة العرب يطلق على كل من بينك وبينه سبب موالاة يواليك بها وتواليه بها، وكثرت معانيه فأطلق على بني العم، وعلى العصبية، وعلى المعتقين، والمعتقين بالفتح والكسر، وعلى الناصر، وعلى الصاحب؛ لأن كلاً ينعقد بينك وبينه سبب، فلما انعقد بين الكفار وبين النار سبب تجعلهم يدخلونها، ويخلدون فيها، وهي تؤذيهم بحرهما قال تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ [الحديد: الآية ١٥] فجعل النار مولاهم لانعقاد السبب بينهم وبينها بكفرهم، وكونها دار الله التي يُعذب بها أعداءه، فهذا معنى قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٠] وهذه ولاية نصر.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) البيت في الكامل للزمرد (٣/١٤١٠)، القرطبي (٧٨/١١)، الدر المصون (٧/٥٦٧).
وقائله هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب، من شعراء بني أمية. وصدر الشطر الثاني: «لا تنبشوا بيننا».

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

وقد أطلقت الولاية في القرآن بالنسبة إلى الله (جل وعلا) إطلاقين: أطلق المولى بمعنى الولاية الخاصة، وهي: النصر والتمكين والتوفيق، كقوله هنا: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَانُكُمْ﴾ [التحریم: الآية ٤] وهذا كثير في القرآن؛ ولذا قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: الآية ١١] أي: لا مولى لهم ولاية نصر وتمكين. وأطلق المولى صادقاً بالكفار؛ لأنها ولاية خلق وقدرة وربوبية وملك، وهو في قوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: الآية ٦٢] وهي في الكفار؛ لأنه مولى الكفار ولاية ملك وتصرف ونفوذ قدرة، ومولى المؤمنين ولاية نصر وتمكين وثواب. فهذا معنى قوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ﴾.

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (نعم) فعل جامد لإنشاء [المدح]^(١).
والتحقيق أنه فعل ماض جامد^(٢)؛ لأن تاء التأنيث تدخل عليه:

نِعِمْتُ جَزَاءَ الْمُتَّقِينَ الْجَنَّةَ دَارُ الْأَمَانِي وَالْمُنَى وَالْمِنَّةُ^(٣)
خلافاً لمن زعم أن (نِعْم) اسم. قالوا: لأن أعرابياً قيل له: ولدت امرأتك بنتاً. فقال: ما هي بنعم الولد^(٤)، فأدخل عليها حرف الجر الذي هو الباء، ودخول حرف الجر من علامات الاسم. والمحققون من علماء العربية: أن (نِعْم) وبئس) فعلان ماضيان جامدان لإنشاء [المدح أو]^(٥) الذم. قالوا: وقول الأعرابي: ما هي بنِعْم الولد. وقول الآخر: نِعْمَ السَّيْرُ عَلَى بَيْسِ الْعَيْرِ^(٦). محكي قول محذوف، أي: ما هي بولد مقول في جنسه نِعْم، نِعْمَ الولد.

(١) في الأصل: «الذم». وهو سبق لسان.

(٢) انظر: شرح شذور الذهب ص ٢١، ضياء السالك (٤٠/١)، (٩١/٣).

(٣) البيت في شرح شذور الذهب ص ٢١.

(٤) انظر: ضياء السالك (١/ص ٤٠)، (٩١/٣).

(٥) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

(٦) المصدر السابق.

وقوله: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (المولى) فسرناه الآن، و (النصير): (فَعِيلٌ) بمعنى (فَاعِلٌ)، بمعنى الناصر، وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم، وتخليصه بالإعانة من الظلم، فالله (جل وعلا)، كأنه في هذه الآية بين الشاء على نفسه، الشاء الكامل الذي يستحقه في ولايته لأوليائه، ونصره لهم.

قال بعض العلماء: بين (المولى) و(النصير) عموم وخصوص من وجه، يجتمع (المولى) و(النصير) في بني عمك وعصبتك إذا كانت لهم قدرة على نصرتك، وإعانتك على عدوك، فإذا جاء دونك بنو عمك وعصبتك ومنعوك من أعدائك، اجتمع فيهم أن كل واحد منهم مولى، وأنه نصير، وينفرد (المولى) عن (النصير) في قرابتك وعصبتك إذا كانوا ضعفاء، لا يقدر على نصرتك، فالواحد منهم مولى وليس بنصير، إذ لا طاقة له على النصر، وينفرد (النصير) عن (المولى) بالأجنبي الذي ليس بينك وبينه سبب ولاية إذا نصرتك وأعانك ومنعك من عدوك، فهو نصير وليس بمولى. وهذا واضح.

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْفُصُؤَىٰ وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: الآيتان ٤١، ٤٢].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسُهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ أَلْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

(اعلموا) معناه: تيقنوا؛ لأن العلم إذا أطلق في القرآن معناه اليقين في

جميع القرآن، وقد جاء في حرف في سورة الممتحنة إطلاق العلم مراداً به الظن الغالب، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَكَلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنَّ عَلِمْتُهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] ﴿عَلِمْتُهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: الآية ١٠] أي: غلب على ظنكم، ظناً قوياً مزاحماً لليقين، ولا يكاد العلم في غير هذا الموضع يُطلق في القرآن إلا مراداً به اليقين الجازم، الذي لا يخالجه ظن ولا وهم ولا شك.

﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ (ما) موصولة، و (أن) مصدرية، أن الذي غنمتم من شيء، وصيغ الموصول قد تقرر في علم الأصول أنها من صيغ العموم^(١)؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته، و ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان للموصول، من شيء كائناً ما كان، إلا ما سنذكره مما أخرجه دليل مُخَصَّص.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ﴾ قراءة جماهير القراء، منهم السبعة: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ﴾ وفي بعض الروايات الضعيفة عن بعض السبعة: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ وقد رواه الجعفي عن أبي عمرو^(٢)، أما الرواية التي عليها جمهور القراء، وهي رواية السبعة الصحيحة عنهم: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ﴾ وهنا محذوف دل عليه المقام: فحقه أن لله خمسة، أو: فواجب حتم أن لله خمسة. والخُمس معروف، ﴿وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية الكريمة من سورة الأنفال قد تضمنت أحكاماً كثيرة من أحكام الجهاد، ومن أحكام الغنائم^(٣)، وقد يحتاج لها المسلمون؛ لأننا نرجو الله (جل وعلا) أن يرفع علم الجهاد، ويقوي كلمة لا إله إلا الله، وأن تخفق رايات المسلمين في أقطار الدنيا، فيحتاجون إلى تعلم ما تضمنته هذه الآية الكريمة من أحكام الجهاد، ولما كان القرآن العظيم هو مصدر جميع العلوم؛ لأنه الكتاب الذي حوى جميع العلوم، وكانت أصول جميع الأشياء كلها فيه، أردنا هنا أن

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: البحر (٤/٤٩٩).

(٣) انظر: هذه التفاصيل في الأضواء (٣٥١/٢).

نبين جُملاً من الأحكام التي أشارت إليها هذه الآية الكريمة، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ معناه: الذي غنمتم، وهي الغنائم التي يحوزها المسلمون من أموال الكفار إذا انتصروا عليهم فقهرتهم، وأموال الكفار على قسمين^(١):

قسم: ينتزعه المسلمون منهم بالقوة والغلبة.

وقسم: يصل إلى المسلمين من غير انتزاع بالقوة من أهله الكفار.

والاصطلاح المشهور عند الفقهاء أن بينهما فرقاً، أن الغنيمة هي ما ينتزعه المسلمون بالقوة من الكفار، أما ما ييسره الله للمسلمين بلا قتال فهو المُسمى بـ (الفيء) وحكهما مختلف على التحقيق الذي عليه جماهير العلماء ودل عليه القرآن؛ لأن الفيء هو المال الذي يناله المسلمون من الكفرة من غير أن ينتزعه بالقوة، ولا أن يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب، كأموال بني النضير، فإنهم نزلوا على حكم النبي ﷺ، ومكنه الله من أموالهم من غير أن تنتزع منهم بالقوة، وقد سمح لهم النبي ﷺ أن يحملوا على الإبل ما قدروا أن يحملوه، واستثنى السلاح كما ستأتي تفاصيله في سورة الحشر؛ لأنها كلها نزلت في قصة بني النضير، هذا هو الفيء، وهو المذكور في سورة الحشر، وقد نص الله في سورة الحشر على أن مصارفه هي مصارف خمس الغنيمة؛ لأنه قال هنا: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وقال هناك: ﴿وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ فبين بقوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] الفرق بين الفيء والغنيمة؛ لأنه ما لم تنتزعه بالقوة والسلاح من أهله، ولم تسرعوا في انتزاعه على الخيل والركاب التي هي الإبل. ثم قال مبيناً مصارفه وأنها هي مصارف الخمس: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: الآية ٧] مثل ما ذكر هنا في مصارف الخمس سواء بسواء، وشذ بعض العلماء فقال: إن الفيء والغنيمة

سواء. وهذا القول مشهور عن قتادة وطائفة من العلماء، وهو قول وإن كانت تساعد اللغة فالشرع والحقيقة الشرعية لا تساعد؛ لأن العرب تُطلق في لغتها الفيء على جميع ما يُغنم، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول مهلهل بن ربيعة التغلبي أخي كليب^(١):

فلا وأبي جلييلة ما أفأنا من النعم المؤبل من بعير
ولكننا نهكنا القوم ضرباً على الأتباع منهم والنحور
يعني: لم نشتغل بالغنائم، وإنما اشتغلنا بقتل الرجال.

وربما أطلق الفيء في القرآن مراداً به كل غنيمة، كقول قتادة، وذلك في قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] لأن المسبيات حكمها في هذا سواء، سواء كانت فيئاً أو غنيمة، إلا أن الاصطلاح المعروف هو التفرقة بين ما أُوجف عليه بالخيال والركاب، وبين ما أخذ عفواً من غير انتزاع بالقوة، كما قال هنا: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ فبين أنهم غنموه وانتزعه منهم قهراً، وقال في الآخر الذي هو الفيء: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِن خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] فكيف تستحقونه ولم تنتزعه بالقوة، ولم توجفوا عليه بالخيال ولا الإبل؟! والإيجاف: الإسراع كما هو معروف.

وهذه الآية الكريمة دلت على أن أربعة أخماس الغنيمة [أنه]^(٢) للمجاهدين الغانمين الذين غنموها؛ لأن قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسُهُمُ﴾ الآية يدل على أن المعنى: وأما الأخماس الأربعة فهي للغانمين المجاهدين، ويدل على ذلك إسناده غنيمته إليهم في قوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ﴾ وهذا هو

(١) البيتان من قصيدة يرثي فيها أخاه كليباً، ونص البيتين كما في ديوانه ص ٤١، وفي «شعراء النصرانية قبل الإسلام» ص ١٧٠ هكذا:

فلا وأبي أميمة ما أبوها من النعم المؤثل والجزور
ولكننا طعنا القوم طعنا على الأتباع منهم والنحور
والبيتان ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٣٥٣/٢) كما هنا.

(٢) في الأصل: «أنهم».

التحقيق، وعليه جماهير العلماء، أن أربع أخماس الغنيمة للمسلمين المجاهدين الذين غنموها، تُقسم بينهم بالسواء، وأن خمس الغنيمة هو يُصرف في هذه المصارف المذكورة وسنوضحها - إن شاء الله - واحداً واحداً. هذا هو المذهب الحق وعليه جماهير العلماء، وخالف في هذا قوم من العلماء - منهم طائفة من علماء المالكية وغيرهم^(١) - قالوا: إن الغنائم كلها والفيء شيء واحد، وأن التصرف فيه كله لرسول الله ﷺ يعطي الغانمين ما شاء ويمنعهم ما شاء. وهذا القول وإن قال به جماعة من المالكية وغيرهم من العلماء فهو خلاف التحقيق.

والذين قالوا هذا القول استدلوا بأدلة كلها مردودة مجاب عنها، قالوا: من أدلته أن الغنائم هي الأنفال، وقد تقدم في أول السورة قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] فصرح بأنها لله وللرسول ﷺ ولم يجعل للغانمين فيها حقاً مستقلاً إذا لم يشأ الرسول ﷺ أن يعطيهم. قالوا: ويتأيد هذا بأمر، منها: أن النبي ﷺ لم يقسم مكة حين افتتحها عنوة، وأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في غزوة حنين لما أخذ غنائم هوازن أعطى صفوان بن أمية ما ملأ بين جبليين من الغنم، وأعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عطايا كثيرة، ولم يعط الأنصار منها شيئاً، حتى غضب الأنصار وقالوا: يعطي الغنائم عنا لقريش وسيوفنا تظفر من دمائهم!! فعلم النبي ﷺ بما قالوا فأرسل من جمعهم وقال: «ألم أجدكم متعادين فألف الله بين قلوبكم بي؟!» قالوا: بلى. قال: «ألم أجدكم على شفا حفرة من النار فأنتذركم الله منها بي؟!» قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ. فلما عدد عليهم بعض النعم التي أنعم الله عليهم بسبب رسول ﷺ اعترفوا بذلك كله وسكتوا، قال لهم: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟!» قالوا: وكيف نجيب رسول الله ﷺ؟؟ قال: «قولوا: ألم يكذبك الناس فصدقناك؟ ألم يُعادك الناس فأويناك ونصرناك؟!» ثم قال: «يا معشر الأنصار ألا ترضون بأن يرجع الناس إلى بيوتهم بالشاة والبعير، وترجعون إلى بيوتكم برسول الله ﷺ؟؟» قالوا: رضينا

(١) انظر: المغني (٣٠٤/٩) القرطبي (٢/٨)، الأضواء (٣٥٤/٢).

برسول الله ﷺ قسمة. وطابت نفوسهم^(١). قال قائل هذا القول من المالكية وغيرهم من العلماء كقتادة: لو كانت الغنيمة مستحقة للغانمين ولم يكن للإمام أن يفعل فيها كيف يشاء، كيف يفضل النبي ﷺ المؤلف قلوبهم كالأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وصفوان بن أمية ويمنع الأنصار، والأنصار أحق؟! وكيف يفضل الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري على العباس بن مرداس السلمي وهو حسن الإسلام جداً؟! وقد غار منهم العباس بن مرداس حتى قال شعره المشهور، قاله أمام النبي ﷺ لما أعطى عيينة مئة، والأقرع مئة، وأعطى العباس بن مرداس قليلاً، قال: مخاطباً لرسول الله ﷺ^(٢):

أتجعل نهبي ونهب العبيد بين عيينة والأقرع
وما كان حصن ولا حابس يفوقان مرداس في مجمع
وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع اليوم لا يرفع
وقد كنت في الحرب ذا تذراً فلم أعط شيئاً ولم أمنع

(١) أصل هذا الخبر في البخاري، (من حديث عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه) كتاب المغازي، باب: غزوة الطائف في شوال سنة ثمان. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٤٧/٨) وأخرج بعضه برقم (٧٢٤٥). ومسلم في الزكاة، باب إعطاء المؤلف قلوبهم على الإسلام...، حديث رقم: (١٠٦١) (٧٣٨/٢). ومن حديث أنس عند مسلم في نفس الكتاب والباب، حديث رقم: (١٠٥٩) (٧٣٣/٢ - ٧٣٧). وأخرجه أحمد (٧٦/٣) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) جاءت هذه الآيات في روايات متعددة على تفاوت بينها في بعض الألفاظ مع زيادة في بعض الآيات، ففي صحيح مسلم (١٠٦٠) وغيره الاقتصار على الآيات الثلاثة الأولى، وبعضهم يزيد رابعاً، وأكثر ما وقفت عليه سبعة آيات وهي عند ابن هشام في السيرة، وفي سبل الهدى والرشاد (٣٩٩/٥) هكذا:

كأنت بهاباً تلاقينئها
وإنقاضي القوم أن يزفدوا
فأضبح نهبي ونهب العبيد
وقد كنت في الحرب ذا تذراً
وإلا أناسل أعطينئها
وما كان حصن ولا حابس
وما كنت دون امرئ منهما

بكرري على المنهر في الأجرع
إذا أهجع الناس لم أهجع
يد بين عيينة والأقرع
فلم أعط شيئاً ولم أمنع
عديد قوائمها الأزع
يفوقان مرداس في المجمع
ومن تضع اليوم لا يرفع

وإلا أباعيرَ أعطيتُها عديدَ قوائمِه الأربع
وكانت نهباً تلافيتُها بكري على المهرِ في الأجرِ
وإيقاظي القومَ أن يرقُدوا إذا هَجَعَ الناسُ لم أهَجِعِ

إلى آخر شعره. قالوا: لو كانت الغنيمة للغانمين لما فضل الأفرع وعيينة على العباس بن مرداس وهو أحسن منهما إسلاماً، ولما فضل المؤلفة قلوبهم على الأنصار وهم أحسن منهم إسلاماً. قالوا: فعطايا النبي هذه - ﷺ - كما أعطى من مئآت الإبل، وأعطى من الورق والرقيق، وأعطى صفوان بن أمية ما ملأ بين جبلين من الغنم، قالوا: هذا يدل على أن الغنيمة ليست استحقاقاً محضاً للغانمين، وإنما يفعل الإمام فيها ما يشاء، قالوا: وكذلك لما فتح مكة لم يغنم أموال أهل مكة، ولم يقسم دورها ولا أرضها [فلو كان قسُم الأخماس الأربعة على الجيش واجباً لفعله ﷺ لما فتح مكة. قالوا: وكذلك غنائم هوازن في غزوة حنين، أعطى منها عطايا ب/٤ عظيمة جداً للمؤلفة قلوبهم. وأجاب الجمهور عن كونه ﷺ] ^(١) أعطى المؤلفة قلوبهم، وأعطى عيينة مئة، والأفرع مئة، وصفوان ما ملأ بين جبلين غنماً ونحو ذلك من العطايا، أنه فعل ذلك بعدما استطاب نفوس الغانمين عنه، وأن الغانمين طابت له نفوسهم بذلك للمصلحة العامة، وهي تأليف قلوب الرجال الذين لهم شوكة عظيمة وأتباع كثيرون ليقوى بهم الإسلام، وقد فعل ذلك برضا الغانمين وطيب أنفسهم عن ذلك له ﷺ، أما عدا كونه لم يقسم دور مكة ورباعها فقد أجاب عنه الشافعي (رحمه الله) جواباً لكنه غير ناهض بالحقيقة والإنصاف ^(٢)؛ لأن الشافعي (رحمه الله) مع جلالته وعلمه يرى أن مكة المكرمة - حرسها الله - أنها فتحت صلحاً لا عنوة، ويظن أن قوله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٣٥٥/٢) وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: الأضواء (٣٥٦/٢).

آمن»^(١). يظن أنها نوع صلح أو شبه صلح، والتحقيق الذي لا شك فيه: أن مكة - حرسها الله - إنما فتحت عنوة وقهراً بالسيف لا صلحاً، وتأمين النبي ﷺ لبعض الناس لا يقتضي الصلح؛ لأن الصلح أمر عام. والدليل على أنها فتحت عنوة أمور كثيرة وأدلة واضحة لا لبس فيها^(٢)، منها: ما ثبت في صحيح مسلم وغيره من وقوع القتال فيها يوم فتح مكة؛ لأن النبي ﷺ جعل خالد بن الوليد يوم فتح مكة على المُجَنَّبَةِ اليمنى، وجعل الزبير بن العوام على المُجَنَّبَةِ اليسرى، وجعل أبا عبيدة على الحُسُر^(٣) وأخذوا بطن الوادي، ولم يتلقهم أحد إلا أناموه، فقتلوا من قريش قوماً كما هو معروف. وهذا ثابت في الصحيح وغيره، ورجز حماس بن قيس المشهور يدل على ذلك؛ لأن حماس بن قيس هذا رجل حليف لقريش، وكان يقول لزوجته: إنه يجعل لها أزواج رسول الله ﷺ خدماً، وكان يقول لها: إذا جئتك فإزاً فأغلقني الباب دوني، وكان يرتجز ويقول^(٤):

إِنْ يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عَلَيْهِ هَذَا سِلَاحٍ كَامِلٌ وَأَلَّهُ
وَدُو غَرَارَيْنِ سَرِيْعُ السَّلَّةِ

وكان يوم فتح مكة اجتمع مع الجماعة الذين جاءهم خالد بن الوليد، فرأى القتل وجاءها منهزماً، فقالت له: أين الذي كنت تقوله أنك تُخدمني نساءهم، وأني أغلق الباب دونك؟! فقال لها رجزه المشهور، وهو معروف عند علماء التاريخ وأصحاب المغازي^(٥):

- (١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب فتح مكة. حديث رقم: (١٧٨٠) (١٤٠٥/٣) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وأخرجه أبو داود في الخراج والإمارة، باب ما جاء في خبر مكة. حديث رقم: (٣٠٠٥، ٣٠٠٦) (٢٥٦/٨، ٢٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
- (٢) انظر: صحيح مسلم (١٤٠٥/٣)، زاد المعاد (٤٢٩/٣)، الأضواء (٣٥٦/٢، ٣٧٣).
- (٣) وهم الذين لا دروع لهم.
- (٤) الأبيات في ابن هشام ص ١٢٤٩، الأضواء (٣٧٥/٢).
- (٥) تقدمت هذه الأبيات، ونصها في ابن هشام (ص ١٢٥٠):

إذ فر صفوان وفر عكرمه	إنك لو شهدت يوم الخندمه
واستقبلتهم بالسيوف المسلمه	وأبو يزيد قائم كالمؤتمه
ضرباً فلا يُسمع إلا غمغمه	يقطعن كل ساعد وجمجمه
لم تنطقي في اللوم أدنى كلمه	لهم نهيئت خلفنا وهمهمه

إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرَمَةَ
وَاسْتَقْبَلْتُنَا بِالسِّيوفِ الْمُسْلِمَةِ لَهُمْ تَهِيَّتٌ خَلْفَنَا وَهَمْهَمَةٌ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمِهِ ضَرْباً فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهُ
لَمْ تَنْطَقِي بِاللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ

وهذه الأدلة وغيرها تدل على أن مكة فتحت عنوة لا صلحاً. ومن الأدلة على ذلك: ما ثبت في الصحيح أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) أمر بقتل مقيس بن صبابه، وابن خطل، وجاريتين معهما، ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة. ولو كانت مكة صلحاً لما أمر بقتل مقيس بن صبابه، وابن خطل، والجاريتين المذكورتين معهما^(١)، كما هو ثابت معروف، ومما يدل على أنها فتحت عنوة ما ثبت في الصحيح عن أم هانئ أنها أجازت رجلاً من أحمائها بني مخزوم؛ لأن زوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي أجازته، وجعلت له الأمان، فجاءه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ليقتله، فشكته إلى النبي ﷺ، فقال ﷺ: «أجرنا من أجزت يا أم هانئ»^(٢) فلو كانت مكة مفتوحة صلحاً لما أخذ علي السيف ليقتل المخزوميين الذين أجازتهما أخته أم هانئ (رضي الله عنها)، إلى غير ذلك من الأدلة.

ولكن التحقيق أن الأرض المغنومة لها حكم خاص سنينه الآن؛ لأن الغنيمة أقسام^(٣)، منها: ما هو كالذهب والفضة والحيوان، وهذا لا خلاف

(١) البيهقي في الدلائل (٥٩/٥)، وابن سعد في الطبقات (٩٨/١/٢). وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٢٥١، وابن القيم في الزاد (٤١١/٣)، وابن كثير في تاريخه (٢٩٧/٤) - (٢٩٩) وأخرج الشيخان من حديث أنس (رضي الله عنه): «أن رسول الله ﷺ دخل عام الفتح وعلى رأسه المغفر، فلما نزع جاء رجل فقال: إن ابن خطل متعلق بأستار الكعبة. فقال: «اقتلوه». البخاري في جزاء الصيد، باب دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٨٤٦)، (٥٩/٤) وأطرافه: (٣٠٤٤، ٤٢٨٦، ٥٨٠٨). ومسلم في الحج، باب جواز دخول مكة بغير إحرام. حديث رقم: (١٣٥٧) (٩٨٩/٢).

(٢) البخاري في الصلاة، باب الصلاة في الثوب الواحد ملتصقاً به. حديث رقم: (٣٥٧) (٤٦٩/١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى... حديث رقم: (٣٣٦) (٤٩٨/١).

(٣) انظر: القرطبي (٤/٨)، الأضواء (٣٦٧/٢).

عند من يُعْتَدُّ به من العلماء أنه يُقَسَم ويُخَمَّس، أما أرض العدو التي فتحها المسلمون فللعلماء فيها أقوال^(١): فبعض العلماء يقول: عندما يستولي عليها المؤمنون تصير وقفاً عاماً للمسلمين. وهذا مذهب مالك (رحمه الله) وجماعة من العلماء.

وبعض العلماء يقول: يجب قسم الأرض المغنومة كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر وأرض بني قريظة.

وجماعة من العلماء قالوا: الإمام مخير في ذلك، إن رأى المصلحة في قَسَمِهَا قَسَمَهَا، وإن رأى المصلحة في إبقائها وقفاً للمسلمين تركها وقفاً للمسلمين، فإذا اقتضى نظر الإمام أن يقسمها قسمها وكانت مملوكة للغانمين، وكانت أرض عشورٍ لا أرض خراج، وإن رأى الإمام أن يتركها لعامة المسلمين خزانة لهم - كما هو رأي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) - تركها وقفاً للمسلمين، وكانت أرض خراج لا أرض عشور، يؤخذ الخراج ممن هو يستغلها ويكون لعموم المسلمين. وهذا المذهب بالتخيير هو الحق - إن شاء الله - والنبي ﷺ اختار أن يقسم أرض قريظة وأرض خيبر، واختار أن يترك قسمة دور مكة. وقد فهم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) من فعل النبي ﷺ أن الأرض التي غنمها المسلمون واحتلوا بلادها بالقوة أن الإمام مخير فيها، فَهَمَّ ذلك من فعل النبي ﷺ؛ ولذا ثبت عنه في الصحيح أنه قال: لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها على الغانمين كما قسم رسول الله ﷺ أرض خيبر^(٢). وعمر لم يفعل هذا الصنيع متهجماً على كتاب الله في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ الآية [الأنفال: الآية ٤١]. وإنما فهم من فعل رسول الله ﷺ التخيير في ذلك، وكلامه صريح في أنه يعتقد أنه مخير؛ لأنه قال: - «لولا آخر المسلمين لما فتحت علي قرية إلا قسمتها كما قسم النبي ﷺ أرض خيبر» وهذا فيه مصلحة عظيمة؛ لأن الغانمين لو قسموا الأرض عندما غنموها فإن آخر المسلمين يكونون لا غلة

(١) القرطبي (٢٢/١٨ - ٢٣)، الأضواء (٣٦٧/٢).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة. حديث رقم: (٣١٢٥) (٢٢٤/٦).

لهم، ويكون الإسلام وجيوش الإسلام والأموال التي يحتاج بها لحماية بيضة الإسلام وقمع الكفار وإقامة الجهاد يكون ذلك لا يوجد له شيء، فوجود تلك الأرضين الكثيرة لها خراج كثير عظيم يستعين به المسلمون على شراء السلاح، وتهيئة الجيوش، وتعبئة الرجال للقتال في سبيل الله (جل وعلا)، أن هذا هو المصلحة؛ ولأجل تخيير الإمام لم يقسم النبي ﷺ مكة، وقد ثبت أن النبي ﷺ قسم بعض خيبر ولم يقسم بعضها، قال بعض العلماء: البعض من خيبر الذي لم يقسمه رسول الله ﷺ إنما ترك قسمه لهذا الاختيار؛ لأنه مخير في القسم والإبقاء. والصحيح أن الذي لم يقسمه من أرض خيبر كان فيئاً؛ لأن بعض البساتين وبعض الأطراف من خيبر كانوا لم يفتحوا ولم يؤخذوا عنوة ولم يُوجف عليهم بالخييل والركاب، فلما أخذت قريظة نزلوا على حكم النبي ﷺ من غير أن يؤخذوا بالقهر فكان فيئاً، وسمع بهم أهل فدك ففعلوا كذلك، فكانت فدك فيئاً للنبي ﷺ، هي وذلك البعض من قريظة. ومعلوم أن فدك وبعض قريظة كانا من الفيء الخالص لرسول الله ﷺ، وقد طلبته فاطمة (رضي الله عنها) أن يقطعها فدك فأبى، وأقطعها أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمروان بن الحكم ظناً منه (رضي الله عنه وأرضاه) أن ما كان للنبي ﷺ ينتقل الحق فيه لولي أمر المسلمين بعده، وأن ذلك انتقل إليه، وأنه غني عنه بأمواله فوصل به بعض قُربائه، وهو ابن عمه مروان بن الحكم رضي الله عن عثمان وأرضاه وعن جميع أصحاب النبي ﷺ^(١).

وحاصل هذا أن التحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الأموال المغنومة التي انتزعها المسلمون من الكفار أنها نوعان: الأرض، وغير الأرض. أما الأرض فلا يتعين قسمها بينهم، والإمام مخير فيها، فإن رأى مصلحة المسلمين في قسمها قسمها، وإن رأى مصلحة المسلمين في إبقائها وقفاً عليهم أبقاها وقفاً ينتفع بها آخر المسلمين. قال بعض العلماء: والقرآن يشير لهذا؛ لأنه لو لم يكن يبقى لآخر المسلمين شيئاً لما قال الله في

(١) انظر: الأضواء (٤١٢/٢).

المستحقين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ [الحشر: الآية ١٠] لأنه قال أولاً: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا﴾ [الحشر: الآيات ٨ - ١٠] وقال بعض العلماء: لا دليل للغنيمة في آية الحشر هذه؛ لأنها في الفبيء، قد أفتى مالك بن أنس (رحمه الله) أن الذين يسبون أصحاب رسول الله ﷺ أنهم لا حق لهم في فبيء المسلمين، ولما نُوقِش في ذلك قال: «هؤلاء الذين سَبُّوا أصحاب رسول الله ﷺ لا حق لهم في فبيء المسلمين؛ لأن الله لما ذكر الذين يعطون فيء المسلمين من الأصناف قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ هؤلاء من الفقراء المهاجرين الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟» قالوا: لا. قال: «أهم من الذين قيل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾» قالوا: لا. قال: «وأنا أشهد أنهم ليسوا من الصنف الثالث الذين قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل هؤلاء جاؤوا يسبونهم ويعيبونهم فليسوا منهم قطعاً، فبين أنهم لا حق لهم»^(١).

وعلى كل حال فجميع المال المغنوم يقسم بين الغانمين، والأرض فيها للعلماء ثلاثة مذاهب معروفة كل واحد منها لصاحبه عليه أدلة^(٢):

أحدها: أنها تكون غنيمة وتقسّم، وهو مذهب الإمام الشافعي، واستدل بعموم قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يرى أن أرض الكفار عندما

(١) استنباط مالك (رحمه الله) ذكره القرطبي في التفسير (٣٢/١٨) ونصه: «من كان يُغْنِضُ أحداً من أصحاب محمد ﷺ، أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فبيء المسلمين، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ...﴾». وهو في ابن كثير (٣٣٩/٤).

أما المحاوراة التي أوردها الشيخ (رحمه الله) فقد أورد نحوها السيوطي في الدر (١٩٨/٦) عن ابن عمر (وليس في موضوع الفبيء). وأورد القرطبي (٣٢/١٨) نحوها عن علي بن الحسين كذلك (وليس في موضوع الفبيء).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

يفتحها المسلمون تصير بمجرد استيلاء المسلمين عليها وفقاً للمسلمين
آخراً يستون فيها جميعاً لمصلحة الإسلام العامة، وللإعانة على تعبئة
الجيوش، والرد عن بيضة الإسلام، والدفاع عن المؤمنين في المستقبل.
وقوم قالوا: يخير الإمام إن رأى قسماً مصالحة قسماً. وهذا مذهب
الإمام أحمد، ويروى عن أبي حنيفة نحوه والله تعالى أعلم. وهذا القول
بالتخيير هو أقواها دليلاً؛ لأنه تنتظم به الأقوال، وتجتمع به النصوص،
والجمع واجب إذا أمكن. أما الأخماس الأربعة من الأرض المقسومة إذا
اقتضى نظر الإمام أن يقسمها أو من غير الأرض كالذهب والفضة والخيول
والإبل ونحو ذلك، أما هذه الأخماس الأربعة فهي للغانمين تقسم بينهم.
واختلف العلماء: هل يجوز للإمام أن ينفل من هذه الأخماس الأربعة
شيئاً؟^(١) فكان مالك بن أنس رحمه الله - إمام دار الهجرة - يرى أن الإمام
لا يجوز له أن ينفل شيئاً من هذه الأخماس الأربعة، وإنما ينفل من الخمس
الذي قال الله فيه أنه لله وللرسول ولذي القربى إلى آخر مصارفه.
وذهبت جماعة من العلماء إلى أن للإمام التنفيل منه. وكون الإمام له التنفيل
منه هو الحق - إن شاء الله - الذي قامت عليه النصوص الذي لا تكاد تدفع.

وتنفيل الإمام من الأخماس الأربعة التي هي للمجاهدين يكون
على أنواع، منها: أن ينفل السرايا ويقول للسرية: أخرجني إلى أرض
الكفار فما غنمت فقد نفلتك منه كذا، وقد جاء حديث ثابت عن
النبي ﷺ أنه نفل السرايا في البدء الربع، وفي العودة الثلث. هذا
حديث ثابت رواه مكحول^(٢) عن حبيب بن مسلمة^(٣)، وهو صحابي،

(١) السابق (٣٥٧/٢).

(٢) الحديث من رواية مكحول عن زياد بن جارية عن حبيب بن مسلمة.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩/٤، ١٦٠)، والدارمي (مع شيء من المغايرة في اللفظ والمعنى)
(١٤٧/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٨٩، والحميدي (٣٨٤/٢)، وأبو داود في
الجهاد، باب: فيمن قال: الخمس قبل النفل. حديث رقم (٢٧٣٣) (٤٢٤/٢)، وابن
ماجه في الجهاد، باب: النفل. حديث رقم (٢٨٥٢) (٩٥١/٢)، وابن حبان الإحسان
(١٦١/٧)، والحاكم (١٣٣/٢)، (٤٣٢، ٣٤٧/٣)، وابن الجارود (٣٣٤/٣). وانظر:
صحيح أبي داود (٥٢٥/٢)، صحيح ابن ماجه (١٣٩/٢).

لا تابعي صغير^(١)، ورواه بعضهم عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه^(٢) - وهو ثابت، ومعنى تنفيل الربع في البداية وتنفيل الثلث في العودة: أن للإمام إذا كان المسلمون متوجهين إلى أرض الكفار أن يقول للسرية: اذهبوا إلى الكفار فما غنمتم منهم فقد نفلتكم ربه. ولا ينفلهم أكثر من الربع، فيكون الربع خالصاً لهم، والباقي هم والمسلمون فيه سواء. وأما تنفيل الثلث في العودة: أن المسلمين إذا رجعوا من أرض الكفار - رجعوا من الغزو إلى بلادهم - فيجوز للإمام أن ينفل بعض السرايا في ذلك الوقت الثلث. والفرق بين البداية والعودة: أن البداية الكفار في غفلة، والمسلمون متوجهون لبلادهم فخيرهم أهون، وأما في الرجعة فالكفار في حذر ويقظة والمسلمون منصرفون عن بلادهم، فقضيتهم أصعب؛ ولذا نفل أكثر في الحالة الصعبة من الحالة التي هي أقل صعوبة^(٣). هذا ثابت ولا ينبغي أن يُختلف فيه، وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله^(٤).

وهذا الذي ذكرنا يدل على أن الجيوش إذا خرجت للقتال في بلاد الكفر، وذهبت سرية وغنمت شيئاً، أن الجيش كله شركاء لهم في ذلك الذي غنموه، ولا يختص به دونهم، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء؛ لأن العلماء مجمعون على أن جميع الجيش معهم فيما غنموا إلا ما نفلهم الإمام من ربيع في البداية أو ثلث في العودة.

ومن أنواع التنفيل الجائزة للإمام الثابتة عن النبي ﷺ: أن يرسل الإمام سرية ثم - مثلاً - يعطيهم أنصباؤهم من الغنيمة وينفلهم ما شاء، فقد ثبت

(١) انظر: الإصابة (٣٠٩/١) الأضواء (٣٨٥/٢).

(٢) أخرجه الدارمي (١٤٧/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٢٩٠، والترمذي في السير، باب ما جاء في النفل. حديث رقم: (١٥٦١) (١٣٠/٤). وقال: «وفي الباب عن ابن عباس، وحبيب بن مسلمة، ومعن بن يزيد، وابن عمر، وسلمة بن الأكوع. وحديث عبادة حديث حسن» ١. هـ وانظر: ضعيف الترمذي ص ١٨٤.

(٣) انظر: الأضواء (٣٨٦/٢).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١١/١١)، مسائل ابن هانئ (١٠٥/٢)، المغني (٥٣/١٣).

في الصحيحين عن ابن عمر (رضي الله عنه) أنه أرسله النبي ﷺ مع سرية قبل نجد، فغنموا، وكانت سهمانهم اثني عشر بغيراً، اثني عشر بغيراً، ونُقلوا بغيراً بغيراً^(١)، ففعلهم نصف السدس؛ لأن الواحد من الاثني عشر نصف سدسها. وهذا ثابت عن النبي ﷺ.

ومن أنواع التنفيل التي تجوز للإمام: أن ينفل بعض الجيش المقاتلين، ويعطيه شيئاً خاصاً لقوته وشدته على المشركين^(٢)، وقد قدمنا حديث سعد بن أبي وقاص الدال على هذا في أول سورة الأنفال؛ لأن سعد بن أبي وقاص قُتل أخوه عمير بن أبي وقاص يوم بدر، قتله عمرو بن عبد ود العامري، ثم إن سعداً (رضي الله عنه) حمل [على]^(٣) المشركين، وقتل العاص بن هشام^(٤)، وأخذ سيفه، وكان من أجود السيوف، فطلب النبي ﷺ أن ينقله إياه. وفي بعض روايات حديثه الثابتة أنه قال: ربما أعطاه النبي ﷺ لرجل لم يُبل بلأني. والنبي ﷺ منعه أولاً ثم أعطاه إياه آخراً، وقد ثبت في صحيح مسلم والبخاري أن أصحاب النبي ﷺ كانوا يأكلون جالسين في بعض مغازيهم، حتى جاءهم أعرابي على بغير، فقيده بغيره وجلس يأكل معهم، ونظر إليهم حتى اطلع على علاقتهم وعوراتهم، وهو جاسوس للعدو من المشركين، ثم ذهب يشتد، فجلس على بغيره وأثاره، فسار بغيره سيراً حثيثاً، فكاد أن يفوت الصحابة، فجرى عليه رجل بناقة فلم تدركه، فجرى عليه سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) وكان من السابقين على أرجلهم، وقد ضرب له النبي ﷺ سهمين في غزوة (ذي قرد) كما هو معروف، فذهب سلمة يشتد في أثره حتى جاوز الناقة، ثم كان عند ورك البعير، ثم تقدم فأخذ بخطامه وأناخه، واخترط سيفه وضرب الأعرابي على الرأس فقتله،

(١) البخاري في فرض الخمس، باب: ومن الدليل على أن الخمس لنواب المسلمين.

حديث رقم: (٣١٣٤) (٢٣٧/٦). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٤٣٣٨).

ومسلم في الجهاد والسير، باب الأنفال. حديث رقم: (١٧٤٩) (١٣٦٨/٣).

(٢) انظر: الأضواء (٣٨٦/٢).

(٣) ما بين المعقوفين [زيادة يقتضيها السياق.

(٤) مضى عند تفسير الآية الأولى من هذه السورة، وراجع التعليق عليه في الحاشية هناك.

فقال النبي ﷺ: «من قتل الرجل؟» قالوا: سلمة بن الأكوع. قال: «له سلبه أجمع»^(١). فنقله إياه لأنه أدركه وهو في غاية الخفة والسرعة، أدركه على رجله فنقله سلبه.

ومن أنواع التنفيل الجائزة^(٢): قول النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً له عليه بيعة فله سلبه»^(٣). وهذا قاله النبي ﷺ فثبت عنه في الصحيح يوم حنين. وذكر بعض العلماء أنه قاله يوم بدر أيضاً.

وكان مالك بن أنس (رحمه الله) يقول: ليس للإمام أن يقول هذا إلا بعد أن تنتهي المعركة، أما قبل انتهاء المعركة فلا يجوز للإمام أن يقول هذا؛ لأنه إن قال هذا قبل انتهاء المعركة أفسد نيات المجاهدين؛ لأن المجاهد يكون يقاتل الرجل ليأخذ سلبه فيكون يقاتل للدنيا لا لإعلاء كلمة الله، أما بعد أن تنتهي المعركة ويزول هذا المحذور فلا بأس أن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله سلبه. لأنه في ذلك الوقت لا محذور فيه من إفساد النية^(٤). وجماهير العلماء على أنه لا مانع من أن يقول ذلك ابتداءً؛ لأن المسلمين وإن كان لهم رغبة في الغنيمة فكل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله كما قاله ﷺ. وقد قال النبي ﷺ يوم حنين: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٥). والذي قتل هذا القتيل يكون له سلبه.

واختلف العلماء: هل يكون له سلبه دون تنفيذ الإمام، أو لا يملك السلب إلا إذا نفذ له الإمام^(٦)؟ قولان معروفان بين العلماء، يستدل قائل كل من القولين عليه بأدلة كثيرة، وقد كان أبو قتادة (رضي الله عنه) يوم حنين

(١) مسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٤) (٣/١٣٧٤).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٣٨٧).

(٣) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...» حديث رقم: (٣١٤٢)

(٤/٢٤٧). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل. حديث رقم:

(١٧٥١) (٣/١٣٧٠).

(٥) انظر: المدونة (٢/٣١)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٥.

(٦) تقدم تخريجه قريباً.

(٦) انظر: القرطبي (٥/٨)، المغني (٧٠/١٣)، الأضواء (٢/٣٩٠).

رأى رجلاً من المشركين يريد أن يقتل رجلاً من المسلمين فجاءه من خلفه فضربه على جبل عاتقه بالسيف، قال: فرجع إلي فضممني ضمة شممت منها ربح الموت ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم لما جلس النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وقال: «من قتل قتيلاً فله سلبه». قلت: من يشهد لي - بعد مرات - فقال رجل: صدق يا رسول الله سلبه عندي، أرضه منه. وقال له أبو بكر (رضي الله عنه): لا هالله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله ويعطيك سلبه. فقال النبي ﷺ: «صدق، أعطه سلبه» قال أبو قتادة (رضي الله عنه): فاشتريت به مخرفاً - يعني حائطاً يُخرف منه الثمار - وكان أول مال تأثله في الإسلام^(١). هكذا قال أبو قتادة رضي الله عنه.

واعلموا أن بعض العلماء قال: إن النبي ﷺ إذا قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه». هل يملك القاتل سلب القتيل بمجرد قتله، أو لا بد أن ينفذه له الإمام؟ فقال بعض العلماء: يملكه؛ لأن ذلك هو مقتضى كلامه ﷺ.

وقال بعض العلماء: لا يملكه إلا بتنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بأدلة منها: ما ثبت أن أبا جهل - لعنه الله - يوم بدر ابتدره معاذ بن عمرو بن الجموح ومعاذ بن عفراء (رضي الله عنهما) فأطارا قدمه بنصف ساقه، ثم جاء النبي ﷺ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: «هل مسحتما سيفكما؟» قالا: لا. فنظر في السيفين وقال: «كلاكما قتله»^(٢). وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح. قالوا: لو لم يتوقف هذا على تنفيذ الإمام لكان معاذ بن عفراء شريكاً لمعاذ بن الجموح؛ لأن النبي ﷺ صرح بأنهما قتلاه، في أدلة أخرى غير هذا.

(١) البخاري في فرض الخمس، باب من لم يخمس الأسلاب. حديث رقم: (٣١٤٢) (٢٤٧/٦)، ومسلم في الجهاد، باب استحقات القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥١) (١٣٧٠/٣).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب «من لم يخمس الأسلاب...». حديث رقم: (١٣٤١) (٢٤٦/٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين (٣٩٦٤، ٣٩٨٨). ومسلم في الجهاد والسير، باب استحقات القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٢) (١٣٧٠/٣ - ١٣٧٢).

قال علماء الأصول: منشأ هذا الخلاف: خلاف العلماء في قول النبي ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» هل يملكه دون تنفيذ الإمام أو لا بد من تنفيذ الإمام؟ منشأ الخلاف: هل قوله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» حكماً منه، أو فتوى^(١)؟ فعلى أنه حكم يختص بمن قيل له ولا يعم، وعلى أنه فتوى يعم. وذكروا عن أبي طلحة (رضي الله عنه) أنه في يوم حنين قتل عشرين رجلاً. وفي بعض الروايات: واحداً وعشرين رجلاً، وأخذ أسلابهم كلهم^(٢). وكان يقول في يوم حنين^(٣):

أنا أبو طلحة واسمي زيد وكمل يوم في سلاحي صيد
رضي الله عنه وأرضاه.

قال بعض العلماء: من قتل قتيلاً له سلبه مطلقاً.

وقال بعضهم: لا يكون له سلبه إلا بتنفيذ الإمام. وتوسط قوم فقالوا مذهباً ثالثاً، قالوا: إن كان السلب قليلاً استحقه دون تنفيذ الإمام، وإن كان كثيراً توقف على تنفيذ الإمام. واستدلوا لهذا بما جاء في رواية صحيحة في السنن وغيرها أن مددياً من حمير كان مع خالد بن الوليد يقاتل يوم مؤتة، وإذا رجل عظيم من الروم يقتل المسلمين، فجلس له المددي الحميري وراء صخرة حتى مضى عليه فعقر به فرسه وعلاه بالسيف فقتله وأخذ سلاحه. وكان سلاحه كله مذهباً، وكان ثميناً جداً، فلما جاء خالد بن الوليد (رضي الله عنه) أرسل إليه وأخذه منه، وسمعها عوف بن مالك (رضي الله عنه) فقال لخالد: لأعرفنكها عند رسول الله ﷺ ثم لما جاء قص الخبر على رسول الله ﷺ، فقال: «مَا لَكَ لَا تَعْطِيهِ سَلْبِهِ؟ أَعْطَاهُ سَلْبِهِ». ثم لما قال ذلك قال له عوف بن مالك: يا خالد أما قلت لك إني مُعَرَّفَكُهَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ؟ فَسَمِعَهَا ﷺ فَأَغْضَبْتَهُ وَقَالَ: «لَا تَتْرَكُون لِي أَصْحَابِي؟ لَا تَعْطَاهُ يَا

(١) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٦-١١٩، الأضواء (٢/٣٩٣).

(٢) أحمد (٣/١١٤، ١٢٣، ١٩٠، ٢٧٩)، الدارمي (٢/١٤٧)، أبو داود، كتاب الجهاد، باب في السلب يُعطى القاتل. حديث رقم: (٢٧٠١) (٣٨٨/٧).

(٣) البيت في الاستيعاب لابن عبد البر (٤/١١٣)، تاريخ دمشق (١٩/٣٩٧)، الإصابة (٤/١١٣).

خالد، لا تعطه يا خالد»^(١). قالوا: هذا يدل على أنه إن كان كثيراً لا يعطي؛ لأنه لما سأل خالداً قال: «لِمَ لا تعطيه؟» قال: استكثرته يا رسول الله؛ لأنه مالٌ كثيرٌ جداً؛ لأن سلاح الرجل فيه ذهب كثير وسلاحه كله مذهب.

واختلف العلماء في حقيقة السلاح^(٢)، قال بعض العلماء: هو يقتصر على ما يأخذه للأمة الحرب، كالسيف والدرع والرمح ونحو ذلك. والثياب تدخل فيه إجماعاً.

أما إذا وُجد في هميائه أي: في مُنطَقَتِهِ التي يُشدّ بها وسطه إذا وجدت فيها دنائير، أو دراهم، أو جواهر، فإنها ليست من سلبه إجماعاً. واختلفوا في فرسه الذي يقاتل عليه هل هو من سلبه أو لا؟ فقال جماعة: هو من سلبه يستحقه القاتل. وقال قوم: لا. كما هو خلاف معروف بينهم.

واعلموا أن التحقيق أن الرجل الذي يقاتل على فرس أن له في الغنيمة ثلاثة أسهم: سهمان لفرسه وسهم للرجل، هذا هو التحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - وعليه جماهير العلماء، منهم الأئمة الثلاثة^(٣)، وهو ثابت في الصحيح ثبوتاً لا مطعن فيه. وخالف في هذا الجمهور الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) وقال: إن له سهمين فقط: سهم للفرس، وسهم لصاحبه، والتحقيق أن له ثلاثة أسهم: سهمين للفرس، وسهم للراكب. وقد استدل الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) بظاهر حديث جاء في ذلك، إلا أن غيره أصح منه وأصرح دلالة في محل النزاع.

واختلف العلماء في البراذين والهجن هل يقسم لها كما يقسم للخيل

(١) مسلم، كتاب الجهاد، باب استحقات القاتل سلب القتيل. حديث رقم: (١٧٥٣). (١٣٧٣/٣).

(٢) انظر: القرطبي (٩/٨)، المغني (٧٢/١٣)، الأضواء (٣٩٧/٢).

(٣) انظر: القرطبي (١٤/٨ - ١٥)، المغني (٨٥/١٣)، الأضواء (٣٩٩/٢).

العِرَاب، أو لا يقسم لها^(١)؟ فسئل عن هذا مالك بن أنس (رحمه الله) فقال: ما أرى أن الهجن والبراذين إلا هي من الخيل؛ لأن الله قال: ﴿وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: الآية ٨] أترون أن الهجن من البغال؟ قالوا: لا. أترون أنها من الحمير؟ قالوا: لا. قال: هي من الخيل، فتناولها النصوص الواردة في الخيل^(٢).

وقال بعض العلماء في الهجين: والهجين: هو ما أحد أبويه من الخيل رديء من البراذين أبوه أو أمه، فإذا كانت أمه من العِرَاب الحرائر وأبوه ليس كذلك فهو المعروف بالمُقْرِف^(٣)، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير^(٤):

وما هند إلا مُهْرَةٌ عربيةٌ سليلَةٌ أفراسٍ تجلّلها بغُلُ
فإن ولدت مُهْرًا كريماً فبالْحَرَى وإن يك إقرافٌ فما أنجَبَ الفحلُ
فالمقرف: هو الذي أمه من الخيل العِرَاب الجياد وأبوه ليس كذلك، ومن هذا المعنى قول جرير^(٥):

إِذَا آبَاؤُنَا وَأَبُوكَ عُذُّوا أَبَانَ الْمُقْرِفَاتِ مِنَ الْعِرَابِ
فالحاصل أن الهجن والبراذين قال بعض العلماء: يقسم لها كما يقسم للخيل الجياد العِرَاب. وقال بعض العلماء: يقسم لها سهم واحد، نصف ما يقسم للخيل العراب الجياد. وقال بعض العلماء: إن كان لها غَنَاء يقرب من غَنَاء الخيل الجياد قُسِمَ لها مثل قَسْمِهَا وإلا فنصف قَسْمِهَا. وشدّ بعض

(١) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٦٠ - ١٦٣)، القرطبي (٨/١٦٦)، المغني (١٣/٨٦)، الأضواء (٢/٤٠١).

(٢) المدونة (٢/٣٢)، الكافي لابن عبد البر ص ٢١٤.

(٣) انظر: المغني (١٣/٨٧)، الهجئة تكون من قبَل الأم، والإقراف من قبَل الأب. كما في أدب الكاتب ص ٤١، المصباح المنير (مادة: هجن) ص ٢٤٣، فتح الباري (٦/٦٧).

(٤) البيتان في المغني (١٣/٨٧)، أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٤١، الاقتضاب شرح أدب الكتاب للبطلبوسى (١/١٦٥)، (٢/٤٣٩)، الأضواء (٢/٤٠٣). ولفظ البيت الثاني:

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

العلماء فقال: لا يُقسَم لها شيء؛ لأنه حيوان لا يقوم مقام الخيل فأشبهه الحمير والبغال. وقد كان رجل من حمير من بني وادعة من بطون حَمِير أميراً على جيش فسبق الخيل الجياد وتأخر البراذين والهجن فقبل له: أقسم للبراذين والهجن فلم يعطها إلا نصف ما أعطى للخيل الجياد وقال: لا يمكنني أبداً أن نجعل ما لم يدرك كالذي يدرك. فسمعها عمر بن الخطاب فاستحسنها جداً، وقال: هبلت الوادعي أمه، لقد ذكَّرنها^(١). وكان الشاعر الحميري يفتخر بمقالة الوادعي الحميري هذه فيقول^(٢):

ومثا الذي قد سنّ في الخيل سنّة وكانت سواء قبل ذاك سهامها

أما إذا كانت عنده خيول كثيرة^(٣) فبعض العلماء يقول: لا يأخذ إلا نصيب فرس واحد. وهذا به قال جماعة من العلماء؛ لأنه لا يركب إلا على واحد. وقال جماعة من العلماء: يعطى خمسة أسهم، نصيب فرسين فقط، أما الفرسان فلهما أربعة أسهم، والسهم الخامس له، ولا يزداد على ذلك^(٤). ولا خلاف بين العلماء أنه لا يعطى أكثر من نصيب فرسين ألبتة، ولو كان عنده خيل كثيرة. ومن قال: يعطى نصيب فرسين قال: لأنه قد يحتاج إلى فرسين ولا يحتاج إلى الثالث غالباً؛ لأن الفرس إذا طال ركوبه قد يضعفه ذلك عن الكرّ والفر، فيكون عنده فرس آخر جنيب فيه قوة ونشاط يزاول به في الميدان؛ ولذا قال بعض العلماء: يعطى نصيب فرسين ولا يزداد عليهما، ولم يقل أحد: إنه يعطى أكثر من نصيب فرسين.

فإن كان مقاتلاً على بعير^(٥) فقال بعض العلماء: ليس للإبل نصيب ألبتة^(٦). وعليه جماهير العلماء. وذهب بعض العلماء إلى أن البعير إذا لم

(١) سنن سعيد بن منصور (٢/٢٨٠)، والشافعي في الأم (٧/٣٣٧)، والبيهقي (٦/٣٢٨)، وذكره الحافظ في الفتح (٦/٦٧).

(٢) البيت في فتح الباري (٦/٦٧)، الأضواء (٢/٤٠٢).

(٣) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ - ١٥٩)، الأضواء (٢/٤٠٠).

(٤) انظر: الأوسط لابن المنذر (١١/١٥٧ - ١٥٩)، القرطبي (٨/١٥ - ١٦)، المغني (١٣/٨٩).

(٥) انظر: الأضواء (٢/٤٠٣).

(٦) وحكى عليه ابن المنذر الإجماع، كما في الأوسط (١١/١٦٢).

يجد غيره كان له نصيب نصف نصيب سهم الفرس، وهذا رواية عن الإمام أحمد^(١)، ومن قال به قليل، واستدل قائل هذا القول بأن الله لما ذكر الموجب الذي استحقوا به الغنيمة ذكر منه الرُّكَّاب مع الخيل، والرُّكَّاب: هي الإبل، قال: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَّابٍ﴾ [الحشر: الآية ٦] وله وجه من النظر، إلا أن جماهير العلماء أن الإبل لا يقسم لها، وقد كان عندهم يوم بدر سبعون بعيراً فلم يقسموا لها، ولم تخل غزواته من الإبل، ولم يقل أحد إنه ﷺ قسم لبعير شيئاً.

أما إذا كان يقاتل على الفيلة^(٢) كما كانت الأعاجم تقاتل فلم يختلف اثنان من العلماء أن الفيل لا يقسم له شيء إذا قاتل عليه صاحبه. قالوا: ليس كالبعير؛ لأن البعير حيوان يُسَابِقُ عليه ويجوز المسابقة عليه بالسبق، وهو إعطاء العوض لمن غلب، كما في حديث: «لا سبق إلا في خفٍ أو نصلٍ أو حافرٍ»^(٣). أما الفيل فلم يقل أحد من العلماء: إنه يستحق نصيباً إذا قوتل عليه، أما كونه يسابق عليه فقد قاله بعض العلماء، وهو مبني، على الخلاف في قاعدة أصولية معروفة، وهي: هل إذا جاءت عن الله (جل وعلا) أو عن رسوله ﷺ نصوص عامة هل تدخل فيها الصور النادرة أو لا تدخل^(٤)؟ قال بعض العلماء: تدخل الصور النادرة. وقال بعض العلماء: لا تدخل الصور النادرة. وهذه القاعدة الأصولية تحتها فروع اختلف فيها العلماء، من هذه الفروع: من خرج منه المنى بغير لذة، كالذي ينزل في ماء حار فينزل منه المنى، أو تلدغه عقرب في ذكره فينزل منه المنى، أو تهزه دابة فينزل منه

(١) انظر: المغني (٨٩/١٣).

(٢) انظر: الأضواء (٤٠٤/٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢/٢٥٦، ٣٥٨، ٣٨٥، ٤٢٥، ٤٧٤) وأبو داود في الجهاد، باب في السبق. حديث رقم: (٢٥٥٧) (٢/٢٤١)، والترمذي في الجهاد، باب ما جاء في الرهان والسبق. حديث رقم (١٧٠٠) (٤/٢٠٥)، والنسائي في الكبرى، كتاب الخيل، باب السبق. حديث رقم: (٤٤٢٦) (٣/٤١)، وابن ماجه في الجهاد، باب السبق والرهان، حديث رقم: (٢٨٧٨) (٢/٩٦٠).

(٤) انظر: البحر المحيط للزركشي (٣/٥٥)، نثر الورود (١/٢٤٥).

المني، فنزول المني من غير لذة كبرى صورة نادرة، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص يدخل في عموم قوله: «إنما الماء من الماء»^(١) فيجب عليه الغسل، وعلى أنها لا تدخل في النصوص فلا يجب عليه الغسل. قالوا: ومن فروع هذه القاعدة المسابقة بسبب على الفيل؛ لأن الفيل ذو خفٍ فرجل الفيل كرجل البعير، فهو من ذوات الخفاف. والفيل صورة نادرة قد لا تخطر في ذهن المتكلم، فعلى أن الصور النادرة تدخل في عمومات النصوص تجوز المسابقة على الفيل، وعلى هذا القول لا يبعد أن يكون فيه مثل القول الذي في الإبل، وعلى أن الصور النادرة لا تدخل في النصوص لا تجوز المسابقة على الفيل. هذا من حكم الغنائم.

وقد ذكرنا الآن أن الغنيمة إن كانت أرضاً فلإمام فيها ثلاثة أقوال^(٢)، وإن كانت غير أرض فإنها تقسم على التحقيق بين المجاهدين، وأن التحقيق للإمام أن ينقل منها في الصور التي ذكرنا^(٣) كتفيله الربع في البداية، والثلث في العودة، وتنفيذ بعض الرجال لشدة شكيمته وغنائه، وتنفيذ من أخذ السلب كما قال: «من قتل قتيلاً فله سلبه»^(٤). واختلاف العلماء فيه هل هو فتوى فيعم، أو حكم فيخص؟. ولأجل هذا اختلفوا في قول النبي ﷺ لهند بنت عتبة بن ربيعة لما قالت له: أبو سفيان رجل يمسك ولا يعطيني ما يكفيني وولدي. فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»^(٥). فعلى أنه فتوى فهو يعم جميع النساء^(٦)، فتكون كل امرأة بخل عليها زوجها بالإنفاق اللازم جاز لها أخذه بغير إذنه. أو هو حكم فيكون خاصاً كقضية: «من قتل قتيلاً فله سلبه».

(١) مسلم في الحيض، باب إنما الماء من الماء. حديث رقم: (٣٤٣) (٢٦٩/١).

(٢) انظر: الأضواء (٣٦٧/٢).

(٣) انظر: الأضواء (٣٨٥/٢).

(٤) تقدم تخريجه قريباً.

(٥) البخاري في البيوع، باب «من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع...»

حديث رقم: (٢٢١١) (٤٠٥/٤). وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث:

(٢٤٦٠، ٣٨٢٥، ٥٣٥٩، ٥٣٦٤، ٥٣٧٠، ٦٦٤١، ٧١٦١، ٧١٨٠). ومسلم في

الأضوية، باب قضية هند. حديث رقم: (١٧١٤) (١٣٣٨/٣).

(٦) انظر في هذه المسألة: الأحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي ص ١١٢ - ١١٤.

واعلم أن من أحكام الغنيمة: حرمة الغلول^(١)، والغلول في الشرع^(٢): هو أن يسرق الإنسان من الغنيمة، فإذا سرق الإنسان من الغنيمة قبل أن تقسم، أو زنى ببعض المسبيات في الغنيمة قبل أن تقسم فجماهير العلماء - منهم الأئمة الثلاثة - أنه لا يجلد حد الزنى، وأنه لا تُقطع يده في السرقة^(٣)؛ لأن له شبهة في الغنيمة؛ لأنه من المستحقين لها وهو مشارك فيها. ومذهب مالك بن أنس رحمه الله في هذه المسألة مشكل غاية الإشكال؛ لأن مالكا (رحمه الله) يرى أنه إن سرق من الغنيمة قبل القسم، أو وطئ جارية من المغنم قبل القسم أنه يُحدُّ حدَّ السرقة وحد الزنى^(٤)، مع أنه يرى أنه لو مات في ذلك الوقت لورث عنه وارثه نصيبه من الغنيمة! كيف يكون فيه نصيب يُورث عنه ولا يكون شبهة تدرأ عنه الحد؟ ففي هذا المذهب إشكال، وإن قال به هذا الإمام العظيم الجليل المعروف.

واعلموا أن الوقت الذي يستحق فيه الغنم نصيبه من المغنم يختلف فيه العلماء^(٥): فقال بعض العلماء: إذا أخذوا في الدرب، والدروب هي: الطرق الموصلة إلى بلاد الكفار من العجم ونحوهم إذا أخذوا فيها فكل من مات منهم له نصيبه من الغنيمة، ولو مات قبل أن تُحاز الغنيمة. وهذا قائله قليل وليس بوجه.

وقال بعض العلماء: لا يورث عنه نصيبه ويستحقه حتى يحوز المسلمون الغنيمة، ويخرجون بها من ديار الحرب إلى بلاد الإسلام، فعند ذلك الوقت يستقر مُلكهم لها، ويورث عنه نصيبه، ويُروى نحو هذا عن أبي حنيفة رحمه الله.

(١) انظر: القرطبي (٢٥٨/٤)، الأضواء (٤٠٧/٢).

(٢) انظر: القرطبي (٢٥٦/٨)، القاموس الفقهي ص ٢٧٧، الأضواء (٤٠٤/٢).

(٣) انظر: القرطبي (٢٦١/٤)، المغني (١٩٥/١٣، ١٩٦)، الأضواء (٤٠٧/٢).

(٤) انظر: الكافي لابن عبد البر ص ٢١٢، الأضواء (٤٠٧/٢).

(٥) انظر: المغني (٩١/١٣)، الأضواء (٤٠٨/٢).

وأظهر الأقوال: أنه إن مات بعد أن حاز المسلمون الغنيمة وأخذوها من الكفار يورث نصيبه عنه، وإن مات قبل أن تُحاز لم يورث عنه شيء^(١)؛ لأنه مات قبل أن يحصل شيء يكون ملكاً له حتى يورث عنه، هذا هو الأظهر. هذه أحكام من أحكام الغنيمة.

واعلموا أن العلماء اختلفوا في الغال هل يُحرق رحله أو لا^(٢)؟ فقد جاءت عن النبي ﷺ أحاديث تدل على أن الغال - السارق من الغنيمة - يُحرق رحله ومتاعه، وهذا جاء عن النبي ﷺ، والخلفاء وغيرهم ربما حرقوا متاع الغال وربما تركوا حرقه. وأظهر الأقوال في هذه المسألة أنها من التعزيرات المالية الموكولة إلى نظر الإمام إن رأى المصلحة في حرق متاعه حرقه وله ذلك، وإن رأى إبقاءه أبقاه، وإن كان فيه مصحف فإنه لا يحرقه، وقد غل رجل في بعض الغزوات فيها بعض المسلمين فحرقوا متاعه ووجدوا فيه مصحفاً فباعوا المصحف وتصدقوا بثمنه^(٣) كذا قال بعضهم والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] قال بعض العلماء^(٤): الخمس ستة أنصباء: نصيب لله، ونصيب للرسول ﷺ، ونصيب لذي القرباة، ونصيب لليتامى، ونصيب للمساكين، ونصيب لابن السبيل. ومن قال: إنها ستة أنصباء، لم أعلم أحداً اشتهر عنه هذا القول إلا أبا العالية (رحمه الله) فإنه قال: الخمس يُجعل ستة أنصباء، قال: ونصيب الله هو أنه إذا جاء المال يأخذ الإمام ويملاً يده منه ويجعلها في رتاج^(٥) الكعبة.

(١) انظر: المغني (٩١/١٣).

(٢) انظر: القرطبي (٢٥٩/٤ - ٢٦٠)، المغني (١٦٨/١٣ - ١٧٢) الأضواء (٤٠٤/٢).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور (٢٦٩/٢)، والدارمي (١٤٩/٢)، وأبو داود في الجهاد، باب في توبة الغال. حديث رقم: (٢٦٩٦) (٣٨١/٧)، والترمذي في الحدود، باب ما جاء في الغال ما يصنع به. حديث رقم: (١٤٦١) (٦١/٤).

(٤) انظر: ابن جرير (٥٥٠/١٣)، القرطبي (١٠/٨)، الأضواء (٣٥٧/٢).

(٥) قال في المصباح المنير: «الرتاج: بالكسر الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً. وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي: نذره هدياً. وليس المراد نفس الباب» اهـ (المصباح المنير: مادة: رتج) ص ٨٣.

فعنده: نصيب الله يُصرف في مصالح الكعبة. وهذا القول لا يخفى ضعفه؛ لأنه لا دليل عليه. والتحقيق - إن شاء الله - الذي عليه جماهير العلماء: أن نصيب الله ونصيب الرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله ذكر للاستفتاح والتعظيم لشأنه (جل وعلا)^(١)؛ لأن كل شيء له جل وعلا ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبِّي هَٰذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: الآية ٩١] فنصيب الله هو نصيب الرسول ﷺ. والتحقيق: أن نصيب رسول الله ﷺ من الخمس كان يرده على مصالح المسلمين لا يأخذ منه شيئاً؛ لأنه كان يأخذ خلته الضرورية من فيء بني النضير، وربما أخذ منه بعضاً من فيء قريظة، وأن نصيبه إنما يجعله في مصالح المسلمين، كما جاء عنه ﷺ في حديث ثابت رواه بعض أصحاب السنن والإمام أحمد وغيرهم أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»^(٢). فصرح بهذا الحديث بأن الخمس مردود عليهم.

واختلف العلماء في نصيب النبي ﷺ بعد موته^(٣): فجماهير العلماء على أن نصيبه ثابت بعد موته ولا يسقط بموته، وكذلك نصيب قرابته، وأن الإمام بعده يصرفه في مصالح المسلمين كما كان يصرفه رسول الله ﷺ فيها، وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر يصرفان نصيبه ﷺ في مصالح المسلمين العامة من الكراع والسلاح وغيره كما كان ﷺ يفعل. وخالف في

(١) انظر: ابن جرير (١٣/٥٤٨)، الأضواء (٢/٣٥٨).

(٢) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ - عبد الله بن عمرو. عند أبي داود في الجهاد، باب في فداء الأسير بالمال. حديث رقم: (٢٦٧٧) (٧/٣٥٩)، والنسائي في قسم الفيء، حديث رقم: (٤١٣٩) (٧/١٣١).

٢ - عمرو بن عبسة. عند أبي داود في الجهاد، باب في الإمام يستأثر بشيء من الفيء لنفسه. حديث رقم: (٢٧٣٨) (٧/٤٣٤).

٣ - عبادة بن الصامت. عند مالك في الموطأ. حديث رقم: (٩٨٥) ص ٣٠٤، والنسائي في قسم الفيء حديث رقم: (٤١٣٨) (٧/١٣١).

(٣) انظر: ابن جرير (١٣/٥٥٦) القرطبي (٨/١١)، الأضواء (٢/٣٦٠).

هذا الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فقال: بعد موته ﷺ يسقط نصيبه ونصيب قرابته، فما يبقى إلا ثلاثة أنصاء، وهي نصيب اليتامى والمساكين وابن السبيل. وجماهير العلماء على خلاف هذا.

وقوله: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] اختلف العلماء في المراد بـ (ذي القربى)^(١) فقال بعضهم: بنو هاشم. وقال بعضهم: قريش. والتحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه: أن المراد بـ (ذي القربى) بنو هاشم وبنو المطلب خاصة، وقد ثبت هذا في الصحيح عن النبي ﷺ فلا ينبغي العدول عنه. هذا هو المذهب الحق الذي لا شك فيه، وهو مذهب الإمام الشافعي وأحمد (رحمهما الله)، ويروى عن أبي حنيفة. أما ما ذهب إليه مالك من أنهم خصوص بني هاشم. وما قاله بعض القرشيين من أنهم قريش كلهم فهو خلاف التحقيق. والدليل على هذا القول: هو ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما قسم أموال خيبر وأخرج خمسها أعطى نصيب القرابة من خمس خيبر لخصوص بني هاشم وبني المطلب، ولم يعط لأخوانهم الآخرين. أعني بني عبد شمس وبني نوفل، فجاء عثمان بن عفان وهو من بني عبد شمس، وجبير بن مطعم وهو من بني نوفل، فقالوا: يا رسول الله ﷺ أعطيت إخواننا من بني المطلب ونحن وهم بالنسبة إليك سواء، فلم تعطهم وتمنعنا؟ فأعطنا كما أعطيتهم. فقال ﷺ: «إنا وبنو المطلب شيء واحد». وفي بعض رواياته: «لم نفترق في جاهلية ولا إسلام»^(٢). لأن هؤلاء الأربعة إخوة؛ لأن عبد مناف أولاده أربعة: وهم هاشم جد النبي ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل^(٣). أما الثلاثة الأولون منهم أشقاء، وأمهم غاتكة بنت مرة، إحدى عواتك النبي ﷺ؛ لأن بعض أصحاب المغازي والأخباريين

(١) انظر: ابن جرير (٥٥٣/١٣) القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦١/٢).

(٢) البخاري في فرض الخمس، باب من الدليل على أن الخمس للإمام. حديث رقم:

(٣١٤٠) (٢٤٤/٦). وأخرجه في موضعين آخرين، انظر الحديثين: (٣٥٠٢،

٤٢٢٩).

(٣) انظر: القرطبي (١٢/٨)، الأضواء (٣٦٢/٢).

ذكروا عنه ﷺ أنه قال في بعض مغازيه: «أنا ابن العواتك من سليم»^(١). وعواتك سليم هذه التي انتسب إليها النبي ﷺ ثلاث عواتك معروفة^(٢): الكبرى منها عمّة الوسطى، والوسطى عمّة الصغرى كما هو معروف. وسليم بن منصور من قبائل قيس عيلان بن مضر، وسليم أخو هوازن. والعواتك هذه: صفراهن: عاتكة بنت الأوقص بن مرّة بن هلال، وعمتها: عاتكة بنت مرّة، وعمّة هذه: عاتكة بنت هلال. أما الصغرى منهما - وهي عاتكة بنت الأوقص - فهي والده وهب والد آمنه بنت وهب أم النبي ﷺ، فهي جدّته من قبيل والد أمّه، وأما عمتها وهي: عاتكة بنت مرّة: فهي أم هاشم جدّه ﷺ وأخويه الشقيقين: المطلّب وعبد شمس، أما أخوهما نوفل فهو ليس بشقيقهما، وأمّه تُسمى واقدة بنت أبي عدي، واسم أبي عدي: نوفل. سمّت عليه ولدها نوفل هذا. والحاصل أن النبي ﷺ لما عاداه المشركون، وقاطعوا بني هاشم، واضطروهم إلى أن يرحلوا إلى الشّعب كان بنو المطلّب معهم في كل بلية، ولم يفارقوهم في شيء، وكان إخوانهم الآخرين بني عبد شمس وبني نوفل كانوا معادين لهم مع قريش، ولم ينصروهم عليهم، وكان أبو طالب يقول لهم في لاميته المشهورة^(٣): -

جَزَى اللّهُ عَنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَوْفَلًا عُقُوبَةً شَرًّا عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ
بِمِيزَانٍ قَسِطٍ لَا يَخِيسُ شَعِيرَةً لَهُ شَاهِدٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرُ عَائِلٍ
لَقَدْ سَفَهْتَ أَحْلَامُ قَوْمٍ تَبَدَّلُوا بَنِي خَلْفٍ قِيضًا بَنَا وَالغِيَاظِلِ
وَنَحْنُ الصَّمِيمُ مِنْ ذُؤَابَةِ هَاشِمٍ وَآلِ قِصِي فِي الْخَطُوبِ الْأَوَائِلِ

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٨٤٠، ٢٨٤١)، والطبراني في الكبير (١٦٨/٧) - (١٦٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٥، ١٣٦)، وابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١)، والعلائي في جامع التحصيل ص ٢٣٤، وذكره الهيثمي في المجمع (٢١٩/٨) وقال: «رجال رجال الصحيح» ١. هـ، وابن كثير في تاريخه (٣٢٨/٤). وهو في الكنز (٣١٨٧٤، ٣٥٥٠٤) والسلسلة الصحيحة (١٥٦٩).

(٢) انظر: تهذيب تاريخ دمشق (٢٨٩/١) الأضواء (٣٦٢/٢).

(٣) القصيدة في البداية والنهاية (٥٣/٣ - ٥٧)، الأضواء (٣٦٣/٢).

فعرف النبي ﷺ لبني المطلب انسجامهم معهم في كل البلايا وصبرهم عليهم في الشدائد فجعلهم من القرابة، وأعطاهم من خمس خيبر سهم ذي القرابة، ولم يعط إخوانهم الآخرين، أعني بني عبد شمس وبني نوفل شيئاً. وهذا هو التحقيق في ذي القرابة.

واختلف العلماء في ذي القرابة هل يُفضل ذكرهم على أنثاهم^(١)؟ فذهب الشافعي وأحمد أنهم يُعطون للذكر مثل حظ الأنثيين، قالوا: نالوه بالنبي ﷺ، وهم عصبتة، والمعروف أن المال المستحق للعصبة يكون فيه الذكر له حظ الأنثيين.

وقال بعض العلماء: ذكرهم وأنثاهم سواء. وهذا أقربها؛ لأن تفضيل الذكر على الأنثى يحتاج إلى دليل، ولم يرو أحد أنه فضل ذكرهم على أنثاهم. ولا يشترط فيهم على التحقيق الفقر^(٢)، فيعطي بنو هاشم والمطلب غنيهم وفقيرهم.

أما نصيب اليتامى والمساكين فلا يعطي إلا لفقرائهم، فلا يُعطي يتيم غني ولا مسكين غني.

واليتيم من بني آدم: هو من مات أبوه^(٣). وغلط قوم فقالوا: اليتيم من الآدميين: من مات أبوه وأمه. قالوا: قال مجنون ليلى^(٤):

إلى الله أشكو فقد ليلى كما شكنا إلى الله فقد الوالدين يتيم

فسمّاه يتيماً بفقد الوالدين. والصواب: فقد الأب وحده يكفي في يتمه.

وابن السبيل: هو المنقطع عن بلاده. والسبيل: الطريق. وإنما قال له: ابن السبيل كأنه يقول: ولد الطريق. وتسميته ولد الطريق فيه للعلماء وجهان:

(١) انظر: القرطبي (١٢/٨).

(٢) انظر: السابق.

(٣) تقدم عند تفسير الآية (١٥٢) من سورة الأنعام.

(٤) البيت في ديوانه ص ١٨٨.

أحدهما: أنه كثر سلوكه لها، والعرب إذا كثرت ملازمة الشيء للشيء قالوا ابنه. ومنه قول غيلان ذي الرمة^(١):

وردتْ اعتِسَافاً والثُّريا كأنَّها على قمةِ الرأسِ ابنِ ماءٍ مُحلَّقٍ
فسمى طير الماء الملازم له: ابن الماء، فلما كان المسافر ملازماً
للطريق قيل له: ابن الطريق.

وقال بعض العلماء: كأن الفلاة تمخضت عنه كما تتمخض التتوج عن ولدها فرمتنا به كما ترمي الحامل بما في بطنها. وهذا المعنى أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري صريح الغواني إيضاحاً كاملاً - وإن كان الشعر هنا لا يصلح شاهداً لتأخر زمنه ولكن يصلح مثلاً للإيضاح - فإنه قال في رجل يزعم أن بيده - وهو الفلاة الواسعة - ولدته وتمخضت عنه وصار ابنها كما تتمخض التتوج عن ولدها قال^(٢):

تمخضت عنه تماً بعد محمله شهرين بيده لم تضرب ولم تلد
ألقته كالنضل معطوفاً على همم يعمدن منتجعات خير معتمد
وابن السبيل: هو المحتاج الآن، وهو منقطع عن بلده، ولو كان غنياً في بلده، فيعطى من الخمس ما يوصله إلى بلده حتى يرجع إلى محله. هذا معنى: ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١].

1/ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيَّ عَبْدَانَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ
الَّتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ
الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيْعَدِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَى اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِنَا وَيُخَيَّرَ مَنْ حَمَىٰ عَن بَيْنِنَا وَإِن كَانَتْ
لَسَِيعٌ عَلَيْهِمْ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاوِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادْتَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ

(١) البيت في تاريخ دمشق (٢٥٢/٢٤).

(٢) البيت في ديوانه ص ٧١، وفي شرحه للدهان ص ٨٤.

وَلَنَنْزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ مَكْلَمٌ إِنَّكُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّنِ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِيْ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: الآيات ٤١ - ٤٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَاقِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: الآية ٤١] تكلمنا بالأمر على جمل من الأحكام الداخلة تحت هذه الآية من أحكام المغانم، ومن جملة ما ذكرنا: أن العلماء اختلفوا في خمس الغنيمة، فقال بعضهم: يُجعل ستة أقسام، قسم لله، وقسم للرسول ﷺ، وقسم لذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكان أبو العالية (رحمه الله) يقول: إن قسم الله (جل وعلا) يُجعل للكعبة. وزعم أن النبي ﷺ كان يضرب بيده في الخمس فيأخذ منه ويجعله للكعبة، وأن هذا هو نصيب الله^(١). وأكثر العلماء على أن نصيب الله والرسول ﷺ واحد، وأن اسم الله إنما ذكر تعظيماً وإجلالاً واستفتاحاً للكلام بذكر اسمه؛ لأن كل شيء كائناً ما كان فهو له - جل وعلا - ونصيب الرسول ﷺ كان يصرفه في مصالح المسلمين كما دل عليه حديث: «ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»^(٢).

وقد قدمنا أن أصحاب الأقوال: في (ذي القربى) أنهم بنو هاشم وبنو المطلب، وأن النبي ﷺ بين أنهم هم المرادون بآية الأنفال هذه؛ لأنه لما حَمَسَ خَيْرَ أُعْطِيَ خُمُسَ الْخُمْسِ لِبَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمَطْلَبِ بِاسْمِ أَنَّهُ سَهْمُ ذِي الْقُرْبَى. وهذا ثابت عن النبي ﷺ في صحيح البخاري وغيره؛ لأن البخاري (رحمه الله) أخرج الحديث هذا في صحيحه في مواضع متعددة: جاء عثمان بن عفان، وجبير بن مطعم إلى النبي ﷺ لما أعطى بني هاشم وبنو المطلب خمس ذي القربى من غنائم خيبر، قال العبشميون والنوفليون: نحن

(١) مضى قريباً.

(٢) مضى قريباً.

من رسول الله ﷺ قرابتنا مثل قرابة بني المطلب، فجاء عثمان وهو من بني عبد شمس؛ لأن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، وعبد شمس أخو المطلب. وهاشم، وجبير بن مطعم هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل، ونوفل هذا أخو هاشم والمطلب، فجاء جبير وعثمان يطلبون النبي ﷺ أن يسوي بني نوفل وبني عبد شمس بيني المطلب، فأبى النبي ﷺ وبين أن بني المطلب وبني هاشم هم المرادون بالقرابة، وأنهم هم المستحقون خمس خمس الغنيمة. وهذا ثابت في الصحيح عن النبي ﷺ^(١) فلا ينبغي الخلاف فيه. وإن كانت جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه قالوا: أن ذي القربى أنهم الهاشميون. وجماعة قالوا: إنهم قريش كلهم. فأصح الأقوال وأثبتها دليلاً أن المراد بذي القربى: بنو هاشم وبنو المطلب ابني عبد مناف دون إخوتهم الآخرين من بني عبد شمس وبني نوفل، فهذا هو الصواب - إن شاء الله -؛ لأنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه فعله مبيّناً به معنى هذه الآية الكريمة.

وقد ذكرنا أن العلماء اختلفوا في ذي القربى، فجمهور العلماء على أن نصيبهم باق، وأنه لم يسقط بموته ﷺ خلافاً لأبي حنيفة. وقد قدّمنا أن أكثر العلماء على أنه يعطى منه غنيّهم وفقيرهم ولا يختص بفقرائهم، وأن بعض العلماء قال: يُفضّل ذكرهم على أنثاهم كالميراث. وبعضهم قال: يُسوّى فيه الذكر والأنثى.

وأن المراد بنصيب اليتامى: قال بعض العلماء: يجعل خمس الخمس لسد خلّات اليتامى الفقراء الذين لم يترك لهم آباؤهم مالاً. والمساكين: جمع مسكين، والمسكين إذا أطلق وحده - لم يذكر معه الفقير - تناول الفقير. وعلماء التفسير يقولون: المسكين والفقير إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. يعني: إن ذكرنا معاً مجتمعين افترق حكمها فكان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن افترقا - بأن ذكر المساكين دون الفقراء، أو الفقراء دون المساكين - اجتمعا. أي: شمل المسكين حكم الفقير،

(١) تقدم تخريجه قريباً.

والفقيرَ حَكْمُ الْمَسْكِينِ^(١). ومعلوم اختلاف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج^(٢)، فذهب بعض العلماء، وهو رأي مالك بن أنس وطائفة من العلماء إلى أن المسكين أشد حاجة. واستدلوا بأن الله قال: ﴿أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبٍ ﴿٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿٥﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ ﴿٦﴾﴾ [البلد: الآيات ١٤ - ١٦] فوصف المسكين بأنه (ذو متربة) ومعنى (ذو متربة): لاصق بالتراب ليس له شيء غير التراب، وأنه (مفعيل) من السكنى؛ لأن يده سكنت عن التصرف، وجوارحه عن النشاط من الجوع والفاقة.

وقال مالك: إن العرب تطلق الفقير على من عنده مال لا يكفيه. واستدل بقول راعي نَمير وهو عربي فصيح^(٣):

أما الفقيرُ الذي كانت حلوبته وفق العيالِ فلم يُترك له سبْدُ
فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله.

وقال جماعة آخرون من العلماء: إن الفقير أشد حاجة، واستدلوا بأن الفقير كأن الفاقة قصمت فقارته لشدتها. قالوا: وقد سمي الله قوماً مساكين وعندهم سفينة عاملة في البحر في قوله: ﴿أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: الآية ٧٩] فسماهم مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة بالإيجار، هكذا قال بعض العلماء.

وابن السبيل معناه: ولد الطريق. يُعطى من خمس الخمس ما يبلغه أهله. وابن السبيل مصرف محتاج، ولو كان غنياً في محله؛ لأن ماله في محله الذي هو متغرب عنه لا يدفع فقره في حالته الراهنة في حال كونه متقطعاً في سبيله.

وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] هذه الآية

(١)(٢) انظر: ابن جرير (٣٠٥/١٤)، الفروق اللغوية ص ١٤٥، القرطبي (١٦٨/٨)، ابن كثير (٣٦٤/٢).

(٣) البيت للراعي النَميري، وهو في ديوانه ص ٩٠، القرطبي (١٦٩/٨). وقوله: «سيد»، أي: وبر، وقيل: شعر. وذلك كناية عن الإبل أو الغنم.

الكريمة من سورة الأنفال يعظم الله فيها شأن الخمس، كأنه جعل أداء الخمس من الإيمان. يعني: إن كنتم آمنتم بربكم (جل وعلا) وما أنزل على نبيه فاعلموا وتيقنوا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسة، ونفذوا ذلك؛ ولذا ذكر البخاري (رحمه الله) في كتاب الإيمان أن أداء الخمس من الإيمان^(١)؛ لأن الله قال لما ذكر أداء الخمس قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِٱللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وفي حديث وفد عبد القيس الثابت في الصحيح المشهور أن النبي ﷺ لما عدّ خصال الإيمان عدّ منها أداء الخمس^(٢). وذلك لأن الله قال بعد ذكره أداء الخمس: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِٱللَّهِ﴾.

واعلموا أن جماعة من العلماء منهم مالك وأصحابه^(٣) قالوا: إن هذه المصارف الخمسة^(٤) لا تعين كلها بل الأمر موكول إلى اجتهاد الإمام يضعه حيث يشاء، إلا أن الله أرشد إلى أن هذه الخمسة هي المصارف الذي لا ينبغي أن يتجاوزها به. وهذا رأي مالك ونصره غير واحد، والظاهر الذي هو الاحتياط: أن يجعله خمسة أنصاء^(٥)، كما قال الله (جل وعلا)؛ لأن الله شدد في ذلك في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِٱللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ ﴿عَبْدِنَا﴾: هو محمد ﷺ. وصيغة الجمع في قوله: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ للتعظيم. وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلْنَا﴾ معطوف على اسم الجلالة، أي: إن كنتم آمنتم بالله وآمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا محمد ﷺ من هذه الآيات القرآنية؛ لأن الله أنزلها عليكم، ونصركم عند نزولها، وأمركم فيها بأداء الخمس إن كنتم مؤمنين، فإن كنتم مؤمنين بما أنزل الله على نبيه فاعلموا

(١) البخاري (مع الفتح) (١/١٢٩).

(٢) البخاري في الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان. حديث رقم: (٥٣).

وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث: (٨٧، ٥٢٣، ١٣٩٨، ٣٠٩٥، ٣٥١٠، ٤٣٦٨، ٤٢٦٩، ٦١٧٦، ٧٢٦٦، ٧٥٥٦).

ومسلم في الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين. حديث رقم: (١٧، ١٨) (٤٦/١).

(٣) انظر: القرطبي (١١/٨)، قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٤) أي: للخمس.

(٥) انظر: الأضواء (٢/٣٦٥).

أما غنمتم من شيء فإن لله خمسه؛ لأن ذلك من جملة ما أنزل الله في هذه الآيات النازلة يوم بدر.

وقال بعض العلماء: المراد بقوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ أي: إن كنتم آمنتم بالذي أنزلنا على عبدنا قالوا هو قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: الآية ١] وقد أمر الرسول ﷺ أن يخرج خمسه ويصرفه في هذه المصارف المذكورة ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] بذلك المنزل فاعلموا أنما غنمتم من شيء فخمسه لله. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ لأن العبد من أشرف الصفات؛ لأن أشرف الصفات: العبودية له (جل وعلا)؛ ولذا إذا أراد الله أن يرفع من شأن نبيه ويعظم الموقف الذي هو فيه عبر عنه بلفظ العبد؛ لأنها أعظم صفة وأكرمها كما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ۗ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: الآية ١] وقال هنا: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم الفرقان هو يوم بدر، لم يكذب يختلف في ذلك، وإنما قيل لبدر يوم الفرقان لأنه يوم فرق الله به بين الحق والباطل، أوضح حجة الإسلام أنه الحق، وأن الكفر باطل إيضاحاً يشاهده الجاهل والعالم والغبى؛ لأنه التقت فتنان: فئة كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، وهي فئة قوية في عددها وعددها، وفئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، هي ضعيفة في عددها وعددها، فنصر الله [الضعيفة على القوية]^(١) وغلبتها وقتلت صنائدها وأشرفها وأسرتهم، فتبين بهذا بياناً واضحاً شافياً يراه الناس بحواسهم أن الإسلام دين الحق، وأن الله فرق بين الحق والباطل بوقعة بدر، إذ ليس من المعقول أن تكون الفئة الضعيفة القليلة في عددها وعددها هي الغالبة القاهرة إلا بتأييد من خالق السماوات والأرض (جل وعلا)، وهذا التأييد لا يكون منه إلا لأنها هي المحققة؛ ولذا سمى الله بدرأ (فرقاناً) وسماه (بينتة) وسماه (آية). سماه (فرقاناً) في قوله هنا: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] وسماه (بينتة) في قوله في هذه الآية ﴿لِيَهْلِكَ

(١) في الأصل: «القوية على الضعيفة» وهو سبق لسان.

مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَمَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴿٤٢﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] لأنه سيأتي تفسيره، أي: ليبقى على كفره من كفر على وضوح من أمره أن الكفر باطل، ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ بالإيمان ﴿مَن حَمَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ وضوح ظاهر لا شك فيه أن الإسلام حق لنصر الفئة القليلة الضعيفة على الفئة الكافرة القوية. وسمّاه (آية) في سورة آل عمران في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] آية: أي: علامة على أن دين الإسلام هو الحق الذي لا شك فيه.

وهذه الآية القرآنية تدل على أن من علامات دين الإسلام وأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥] وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] وقال ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: الآية ٣] تبين أن من خصائص هذا الدين ومن علاماته: أن الفئة القليلة المتمسكة به تغلب الفئة القوية الكافرة التي لم تتمسك به، وقد جاءت لهذا أمثلة عديدة في القرآن سنذكر لكم بعضها ليتضح معنى الآية^(١): من ذلك ما قصه الله (جل وعلا) علينا في سورة الأحزاب في غزوة الخندق لما جاء الكفار في عددهم وعدادهم وحاصروا النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة - هذه حرسها الله - وحاصروهم ذلك الحصار العسكري التاريخي العظيم الذي نوه الله بشأنه، وبين شدته وعظمه في سورة الأحزاب في قوله: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: الآيتان ١٠، ١١] هذا الحصار العظيم جاء وعدد الكفار ضخم، وعدادهم قوة، وأصحاب النبي ﷺ في ضعف وقلّة من المال والسلاح، وفي جوع، حتى إن في غزوة الخندق وسيد الخلق (صلوات الله وسلامه عليه) كما يذكره المؤرخون والأخباريون وغيرهم يشد حزامه على الحجارة من شدة الجوع، وهم في ذلك الوقت الناس جميعاً مقاطعوهم سياسياً واقتصادياً، ليس بينهم وبين أحد

(١) انظر: الأضواء (٤٥٣/٣).

من أهل الأرض علاقات اقتصادية، ولا علاقات سياسية، آخر قوم كانت بينهم وبينهم عهود: يهود بني قريظة، فلما نزل الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم وحاصروهم هذا الحصار العسكري التاريخي العظيم المنوّه عنه في القرآن، في ذلك الوقت غدر بنو قريظة ونبذوا العهود، وصاروا مع الكفار، فلم يبق لهم تحت أديم السماء صديق ولا معين إلا الله (جل وعلا) وحده، ولما أرسل النبي ﷺ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ (رضي الله عنهما) إلى بني قريظة يعرف خبرهما هل هما على عهودهما أو نقضوا العهود وصاروا مع المشركين؟ قال لهم (صلوات الله وسلامه عليه): «إن وجدتم القوم نقضوا العهود فكثروا لي ولا تصرّحوا بإشارة نفهمها ولا يفهمها غيري»؛ لأن النبي ﷺ يخاف أن يداخل الناس شدة الجبن والجزع؛ لأنهم ما كان لهم من الأصدقاء إلا القرظيون من اليهود، فإذا غدروا وصاروا مع الكفار في هذا الوقت الضنك وهذا الموقف الحرج كان الأمر أعظم واشتد على غير أقوياء القلوب من المسلمين، فجاء سعد وسعد إلى بني قريظة فوجدوا سيدهم كعب بن أسد - قاتله الله - فتنه اللعين حبي بن أخطب سيد بني النضير، ونقضوا العهود، وغدروا، وصاروا مع المشركين على رسول الله ﷺ. فجاؤوا إلى النبي ﷺ وقالوا: هم عضل. ليفهمها رسول الله ﷺ ولا يفهمها غيره. وعضل: يعني هم وبنو القارة من الذين غدروا ببعث الرجيع. فأشاروا له بأنهم في الغدر كبنو عضل وبنو القارة، ففهمها رسول الله ﷺ^(١)، ففي هذا الموقف الضنك الحرج كان الذي واجه المسلمون به هذا الموقف الضنك العظيم والحصار العسكري العظيم [هو الإيمان والتسليم كما أخبر الله - تعالى - عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(٢) ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] وكان من نتائج هذا الإيمان العظيم والتسليم الكبير ما قصه الله علينا في محكم كتابه في سورة الأحزاب في

(١) سيأتي تخريجه عند تفسير الآية (٥٧) من هذه السورة.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَأْلُوا حَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] يقول: إن كنتم أذلاء - لستم بأعزاء ولا أقوياء - فهو (جل وعلا) قويٌّ عزيز لا يُغلب من استند إليه، والفئة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته ويعزها بعزته، فلن تُغلب، إلى أن قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَبَيْتَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧] يعني: إن كانت قدرتكم ناقصة وأنتم عاجزون فهو (جل وعلا) على كل شيء قدير، والفئة المستندة عليه يجعل لها القدرة والتمكين بقدرته، ومن أمثلة هذا أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) لما صدّه المشركون مع أصحابه في غزوة الحديبية وهم محرمون كما سيأتي في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَدَىٰ مَعَكُومًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] وأرسل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) بالهدايا لينحرها في الحرم، وتلقاه بنو عمه؛ لأنه أراد أولاً أن يرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال له عمر: إن بني عدي لا يقدر أن يحموني من قريش، ولكن أدلك على رجل أعز مني في قريش هو عثمان بن عفان رضي الله عنه: فأرسل عثمان رضي الله عنه بالهدايا وتلقاه بنو عمه يقولون^(١):

أَقْبِلْ وَأَذِيزْ لَا تَخَفْ أَحَدًا بئو سعيد أعزّة الحرم

فأخبر النبي ﷺ بخبر كاذب أن الكفار قتلوه، فبايعه أصحابه تحت سمره من شجر الحديبية ببيعة الرضوان، وعندما بايعوه علم الله في ذلك الوقت من قلوبهم الإخلاص الكامل والإيمان كما ينبغي بالله (جل وعلا)، فكان من نتائج ذلك الإيمان الكامل والإخلاص الذي أطلع الله عليه في قلوبهم أنه بين لهم أنه يجعلهم قادرين على من هم عاجزون عنه كما أوضح هذا في سورة الفتح في قوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] أي: علم الله ما في قلوبهم من قوة الإيمان والإخلاص لله، فنوّه عنه بالاسم المبهم الذي هو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

الموصول، فكان من نتائج هذا الإيمان والإخلاص كما ينبغي ما قص الله علينا في سورة الفتح حيث قال: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] فصّح بأن إمكانياتهم العددية والعددية لا تقدرهم عليها، ثم قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: فأقدركم عليها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] إن كانت قدرتكم ناقصة فقدرته (جل وعلا) كاملة، والطائفة الضعيفة القليلة المستندة إليه يقويها بقوته، ويعجزها بعزته، ويقدرها بقدرته. وهذه أمثلة تدل المسلم على أن دين الإسلام حق، وأنه هو هو، وأن صلته بالله هي هي، وأن المتمسك به لا يغلب ولا يقهر^(١)، ولكن المسلمين تنكروا لدينهم فتركوه ولم يعملوا به، فتركوا الآلة القاهرة التي يقهر بها العدو، فبقوا لقمة سائغة يضطهدهم الكفرة في أقطار الدنيا، ويتزنون ثروات بلادهم؛ لأنهم تركوا السلاح الأعظم لقهر العدو وهو دين الإسلام كما بينا؛ ولذا قال هنا: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفَتْحِ الْأَجْمَعِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] يعني: جمع المسلمين وجمع المشركين يوم بدر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤١]. جرت العادة بذكره قدرته عند نصره الضعاف من عباده المتمسكين بدينه كما قال هنا: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال في الأحزاب: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٧]. وقال في الحديدية: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: الآية ٢١] كل هذه الآيات على وتيرة واحدة، معناها: إن كنتم ضعافاً عاجزين فهو (جل وعلا) قادر قوي لا يعجز عن شيء، فإنه ينصر أوليائه ويقويهم ويقدرهم على من هو أقوى منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله (جل وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ، فهو قادر على هداية أبي بكر، وقد شاء هذا المقدور، وقادر على هداية أبي جهل كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: الآية ١٣] ولكنه لم يشأ هذا المقدور، فبين أنه قادر على ما شاء، وقادر على ما لم يشأ.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

وقوله: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قال بعض العلماء^(١): هو بدل من ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: الآية ٤١] لأن يوم الفرقان يوم التقاء الجمعان هو الظرف المُعَبَّرُ عنه بكينونتهم في العدو الدنيا وأعداؤهم في العدو القصوى، وهذا ظاهر.

وقرأ هذا الحرف من السبعة: ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُورَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُورَةِ الْقُصُورِ﴾ بكسر العين في الموضعين. وقرأه باقي السبعة: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْقُصُورِ﴾ بضم العين في الموضعين^(٢).

والعدوة والعدوة معناهما واحد. وأصل العِدوة والعُدوة: شاطئ الوادي وجانبه، فكل ما صاحب شاطئ الوادي وجانبه من الفضاء تسميه العرب: عُدوة وعِدوة، وهو عدوة الوادي^(٣).

وقوله ﴿بِالْمُدُورَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عدوة وادي بدر ﴿وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْقُصُورِ﴾. و (الدنيا) تأنيث الأذنى، أي: العدو الدنيا التي هي أدنى للآتي من المدينة ﴿وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْقُصُورِ﴾ و (القصوى) تأنيث الأقصى، و (الدنيا) تأنيث الأذنى. أي: لأن العدو التي فيها الكفار هي التي هي أشد قُصُوراً وبعداً من الآتي من المدينة، والتي فيها النبي ﷺ وأصحابه هي الأقرب للآتي من المدينة.

﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِنْكُمْ﴾ المراد بالركب: الجماعة الذين هم في غير أبي سفيان بإجماع المفسرين. والمؤرخون يذكرون أنهم أربعون رجلاً في تلك العير، سَمَاهُمْ ركباً. وأكثر علماء العربية يزعمون أن الركب اسم جمع، وأنه ليس بجمع؛ ولذا لم يجعل علماء العربية من جموع التكسير صيغة (فعل) فأهملوها بالكلية. والذي يظهر من استقراء القرآن العظيم واللغة العربية أن (فعل) بفتح فسكون من صيغ جموع التكسير للكثرة في (فَاعِل) إذا كان وصفاً، وإنما قلنا: إن هذا هو الأظهر لكثرة وروده باستقراء اللغة العربية - في العربية وفي القرآن - فالركب هنا على أظهر القولين - وإن لم تكد ترى أحداً يقول به من علماء الصرف - أن الركب جمع راكب،

(١) انظر: الدر المصون ص (٦٠٩/٥).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٣) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١٣).

والعرب تطلق الركب تزيد به جمع راكب، فقولهم: إنه اسم جمع لا دليل عليه، والأظهر أنه جمع؛ ولذا فإن العرب يكثر في كلامها إطلاق اسم الركب مراداً به الركبان، جمع راكب، كما قال^(١):

بزينبَ أَلِمِمَ قَبْلَ أَنْ يَطْعَنَ الرُّكْبُ وَقُلْ إِنْ تَمَلَّيْنَا فَمَا مَلَكَ الْقَلْبُ
وَيُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ضَمَائِرُ الْجُمُوعِ كَمَا قَالَ غِيلَانُ ذُو الرِّمَّةِ^(٢):

استحدثت الركب عن أشياعهم خبراً أم راجع القلب من أطرابه طرب
ومن إتيان (فعل) جمعاً ل (فَاعِلٌ) قولهم: «صَاحِبٌ وَصَحْبٌ». ومنه:
«أَلَّهُ وَصَحْبُهُ» ومنه قول امرئ القيس^(٣):

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهِمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَمَّلِ
فَالصَّحْبُ جَمْعُ صَاحِبٍ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى: جَمْعُ (شَارِبٍ) عَلَيَّ
(شَرِبَ) بَفَتْحٍ فَسَكُونٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ نَابِغَةَ ذِيانٍ^(٤):

كَأَنَّهُ خَارِجاً مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودٌ شَرِبَ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادٍ
فرد عليهم ضمير الجماعة في قوله: «سَفُودٌ شَرِبَ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادٍ»
ومنه السَّفَرُ جَمْعُ السَّافِرِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَتَمُوا فَإِنَا قَوْمُ سَفَرٍ»^(٥)، ومنه قول

(١) البيت لنصيب بن رباح، وهو في تاريخ دمشق (٦٠/٦٢، ٦١، ٦٢).

(٢) البيت في ديوانه ص ٥٩.

(٣) ديوانه ص ١١١.

(٤) ديوانه ص ١٢.

(٥) أخرجه أحمد (٤٣٠/٤، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٠) وابن أبي شيبة (٤٥٠/٢، ٤٥٣)، وأبو داود في الصلاة، باب متى يتم المسافر. حديث رقم: (١٢١٧). (٩٦/٤)، والترمذي في الصلاة، باب ما جاء في التقصير في السفر. حديث رقم: (٥٤٥). (٤٣٠/٢)، والبيهقي (١٣٥/٣، ١٥٣)، والطحاوي ص ١١٥، والطحاوي في شرح المعاني (٤١٧/١) من حديث عمران بن حصين (رضي الله عنه) مرفوعاً.

وقد جاء نحوه موقوفاً على عمر (رضي الله عنه) عند مالك في الموطأ، ص ١٠٥، وعبد الرزاق (٥٤٠/٢)، والطحاوي في شرح المعاني (٤١٩/١). وراجع الكلام على هذا الحديث في نصب الراية (١٨٧/٢)، التلخيص (٢٥٢/٢)، إتحاف السادة المتقين (٣٦٨/٤).

الشنفري^(١):

كَأَنَّ وَغَاَهَا حَجْرَتِيهِ وَجَالَهُ أَضَامِيمٍ مِنْ سَفْرِ الْقِبَائِلِ نُزِّلَ
ومنه: طائر وطير ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [النحل: الآية ٧٩] فجعل
(مسخرات) جمعاً نظراً إلى الطير. وهذا يكثر في كلام العرب، والأظهر أن
(الفعل) هنا جمع (الفاعل) وصفاً. وعامة علماء العربية ممن تكلموا في
جموع التكرير لم يجعلوا (فعلًا) من صيغ الجموع، ويزعمون أن هذه الذي
ذكرنا أن الأظهر جموع أنها أسماء جموع. هكذا يقولون. والمراد بالركب
هنا: الجماعة الذين هم في غير أبي سفيان.

وقوله: ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ ظرف والخبر واقع في هذا الظرف.
وقراءة: ﴿أَسْفَلُ مِنْكُمْ﴾^(٢) شاذة وقراءة الجمهور: ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ هو
في مكان، وهذا المكان أسفل، ومعنى كونه أسفل: أن وادي بدر
ذاهب إلى جهة البحر، فكل ما قُرب من البحر منه فهو أسفل، وما
بُعد منه فهو أعلى.

قال بعض العلماء: في هذه الآية الكريمة سؤال، وهو أن يُقال: ما
الفائدة في تعيين أن النبي ﷺ وأصحابه في عُدوة وادي بدر الدنيا، وأن
المشركين في عُدوة وادي بدر القصى، وأن الركب أسفل من الجميع، ما
الحكمة في هذا، وأي فائدة في معرفة مواضع القوم كلهم^(٣)؟

أجاب بعض العلماء عن هذا بأن فيه سرّاً لطيفاً، قالوا: المعنى
نصركم الله وفرق بين الحق والباطل بأن نصركم عليهم وظروفكم الراهنة
تساعدهم على أن يغلبوكم؛ لأن العُدوة الدنيا كانت أرضها خباراً^(٤)، أرضاً

(١) البيت في ديوانه ص ٦١.

(٢) انظر: البحر (٤/٥٠٠).

(٣) السابق.

(٤) قال في القاموس: «والخَبَارُ كسحاب: ما لان من الأرض واسترخى» ا.هـ (مادة: الخبر)

رخوة تسوخ فيها الأقدام، ولا يتيسر فيها المشي، ولا ماء فيها، فمن فيها عطاش. والعدوة القصوى كانت بخلاف ذلك يسهل المشي عليها، فهم في هذا كانوا أولى بأن يسبقوكم على الماء ويمنعوكم منه فيقتلوكم، وأنه في ذلك الوقت غيرهم نجت، وتمت نعمتهم، وأموالهم متكاثرة، وهم في الموضع الذي هو أحسن من موضعكم، ومع هذا كله فقد نصركم الله عليهم؛ لأن الله لما أرسل المطر المتقدم في قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ﴾ [الأنفال: الآية ١١] كانت العدو القصوى طيناً ووحلاً، وكانت العدو الدنيا رملها متلبد تمشي عليه الأقدام بخفة، فكان هذا أنسب؛ ولذا قال: ﴿أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] ثم قال في حكمته وقع هذا ونزل هذا الفرقان وأنتم على هذه الحالة تكادون أن تجتمعوا على غير ميعاد؛ لأنه لو تواعدتم وضرب بعضكم لبعض أجلاً وميعاداً لاختلقتم في الميعاد لو كنتم في هذا العدد من الضعف وكان بينكم وبينهم موعد سابق لجنبتم ولفشلتهم عنهم، ولما تجرأتم على الإقدام عليهم، ولو كنتم مستعدين وعندكم جمع قوي لفشلوا وجبنوا ولم يتجرؤا عليكم، فجمعكم الله بغير ميعاد لحكمته (جل وعلا)؛ لأن غزوة بدر شيء جعله الله (جل وعلا) بقدرته لم تتسن أسبابه، إلا أن الله (جل وعلا) سببها، ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ أَبَى: واعد بعضكم بعضاً في الموضع الذي تلتقون فيه والمكان الذي تلتقون فيه، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لخاف بعضكم من بعض، وجبن بعضكم عن بعض، ولما اتفقتم ليحصل ما حصل، ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بحكمته (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكن الله جمعكم على غير ميعاد فخرجتم أيها المسلمون إلى غير أبي سفيان، وخرج الكفار إلى إنقاذ غيرهم، وشاء الله أن تجتمعوا ويوقع الله ما أوقع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا﴾ هو إعزاز دين الإسلام، وبيان برهانه ودليله، وفرق الحق من الباطل بإعزاز الدين، وإعلاء كلمة الله، وإذلال الكفر، وقتل رؤسائه وصناديده. كان هذا أمراً مفعولاً لا محالة، شاءه الله وقدره وهو واقع لا

محالة إذا جاء وقته المحدد له في مكانه المحدد له في علمه جل وعلا.
وهذا معنى قوله: ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٣) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَازِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتَهُمْ كَثِيرًا لَفُتِنْتُمْ وَلَلْتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمُورِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٤﴾ [الأنفال: الآيتان ٤٢، ٤٣].

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢] قرأ هذا الحرف نافع، وابن كثير في رواية البرزي، وعاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿ويحْيَىٰ من حَيَّي عن بينة﴾ بفك الإدغام في (حَيَّي) وقرأه بقية السبعة: ﴿ويَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ بإدغام الياء في الياء^(١). وهذه الكلمة إنما كتبت في المصاحف العثمانية بحاءٍ وياءٍ واحدة، ولكنه عند الضبط الذين يقرؤون (حبيي) بياءين بفك الإدغام يكتبون ياء حمراء يبينون بها أنها لم تكن في رسم المصحف العثماني. فهما قراءتان سبعيتان، ولغتان فصيحتان ﴿ويحْيَىٰ من حَيَّي عن بينة﴾، ﴿ويَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

وقوله: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ إنما أوقع الله ما أوقع في بدر من الفرق بين الحق والباطل المبين في قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النُّقَى الْجَمْعَانِ﴾ هذه (لام كي) المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة. والمعنى: فرق بين الحق والباطل بإيضاح أن دين الإسلام حق، وأن عبادة الأوثان باطل؛ لأجل أن يهلك من هلك؛ لأجل أن يهلك بكفره المتمادي على الكفر بعد وضوح بطلانه عن بينة، أي: عن دليل واضح وبرهان قاطع لا يُشك في الحق معه؛ لأن البراهين المحسوسة يدركها الغبي ولا تختص بالعالم. ﴿ويَحْيَىٰ﴾ بدين الإسلام ﴿مَنْ حَيَّ﴾ به ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي: عن دليل واضح؛ لأن ذلك الفرقان جعله الله بوقعة بدر ليؤمن المؤمنون على برهان

(١) انظر: السبعة ص ٣٠٦ الإتحاف (٢/٨٠).

وبصيرة وبيان قاطع، ويكفر الكافرون على وضوح أيضاً وبيان وبرهان قاطع.

والْبَيِّنَةُ^(١): كل دليل لا يترك في الحق لبساً تسميه العرب (بَيِّنَةً) ومنه قيل للشهود الشَّاهِدِينَ على الحق: (بَيِّنَةً)؛ لأنهم يبينون ويوضحون من له الحق ومن عليه الحق. وهذا هو التحقيق في معنى قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع كل ما يقوله خلقه، ويعلم كل ما يفعله خلقه.

وكونه (جل وعلا) سمياً عظيماً هذا هو البرهان الأكبر والزاجر الأعظم الذي لا تكاد تقلب ورقة واحدة من المصحف الكريم إلا وجدته فيه؛ لأن المصحف الكريم لا تكاد تنظر في موضع منه إلا وتجد فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ٢٣١] ﴿خَيْرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٣] ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٤] ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: الآية ٥] لا تكاد تحصي هذا؛ لأن هذا أكبر واعظ وأعظم زاجر أنزله الله من السماء إلى الأرض، وأنه هو الذي يحصل به النجاح في محك الاختبار الإنساني بأسره.

وإيضاح هذا الكلام: أن الله (جل وعلا) بين في آيات من كتابه أن الحكمة التي خلق السماوات والأرض والخلائق من أجلها هي أن يبتلي خلقه في نقطة واحدة هي: إحسان العمل^(٢)، وليست بكثرة العمل، قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً، وقال في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[الكهف: الآية ٧] ولم يقل: أكثر عملاً. وقال في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً. فدلّت هذه الآيات على أن محكّ الاختبار هو إحسان العمل؛ ولذا كل الناس يقول: «ليتني أدركت ما أنجح به في هذا الاختبار، وعرفت الطريق الذي يتوصّل بها إلى أن أكون أحسن عملاً». وكان جبريل (عليه الصلاة والسلام) لاحظ شدة الحاجة إلى هذه النقطة الحساسة فأراد أن يبيّن لها لأصحاب رسول الله ﷺ ليعلمهم هذا العلم العظيم، فجاء في صورة أعرابي في حديثه الصحيح المشهور، وقال للنبي ﷺ في جملة ما سأله عنه: يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أخبرني عن الإحسان. يعني: وهو الذي خُلق الخلق للاختبار فيه، فبيّن له النبي ﷺ أن طريق الإحسان ووسيلته الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي هو مراقبة خالق هذا الكون (جل وعلا). فقال له: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١). ولأجل تأكد هذا العلم وإحضاره في ذهن كل مسلم كنت لا تقلب ورقة من المصحف الكريم إلا ووجدت فيها هذا الزاجر الأكبر والواعظ الأعظم: أن ربك مطلع على كل ما تقول وكل ما تفعل. ولو علم أهل بلد أن أمير ذلك البلد يعلم كل ما يفعلونه بالليل من الخسائس لباتوا متأدبين لا يفعلون إلا ما لا يجر لهم ضرراً، وهذا خالق السماوات والأرض (جل وعلا) يعلم خطرات القلوب، ومع هذا لا يبالون بهذه الزواجر العظام والمواعظ الكبار.

وقد ضرب العلماء لهذا مثلاً^(٢) قالوا: ولو فرضنا - ولله المثل الأعلى - أن في هذا البراح من الأرض ملكاً عظيماً شديد البأس والبطش إذا انتهكت حرّماته، وحوله نساؤه وجواريه وبناته، وحوله جلوس، هل يخطر في ذهن أحد أن أحداً من أولئك الجلوس يهتم بريبة، أو غمزة عين، أو إشارة؟ لا وكلا، كلهم خاضع خاشع الجوارح، أمنيته السلامة.

(١) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

والله (جل وعلا) - وله المثل الأعلى في السماوات والأرض - أعظم بطشاً وأشد نكالاً، وأعظم اطلاعاً، وجمّاه في أرضه محارمه، فالمسلمون إذا ذكروا هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم حاسبوا، ولم يفعلوا ما يخجلهم أمام ربهم (جل وعلا)؛ ولذا كثر في القرآن هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم بعد كل أوامر وكل نواهي، ومنه قوله هنا: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَّعِجٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٢].

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] قال بعض العلماء: (إذ) بدل من الظروف قبله. وقال بعضهم: منصوب بـ (اذكر) مقدرًا^(١).

ومعنى الآية الكريمة: أن النبي ﷺ رأى على التحقيق فيما يرى النائم - ومعلوم أن رؤيا الأنبياء وحي لا شك فيها - أراه الله في نومه أن المشركين قليل جداً. وبعض العلماء أنكروا معناها الواضح المتبادر للذهن؛ لأنه لم يفهم الحقيقة. قالوا: كيف يُريهم قليلاً في منامه ورؤيا الأنبياء حق، والنبي ﷺ يعلم أنهم حوالي ألف، كيف يعلم أنهم قريبون من الألف ويرى في المنام خلاف ما هو يعلم مع أن رؤيا الأنبياء حق^(٢)؟ وغفل من قال هذا القول وإن قال به جماعة من أجلاء العلماء؛ لأن رؤيا النبي ﷺ حق، وتأويلها حق، كما قال يوسف: ﴿قَدْ جَعَلْنَا رَبِّيَ حَقًّا﴾ [يوسف: الآية ١٠٠] لأن معنى رؤياه هو ما سيأتي في قوله: ﴿وَيَقْلُلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣]. لأن الله قلل كلاً من الطائفتين في عين الأخرى في اليقظة حتى إنهم لما تصوبوا من عقنقل بدر قال ابن مسعود (رضي الله عنه): قلت لصاحبي: أتراهم يبلغون السبعين؟ قال: أظنهم يبلغون المئة^(٣). من شدة تقليل الله لهم في عيون الصحابة، والله قلل الصحابة في عيون المشركين

(١) انظر: الدر المصون (٦١٥/٥).

(٢) انظر: البحر (٥٠١/٤).

(٣) أخرجه ابن جرير (٥٧٢/١٣). وعزاه في الدر (١٨٩/٣) لابن أبي شيبة، وابن جرير، وأبو الشيخ، وابن مردويه.

حتى قال أبو جهل: إنهم أكلتة جزور. يعني: الجزور قد يأكلها ناس قليلون. فقلل الله هؤلاء في أعين هؤلاء، وهؤلاء في أعين هؤلاء، فبعد أن التحم القتال والتقى الصفان أكثر الله المؤمنين في أعين الكافرين حتى صاروا يظنونهم ضعفيهم، كما تقدم في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: الآية ١٣] لأن الكفار يعيونهم يرون أن المسلمين أكثر منهم بالضغف؛ لأن الله فعل كل ذلك لحكمة قبل أن يتلاقى هؤلاء وهؤلاء، جعل هؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، وهؤلاء قليلاً في أعين هؤلاء، ثم لما التحم القتال والتقى الصفان أكثر المسلمين في أعين الكافرين فظنوا أنهم أكثر منهم مرتين؛ ولذا قال هنا: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٣] لأن النبي ﷺ أراه الله الكفار في النوم قليلاً وأخبر بها أصحابه ففرحوا بذلك وقويت قلوبهم وتهيؤوا للقتال، والله (جل وعلا) صدق تلك الرؤيا بأن قللهم في أعينهم يوم بدر، كما يأتي الآن، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ لَفِشَلْتُمْ﴾ لو أراك في النوم أنهم عدد ضخم كثير كالآلف وأخبرتهم بذلك لخافوا وقالوا: لم نستعد لهؤلاء، وإنما خرجنا للعبير!! كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥، ٦] وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ لَفِشَلْتُمْ﴾ الفشل ضد النجاح، وهو الجبن والخور. أي: لأصابكم الخور والجبن وتنازعتم في هذا الأمر، هذا معنى قوله: ﴿لَفِشَلْتُمْ وَلَنْتَرَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ بأن قال قوم: نذهب إليهم وإن كانوا كثيراً. وقال آخرون: ما ذهبنا إلا للعبير، وما ذهبنا مستعدين لنفير كثير. وحصل فيكم الفشل والتنازع في الأمر ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿سَلَامًا﴾ من هذا الفشل ومن هذا التنازع بأن أرى رسوله ﷺ في المنام أنهم قليلون لتجرؤوا عليهم، وقللهم في أعينهم فعلاً يقظة رأي العين، وقللهم في أعينكم تصديقاً لرؤيا الرسول ﷺ هذا معنى قوله: ﴿وَلَا كُنَّ اللَّهُ سَلَامًا﴾.

﴿إِنَّهُ عَلَيْهِمْ يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾ المراد بذات الصدور: ما يصاحب الصدور ويكمن فيها من الخواطر والهواجس، وقد علم أنه لو أراه إياهم

كثيراً لتنازعتهم في ذلك الأمر ولفشلتم، فهو يعلم بما يهجس في الصدور، وما يخطر فيها، وما توسوس به النفوس، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٣].

ثم قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ [الأنفال: الآية ٤٤] فهذا رأي في العين تصديقاً لرؤياه ﷺ واذكر حين يريكموهم الله في منامك قليلاً. الصحيح أن (قليلاً) هنا و (كثيراً) أنهما حالان، وأنها (رأى) البصرية عُديت بالهمزة فتعدت إلى مفعول آخر، وأن (قليلاً) ليس مفعولاً ثالثاً، خلافاً لمن قال من بعض العلماء: إنها عُديت هنا إلى المفعول الثالث. والأصوب: أن (قليلاً) هنا حال، وأنها ليست بمفعول ثالث؛ لأن (رأى) هذه بصرية لا علمية على التحقيق^(١). وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ يعني ترونهم كأنهم شيء قليل لتتجرؤوا عليهم وتشجعوا وتقوى نفوسكم عليهم، وقد جاء عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنهم لما تصوبوا من كتيب بدر قال لرجل معه: أظنهم يبلغون سبعين - وهم ألف - فقال الرجل: أرى أنهم يبلغون المئة^(٢). هذا من شدة تقليلهم في أعينهم ليتجرؤوا عليهم، كذلك ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَابِ السَّيِّئِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] من شدة استقلاله لهم، وظنه أنهم لا شيء!! وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَابِ السَّيِّئِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَابِ السَّيِّئِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٥] وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِيْ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ أَصْحَابِ السَّيِّئِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٢٥].

(١) انظر: الدر المصون (٦١٥/٥).

(٢) مضى قريباً.

(جل وعلا) ولذا قال: ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَمَا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

﴿وَالِىَ اللَّهُ﴾ جل وعلا وحده ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ قرأ هذا الحرف ابن عامر، وابن كثير، وأبو عمرو^(١): ﴿وَالِىَ اللَّهُ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ ببناء الفعل للفاعل. وقرأه بقية السبعة: ﴿وَالِىَ اللَّهُ تُرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ ببناء الفعل للمفعول. فـ (الأمور) على الأول فاعل (ترجع) وعلى القراءة الثانية: نائب فاعل (ترجع)^(٢). و (الأمور) جمع أمر، ويعم كل الشؤون. والمعنى: مدار الأمور ومصيرها إليه (جل وعلا) كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: الآية ٥٣] وقد صار إليه هذا الأمر وآل إليه فنفذ فيه مشيئته وقدرته، وهى الأسباب حتى هزم الكفرة وقتل صناديدهم ورؤساءهم وكسر شوكتهم على أيدي أوليائه المسلمين، ونصر نبيه ﷺ وأصحابه وأيدهم بنصره، وهذا قضاؤه وقدره (جل وعلا)، والله يهيؤ الأسباب، ولو شاء فعل بلا سبب، إلا أنه اقتضت حكمته أن يرتب المسببات على أسباب، ويسبب للأشياء (جل وعلا) سبحانه وتعالى.

/ ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا عَنْهَا فَاغْلِبُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِيشًا النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٤٨) [الأنفال: الآيات ٤٥ - ٤٨].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) [الأنفال: الآية ٤٥].

(١) قرأه بالبناء للفاعل: ابن عامر وحمزة والكسائي.

وبالبناء للمفعول: ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم.

انظر: السبعة ص ١٨١، المبسوط لابن مهران ص ١٤٥، إتحاف فضلاء البشر (٢/٨٠).

(٢) انظر: حجة القراءات ص ١٣٠ - ١٣١.

هذه الآية الكريمة تضمنت تعليم الله لنبيه وأصحابه بعض الخطط العسكرية، قال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ناداهم باسم الإيمان ليكون ذلك مدعاة للقبول: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: طائفة. أي: جيشاً من جيوش الكفار يقاتلونكم إذا لقيتموهم في ميدان القتال والتحتمم أنتم وهم ﴿فَأَتَّبِعُوا﴾ يعني: لا تنهزموا، ولا تولوهم الأدبار، فاصمدوا أمامهم واثبتوا، ولا تتزعزعوا، ولا تنهزموا، ولا ترجعوا القهقري. وهذا تعليم من خالق السماوات والأرض للمسلمين إذا التحم القتال أن يثبتوا ويصمدوا صمود الرجال، ولا ينهزموا ولا يرجعوا القهقري.

ثم إنه علمهم التعليم الأكبر الذي هو سبب للنصر والظفر في جميع الميادين، قال: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (كثيراً): نعت لمصدر محذوف. أي: ذكراً كثيراً ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا^(١). وهذا هو التعليم السماوي للخطط الميدانية التي يحصل بها انهزام الكفر وانكسار شوكته، كأنه يقول لهم: في هذا الوقت الضنك الحرج الذي التحتمم فيه مع جيوش الكفار في هذا الوقت قووا صلتكم بمن خلقكم - جل وعلا - واذكروه ذكراً كثيراً. والمعنى: أنكم عند هذه الشدائد، وعند التحام القتال والمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم، في هذا الوقت الضنك الحرج وثقوا صلتكم بالله، واذكروا ربكم ذكراً كثيراً، فبذلك ينزل عليكم المدد من السماء، ويتسنى لكم النصر، وتقهر الكفار، وتنكسر شوكة الكفر. هذه عادة التعاليم السماوية، تجمع للناس بين ما تنتعش به أرواحهم، وبين ما تتقوى به أجسامهم^(٢)، فالتعاليم السماوية تعطي الإنسان نصيب جزئيه، أعني: نصيب جسمه ونصيب روحه، وإذا أهمل أحد النصيبين تحقق الفشل والخور والهزيمة؛ لأن هذا الإنسان هو حيوان مركب من عنصرين مختلفين اختلافاً أساسياً جوهرياً؛ أحدهما: يُسمى الجسم، والثاني: يُسمى الروح، فالإنسان جسم وروح، فأحد عنصريه اللذين هما أساساه: الروح، والثاني:

(١) انظر: الأضواء (٤١٣/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

الجسم. والروح والجسم مختلفان اختلافاً أساسياً جوهرياً، وبحسب اختلافهما الأساسي تختلف متطلباتهما في هذه الحياة، فللجسم متطلبات لا بد له منها، وللروح متطلبات لا بد له منها، ولا تغني متطلبات هذا عن متطلبات هذا. والقرآن العظيم يعطي كلاً من العنصرين حقه كما ينبغي. يقول: أعطوا الأجسام حقها بالثبوت والصمود، وأعطوا الأرواح حقها بتغذيتها بصلتها بخالقها وتقويتها، وانتظار المدد من السماء.

ونظير هذه الآيات: إذا قرأتم آيتين من سورة النساء فاهتمم هذا المعنى كما ينبغي، وهما الآيتان اللتان أنزلهما الله في صلاة الخوف، فإنه يقول لنبيه: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَرُيُوسَلُوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] هذا وقت التحام الكفاح المسلح، فالمفروض أن الرجال تنزل رؤسهم عن أعناقهم في هذا الوقت الضنك الحرج، فالقرآن الذي هو تنزيل رب العالمين يوضح الخطة العسكرية كما ينبغي^(١)، على الوجه الذي يردون فيه العدو، وليتسنى لهم في ذلك الوقت الاتصال بخالق السماوات والأرض وأداء أدب من الأداب الروحية الذي هو الصلاة في الجماعة في ذلك الوقت، فالصلاة في الجماعة وقت التحام ذلك الكفاح المسلح هي من ذكر الله المأمور به هنا في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ﴾ فالمؤمنون إن ساروا في ضوء هذه التعاليم السماوية، وكانوا في طاعة الله، وفي ذكر الله، وتقدموا صابرين في الميدان فإنهم لا يقوم أمامهم شيء، كما هو مشاهد في التاريخ لأن هؤلاء الرجال الذين علموا هذا التعليم في آية الأنفال هذه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وفي سورة النساء: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: الآية ١٠٢] ليصلوا الجماعة في ذلك الوقت الحرج، ويقوّون صلتهم بالله، هؤلاء الذين أخذوا بهذه التعاليم هم الذين أخذوا كنوز قيصر وكسرى، وحملوا نور الإسلام في مشارق الدنيا، ودان لهم جميع الأمم،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٦) من سورة الأنعام.

ورفعوا رايات الإسلام في جميع أقطار الدنيا. أما هؤلاء الذين يبيتون يشربون الخمر، وتعزف عليهم القيان، وهم في المجالس الماجنة الخليعة، ثم بعد ذلك يصبحون في الميدان فهؤلاء ليسوا برجال ميدان، ولا يُرجى منهم تحقق شيء، ولا رد مسلوب من بلاد، ولا من مجد، ولا من شيء!! فما دام الذين يتقدمون في خطوط النار الأمامية فجرة، شربة للخمر، أصحاب معازف وغواني وملاهي، فهؤلاء من يزيد النصر ويؤمله من ورائهم فهو مغفل؛ لأن هؤلاء ليسوا برجال ميدان، فلا يمكن أن يردوا مسلوباً من مجد ولا من بلاد، ولا أن ينتصفوا من أحد كائناً ما كان؛ لأنهم تركوا التعاليم السماوية والخطط العسكرية التي هي كفيلة بقمع الكفار، وإيقافهم عند حدهم، وكسر شوكة الكفر، وإعلاء كلمة الله جل وعلا.

فالحاصل أن السلاح الأكبر في ميادين القتال هو ذكر الله - جل وعلا - وطاعته وامتثال أمره؛ لأنه هو الذي منه النصر والمدد. والله كذلك يأمر خلقه ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ أما الذين إذا لقوا فئة فلا يذكرون الله، وليس في قلوبهم خشية من الله، ولا عمل بدينه، فهؤلاء لا يؤمل من ورائهم فائدة إلا مغفل مثلهم لا يفهم شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ ذكراً كثيراً؛ لأن ذكركم لله كثيراً تقوى به أرواحكم، وتتصلون به بربكم، وينزل لكم بسببه المدد من خالق السماوات والأرض.

والصحابية (رضي الله عنهم) كذلك كانوا يفعلون، يذكرون الله ويخافونه في الميدان فيأتيهم النصر؛ ولذا قهروا الدنيا بأسرها، وأخذوا كنوز قيصر وكسرى كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال بعض العلماء^(١): (لعل) في القرآن كلها مشمة معنى التعليل، فهي تفيد معنى التعليل، إلا التي في الشعراء: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: الآية ١٢٩] قالوا: فهي بمعنى:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

كأنكم. والتحقيق أن لفظة (لعل) تأتي في اللغة العربية مُراداً بها التعليل، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

فَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الحُرُوبَ لَعَلَّنا نَكْفُ ووثقتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقِ
فَلَمَّا كَفَفْنَا الحَرْبَ كَانَتْ عُهُودُكُمْ كَشِبْنِهِ سَرَابٍ بِالْفِلا مُتَأَلِّقِ
فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿تُقْلِحُونَ﴾ هو مضارع (أفْلَح الرجل، يُفْلِح، فهو مُفْلِح). إذا نال الفلاح. والفلاح يُطلق في لغة العرب إطلاقين معروفين مشهورين^(٢):

أحدهما: تطلق العرب الفلاح بمعنى الفوز بالمطلوب الأكبر، فكل من فاز بالمطلوب الذي كان يهتم به جداً، وهو من أكبر مطالبه، تقول العرب: أفْلَح هذا. أي: فاز بما كان يطلب، وهذا معنى معروف في كلامها، ومنه قول لبيد بن ربيعة^(٣):

فَاعْقِلِي إِنْ كُنْتِ لِمَا تَعْقِلِي وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ كَانَ عَقْلَ
أي: من رزقه الله العقل ففاز بالمطلوب الأكبر في الدنيا.

الإطلاق الثاني: هو إطلاق العرب الفلاح على البقاء السرمدي في النعيم، فالعرب تقول: أفْلَح هذا، إذا كان باقياً خالداً في نعيم سرمدي، وهذا المعنى معروف مشهور في كلام العرب أيضاً، ومنه قول لبيد بن ربيعة أيضاً^(٤):

لَوْ أَنَّ حَيًّا مُدْرِكَ الفِلاحِ لَنَأَلَهُ مُلَاعِبُ الرِمَاحِ
يعني بقوله: «مدرِك الفلاح»، أي: مدرِك البقاء بلا موت، ونظيره من كلام العرب: قول كعب بن زهير، أو الأضبط بن قريع، كما قيل بكل منهما^(٥):

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١١) من سورة الأنعام.

(٥) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهَمُومِ سَعَةً وَالْمُسْنِي وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
أَي: لَا بَقَاءَ فِي الدُّنْيَا مَعَ تَكَرُّرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

إِذَا عَرَفْتُمْ مَعْنِي الْفَلَاحَ فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ (جَلَّ وَعَلَا) وَذَكَرَهُ كَثِيرًا نَالَ
الْفَلَاحَ بِمَعْنِيهِ، فَفَازَ بِمَطْلُوبِهِ الْأَكْبَرِ وَهُوَ الْجَنَّةُ وَرَضَا اللَّهُ، وَنَالَ الْبَقَاءَ
السَّرْمَدِي الْأَبَدِي فِي نَعِيمِ الْجَنَّةِ.

وَهَذِهِ آيَةُ الْكَرِيمَةِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِينَ إِذَا لَقُوا فِتْنَةً مِنْ فِتْنَاتِ الْكُفْرَانِ
فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ وَلَمْ يَشْتُوا أَوْ لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا، أَنَّهُمْ لَا يَفْلِحُونَ. وَهُوَ
كَذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَلْتَضَّرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾
[الأنفال: الآية ١٠] قَالَ فِي بَدْرِ: ﴿وَمَا أَلْتَضَّرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مَعَ أَنَّهُ أُنزِلَ
مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ نَاصِرِينَ، يَعْنِي: لَا تَظُنُّوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَنْصُرُونَكُمْ، النَّاصِرُ
هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ (جَلَّ وَعَلَا)؛ وَلِذَا قَالَ: ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥].

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] هَذِهِ التَّعَالِيمُ السَّمَاوِيَّةُ
الْكُفَيْلَةُ بِالنَّصْرِ وَالظَّفَرِ وَقَمْعِ الْقِرْدَةِ الْكُفْرَةِ وَإِقْفَافِهِمْ عِنْدَ حُدُومِ ﴿أَطِيعُوا
اللَّهَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ ﷺ فِيمَا
يَنْهَىكُمْ عَنْ رَيْبِكُمْ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾
[النجم: الآيتان ٣، ٤].

وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَطِيعُوا﴾ الْبَاءُ الَّتِي بَيْنَ الطَّاءِ وَالْعَيْنِ أَصْلُهَا (وَاو) لِأَنَّ
الْمَادَةَ مِنْ (الطَّوْع) فَهُوَ أَجُوفٌ وَآوِي الْعَيْنِ، أَصْلُهَا: «أَطُوعُوا» مِنْ «الطَّوْع»
لَا يَأْتِي مِنَ (الطَّنِيع) ^(١).

وَمَعْنَى إِطَاعَةِ اللَّهِ: هِيَ الْإِنْقِيَادُ لِامْتِثَالِ أَوْامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، فِي
النِّيَّاتِ وَالْأَفْعَالِ وَكُلِّ شَيْءٍ، وَهَذَا مَعْنَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ أصله: لا تتنازعوا، لا ينازع بعضكم بعضاً وتختلفوا؛ لأن الناس غالباً تختلف نحلهم ووجهات نظرهم. يعني: إذا اختلفت وجهات نظركم لا تتنازعوا وكل منكم ينصر ما رآه فيخالف أخاه، بل كونوا متفقين دائماً؛ لأن الله (جل وعلا) شرع لكم طريقة تتفقون عليها وهي اقتفاء نبيكم ﷺ والسير في ضوء الكتاب الذي أنزله عليه والسنة التي تركها ﷺ. وما دام هو ﷺ موجوداً بين أظهرهم فمعلوم أن المصير إلى ما يقوله ﷺ، وهذا معنى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا﴾ فإنه نهاهم عن النزاع؛ لأن التنازع أكبر أسباب الفشل.

والتنازع غالباً يكون بسبب الأغراض الشخصية، وتقديم الأغراض الشخصية الدنيوية على المصالح العامة، فهذه البلية سوسة في الدنيا، وهي أضّر أدواء هذا العالم، وهي تقديم المصالح الشخصية على المصالح العامة، وقد نزلت بسببها بليّة يتضمنها إشكال أزاله الله بفتوى سماوية من عنده؛ لأن الله (جل وعلا) ربما سلط بعض الكفار على بعض المسلمين، وهي مشكلة واقعة الآن، يقول هؤلاء الشباب - الذين هم خفافيش أعماهم نور الإسلام، فصاروا يتطلبون النور في ظلام آراء الكفرة الفجرة - يقولون: كيف نكون على الحق وديننا دين حق ونحن مستضعفون مضطهدون في أقطار الدنيا، والكفار الذين تقولون: إنهم على باطل وليسوا على حق هم الذين معهم القوة والسيطرة، يبتزون ثرواتنا، ويضطهدوننا في أقطار الدنيا؟ وهذه المشكلة إنما يسببها التنازع والفشل، والأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح العامة. وهذا الإشكال بعينه قد استشكله أصحاب رسول الله ﷺ والنبي ﷺ موجود بين أظهرهم، والمَلَك يروح ويغدو بالوحي، فأفتى الله فيه فتوى سماوية هي قرآن يتلى في سورة آل عمران، وذلك أن النبي ﷺ يوم أحد لما صف الصفوف، والتحم القتال بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون سبعمائة مقاتل، والمشركون ثلاثة آلاف مقاتل، أخذ عبدالله بن جبير - أبا خوات بن جبير - (رضي الله عنهم) وأمره على طائفة الرماة، وقال له: «كونوا عند سفح هذا الجبل - يعني جبل أحد - ولا تأتونا أبداً، إن عَلَبْنَا القوم فلا تأتونا،

وإن غلبناهم فلا تأتونا»^(١)، وأمرهم بأن يثبتوا عند سفح الجبل لئلا يأتيهم القوم من وراء من بينهم وبين الجبل، فلما التحم القتال في المرة الأولى، وهلك حملة اللواء من بني عبد الدار، وانهزم المشركون هزيمة منكرة، ترك الرماة أمر رسول الله ﷺ لمصالحهم الشخصية، وهي الانتفاع بمال الغنيمة، فقال لهم رئيسهم عبدالله بن جبير (رضي الله عنه): أما أنا فلا أخالف قول رسول الله ﷺ. وبقي معه نفر قليل. والآخرين راحوا يطلبون الأغراض الشخصية الدنيوية، وتركوا أمر الرسول. فنظر المشركون فإذا الجبل ليس دونه رجال، فجاؤوا من سفح الجبل وأتوهم من وراء ظهورهم، ودارت عليهم رحى الحرب، وأوقع الله ما أوقع بالمسلمين، كما قصه في سورة آل عمران في يوم أحد، قُتل من خيار الأنصار سبعون رجلاً، وقُتل عم رسول الله ﷺ أسدالله حمزة بن عبد المطلب، وقُطع أنفه وأذناه، وأخذ بعض كبده لهند بنت عتبة، وقُتل ابن عمته عبدالله بن جحش، وقُتل حامل رايته مصعب بن عمير العبدي (رضي الله عنه). وشماس بن عثمان المخزومي، وأوقع الله ما أوقع بسبب تلك الأغراض الشخصية وتقديمها على أمر الرسول ﷺ، وجرح ﷺ وشقت شفته السفلى اليمنى، وكسرت رباعيته، وشج حتى غاص في جبهته بعض حلق المغفر الذي هو على رأسه، وانتزعه أبو عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) فسقطت معه ثنيتاه العليان لقوته، فكان أثرم (رضي الله عنه)، أي: ساقط الثنيتين. لما وقع هذا استشكله أصحاب رسول الله ﷺ هذا الاستشكل، وقالوا: كيف يُدال منا المشركون، وتكون لهم دولة علينا، ويقتلوننا ويجرحوننا وفينا رسول الله ﷺ ومعنا الحق؟ فهذا هو وجه الإشكال. فأفتى الله بإزالة هذا الإشكال فتوى سماوية، قرأناً يُتلى في آل عمران، قال: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ [آل عمران: الآية ١٦٥] يعني يقتل السبعين الذين قُتلوا منكم يوم أحد ﴿فَدَّ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا﴾ سابقاً يوم بدر بأن

(١) البخاري في الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب. حديث

رقم: (٣٠٣٩) (١٦٢/٦). وأطرافه في (٣٠٤٣، ٣٩٨٦، ٤٠٦٧، ٤٥٦١).

قتلتم سبعين وأسرتم سبعين على أصح التفسيرين وأكثرهما قائلًا، ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ وهو محل الشاهد، هذا استشكال الصحابة ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ من أين جاءنا هذا، وكيف يُدالون منا، ونحن على حق، وهم على باطل، وفينا رسول الله ﷺ، وعلينا ينزل القرآن؟ كيف يُدالون منا؟ هذا الاستشكال نص عليه الله في قوله: ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ فأجاب الله بفتواه الإلهية السماوية قال لرسوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ من قبلكم جاءت البلية، وأنتم الذين جنيتموها على أنفسكم، وقوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فيه إجمال أوضحه الله في آية سورة آل عمران هذه، أوضحه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: الآية ١٥٢] يعني: بالنصر على الأعداء ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ﴾ يعني تقتلونهم قتلاً ذريعاً يطفأ معه الحس، ويزول الحس بعده. ﴿إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَقٌّ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ من هذه البلايا جاءت البلية ووقع ما وقع؛ ولذا نهى الله عن هذا قال: ﴿وَلَا تَنَزَّعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وأكبر أسباب النزاع: تقديم المصالح الشخصية والأغراض الدنيوية على المصالح العامة. وهذه أكبر البلايا التي يأتي من قبلها الشر للمسلمين؛ لأنه قد يخالف بعض المسلمين فتكون العقوبة عامة للجميع. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَنَزَّعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

الفشل: ضد النجاح. قال بعض العلماء: معناه تضعفوا ويستولي عليكم الخور^(١) ﴿فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ الإنسان إذا كان في عمل يدبره ليحصل وراءه نتيجة فإن تم له عمله ووقع ما أراد قالت العرب: نجح في أمره. وإن كان عكس ذلك قالوا: فشل في أمره، لم ينجح. وقال بعض العلماء: ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ يستولي عليكم الضعف والخور؛ لأن النزاع من أكبر أسباب الضعف والخور وعدم انتظام الكلمة، وهذا النزاع والاختلاف هو مشكلة عظمى في أقطار الأرض؛ لأن من يتسمون باسم المسلمين ينازع

(١) انظر: ابن جرير (٥٧٥/١٣).

بعضهم بعضاً، ويعادي بعضهم بعضاً، وقد بين تعالى في سورة الحشر أن اختلاف القلوب، والمنازعات الشديدة، وتشنت الآراء والأفكار، وعدم الاتحاد، أن سبب هذا الذي يجتلبه به إنما هو ذهاب العقل وعدم العقل؛ لأن العاقل لا يتسبب في المخالفة؛ لأنك إذا اختلفت أنت وأخوك كان تدبيره وكل ما عنده من قوة يعمل ضدك، فإذا كنت عاقلاً - ولو عقلاً دنيوياً - كان تسببك في أن يكون معك؛ لأن كون قوته وما أعطاه الله في صالحك خير لك من أن يكون في غير ذلك؛ ولذا بين تعالى أن سبب اختلاف القلوب هو ضعف العقول وعدمها، قال في قوم - وهم اليهود لعنهم الله - ﴿بِأَسْمِهِمْ يَنْتَهَرُ شَرِيحُهُمْ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: الآية ١٤] أي: مختلفة مفترقة، فرق متعادية مختلفة. ثم بين العلة التي أوجبت تشتت تلك القلوب قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلل تعتم معلولاتها وتخصصها كما هو معلوم في محله^(١). وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] الفاء سببية. والمعنى: أن التنازع سبب للفشل، والفشل: عدم النجاح والضعف والخور وعدم التمكن. والفاء سببية، والمضارع منصوب بعدها بـ (أن) المضمرة كما هو معلوم في محله. وقوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معطوف على المنصوب بـ (أن) المضمرة قبله.

وقوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ للعلماء في المراد بالريح هنا أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً^(٢).

قال بعضهم: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾ معناه: تذهب قوتكم. وهذا كالتوكيد لقوله: ﴿فَنَفْسُلُوا﴾ لأن من فشلوا فقد ذهب قوتهم، وحاصل الريح هذه في كلام العرب أنهم يريدون بها الدولة أعني: وتذهب دولتكم ويكون الأمر إلى غيركم؛ لأن العرب تقول: «هب ربح فلان». أي: دالت دولته وجاء وقته الذي يتمكن به. وهذا معنى معروف في كلام العرب وفي لغتها التي نزل

(١) انظر: نثر الورود (٤٧٣/٢).

(٢) انظر: ابن جرير (٥٧٥/١٣)، القرطبي (٢٤/٨)، البحر (٥٠٣/٤)، الأضواء (٤١٤/٢).

بها القرآن، وهو معنى مشهور معروف. «هبّت ريحك فاغتنم» أي: دالت دولتك وجاء الوقت الذي أنت تتمكن فيه. هذا معنى معروف في كلام العرب، وعلى هذا المعنى ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكَ﴾ أي: تنعدم دولتكم وتضيع، ويصير الأمر إلى غيركم، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

يا صاحِبِيَّ أَلَا لَاحِيَّ بِالوَادِي إِلا عبيداً قعوداً بين أذواد
أَتَنْظُرَانِ قَلِيلاً زَيْتٌ غَفَلَتِيهِنَّ أَمْ تَعْدُونَ إِنْ الرِّيحَ للعادي
فقوله: «إن الريح للعادي» أن الدولة والظفر للذي يعدو فيهب فيأخذ، هذا معنى قوله. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الآخر^(٢):

إِذَا هَبَّتْ رِيأُحُكَ فَاغْتَنِمَهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سُكُونٌ
قال بعضهم: (إن) هنا اسمها ضمير الشأن، والمبتدأ وخبره خبرها، ومعنى: (هبّت رياحك) أي: دالت دولتك فاغتنم الفرصة (فإن لكل عاصفة سكون) أي: لكل دولة تولّ ودبور، هكذا قاله بعض العلماء. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَذَهَبَ رِيحُكَ﴾.

﴿وَلَا تَنْزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكَ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ هذه وصايا سماوية، وتعاليم من رب العالمين عظيمة، من أخذ بها ظفر، ومن تركها فشل وذهبت ريحه لا شك.

وقوله: ﴿وَأَصِيرُوا﴾ الصبر في لغة العرب معناه: حبس النفس^(٣). تقول العرب: فلان صبر نفسه. أي: حبسها على المكروه، وشجعها على الشيء الصعب، هذا معنى الصبر في لغة العرب، ومادته تتعدى وتلزم،

(١) البيتان في الأغاني (٣٩١/٢٠)، فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (٣٤٠/١)، والبيت الثاني في البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥)، وقد ذكرهما الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤١٥/٢).

(٢) البيت في القرطبي (٢٤/٨)، البحر (٥٠٣/٤)، الدر المصون (٦١٧/٥).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

تقول العرب: صبر فلان فهو صابر أي: كان متصفاً بالصبر، وصبر نفسه أي: حبسها على المكروه. متعدياً للمفعول. ومن أمثلة تعديه للمفعول قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الكهف: الآية ٢٨]. وقول عترة، أو غيره^(١):

فَصَبْرَتْ عَارِفَةً بِذَلِكَ حُرَّةٌ تَرْسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَّلَعُ
يعني: حبست نفساً عارفةً بذلك على القتال. هذا أصل معنى الصبر.

والصبر في الشرع يتناول أموراً كثيرة منها^(٢): الصبر تحت ظلال السيوف؛ لأن الجنة تحت ظلال السيوف. ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ أي: ويتناول ذلك الصبر صبركم تحت ظلال السيوف في الميدان، ويتناول الصبر أيضاً: الصبر عن معصية الله وإن اشتعلت نار الشهوات، والصبر على طاعة الله وإن كنت كالقباض على الجمر. يتناول الصبر الصبر على هذا كله، والصبر على المصائب عند الصدمة الأولى. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَصْبِرُوا﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ومعيته للصابرين معية نصر وتأييد وتوفيق؛ لأن الله (تبارك وتعالى) ذكر في كتابه معية خاصة للمتقين والصابرين والمحسنين: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: الآية ١٢٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: الآية ٤٠] فهذه المعية الخاصة هي بالنصر والتوفيق ونحو ذلك. والمعية العامة هي بالإحاطة الكاملة، ونفوذ العلم، وإحاطته - جل وعلا - بكل شيء معلومة، وهي المذكورة في قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: الآية ٧] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: الآية ٤] لأن جميع الكائنات بسماواتها وأرضها في يد خالق السماوات والأرض أصغر من حبة خردل،

(١) السابق.

(٢) السابق.

فهو مع جميعها بالإحاطة الكاملة العظيمة وبالإحاطة العلمية ونفوذ التصرف كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٦].

لما أمرهم جل وعلا بالأوامر النافعة الكفيلة بالنجاح والسلامة من الفشل وذهاب الريح نهامهم عن أضرارها المستوجبة للفشل وذهاب الريح والانهزام قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] النهي معطوف على الأمر، لأن قوله: ﴿فَاتَّبِعُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] أمر. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ نهي. والأمر والنهي كلاهما إنشاء، يُعطف كل منهما على الآخر بلا نزاع. وإنما الخلاف بين العلماء في عطف الإنشاء على الخبر، أو الخبر على الإنشاء، فمنعه جماعة من العلماء. والتحقيق الذي دل عليه القرآن العظيم واستقراء اللغة العربية: هو جواز عطف الخبر على الإنشاء، والإنشاء على الخبر^(١)، وإن ظن منعه جماعة من علماء البلاغة^(٢) ومن النحويين. ومن عطف الإنشاء على الخبر في القرآن العظيم قوله تعالى عن أبي إبراهيم: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَبْنَزْهِمُ لَيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: الآية ٤٦] فقوله: ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَه﴾ الآية، خبر، وقوله: ﴿وَأَهْجُرَنِي﴾ إنشاء؛ لأنه أمر، فهو إنشاء معطوف على خبر، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس^(٣):

وإن شِفائي عِبْرَةٌ إِنْ سَفَّحْتُهَا وهل عند رسمِ دارسٍ من معول
لأن الشطر الأول خبر، والشطر الثاني إنشاء، وهو معطوف عليه.
ونظيره قول الآخر^(٤):

تُناغي غزالاً عند بابِ ابنِ عامرٍ وكحلِّ مآقيك الحسانِ بإئمِدِ

(١) انظر: ضياء السالك (٣/٢١٤، ٢٢٠)، التوضيح والتكميل (٢/١٨٩).

(٢) انظر: المقتصد (٢/٩٥٨).

(٣) ديوانه ص ١١١.

(٤) البيت لحسان (رضي الله عنه)، وهو في ديوانه ص ٨٣، وله روايات متعددة.

وهو عطف إنشاء على خبر، وهذا هو الصواب.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] أيها المؤمنون كالكفرة الفجرة أصحاب الفخر والخيلاء والرياء، فإن الفخر والخيلاء والرياء أوصاف ليست بأوصاف المسلمين، وليست بأوصاف المقاتلين الناجحين الظافرين في الميدان ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ هم كفار مكة، وهم نفير الجيش الذي التقوا معه يوم بدر بإجماع المفسرين خرجوا من ديارهم في مكة المكرمة - حرسها الله - ﴿بَطْرًا وَرِيَاءَ النَّاسِ﴾ أي: لأجل البطر ومراءات الناس، وقال بعضهم: هو مصدر مُنْكَر بمعنى الحال. خرجوا في حال كونهم متصفين بالبطر والرياء. وكونه مفعولاً لأجله أظهر^(١).

البطر في لغة العرب: هو التكبر عن قبول الحق مع غمط الحقوق. وتكبرهم هذا المشار إليه هنا هو الذي بينا في قصة أبي جهل^(٢)؛ لأن الكفار لما كانوا بالعدوة القصوى من بدر، وأرسلوا عمير بن وهب الجمحي (رضي الله عنه) - وكان إذ ذاك كافراً - وقالوا له: أحزر لنا القوم. فجاء فحزهم، فقال: القوم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، ولكن دعوني أنظر هل لهم كمين؟ فجال في فرسه في وادي بدر حتى أبعد، قال: ليس للقوم كمين، ولكني يا قوم رأيت البلايا تحمل المنايا، رأيت نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، والله لا يُقتل رجل منهم حتى يُقتل رجلاً منكم، وإن مات منكم أعدادهم فلا خير في الحياة بعد ذلك، فرأيت أن تنصرفوا. فأيده حكيم بن حزام (رضي الله عنه)، وذهب إلى عتبة بن ربيعة وقال له: يا أبا الوليد إن غير قريش نجت من محمد ﷺ وليس لهم لديه مطلب إلا دية ابن الحضرمي - عمرو بن الحضرمي - الذي قُتل في سرية نخلة، وهو حليفك فتحمل ديته وخل الناس يرجعون فإنه لا خير لهم في لقاء محمد ﷺ. فاجتمع عتبة وحكيم وعمير بن وهب على هذا الرأي، ولكن قال له عتبة:

(١) انظر الدر المصون (٦١٦/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

يا بن حزام إذ ذهب إلى ابن الحنظلية - يعني أبا جهل عمرو بن هشام - قبحه الله - فقل له هذا. فلما جاءه قال له: انتفخ سحر عتبة - يعني انتفخت رثته من الخوف - فغضب عندها عتبة وقال: سيعلم مصفر أسته غداً من الجبان!! ثم إن أبا جهل - لعنه الله - قال لابن الحضرمي: أنت ترى ثارك فلا يردنك هؤلاء عن ثارك فتقدم واطلب ثار أخيك، فتقدم عامر بن الحضرمي وقال: واعمرأه، واعمرأه. ينشد ثاره من أخيه عمرو الذي قتله سرية عبدالله بن جحش (رضي الله عنه) في نخلة كما هو مشهور، فلما قالوا له: ارجع بنا. قال - وهو محل الشاهد - قال: والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر - وكان بدر موسماً من مواسم العرب، وسوقاً يبيعون فيه في السنة - ونشرب الخمر، وننحر الجزور، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا!! فهذا هو فخره وخيلاؤه وبطوره وراثؤه الذي بينه بقوله: تسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا ﴿وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٧] هو الذي يفعل الفعل لأجل أن يراه الناس فيحمدونه عليه، ويعظمونه عليه لا لوجه الله. وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا﴾ أي: لأجل البطر. أو: بطرين متكبرين عن الحق، متصفين بالفخر والخيلاء.

وقال بعض العلماء: البطر التكبر عن الحق مع غمط الناس حقوقهم.

قال بعضهم: البطر سوء احتمال النعمة، فمن أنعم الله عليه نعمة وصار يعمل فيها عمل الإسراف فيما لا يرضي فهو من البطرين. وعلى كل حال فهم بطرون لأنهم تكبروا عن قبول الحق، وغمطوا الناس حقوقهم، وجاؤوا في فخر وخيلاء. وفي قصة بدر أن النبي ﷺ لما رآهم متصوبين من كتيب بدر قال: «اللهم هذه قريش أقبلت تحاذك وتكذب رسولك، هذه قريش أقبلت بفخرها وخيلائها - وهو محل الشاهد - تحاذك وتكذب رسولك، اللهم أحنهم الغداة»^(١) كما هو معروف في محله. وهذا معنى قوله: ﴿كَالَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ هم أبو جهل وأصحابه من النفيير الذين قُتل أشرافهم، وأُسروا على شفير بدر كما هو معروف.

(١) مضى عند تفسير الآية (٩) من هذه السورة.

وكان بعض العلماء يقول^(١): أفخر بيت قالته العرب بيت حسان ابن ثابت (رضي الله عنه) في بدر حيث يقول^(٢):

وفي بدرٍ إذ يصد وجوههم جبريلٌ تحت لوائنا ومحمد ﷺ

وهذا معني قوله: ﴿كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِقَابًا أَلْتَأَسُّ وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذه (صدّ) المتعدية^(٣)، والمفعول محذوف لدلالة المقام عليه، أي: يصدون الناس ﴿عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والسبيل في لغة العرب^(٤): الطريق، وهي تُذكر وتؤنث. وجاء في القرآن تذكير السبيل في قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: الآية ١٤٦] ولم يقل: يتخذوها. ومن تأنيثها في القرآن قوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: الآية ١٠٨] ولم يقل: هذا سبيلي، وقوله: ﴿تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿تَبْغُونَهَا﴾ [آل عمران: الآية ٩٩] يعني السبيل كما هو معروف. وسبيل الله: دين الإسلام، وإنما قيل له: سبيل الله لأنه الطريق التي شرعها الله، وأصل أصولها، وأمر بالسير عليها، ووعد من سار عليها الجنة، ومن تجنبها النار. فلذلك كانت سبيله؛ لأنه الذي شرعها، وأمر بسلوكها، ووعد من سلكها الخير، ومن لم يسلكها الشر؛ ولذا أضيفت إليه فقيل لها: سبيل الله، ولذا قال: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا بكل ما ﴿يَعْمَلُونَ مِحْطًا﴾؛ لأنه (جل وعلا) محيط بكل شيء. وفيه تهديد ووعد لهم، فقد أحاط بهم وبأعمالهم، ومكّن منهم نبيه ﷺ فقتل رؤساءهم وأسرههم كما قدمنا إيضاحه. وهذا معني قوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مِحْطًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٧].

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٧٩/٣).

(٢) لفظ الشطر الأول في المصدر السابق:

«وَبَدْرٍ إِذْ يَكْسِفُ...»

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآيتان (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

وَأَنْبِ جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ [الأنفال: الآية ٤٨].

﴿وَإِذْ زَيْنٌ﴾ حين زين ﴿لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْنَلَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] وهؤلاء الذين زين لهم الشيطان أعمالهم هم الذين خرجوا من ديارهم بطراً ورتاء الناس ويصدون عن سبيل الله، هؤلاء زين لهم الشيطان أعمالهم. زينها لهم معناها: صيرها في أعينهم متصفة بالزين، والزين: ضد القبح، أي: زينها لهم، حسنها لهم حتى صارت حسنة عندهم بتزيينه ووسوسته وإن كانت أقبح شيء.

والأعمال جمع عمل، وهو ما يصدر عن الإنسان. وقد علم باستقراء الشرع أن العمل الذي يزينه الشيطان ويُعاقب عليه ويُثاب عليه أنه أربعة أقسام، دل على هذا استقراء كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللغة العربية، أن ما يصدق عليه اسم العمل الذي يزينه الشيطان ويُثاب الإنسان عليه ويُعاقب عليه أربعة أنواع لا خامس لها^(١):

الأول منها: فعل الجوارح كالسرقة والزنا.

والثاني منها: القول؛ لأن القول فعل اللسان، وقد سمي الله في سورة الأنعام القول فعلاً حيث قال جل وعلا: ﴿زُحِرْفَ الْقَوْلِ عُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: الآية ١١٢] فسماه فعلاً.

الثالث: العزم المصمم؛ لأن عزم الإنسان وتصميمه على الفعل بحيث لا يمنعه منه إلا العجز عنه هذا الفعل الذي صمم عليه وعزم عليه فكأنه عمله بعزمه وتصميمه، فهو عمل يزينه الشيطان ويُؤخذ به فيثاب ويعاقب عليه، والدليل على أن هذا العزم المصمم أنه من جملة العمل الذي يدخل صاحبه النار مثلاً: ما أخرجه الشيخان في صحيحهما - أعني البخاري ومولماً رحمهما الله - من حديث أبي بكر رضي الله

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

عنه: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟! «فهؤلاء الناس سألو رسول الله ﷺ أن يُبرز لهم ويبين العمل الذي دخل بسببه المقتول النار؛ لأنه لم يَقْتُلْ!! فأجابهم ﷺ في هذا الحديث الصحيح المتفق عليه: «إنه كان حريصاً على قتل أخيه»^(١). والجواب على طبق السؤال، فيتبين أن عمله الذي أدخله النار حرصه على قتل أخيه، وهو عزمه المصمم وإن لم يتمكن منه.

أما العزم الغير المصمم بأن يخطر في ذهنه أنه يفعل كذا ثم يراقب الله فيتركه، فتلك السيئة التي هم بها تكتب له حسنة؛ لأنه تركها خوفاً من الله. وهو معنى قوله ﷺ: «ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة»^(٢) لأنه تركها خوفاً من ربه فكان ذلك حسنة؛ ولذلك كان جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) وهو من بني سلمة، وبنو سلمة وبنو حارثة - من الأنصار - هم الذين أنزل الله فيهم يوم أحد: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: الآية ١٢٢] قال: ﴿هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ﴾ هذا الهم ليس بعزم مصمم؛ لأن الله قال بعده: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فكان جابر يقول: مع أن الله ذكر أننا هممنا أن نفشل وهذه وصمة فينا، ولكن والله ما نحب أن الله لم ينزلها لأنه قال بعدها: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فالتى بعدها تداويها وتزيد، هذا معنى كلامه (رضي الله عنه)^(٣). فالعزم المصمم من العمل الذي يزينه الشيطان ويدخل صاحبه بسببه النار.

الرابع: الترك، والتحقيق أن التروك أفعال يزينها الشيطان، يدخل صاحبها بها النار، ويثاب بها فيدخل بسببها الجنة. هذا هو التحقيق إن شاء الله. وقد كان ابن السبكي - تاج الدين - في بعض كتبه في علم الأصول في بحث أهل الأصول في الترك هل هو فعل أو ليس بفعل؟ قال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

طالعت كتاب الله فوجدت من كتاب الله آية في سورة الفرقان يفهم منها أن الترك فعل^(١).

ونحن نقول: إن هذه الآية التي أوردها ابن السبكي لا يظهر لنا وجه الدلالة منها كل الظهور، إلا أنا اطلعنا على آيتين من سورة المائدة كليهما صريحة في أن الترك من الأفعال، وأنه من الأعمال التي يؤاخذ بها الإنسان. وإيضاح ذلك: أنك لو تركت الصلاة حتى خرج وقتها، أنت ما فعلت شيئاً إلا أنك تركت الصلاة، فهذا الترك فعل يُقتل صاحبه بسببه، ويدخل به النار، ويكفر به عند من قال ذلك. فلولا أن الترك فعل لما كان تارك الصلاة كافراً عند من يقول بذلك، ولما وجب قتله كفراً عند أحمد في مشهور مذهبه، وحداً عند مالك والشافعي في مشهوري مذهبهما، وإيضاح هذا أن ابن السبكي قال: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۖ﴾ [الفرقان: الآية ٣٠] قد فهمت من هذه الآية في سورة الفرقان أن الترك فعل؛ لأن الأخذ: هو تناول، والمهجور: المتروك، أي: تناوله متروكاً. فدل على أن الترك فعل يؤتى بالتناول، وهذا لا يظهر لي كل الظهور.

أما الآيتان اللتان عثرنا عليهما في سورة المائدة، الدالتان على أن الترك فعل من الأفعال:

فإحداهما قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَتَّبِعُهُمُ الْرَبِّيُونَ ۗ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِسْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ﴾ ثم قال: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: الآية ٦٣] وإنشاء الذم بقوله ﴿يَسْ﴾ هنا متوجه على ترك الربانيين والأخبار النهي، وقوله: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: بس ما يصنعه الربانيون والأخبار وهو تركهم. فسمى تركهم الأمر بالمعروف صنفاً، والصنيع أخص من مطلق الفعل، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، وهو نص صريح في أن الترك من الأفعال.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

والآية الأخرى: قوله في المائدة أيضاً: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: الآية ٧٩] وهو عدم تناهيهم عن المنكر، فسمى تركهم التناهي عن المنكر (فعلاً) وذمه أيضاً بالفعل الجامد الذي هو لإنشاء الذم أعني: (بئس) لأن (نعم) لإنشاء المدح، و(بئس) لإنشاء الذم، كما هو معروف في محله^(١).

وقد أجرى العلماء على هذا الاختلاف فروعاً كثيرة في المذاهب^(٢)، هل الترك فعل أو لا؟

قالوا: فبناء على أن الترك فعل: إذا كان الإنسان عنده خيوط من حرير مثلاً، وشق بطن واحد من رفقته، وأمسك عنه خيوط الحرير تخاط بها بطنه حتى هلك. فعلى أن الترك فعل فقد أهلكه بتركه، فتلزمه ديته، وعلى أن الترك [ليس]^(٣) بفعل لا غرامة عليه.

وكذلك من كان عنده ماء يفضل عن سقي زرعه، وجف زرع جاره إذا أمسك عنه الماء الفاضل عنه، فعلى أن الترك فعل يضمه؛ لأنه أفسده بفعله، وعلى أنه ليس بفعل فلا.

ومن هذا: ناظرو الأوقاف، والأوصياء على اليتامى، إذا تركوا إيجار دورهم وقت الإيجار حتى فاتت الفرصة، فعلى أن الترك فعل يضمون، وعلى أنه ليس بفعل لا يضمون، وهي قاعدة كثيرة الفروع في مذاهب الأئمة (رحمهم الله) بسطها وبسط فروعها مقرر في مذاهبهم. وأصح القولين: أن الترك فعل، وأنه عمل من الأعمال التي يزينها الشيطان، وكان ﷺ أيام بنائه لهذا المسجد الشريف - يسر الله له العمارة بطاعة الله وعبادته - كان النبي ﷺ ممن يعمل فيه وبعض الصحابة جلوس، فقال بعضهم^(٤):

لئن قعدنا والنبي يعمل لئذاك ممّا العمل المصنل

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنفال.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٣) ما بين المعقوفين [زيادة يقتضيه الكلام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

فسمى قعودهم وتركه العمل سماه «عملاً مضللاً» وهذا معروف، ويدل عليه قوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(١) فسمى ترك الأذى إسلاماً، ومعلوم أن الإسلام لا يكون بالعدم إلا بأفعال، وهذا يبين أن الأعمال التي يزينها الشيطان فيؤاخذ الإنسان بها أربعة: أعمال الجوارح (وهي الأفعال)، وأعمال اللسان (وهي الأقوال)، والعزم المُصمَّم، والترك، كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] الله هنا في هذه الآية من سورة الأنفال صرح بأن الشيطان (قال) ولم يقل: (وسوس) فصرح بالقول ولم يذكر الوسوسة؛ لأن الشيطان تمثل لهم في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي البكري (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما جاءهم ضمضم بن عمرو الغفاري - أرسله لهم أبو سفيان - وتأهبوا للخروج وأجمعوا عليه، وبينهم وبين بني بكر بن كنانة عداوة، فخافوا أن يأتوهم من ورائهم فيأخذوا نساءهم وذرايهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك، وكان سيد بني مدلج، وهو من سادات بني بكر بن كنانة، وقال لهم: إني جار لكم، أجيركم من كنانة فلا يصل إليكم منهم سوء، وزين لهم هذه الأعمال، وقال: أنتم على حق، هذا الرجل الذي سفه أحلامكم، وفرق كلمتكم، وعاب آهتكم، وسفّه آباءكم، فذهبوا إليه ولا تركوه يأخذ عيتركم، ونحو هذا من التزيين، ولا غالب لكم لشرفكم وقوتكم، وأنكم قطان بيت الله الحرام، زين لهم هذا التزيين، وقال لهم: إنه جار لهم يجيرهم من بكر بن كنانة، وذهب معهم وهم يعتقدونه سراقه بن مالك^(٢)، فلما فر عنهم صاروا يعيرون سراقه ولم يعلموا أنه الشيطان حتى أسلموا وسمعوا القرآن يتلى أنه الشيطان تمثل لهم في صورة سراقه، وفيه يقول حسان:

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من هذه السورة.

سرنا وساروا^(١) [إلى بدر لحينهم
دلاهم بفرور ثم أسلمهم
وقال: إني لكم جار فأوردهم
لو يعلمون يقين الأمر ما ساروا
إن الخبيث لمن والاه غرار
شرّ الموارد فيه] الخزي والعار

هذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ
الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] فلما صف معهم
للقتال - وكان حاضراً إذ ذاك - رأى الملائكة تنزل، وكان إبليس اللعين
لما رأى الملائكة عرفها، ولما عرف الملائكة خاف خوفاً شديداً؛ لأن
الشياطين أخوف ما تخافه الملائكة (صلوات الله وسلامه عليهم)، فعند
ذلك ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ أي: رجع القهقري. والعقب: مؤخر الرجل؛
لأن الراجع القهقري يمشي على عقبه، أي: منعكساً متقهقراً. ﴿وَقَالَ إِنِّي
بِرِيٍّ مِّنْكُمْ﴾ تبرأت منكم، كما هي عادة الشيطان، يورد الإنسان الهلاك
حتى إذا أوقعه فيه تبرأ منه؛ لأنه غرار خداع كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ
الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٌّ مِّنْكَ﴾ [الحشر:
الآية ١٦] وقد يتبرأ منهم - لعنهم الله - كما سيأتي في خطبة الشيطان
خطبته الفصيحة العظيمة الصادقة التي يخطبها في أولياته يوم القيامة، التي
نص الله عليها في سورة إبراهيم الخليل؛ لأنه إذا اجتمعت الخلائق ورأى
الكفار ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَافِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾
[الكهف: الآية ٥٣] جاؤوا لإبليس اللعين وقالوا: أنت كنت سيدنا وكنا
نطيعك، فإن كان عندك شيء اليوم فأت به. قال بعض العلماء: ينصب له
منبر من نار^(٢) - والله أعلم - بمثل هذا. ونصب المنبر له من النار شبه
إسرائيليات، والخطبة صحيحة ذكرها الله في سورة إبراهيم الخليل، وهو
قوله لهم: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

(١) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، والأبيات ذكرها الشيخ (رحمه الله) فيما مضى عند
تفسير الآية (١١٢) من هذه السورة، فنقلتها هنا وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) انظر: ابن جرير (٥٦٣/١٦).

تَلُومُونَ وَلَوْ مَوْأَ أُنْفُسِكُمْ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتَ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴿إبراهيم: الآية ٢٢﴾ وهو صادق في كلامه هذا، وقد يصدق الكذوب، فعند ذلك يمقتون أنفسهم حيث اتبعوا هذا الخائن الغدار الغرار، وعندما يمقتون أنفسهم في ذلك الوقت قال بعض العلماء: ينادون: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرَ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذْ دُعُوتُ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: الآية ١٠] ولذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٨] تراءت: (تفاعلت) من (رأى) البصرية. أي: كان كل من الفئتين يرى الأخرى ببصره رأي العين كما تقدم في قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ وَمِثْلَيْهِمْ رَأَى الْفِتْنَانَ﴾ [آل عمران: الآية ٣٣] ﴿تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ﴾ أي: فئة المسلمين وفئة الكفار، صار هؤلاء يرون هؤلاء عياناً بأعينهم، وهؤلاء كذلك. قال بعض العلماء: ونزل الملائكة لنصر المسلمين، ورأى إبليس الملائكة، ويدل على هذا قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يشير إلى الملائكة؛ لأن الكفار لم يروها وهو قد رآها، وهذا معنى قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ قال بعض العلماء: هو الملائكة. وعبر عنه بـ (ما) لأنه أبهمه عليهم ولم يبين لهم أنه من العالم ولا العاقل. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أن ينزل بي عقابه ونكاله، فالله (جل وعلا) شديد العقاب. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن الخوف في لغة العرب: هو الغم من أمر مستقبل. والحزن في لغة العرب: الغم بسبب أمر فائت - أعاذنا الله منهما - وربما وضعت العرب الخوف مكان [الحزن، والحزن]^(٢) مكان الخوف. وقوله: ﴿أَخَافُ﴾ الألف بعد الخاء مبدلة من واو، وأصل مادته (فَعِل) بالكسر، أصل ماضيه: (خَوِيفَ) بكسر الواو (يَخَوْفُ) بفتحها، فوقع فيه الإعلال المعروف المشهور في التصريف^(٣).

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) في الأصل: «الغم، والغم» وهو سبق لسان.

(٣) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٦٦.

﴿أَخَافُ اللَّهَ﴾ يعني: أترقب الغم من سبب ما يصلني منه في المستقبل. ﴿وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا عاقب فعقابه شديد.

والعقاب: هو التنكيل بسبب الذنب. قال بعض العلماء: سمي عقاباً لأنه يأتي عقبه من أجله. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) هو وحده شديد العقاب؛ لأنه لا شدة عقاب يملكها غير الله (جل وعلا)؛ لأن أكبر طاغية من جبابرة أهل الأرض لا يقدر على شيء من العذاب إلا قَدَرَ ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا عذب المجرم بقدر ما يستوجب الموت مات. والله وحده يعذب المجرمين بالآلاف والملايين مما يستوجب الموت ومع ذلك لا يموتون ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَمِيتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] ﴿كُلَّمَا نَفِثَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] فهذا هو العذاب الشديد والنكال العظيم الذي يجب الحذر منه والخوف منه ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۗ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا ۗ﴾ [الفجر: الآيتان ٢٥، ٢٦].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٥٠) ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ يَظْلِمُ لَعْنِيدٌ﴾ (٥١) ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٥٢) ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا تَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُفَرِّقُوا مَا بَيْنَهُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْتَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٥٣) [الأنفال: الآيات ٤٩ - ٥٤].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ عَرَّ هَؤُلَاءِ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٩) [الأنفال: الآية ٤٩].

قوله: «إذ» ظرف بدل من «إذ» قبله، أو منصوب بـ (اذكر) مقدرأ. اذكر إذ يقول المنافقون.

المنافقون: جمع التصحيح للمنافق، وهو المتصف بالنفاق، والنفاق:

هو إظهار الإيمان وإبطان الكفر. والمنافق هو المعروف في اصطلاح الفقهاء بالزنديق، فالمنافقون الذين يلقون المسلمين ويقولون: إنهم مؤمنون. وهم في باطن الأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ اختلف العلماء في المراد بالذين في قلوبهم مرض على أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً^(١).

قال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم نفس المنافقين، وإنما كان العطف نظراً إلى مغايرة الصفات، كأنه يقول: الجامعون بين النفاق ومرض القلوب قالوا كذا وكذا، ومعلوم في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن عطف الشيء على نفسه مذكوراً بصفات مختلفة نظراً إلى أن تغاير الصفات كتغاير الذوات أسلوب عربي معروف في كلام العرب، وهو موجود بكثرة في القرآن^(٢)، كقوله في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: الآيات ٢ - ٤] والمعطوفون هم الأولون، إلا أن الصفات اختلفت فجاء العطف نظراً لتغاير الصفات. ونظيره في القرآن أيضاً قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] فالمتعاطفات شيء واحد عطف بعضها على بعض نظراً لتغاير الصفات، وهذا الأسلوب معروف في كلام العرب، ومن شواهده العربية قول الشاعر^(٣):

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابْنِ الهَمَامِ ولَيْثِ الكَتِيبَةِ في المُرْدَحَمِ

فهو إنسان واحد، وذكُرت العطوف نظراً لتغاير الصفات. ومما يؤيد هذا القول: أن الله وصف المنافقين بأن في قلوبهم مرضاً في قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠] وهي في المنافقين بلا نزاع.

(١) انظر: ابن جرير (١٢/١٤) القرطبي (٢٧/٨)، ابن كثير (٣١٨/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

ومرض القلوب جاء في القرآن على معنيين:

أحدهما: مرض القلوب بمعنى ما يداخلها من الشرك والشك والنفاق،
كقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: الآية ١٠].

المعنى الثاني: إطلاق مرض القلب على القلب الذي يهوى الفجور
والزنى ونحو ذلك، ومنه بهذا المعنى قوله في سورة الأحزاب مخاطباً أزواج
النبي ﷺ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: الآية
٣٢] أي: يطمع في نيل الريبة منكن الذي في قلبه مرض. ميل إلى الفجور
وما لا ينبغي، والعرب تعرف هذا، الذي ينطوي قلبه على أمور خسيئة،
تقول العرب: في قلبه مرض، ومن هذا المعنى قول الأعشى - ميمون بن
قيس - وهو عربي فصيح يمدح رجلاً^(١):

حافظ للفرج راضٍ بالتقى ليس ممن قلبه فيه مرض
وقال بعض العلماء: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ المشركون، إذ لا مرض
في القلوب أكبر من انطوائها على الشرك بالله.

ودهبت جماعة من العلماء إلى أن ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ في هذه
الآية من سورة الأنفال خص بها أناس معروفون هم الذين بسط الله قصتهم
في سورة النساء، وهم قوم تكلموا بكلمة الإسلام فقالوا: لا إله إلا الله
محمد رسول الله في مكة، ثم إنهم أبوا أن يهاجروا، وفي قلوبهم إسلام
وإيمان ضعيف في قلوبهم على حرف هكذا وهكذا. وإذا قيل لهم: لِمَ لا
تهاجرون وأنتم مسلمون؟ قالوا: نحن مستضعفون في الأرض. وهم الذين
أنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَمْلاكَكُمُ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا
مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ
جَهَنَّمَ﴾ [النساء: الآية ٩٧]. قالوا: جاؤوا مع كفار قريش فلما رأوا قلة
المسلمين - وكان الله قتل المسلمين في أعين الكفار، والكفار في أعين
المسلمين كما أوضحناه قريباً في قوله: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّمِ فِي أعْيُنِكُمْ
قَلِيلًا وَقَلِيلَكُمُ فِي أعْيُنِهِمْ يَقُولُ اللَّهُ أَمَّا كُنْتُمْ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: الآية

(١) لم أقف عليه.

[٤٥] لما رأوا قلتهم وقللهم الله في أعينهم جداً - قالوا: هؤلاء قوم مغرورون، غرهم دينهم!! وزعموا أنهم على دين يُؤيد القليل المتمسك به على الكثير فاغتروا من هنا، وهؤلاء سيُغلبون ويقتلون قطعاً!! وهؤلاء المستضعفون الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُكَلِّبَةَ﴾ [النساء: الآية ٩٧] نفر من قريش معروفون، آمنوا بالله إيماناً ضعيفاً ولم يهاجروا، وجاؤوا مع الكفار يوم بدر، قال بعض العلماء: وهم الذين قالوا مع المنافقين: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءَ دِينَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩] وهم معروفون، وهم: العاص بن منبه بن الحجاج السهمي، وعلي بن أمية بن خلف الجمحي، وأبو قيس بن الفاكه ابن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، وابن عمه أبو قيس بن الوليد ابن المغيرة، والحارث بن زمة بن الأسود بن المطلب، هؤلاء هم نفر المعروفون الذين قالوا: إنا ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: الآية ٩٧] وعلى كل حال فلما التقى المسلمون والمشركون يوم بدر كان الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، أو المشركين، أو هؤلاء نفر القليلين الذين آمنوا إيماناً ضعيفاً في مكة وخرجوا مع الكفار يوم بدر وقتلوا كفاراً - والعياذ بالله - قالوا: ﴿عَرَّ هَؤُلَاءَ دِينَهُمْ﴾ الإشارة في قوله: ﴿هَؤُلَاءَ﴾ إلى النبي ﷺ وأصحابه و﴿دِينَهُمْ﴾ فاعل ﴿عَرَّ﴾ يعني: غرهم دينهم حيث اغتروا به وظنوا أن المتمسك بهذا الدين ولو كان قليلاً ضعيفاً يغلب القوي العظيم فاغتروا، وسيكون هذا الغرور سبباً لهلاكهم!! والعرب تقول: «غرّه يغره غروراً» على غير قياس. فالفاعل: غارّ، والمفعول: مغرور، إذا خدعه. وهم نسبوا هنا الغرور إلى الدين زاعمين أنهم انخدعوا في دينهم حيث يظنون أن القليل المتمسك به يغلب القوي غير المتمسك به، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، تقول: غره يغره. إذا خدعه، ومنه سُمي الشيطان غروراً لكثرة غروره للآدميين بتزيينه ووساوسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: الآية ٥] ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة أو غيره^(١):

(١) البيت في شذور الذهب ص ١٧٤.

إِنَّ امْرَأً غَرَّهُ مِنْكَ وَاحِدَةً بعدي وبعدي في الدنيا لمغرور
ثم إن الله أجاب ربنا (جل وعلا) عما قاله المنافقون والذين في
قلوبهم مرض قال لهم الله: لا. كأن المعنى: لا، لم يغر هؤلاء دينهم،
وهم على بصيرة من أمرهم وعلى حق، ولكنهم توكلوا على الله، ومن
توكل على الله توكل على قوي الجناب عزيز منيع لا يُضام من توكل عليه؛
ولذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ التوكل معناه: الثقة الكاملة، وتفويض
الأمر إليه (جل وعلا). ﴿يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يثق بالله ثقة كاملة ويسلم إليه
أمره، ويفوض له تفويضاً تاماً توكلأ عليه. ﴿فَاتَّكَ اللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَزِيزٌ
حَكِيمٌ﴾ الضمير الرابط محذوف دل المقام عليه. ومن يتوكل على الله فإنه
يعزه بعزته وينصره؛ لأن الله عزيز حكيم.

والعزيز: هو الغالب الذي يقهر غيره ويغلبه فالله (جل وعلا) عزيز
غالب على أمره. والعزة في لغة العرب: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾
[المنافقون: الآية ٨] أي: والله الغلبة ولسوله. ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخُطَابِ﴾ [ص:
الآية ٢٣] يعني: غلبني في المخاصمة. والعرب تقول: «من عزَّ بزَّ»^(١)
يعنون: من غلب استلب؛ لأنه كان الغالب ينهب مال المغلوب، ويقولون:
«من عزَّ بزَّ»، وقد قالت الخنساء بنت عمرو الشريد السلمية الشاعرة^(٢):

كَأَنْ لَمْ يَكُونُوا حَمِيًّا يُخْتَشَى إِذِ النَّاسِ إِذْ ذَاكَ مِنْ عَزِّ بَزًّا
تعني: من غلب استلب. والحكيم^(٣): هو ذو الحكمة البالغة، الذي
لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه. فاقتضت عزته
وقهره وسلطانه ألا يُضام وليه المتوكل عليه المستند إليه، وألا يُقهر.
واقترضت حكمته البالغة ألا يجعل وليه كعدوه، وألا يسوي بينهما بل ينصر
وليه على عدوه. والحكمة لا تتم إلا بالعلم؛ لأن تمام الحكمة بتمام العلم؛

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

ولذا لا تتم الحكمة تماماً كلياً إلا لله وحده (جل وعلا)؛ لأنه هو العالم بخفايا الأمور وخباياها وما تؤول إليه، فالله وحده هو الذي لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان خيراً. أما غيره فإنه قد يفعل الأمر يظنه صواباً، وأنه في غاية الحكمة، ثم يتبين له بعد ذلك أن غيره أصوب منه، فيقول: لو فعلت كذا لكان كذا!! وليتني لم أفعل!! وفي الحديث النهي عن (لو) لأنها تفتح باب الشيطان. لو فعلت كذا لكان كذا^(١).

لَيْتَ شِغْرِي وَأَيِّنْ مَنِي (لَيْتٌ) إِنْ (لَيْتاً) وَإِنْ (لَوْ) عِنَاءٌ^(٢)
العناء: التعب وكثرة: ليتني فعلت، وليتني لم أفعل، ولو فعلت كذا لكان كذا. كل هذا يقع من عدم العلم بعواقب الأمور، والله (جل وعلا) وحده لا يجري عليه: لو فعلت كذا لكان أصوب. لعلمه بما تنكشف عنه الغيوب، وما تؤول إليه الأمور، فالحكمة الكاملة له، أما غيره (جل وعلا) فقد يفعل الأمر يظنه حكمة وصواباً ثم ينكشف الغيب عن خلاف ذلك كما قال^(٣):

أَلَمْ عَلَى (لَوْ) وَلَوْ كُنْتُ عَالِماً بِأَذْنَابِ (لَوْ) لَمْ تَفْتَنِي أَوَائِلَهُ
وهذا سيد البشر محمد ﷺ علمه الله العلوم العظيمة كان يقول في آخر عمره في حجة الوداع: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدى ولجعلتها عمرة»^(٤) فكيف بغيره ﷺ؟! وهذا معنى قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهََ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤٩].

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهََ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٢﴾﴾
[الأنفال: الآيات ٥٠، ٥١].

(١) مسلم في القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم: (٢٦٦٤) (٢٠٥٢/٤).

(٢) مضي عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) مضي عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

(٤) مضي تخريجه عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا نبي الله. (لو) حرف شرط تقلب المضارع ماضياً غالباً. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ هنا بمعنى: لو رأيت. لأن (لو) من حروف الشروط التي تختص بالمعنى الماضي غالباً، وفي أغلب أحوالها إذا جاء بعدها مضارع تقلبه إلى معنى المُضَي، وقد لا تقلبه إلى معنى المُضَي فيأتي بعدها مضارع، وهو ليس بكثير، ولكنه موجود في كلام العرب، ومن إتيان المعنى بعدها مضارعاً ولو كان ماضياً: ﴿وَلَيَحْشُرَنَّ الَّذِينَ تَوَكَّرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا﴾ [النساء: الآية ٩] لأن تركهم للذرية مستقبل؛ لأنهم في ذلك الوقت أحياء. ومن إتيانه مستقبلاً غير مصروف إلى الماضي قول المجنون^(١):

فلو تلتقي أضداؤنا بعد موتنا ومن دون رمسينا من الأرض منكب
لظلَّ صَدَى صوتي وإن كنت رمة لصوت صَدَى ليلي يهش ويطرَب
﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يا محمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى﴾ ترى
حين يتوفى الملائكة.

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير ابن عامر: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾ بالياء. وقرأه ابن عامر وحده: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ تَتَوَفَّى
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ﴾^(٢).

وتتوفاهم: أصل التوفي في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه^(٣):
أخذ الشيء وافياً، تقول العرب: «توفيت ديني»، أي: أخذته وافياً. وكان
حقيقة عرفية في أخذ الروح من البدن. فصار التوفي حقيقة عرفية في أخذ
الروح وافية كاملة من البدن بحيث لم يبق فيه روح البتة.

والملائكة: جمع ملك. والتحقيق عند جماعة من العلماء: أن اشتقاق
الملك من الألوكة، والألوكة: الرسالة^(٤)؛ لأن لطالب العلم أن يقول: مفرد

(١) البيتان في ديوانه ص ٢٤.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢١.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٤٦) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

الملائكة ملك، وجمعه: الملائكة - بالهمزة - فمن أين جاءت هذه الهمزة؟ وما الجالب لها؟

والجواب عن هذا: ما قاله بعض العلماء: أن أصل الملك: (مألك) (مفعّل) من الألوكة. والألوكة في لغة العرب: الرسالة. وألكني إليه: احمل إليه مألكتي، أي: رسالتي، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي^(١):

أَلْكَنِي إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرُّسُولِ أَعْلَمُهُمُ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ

فأصله: (مألك) لأنهم يحملون مألك الله، أي: رسالات الله، منهم من يُرسل لتسخير المطر، ومنهم من يُرسل لقبض الأزواج، ومنهم من يُرسل لضبط الأعمال، ومنهم من يُرسل لحفظ بني آدم أن تتخطفهم الشياطين، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَالْمُدْرِيَاتُ أَمْرًا ۝﴾ [النازعات: الآية ٥] فلما كانوا يحملون المألك، أي: الرسائل من الله في الشئون الشتى قيل فيه: (مألك). ثم وقع فيه قلب فجعل الفاء مكان العين، والعين مكان الفاء، وهذا القلب معروف في الصرف، فقيل فيه: (ملك) ووزنه: (مألك) (مفعّل) فقلب فصار (ملك) على وزن (مفعّل) ثم نُقلت حركة الهمزة للام فقيل فيه: (ملك). فكان عند جمع التكسير تظهر الهمزة التي هي في أصله في محلها الذي قلبت فيه، قال بعض العلماء: هذا أصله^(٢). و ﴿أَلْمَلَكَةُ﴾ فاعل ﴿تَتَوَفَّى﴾ أي: تقبض أرواحهم من أجسادهم كاملة. والفعل المضارع في قوله: ﴿يَضْرِبُونَ﴾ جملة حالية. وأصل الفعل المضارع المُثبت إذا كانت جملة حالية لا تُربط بالواو بل بالضمير كما هنا ﴿يَضْرِبُونَ﴾ أي: الملائكة. يعني: يتوفونهم يأخذون أرواحهم في حال كونهم ضاربين وجوههم وأدبارهم. الوجه: جمع الوجه. والأدبار: جمع الدبر، وقال جماعة من السلف^(٣): المراد بالأدبار: الأستاه - أكرمكم الله جل وعلا - قالوا: ولكن الله (جل وعلا)

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٥/١٤).

حيي كريم يكني، فكنى عن الاست بالدبر؛ ولذا قال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ مقول قول محذوف، أي: ويقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق.

اختلف العلماء في وقت ذوقهم عذاب الحريق^(١)، قال بعض العلماء: هو عند وفاتهم عندما يأخذون أرواحهم يضربونهم بسياط من نار فتشتعل ناراً فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقال بعض العلماء: هي للملائكة الذين قاتلوا في بدر يضربون الكفار، ويأخذون أرواحهم، ويضربونهم بسياط النار فتشتعل في جروحهم فيقولون لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقالت جماعة من العلماء: هذا يوم القيامة، وممن قال به: الحسن البصري، أي: يضربون وجوههم وأدبارهم الآن عند الاحتضار، ويشرونهم يوم القيامة بما هو أدهى وأمر من ذلك، وهو عذاب الحريق. وهذا معنى قوله: توفاهم ﴿الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَنَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠].

والتحقيق أن هذا ليس خاصاً بالذين قُتلوا من الكفار يوم بدر، بل هو عام، وأن الملائكة تضرب الكفار عند احتضارهم على الوجوه والأدبار، كما جاء مصرحاً به في سورة القتال، وجاء مشاراً إليه في الأنعام؛ لأن الله قال في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: الآية ٩٣] باسطوها إليهم بالضرب - والعياذ بالله - وقال (جل وعلا) في سورة القتال: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيْعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) وفي القراءة الأخرى^(٢): ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢٦) فكيف

(١) انظر: القرطبي (٢٨/٨).

(٢) انظر: المبسوط ولابن مهران ص ٤٠٩.

إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتَ وُجُوهِهِمْ وَأَدْبَرَهُمْ ﴿٧٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا
 آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴿٧٨﴾ [محمد: الآيات ٢٥ -
 ٢٨] فدلّت آية القتال هذه على أنها عامة في كل من كرهه رضوان الله
 وأحب سخط الله، فكل من اتبع ما يسخط الله يأتيه هذا الوعيد الشديد،
 ومن أعظم الناس نصيباً فيه هؤلاء الذين يأتون الكفرة الفجرة الذين
 يكرهون القرآن وما أنزل الله، ويقولون لهم: ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾
 [محمد: الآية ٢٦] وأحرى إن أطاعوهم في كل الأمر، هؤلاء أكثر
 الناس نصيباً في ضرب الملائكة عند الاحتضار على الوجوه والأدبار -
 والعياذ بالله - وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا
 الْمَلَائِكَةُ بَضْرِيُوتَ وُجُوهِهِمْ وَأَدْبَرَهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٠] قال بعض
 العلماء: الضرب على الوجوه والأدبار أشد وقعاً. وقال بعض العلماء:
 على القول بأنها في أهل بدر أنهم يضربون وجه المشرك مقبلاً، فإذا فرّ
 مدبراً ضربوا دبره. وقد قدمنا أن التحقيق العموم، وأنها لا تختص بمن
 قُتل في بدر. وهذا معنى قوله: ﴿بَضْرِيُوتَ وُجُوهِهِمْ وَأَدْبَرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ
 الْحَرِيقِ﴾. قال بعض العلماء: ذوق عذاب الحريق عند الاحتضار؛ لأن
 المقام التي يضربونهم بها تلتهب عليهم ناراً.

وقال بعض العلماء: يبشرونهم بالحريق يوم القيامة. ولا مانع من
 وقوع الكل. هذا معنى قوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وجواب (لو)
 في هذه الآية محذوف، وتقديره: لو ترى يا محمد حين يتوفى
 الملائكة الكفرة في حال كونهم ضارين وجوههم وأدبارهم مبشرين لهم
 بالحريق، لو ترى ذلك الوقت لرأيت أمراً فظيماً شنيعاً يجب الحذر
 منه، وجواب (لو) حذفه إذا دل المقام عليه أسلوب عربي معروف يكثر
 في القرآن العظيم وفي لسان العرب^(١)، ومنه في القرآن العظيم: ﴿كَلَّا
 لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [التكاثر: الآية ٥] أي: لو تعلمون علم

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام، وما سيأتي عند تفسير الآية (٥٩) من سورة التوبة.

اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ونظيره من كلام العرب في حذف جواب (لو) قول الشاعر^(١):

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا
أي: لو شئت سواك لرددناه.

وقال جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ
أَوْ كَلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: الآية ٣١] ولم يذكر جواب (لو) وقال بعض
العلماء: جوابه: لو أن قرآناً سُيرت به الجبال لكان هذا القرآن على حد
قوله^(٢):

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم ينطر
وقال بعض العلماء: جواب (لو) المحذوف في آية الرعد ﴿وَلَوْ أَنَّ
قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ لو سيرنا الجبال بالقرآن وقطعنا به الأرض لكفرتم
بالرحمن. ويدل على هذا التقدير الأخير قوله قبله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ
قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ [الرعد: الآية ٣٠]. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى
الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾
ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١].

قال بعض العلماء: هذا مما يقول لهم الملائكة عند توفيتهم إياهم
وضربهم وجوههم وأدبارهم، يقولون لهم: ذوقوا عذاب الحريق. ويقولون
لهم: ذلك العذاب الفظيع الشديد بسبب ما قدمت أيديكم.

وقال بعض العلماء: هو كلام مُؤْتَنَفٍ، أي: ذلك العذاب الكائن
الواقع لكم بسبب ما قدمت أيديكم. جرت العادة في لسان العرب الذي نزل
به القرآن أن يُضاف جميع الأعمال إلى الأيدي وإن كان بعضها ليس بأيدي،
فإن الشرك الذي يُعذبون عليه محله القلب واللسان واليد، والزنى محله

(١) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص ١٠٠.

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة الأنعام.

الفرج، وأكل الربا محله البطن، ولكن كل هذا يُنسب إلى الأيدي على الأسلوب العربي المعروف؛ لأن أكثر ما يزاول الإنسان أعماله بيده فنسب إليه على التغليب ومراعاة الأغلب^(١).

والمراد ﴿يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ ما كسبتم من المعاصي والكفر، سواء كان الذي اجترمته القلوب، أو الألسنة، أو الأيدي، أو غير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿ذَلِكَ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١). [الأنفال: الآية ٥١].

قال بعض العلماء: المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ في محل خفض معطوف على الموصول المجرور (بما) أي: ذلك بسبب الذي قدمته أيديكم، وبسبب أن الله لا يظلم، فبكفركم وبعدالة ربكم وكمال إنصافه جاءكم العذاب؛ لأن بهذين السببين يتوجه إليكم العذاب، كونكم اقترفتموه واكتسبتموه بأيديكم، وكون ربكم (جل وعلا) حَكَمًا عدلاً منصفًا، فتعذبيه ومؤاخذته للعاصي، كما أنه يثيب المطيع، فظلمكم وعداوة ربكم كل ذلك اقتضى لكم ما وقع لكم من العذاب والعياذ بالله جل وعلا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيه في هذه الآية الكريمة والآيات المماثلة لها من القرآن إشكال عربي معروف يدور فيه سؤال مشهور على ألسنة العلماء وطلبة العلم، وهو أن يُقال: الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة نفى المبالغة؛ لأنه قال: ﴿لَيْسَ بِظَلْمٍ﴾ و (ظلام) (فَعَال) و (الفعَّال) صيغة مبالغة، والمقرر في اللغة العربية التي بها نزل القرآن أن نفي المبالغة لا يقتضي نفي أصل الفعل من حيث هو^(٢)، فلو قلت: زيد ليس بِقَتَّالٍ للرجال، نفيت عنه المبالغة في القتل، ولا ينافي أنه ربما قتل رجلاً أو رجلين، ولو قلت: زيد - مثلاً - ليس بضَرَابٍ لنسائه. يدل على انتفاء كثرة الضرب عنه، ولا ينافي أنه ربما وقع منه ضرب قليل كما هو معروف، فنفي المبالغة هنا لا يقتضي نفي

(١) انظر: ابن عطية (٣٠٨/٣)، القاسمي (٣٠٨/٤).

(٢) انظر: الإتيان (٢٣٣/٣)، الكليات ٨٨٩.

أصل الفعل من حيث هو، والمقام مقام تنزيه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، فلم عُبِّر هنا بصيغة المبالغة ولم يقل: ليس بظالم. أو ليس بذي ظلم للعبيد؟!

أجاب العلماء على ذلك بأجوبة^(١): قالوا جرت العادة في القرآن أن بعض الآيات قد يكون فيها شبه إجمال وتبينه آيات أخر، وقد أوضحت آيات أخر أن الله لا يظلم شيئاً، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: الآية ٤٠] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: الآية ٤٤] فالآيات الواضحات بينت هذا وأوضحته غاية الإيضاح.

وقال بعض العلماء: المبالغة هنا لا يقصد بها أصل المبالغة؛ لأن التكثير نظراً إلى كثرة العبيد؛ لأن الظلم لما تعلق بالعبيد وكان العبيد في كثرة هائلة كان الظلم كثيراً جداً لكثرة من هو منفي عنهم؛ ولذا كان نفيه من أصله؛ لأن الكثرة فيه والمبالغة بحسب العبيد اللذين يقع عليهم الظلم.

وقال بعض العلماء: - وهي نكتة حسنة - أن هذا العذاب الذي يعذبهم الله به هو عذاب فظيع هائل لا يُقَادَر قدره ولا يُمَاتَل مثله، فلو وقع منه ظلماً لكان مبالغاً في غاية الظلم مبالغة عظيمة، فنفي المبالغة بهذا الاعتبار، ومعناها نفي الفعل من أصله. وهذا الوجه حسن جداً، إلا أن فيه دقة. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: الآية ٥١].

وقوله (جل وعلا) في هذه الآيات الكريمة ﴿كَذَّابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ لِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢] الكاف في قوله: ﴿كَذَّابٍ﴾ في محل

(١) انظر: البحر المحيط (١٣١/٣)، الدر المصون (٥١٥/٣)، فتح الرحمن بكشف ما يلتمس

في القرآن ١٠١، الإنقان (٢٣٣/٣)، الكليات ٨٨٩، الفاسمي (٣٠٩/٤).

رفع خبر مبتدأ محذوف. أي: دأبهم دأب كفار مكة، أبي جهل وأصحابه. دأبهم: أي: عاداتهم، ودينهم، ودينتهم كدأب آل فرعون؛ لأن فرعون وقومه كان دأبهم الكفر، وتكذيب الرسل، والتمرد على الله، والكفر بالآيات، وجودها بعد الاستيقان؛ لأن فرعون - لعنه الله - متيقن كل اليقين أن نبي الله موسى صادق، وقد أوضح الله يقينه بذلك في موضعين: أحدهما قوله فيه [في سورة النمل: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الثاني: قوله تعالى إخباراً عن قول موسى لفرعون في سورة الإسراء: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ وهذا كان دأب المكذبين من الأقوام الذي بُعث فيهم الرسل كقوم نوح^(١).

/ وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط، كل هؤلاء كانوا في غاية التمرد والعتو وتكذيب الرسل بعد قيام المعجزات ووضوح الحق. بين الله (جل وعلا) أن كفار قريش دأبهم كدأب أولئك. والدأب في لغة العرب: العادة. فكل من يجري على سَنَنٍ مطرد وعادة وتيرة تقول العرب: هذا دأبه. أي: عاداته ودينه الذي يسير عليه دائماً. ومنه قول امرئ القيس في إحدى روايتي بيته^(٢):

كَدَابِكَ مِنْ أُمَّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمَّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير أبي عمرو في رواية السوسي: ﴿كَدَابِ أَلِ فِرْعَوْنَ﴾ بتحقيق الهمزة، وقرأه أبو عمرو في رواية السوسي عنه خاصة: ﴿كَدَابِ أَلِ فِرْعَوْنَ﴾ بإبدال الهمزة ألفاً في الموضعين.

والمعنى: دأب هؤلاء الكفرة دأبهم ودينتهم ودينهم مثل دأب آل فرعون في تكذيب الرسل؛ لأن فرعون كلما جاءته آية يقول: ﴿لَئِن كَشَفْتْنَا عَنْكَ الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥]

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) ديوانه ص ١١١.

حتى صارحوه في آخر الأمر وقالوا له: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: الآية ١٣٢]. يعني: دأب هؤلاء الكفرة من قريش ومن سار سيرهم كدأب الكفرة العتاة المتمردين من الأمم الماضية آل فرعون والذين من قبلهم، كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقد قدمنا قصصهم مفصلة في سورة الأعراف وغيرها. وهذا معنى قوله: ﴿كَذَّابٌ آتَى الْوَعْدَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم فسر دأب آل فرعون ومن قبلهم وبين عاداتهم، قال: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ كفروا بها: جحدوا بها. وآيات الله: ما تتلوه عليهم الرسل من آياته الشرعية الدينية، وما يعاينونه من المعجزات من آياته الكونية القدرية، وهذا معنى قوله: ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢]. العرب تقول: «أخذ الله» إذا عاقبه عقاباً شديداً أليماً. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما (رحمهما الله) من حديث أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم تلا ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٦] ﴿[هود: الآية ١٠٢]﴾^(١) ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أهلكتهم وعاقبهم العقاب الشديد بسبب ذنوبهم. والذنب: هو الجريمة التي يستحق صاحبها النكال. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ القوة: ضد الضعف، وقد بين (جل وعلا) أن القوة ضد الضعف في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً...﴾ الآية [الروم: الآية ٥٤]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ﴾ لأن الله (جل وعلا) قوي، هو أقوى من كل شيء، حتى لما قال عاد ما قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ قال لهم: ﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: الآية ١٥].

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأنعام.

﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ العقاب: النكال الشديد لأجل الذنب. قال بعض العلماء: سُمي عقاباً لأنه يأتي عقب الذنب من أجله. وقد بينا مراراً أن الله (جل وعلا) في كتابه ينوه بشدة عقابه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: الآية ١٦٥] ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: الآية ١٧٤] ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: الآية ٢] ونحو ذلك من تشنيع عذابه وفظاعته، وإن الأمر كذلك؛ لأنه ليس يوجد عذاب هو في غايته شديد فظيع إلا عذاب الله (جل وعلا) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿١٥﴾ وَلَا يُؤْتِيهِ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: الآيات ٢٥، ٢٦] لأن الناس إذا عذبوا المجرمين، والملوك الطغاة البغاة إذا أرادوا أن يعذبوا لا يستطيعون من العذاب إلا قدر ما يستوجب الموت مرة واحدة، فإذا شددوا العذاب على المعذب بقدر ما يميتة مات وانتهى الأمر، أما خالق السماوات والأرض (جل وعلا) فإنه يعذبه بالآلاف مما يستوجب الموت وهو لا يموت. ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمِيمِتٍ﴾ [إبراهيم: الآية ١٧] وقال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا نَفِخَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: الآية ٥٦] ﴿لَا يَفْضُلُ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: الآية ٣٦] ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِكُمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَرْكُوتٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: الآية ٧٧] فهذا العذاب الذي لا تقطعه الموت ولا غيرها هو الذي يُخاف منه ويُحذر منه، وهو الشديد بمعنى الكلمة، فعلى كل عاقل أن يتحفظ منه ويتحرز منه في دار الدنيا مع إمكان الفرصة قبل أن يفوت الأوان ويندم حيث لا ينفع الندم، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٢].

ثم قال جل وعلا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبِراً بِنِعْمَةِ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْذِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣] الفعل المضارع مجزوم بـ (أن) بعد (حتى)، و (حتى) حرف جر بمعنى الغاية. والأصل: إلى أن يغيروا. أي: إلى تغييرهم ما بأنفسهم. فهو غاية ذلك المذكور مما أنزل الله بهذه الأمم من المثلات، وما أنزل بكفار مكة من العذاب يوم بدر والقتل والأسر متصلاً بعذاب الآخرة الذي لا ينقطع بسبب أن الله جل وعلا ﴿لَمْ يَكُ مُعْتَبِراً بِنِعْمَةٍ﴾ (يكن) مضارع كان يكون، وحذف النون

في الفعل المضارع معروف بقياس مطرد نطقت به العرب كذلك، سواء كان بعده (أل) أو لم تكن بعده (أل) كما هو معروف ﴿لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ نعمة: مفعول به لاسم الفاعل. والنعمة: مصدر بمعنى الإنعام، وهو ما ينعم الله ويتفضل به على خلقه. أنعم بها ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ أي: جماعة من الناس كقريش وغيرهم من الأمم ﴿حَتَّى يُعِيرُوا﴾ والمعنى: أن عدم تغييره للنعمة مُعِيرًا بغاية، تلك الغاية هي أن يغيروا ما بأنفسهم، فإذا غيروا ما بأنفسهم بأن ارتكبوا سوءاً يستوجب العذاب والغضب غيرنا النعم بسبب تغييرهم إياهم.

وهذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن يجب الاعتبار بها، وأن الإنسان لا يتسبب في تغيير نعمة الله عنه بتغييره ما في نفسه، بل يدوم على طاعة الله وتقواه؛ لأنه إذا تنكر لربه قد يغير نعمته عنه وينقله من النعمة إلى النقمة، ومن السلامة إلى العذاب.

وفي هذه الآية الكريمة إشكال معروف، وسؤال مشهور، وهو أن يُقال: إن هؤلاء الكفرة كل أحوالهم خبيثة وخسيصة، فما غيروا الكفر إلا إلى كفر، فهم كانوا كفرة ولم يكونوا في حالة محمودة حتى يكونوا غيروا ما بأنفسهم، فالذي كانوا فيه خبيث خسيس، والذي غيروا به خبيث خسيس، فبأي موجب كانت تتمادى عليهم النعمة الأولى، وبأي سبب كانوا يدخلون في قوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعِيرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا الإشكال قوي، ووجهه واضح جداً، ولا يمكن أن يُخرج من الآية لأن الآية نازلة في الكفار، فرعون ومن سار على سيره، وكفار مكة الذين شُبِّه دأبهم بدأبه، والمقرر في علم الأصول: أن صورة السبب لا يمكن أن تُخرج من العام بمخصص، وهو التحقيق إن شاء الله^(١). فبان استحكام هذا الإشكال وقوته.

وأجاب بعض العلماء^(٢) عن هذا بأنهم كانوا في نعمة من الله لأنهم لم

(١) انظر: نثر الورود (١/٣١٣)، المذكرة في أصول الفقه ص ٢١٠.

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٥٠٧).

يأتهم رسول، وكانوا معذورين بالفترة، فأرسل الله إليهم الرسل، وبين لهم المعجزات، وأقام عليهم الحجج، فصاروا يحادون الله، ويكذبون رسله، ويعلمون الحق ويجحدونه عناداً وطغياناً وتكبراً على ربهم، فانتقلوا من حال سيئة إلى حال أسوأ منها بأضعاف، فلما انتقلوا إلى حال أسوأ كانوا غيروا فغير الله ما بهم لما غيروا ما بأنفسهم بانتقالهم من سيء إلى أسوأ. وهذا معنى قوله: ﴿حَقَّ يَغُرُّوْا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يعني: ما بأنفسهم بأن ينتقلوا من خير إلى شر. ودل هذا الجواب على أنه أيضاً بأن ينتقلوا من سيء إلى أسوأ منه وأفظع كما ذكرنا. وهذا معنى قوله: ﴿حَقَّ يَغُرُّوْا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عطف على ما قبله بأنه لم يك مغيراً، وبأنه سميع عليم لا يخفى عليه شيء من أقوال المغيرين المستوجبين لتغيير النعمة، ولا من أفعالهم.

وقد قدمنا مراراً^(١) أن مثل هذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، وأوضحناه مراراً كثيرة. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٥٣].

﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاثِرٍ ظَلِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] هذا كالتوكيد لما قبله، كرره ليبين بعض ما أجمله هناك، فبين في هذه الآية الأخيرة أن من كفرهم المذكور في قوله: ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا﴾ بين أن منه التكذيب بآيات الله، وبين أنه عاقبهم وأغرق منهم آل فرعون.

ومعنى قوله: كذابهم ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فرعون: تطلق على كل من ملك مصر. والمراد بهذه: فرعون موسى.

واختلف العلماء في لفظة (فرعون) هل هو عربي أو أعجمي^(٢)؟ فقال

(١) انظر: ص.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من سورة البقرة.

بعضهم: أعجمي. وقال بعضهم: هو عربي مشتق من (تفرعن) الرجل إذا كان ذا ذهاء ومكر، فكل من كان ذا ذهاء ومكر هو متفرعن، وعلى أنه عربي فوزنه بالميزان الصرفي (فَعْلُولٌ) فعلول بلامين لا (فعلون) بنون^(١). وفرعون هو الوليد بن الريان أو غيره على ما شرحنا، وهذا معنى قوله: ﴿كَذَابِ مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] ﴿مَالِ فِرْعَوْنَ﴾ معناه: أهله وجماعته. والتحقيق في ألف (الآل) أنها مبدلة من واو؛ لأن العرب تصغره على (أويل). وبعضهم يقول: هي مبدلة من هاء، أصله: (أهل)^(٢) ولا يقال: (الآل) إلا لمن له شأن وخطب، وإنما قيل لفرعون: (آل فرعون) مع أنه خسيس خبيث وضع لعظمته ومكانته عند قومه أيام إرسال موسى له؛ لأنه كان يقول: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بَيْنَ ⑤١﴾ [الزخرف: الآية ٥٢] ﴿الَّذِي لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: الآية ٥١] ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: الآية ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: الآية ٣٨] فهذه العظمة الزائفة والأبهة المختلفة كأنه قيل له بها (آل).

﴿مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ كذب قوم نوح بآيات الله التي أرسل بها نبيه نوحاً، وقوم هود بآيات الله التي أرسل بها نبيه صالحاً إلى آخره. وهذا معنى قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾.

﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وقد قدمنا تفصيل إهلاك هؤلاء الأمم، فبين في آيات كثيرة أنه أهلك قوم نوح بالطوفان ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: الآية ٣٧] وبين أنه أهلك قوم هود بالريح العقيم ﴿مَا نَذَرْنَا مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ ⑥١﴾ [الذاريات: الآية ٤٢] وأنه أهلك قوم صالح بصيحة صاح بهم الملك ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٌ﴾ [هود: الآية ٦٧] وأنه أهلك قوم شعيب تارة قال: بصيحة، وتارة قال:

(١) السابق.

(٢) السابق.

برجفة، وتارة بظُلَّة. والتحقيق أن قوم شعيب - أهل مدين - اجتمعت لهم الصيحة والرجفة والظلة؛ لأنه صاح بهم الملك من فوق فرجفت بهم الأرض من تحتهم، ثم إن الله أرسل عليهم ظُلَّة فأحرقتهم - على القول بأن أصحاب الظلة هم أصحاب الصيحة والرجفة، وهو أظهر الأقوال وأقربها - كما قدمنا إيضاحه في سورة الأعراف - وبيننا أن قوم لوط أخذ الملك أرضهم فرفعها وقلبها عاليها سافلها؛ ولذا كانت قرى قوم لوط تسمى (المؤتفكات) والمؤتفكات: مفتعلات من الأفك^(١)، والأفك في لغة العرب هو القلب. من أفك الشيء إذا قلبه فجعل أسفله أعلاه. ومنه قيل لأسوأ الكذب (إفكاً) لأنه قلب للحقائق عن مواضعها. فقال (جل وعلا) فيهم: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمْ سَافِلَهَا﴾ [هود: الآية ٨٢] لأنها أفكها الملك أي: قلبها. فالمؤتفكات: المنقلبات المجعل أسفلها عاليها، تارة عبر عنها بالمؤتفكة نظراً إلى سدوم التي هي عاصمتها، وتارة عبر عن جميع القرى، قال في موضع: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [النجم: الآية ٥٣] وقال في موضع: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾ [التوبة: الآية ٧٠] إلى غير ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَدُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ بين هنا ما فعل بال فرعون؛ لأنه أغرقهم لما أسرى موسى ببني إسرائيل وضرب بعصاه البحر فانفلق البحر وصار فيه اثني عشر طريقاً يبساً، وسلكها موسى وقومه، فجاء فرعون في قومه وأبتهه فوجدوا الطرق يابسة، فدخلوا فيها حتى تكامل خروج بني إسرائيل على الشاطيء، ودخول القبطيين في البحر، أمر الله البحر فاضطرب عليهم، كما جاء مبيناً في سور كثيرة من كتاب الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] وكل من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم كقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، والكفرة الذين كذبوا محمداً ﷺ كل هؤلاء الكفرة كانوا ظالمين، ظالمين بكفرهم.

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

وقد قدمنا مراراً^(١) أن أصل الظلم في لغة العرب التي نزل بها القرآن: هو وضع الشيء في غير محله، فكل من وضع شيئاً في غير محله فهو ظالم، هذا هو لسان العرب الذي نزل به القرآن، كل من وضع شيئاً في غير موضعه فقد ظلم؛ ولذا كانوا يقولون لمن يضرب لبنه قبل أن يروب: ظالم. ويقولون للسقاء المضروب قبل أن يروب: مظلوم. لأن الضرب وقع في غير موقعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُذهب زبده ويضعه، فكان في غير موضعه، وهو معنى معروف في كلامها، ومنه قول الشاعر^(٢):

وقائلة ظلمتُ لكم سِقائي وهل يخفى على العكدي الظليم

العكد: عصب مؤخر اللسان. والظليم: اللبن المظلوم المضروب قبل أن يروب. معناه: أن ذوق اللسان يفهم ما ضرب منه قبل أن يروب، وما ضرب بعد أن راب، ونظيره قول الآخر^(٣):

وصاحبِ صدقٍ لم تردني شكائهُ ظلمت و في ظلمي له عامداً أجزُ

ظلمته: أي: ضربته قبل أن يروب، وهذا المعنى المعروف في كلام العرب، ومنه قيل للأرض التي ليست محلاً للحفر إذا وقع بها حفر: مظلومة، ومنه قول نابغة ذبيان^(٤):

إلا الأوازي لأياً ما أبينها والنؤي كالحوضِ بالمظلومة الجلدِ

لأن حفر النؤي الذي يحول بين خيمة البدوي وبين السيل وقع في أرض ليست محلاً للحفر، ومنه قيل للتراب المنزوع من القبر: (الظليم)، أي: مظلوم؛ لأنه محفور في غير محل حفر عادة، ومنه قول الشاعر يصف رجلاً مقبوراً^(٥):

فأضبح في غبراء بعد إشاحه من العيش مردود عليها ظليمتها

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

هذا معنى الظلم في لغة العرب. وجاء في القرآن معنى الظلم: الظلم بمعنى النقص في موضع واحد، هو قوله: ﴿كَلِمَاتُ الْبُنَيَّانِ ءَأَنَتَ أَكْهَابًا وَكَلِمَاتُ الظَّالِمِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ أَكْهَابًا﴾ [الكهف: الآية ٢٣] وهو راجع في المعنى إلى ما ذكرناه.

إذا عرفتم أن الظلم في لغة العرب: هو وضع الشيء في غير محله فاعلموا أن أعظم أنواعه وأشنعها هو وضع العبادة في غير من خلق. من خلقه الخالق وورثه - جل وعلا - فعبد غيره فقد وضع عبادته وطاعته في غير موضعها فهو ظالم الظلم بمعناه الأكبر ومعنى الكلمة تماماً؛ ولأجل هذا المعنى كثر في القرآن إطلاق الظالم على الكافر المشرك، كقوله: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: الآية ٢٥٤] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: الآية ١٠٦] ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ فسر قوله: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: الآية ٨٢] قال: « بشرك»، ثم تلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]^(١) وكذلك يطلق الظلم على المعصية التي لا تبلغ الكفر؛ لأن العاصي أطاع الشيطان وعصى الله، فقد وضع طاعته في غير موضعها، ووضع معصيته في غير موضعها فهو ظالم بهذا الاعتبار، فهذا معنى قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٤] والتنوين في قوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ تنوين عوض، عوض عن كلمة المضاف إليه، أي: وكلهم كانوا ظالمين. فعوض التنوين عن المحذوف كما هو معروف في محله.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْقِوْنَ (٥٦) فَإِنَّمَا تَشَفَعْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهَم مِّنْ خَلْفِهِمْ لِغَلَبَتْهُمُ يُدْكِرُونَ (٥٧) وَإِنَّمَا تَخَافُ فَنَاقِذُ إِلَهُهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَٰئِيزِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وَعَدَّوْكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ جَحَحُوا لِّلْسَلَامِ فَأَجْحَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ - ٦١].

يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ سَرَ أَلْدَوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فِيمَا تَثَبَتَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ حَفَلَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ ﴿٥٨﴾ [الأنفال: الآيات ٥٥ - ٥٨].

نزلت هذه الآيات في بني قريظة من اليهود^(١)، كانوا تعاهدوا مع النبي ﷺ أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه عدواً، ثم إنهم نقضوا العهد وأعانوا كفار مكة بالسلاح، وذهب إليهم كعب بن الأشرف - قبحه الله - إلى أهل مكة يشجعهم على قتال النبي ﷺ ويكذب عليهم ويقول لهم: أنتم أهدى طريقاً من محمد ﷺ كما قدمنا الكلام عليه في تفسير قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: الآية ٥١] نقض بنو قريظة العهد أولاً فأعانوا قريشاً بالسلاح على النبي ﷺ - والإعانة بالسلاح نقض للعهد الأول - فلما كلمهم ﷺ في نقض ذلك العهد قالوا: نسينا وأخطأنا فلا تأخذنا بها. وأكدوا معه العهد مرة أخرى، ثم نقضوا العهد ومالؤوا الأحزاب على النبي ﷺ يوم الخندق، وكانوا حرباً عليه مع المشركين؛ لأن حبي بن أخطب سيد بني النضير كان فتن سيد قريظة كعب بن أسد حتى نقضوا العهد وصاروا مع الأحزاب حرباً على النبي ﷺ فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ سَرَ أَلْدَوَابِ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنفال: الآية ٥٥].

الدواب: جمع دابة، وقد جرت العادة في القرآن أن الأدميين لا يعبر عنهم بالدواب، لكنه هنا عبر عن هؤلاء الكفرة باسم الدواب، ليشير إلى أنهم كالأنعام بل هم أضل، كما قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْآلَتِمْ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: الآية ٤٤] والدواب: جمع دابة. وأصل الدابة وزنه (فَاعِلِيَّة) (ذَابِيَّة) جاء فيه

(١) انظر: ابن جرير (٢١/١٤).

الإدغام. وجمع (الْفَاعِلَةَ) مطلقاً على (فَوَاعِل) جمع تكسير مقيس بقياس مطرد كما هو معروف في محله^(١). أي: إن شر جميع ما يدب على وجه الأرض من الدواب هم الكفار؛ لأنهم شر كل ما يدب على وجه الأرض، فقوله هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ هي صيغة تفضيل، أصله: إن أشر الدواب، أي: أكثرها وأعظمها نصيباً في الشر الذين كفروا. إلا أن (خيراً) و (شراً) لكثرة الاستعمال فيهما حذفت العرب منهما همزة أفعل التفضيل، وهما صيغتا تفضيل، فقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ أي: أكثر الدواب التي تدب على وجه الأرض شراً وأعظمها نصيباً في الشر - وهو ضد الخير - ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كبني قريظة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن الكفر متغلغل في أعماقهم لا يقلعون عنه، وهم أشقياء قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون. ثم زادهم بياناً وإيضاحاً بقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦] ف ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ قبله. قال بعض العلماء: قوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ إنما جيء به (من) لأنه مضمن معنى: أخذت منهم اليهود. قال بعض العلماء: (من) تبعيضية؛ لأنهم وإن كانوا كفرة كلهم فهم كلهم شر الدواب، إلا أن العهد إنما يعقد مع رؤسائهم الذين لهم العقد والحل، وبذلك الاعتبار دخلت (من) التبعيضية.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ المقرر في فن التصريف: أن كل فعل جاء على وزن (فَاعِل) كقوله هنا ﴿عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ أو على وزن (تفاعل) إنه يقتضي اشتراك المصدر بين فاعلين^(٢). فمعنى ﴿عَاهَدْتَ﴾ أخذت عليهم العهد وأخذوا عليك العهد؛ لأن (فَاعِل) تقتضي الطرفين.

والعهد: كل شيء مؤكد لا يجوز نقضه تسميه العرب عهداً. والميثاق: العهد المؤكد. ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ وهم يهود بني قريظة ألا يحاربوك وألا يعاونوا عليك محارباً آخر ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا العهد المؤكد ﴿يَنْقُضُونَ عَاهِدَهُمْ﴾ قال بعض العلماء: (ثم) هنا للاستبعاد؛ لأنه يُسْتَبَعَدُ من العاقل الذي عنده عقله أن يجعل على نفسه العهود والمواثيق المؤكدة ثم ينقض

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

ذلك؛ لأن هذا الفعل خسيس قبيح يستبعد من العقلاء. وقد تقرر في كلام العرب وفي القرآن أن لفظة (ثم) التي هي للانفصال والتراخي قد تأتي للاستبعاد، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: الآية ١] لأن من خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور يستبعد كل الاستبعاد أن يُجعل له عديل ونظير، ولذا قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١] أي: يجعلون له عدلاً ونظيراً. تقول: عدلت به إذا جعلت له عدلاً ونظيراً، ومنه قول جرير^(١):

أثعلبة الفوارس أو رياحاً عدلت بهم طهية والخشابا
ف (ثم) للاستبعاد، ومن شواهد إتيان (ثم) للاستبعاد قول الشاعر^(٢):
ولا يكشف الغمء إلا ابن حرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
لأن زيارة غمرات الموت بعد معايتها من الأمور المستبعدة.

﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ نقض العهد هو عدم الوفاء به ونكثه ﴿عَهْدَهُمْ﴾ في كَلِّ مَرْوٍ ﴿كما نقضوا في المرة الأولى حيث أعانوا كفار مكة بالسلاح، ونقضوا في المرة الثانية حيث صاروا مع الأحزاب على النبي وأصحابه ﷺ ورضي عنهم. وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كَلِّ مَرْوٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ لا يتقون الله (جل وعلا) فيجترئون على نقض العهود وعلى كل جريمة، ليس لهم تقوى من الله تحملهم على امتثال أمره واجتناب نهيه - وهذه والعياذ بالله - أمور قبيحة حيث كانوا شر الدواب، وكانوا كافرين، ولا يؤمنون، وينقضون العهود، ولا يتقون الله، فهذا منتهى الذم - والعياذ بالله - هذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٦].

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا تَثَقَّفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ﴿فَإِنَّمَا تَثَقَّفَنَّهُمْ﴾ هذه (إن) هي الشرطية زدت بعدها (ما) المزيدة لتوكيد الشرط. والأصل: فإن تثقفهم فشرد بهم. والفاء في قوله: ﴿فَشَرِدَ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٤) من سورة البقرة.

لأن الجملة الطلبية جزاء الشرط، والمقرر في علم العربية أن جزاء الشرط إن كان لا يصلح أن يكون فعلاً للشرط وجب اقترانه بالفاء^(١)، يعني: إن تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم، والعرب تقول: تثقفه يثقفه في الحرب إذا كان له في الحرب ثقافة، أي: بصيرة وعلم قَدَرَ بها على أن يتمكن من قرئته ويظفر به. يعني: إن كانت ثقافتك في الحرب وبصرك به خوّل لك أن تتمكن منهم وتقدر عليهم ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ (من) مفعول (شَرَدَ) ومعنى: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ افعل لهم فعلاً فظيماً وعقاباً منكرًا هائلاً عظيماً يكون ذلك العقاب عظة لمن خلفهم ومن وراءهم فيتفرقوا ويتبددوا عنك ويخافوا. وكان بعض الفرسان الشجعان لما سُئِلَ: بأي طريق صار الفوارس يخافونك؟ قال: إذا ظفرت بفارس ضربته ضرباً فظيماً منكرًا ليخاف من وراؤه فلا يجترئوا علي!! فمعنى: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي: افعل بهم عقاباً منكرًا فظيماً يكون ذلك العقاب المنكر الفظيع سبباً لتشريد من وراءهم لتفريقهم وتبدهم عنك وخوفهم منك، وإن كان عند أحدهم عهد فإنهم يخافون من نقضه ويفنون به لئلا تفعل بهم ما فعلت بهم، وهذا هو التحقيق في معنى الآية، أي: شَرَدَ من خلفهم، أي: فَرَّقَ من خلفهم وَخَوْفُهُمْ وَيَدُّهُمْ بسبب فعلك فيهم؛ لأنك إذا فعلت في هؤلاء الناقضين للعهد ذلك التنكيل العظيم خافك غيرهم فتفرقوا وتبددوا عنك، وخافوا منك، وحافظوا على العهود إن كانت لهم عهود لئلا توقع بهم مثل ما أوقعت بهؤلاء. وهذا معنى قوله: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجع لـ ﴿مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم، من وراءهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ يعتبرون ويتعظون بالفعل العظيم الذي فعلت بهؤلاء فلا يجترئوا عليك بعدها. وهذا معنى قوله: ﴿فَشَرَدَ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] ولما مكن الله النبي ﷺ من بني قريظة وحكم فيهم سعد الأوس سعد بن معاذ (رضي الله عنه)؛ لأن النبي كان ﷺ

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٣١٦).

لما ظفر بيهود قينقاع جاءه عبد الله بن أبي رئيس المنافقين من الخزرج، وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج، فقال للنبي ﷺ: شفّعني في حلفائي. فشفعه فيهم، فأجلوا إلى نواحي الشام، وطردوا من المدينة إلى نواحي الشام، فلما نزلوا^(١) على حكم النبي ﷺ وأمكن منهم جاءت الأوس - كما ذكره غير واحد من أهل السير والأخبار - فقالوا للنبي ﷺ/ شفّعت إخواننا الخزرج في حلفائهم بني قينقاع، وهؤلاء بنو قريظة حلفاؤنا - لأن قريظة حلفاء الأوس - فشّفّعنا فيهم كما شفّعنا إخواننا في حلفائهم، والنبي ﷺ وسلم يكره ألا يجيب دعاءهم، ويكره ألا يُشردّ بيني قريظة ويفعل فيهم الأفاعيل، فتخلص من هذا وقال: «أحكّم فيهم رجلاً من خياركم هو سعد بن معاذ». فقالوا: رضينا. فحكّم فيهم سعد بن معاذ (رضي الله عنه)، وكان سعد (رضي الله عنه) جرح في غزوة الخندق، جرحه حبان بن العرقة، أصابه في أكحله - وهو العرق الذي في العنق - وكان لما سال الدم من عرقه وخاف الموت كان دعا الله وقال: اللهم إن كنت أبقيت بين نبيك وبين كفار مكة حرباً فأبقني لها لأنني لا أحب أن أقاتل قوماً مثل القوم الذي أخرجوا نبيك من بلده وفعلوا له وفعلوا، وإن كان في علمك أنه لم يبق بينه وبين قريش حرب فاجعل لي هذا الجرح شهادة، ولا تمتني حتى تفر عيني في بني قريظة. فلما حكمه النبي ﷺ فيهم فجاء على حمار، لما جاء للتحكيم، فقال لهم النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «قوموا لسيدكم» قال سعد (رضي الله عنه): حكمت فيهم بأن يقتل رجالهم، وتُسبى نساؤهم وذرايهم. فأخبره ﷺ أن هذا حكم الله فيهم من فوق سبع سموات^(٢).

(١) يعني: قريظة.

(٢) خبر حكم سعد بن معاذ في بني قريظة مخرج في الصحيحين من حديث:

١ - عائشة (رضي الله عنها) عند البخاري في الصلاة، باب الخيمة في المسجد للمرضى وغيرهم. حديث رقم: (٤٦٣) (١/٦٦٣). وأطرافه في (٣٩٠١، ٤١١٧، ٤١٢٢).
ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٩) (١٣٨٨/٣).

٢ - أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) عند البخاري في المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب. حديث رقم: (٤١٢١) (٤١١/٧).

لأنهم الذين نزل فيهم؛ ﴿فَشَرِدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ لَمَلَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾. وكان بعض العلماء يقول: كل هذه الآيات نازلة في كفار مكة؛ لأن هذه السورة كلها في وقعة بدر والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿فَشَرِدَ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ لَمَلَهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٧].

ثم قال تعالى معلماً نبيه ﷺ؛ لأن الله (جل وعلا) علم نبيه ﷺ في هذه السورة الكريمة تعاليم عظيمة، وهي كلها تعاليم من أصول الجهاد، علمه الثبات والصمود أمام العدو، وعلمه فيها الاتصال بخالق السموات والأرض عند التحام الصفوف، وعلمه كيف يخيف أعداءه بشدة الواقعة فيمن قدر عليهم، وعلمه هنا كيف يصلحهم، وكيف ينبذ صلحهم، كل هذه تعاليم جهادية عسكرية من رب العالمين (جل وعلا) للنبي وأصحابه؛ لأن هذا المحكم المنزل ينير معالم الطريق في جميع ميادين الحياة كائنة ما كانت؛ ولذا قال: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ﴾ كقوله: ﴿فَأِمَّا تَثَقَّفَنَّهم﴾ [الأنفال: الآية ٥٧] فهي (إن) الشرطية زيدت بعدها (ما) لتوكيد الشرط. وبعض علماء العربية يقول: إن (إن) الشرطية إذا زيدت بعدها (ما) المؤكدة وجب اقتران المضارع بنون التوكيد، وهو كذلك في القرآن، ما جاء في القرآن (إما) إلا والفعل المضارع بعدها يؤكد بنون التوكيد الثقيلة^(١)، إلا أن التحقيق أنها هي اللغة الفصحى ولا تتعين، فيجوز عدم توكيد الفعل بعد (إما) (...)^(٢) وكقول ليبد بن ربيعة^(٣):

= ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد...، حديث رقم: (١٧٦٨) (١٣٨٨/٣). إلا أن الحديث الذي في الصحيحين مختصر، وهو بسياقه الطويل مخرج في المسند (١٤١/٦ - ١٤٢)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٠٣١/٣)، وابن كثير في تاريخه (١٠٣/٤).

- (١) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.
- (٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل. ويظهر أن الشيخ (رحمه الله) ذكر بعض الشواهد الشعرية. ويمكن الوقوف على الكلام على هذه المسألة بشواهدا في كتاب شرح الكافية (١٤٠٩/٣ - ١٤١٠)، وفي كلام الشيخ (رحمه الله) فيما سبق عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.
- (٣) مضى عند تفسير الآية (٣٥) من سورة الأعراف.

فإما تريني اليوم أصبحت سالماً فلست بأحظى من كلاب وجعفر
وقول الحماسي^(١):

زعمت ثماضر أنني إما أمت يسدّد أبيئوها الأصاغر خلتي
وهو كثير في كلام العرب. وزعم جماعة من علماء العربية أن حذف
النون في هذه الشواهد لضرورة الشعر، وأن النون واجبة. وزعم جماعة
آخرون أنها لغة فصيحة لا ضرورة شعرية.

ومعنى قوله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْتَ لِلْيَمِّهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ نزلت
هذه الآية الكريمة في بني قريظة، قال بعض العلماء: في هذه الآية إشكال
معروف؛ لأن قوله: ﴿تَخَافَنَّ﴾ الخوف يطلق على الظن الذي لا يستلزم
اليقين، والعهد شيء مؤكد متيقن، فكيف ينتقل عن حكم يقين العهد إلى ظن
نقض العهد، والقاعدة المقررة في الأصول: أن اليقين لا يرتفع بالشك^(٢)؟
وأجاب العلماء عن هذا بجوابين^(٣):

أحدهما: هو - ما قدمنا مراراً - أن العرب ربما أطلقت الخوف وأرادت به
العلم، كقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: الآية ٢٢٩]. علمتم من
قرائن أحوالهما ألا يقوما حدود الله. ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي:
يعلمان ألا يقوما حدود الله. ولا شك أن العرب تطلق الخوف على العلم اليقين،
ومن شواهد قول أبي محجن، مالك بن حبيب الثقفي^(٤):

إِذَا مِتُّ فادفني إلى جنب كزمة ترؤي عظامي في الممات عروقتها
ولا تدفنني بالفلاة فإني أخاف إذا مات أن لا أدوقها
وهو يتيقن علماً يقيناً أنه إذا مات لا يدوقها، فقد أطلق (أخاف) وأراد

(١) السابق.

(٢) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٥٣، القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع
فتاوى ابن تيمية ص ١٨٧، شرح القواعد الفقهية للزرقي ص ٣٥.

(٣) انظر: القرطبي (٣١/٨).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(أعلم) وهو عربي فصيح. وعلى هذا القول ف﴿وَأَمَّا تَخَافَ﴾ أي: إما تعلمن من قوم خيانة. وقال أكثر العلماء: إن كان بينك وبين قوم عهود ومواثيق - كالعهود التي كانت بينه ﷺ وبين يهود بني قريظة - إن تخافن من هؤلاء القوم الذين كانت بينك وبينهم عهود تخافن منهم خيانة، أي: خيانة بنقض تلك العهود بأن يخونوك وينقضوا العهود. و (ياء) الخيانة مبدلة من واو؛ لأن أصل مادة الخيانة أجوف واوي العين، من: خان يخون. أصلها: (خَوَانَةٌ) فأبدلت الواو ياء^(١)، كالحيازة من الحَوَز، والصيانة من الصون، والصيام من الصوم. إن تخف يعني من قوم بينك وبينهم عهود ومواثيق تخف منهم خيانة، أي: غدرًا ونقضاً للعهود ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ عَذَابَ سَوَاءٍ﴾ يعني بأن يكون خوف الخيانة ظهرت له أمارات ومبادئ وقرائن يُستدل بها عليه، كما ظهر من بني قريظة أنهم لما عاضدوا المشركين وناصروهم ولم يصرحوا بنبذ العهد كانت مناصرة المشركين ومعاضدتهم قرائن واضحة وأمارات لائحة على أنهم ناقضون للعهد.

وعلى كل حال فالذي دل عليه استقراء القرآن ودلت عليه الوقائع - وهو الصحيح إن شاء الله - أن الأمر له حالتان: تارة يكون الكفار الذين بيننا وبينهم عهد ومصالحة تصدر منهم أشياء تدل على نقض العهد، لدلالة قرائن على ذلك، أنهم صدرت منهم مبادئ نقض العهد، ففي هذه الحالة لا ينبغي للإمام أن يبقى على عهدهم وقد ظهر له منهم أمارات الخيانة لئلا يصيبوا المسلمين بغائلة، ففي هذه الحالة يجب على الإمام أن يصارحهم ويقول لهم: رأينا منكم ما يدل على نقضكم العهد وهو كذا وكذا وكذا، فهذا عهدنا إليكم قد طرحناه إليكم، ونبذناه إليكم، وألقيناه إليكم، وأعلمناكم أنه ليس بيننا وبينكم عهد، خَوْفُ أَنْ تَنْظُرُوا أَنَا نَخْدَعَكُمْ وَنَكِيدُكُمْ وَنَحَارِبُكُمْ غَفْلَةً مِنْكُمْ. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ عَذَابَ سَوَاءٍ﴾ النبذ في لغة العرب: الطرح. ومفعول (انبذ) محذوف، أي: فاطرح إليهم عهدهم، وألقه إليهم في حال كونك أنت وهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على استواء في العلم بأنك حرب لهم وهم حرب لك، ليس أحد منكما يدل للآخر. وعلى هذا

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٤.

فقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: في العلم؛ بأنك لست على صلحك الأول لما رأيت من علامات غدرهم ونقضهم له.

قال بعض العلماء: فانبذ إليهم عهدهم حال كون ذلك النبذ على سواء. أي: على عدالة وطريقة محمودة؛ لأن العرب تسمى العدالة (سواء)، وتسمى الطريق العدل الواضح (سواء) و (سويًا) ومن هذا قول الراجز^(١):

واضرب وجوه الغدر الأعداء حتى يُجيبوك إلى السواء

أي: إلى العدالة والإنصاف من غير ميل ولا جور. وهذا معنى قوله: ﴿وَأِمَّا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: إن خفت يا نبي الله خيانة من قوم كان بينك وبينهم عهد بأن ظهرت لك أمارات الغدر وعلاماته وأوائله منهم ﴿فَأَيْدٍ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم، وألق إليهم العهد في حال كونك وإياهم على ﴿سَوَاءٍ﴾ أي: مستويين في العلم بالحالة الواقعة وأنه لا عهد بينك وبينهم.

وقد جاء عن معاوية (رضي الله عنه) أنه كان بينه وبين الروم مصالحة وعهود ثم إنه (رضي الله عنه) سار إليهم وهم لا يشعرون ليقترب منهم، فإذا انقضت مدة العهد كان قريباً منهم فحمل عليهم، فإذا رجل على فرس له - وفي بعض روايات الحديث في السنن وغيرها - على دابة له، ذلك الرجل يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء ولا غدر، فلما جيء معاوية به وحده عمرو بن عبسة (رضي الله عنه) فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كانت بينكم وبينهم عهود فلا تشدوا العقدة ولا تحلوا حتى تنقضي المدة أو تنبذوا إليهم على سواء». قالوا: فرجع معاوية رضي الله عنه^(٢).

ومعنى الآية الكريمة: إن تخف الخيانة من قوم بينك وبينهم عهد - والخيانة هنا: الغدر ونقض العهد - ﴿فَأَيْدٍ إِلَيْهِمْ﴾ أي: فاطرح إليهم

(١) البيت في ابن جرير (٢٧/١٤) القرطبي (٣٣/٨).

(٢) أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في الغدر. حديث رقم: (١٥٨٠)، (١٤٣/٤).

وأبو داود في الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير نحوه. حديث رقم: (٢٧٤٢) (٤٣٩/٧). وانظر صحيح الترمذي حديث رقم: (١٢٨٥)، صحيح أبي داود، حديث رقم: (٢٣٩٧).

عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أنت وهم مستويان في العلم بنقض العهد، ولا تدلس لهم فيظنوا أنك على عهد حتى تمكر بهم وهم في غفلة، بل أعلمهم بنقض العهد ليستعدوا للحرب ولا تحاربهم في غفلة. وهذا من كمال إنصاف دين الإسلام؛ لأن التعاليم السماوية والكتب الإلهية هي في غاية العدالة والإنصاف، حتى مع الكفار نهى نبيه أن يحاربهم وهم في غفلة من ذلك، بل أمره أن يعلمهم وينبذ إليهم العهد علناً حتى يستوي الجميع في العلم بالحال الواقعة ليستعدوا للحرب والقتال؛ ولئلا يؤخذوا على غرة، فهذه مكارم الأخلاق والعدالة الكاملة. ولا شك أن هذا التشريع تشريع ممن هو عالم بأن أولياءه لهم النصر والظفر لا حاجة له في استعداد الكفار وعلمهم وقوتهم؛ لأنه يعلم أنهم مغلوبون مهورون، وأن الدائرة عليهم، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَيُّدٌ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨].

أما إذا تُيقن نقض العدو للعهد بأن قتلوا المسلمين، وفعلوا الأفاعيل، وصرحوا بنقض العهد علناً فهؤلاء لا حاجة لإعلامهم؛ لأن أمرهم واضح، وهم لا يشكون في نقضهم العهد؛ ولأجل ذلك لما عقد النبي ﷺ مع كفار قريش صلح الحديبية في ذي القعدة من عام ست من الهجرة عقده بينه وبينهم على يد سهيل بن عمرو العامري - رضي الله عنه وكان في ذلك الوقت كافراً - وانعقد هذا الصلح، ودخل خزاعة في عهد النبي ﷺ، وأعداؤهم من البكريين في عهد قريش، وكان صلح الحديبية وقع على المهادنة تسع سنين، فغدر قريش غدراً علناً، وأعانوا البكريين على خزاعة فقتلوه، لما كان هذا الغدر علناً ظاهراً لا إشكال فيه ولا لبس فيه لم ينبذ إليهم رسول الله على سواء، بل غزا قريشاً غزوة الفتح، وأهل الأخبار والسير يقولون: إنه قال: «اللهم خذ الأخبار والمعيون عن قريش حتى نبغتها في ديارها»^(١)، وما دروا إلا والمسلمون بمر الظهران كل رجل يوقد ناراً؛ لأن نقضهم للعهد هنا لا يتناوله ﴿وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ﴾ لأنهم خانوا بالفعل وقتلوا الخزاعيين قتلاً ذريعاً، كما قال صاحبهم الذي استنجد لهم

(١) السيرة لابن هشام ص ١٢٣٨ من طريق ابن إسحاق، وكذا أورده ابن كثير في تاريخه

رسول الله ﷺ وهو عمرو بن سالم الخزاعي (رضي الله عنه)؛ لأن قريشاً لما نقضوا العهد وقتلوا خزاعة مع البكرين أرسل الخزاعيون عمرو بن سالم (رضي الله عنه) فجاء إلى النبي ﷺ في المدينة - هذه حرسها الله - قام عمرو بن سالم الخزاعي وذكر رجزه المشهور الذي يصرح فيه بأنهم قتلوه، وأن نقضهم للعهد كالشمس لا شك فيه حيث قال للنبي ﷺ في رجزه المشهور:

يَارِبُّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَبِيْنَا وَأَبِيهِ الْأَثْلَدَا
ثم قال (١):

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا
هَمْ بَيَّثُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَّدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ تَدْعُو أَحَدَا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْبَلُ عِنْدَا
فَادِعَ عِبَادِ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا
فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا إِنْ سِيمِمْ خَسِفًا وَجْهَهُ تَرِيدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيَّدَا

إلى آخر رجزه المعروف. وذكر أصحاب السير والأخبار أنه ﷺ قال: «لا نصرني الله إن لم أنصرك» (٢). ولم يبنذ إلى قريش على سواء، بل تجهز إليهم في غزوة الفتح في رمضان من عام ثمان، وأنه (صلوات الله وسلامه

(١) نص هذه الأبيات في ابن هشام ص ١٢٣٥، البداية والنهاية (٢٧٨/٤) هكذا:

يَارِبُّ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَبِيْنَا وَأَبِيهِ الْأَثْلَدَا
قَدْ كُنْتُمْ وُلْدًا وَكُنَا وَالِدَا تُمِتْ أَسْلَمْنَا فَلَمْ نَنْزِعْ يَدَا
فَانصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْتَدَا وَاذَعُ عِبَادِ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا إِنْ سِيمِمْ خَسِفًا وَجْهَهُ تَرِيدَا
فِي فَيْلَقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مَزِيدَا إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا
وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاءِ رُصْدَا
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتُ أَدْعُو أَحَدَا وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقْبَلُ عِنْدَا
هَمْ بَيَّثُونَا بِالْوَتِيرِ هُجَّدَا وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسُجَّدَا

(٢) الذي نقله ابن هشام ص (١٢٣٦)، وابن كثير في تاريخه (٢٧٨/٤) قوله ﷺ: «نصرت يا

عليه) لم يعلموا به حتى قُرب من ديارهم، وكان ما وقع مما هو مشهور يوم الفتح. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنذِرْ لَهُمْ عَذَابَ سَوَاءٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ جل وعلا ﴿لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٨] وكل شيء لا [يحبّه]^(١) الله دل على أن صاحبه مرتكب جريمة وذنباً عظيماً. والخائفون: جمع خائف، وأصل الهمزة في ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ مبدلة من واو؛ لأن (الفاعل) من الأجوف تبدل عينه همزة، سواء كانت واو أو ياء، والهمزة في محل الواو؛ لأن المادة واوية العين كما بينا^(٢). فالله (جل وعلا) يبغض الخائنين، فلا ينبغي للإنسان أن يخون، وهذا من مكارم الأخلاق، وغاية عدالة الكتب السماوية وإنصافها.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعية^(٣): قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالتاء الفوقية وكسر السين من (تَحْسِبَنَّ). وقرأه عاصم في رواية شعبة وحده أعني أبا بكر: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء الفوقية للمخاطب وفتح سين (تَحْسِبَنَّ)، وقرأه ابن عامر وحمزة وعاصم في رواية حفص: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بياء الغيبة التحتية وفتح سين (يَحْسِبَنَّ).

أما على قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ وقرائة شعبة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ فالآية الكريمة لا إشكال فيها، وكلا القراءتين واضح لا إشكال فيه ولا كلام.

أما قراءة ابن كثير^(٤) وحمزة وحفص عن عاصم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، فهذه القراءة أصلها مشكلة، ومعناها مشکل^(٥). وتجراً أقوام جراءة لا

(١) في الأصل: «يبغضه» وهو سبق لسان.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٠٣.

(٣) انظر: السبعة ص ٣٠٧.

(٤) سبق لسان، والصواب: ابن عامر.

(٥) انظر: حجة القراءات ص ٣١٢، ابن جرير (٢٨/١٤)، القرطبي (٣٣/٨) الدر المصون

تليق - وإن كان فيهم معرفة وعلم وجلالة كأبي حاتم وأبي عبيد، حتى ابن جرير رحمه الله - وأنكروا هذه القراءة، وقالوا: إنها بعيدة من كلام العرب، وأنها لا وجه لها من الفصاحة، كما أنكر ابن جرير وغيره قراءة ابن عامر: ﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩] - بفتح همزة (أن) - .

والتحقيق أن قراءة ابن عامر: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، و ﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ بفتح الهمزة، وقراءة حمزة وحفص عن عاصم: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ وقراءة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ كلها قراءات سبعيات فضيحة متواترة عن النبي ﷺ لا وجه للطعن فيها.

ب/٧

/ أما على قراءة من قرأ: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فاعلموا أولاً أن (حَسِبَ) بكسر السين في مضارعها لغتان فصيحتان وقراءتان سبعيتان في جميع القرآن: (حَسِبَ يَحْسَبُ، وَحَسِبَتْ تَحْسَبُ). بفتح السين على القياس، و(حَسِبَ يَحْسَبُ) بكسر السين على السماع لا على القياس، وهما لغتان فصيحتان مستفيضتان وقراءتان سبعيتان.

فقراءة شعبة عن عاصم لا فرق بينها وبين قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والكسائي، وإنما الفرق بين قراءة التاء وقراءة الياء. أما على القراءة بتاء الخطاب فمعنى الآية واضح لا إشكال فيه، والحُسابان في لغة العرب: الظن. والمعنى: لا تظن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا. ف (الذين) في محل المفعول الأول، وجملة (سبقوا) في محل المفعول الثاني، و (سبقوا) معناه: غلبوا وفاتوا، فكل شيء فاتك ولم تدركه وعجزت عنه تقول العرب: سبقك. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدَّلَ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١] لسنا بمغلوبين ولا معجزين عن أن نبدل أمثالكم. أي: لا تظنن يا نبي الله الذين كفروا سبقوا، لا تظنن الكفار فائتين سابقين يعجز عنهم ربهم (جل وعلا)، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ ولا يسبقون، فهم تحت قهره وقدرته وسلطنته يفعل فيهم كيف يشاء، ولا يسبقونه ولا يفوتونه، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: الآية ٤] أي: يفوتونا ويعجزوننا، لا ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤]، وكذلك قراءة شعبة عن عاصم: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هي معناها وهذه القراءة واحد.

أما على القراءة الأخرى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ فتفسير الآية مشكل؛ لأنه لا يُدرى أين مفعولا (حسب)، ولا يُدرى الفاعل أين هو؟!

وللعلماء فيها أقوال متقاربة لا يكذب بعضها بعضاً:

قال بعض العلماء: هذه الآية الكريمة حُذفت منها (أن) المصدرية، وحذف (أن) المصدرية إذا دل المقام عليها أسلوب عربي معروف موجود في القرآن وفي كلام العرب. قالوا: من أمثله في القرآن قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [الروم: الآية ٢٤] الأصل: . ومن آياته أن يريكم البرق. ونظيره من كلام العرب قول طرفة بن العبد في معلقته^(١):

ألا أيهذا الزاجري أخضر الوغى
.....
ويروى:

ألا أيهذا الزاجري أخضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخَلدي
قالوا: الأصل: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا. قالوا: والمعنى: أنهم سبقوا. فيصير المفعولان في قوله: «أن سبقوا» لا يظنوا أنفسهم سابقين، أي: فائتين معجزين ربهم. قالوا: وغاية ما في هذا حذف (أن)، وهو موجود في القرآن وفي كلام العرب.

وقال بعض العلماء: ضمير الفاعل يعود إلى النبي ﷺ بدلالة أن ضمير الفاعل في الخطاب واقع عليه، أي: لا تحسبن أنت يا نبي الله، ولا يحسبن هو، أي: نبي الله، لا يحسبن الذين كفروا سبقوا. ومعلوم أنه لا يحسب ذلك ولكنه يُنهي ليشترع على لسانه لغيره كما قيل له: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: الآية ٢٢] ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: الآية ٢٩] ونحو ذلك من الأشياء التي هو لا يفعلها، ﴿وَلَا تَطْعَمْنَاهُمْ إِثْمًا أَوْ

(١) شرح القوائد المشهورات (٨٠/١).

كفُورًا [الإنسان: الآية ٢٤] وعلى هذا القول فتكون قراءة التاء قرينة دالة على الفاعل؛ لأن الفاعل في قراءة التاء ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ أنت يا نبي الله. فيكون المعنى في قراءة الياء: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ هو أي: نبي الله، لا يظنن الذين كفروا سبقوا. أي: فاتوا وعجز عنهم ربهم سبحانه عن ذلك. وعلى هذا القول ف (الذين) في محل المفعول الأول، و (سبقوا) في محل المفعول الثاني.

وقال بعض العلماء: (الذين) في محل رفع على الفاعل، وأحد المفعولين محذوف. قالوا: المعنى: لا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا. أي: لا يظنون أنفسهم سابقين، قالوا: وربما حُذِفَ المفعول كما حُذِفَ في قوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ [آل عمران: الآية ١٧٥] أصله: يخوفكم أوليائه لكن (حسب) و (خوف) ليسا من باب واحد؛ لأنه (حسب) تنصب المبتدأ والخبر، و (خوف) لا تنصب المبتدأ والخبر بل مفعولاها أصلهما ليسا بمبتدأ وخبر.

وقال بعض العلماء: لا يحسبن الكفار الذين كفروا سبقوا.

هذه الأقوال في هذه الآية الكريمة وفي نظيرتها في سورة النور على قراءة الياء. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْرِضُونَ﴾ وقرأ ابن عامر ﴿أَنْهُمْ لَا يَعْرِضُونَ﴾ بفتح الهمزة^(١).

وكان كبير المفسرين أبو جعفر ابن جرير الطبري (رحمه الله) يقول: إن قراءة ابن عامر هذه لا وجه لها^(٢). والكمال لله، لأن قراءة ابن عامر - رحمه الله - وجهها ظاهر جداً؛ لأنها تطابق قراءة الجمهور في المعنى، إلا أن قراءة ابن عامر أظهر في المعنى وإن خفي ذلك على الإمام ابن جرير (رحمه الله)؛ لأن الكمال والعلم لله وحده.

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

(٢) تفسير ابن جرير (٢٨/١٤).

والحاصل أنه قد تقرر في الأصول في مسلك (الإيماء والتنبيه)^(١) أن من الحروف الدالة على التعليل، (إِنَّ) المكسورة المشددة، تقول: اضربه إنه مسيء. أي: اضربه لعله إساءته، أكرمه إنه محسن. أي: أكرمه لعله إحسانه. فـ (إِن) من حروف التعليل. وعلى قراءة الجمهور فـ (إِنَّ) المكسورة دلت على التعليل. لا تظنهم سابقين فائتين معجزين ربهم، لا وكلا ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ لا يعجزون ربهم ألبتة، فيكون النهي عن قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ لأجل أنهم لا يعجزون أبداً، فلا يخطر في قلبك ذلك الحسبان الباطل.

أما على قراءة ابن عامر: ﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ فـ (أَن) قد تقرر في علم النحو أن المصدر المنسبك من (أَنَّ) وصلتها و (أَنْ) وصلتها يجوز جره بحرف محذوف بقياس مطرد^(٢). فالأصل: لا تحسبن الذين كفروا سبقوا؛ لأنهم لا يعجزون. غاية ما في الباب حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أَنَّ) وصلتها، وهو واضح مطرد لا إشكال فيه، وقد عقد اطراذه ابن مالك في خلاصته بقوله^(٣):

.....
وَأَنْ حُذِفَ فَالْتَّضْبُ لِلْمُنْجَرِّ
نَقْلًا وَفِي (أَنَّ) وَ (أَنْ) يَطْرُدُ
مَعَ أَمْنٍ لِبَسِّ كَعَجِبْتُ أَنْ يَدُو

فقراءة ابن عامر دالة على التعليل الذي دلت عليه قراءة الجمهور بقياس عربي واضح مطرد لا إشكال فيه، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا﴾ (يعجزون) مضارع (أعجز)، أعجزه: إذا صيره عاجزاً عنه، فكل شيء غلبك ولم تقدر عليه تقول العرب: أعجزك

(١) جرى الأصوليون على اعتبار (إِنَّ) ضمن مسلك النص، وبعضهم يعتبرها من قبيل النص الصريح، ويرى آخرون أنها من قبيل النص غير الصريح (الظاهر).

انظر: شرح الكوكب المنير (٤/١١٩)، نشر الورود (٢/٤٨٠)، مباحث العلة في القياس عند الأصوليين ص ٣٥٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

وسبقك وفاتك. بمعنى واحد ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ ربهم. أو: لأنهم لا يعجزون ربهم، بل ربهم قادر عليهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَأَنَّ اللَّهَ مُعْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: الآية ٢٧] وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِرُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٥٩].

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] أمر من الإعداد، والإعداد في لغة العرب التي نزل بها القرآن: معناه اتخاذ الشيء، وادخاره إلى وقت الحاجة إليه، فكل شيء اتخذته وجعلته عندك تنتظر به وقت الحاجة إليه فقد أعدته. والأمر في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ للوجوب؛ لأن المقرر في الأصول: أن صيغة (افعل) تدل على الوجوب مالم يصرف عن ذلك صارف^(١) [من]^(٢) كلام الله وكلام رسوله ﷺ. ونعني بصيغة (افعل): الصيغ الأربع الدالة على الأمر الذي هو اقتضاء طلب الفعل. والصيغ الدالة على الأمر أربعاً^(٣): فعل الأمر، كقوله هنا: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ وكقوله: ﴿أَقْرِضْهُمُ الْغُلَامَ﴾ [الإسراء: الآية ٧٨] والفعل المضارع المجزوم بلام الأمر، كقوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُؤْتُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوِّفُوا﴾ [الحج: الآية ٢٩] واسم فعل الأمر، نحو: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يُضَرِّكُمُ مِنْ ضَلِّ النَّاسِ﴾ [النساء: الآية ١٠٥] والمصدر النائب عن فعله، نحو: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: فاضربوا رقابهم.

ولعلماء الأصول اختلاف في صيغة (افعل) إذا جاءت في كلام الله أو كلام نبيه ﷺ وتجردت عن القرائن ماذا تفيد عند الإطلاق^(٤)، هل

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام.

هو الإيجاب المتحتم، أو الندب، أو الطلب؟ إلى غير ذلك من الأقوال.

والتحقيق الذي دلت عليه الأدلة: أن النصوص الشرعية واللغة العربية التي نزل بها القرآن كلها يدل على أن صيغة (افعل) تقتضي الوجوب ما لم تقترب دليل يصرها عن ذلك، والدليل على ذلك من القرآن: أن الله (جل وعلا) قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: الآية ٦٣] فلو كانت مخالفة الأمر غير معصية، وامتنال الأمر غير واجب لما شدد عليه هذا الوعيد العظيم في قوله: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: الآية ١٢] والأمر بصيغة (افعل) وهو قوله: ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ [الأعراف: الآية ١١] فعنفه التعنيف الشديد الذي لا يفعل إلا لتارك الواجب على مخالفته لصيغة (افعل) التي هي: ﴿أَسْجُدُوا لِأَدَمَ﴾ وقد قال نبي الله موسى لأخيه هارون: ﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: الآية ٩٣] يعني قوله: ﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْتَ﴾ الآية [الأعراف: الآية ١٤٢]. والمعصية لا تسمى إلا لارتكاب الحرام المستوجب للإثم، وقد وبخ الله (جل وعلا) قوماً توبيخاً شديداً لمخالفتهم لصيغة (افعل) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: الآية ٤٨] (اركعوا) صيغة (افعل) وقد وبخ من لم يمثلها وعنفه تعنيفاً شديداً في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٣٦] وفي القراءة الأخرى: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١) فجعل أمر الله وأمر الرسول موجباً للامتثال قاطعاً للاختيار. وقال في الملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: الآية ٦] فدل على أنهم لو لم يمثلوا ما أمرهم لكانوا عاصين، حاشاهم من ذلك.

وأما اللغة العربية: فإنك لو قلت لعبدك: اسقني ماء. أمرته وألزمته

(١) مضت عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

بصيغة (افعل) ثم ترك ولم يمثل فأدبته، فقال لك العبد: تأديبك لي ليس واقعاً في موقعه؛ لأن صيغة (افعل) في قولك: «اسقني» لم تلزمني ولم توجب علي!! فكل من يعرف معنى اللسان العربي يقولون له: صيغة الأمر ألزمتك وأوجبت عليك، ولكنك عصيت وخالفت.

ومرادنا بهذا: أن هذا أمر خالق السموات والأرض، أمر رب العالمين بإعداد القوة التي يمكن أن تحصل في الاستطاعة، هذا الأمر واجب، وتضييعه حرام لا شك فيه، وبذلك يُعلم أن تواكل من يسمون باسم المسلمين في أقطار الدنيا، وعدم سعيهم في إعداد القوة الكافية لقمع العدو أنه تمرد على نظام السماء، وعدم عمل بإرشادات خالق هذا الكون - جل وعلا - وامتنال أوامره، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن رسم الطريق وبين للنبي ﷺ وأصحابه الطريق التي إذا فعلوها وساروا عليها كانت كفيلة بنصرهم، وذل أعدائهم، وقمع كلمة الكفر وإذلاله؛ لأنه هنا أمر بإعداد القوة التي يمكن أن تدخل تحت الاستطاعة كائنة ما كانت، تطورت القوة مهما تطورت، وانتقلت من حال إلى أي حال، فالآية تسير التطور بدلالة مطابقتها مهما كان وما تحول الأمر؛ لأن لفظها الصريح موجب أمر إيجاب سماوي من الله إعداد كل ما يمكن أن يدخل في الاستطاعة من القوة لقمع الكفرة (قبحهم الله)، فهذا أمر واجب، فلو عمل الناس بهذا الأمر، وبدلوا ما عندهم من الإمكانات والثروات في إعداد القوة الكاملة من جميع وجوهها، حتى في تعليم الأمور التي تطورت إليها الحياة الراهنة؛ لأن كل حال له مقال، وكل حالة لها مواجهات بأمور ثلاثتها. ودين الإسلام مرن غاية المرونة، كل شيء يقابله بما يصلح له، وذلك في نور السماء الذي شرعه الله على لسان محمد ﷺ، فإن القوة التي يقوى بها عسكر المسلمين، ويحمون حوزتهم، ويردون المسلوبات منهم إذا أعدوا القوة الكافية التي تدخل تحت الاستطاعة، ثم حول هذه القوة كانوا متكاتفين غير متنازعين غير متفرقين، كلمتهم واحدة، وذكروا الله كثيراً، وتعلقت أرواحهم بربهم، وطلبوا المدد من السماء، كانت أسباب النصر كلها متوفرة لديهم لقوتهم الكافية، ولعدم

فشلهم؛ ولأنهم إذا فشلوا وتفرقوا دخل العدو بينهم، ورمى بعضهم ببعض كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحًا﴾ [الأنفال: الآية ٤٦] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] لا تتفرقوا، هذه أوامر الله، والقرآن يوضح الطريقة التي لو سلكها الناس لكانت كفيلة لهم بالنصر والظفر؛ لأن منها إعداد القوة الكافية، وكل من عنده مال فباستطاعته كل شيء؛ لأن المال سبب لكل شيء، وهو شريان الحياة، ويسخر الله به لمن أعطاه إياه كل الإمكانيات من تعليم حتى يتعلم ما تعلمه الكفرة ويصل إلى ما وصلوا إليه، ويستعين به في جميع الميادين ليكتسب به القوة الكاملة.

ومعلوم أن هذه أوامر الله، وأنها متروكة، وأن دين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، وأن المتسمين باسم الإسلام هم الذين تنكروا للدين، وفارقوا الآلة الجبارة القاهرة التي كانوا يقهرون بها أعداء الله، وهي طاعة الله وامتنال أمره واجتناب نهيه، ولا شك أنه يجب على المسلمين امتثال أوامر الله، وأن يتفطنوا ويتحرزوا، ويفرقوا بين النافع والضار؛ لأن من طبيعة أدنى العقلاء التفريق بين ما ينفع وما يضر، ولا شك أن ما يسميه الناس (الحضارة الغربية) دل الاستقراء الصحيح اليقين أن فيها ماء زلالاً نافعاً وسمّاً قاتلاً فاتكاً، ونضرب لهذا مثلاً^(١): لأنك مثلاً أيها الإنسان إذا وجدت إناء فيه ماء زلال وإناء فيه سم قاتل وأنت خارج من العمران في فلاة بعيدة شاسعة، فحالك لا يخلو من أربعة أحوال: إما أن تشرب الماء والسم معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم. فافرض مثلاً أنك وجدت ماء زلالاً وسمّاً فاتكاً قتالاً في موضع واحد، وأنت في فلاة معطشة بعيد جداً من العمران، فلك مع هذا أربع حالات: إما أن تشربهما معاً، وإما أن تتركهما معاً، وإما أن تشرب السم وتترك الماء، وإما أن تشرب الماء وتترك السم، ولا خامسة البتة. وهذا تقسيم صحيح، فنرجع لهذا التقسيم الصحيح بالسبر الصحيح فنقول:

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

إذا شربتهما معاً لم ينفعك الماء؛ لأن السم الفتاك يقتلك ويقضي عليك، وإن تركتهما معاً هلكت، ولم تبلغ العمران، ولم تلتحق بالركب، وإن أخذت السم وتركت الماء فأنت مجنون أهوج أحمق حيث أخذت ما يضرك وتركت ما ينفعك!! وإن كنت عاقلاً يصدق عليك مطلق اسم العاقل أخذت الماء وتركت عنك السم. وهذا مثال لما جاءت به الحضارة الغربية، فإن ما أحدثته من القوة المادية وأنواع التنظيمات في جميع ميادين الحياة هو ماء زلال مُحتاج له جداً لا بد منه/ في تطور هذه الحياة الراهنة حسب ما تطورت إليه من الأوضاع، وفيها سم قاتل فتاك لا شك فيه، وهو ما جنته من الكفر، والانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، ومعاداة خالق السموات والأرض. فالموقف الطبيعي للمسلمين في الأوضاع الراهنة أن يتأملوا فإذا أخذوها كلها بنافعها وضارها أهلكهم ضارها ولم ينتفعوا بالنافع، وإذا تركوها كلها - تركوا النافع منها والضار - بقوا ولم يلحقوا، وبقوا مستضعفين، وإذا أخذوا ضارها دون نافعها فهم قوم مجانين، هم حمقى لا عقول لهم، وإن أخذوا النافع وتركوا الضار فهذا هو الأمر الطبيعي لكل عاقل.

١/٨

والمؤسف كل الأسف أن غالب من يتسمى باسم الثقافة والحضارة والتمدن لا يأخذ منهم إلا القشور المهلكة، والسموم الفاتكة، من الانحطاط الخلقي، والتمرد على نظام السماء، والتنكر لخالق هذا الكون، في الوقت الذي لا يستفيد فيه من مائها الزلال - الذي هو قوتها شيئاً!! وهذه مسألة معكوسة جمع صاحبها بين الكفر والإفلاس.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل^(١)

وإذا كان ربنا يقول في هذا المحكم المنزل آخر الكتب السماوية عهداً برب العالمين: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَظَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] مهما تطورت القوة، ومهما بلغت كائنة ما كانت ﴿وَمِنْ رَبِّاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ كان وقت نزولها أقوى القوة وأعظم العدة الخيل وما جرى

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

مجراها من الرمي، وقد ثبت في صحيح مسلم عن عقبه بن عامر الجهني (رضي الله عنه) أنه سمع رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي». كررها ثلاثاً^(١). لأن الرمي في ذلك الوقت وإعداد الخيل والسيوف هذا هو أقوى القوّة وأعظمها في ذلك الوقت، والإعداد في ذلك كان يكون بمثل هذا، حتى قال الشاعر^(٢):

وَأَعِدُّوا لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذَكَوَرًا
وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٣):

أَعِدُّوا لِلْحَدَثَانِ سَا بَغَةً وَعَدَاءَ عَلَثِي
يعني: درعاً وفرساً ذكراً.

أما الآن فقد تطوّرت الحياة عن ذلك في ظروفها الراهنة، وصارت الخيل والدروع والرماح لا تغني شيئاً، فصار الأمر يتطلب شيئاً زائداً على ذلك يسائر الأحوال، ويسائر التطور في حالاته الراهنة، فعلى المسلمين أن يُعدّوا كل ما في الاستطاعة منه، ولكنهم - وإنا لله وإنا إليه راجعون - لا يُعدّون في أغلب أقطار المعمورة شيئاً، والكفار يتقوّون ويسلّطهم الله عليهم بذنوبهم. أمّا التعاليم السماوية فهي لا تشجّع على الضعف والتواكل والتسليم للأعداء، لا، إنما تأمر بالقوّة وإعداد القوة المستطاعة، والكفاح القوي، وعدم التنازع، وعدم التفرّق، والاتّصال مع هذا كله بخالق السماوات والأرض، وامتنال أوامره، واجتناب نهيه ﴿إِذَا لَقِيتَ فِتْنَةً فَاقْبَلُوهَا وَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: الآية ٤٥] إلى غير ذلك من الآيات. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا

(١) أخرجه مسلم في الإمارة، باب: فضل الرمي والحث عليه. حديث رقم: (١٩١٧) (١٥٢٢/٣).

(٢) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٧١، تاريخ دمشق (١٤٠/٢٠).

(٣) البيت في الدر المصون (٢٠٧/١)، شواهد الكشاف ص ٣٢.

أَسْتَطَقْتُمْ ﴿إِعْدَادَهُ﴾ ﴿وَمِنْ رَبَائِطِ الْخَيْلِ﴾ الرباط: تطلقه العرب على عين الخيل المربوطة، يقولون: هذا رباط. أي: خيل مربوطة في سبيل الله. قال بعضهم: هو جمع ربيط، فرس ربيط: مربوط في سبيل الله، قالوا: كفصيل وفصال، وربيط ورباط، فالرباط اسم لذات الخيل المربوطة في سبيل الله؛ لأن الخيل كانت من أقوى القوة وأعظم العدة التي تُقهر بها الأعداء في وقتها. وهذا معنى قوله: ﴿وَمِنْ رَبَائِطِ الْخَيْلِ﴾ والخيل هو الحيوان المعروف. قال بعضهم: هو جمع (خايل)؛ لأن في مشيها خيلاء كمشية المتكبر المتبخر. وبعضهم يقول: هو جمع (خائل) واحده (خائل). وقد قدمنا أن التحقيق عندنا أن (الْفَاعِلِ) يُجْمَعُ عَلَى (فَعْلٍ) إِذَا كَانَ وَصْفًا. وقوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ الإرهاب: التخويف، تخوفون به عدو الله. والعدو يُطلق على المفرد وعلى الجمع، معناه: أعداء الله، كقوله: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمُ﴾ [المنافقون: الآية ٤] ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوِيٍّ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [النساء: الآية ٩٢] أي: أعداء. وهذا معنى قوله: ﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ككفار مكة وغيرهم من الكفار.

﴿وَالْآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ معنى ﴿مِنْ دُونِهِمْ﴾ آخرين غيرهم لا تعلمونهم. كان بعض العلماء يقول: هم قريظة. وبعض العلماء يقول: هم فارس والروم. وبعض العلماء يقول: هم المنافقون^(١).

واستدل من قال: إنهم المنافقون؛ لأن الله قال فيهم: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: الآية ١٠١] وقال كثير من العلماء: هم مردة الجن، وزعم بعض العلماء أن الجن يخافون من الخيل، وأنهم يفرون من صهيلها!! وجاء في ذلك بعض الأحاديث.

والتحقيق أنه لم يثبت فيه شيء عن النبي ﷺ. وقال بعض العلماء: البحث عن هؤلاء الآخرين لا طائل تحته؛ لأن الله صرح بأننا لا نعلمهم فكيف نتكلم فيما قال ربنا إننا لا نعلمه، والله يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (٣٥/١٤)، القرطبي (٣٨/٨)، ابن كثير (٣٢٢/٢).

بِهِ عَلَّمَ ﴿[الإسراء: الآية ٣٦]﴾^(١) وهذا معنى قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾.

ولما أمر الله بإعداد القوة المستطاعة كائنة ما كانت، وكان إعدادها يحتاج إلى مادة رغب المؤمنين في الإنفاق في سبيل الله، لينفقوا ويعينوا على إعداد القوة، قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ما) شرطية، و ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ بيان لـ (ما)، و ﴿تُنْفِقُوا﴾ معناه: [تبدلونه]^(٢) لوجه الله وابتغاء مرضاته ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طريقه التي ترضيه، ويدخل فيها دخولاً أولياً: ما يعين على الجهاد من إعداد القوة، ومن رباط الخيل.

﴿يُوفِّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: يعطكم الله ثوابه يوم القيامة وافياً غير منقوص، الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله من الأضعاف. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠] لا تنقصون شيئاً من حقوقكم.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصِيرَةٍ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ حَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَلْبِغُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَلْبِغُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَتَنْ خَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَلْبِغُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَلْبِغُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُمْتَحِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ - ٦٩].

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

(١) انظر: القرطبي (٣٨/٨)

(٢) في هذا الموضع كلمة غير واضحة، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ نَصْرَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال: الآيات ٦١ - ٦٣].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير عاصم في رواية شعبة أبي بكر: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ بفتح السين. وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾^(١).

و (السلم) بفتح السين و (السلّم) بكسرهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان، والمراد بالسلّم: الصلح. العرب تسمي الصلح: سلماً، وسِلماً. وربما سَمَّتْهَا: (سلاماً).

والجنوح في لغة العرب: الميل، تقول العرب: جنح فلان إلى كذا، وجنح له. أي: مال إليه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول غيلان ذي الرمة^(٢):

إذا ماتَ فوقَ الرّحْلِ أحييتُ روحَهُ بذكر الكُ والعيسُ المرّاسيلُ جُنْحُ
أي مائلات الأعناق في السير.

معناها: إن مال الكفار يا نبي الله إلى السلم وودّوها وطلبوها فاجنح لها. أي: وافقهم في ذلك، وامل إلى السلم وصالحهم وسالمهم كما طلبوا ذلك منك.

و (السلم) مؤنثة في اللغة الفصحى، كالحرب فهي مؤنثة أيضاً، ومنه قول العباس بن مرداس^(٣):

السُّلْمُ تَأخُذُ مِنْهَا مَا رَضِيَتْ بِهِ والحربُ تكفيك من أنْفَاسِهَا جُرْعُ
والمعنى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: الكفار ﴿إِلَى السَّلَامِ﴾ إلى الصلح، أي:

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

(٢) البيت في القرطبي (٣٩/٨)، الدر المصون (٦٣٠/٥).

(٣) البيت في الدر المصون (٣٥٩/٢)، (٦٣١/٥).

مالوا إلى المصالحة، وأحبوا أن تكون معهم في صلح ﴿فَأَجْتَحِ﴾ يا نبي الله إليها، أي: إلى الصلح، فَمِلْ إلى الصلح وسالمهم.

وكان بعض العلماء يزعم أن هذه الآية من سورة الأنفال بينها وبين آية القتال تعارض أو إشكال^(١)، والحق أنه لا تعارض بينهما؛ لأن آية الأنفال هذه قيدت أمر النبي ﷺ بجنوحه إلى السلم بأن يكون الكفار هم الذين جنحوا إليه أولاً وطلبوه ومالوا إليه. أما آية سورة القتال - سورة محمد - فهي لا تعارض هذا؛ لأن الله نهاهم فيها عن ابتداء طلب الصلح، وذلك لا ينافي إجابة الكفار إليه بعد أن طلبوه. ونعني بالآية المذكورة: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْآظِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: الآية ٣٥] لأن آية القتال فيها النهي عن أن يكونوا هم البادئين بالدعاء إلى الصلح؛ لأن الداعي إلى الصلح يظهر من قرينة حاله أنه كأنه خائف، وأنه يحس بالغلبة فيريد الصلح. أما القوي الآمن الذي لا يظن أنه مغلوب فلا داعي له إلى طلب الصلح. فلا معارضة بين الآيتين. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ أي: إن مال الكفار إلى الصلح فاجتج لها.

أما قراءة: ﴿فَأَجْتَحِ لَهَا﴾ فهي شاذة وليست من القراءات السبعية^(٢). أي: فَمِلْ إليها ووافقهم على ذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: إن صالحتهم فلا تخف مما يدبرون لك من المكر والغدر والحيل في مدة تلك المصالحة، لا تهتم بذلك ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثق إليه، وفوض إليه جميع أمورك، فإنه (جل وعلا) يكفيك ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: الآية ٣] وهذا معنى قوله: ﴿فَأَجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُ﴾ أي: الله ﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لما يقولونه من المنكر والغوائل التي يترتبصونك بها في مدة الصلح ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل ما يبطنون ويضمرون من المكر والخديعة والحيل أثناء المدة التي صالحتهم فيها، فهو (جل وعلا) لا يفوته شيء مما قالوا ولا مما عملوا،

(١) انظر: ابن جرير (٤١/١٤)، القرطبي (٣٩/٨).

(٢) انظر: المحتسب (٢٨٠/١).

فهو مطلع عليهم وكافيكهم، لا تهتم بذلك، واجعل ثقتك بالله وتوكلك عليه، فإنه يكفيك.

واعلم أن جماعة من العلماء من الصحابة فمن بعدهم زعموا أن هذه الآية من سورة الأنفال منسوخة بآية السيف النازلة في براءة^(١)؛ لأنها نازلة بعدها؛ لأن براءة نزلت في رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وذلك العام عام تسع بلا خلاف، لم يعش النبي ﷺ بعده إلا سنة واحدة، وسورة الأنفال هذه نزلت في وقعة بدر، وكانت في العام الثاني من الهجرة كما أوضحناه. قالوا: فهي منسوخة بآية السيف، كقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [التوبة: الآية ٥].

والتحقيق أن هذه الآية ليست منسوخة، وأن المصالحة والمهادنة لم تُنسخ، وأن الإمام يخيّر وينظر في مصالح المسلمين، فإن رأى المصلحة في الصلح حتى يتقوى المسلمون فيجتمع شملهم ويقدروا على القتال صالح، وإن رأى المصلحة في عدم الصلح لم يصلح، فالكل واسع وجائز إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: الآية ٦١].

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٢] ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾^(٢) أي: الكفار الجانحون للسلام الطالبون للصلح ﴿أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بذلك الصلح ويتمكنوا في مدة المصالحة من تدبير المكر والمكائد ليضروك بها؛ لأن بعض الكفار يصلح غدرًا ومكيدة، لا محبة في المصالحة. وكان قريظة بعد أن أعانوا كفار مكة بالسلاح وصالحوه المرة الأخرى ليس في نيتهم الدوام على المصالحة، بل يترتبصون به الدوائر، ويريدون أن يعينوا عليه الكفار. إذا كان قصدهم بالصلح الذي طلبوه وجنحوا إليه المخادعة فلا يهتمك ذلك، ولا تكثر بقصدهم الخداع فإنهم لا يضروك شيئًا؛ لأن الله يكفيك ذلك كله؛ ولذا قال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ الخديعة: الغرور، وهو

(١) راجع المصادر في الحاشية قبل السابقة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

إِطْطَانِ الشَّرِّ وَمَحَاوَلَةِ إِصْطَالِ الشَّرِّ بِطَرِيقِ خَفِيَّةٍ لَا ظَاهِرَةَ وَاضِحَةً.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ حَسْبُكَ: معناه كافيك الله (جل وعلا). العرب تقول: حَسْبُهُ كَذَا. معناه: كافيه كذا. وهذا معنى معروف في كلامها مشهور، ومنه قول جرير يهجو قوماً ممن كان يهجوهم^(١):

ولقد رأيتُ من المكارمِ حسبكم أن تلبسوا خَزَّ الثيابِ وتشبعوا
فإذا تُذوكرتِ المكارمُ مرةً في مجلسٍ أنتم به فتقتنعوا
فقوله: حسبكم يعني: يكفيكم من المكارم أن تأكلوا وتشربوا، وهذا
غاية الذم كما هجا الحطيئة الزبرقان بن بدر لما قال له^(٢):

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتيها واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسي
وحبسه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ كافيك الله، يكفيك شرهم وشر خداعهم، فثق به وتوكل عليه ولا تكثرث بإرادتهم بالصلح الخداع. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿الَّذِي أَيْدِكَ بِصُرُوهِ﴾ أي: معناه قواك. فالعرب تقول: أيده يؤيده تأييداً. إذا قواه. وتقول: رجل أيّد. إذا كان قوياً. و (الأيد) و (الآد): القوة^(٣). ومنه قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: الآية ٤٧] أي: بنيناها بقوة. وليست من (الأيدي) جمع (يد) فليست من آيات الصفات، بل معناها: القوة. هذا معنى: ﴿أَيْدِكَ بِصُرُوهِ﴾ أي: قواك وعززك بنصره. وأصل النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم ﴿أَيْدِكَ بِصُرُوهِ﴾ وبالمؤمنين ﴿وقواك أيضاً وأيدك بالمؤمنين، ويدخل فيهم دخولا أولاً: الأنصار - الأوس والخزرج - الذين آووه ونصروه وأيده الله بهم. كان الأوس والخزرج وهما بطنا الأنصار أبناء قيلة، أولاد حارثة الغطريف كانوا

(١) البيت في تاريخ دمشق (١٨١/٢٩) ونسبه لحسان (رضي الله عنه) وليس في ديوانه،

ونسبه في شواهد الكشاف ص ٧٠ لجرير.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٠٨.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٢٦) من هذه السورة.

مكثوا سنين كثيرة بينهم حروب دامية، وقتال هلك فيها أشرافهم، وقُتل فيها ساداتهم، وبينهم عداوات وإحن وأضغان مستحكمة قديمة متوارثة لا يكاد أن تزول من صدورهم أبداً، فلما أرسل الله إليهم نبيه محمداً ﷺ وآووه ونصروه، وأيده الله بنصره وبهم، أزال تلك الأضغان والعداوات الكامنة، وجعل مكانها المحبة الصادقة والمودة والإخاء الكامل؛ ولذا امتنَّ الله عليهم بذلك هنا، وقد قدمنا نحوه في سورة آل عمران؛ لأنه قال: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَالْأَلْفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: الآيتان ٦٢، ٦٣] قال بعض العلماء: ﴿وَالْفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الأنصار. وقال بعض العلماء: هي أعم من الأنصار؛ لأن العرب الذين هم أول من دخل في دينه ﷺ كانوا أمة بينها ضغائن وحروب ومقاتلات لا تكاد تجتمع على رجل واحد، فجمع الله شتاتها ولمَّ شعثها وألف قلوبها على الإيمان. وأكثر المفسرين على أن المراد بهم الأنصار^(١)، كانوا في العداوات الشديدة، ومكثوا سنين كثيرة في حروب دامية، واستحكمت بينهم العداوات والإحن والأضغان، فألف الله بين قلوبهم نبيه ﷺ كما قال هنا: ﴿وَالْفَ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ﴾ التأليف في لغة العرب معناه: الجمع. أي: جمع بين قلوبهم فصارت على قلب رجل واحد، نيتها إعلاء كلمة الله، ونصر دينه، ونصر نبيه، ومحبة كل للآخر بعد أن كانت قلوبهم غير مجمعة ولا متألفة، بل هذا يريد قتل هذا، وهذا يريد قتل هذا، بقلوب شتى لا تتألف؛ ولذا قال: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يعني: لو صرفت ما في الأرض جميعاً لتؤلف بين قلوبهم ما أمكن ذلك أبداً. ومن أعظم الأسباب الدنيوية لكل شيء: المال، فإنه يؤلف القلوب ويزيل العداوة. يعني: لو أنفقت جميع ما في الأرض ما قدرت على أن توفق بين قلوبهم ولا أن توحدتها، ولكن الله العظيم بقدرته وجلاله ألف بين قلوبهم؛ لأنه تعالى وحده هو الذي يملك القلوب ويصرفها كيف يشاء، إذ كل إنسان قلبه بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، كما قدمنا بسطه في تفسير قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ الآية [الأنفال:

(١) انظر: ابن جرير (٤٥/١٤)، القرطبي (٤٢/٨).

الآية ٢٤]. الذي بيده القلوب يصرفها كيف يشاء، ويقلبها كيف يشاء هو وحده الذي يقدر على تأليف قلوبهم، وجمع كلمتهم، ولم شعنهم، وإزالة ما كان بينهم كما تقدم في قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

وقد قدمنا مراراً أن العزيز هو الغالب الذي لا يغلبه شيء، والعزة: الغلبة ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: الآية ٨] أي: والله الغلبة ﴿وَعَزَّيْ فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: الآية ٢٣] غلبي في الخصام. ومن كلام العرب: (مَنْ عَزَّ بَزًّا) ^(١) يعنون: من غلب استلب، وقد نظمته الخنساء السلمية الشاعرة في قولها ^(٢):

كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا حَمَىٰ يُخْتَشَىٰ إِذْ النَّاسُ إِذْ ذَاكَ مِنْ عَزِّ بَزًّا
أي: من غلب استلب. والحكيم: هو الذي يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها ^(٣). فاقتضت عزته وغلبته أن يقهر أعداءك، وأن لا يضررك بخداعهم ونيتهم المكر والخداع؛ لأن ربك غالب قاهر لا يغلبه شيء، واقتضت حكمته أن يؤلف بين قلوب أنصارك الذين نصرورك، ويوحد كلمتهم، ويجعلهم كرجل واحد، هذا اقتضته عزته وحكمته، وإن كانت حكمته تقتضي العدل الكامل، وكمال التمام في كل ما يدبره في شرعه وقدره وغير ذلك. وعزته تقتضي أنه غالب لكل شيء، ويدخل في ذلك قهره للكفار الجانحين للمسلم الذين يريدون بذلك الخداع، ويدخل في حكمته جمعه بين قلوب أصحابك ليجتمعوا على نصرته دين الله وإعلاء كلمته. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٣].

ثم قال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ حَسَبَكَ اللَّهُ وَمَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

الآية [٦٤] قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾. وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ بالهمزة^(١).

أما على قراءة نافع فهو من النبأ بلا خلاف. وقد قدمنا مراراً^(٢) أن النبأ في لغة العرب: الخبر الذي له خطب وشأن، فكل نبأ خيراً وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ أخص من مطلق الخبر، إذ لا تكاد العرب تطلق النبأ إلا على الإخبار بما فيه أهمية وله خطب وشأن، فلو قلت: جاءنا اليوم نبأ الأمير، أو نبأ الجيوش. كان هذا من كلام العرب؛ لأنه خبر له خطب وشأن، ولو قلت: بلغني اليوم نبأ عن حمار الحجام. لما كان هذا من كلام العرب؛ لأن خبر حمار الحجام لا أهمية له ولا شأن ولا خطب له.

أما على قراءة الجمهور: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ فقال بعض العلماء: معناه كمعنى قراءة نافع، إلا أن الهمزة أبدلت ياء كما أبدلت همزة (النسيء) في قوله: ﴿إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ٣٧] أبدلت ياء في قراءة سبعية صحيحة^(٣) ﴿إِنَّمَا النَّبِيُّ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ وبها قرأ ورش عن نافع وغيره، وعلى هذا القول فالقراءتان معناهما واحد.

وقال بعض العلماء: (النبى) على قراءة الجمهور ليس من النبأ الذي هو الخبر وإنما هو من (النبوة) بمعنى الارتفاع؛ لأن النبي يوحى إليه وحي، وهو خبر له شأن وخطب؛ ولأن له مكانة رفيعة، والشيء المرتفع تسميه العرب (نبياً) والنبوة: الارتفاع، ومنه قيل لكثير الرمل: (نبى) أي: لأنه مرتفع، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(٤):

إلى السيد الصعب لو أنه يقوم على ذروة الصاقب
لأصبح رثماً دُقاق الحصى مكان النبي من الكائب

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٨٩) من سورة الأنعام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأعراف. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول في ديوانه:

يعني بالنبي: كثيب رمل مرتفع. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك الله من أمور الدنيا والآخرة، فإنه يكفيك أعداءك، ويعينك على من ناوءك منهم.

وقوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه وجهان من التفسير معروفان^(١): قال قومٌ من علماء التفسير: إن قوله: ﴿وَمَنْ﴾ في محل رفع، وأنه معطوف على لفظ الجلالة، أي: حسبك الله وحسبك من اتبعك من المؤمنين، يعينك الله ويؤيدك الله بالمؤمنين. وهذا مروى عن الحسن البصري. والذين قالوا هذا القول قالوا: هذه الآية مكية جعلت في سورة الأنفال وهي مدنية بأمر من النبي ﷺ، وزعموا أنها نزلت عندما أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والنبي وأصحابه مختلفون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم في مكة، وأن عمر أظهر إسلامه حتى صلوا في المسجد، وما كانوا يقدرون، وأن الله أنزلها في مكة، وأن النبي ﷺ أمر بجعلها في هذه السورة المدنية أعني سورة الأنفال.

والتحقيق الذي دلّ عليه استقراء القرآن العظيم، وبه قال أكثر علماء التفسير المشهورين: أن قوله ﴿وَمَنْ﴾ عطفٌ على الضمير في قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ معناه: كافيك الله وكافي معك من اتبعك من المؤمنين، فالله يكفيك المؤمن وشُرور الأعداء وكل بليّة، كما أنه يكفي أتباعك من الصحابة فمن بعدهم (رضي الله عنهم). وهذا القول هو التحقيق، وقد دلّ استقراء القرآن عليه؛ لأن الحسب - الذي هو الكفاية - من خصائص رب العالمين، ولم يسنده لأحد من خلقه حيث قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: الآية ٥٩] فجعل الإيتاء لله والرسول، والحسب لله وحده. وقال تعالى: ﴿فَارْتَبِحْ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يَدْرَأُ يَدَكَ بِصِرْوَةٍ وَأَلْمُومِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤] فجعل الحسب له وحده، والتأييد بنصر الله وبالمؤمنين. وقد أثنى الله (جل وعلا)

(١) انظر: ابن جرير (٤٩/١٤)، القرطبي (٤٣/٨)، الأضواء (٤١٦/٢)، ولابن القيم (رحمه الله) تحقيق جيد في معنى الآية ذكره في زاد المعاد (٣٥/١).

على قوم أفردوه بالحسب - وهو الكفاية - كما في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَخْسَوْهُمْ فَأَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: الآية ١٧٣] الله وحده ولم يذكر معه غيره، فأثنى عليهم بإفراد الخالق بهذا الحسب الذي هو الكفاية. ونظيره قوله في خاتمة براءة: ﴿فَإِنْ قَوْلُوا فَتَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: الآية ١٢٩] هذا هو التحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: يكفيك الله ويكفي جميع أتباعك.

وفي هذين ترغيب عظيم في الإسلام؛ لأن من اتبع النبي ﷺ كفاه الله كما كفى نبيه ﷺ.

وهذا التفسير هو الذي عليه جمهور علماء المفسرين، وهو الذي دل عليه استقرار القرآن كما يتنا، إلا أنه يرُدُّ عليه سؤال عربي نحوي: وهو أن يقول طالب العلم: فررتم أن التحقيق أن (من) من قوله: ﴿وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوفة على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾^(١) أي: حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين. والمقرر عند جماعة من علماء العربية أن الضمير المخفوض لا يجوز العطف عليه إلا بإعادة الخافض، وهنا لم يُعد الخافض.

وأجيب عن هذا السؤال من أربعة أوجه^(٢):

أحدها: أن هذه القضية غير مسلمة^(٣)، وأن جماعة من علماء العربية أصحاب علم وتحقيق أقالوا: لا مانع من العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض. وهو رأي ابن مالك - رحمه الله - لأنه لما ذكر المذهب الأول بقوله في خلاصته^(٤):

وَعَوْدُ خَافِضٍ لَدَى عَطْفِ عَلَى ضَمِيرِ خَفْضٍ لِأَزْمَاقٍ قَدْ جُعِلَ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من هذه السورة.

(٢) انظر: البحر المحيط (٥١٥/٤)، الدر المصون (٦٣١/٥)، الأضواء (٤١٧/٢).

(٣) أطال ابن مالك (رحمه الله) في إبطالها. انظر شرح الكافية (١٢٤٦/٣ - ١٢٥٥).

(٤) الخلاصة ص ٤٨.

قال بعده:

وليسَ عندي لأزماً إذ قد أتى في النظم والنثر الصحيح مُثَبَّتاً
ومراده بالنثر الصحيح: قراءة حمزة - رحمه الله - ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
سَاءَ لُونُ يَدِهِ وَالْأَرْحَامُ﴾ [النساء: الآية ١] بخفض ميم الأرحام معطوفة على
الضمير المجرور في قوله: (به) من غير إعادة الخافض، وهي قراءة
سبعية صحيحة^(١)، فمعلوم أن اللغة التي جاءت بها لا بد أن تكون لغة
عربية صحيحة، وهو كذلك. وقد اشتهر في أشعار العرب العطف على
الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض، وأنشد له الشيخ سيبويه في
كتابه^(٢):

فاليومَ قَرَبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتَمُنَا فَأَذْهَبَ فَمَا بِكَ وَالْأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ
فعطف الأيام على الضمير المجرور بالباء من غير إعادة الخافض،
وهو كثير في أشعار العرب، ومنه قول الآخر^(٣):

نُعَلِّقُ فِي مِثْلِ السَّوَارِي سَيُوفِنَا وَمَا بَيْنَهَا وَالْكَعْبِ مَهْوَى النِّفَانِ
فقوله: «والكعب» معطوف على الضمير المجرور من غير إعادة
الخافض. ونظيره قول الآخر^(٤):

لقد رام آفاق السماء فلم يجد له مصعداً فيها ولا الأرض مقعداً
فعطف الأرض على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض،
ونظيره قول الآخر^(٥):

أمر مع الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها أم سواها

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ١٧٥.

(٢) الكتاب (٣٨٣/٢)، وهو في شرح الكافية (١٢٥٠/٣).

(٣) البيت في شرح الكافية (٢١٥١/٣).

(٤) لم أقف عليه.

(٥) البيت في شرح الكافية (١٢٥٢/٣) وهو للعباس بن مرداس.

فعطف (سواها) بـ (أم) على الضمير المخفوض، وهو كثير في كلام العرب.

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمِنَ اتَّبَعَكُ﴾ في محل نصب معطوف على المحل؛ لأن الكاف من قوله ﴿حَسْبُكَ﴾ وإن كان في محل خفض مضاف إليه ما قبله فأصله مفعول؛ لأن الحسب بمعنى الكفاية، والأصل: يكفيك. فالكاف في محل المفعول، والمعروف في علم العربية أن المخفوض بالإضافة الذي أصله النصب يجوز العطف عليه مخفوضاً، وتجاوز مراعاة محله فينصب المعطوف عليه وهو معروف في محله.

الوجه الثالث: وهو أظهرها وأبينها وأقلها تكلفاً: أن قوله: ﴿وَمِنَ اتَّبَعَكُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في محل نصب على أنه مفعول معه، بناء على القول بأن العطف ضعيف، وهو العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض فيتعين حينئذٍ النصب على المفعول معه (حسبك الله مع من اتبعك من المؤمنين) وهذا واضح لا إشكال فيه، ونظيره من كلام العرب قول الشاعر^(١):

إِذَا كَانَتْ الْهَيْجَاءُ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا
فَنَصَبَ (وَالضْحَاكُ) مَفْعُولًا مَعَهُ. أَي: حَسْبُكَ مَعَ الضْحَاكِ.

الوجه الرابع: أن قوله: ﴿وَمِنَ اتَّبَعَكُ﴾ في محل رفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل ما قبله عليه. أي: ومن اتبعك من المؤمنين فحسبهم الله أيضاً. وهذا معنى قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمِنَ اتَّبَعَكُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٤].

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ حَرِيصٌ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال:

(١) البيت في القرطبي (٤٢/٨)، الدر المصون (٣٨٤/١)، ذيل الأمالي ص ١٤، ونسبه لجرير، وليس في ديوانه.

الآية ٦٥] التحريض: هو الحضر على الشيء والحث عليه بشدة. حَرَضَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ، أَي: حَنَمَهُمْ وَحَرَّضَهُمْ عَلَيْهِ بِشِدَّةٍ؛ لِأَنَّ الْقِتَالَ فِيهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، ثُمَّ إِنَّهُ كَانَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ لِقَلَّتْهُمْ أَنْ يَصَابِرَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَشْرَةَ مِنَ الْكُفَّارِ، كَانَ الرَّجُلُ الْوَاحِدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ أَمَامَ عَشْرَةِ مَقَاتِلِينَ مِنَ الْكُفَّارِ، فَلِذَا قَالَ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥] فإذا قابلت العشرين بالمائتين كان كل رجل مقابل لعشرة كاملة ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ صابرون محتسبون لله في ميدان الحرب.

ثم قال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأ هذا الحرف نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿وَإِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ بالتاء الفوقية. وقرأه العراقيون أعني أبا عمرو البصري والكوفيون الثلاثة - عاصماً وحمزة والكسائي - قرؤوه كلهم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا﴾ بالياء التحتية كما قبله^(١)؛ لأن المائة إذا قابلت ألفاً فكل واحد بعشرة.

وكان قائلًا قال: لِمَ كَانَ الْوَاحِدُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَغْلِبُ الْعَشْرَةَ مِنَ الْكُفَّارِ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ لَهَا، وَاللَّهُ لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ ذَلِكَ إِلَّا لَعَلَّمَهُ بِأَنَّهُ قِزْنٌ لَهَا وَكَفْرٌ لَهَا عِنْدَ الضَّرُورَةِ قَبْلَ أَنْ يَكْثُرَ الْمُسْلِمُونَ، فَمَا مَوْجِبُ هَذَا حَيْثُ يَكُونُ الْوَاحِدُ مِنْ هَؤُلَاءِ يَقَاوِمُ الْعَشْرَةَ مِنْ هَؤُلَاءِ؟ فَبَيْنَ اللَّهِ (جَلَّ وَعَلَا) الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ، / وَهَذِهِ الْحِكْمَةُ الَّتِي بَيَّنَّ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ ٨/ب حِكْمَةَ سَمَاوِيَّةٍ عَظِيمَةٍ تَحْتَهَا أَسْرَارُ هَائِلَةٌ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَصَفَّحَهَا وَيَتَعَقَّلَهَا وَيَتَدَبَّرَ مَعَانِيَهَا، وَخُصُوصًا كُلَّ الْخُصُوصِ تَحْتَمُّهَا عَلَى الْعَسْكَرِيِّينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ كُلُّ الْوَجُوبِ أَنْ يَتَأَمَّلُوا هَذِهِ الْآيَةَ مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ، وَأَنْ يَتَصَفَّحُوا مَعْنَاهَا، فَإِنَّ فِيهَا سِرًّا عَظِيمًا لَوْ تَعَقَّلَهُ الْمُسْلِمُونَ لَفَهَمُوا الْحَقَائِقَ، وَلَمَا سَارُوا فِي الظُّلَامِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا قَالَ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٢.

عَشْرُونَ صَكْرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ بَيْنَ عِلَّةٍ ذَلِكَ وَأَوْضَحَهَا فَقَالَ: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ وهو كون الواحد يغلب عشرة منهم ويصايرها بسبب أنهم قوم لا يفقهون. أي: لا فقه عندهم ولا فهم عن الله، والذي لا يفقه عن الله ولا يفهم ما عنده فهو كالبهيمة ليس له مبدأ يقاتل عليه، والذي يتقدم إلى الميدان في خطوط النار الأمامية ليس عنده مبدأ نبيل يقاتل عليه فهو مائع، هزيمته قريبة سريعة، لا يقاوم أبداً. فإذا التقى من لا فقه عنده بمن عنده فقه عن الله فالمسلم القائم في الميدان للعشرة يفقه عن الله ويفهم، ويقول: إن ربي اشتري مني هذه الحياة القصيرة في هذه الأيام المعدودة، وهي حياة مكثرة بالأمراض والأسقام والمصائب والبلايا والأحزان، اشتراها مني بحياة سرمدية أبدية لا انقطاع فيها ولا كدر ولا ألم ولا حزن، وهذا المال القليل اشتراه مني بالحوار العين والولدان وغرف الجنان ومجاورة رب غير غضبان، فهو ينتظر ما عند الله، فاهم عن الله، يفقه عن الله، فهو متقدم في الميدان، لا يهزم أبداً، ولو قُتل لكانت هي أمنيته، فهذا الذي يقاتل على هذا المبدأ النبيل، وهذا الغرض الصحيح، فاهماً عن الله، يفقه عن الله، هذا لا يقاومه الأهوج الجاهل الذي لا يفقه شيئاً، ولا يقاتل على مبدأ، فحياته أهم عنده مما يقاتل عليه، فالذين لا يفقهون عن الله من الجنود العسكريين لا يمكن أن يردوا سلباً، ولا أن يُعلوا كلمة الله؛ لأنهم لا مبدأ لهم، وهم قوم لا فقه لهم، فلا يقاتلون على شيء ترخص بسببه نفوسهم عندهم ويرغبون فيما عند الله.

وهذا سرٌ لطيف عظيم، وتعليمٌ سماوي هائل، يفهم به المسلمون أن أول شيء من الأساسيات للاستعداد للميدان هو الفقه والفهم عن الله، فيجب كل الوجوب أن يُعلم العسكريون عن الله حتى يفقهوا؛ لأنهم إذا كانوا فاهمين عن الله، عارفين بنبل المبدأ الذي يقاتلون عليه، كانوا شجعاناً وصابرين، لا يرجعون القهقري ولا يهزمون، كما سجله التاريخ لأوائل هذه الأمة. وإن كانوا لا يفقهون عن الله شيئاً، جهلة كالأنعام لا مبدأ لهم يقاتلون عليه، فهم ليسوا بأساس ولا معول عليهم، يهزمون مع كل ناعق

كما بيّنته هذه الآية العظيمة الكريمة من سورة الأنفال. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٥].

الفقه في لغة العرب: معناه الفهم ﴿قَالُوا يَنْشَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا نَقُولُ﴾ [هود: الآية ٩١] أي: ما نفهمه؛ لأنهم لا يفهمون عن الله شيئاً. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْتَهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

فلما انتشر الإسلام وكثر المسلمون خفف الله (جل وعلا) عن المؤمنين وجوب مصابرة واحد لعشرة إلى مصابرة واحد لاثنتين قال: ﴿الآن﴾ (الآن) يعتبر بها عن الوقت الحاضر الذي أنت فيه، ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٦٦] تكليفه الأول وهو مصابرة الواحد للعشرة، وجاءكم بتخفيف بدله وهو مصابرة الواحد لاثنتين.

﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ قرأه جماهير القراء منهم عامة السبعة غير عاصم وحمزة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ بضم الضاد. وقرأه عاصم وحمزة: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(١) والضعف والضعف لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾.

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ هذا الحرف الأخير الذي هو قوله: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ لم يقرأه بالياء من السبعة إلا الكوفيون الثلاثة - وهم عاصم وحمزة والكسائي - أما أبو عمرو البصري هنا فقد وافق غيره، فصار نافع وابن كثير وابن عامر وأبو عمرو يقرؤون: ﴿فَإِنْ تَكُنْ﴾ بالياء، وعاصم وحمزة والكسائي يقرؤون: ﴿فَإِنْ يَكُنْ﴾ بالياء^(٢). وهما لغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان صحيحتان ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ الواحد لاثنتين ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ الواحد لاثنتين ﴿يُؤَاذِنُ اللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ معية نصر وتوفيق وتأييد. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِحَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ

الذِنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ
فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ [الأنفال: الآيات ٦٧ - ٦٩].

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُشْرَكَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ
الذِنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنفال: الآية ٦٧].

لما انهزم المشركون يوم بدر كان سعد بن معاذ (رضي الله عنه) قائماً متوشحاً سيفه على الغريش الذي فيه رسول الله ﷺ، رآه النبي ﷺ ينظر كأنه ينظر إلى شيء يكرهه فقال: «كأنك تنظر إلى شيء تكرهه!!» قال: نعم، رأيتهم بأسرون الكفار ورغبتني أن يقتلوا؛ لأن قتل الكفار أقوى للإسلام وأشدّ مناعة لشوكته، ويحصل به ضعف المشركين وانكسار شوكة الكفار، فقتلهم هنا أحب إليّ^(١).

ولما اجتمع الأسارى عند رسول الله ﷺ استشار أصحابه، فجاءت روايات متعدّدة أن ممن أشار عليه أبو بكر وعمر وعبد الله بن رواحة، ومن أكثرها إشارة أبي بكر وعمر، وأن أبا بكر قال له: يا رسول الله: إنهم قومك وعشيرتك فلا تعجل عليهم وهم كفار، فاستبقهم وأمهلهم لعل الله أن يهديهم، وخذ من فدائهم ما يتقوى به المسلمون على الجهاد في سبيل الله. وقال له عمر: هؤلاء قوم كذبوك وأخرجوك وهم رؤساء الكفر فاقتلهم، فأعط عقيل بن أبي طالب لأخيه علي - وعقيل من الأسارى ذلك اليوم - يقتله، وادفع العباس لحزمة ليقتله، وأعطني فلاناً - رجل كان بينه وبين عمر نسب - ليعلم الله أن لا هوادة بيننا وبين الكفار، فإن قتل رؤساء الكفر هو الذي يكسر شوكة الكفر ويذله، ويعزّز دين الإسلام ويُعلي كلمة الله. فكان النبي ﷺ كان أميل إلى ما قاله أبو بكر (رضي الله عنه). وذكروا في هذه الروايات أنه قال لأبي بكر: «قلت كما قال عيسى: ﴿إِنْ تَمَدَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَفَفَّرَ لَهُمْ﴾» الآية [المائدة: الآية ١١٨]. وفي رواية أنه قال له: «قلت كما قال إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾»

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

[إبراهيم: الآية ٣٦] وفي بعض الروايات قال لعمر: «قلت كما قال موسى: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾» [يونس: الآية ٨٨] وفي بعضها أنه قال له: «قلت كما قال نوح: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْكَافِرِينَ ذَيَارًا﴾» الآيات [نوح: الآية ٢٦]. وفي بعض الروايات أن معهم عبد الله بن رواحة (رضي الله عن الجميع)، وأنه قال له: أنت في وادٍ كثير الحطب فأضرم عليهم النار^(١). وعلى كل حال فلما أخذوا الأسارى أخذهم الذين أسروهم أولاً ولم يأمرهم رسول الله ﷺ بأسرهم، وكانوا يرغبون في الفداء ليقبضوا بالمال، فلما استقروا تحت أيديهم كان ذلك الرأي ليس مستبعداً عنده ﷺ، ولم ينزل فيه وحى، فبعد أن أخذوا الأسارى جاءهم هذا اللوم من الله، وهذا الأمر العظيم، وقرب العذاب منهم لولا الكتاب السابق. ولما كان من الغد جاء عمر (رضي الله عنه) ووجد رسول الله ﷺ وأبا بكر بيكيان، فقال: ما بيكيكما، أخبراني بما بيكيكما؟ فإن وجدت بكاءً بكيت معكما، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما. فقال له رسول الله ﷺ: «عرض عليّ عذاب أصحابك كهذه الشجرة - لشجرة قريبة منه^(٢) - لأن الله قال لهم: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] ثم إن الله بعد ذلك أحل لهم ذلك المغنم وطيبه لهم في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: الآية ٦٩] ويدخل فيه فداء الأسارى.

ومعنى قوله: ﴿مَا كَانَتْ لِيَّ أَنْ يَكُونَ لَّهُمْ أُسْرَىٰ﴾ [الأنفال: الآية ٦٧] أن يأسر الرجال ويستعين بالمال بفدائهم حتى يشخن في الأرض. الإثخان: معناه الإيجاع في الأرض قتلاً، حتى يوجع في الأرض قتلاً، ويقتل الصناديد الكفرة والرؤساء العظام التي تضعف بهم شوكة الكفر وأهله. والإثخان: أصل الإثخان شدة الإيجاع في الأرض بالقتل^(٣). وقالوا:

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم. حديث رقم: (١٧٦٣) (١٣٨٣/٣).

(٣) انظر: القرطبي (٤٨/٨)، الدر المصون (٦٣٧/٥).

أثخنوهم أي: أوجعوا فيهم قتلاً شديداً ذريعاً، وأثخنته الجراحة: اشتدت عليه حتى أثبتته. وهذا الذي لامهم عليه هنا وبين لهم أنه ما كان هو الصواب، ولا هو الأولى أوضحه وشرحه في سورة القتال في قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْمُمْتُمُوهُمْ﴾ [محمد: الآية ٤] أي: أوجعتموهم قتلاً، قتلاً يضعف شوكة الكفر ويذل أهله، بعد ذلك ﴿فَتَشَدُّوا أَلْوَتَاقَ﴾ وهو الأسر ﴿فَمَا مَتَا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ﴾ ولذا قال هنا: ﴿مَا كَانَتْ لِيَنِّي أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ أَشْرَىٰ حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني ما كان ينبغي لكم ولا يصح منكم أولاً أن تلتزموا أول وقعة نصركم الله فيها بالأسرى تريدون المال، لا ينبغي هذا منكم، وما كان هو الأولى لكم، كان الأولى لكم قتلهم وحصدهم حتى يذل الكفر ويستكين أهله، وتقوى شوكة الإسلام ويعز أهله. وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يوجع فيها قتلاً؛ لأن ذلك القتل الوجيع هو الذي يذل الكفر ويكسر شوخته، ويعز الإسلام ويرفع كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم لامهم لوماً شديداً عظيماً من الله قال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ يعني: حطام الدنيا الزائل. فسماه عرضاً لأنه عارض الوجود يعروه الزوال عن قريب، كما قدمنا في قوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ﴾ [الأعراف: الآية ١٦٩] والله (جل وعلا) لا يريد عرض الدنيا بل يريد الآخرة، يريد لكم الآخرة بأن تقتلوا الكفرة، وتكسروا شوكة الكفر، وتذلوا أهله وأهلها، وتعزوا كلمة الله وتعلوا دين الله في أرضه، وهذه هي الآخرة التي يريد لها لكم، وهذه الإرادة إرادة شرعية دينية، ولو كانت إرادة قدرية كونية لنفذت على كل حال؛ لأن الله إذا أراد بإرادته الكونية القدرية شيئاً لا بد أن ينفذ كائناً ما كان ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: الآية ٨٢] فهذه إرادته الشرعية الدينية لكم كان الأولى لكم شرعاً وديناً أن تقتلوهم فتعلوا كلمة الله، وتذلوا كلمة الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿حَتَّىٰ يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ﴾. ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: حطامها الزائل؛ لأنه عارض ينقضي ويزول ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: الدار الآخرة. ومن أعظم

أسباب الخلود في جناتها إعلاء كلمة الله، وإذلال كلمة الكفر، وأكبر أسباب ذلك قتل الرؤساء قادة الكفار وساداتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ قدمنا الكلام عليه قريباً.

وقوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٨] (لولا) في علم العربية هي حرف امتناع لوجود، والمعنى: امتنع أن يمسكم عذاب الله بسبب [الكتاب السابق في الأزل]^(١) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولو أن فرعون لما طغى وقال على الله إفكاً وزورا
أنا إلى الله مُسْتَغْفِرًا لما وَجَدَ اللهُ إِلاَّ غُفُورًا^{(٢)(٣)}

/ قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَأْتِيَنَّكَ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرٌ مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ لَدُنْهِمْ شَيْءٌ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلْتُمْ النَّصْرَ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِن بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ [الأنفال: الآيات ٧٠ - ٧٥].

يقول الله جل وعلا: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن

(١) في هذا الموضع كلام غير واضح، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) لم أقف على البتين.

(٣) هذا هو الدرس الأخير من دروس الشيخ رحمه الله في شهر رمضان عام (١٣٩١) وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين منه.

يَسْلِمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ [الأنفال: الآية ٧٠].

جرى على السنة العلماء من المفسرين والأصوليين أن هذه الآية الكريمة من أخريات سورة الأنفال نزلت في العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه)^(١). والتحقيق أنها نزلت في جميع أسارى بدر، ولو فرضنا أنها نزلت في العباس فالعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وإنما قالوا: إنها نزلت في خصوص العباس مع أنها نازلة في جميع أسارى بدر؛ لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) هو أكثرهم نصيباً وأوفرهم حظاً فيها؛ لأنه أخذ منه في الفداء ما لم يؤخذ من غيره، فصار كأنه أخص منهم بهذه الآية؛ ذلك لأن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) كان من أشرف قريش الذين ضمنوا لهم الإطعام في غزوة بدر، وكان يوم بدر هو اليوم الذي عليه هو أن يطعم - كما قاله أصحاب المغازي والسير - فاشتغل الناس بالقتال عن الإطعام، وكان جعل معه عشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس، فلما أسره المسلمون أخذوا العشرين معه. وذكر بعض أصحاب المغازي أنه كان رجلاً موسراً فأمرهم النبي أن يضعفوا الفداء عليه^(٢)، فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية، فكان المجموع: مائة أوقية. وأمره النبي ﷺ أن يفدي ابني أخويه وهما عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب كانا أسيرين معه، أسرا يوم بدر. وذكر بعضهم أنه ﷺ أمر العباس أيضاً أن يفدي حليفه وهو عتبة بن عمرو (رضي الله عنه)، أخو بني الحارث بن فهر، كان حليفاً للعباس بن عبد المطلب^(٣)، وكان النبي ﷺ في يوم بدر كما ذكره أصحاب المغازي قال: «إن بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: دلائل النبوة (١٤١/٣)، الدر المنثور (٢٠٤/٣)، سُبُل الهدى والرشاد (٧١/٤)، وأورده القرطبي (٥٢/٨) وعزاه للنفّاش.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

مستكرهين فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختری فلا يقتله». وكان أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة (رضي الله عنه) وقعت منه زلة يوم بدر، وكان يقول: منذ سقطت مني تلك الكلمة وأنا أخافها لا آمن منها أبداً حتى يكفرها الله عني بالشهادة. فقتل شهيداً أيام اليمامة (رضي الله عنه). وذلك أن النبي ﷺ لما قال: «من لقي منكم العباس فلا يقتله فإنه خرج مُستكرهاً». قال أبو حذيفة بن عتبة (رضي الله عنه): أنقتل آباءنا وإخواننا وعشائرنا وتترك العباس! والله إن لقيته لألجمته السيف. فسمع بها رسول الله ﷺ، فذكروا أنه قال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «يا أبا حفص» - قال عمر: ما كئاني أبا حفص قبل ذلك اليوم - «أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ؟ فقال: إنه نافق دعني أقتله»^(١).

وكان أبو حذيفة (رضي الله عنه) يتخوف من كلمته هذه حتى رزقه الله الموت شهيداً أيام اليمامة. وكذلك نهى عن أبي البختری؛ لأنه كان يُحسن إلى بني هاشم أيام كونهم في الشعب لما قاطعهم قريش، وكان يعاملهم معاملة حسنة ولم يؤذهم، فجاءه المُجذّر بن زياد البلوي (رضي الله عنه) فقال: أما أنت فقد نهانا عنك رسول الله ﷺ. وكان له زميل، فقال له: وزميلي؟ فقال: أما زميلك فلم ينهنا عنه رسول الله ﷺ. وأراد المُجذّر أن يقتل زميله، فتعرض دونه وقال^(٢):

لا يُسَلِّمُ ابْنُ حُرَّةَ زَمِيلَهُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهُ
ولا يَفْارِقُ جَزَعاً أَكْبِيلَهُ

وتراجز هو والمجذّر (رضي الله عنه) وكان ذلك يقول^(٣):

أنا الذي أزعمُ أصلي من بلي أضربُ بالحربة حتى تثنني

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

فقتله المجذر لما جاء دون زميله. وكان العباس (رضي الله عنه) أسره رجل قصير ليس بالقوي من الأنصار هو كعب بن عمرو (رضي الله عنه) وهو المشهور بكنيته أبي اليسر، وهو أخو بني سلمة. ذكر بعض أصحاب المغازي^(١) أن العباس كان يئنّ أئيناً في الأسر، فسمع رسول الله ﷺ أئينه فلم يستطع أن ينام حتى خففوا عليه الوثاق فسكت، فلما سكت نام ﷺ. وعلى كل حال فالعباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) لما أرسل قريش في فداء أسراهم كان الأسير يُفدى بأربعين أوقية، قال أصحاب المغازي: أمرهم النبي ﷺ أن يُضعفوا الفداء على العباس فأخذوا منه ثمانين أوقية، وضاعت له عشرون أوقية أخذوها منه لما أسروه، وفدى ابني أخويه عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وفدى حليفه عتبة بن عمرو أخا بني الحارث بن فهر، فصار دفع مالا كثيرا لم يدفعه غيره، فمن هنا قالوا: نزلت فيه هذه الآية الكريمة مع أنها نازلة في جميع أسرى بدر، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فلفظ الآية عام. وهذه القاعدة قاعدة معروفة قوية يستدل بها علماء الأصول على أن الآيات النازلة في أسباب خاصة أحكامها عامة، ولا تخصص بأسبابها^(٢)، ومن المشهور في أمثلتها: المثال لها بهذه الآية من أخريات سورة الأنفال، أنها نزلت في العباس بن عبد المطلب وحكمها عام. ومن الأدلة الدالة على هذه القاعدة الأصولية المهمة المُعَيَّنَة في التفسير - وهي أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب - دلّ عليها الحديث الصحيح واللغة، أما ما دلّ على ذلك من الأحاديث فهو ما سيأتي في سورة هود - إن شاء الله - من أن سورة هود نزلت فيها آيات مدنية وهي سورة مكية كما قال غير واحد من العلماء أن قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرَلْنَا مَنَ أَيْلٍ إِنَّ أَحْسَنَتِ يَدَيْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: الآية

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٤١/٣) من طريق ابن إسحاق، وعنهما أورده ابن كثير في تاريخه (٢٩٩/٣).

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

[١١٤] نزلت في الأنصاري الذي جاءته المرأة تبتاع تمرأ فأعجب بجمالها، وكان زوجها غائباً في الجهاد، فقال لها: إن في البيت تمرأ أحسن من هذا. فلما دخلت البيت كان بينه وبينها بعض ما لا يليق من صفات الذنوب، ثم إنه ندم وأخبر النبي ﷺ بذلك فأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ تعني: فصلواتك الخمس تذهب عنك هذه السيئة التي اقترفت من هذه المرأة. فقال الرجل - كما في صحيح البخاري وغيره - ألي هذا وحدي يا رسول الله؟ وسؤال هذا الأنصاري هو سؤال عن هذه النازلة، كأنه يقول: العبرة بي لأنني سبب النزول، أو العبرة بعموم لفظ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ﴾ فأجابه ﷺ: «بل لأمتي كلهم»^(١). فدل على أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، ومن النصوص الدالة على هذه القاعدة: هو ما ثبت عن النبي ﷺ في الصحيح أنه أيقظ فاطمة وعلياً (رضي الله عنهما) ليصليا بالليل، فقال له علي (رضي الله عنه): إن أرواحنا بيد الله إن شاء بعثنا. فولى ﷺ يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: الآية ٥٤]^(٢). مع أن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ نزلت في الكفار الذين يجادلون في كتاب الله، فاعتبر النبي عمومها حتى جعله شاملاً لخصام علي له ومجادلته له؛ بأن أرواحهم بيد الله؛ لأن الله قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ [الكهف: الآية ٥٤] الكافر مع وضوح القرآن وأدلته وتصريف أساليبه ﴿أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ وخصاماً بالباطل.

ومما يدل على هذا من اللغة: إجماع أهل اللسان العربي أن الرجل لو كان له أربع زوجات فقامت إحداهن وسبت هذا الرجل وأغضبته فقال: أنتن كلكن طوائق. فإنهن كلهن يطلقن بحسب المدلول العربي ولا يختص بالمرأة التي أغضبته فاستوجبت الطلاق كما لا يخفى. وهذه الآية الكريمة نزلت في

(١) مضى عند تفسير الآية (٣١) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

العباس بن عبد المطلب، وحكمها عام لمن معه، وظاهرها يشمل جميع الأسرى؛ لأنه قال: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ [الأنفال: الآية ٧٠] قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ بالإدغام.

وقرأه نافع وحده من السبعة: ﴿يا أيها النبي﴾ بالهمزة من غير إدغام، ونافع قرأ لفظ النبي والأنباء في جميع القرآن بالهمزة المحققة في رواية ورش في جميع القرآن، وفي رواية قالون عنه في جميع القرآن إلا في حرفين من سورة الأحزاب فقط، وهما قوله: ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٠] وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٥٣] فهذين الحرفين قرأهما عنه قالون كقراءة الجمهور، وقرأهما عنه ورش بالهمزة المحققة كغيرهما في سائر القرآن^(١).

وقوله ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ قرأه عامة السبعة غير أبي عمرو: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ وقرأه أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿يَأْيُهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً^(٢) ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جل وعلا) أمر نبيه أن يقول لمن في أيدي المسلمين من أسارى بدر يقول لهم هذا الكلام.

(الأسارى) جمع أسير، و (الأسرى) جمع أسير، إلا أن (الأسير) يُجمع على (أسرى) قياساً مطرداً، وقاعدة معروفة؛ لأن (الفَعِيل) المتصّف بما يُرثى له به يطرد جمعه تكسيراً على (فَعْلَى)^(٣) كمرضى ومرضى، وقتيل وقتلى، وجريح وجرحى، وصرع وصرعى، وأسير وأسرى^(٤).

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٣.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأنعام.

أما على قراءة ﴿أَسْرَى﴾ فهو جمع مسموع، وإتيان الجموع على (فُعَالِي) أو (فَعَالِي) مسموع ولا يطرد منه شيء قياساً، ككسالي، وأسارى، ويتامى، وحيارى، وما جرى مجرى ذلك^(١).

وقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ المراد بـ ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ﴾ من كانوا تحت أيديكم من الأسارى، وكل شيء كان في قبضة الإنسان وتحت قدرته وتصرفه تقول العرب: هو في يده؛ لأن اليد هي التي تزاوّل بها الأعمال وتؤخذ بها الأشياء عادة^(٢).

والأيدي جمع (يد)، واليد من الألفاظ التي حذفت العرب لامها ولم تعوّض منها شيئاً، وأعربتها على العين، فдал اليد في محل العين، وهي مُعْرَبَةٌ على عينها وهو الدال، نُزِلَ منزلة لامها، وحذفت لامها، وتنوسيت، وهي إحدى ألفاظ معروفة كذلك، كيد، ودَم، وغد، ودِد، وهن، وما جرى مجرى ذلك^(٣). وأصل لامها المحذوفة ياء، أصلها (يدي) فاؤها ياء، وعينها دال، ولامها ياء. ولامها المحذوفة إنما تُرِدُّ عند التصغير وجمع التكسير، ففي تصغيرها تقول: (يُدِّيهِ) وفي جمعها تقول: فاقطعوا أيديهما. وأصله: (أَيْدِيهِمَا) على وزن (أفعل) لأن الأيدي أصل وزنه (أفعل) (فعل) محذوف اللام مجموع على (أفعل) إلا أن ضمة العين تجعل كسرة لمجانسة الياء، وربما نطقت العرب باليد مثبتة لامها إثبات المقصور على الألف كالفتى. سُمع هذا عنهم قليلاً، ومنه قول الراجز^(٤):

يَا رَبُّ سَارِبَاتٍ مَا تَوَسَّدَا
إِلَّا فِرَاعَ الْعَيْنِيسِ أَوْ كَفَّ الْيَدَا
فردّ اللام كما هي في (الفتى) وهذا نادر.

(١) انظر: حجة القراءات ٣١٤، الدر المصون (٥/٦٣٧).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنفال.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٩٥) من سورة الأعراف.

(٤) السابق.

وقوله: ﴿تَبَّتْ أَلْسِنُهُمْ﴾ الأسرى جمع أسير، والأسير (فَعِيل) بمعنى (مَفْعُول) وهو اسم المفعول من (أَسْرَهُ) العرب تقول: أسره يأسره أسراً. فالفاعل (آسر) والمفعول (مأسور) إذا شدّه بالوثاق. وأصل هذه المادة مأخوذة من الإيسار، والإيسار: القَد. والقَد: هو جلد البعير غير المدبوغ؛ لأن جلد البعير إذا لم يُدْبَغ تسميه العرب قِداً. وكانوا يشدون الأسير بالجلد عند سلخه طرياً، فإذا يبس اشتدت قوته ولا يقدر أحد على حلّه ولا قطعه ولا نزعه، ومن هنا قيل لكل مشدود شداً محكماً؛ إنه مأسور. وأصله من (الإيسار) وهو الشدّ بالإسار، أعني القَد وهو جلد البعير إذا كان غير مدبوغ. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَحَنُّ حَلَقَتُهُمْ وَشَدَدًا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: الآية ٢٨] المراد بقوله ﴿وَشَدَدًا أَسْرَهُمْ﴾ أحكمنا شدّ العظام بعضها إلى بعض بإحكام وإتقان شديد كما يُشدّ الشيء شداً قوياً بالقَد فيببس عليه فيمسكه إمساكاً قوياً^(١). وهذا صار معنى معروفاً في كلام العرب، مشهور في كلامهم، فكل شيء شدته شداً محكماً تقول العرب: أسرته. ومنه سُمي الأسير، أي: لأنه يُشدّ بالإسار، وهو جلد البعير غير المدبوغ. وهذا معروف في كلامهم، ومنه: أسر مراكب النساء؛ لأن أعواده تُشدّ بالقَد حتى يتحكّم بعضه مع بعض، ومنه قول حميد بن ثور الهلامي^(٢):

وما دخلت في الخدب حتى تنفضت تأسير أعلى قده وتحطما

وهذا معنى معروف في كلام العرب. يعني: قل يا نبي الله لهؤلاء الذين أخذتموهم وكانوا في قبضتكم وتحت تصرفكم: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُوَفِّقْكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ العباس بن عبد المطلب قال للنبي ﷺ: يا نبي الله: احسب لي العشرين أوقية التي أخذوها مني، كانت من مالٍ معي. قال: «لا، ذلك مالٌ أعطانا الله منك فلا نحسبه

(١) مضى عند تفسير الآية (١١) من سورة الأعراف.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٩.

لك أبدأ». وضاعف عليه الفداء، وأمره بمفاداة ابني أخويه. فقال للنبي ﷺ: يا نبي الله لقد تركتني أتكفّف قريشاً إلى يوم القيامة فقيراً. فقال له النبي ﷺ: «أين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل لما أردت الخروج؟» فقال له: وما ذلك المال؟ قال له: «الذهب الذي دفنته أنت وأم الفضل، وقلت لها: ما أدري ما بصيبي في وجهي هذا فإن حدث بي حدث في سفري هذا فهذا المال لك ولبني: الفضل، وعبد الله، وعبيد الله، وقثم. ودفنتم المال». فقال: أشهد أنك رسول الله، والله ما علم بهذا أحدٌ غيري وغير أم الفضل^(١). وهي لبابة الصغرى بنت الحارث، أم أولاد العباس بن عبد المطلب، وهي هلالية مشهورة. لما أخذوا منهم هذا المال وكان الأسارى يأتون النبي ﷺ ويقولون: نحن مسلمون آمنا بك وصدقناك وشهدنا أنك رسول الله، والله لنصحن لك على قومنا، ولا تأخذ منا شيئاً. فأنزل الله فيهم: ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (خيراً) هنا جاء مرتين ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ الأولى منهما ليست صيغة تفضيل، والثانية منهما صيغة تفضيل، والدليل على أنها صيغة تفضيل اقترانها بـ(من) لأن صيغة التفضيل المجردة تُقترن بـ (من) دائماً لفظاً أو تقديرًا. معناه: إن يعلم الله في قلوبكم إسلاماً وإيماناً صحيحاً وتصديقاً كما تزعمون يؤتكم خيراً، أي: شيئاً أخير وأفضل مما أخذ منكم من الفداء. يعني من حطام الدنيا وعرضها، ومن نعيم الجنة، ويغفر الله لكم أيضاً.

وقوله ﴿يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ يدل على أن محل نظر الله من عبده إنما هو القلوب كما جاء بذلك الحديث؛ لأن القلب هو الذي ينظر الله إليه فيعلم فيه الخير والشر؛ ولذا قال: ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ والله (جل وعلا) عالم بما في الضمائر وما يخطر في القلوب ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ فَسُئِلَ وَحْنٌ أَوْبٌ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٍ﴾ ﴿١١﴾ [ق: الآية ١٦] وقد بين القرآن العظيم في مواضع

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١٢) من هذه السورة.

منه أن علم الله الإيمان والإخلاص في قلب الإنسان تكون له فوائد عظيمة، من تلك الفوائد: ما ذكره هنا في أخريات الأنفال في قوله: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ ومنها قوله في سورة الفتح: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: الآية ١٨] فكنتي عما في قلوبهم بالاسم المبهم الذي هو الاسم الموصول. يعني أنه إيمان كما ينبغي وإخلاص كما ينبغي، ترتب على ذلك نتائج عظيمة كثيرة كقوله: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ﴾ [الفتح: الآية ٢٠] وكقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: الآية ٢١] أي: فأقدركم عليها، وكقوله جل وعلا: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢٢] هذا الإيمان والتسليم الذي علمه الله في قلوبهم رتب عليه نتائج عظيمة مفيدة منها قوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: الآية ٢٥] إلى آخر الآيات.

وهذه الآيات ينبغي لنا أن نعتبر بها فنظهر قلوبنا، ويكون ربنا يعلم منها الخير، ولا يعلم منها الشر؛ لأن ذلك يسبب لنا نتائج عظيمة كصلاح الدنيا والآخرة؛ لأن هؤلاء الأسارى قال لهم: ﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ ويزيدكم على ذلك المغفرة. قال العباس بن عبد المطلب: كان يقرأ: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ﴾ قال: إن العشرين أوقية الذي ضاعت لي يوم بدر أبدلني الله خيراً منها، أعطاني عشرين عبداً كلهم يتاجر بمالٍ كثير، وهم لي، وأموالهم لي^(١). ولما جاء مال البحرين - أرسله ابن الحضرمي من البحرين - ذلك المال الكثير الذي ما دخل المدينة مالٌ أكثر منه في زمن النبي ﷺ، ونشره في المسجد ووزعه، جاء العباس وقال: يا نبي الله أعطني! فاديت نفسي وعقبلاً. فقال له: «أحس من هذا المال». فحسب العباس في خميسة كانت عليه، ولم يزل يحثو

(١) تقدم تخريجه في الموضع السابق.

فيها من المال حتى أراد أن يقوم فما قدر على أن يقوم، فقال للنبي ﷺ: **مُرْ أَحَدًا مِنْهُمْ يَرْفَعْ مَعِيَ الْمَالَ!! فَتَبَسَّمَ ﷺ حَتَّى بَدَى ضَاحِكُهُ أَوْ نَابَهُ وَقَالَ: «لَا يَعِينُكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ»**. فقال له: ارفعه أنت علي. فقال: «لا، اردد طائفة من المال حتى تستطيع حمله». فحشا عنه حتى استطاع أن يحمله، وحمله على كاهله. قال بعضهم: لم يزل ﷺ ينظر إليه حتى اختفى، لشدة حرصه على أخذ هذا المال. وقال العباس حينئذ: أما الأولى منهما فقد رأيناها: **﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾** والله لقد أعطانا خيراً مما أخذ منا، وإنا لنرجوا الثانية التي هي: **﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾** ^(١). وهذا معنى قوله: **﴿إِنْ يَسَلِّمْ اللَّهُ﴾** بعلمه المحيط بكل شيء **﴿فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾** أي إيماناً صحيحاً وتصديقاً وإخلاصاً لله **﴿يُؤْتِكُمْ﴾** أي: يعطكم خيراً، أي: مالاً في الدنيا، وثواباً في الآخرة خيراً **﴿خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾** أي: أفضل وأعظم مما أخذ منكم. والعرب استغنت بـ(خير) و (شر) عن (أخير وأشر)، فهما صيغتا تفضيل، والأخيرة منهما صيغة تفضيل، وقد قال ابن مالك في كافيته ^(٢):

وغالباً أغناهم خيرٌ وشرٌ عن قولهم أخيرٌ منه وأشرٌ
فالأخيرة هنا تفضيل أي: يؤتكم أخير وأفضل، أي: أكثر خيراً وأعظم منه، وذلك كما وقع في مال البحرين أعطى العباس أكثر بأضعاف مما أخذ منه يوم بدر من الفداء، وأعطاه عشرين عبداً. وقال العباس: وأعطاني الله زمزم أيضاً ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة. فعوضه الله مئات الأضعاف على ما أخذ منه يوم بدر. وهذا معنى قوله: **﴿إِنْ يَسَلِّمْ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾** أي: مما أخذه المسلمون منكم كالعشرين أوقية التي أخذت من العباس، وما أخذ في فدائهم من المال. وحذف الفاعل هنا للعلم به **﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾** أي: يغفر لكم ذنوبكم. حذف فاعل (أخذ) ومفعول (يغفر) والمعنى: يعطيكم خيراً مما أخذه منكم

(١) تقدم تخريجه في الموضوع السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

المسلمون يوم بدر، ويغفر لكم ذنوبكم كلها، وشرككم المتقدم وكفركم بالله. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين، ولا سيما إذا علم في قلوبهم الإيمان والإخلاص له (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧١] ضمير واو الفاعل في قوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ راجع على الأسارى الذين في أيدي النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم كانوا يقولون: آمنا بك وشهدنا أنك رسول الله، ووالله لنصحن لك على قومك، ولنكونن معك. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ بهذا الكلام، إن كان هذا الكلام أرادوا به الخيانة والمكر والخديعة فلا تهتم بشأنهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ ظرف مقطوع من الإضافة مبني على الضم. أي: قد خانوا الله من قبل يوم بدر بالكفر، وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله ﷺ فأمكن الله منهم. هذا الفعل الذي هو (أمكن) يتعدى إلى مفعول، ومفعوله محذوف، والمعنى: فأمكنكم الله منهم. وَحَذَفُ الْفُضْلَةِ إِذَا دَلَّ الْمَقَامُ عَلَيْهِ شَائِعٌ مَطْرُدٌ فِي الْقُرْآنِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «أَمْكَنَنِي مِنْ كَذَا». إِذَا هِيَآءُ لِي وَجَعَلَهُ فِي قِبْضَتِي، وَهُوَ مَعْنَى مَعْرُوفٍ فِي كَلَامِهَا، وَهُوَ مُتَعَدٍ إِلَى الْمَفْعُولِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ، فَالْمَفْعُولُ هُنَا مَحْذُوفٌ، وَلَيْسَ الْفِعْلُ لَازِمًا كَمَا لَا شَكَّ فِيهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ قَوْلُ كَثِيرٍ عَزَّةٌ وَهُوَ عَرَبِيٌّ قَحٌّ، ذَكَرُوا أَنَّهُ نَادَاهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ، وَأَحْضَرَ عَزَّةً وَجَعَلَ دُونَهَا سَجْفًا؛ أَعْنِي: سْتَرًا. وَقَالَ لِكَثِيرٍ: تَمَنَّ، فَمَا تَتَمَنَّ فَهُوَ حَاضِرٌ. فَتَمَنَّى إِبِلًا سَوْدًا بِرَعَائِهَا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ. فَقَالَ لِلْغَلَامِ: ارْفَعْ السَّجْفَ يَا غَلَامَ. فَرَفَعَهُ عَنْ عَزَّةٍ فَإِذَا هِيَ، فَقَالَ: لَوْ تَمَنَيْتَ هَذِهِ لِأَعْطَيْتُكَهَا وَزَوْجَتِكَ إِيَّاهَا. فَتَمَنَّ كَثِيرٌ وَقَالَ - وَهُوَ مَحَلُّ الشَّاهِدِ (١) -:

(١) البيتان في ديوانه ص ٢٦٧ مغني اللبيب (١/١٩) (بشرح الأمير)، والثاني في رصف

حلفتُ برَبِّ الرَّاqصَاتِ إِلَى مِنَى يَجُوبُ الْفِيَاْفِي نَصَهَا وَزَمِيلَهَا
لِإِنِّ عَادَ لِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بِمِثْلِهَا وَأَمْكِنُنِي مِنْهَا إِذَا لَا أَقِيلَهَا

ومحل الشاهد منه قوله: «وأمكنني منها» أي: جعلها في قبضتي وتحت تصرفي. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي: أمكنك الله أنت وأصحابك منهم يا نبي الله، فلا تهتم بخيانتهم.

وقوله: ﴿خِيَانَتَكَ﴾ الياء فيه منقلبة عن الواو؛ لأن مادة (الخيانة) أصلها من أجوف واوي العين، أصلها من (خَوْن) ولذا يقال في المبالغة منها: (خَوَان). ولو كانت يائية ل قيل: (خيان) ويقال في ماضيها: خان يخون. ولو كانت يائية ل قيل: يخين. إلا أن القاعدة المقررة في التصريف أن الواو إذا تقدمتها كسرة وجاء بعدها ألف وجب إبدالها ياءً، كالخيانة من الخون، والحيازة من الحوز، والصيانة من الصون، والقيامة من قام يقوم^(١). قال بعض علماء العربية: على القول بجمع المصادر تُجمع الخيانة على (خيائن) اعتداداً بالياء المبدلة من الواو، والقياس أن تُجمع على (خوائن) إلا أنهم فرقوا بين جمع (خيانة) وبين جمع (خائنة) فجعلوا هذه بالياء وإن كان أصلها الواو.

﴿فَقَدَّ خَائِنًاؤُاُ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خيانتهم لله هي كفرهم بالله، وعبادتهم للأصنام، وتكذيبهم لنبيه ﷺ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ﴾ جل وعلا ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ (الْفَعِيل) من صيغ المبالغة، وعلمه (جل وعلا) يستحق أن يُبالغ فيه؛ لأن علمه محيط بكل شيء، وهو (جل وعلا) يعلم الموجودات والمعدومات والواجبات والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه لَيَعْلَمَ المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد، فهو يعلم أن لو وُجد كيف يكون، وإن سبق في علمه أنه لا يكون؛ لإحاطة علمه بكل شيء، فهو يعلم أن أبا لهب لم يؤمن، ويعلم لو آمن أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً مثلاً، والآيات القرآنية الدالة على هذا المعنى

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

كثيرة جداً، من ذلك: أن الكفار إذا عاينوا القيامة ورفِع عنهم الغطاء، وشاهدوا الحقائق تمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى ﴿فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: الآية ٢٧] وفي القراءة الأخرى^(١): ﴿وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾. وهذا الرد إلى الدنيا الذي تمنوه الله عالم بعلمه الأزلي أنه لا يكون، ومع علمه بأنه لا يكون فهو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٢٨].

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله خَلَفَهُمْ عنها لحكمة وإرادة إلهية كما قال: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَعَادُوا لِمُ عَدَّةٍ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٦] ومع كون خروجهم لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿لَوْ حَرَجْنَا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لظَلْمِكُمْ يَتَّوْنَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: الآية ٤٧]. ونظائر هذا كثيرة في القرآن، فعلم الله محيط بكل شيء. و (الفعيل) صيغة مبالغة.

وقوله: ﴿حَكِيمٌ﴾ فالعليم والحكيم من أسمائه (جل وعلا) وكلاهما تتضمن صفة من صفاته (جل وعلا)؛ لأنه حكيم عليم. قال بعض العلماء: الحكيم لأنه حكيم في أقواله وأفعاله وتشريعاته، فلا يقول إلا ما هو في غاية الأحكام، ولا يفعل إلا ما هو في غاية الأحكام ولا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا يجازي بالشر إلا الشر، ولا بالخير إلا الخير. وكان بعض العلماء يقول: الحكمة هي العلم النافذ الذي يعصم الأقوال والأفعال أن يعتريها الخلل.

وهي في الاصطلاح: إيقاع الأمور في مواقعها ووضعها في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠١) من سورة الأنعام.

مواضعها^(١)، ولا تتم الحكمة إلا بالعلم، فلا تتم الحكمة إلا بتمام العلم، وفي قدر ما يكون في العلم من النقص يكون في الحكمة؛ لأنك ترى الحاذق القلب البصير يعمل الأمر يظن أنه في غاية الإحكام، وغاية الإتقان، وأنه وضعه في موضعه، وأوقعه في موقعه، ثم ينكشف الغيب بعد ذلك أن فيه هلاكه أو ضرراً عظيماً عليه فيندم ويقول: ليتني لم أفعل، ولو فعلت لكان كذا، كما قال^(٢):

لَيْتَ شِغْرِي وَأَيْنَ مَنِّي لَيْتُ إِنَّ (لَوْأ) وَإِنَّ (لَيْتاً) عَنَاءُ
وفي الحديث: إن (لو) تفتح الباب للشيطان^(٣). قال الشاعر^(٤):

أَلَأَمْ عَلَى (لَوْ) وَلَوْ كُنْتُ عَالِماً بِأَذْنَابِ (لَوْ) لَمْ تَفُتْنِي أَوَائِلُهُ
والله وحده (جل وعلا) لا يجري عليه لو فعلت كذا لكان أصوب؛ لأنه عالم بخفايا الأمور، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يجري عليه شيء من ذلك، فلا يفعل فعلاً إلا وهو في غاية الإحكام، ولا عملاً ولا تكليفاً ولا جزاءً إلا هو في غاية الحكمة، والوضع في الموضع، والإيقاع في الموقع؛ ولذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذان الوصفان من أسمائه (جل وعلا) من أعظم ما يستدعي الإنسان إلى أن يطيع ربه ولا يعصيه، وأن يذكره ولا ينساه، فلأن كونه عليمًا تعرف به أن علمه المحيط بكل شيء يقتضي أنه لا يدعوك إلا لما لك فيه الخير والعواقب الحسنة الجميلة؛ لأنه يعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، وما تنكشف عنه الغيوب، وما تجري به الأقدار، فلا يأمرك إلا بما هو خير مؤكد بلا شك وبكل يقين، وكونه حكيمًا يدل على أنه لا ينهاك إلا عن شر، ولا يأمرك إلا بخير، فإن كان مبالغاً في الحكمة والعلم كان ذلك مدعاة لأن يتبع في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه؛ لأن علمه يعلم به أنه ما يدعو إليه خير،

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

وما ينهى عنه شر، وحكمته يفهم منها أنه لا يضع الأمر إلا في موضعه، ولا يوقعه إلا في موقعه؛ ولذا قال جل وعلا: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أنك لا تكاد تنظر ورقة واحدة [من المصحف الكريم إلا وجدت فيها إشارة إلى هذا الواعظ الأعظم، والزاجر الأكبر مما يبعث العبد على الإحسان والمراقبة في جميع أحواله وأعماله، وقد بين الله (جل وعلا) أن الغاية والحكمة التي]^(٢) خلق الله من أجلها الخلق هي أن يتلهم، أي: يختبرهم أيهم أحسن عملاً، كما قال في أول سورة هود: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: الآية ٧] وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: الآية ٧] وقال في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ ثم بين الحكمة فقال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: الآية ٢] ولم يقل: أكثر عملاً، فإذا عرف العبد أنه خلق لأجل أن يُختبر في إحسان العمل كان حريصاً على الحالة التي ينجح بها في هذا الاختبار؛ لأن اختبار رب العالمين يوم القيامة من لم ينجح فيه جُرَّ إلى النار، فعدم النجاح فيه مهلكة، وقد أراد جبريل (عليه السلام) أن ينبه أصحاب رسول الله ﷺ على عظم هذه المسألة وشدة تأكدها^(٣) فقال للنبي ﷺ في حديثه المشهور: يا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - أخبرني عن الإحسان؟ أي: وهو الذي خلق الخلق من أجل الاختبار فيه، فبين له النبي ﷺ أن طريقه الوحيدة هي هذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم، الذي هو طريق المراقبة والعلم فقال: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤).

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [زيادة يتم بها الكلام.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

وقد قدمنا ضرب العلماء مراراً^(١) مثلاً لهذا بأن الحاضرين أمام ملك لا ينتهك حماه، شديد العقاب لمن انتهك حرماته، لا يقدر أحد منهم أن يفعل شيئاً يكرهه وهو ناظر إليه!! ورب السموات والأرض مطلع على ما يسره خلقه، ومع هذا فإنهم لا حياء عندهم ولا ماء في وجوههم، لا يستحون ممن خلقهم (جل وعلا) وهو معهم أين ما كانوا، مراقب على خطرات قلوبهم وجميع أعمالهم. فعلى العاقل أن ينتبه لهذه الآيات، ويعلم أن ربه حكيم عليم، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: الآية ١٦] فيعلم أن ربه ناظر إليه مطلع عليه، فلا يفعل أمام ربه إلا ما يرضي ربه (جل وعلا)، أما أن يبارز ربه بالمعاصي بوجه لا حياء فيه ولا ماء فهذا مما لا ينبغي؛ ولذا يقول (جل وعلا) بعد كل أمر ونهي: ﴿عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿بَصِيرٌ يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إلى غير ذلك من الآيات التي بمعناها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَائِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة وحده: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَدَائِهِمْ﴾ بفتح الواو، وقرأه من السبعة حمزة وحده: ﴿ما لكم من ولايتهم من شيء﴾ بكسر الواو^(٢). والتحقيق أن الولاية والولاية معنيان صحيحان، ولغتان فصيحتان، وقراءتان سبعيتان، فما يذكر عن الأصمعي من أنه يقول: «إن قراءة حمزة خطأ». هو الذي أخطأ فيه^(٣)، أما قراءة حمزة فهي قراءة صحيحة، ولغة معروفة فصيحة، فالولاية والولاية كالدلالة والدلالة، فهما لغتان عربيتان وقراءتان سبعيتان فصيحتان.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٤.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٦٤٠).

وكان المسلمون في أول الإسلام يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة دون القرابات؛ لأن النبي ﷺ لما نزل المهاجرون بالأنصار والمهاجرون فقراء آخى بين المهاجرين والأنصار، فصاروا يتوارثون بتلك الأخوة دون القرابات، فإذا مات واحد منهم ورثه أخوه الذي آخى النبي ﷺ بينه وبينه دون قرابته، وكان الذين لم يهاجروا لا إرث لهم في إخوانهم الذين هاجروا؛ لأنها كانت بالهجرة والمؤاخاة، ونسخ الله - تعالى - ذلك بقوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] كما سيأتي إيضاحه.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ هذه أولاً في المهاجرين، الله (جل وعلا) كأنه قسم المؤمنين طوائف، طائفة هم المهاجرون ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ آمنوا بالله ورسوله وهاجروا أوطنهم وديارهم وأموالهم في سبيل الله (جل وعلا) وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم؛ لأنهم جعلوا أموالهم في مؤن الجهاد من شراء السلاح، والمراكب للقتال، ومؤن القتال، وجاهدوا بأنفسهم حيث عرّضوها للموت وللخطر في الجهاد، كل هذا في سبيل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ الهجرة كانت هجرة متعددة متنوعة أولها الهجرة إلى الحبشة - وقد هاجروا إلى الحبشة مرتين - ثم الهجرة إلى المدينة، وكانت الهجرة إلى المدينة واجبة، وكان الذي أسلم ولم يهاجر كالذي يسلم ويبقى في البوادي من الأعراب لا يرث من أخيه المسلم المهاجر شيئاً، وكان الذين أسلموا ولم يهاجروا لا نصيب لهم في الغنائم، ولا في الخمس، ولا في شيء مما عند المسلمين، وليس لهم على المسلمين من النصر إلا إن استنصروهم على عدو في الدين خاصة كما سيأتي إيضاحه.

الطائفة الثانية: هم الأنصار، أهل المدينة، الذين كانوا قبلهم.

الطائفة الثالثة: هم الذين هاجروا بعد ذلك، فهم مهاجرون وأنصار وطائفة جاؤوا بعد ذلك كما سيأتي تفصيله وإيضاحه؛ ولذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بالله ورسوله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا﴾ هاجروا أوطنهم وأموالهم وديارهم. والمهاجرة: هجر الشيء أصله المباعدة منه.

وقد هاجروا أولاً إلى الحبشة، وثانياً إلى المدينة. ثم إن هذه الهجرة التي كان بها التوارث ولا يقبل من أحد إلا أن يفعلها نُسخت بفتح مكة، وقال فيه النبي ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(١).

والتحقيق أن الهجرة لا تنقطع أبداً، إلا أن الهجرة المخصوصة التي كانت إلى النبي ﷺ وأصحابه بالمدينة هي التي انقطعت بفتح مكة لانتشار الإسلام في جزيرة العرب، أما الهجرة التي لا تنقطع فهي أن كل إنسان تُعرض له في دينه، وصار لا يقدر على إقامة شعائر دينه في محل فواجب عليه بإجماع العلماء أن ينتقل من هذا المحل، ويبدل في ذلك كل مجهود حتى يصل إلى محل يتمكن فيه من إقامة شعائر دينه، وهذه الهجرة التي لا تنقطع. والمهاجر الحقيقي هو من هجر ما نهى الله عنه ورسوله كما هو معلوم. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] مفعول (آووا) ومفعول (نصروا) كلاهما محذوف لدلالة المقام عليه. والمعنى: آووا الذين هاجروا إليهم وهم النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم. وهؤلاء الذين آووا ونصروا هم الأنصار أبناء قَيْلَة، الذين كانوا من سكان المدينة، الذين هاجر إليهم النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله: ﴿ءَاوَأُوا﴾ العرب تقول: آواه يؤويه إيواءً إذا جعل له مأوى ينضم إليه. أي: جعل له مسكناً ومنزلاً يسكن إليه؛ لأنهم أسكنوهم في ديارهم، وشاطروهم أموالهم، وهيؤوا لهم كل أسباب الراحة، وذلك معنى إيوائهم لهم. ونصروهم، النصر في لغة العرب: إعانة المظلوم. أي: أعانوهم على أعدائهم حتى تمكن الإسلام وانتشر وفتحت مكة، وفتحت جميع جزيرة العرب، وانتشر بعد ذلك الإسلام في أقطار الدنيا. ﴿وَالَّذِينَ

(١) أخرجه مسلم في الإمامة، باب: المباينة بعد فتح مكة على الإسلام. حديث رقم: (١٨٦٤) (١٤٨٨/٣) من حديث عائشة (رضي الله عنها) مرفوعاً. وقد أخرجه البخاري في مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ. حديث رقم: (٣٨٩٩) (٢٢٦/٧) موقوفاً على ابن عمر. وأطرافه (٤٣٠٩، ٤٣١٠، ٤٣١١).

ءَأَوْأَوْ وَنَصْرُوا﴾ والمعنى: إن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض. فعبر عن المهاجرين بلفظ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وعبر عن الأنصار بـ ﴿وَالَّذِينَ ءَأَوْأَوْ وَنَصْرُوا﴾ لأنهم آووا النبي ﷺ وأصحابه ونصروهم على أعدائهم. ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ أصل قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ مبتدأ، والمبتدأ وخبره خبر المبتدأ الأول، فلما دخلت (إن) صار المبتدأ الأول اسمها، والمبتدأ الأخير وخبره خبر (إن) كما هو معروف لا يخفى. هذا معنى ﴿أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. معناه: أن المهاجرين أولياء الأنصار، والأنصار أولياء المهاجرين، فبعض المهاجرين أولياء المهاجرين والأنصار، وبعض الأنصار أولياء المهاجرين والأنصار، فهم أولياء بعضهم على بعض. وكانت هذه الولاية يتوارثون بها دون غيرهم، وهذه الولاية ولاية نصر ومعاونة ومساعدة وميراث تعم ذلك كله. وهذا معنى قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ الأولياء جمع ولي، والولي: كل من ينعقد بينك وبينه سبب يجعلك تواليه ويواليك تسميه العرب ولياً^(١)؛ ولذا كان الله ولي المؤمنين ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لأنهم يوالونه بالطاعة ويواليهم بالجزاء والمغفرة، والمؤمنون بعضهم أولياء بعض. وهذا معنى قوله: ﴿أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

والأولياء جمع الولي، وقد تقرر في فن التصريف أن (الفعل) بمعنى اسم الفاعل يطرد جمعه على (فُعَلَاء) إلا إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفًا فينقاس جمع تكسيره على (أَفْعَلَاء)^(٢) فمثاله في المعتل: ولي وأولياء، وتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، وشقي وأشقياء، ونبي وأنبياء. ومثاله في المضعف: شديد وأشداء، وحيب وأحباء. وما جرى مجرى ذلك.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ التنوين في قوله ﴿بَعْضٍ﴾ تنوين عوض، عوض من الإضافة. أي: بعضهم أولياء بعضهم. فحذف المضاف إليه وعوض منه التنوين، ومعلوم أن من أقسام التنوين ما يسمّى «تنوين العوض» سواء كان

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

عوضاً عن حرف، أو عن كلمة، أو عن جملة كما هو معروف في محله.
هذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا على أقسام: منهم الذين يرجعون إلى قبائلهم في البادية من الأعراب، ومنهم من يكون في أهل مكة، وهؤلاء الذين في أهل مكة منهم من يؤمن ولم ينزل بين أظهر الكفار اختياراً كالذي وقع ممن ذكرنا في سورة الأنفال، وهم العاص بن نبيه، والحارث بن زمة بن الأسود، وعلي بن أمية، وأضرابهم الذين نزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾. ثم إن الله استثنى منهم المستضعفين الذين لا حيلة لهم فعذرهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ [النساء: الآيات ٩٧ - ٩٩]. كان ابن عباس يقول: أنا من المستضعفين من الولدان، وأمي من المستضعفات من النساء^(١). قبل هجرتهم، أما الذين أسلموا ورجعوا إلى ديارهم في البادية كأبي ذر وأمثاله ممن أسلموا، ثم رجعوا ولم يهاجروا، بل بقوا في البادية فهؤلاء لا يرثون إخوانهم المهاجرين، بل يرثهم قبلهم إخوانهم من الأنصار والمهاجرين، وليس لهم في غنيمة المسلمين ولا في خمس الغنائم شيء، إلا أنهم يحكم لهم بحكم الإيمان، وإذا استنصروا المسلمين استنصار دين خاصة فعليهم أن ينصروهم، إلا إذا استنصروهم على من بينهم وبينهم مهادنة وعهود كما يأتي تحريره قريباً إن شاء الله. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ وَكَلَّتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

قال بعض العلماء: الولاية المنفية هنا هي ولاية الميراث خاصة، وهو مروى عن ابن عباس^(٢) وجماعة من الصحابة فمن بعدهم.

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ (٤٥٨٧)، (٤٥٨٨)، (٢٥٥/٨).

(٢) ابن جرير (٧٨/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال بعض العلماء: هي جميع الأنواع: الموالاتة من الميراث والمعونة.

والتحقيق: أنها عامة إلا ما استثني منها وهو النصر الديني خاصة؛ لأن الله استثناه بقوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ هذا الذي بقي من ولايتهم مع عدم هجرتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَرَثَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ وقد بين عذر المستضعفين وعدم عذر الذين كانوا على قدرة وبقوا بين أظهر الكفار المحاربين للنبي ﷺ حتى يهاجروا.

ثم قال: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ﴾. الاستنصار طلب النصر، وقد تقرر في علم العربية: أن من معاني السين والتاء: الطلب. استغفر: طلب المغفرة، واستطعم: طلب الطعام، واستسقى: طلب السقيا، واستنصر: طلب النصر، ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ﴾ أي: طلبوا نصركم في الدين.

قوله: ﴿فِي الَّذِينَ﴾ يدل على أنهم لو استنصروهم نصر قومية وعصبية أنهم ليس عليهم أن ينصروهم، وأن المناصرة إنما هي في الدين، فلا مناصرة في العصبية، ولا في القوميات، ولا في الأراضي الفاسدة، وإنما المناصرة في الله، وفي دين الله (جل وعلا)؛ ولذا قال: ﴿فِي الَّذِينَ﴾ والمراد بالدين: دين الإسلام كما قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: الآية ١٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: الآية ٨٥]. وقد بين النبي ﷺ في حديث جبريل أن الدين شامل للإيمان والإحسان والإسلام حيث سأله عن الإيمان وفسره له، والإسلام وبيّنه له، والإحسان كذلك. ثم قال: «هذا جبريل أناكم يعلمكم دينكم»^(١). فعلم من قوله: «يعلمكم دينكم» أن اسم الدين شامل لكل من الإحسان والإسلام والإيمان كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: فواجب عليكم نصرهم. أي: إعانتهم الإعانة الدينية لا الإعانة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

العصبية القومية فذلك لا يكون؛ لأن الإعانات والانتصارات إنما هي في سبيل الله، وعلى كتاب الله، لا في سبيل الشيطان، ولا على سبيل العصبيات وقضايا الجاهلية الأولى كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ الجار والمجرور في قوله: ﴿عَلَى قَوْمٍ﴾ يتعلق بمحذوف، إلا إن استنصروكم على قوم فلا تنصروهم على قوم بينكم وبينهم ميثاق.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن لفظ القوم يختص في الوضع العربي بالذكور دون الإناث، كما قال تعالى: ﴿لَا يَخْرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَشَىٰ أَن يَكُونُوا حَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: الآية ١١] فعطفه النساء على القوم في آية الحجرات هذه يدل على أن القوم لا يتناول النساء وضماً، ومثل الآية الكريمة قول زهير وهو عربي جاهلي قح^(٢):

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حِضْنِ أُم نِسَاءِ

فعطف النساء على القوم فدل على عدم دخولهن فيهم، وقد دل القرآن العظيم على أن المرأة قد تدخل في اسم القوم بحكم التبعية إذا اقترن المقام بما يدل على ذلك، كقوله في ملكة سبأ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: الآية ٤٣] وما جرى مجرى ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾.

المراد بالميثاق: المهادنة والمعاهدة، وأصل الميثاق في لغة العرب: العهد المؤكد^(٣)، فكل عهد كان مؤكداً تسميه العرب ميثاقاً. وعلى هذا فكل ميثاق عهد، وليس كل عهد ميثاقاً. وياء الميثاق مبدلة من واو، ووزنه بالميزان الصرفي (مِفْعَال) وفاؤه واو، وأصله: (موثاق)^(٤) كميعاد من الوعد، وميزان من الوزن، وميثاق من الوثوق؛ ولذا يُصَغَّرُ على (مُوَيْثِق) لأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٦٩) من سورة الأعراف.

(٤) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧٣.

التصغير يرد العين إلى أصلها. ويُجمع جمع التكسير على (مواثيق) على القياس. وما سمع عن العرب من تكسيره على (مِثَاق) كقول عياض بن درة الطائي (١):

حِمَى لَا يُحَلِّ الدَّهْرَ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمِثَاقِ
فهو سماع يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنه اعتد بالعارض هنا على غير القياس. وهذا معنى قوله: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ﴾.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعني: لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهذا هو الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي كنا نتحدث عنه الآن ونحبر بكثرتة في القرآن العظيم لشدة عظم موعظته وزجره لمن كان له قلب. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ
وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا
وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال: الآيات ٧٣ - ٧٥].

يقول الله (جل وعلا): ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ
تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾. هذه الآية الكريمة من الآيات
العظام التي يعتبر بها؛ لأن ما ذكره الله (جل وعلا) فيها وما حذر منه من
الفتنة والفساد الكبير إن لم يوال المسلمون بعضهم بعضاً، ويقطعوا موالاة
الكفار، ويتركوا الكفار بعضهم يوالي بعضاً، ما حذر به من أنهم إن لم
يحافظوا على صدق الموالاة بينهم ومقاطعة أعدائهم تقع في الأرض الفتنة
والفساد الكبير، فهو واقع منتشر الآن، يدل على عظم هذا القرآن العظيم

(١) البيت في الخصائص (١٥٧/٣)، اللسان (مادة: وثق) (٨٧٦/٣).

وأنه كلام رب العالمين، وأن تحذيره حق، وترغيبه حق، والله في هذه الآيات من أخريات سورة الأنفال بيّن أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، قال في المهاجرين والأنصار: ﴿أَوْلِيَاكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ وهم في ذلك الوقت سادات المسلمين جميعاً في أقطار الدنيا؛ لأنهم هم الأغلبية والكثرة التي فيها رسول الله ﷺ.

ثم أتبع ذلك بأن الكفار بعضهم أولياء بعض، ويؤخذ من هذا - من قطع الولاية أولاً بين الكفار والمؤمنين - أنه لا يرث كافر مسلماً ولا مسلم كافراً؛ لأن الميراث لا بد له من ولاية بين الوارث والموروث، وقد قطع الله الولاية بينهما، وما دل عليه ظاهر هذه الآية الكريمة جاء مصرحاً به في الحديث الصحيح عنه (صلوات الله وسلامه عليه) حيث يقول: «لا يرث الكافر المسلم ولا المسلم الكافر»^(١) وهذا لا نزاع فيه بين المسلمين، دل عليه عموم هذه الآيات الكريمة، وصرح به النبي ﷺ. ومن هذه الموالاة قال بعض العلماء^(٢): منها ولاية النكاح، فالمرأة المؤمنة لا يلي عقدها أبوها الكافر؛ لأن الله قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين، والله يقول: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ [النساء: الآية ١٤١] وقد قدمنا أن العبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب^(٣).

وكذلك قال العلماء: لو كانت كافرة ذمية وأراد مسلم تزويجها ولها ولي ابن عم أو أب من المسلمين فإنه لا يتولى عقد نكاحها ولو للمسلم، لانقطاع الولاية بين الكفار والمسلمين، وإنما يزوجه أقرباؤها من أهل دينها أو أساقفتهم. وشذ في هذه المسألة أصبغ - أحد أصحاب مالك بن أنس رحمه الله - فقال: إن الكافرة إذا كان لها ولي مسلم يزوجه من مسلم،

(١) أخرجه البخاري في الفرائض، باب: لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم. حديث (٦٧٦٤) (٥٠/١٢) ومسلم في الفرائض، في فاتحته، حديث رقم: (١٦١٤) (١٢٣٣/٣).

(٢) انظر: القرطبي (٥٧/٨)

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

قال: فعقد المسلم لها خير للمسلم من عقد الكافر^(١). وهذا القول ليس بصواب؛ لأنه لا ولاية بين مسلم وكافر ألبتة، والكفار بينهم ولاية الكفر، ولاية الشيطان والكفر، كما قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

وهذه الآية تدل على أن الكفار بعضهم ولي بعض، وظاهرها أن الكافر يرث الكافر ولو اختلفت مللها من الكفر، وبهذا الظاهر تمسك من قال يرث النصراني اليهودي واليهودي النصراني، كما يتوارث غيرهم من أهل الملل. والصواب أنه لا يتوارث أهل ملتين للحديث الوارد في ذلك عن النبي ﷺ «لا يتوارث أهل ملتين»^(٢) وهو الأصوب، وهو أخص؛ لأنه يبين المراد بعموم هذه الآية الكريمة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مبتدأ، و﴿بَعْضُهُمْ﴾ مبتدأ آخر، و﴿أَوْلِيَاءُ﴾ خبر الثاني، والثاني وخبره خبر الأول كما هو واضح. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٣) أن مادة الكاف والفاء والراء (كَفَرَ) أن معناها في لغة العرب التي نزل بها القرآن: الستر والتغطية، فكل شيء غطيته وسترته فقد

(١) انظر: القرطبي (٥٧/٨)

(٢) روى هذا الحديث غير واحد من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ - جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، عند الترمذي في الفرائض، باب: لا يتوارث أهل ملتين. حديث رقم: (٢١٠٨) (٤/٤٢٤). وهو في صحيح الترمذي (١٧١٢)، الإرواء (١٢١/٦، ١٥٥).

٢ - عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما)، عند أحمد (١٧٨/٢، ١٩٥)، وأبي داود في الفرائض، باب: هل يرث المسلم الكافر. حديث رقم: (٢٨٩٤) (٨/١٢٢)، وابن ماجه في الفرائض، باب: ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك. حديث رقم: (٢٧٢٩) (٢/٩١٢)، والدارقطني (٤/٧٢، ٧٥)، وابن الجارود (٣/٢٣٢). وانظر: صحيح أبي داود (٢٥٢٧) وصحيح ابن ماجه (٢٢٠٧)، الإرواء (٦/١٢٠).

٣ - أسامة بن زيد (رضي الله عنهما). عند الحاكم (٢/٢٤٠). وانظر: الإرواء (٦/١٢٠).

٤ - عن الشعبي مرسلًا. عند الدارمي (٢/٢٦٧).

وساق الدارمي في هذا المعنى جملة من الآثار عن بعض الصحابة (رضي الله تعالى عنهم).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

كفرته، وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل في كلامهم جداً، ومنه سمت العرب الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها عن العيون بظلامه، ومنه قول لبيد بن ربيعة (رضي الله عنه) في معلقته^(١):

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا
ومن هذا المعنى قول لبيد أيضاً في معلقته هذه^(٢):

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنُهَا مَتَوَاتِرٌ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا
يعني: ستر النجوم وغطاها غمامها. هذا أصل المادة، وتكفير السيئات من هذه المادة؛ لأن الله يغطيها ويسترها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها، وإنما قيل للكافر (كافر) لأنه يغطي أدلة التوحيد بجحوده مع وضوحها، ويغطي نعمة الله ويسترها كأنه ليس عليه إنعام من الله حيث يأكل رزقه ويتقلب في نعيمه ويعبد غيره.

وقوله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ هي (إن) الشرطية أدغمت في (لا) النافية. والمقرر في علم العربية: أن (إن) الشرطية التي تجزم فعلين إن جاءت بعدها (لا) النافية لا تمنع عملها من الجزم، فهي (إن) الشرطية، وفعل الشرط هو قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ مجزوم بحذف النون، وجزاء الشرط هو قوله: ﴿تَكُنْ فِتْنَةً﴾ والتحقيق: أن (تكن) أنه هنا تام، وأن (فتنة) فاعله، وليس من الأفعال الناقصة الناسخة كما هو الصواب، والضمير في قوله: ﴿تَفْعَلُوهُ﴾ أما الضمير المرفوع الذي هو الواو فهو عائد إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهو يتناول جميع المسلمين إلى يوم القيامة. وأما الضمير المنصوب فهو ضمير الواحد الغائب - أعني الهاء في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ - فلعلماء التفسير في مرجع هذا الضمير أقوال معروفة^(٣) سنذكر طرفاً منها ونبيّن الصواب فيها - إن شاء الله -: قال بعض العلماء: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ راجع إلى الميراث المفهوم من قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لأنه يدخل فيها

(١) (٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٣) انظر: الدر المصون (٥/٦٤١).

ولاية الميراث، إلا تتركوا الكافر يرث الكافر، والمسلم يرث المسلم دون الكافر تكن فتنة. وهذا مروى عن ابن عباس^(١) وغيره، ومعه أقوال شبهه.

والتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الضمير - الهاء - في قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ عائد إلى ما ذكره الله (جل وعلا) من ولاية المسلمين بعضهم بعضاً ومقاطعتهم للكفار، وولاية الكفار بعضهم بعضاً، وقد جرت العادة في كلام العرب الذي نزل به القرآن، وفي القرآن العظيم، أنه يرجع الضمير أو ترجع الإشارة إلى أشياء متعددة ويرجع الضمير إليها بصيغة الأفراد^(٢)، كأنه يعني بالضمير أي: ما ذكر من الأشياء المتعددة من اثنين فصاعداً، وهذا موجود في الضمائر، وفي كلام العرب، ولما أشد رؤية بن العجاج في رجزه^(٣):

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقٌ كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِينُ الْبَهَقِ
قال له رجل: لِمَ قلت: «كأنه» إذا كنت تعني الخطوط فالصواب أن تقول: «كأنها» وإذا كنت تعني السواد والبلق فهلا قلت: «كأنهما» فأى وجه لقولك: «كأنه»؟ قال: كأنه أي: ما ذكر. ومن أصرح الأدلة القرآنية في ذلك هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ (به) أي: بجميع ما ذكر من سمعكم وأبصاركم وقلوبكم كما لا نزاع فيه. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وقد قدمنا بعض شواهد في سورة البقرة في الكلام على قوله: ﴿إِنَّمَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾^(٤) أي: بين ذلك المذكور من الفارض والبكر. ومن نظيره في الإشارة قول ابن الزبير السهمي^(٥):

إِنْ لِلْخَيْرِ وَاللِّشْرِ مَدَى وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبِيلٌ

(١) أخرجه ابن جرير (٨٦/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٤) راجع الموضوع السابق، وكذا ما ذكره عند تفسيره للآية (٦٩) من سورة البقرة.

(٥) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

أي: كلا ذلك المذكور.

والمعنى: إلا تفعلوا ذلك الذي ذكرنا من موالة بعضكم لبعض موالة صدق، ومقاطعتكم للكفار مقاطعة كاملة، وترك الكفار يوالي بعضهم بعضاً إلا تفعلوا هذا ﴿تَكُنْ﴾ أي: تقع ﴿فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وهذا المشاهد الآن، فإن من يسمون بالمسلمين تولوا الكفار وقاطعوا المسلمين، وصار هذا الكافر وهذا المسلم يزعمان أنهما أَخَوَان، وأنهما تجمعهما العصبية الفلانية، أو القومية الفلانية، وأن هذه الدولة الكافرة صديقة، وأن هذين الشعبين شقيقان وما جرى مجرى ذلك.

فلم يفعلوا ما أمر الله بأن يفعلوه فكانت فتنة في الأرض وفساد كبير. ومن عَظُم هذه الفتنة اختلاط الحابل بالنابل؛ لأن المسلمين إذا صادقوا الكفار أعانوهم على أذية المسلمين وقتلهم وكل ما يريدونه بهم، وأطلعوهم على عوراتهم، إلى غير ذلك، فانتشر في الدنيا الفساد العريض العظيم، وانتشرت الفتنة، وهذا مشاهد يجب على المؤمنين أن يعتبروا بهذا فيقطعوا ولايتهم من جميع الكفار، ويصدقوا ولاية بعضهم لبعض لئلا تتمادى بهم هذه الفتنة والفساد الكبير.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن الفتنة جاءت في القرآن لمعاني معروفة، أشهر معاني الفتنة: أن أصل الفتنة هي وضع الذهب في النار ليُمْتَحَن بسبكه في النار: أخالص هو أم زائف؟ تقول العرب: فتنت هذا الذهب. أي: جعلته في النار وأذبته فيها؛ لأنه إذا ذاب تبين أخالص هو أم زائف؟ ولذا صار يأتي في القرآن وفي كلام العرب إطلاق اسم الفتنة على مطلق الوضع في النار، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: الآية ١٣] أي: يوضعون فيها ويحرقون. ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: الآية ١٠] يعني: أحرقوهم بنار الأخدود. هذا معنى من معاني الفتنة.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٣) من سورة الأنعام.

ومعناها الثاني: أن الفتنة تطلق على الاختبار، وهذا أشهر معانيها، وهو في الحقيقة راجع إلى الأول؛ لأن وضع الذهب في النار ليختبر بالنار أخالص هو أم زائف؟ وإطلاق الفتنة على الاختبار إطلاق مشهور مستفيض في القرآن العظيم وفي كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْوَّاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيفَةِ لَأَسْفِنَهُمْ مَاءً عَذْقًا ۖ لِنُفِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: الآيتان ١٦، ١٧] ﴿وَيَبْلُوكُمْ بِالنَّارِ وَالْحَرِّ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: الآية ٣٥] أي: اختباراً وامتحاناً. إلى غير ذلك من الآيات.

وإطلاق الفتنة الثالث: تطلق الفتنة على نتيجة الاختبار بشرط كونها سيئة خاصة؛ لأن المختبر إذا كانت نتيجة اختباره سيئة كان ضالاً؛ ولذا تطلق الفتنة على الكفر والضلال، يقولون: فتنه عن دينه. أي: أضله. وهذا مفتون. أي: ضال في دينه. ومنه بهذا المعنى: ﴿وَلَقَالُوا هُمْ حَقٌّ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: الآية ٣٩] أي: لا يبقى في الدنيا شرك على أصح التفسيرين؛ لأن قوله ﴿حَقٌّ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ﴾ غاية غيها فيها القتال لثلاث يكون في الدنيا شرك. وهذا بيته النبي ﷺ بياناً صريحاً صحيحاً في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله»^(١).

قال بعض العلماء: جاء للفتنة إطلاق رابع في سورة الأنعام، وهو أنها أطلقت على الحجة. قال: ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [١٢] وفي القراءة الأخرى^(٢): ﴿ثُمَّ لَوْ تَكُنْ فِتْنَتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [١٢] [الأنعام: الآية ٢٣] فهذه الفتنة هي في الحقيقة المعنى الثاني من هذه المعاني التي ذكرنا، وهي نتيجة الاختبار إذا كانت سيئة؛ لأنه إذا اتصل الكافر بالمسلم، والمسلم بالكافر صار الكافر صديق المسلم، وصار المسلم صديق الكافر، فكل هذا ضلال مخالف لما جاء من الله، تتسبب عنه المحن والبلايا كما هو معروف.

وقوله: ﴿وَفَسَادٌ﴾ الفساد في لغة العرب هو ضد الإصلاح، فكل أمر ليس على وجهه الصحيح الذي هو إصلاح تسمية العرب فاسداً. ووصف

(١) السابق.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

هذا الفساد الكبير لأنه ضياع دين، وضعف إسلام، وقوة كفار، وإطلاعهم على عورات المسلمين بواسطة من يصادقهم ويواليهم من المسلمين، إلى غير ذلك من البلايا. وقد بين الله (جل وعلا) قبل هذا آيات تبين هذه الآية، فبين أن موالاة الكافر للمسلم لا يرخص منها في شيء إلا بقدر ما يدفع الضرورة عند الخوف، ويكون ذلك باللسان لتفادي الخوف فقط، كما تقدم في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْقُوا مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [آل عمران: الآية ٢٨] أي: تخافوا منهم خوفاً كما قاله بعض العلماء. وقد قدمنا أنه (جل وعلا) بين أن الذي يتولى الكفار اختياراً رغبة فيهم وفي دينهم أنه منهم، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥١] فهذه الآيات الكريمة في القرآن العظيم وبالأخص هذه الآية من أخريات سورة الأنفال تبين للمسلم أنه تجب عليه مقاطعة الكافر والمباعدة، منه واعتقاد أنه حرب عليه، وقد جاءت أحاديث كثيرة تؤيد هذا المعنى، ففي بعض الأحاديث في رجل أخذ النبي ﷺ عند إيمانه قال: «وَأَنْ لَا تَرَى نَارَ مَشْرُوكٍ إِلَّا وَأَنْتَ حَرْبٌ عَلَيْهِ»^(١) وفي الحديث الآخر: «لَا تَرَأَى نَارَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ»^(٢) فالعداوة يلزم أن تكون بين المسلمين والكفار/ [كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾^(٣) ﴿وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: الآية ٤] هذا الذي ينبغي أن يسير عليه المسلمون ويتجنبوا هذه الفتن والفساد الكبير والبلايا التي طبقت

(١) أخرجه عبد الرزاق (٣٣٠/١١ - ٣٣١)، وابن جرير (٨٢/١٤ - ٨٣) عن الزهري مرسلًا.

(٢) لفظ الحديث: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين». قالوا: يا رسول الله لم؟ قال: «لا تراءى ناراهما». أخرجه أبو داود في الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود. حديث رقم: (٢٦٢٨) (٣٠٣/٧)، والترمذي في السير، باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين. حديث رقم: (١٦٠٤، ١٦٠٥) (١٥٥/٤)، والنسائي في القسامة، باب القود بغير حديدة، حديث رقم: (٤٧٨٠) (٣٦/٨). وانظر: الإرواء (٢٩/٥ - ٣٣)، السلسلة الصحيحة (٢٣٠/٢).

(٣) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

الدنيا بسبب موالاة المسلم للكافر ومجاافة المسلم للمسلم؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣] والله ما فعلوه اليوم، والله إن في الدنيا اليوم لفتنة وفساداً كبيراً منتشرأ.

وقد تكون الفتنة والفساد الكبير بأسباب أخر غير هذا، وقد تقرر في فن الأصول أن جزاء الشرط يجوز أن يكون أعم من شرطه، لا مانع من ذلك، فلا يلزم أنه لا تكون فتنة وفساد كبير إلا من هذا، فقد تكون فتنة وفساد كبير لأسباب أخر، فإنك لو قلت مثلاً: إن بليت انتقض وضوءك. لا يلزم من هذا أنه لا ينتقض وضوءك إلا من البول، فقد تكون نواقض أخر غير هذا؛ ولذا قد يوجد الفتنة والفساد الكبير لأسباب أخر غير هذا المذكور؛ ولذا جاء في السنن وغيرهم من حديث أبي حاتم المزني (رضي الله عنه) وحديث أبي هريرة أن النبي (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» في بعض روايات الحديث: «فساد عريض» وفي بعضها: «فساد كبير». قالوا: يا رسول الله وإن كان فيه؟ قال ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض» أو «فساد كبير»^(١).

وهذا أيضاً يدل على أن الفتنة والفساد الكبير تتعدد أسبابها وهو كذلك، فإن للافتتان والفساد الكبير المنتشر في الدنيا أسباباً كثيرة، ومن أعظم تلك الأسباب وأبرزها: مقاطعة المسلم للمسلم وموالاته للكافر، فهذا

(١) حديث أبي حاتم المزني أخرجه الترمذي في النكاح، باب ما جاء إذا جاءكم من ترضون دينه فزوجوه. حديث رقم: (١٠٨٥) (٣/٣٨٦)، والبيهقي (٧/٨٢)، والدولابي في الكنى (١/٢٥). وانظر: السلسلة الصحيحة (٢٢/١٠٢)، الإرواء (١٨٦٨). وحديث أبي هريرة أخرجه الترمذي (الموضع السابق) حديث رقم: (١٠٨٤) (٣/٣٨٥)، وابن ماجه في النكاح، باب الأكفاء. حديث رقم: (١٩٦٧) (١/٦٣٢)، والدوري في (جزء فيه قراءات النبي ﷺ) ص ١٠٣-١٠٤، والحاكم (٢/١٦٤، ١٦٥)، والخطيب (١١/٦١). وانظر: الإرواء (٦/٢٦٦).

تنبية: ورد في هذا المعنى أيضاً حديث عن ابن عمر (رضي الله عنهما). وهو في الكامل (٥/١٧٢٨) والدولابي في الكنى (٢/٢٧).

مما لا ينبغي، وهو من الأسباب العظيمة؛ لأن الله يقول لنبيه: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحریم: الآية ٩] فاللين للكفار والمحبة والمؤاخاة لهم ليست من شأن المسلمين، ولا من خلق النبي وأصحابه، فالله (جل وعلا) أثنى على محمد ﷺ وعلى أصحابه بأنهم لا يضعون اللين إلا في موضع اللين، ولا يضعون القسوة إلا في موضع القسوة، قال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ ليسوا بأصدقاء لهم ولا محبين ولا أولياء ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩] هذه عادة المسلم أن يكون شديداً عظيماً على الكافر، رحيماً رقيقاً ذليلاً على المسلم، هذه عادة المسلمين وصفات المسلمين، وقد مدح الله بها قوماً في سورة المائدة حيث قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ - يعني لا يهتم بهم المسلمون لعدم صعوبتهم وذلهم وتواضعهم للمسلمين - ﴿أَعَزَّةٌ عَلَى الْكُفَّارِينَ﴾ [المائدة: الآية ٥٤] أشداء، وقد صدق من قال^(١):

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا أَشَدَّ عَلَى أَعْدَائِهِ مِنْ مُحَمَّدٍ

(صلوات الله وسلامه عليه)، فهو لا يوالي الكفار، بل هو ولي المسلمين ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: الآية ٦] ﴿إِنَّا وَرَدُّنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية [المائدة: الآية ٥٥] إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا الاقتداء بالنبي ﷺ فنوالي المؤمنين ونلين لهم، ونرفق بهم، ونعادي الكفار ونكون أشداء عليهم؛ لأن الشدة في محل اللين خرق وحمق، واللين في محل الشدة خور وضعف، والصحيح أن يكون كل شيء في محله، وهذا في موضعه، وهذا في موضعه، كما لا يخفى، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٣].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَمْ يَكُنْ مَقْفَرَةٌ وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤] [شرع]^(٢) الله (جل وعلا) وبين للمؤمنين أن يكونوا أولياء للمؤمنين، والكفار بين أنهم

(١) مضى عند تفسير الآية (١٩٩) من سورة الأعراف.

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

أولياء الكفار، وأثنى على المهاجرين والأنصار؛ لأن بعضهم أولياء بعض، مدح المهاجرين والأنصار وزكاهم وهو المطلع على ضمائرهم وخبايا ما يضمرون، بين أن إيمانهم أنه إيمان حق لا شك فيه لا نفاق ولا ضعف، فأثنى عليهم ومدحهم مدحاً عظيماً من رب العالمين، قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ - بالله ورسوله وكل ما يجب به الإيمان - ﴿وَهَاجِرُوا﴾ - أوطانهم وأموالهم وديارهم - ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فسرناه بالأمس.

وهذه الصفات كله يُقصد بها المهاجرون الذين هاجروا إلى المدينة هذه، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين هاجروا معه رضي الله عنهم.

﴿وَالَّذِينَ آوَأُوا﴾ يعني: آوؤهم، قد قدمنا أن العرب تقول: «آوآه يؤويه إيواء» إذا ضمه إليه وجعل له مأوى يأوي إليه، والمأوى: المسكن والمنزل؛ لأن الأنصار هيؤوا للمسلمين أمكنة ينزلون فيها وهيؤوا لهم كل ما يستعينون به، وأخى النبي ﷺ بينهم، كان يقول: «فلان أخو فلان». فيتوارثان بذلك الإخاء، وكان الأنصار يشاطرونهم أموالهم، وقد أخى ﷺ بين عبدالرحمن بن عوف الزهري (رضي الله عنه) وسعد بن الربيع الأنصاري (رضي الله عنه)، ذكر بعض أهل المغازي والأخبار أن النبي لما أخى بينهما جاء سعد إلى عبدالرحمن وقال: أرخص ما عندي نعلاي، فهذه إحداهما، وأعظم ما عندي زوجتاي أنزل لك عن إحداهما، فإن تمت عدتها تزوجتها!! - وقد كان عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) وأغلب المهاجرين تعففوا واتجروا - فقال له عبدالرحمن بن عوف: أقرضني درهماً. فأقرضه درهماً فاتجر به، فراح وعنده درهمان، رد إليه درهماً واتجر بالثاني، فراح عنده درهمان، ولم يزل يتجر حتى انتشر عليه المال وكان من أغنياء الصحابة^(١) (رضي الله عنهم). فهم آوؤهم حيث هيؤوا لهم المساكن

(١) أخرجه البخاري في البيوع، باب ما جاء في قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ رقم: (٢٠٤٨)، (٢٨٨/٤). وطرفه في (٣٧٨٠). عن عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه). وأخرجه أيضاً عن أنس (رضي الله عنه) (الموضع السابق) برقم (٢٠٤٩). وأطرافه في: (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٦٧، ٦٣٨٦).

والأموال، وشاطروهم أموالهم، وأحسنوا إليهم كل الإحسان، كما في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] هذا ثناء الله ومدحه للمهاجرين والأنصار، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة في قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ شاملة للمهاجرين والأنصار معاً، فالمهاجرون هم المعبر عنهم بـ ﴿ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والأنصار هم المعبر عنهم بقوله: ﴿ءَاوُوا وَنَصَرُوا﴾ أي: آووا النبي وأصحابه ونصروهم على أعدائهم، هؤلاء جميعاً ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ حق إيمانهم حقاً؛ لأنهم صدقوا إيمانهم بهجرتهم وجهادهم في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وبإيمانهم، وأولئك حققوه بياوائهم ونصرتهم لله؛ لأن الأنصار قامت موقفاً عظيماً حيث تحملت عداوة جميع أهل الدنيا في نصرة النبي ﷺ وأصحابه؛ ولذا قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾ - هؤلاء - ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ بمعنى الكلمة الإيمان الذي هو لا قيل فيه ولا قال، بل هو الإيمان كما ينبغي.

وهذه من الآيات الدالة على تزكية الصحابة لا سيما المهاجرين والأنصار، ووصفهم بالعدالة وصحة الإيمان، فإذا روى لنا مهاجري أو أنصاري حديثاً فلا نقول: هل هذا عدل أو غير عدل؟؟ لأنه لا مركي أعظم تزكية من الله، ولا تزكية أعظم من قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٤] والله (جل وعلا) نوه بشأن المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم، ونوه بشأن جميع الصحابة وزكاهم في غير ما آية، فمن الآيات التي أثنى بها على المهاجرين والأنصار قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] وفي قراءة ابن كثير: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١). والمصحف الذي أرسله عثمان إلى مكة فيه: ﴿مِنْ تَحْتِهَا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٨.

الْأَنْهَرُ ﴿ بذكر لفظه (من) وقراءة الجمهور والمصاحف التي أرسلت إلى الشام وإلى الكوفة والبصرة فيها: ﴿تحتها الأنهار﴾ بغير لفظه (من). فقوله: ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ - لم يشترط فيهم شيئاً بل قال: - ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠] - وهذه أعظم تزكية، والذين اتبعوهم - اشترط فيهم شرطاً وهو الإحسان؛ لأن قوله: ﴿يَا حَسَنُ﴾ اشترطه في خصوص الذين اتبعوهم، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ [الحديد: الآية ١٠] ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾ كلاً من جميع الصحابة ممن أنفق وقاتل قبل الفتح وبعده وعد الله الحسنى.

ومن هذه الآية الكريمة قال ابن حزم: يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الصحابة كلهم في الجنة؛ لأن الله صرح بذلك ولا يخلف الله الميعاد حيث قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ - ثم صرح في الجميع بوعد الصادق الذي لا يخلفه قال: - ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنُ﴾^(١). وقال (جل وعلا) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضوانًا وَيَبْصُرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: الآية ٨] فزكاهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ثم ذكر الأنصار قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الدار: هي المدينة ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: وانتهجوا الإيمان، فهو مفعول فعل محذوف دل المقام عليه^(٢) ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَحِدُّونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ قال جماعة من أهل العلم: إن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ ولذا كان الأنصار لا يكون في صدورهم شيء من فضل المهاجرين عليهم، هكذا قاله غير واحد^(٣). ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: الآية ٩] ثم ذكر من يأتي بعدهم

(١) الإحكام ص ٦٦٤.

(٢) انظر: القرطبي (٢٠/١٨).

(٣) انظر: ابن كثير (٣٣٧/٤).

فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: الآية ١٠] ومن هذه الآيات أخذ مالك بن أنس (رحمه الله) إمام دار الهجرة أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ لا نصيب لهم في فيء المسلمين أبداً، وقال لبعضهم: هل أنتم من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله؟ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: هل أنتم من الذين قال فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؟﴾ قالوا: لا، لسنا من هؤلاء. قال: وأنا أشهد أنكم لستم من الطائفة الثالثة التي قال الله فيها: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فأنتم تسبون الصحابة وتلعنوهم، فلستم من جملة من جعل الله لهم شيئاً من المسلمين فلا شيء لكم ألبتة^(١).

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن تدل على أن الذين يسبون بعض أصحاب النبي ﷺ أنهم ضلال، منابذون لهدي الله، مخالفون لكتاب الله الذي هو آخر الكتب السماوية نزولاً من عند رب العالمين (جل وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

قال بعض العلماء: (حقاً) مصدر^(٢)، أي: حق ذلك حقاً، أي: لما حققوه به من الإيمان والهجرة والجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، إلى غير ذلك من الصفات.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ المغفرة (مَفْعِلَةٌ) من الغفران، وأصل مادة الغين والفاء والراء (غفر) أصلها معناها الستر والتغطية أيضاً كمادة (الكفر) لأن الله يستر بحلمه وفضله ذنوب التائبين إليه حتى لا يظهر لها أثر يتضررون به^(٣).

﴿وَرِزْقٌ﴾ هو ما يرزقهم الله في الجنة.

(١) تقدم.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨).

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ كل شيء حسن مبالغ في الحسن والجمال تسميه العرب كريماً، وإنما وصف رزقهم بأنه كريم لأن ما في الجنة من الأرزاق كله كريم ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: الآية ٢٥] وأرزاق الجنة مبيّنة في القرآن العظيم من مآكلها ومشاربها وغير ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَحْزَابُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

للعلماء أقوال في المراد بالظرف في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ فقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ ظرف منقطع من الإضافة مبني على الضم، وتقدير مضافه هذا - المحذوف - فيه للعلماء أقوال متقاربة^(١):

قال بعض المحققين: أظهر الأقوال فيه أن المراد به: من بعد صلح الحديبية. وهذا القول له اتجاه لمن عرف تاريخ النبي ﷺ وأصحابه وتاريخ الهجرة وأهميتها؛ وذلك لأن النبي ﷺ كان عنده التشديد العظيم في الهجرة، فلا بد لمن آمن أن يهاجر وإلا لم تكن له ولاية عند المسلمين كما قدمناه في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] لأن البلاد كلها كانت بلاد حرب، والإيمان في المدينة، والذي أسلم إما أن يبقى في دار حرب وإما أن يروح إلى النبي ﷺ والمسلمين، فلما كان صلح الحديبية - وقد كان صلح الحديبية وقع في ذي القعدة من عام ست من الهجرة بإجماع المؤرخين - خرج النبي ﷺ معتمراً، وساق معه بعض البُدن، وذلك في ذي القعدة من عام ست، فلما بلغ الحديبية سمع به المشركون فتعرضوا له، وقالوا: والله لا يقتل أبناءنا بيد ويدخل علينا بلدنا ويطوف بيئتنا أبداً!! فوقع ما وقع مما هو مشهور. ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: الآية ٢٥] أي: وصدوا الهدي معكوفاً أن يبلغ

(١) انظر: القرطبي (٨/٨).

محلّه، وقد نزلت في قفوله من الحديدية سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح: الآية ١] نزلت في رجوعه من الحديدية كما قاله غير واحد، وقد وقع ما وقع، ولم يزالوا يراسلونّه ليردوه عنهم، أرسلوا له عروة بن مسعود سيد ثقيف، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو وأضرابهم، حتى انعقد بينه وبينهم الصلح على يد سهيل بن عمرو على المهادنة عشر سنين، وأغلظوا له في الصلح بأن من جاءه من قريش مسلماً رده إليهم، والذي جاء إلى قريش مرتداً عن الإسلام لا يردونه، وهذا معروف.

وقد كان النبي ﷺ قَبِلَ لَهُمْ هذه الشروط، وكتب وثيقة الصلح بينه وبينهم، وعقدها معه سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) - من بني عامر بن فهر من قريش (رضي الله عنهم) - وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اغتاض من تغليظ هذه الشروط، وقال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ ألسنا نحن الذين على الحق؟ كيف نرضى لهم بهذه الدنية؟! وأبو بكر يقول له: استمسك بغيرز رسول الله ﷺ فهو أعلم منك. وكان هذا الصلح أول الفتح العظيم الذي فتح الله به على المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يعلم ما فيه من المصلحة؛ لأنه لما وقعت الهجرة والمهادنة، وأمن الناس بعضهم بعضاً صار الصحابة يرجعون إلى قبائلهم ويبشون فيهم الإسلام، فانتشر في الناس دين الإسلام، حتى إن الكفار مكثوا سنتين لم ينقضوا العهد، وقد نقضوا العهد الذي أبرمه النبي ﷺ معهم في الحديدية؛ لأن بني بكر كانت بينهم وبين خزاعة دماء وحروب، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، وبنو بكر في عهد قريش، فَعَدَّتْ بنو بكر على خزاعة، فأعانهم قريش عليهم بالسلاح، ونقضوا العهد بعد سنتين، وكان ذلك سبب غزوة النبي ﷺ لهم غزوة الفتح، ولم يمكثوا إلا سنتين؛ لأن صلح الحديدية وقع من ذي القعدة عام ست، وغزو النبي ﷺ لهم في فتح مكة وقع في رمضان عام ثمان، وهذا كله لا خلاف فيه بين العلماء والمؤرخين، فأقاموا سنتين، ونقضوا العهود، إلا أن هذا الصلح كان فتحاً عظيماً على المسلمين؛ لأن الصحابة انتشروا في قبائلهم، ووجدت الدعوة

إلى الله طريقها، فاتصل المسلم بالكافر يدعو إلى الإسلام، فكثرت الإسلام في أقطار الجزيرة العربية، ومما يوضح هذا أن أهل بيعة الرضوان التي وقعت في صلح الحديبية، الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية - لأن النبي ﷺ ذكر بعض أصحاب المغازي والمؤرخين أنه أراد أن يرسل بالهدايا إلى مكة -، وقال لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «أذهب بها إلى مكة». فقال له عمر: إن بني عدي بن كعب - يعني قبيلة عمر من قريش - لا يستطيعون أن يحموني من قريش، ولكني أدلك على رجل عزيز في مكة لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، وهو عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وهو عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. فأرسل عثمان بالهدايا لينحرها بالحرم، فتلقى له بنو عمه من بني سعيد بن العاص، وقالوا له^(١):

أَقْبِلْ وَأَذْبِرْ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا بَنُو سَعِيدٍ أَعِزَّةَ الْحَرَمِ
وجاء، وقالوا له: إن شئت طف بالبيت. فقال: والله لا أطوف بيت مصدود عنه النبي ﷺ وهو محرم^(٢)، وكان هذا مما يدل على شرف عثمان (رضي الله عنه) لأنه امتنع أن يطوف لأن رسول الله ﷺ ممنوع من الطواف وهو محرم. ثم إن قائلاً قال: إن قريشاً قتلوا عثمان بن عفان - وهو كاذب - فسمع بها المسلمون فقالوا: قتل عثمان!! قالوا: لما قتلوا عثمان ما هنالك إلا القتال والموت!! فبايعوه بيعة الرضوان تحت سمره الحديبية، وهي الشجرة التي قال الله فيها:
﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: الآية ١٨]
ومحل الشاهد من هذه القصة، وأن صلح الحديبية كان أول فتح على المسلمين، وأول انتشار للإسلام، أن أهل بيعة الرضوان - كانوا ألفاً وأربعمائة تقريباً، كما ثبت ذلك صحيحاً عن بعض أصحاب النبي ﷺ، ولما غزا فتح مكة غزاه بألف متعددة، غزاه بعشرة آلاف

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

مقاتل، فدل هذا على أن هذه العشرة الآلاف كانت من مزايا صلح الحديبية حيث وجدت الدعوة طريقها، واتصل المسلمون بالكفار فدعواهم إلى الإسلام فانتشر الإسلام في المسلمين؛ ولذا كانت الهجرة بعد صلح الحديبية أقل عظماً وأخف وقعاً مما كانت قبل ذلك؛ لأنه في ذلك الوقت جازت مخالطة المسلم لقبيلته ليدعوهم إلى الإسلام، فخف شأن الهجرة من ذلك الوقت؛ لأنها كاد الله أن يُغني عنها، فلما غزا النبي ﷺ مكة في رمضان من سنة ثمان، وفتح مكة، قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»^(١). وهذه الهجرة انقطعت بالفتح وخفت بالحديبية؛ ولذا قال فيه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ أَي: بعد أن خف شأن الهجرة بصلح الحديبية، واتصل المسلمون بالكفار، وانتشر المسلمون في أقطار الجزيرة العربية، وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٥] - قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، كما قاله بعض العلماء ..

﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ معكم وبنالهم الفضل العظيم، وإن كان شرف الأسبقية لا يناله من جاء بعدهم كما قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا﴾ [الفتح: الآية ١٠].

﴿فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ﴾ أي: هم من جملتكم وإن كان بعضكم أفضل من بعض.

ثم قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ (أولوا الأرحام) معناه: أصحاب الأرحام، وهم ذوو القرابات. و (أولوا) اسم جمع لا واحد له من لفظه، هو يُعرب إعراب الجمع المذكر السالم، يُرفع بالواو وينصب ويخفض بالياء، وهو من الأسماء الملازمة للإضافة. والأرحام: جمع رحم، والرحم مؤنثة، وشذ قوم هنا وقالوا: إن المراد بها أرحام العصابات خاصة، وممن نصر هذا القول: أبو عبدالله القرطبي في تفسيره^(٢). وهو ليس بصواب، وما

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٧٢) من هذه السورة.

(٢) تفسير القرطبي (٨/٨).

استدلوا به في ذلك لا ينهض حجة؛ لأنهم قالوا: إن العرب كثيراً ما تطلق الرحم على قرابة العصابات دون قرابات غيرهم، قالوا: تقول العرب: وصلتك رحم. يعنون به رحم العصابات لا غيرها. وقالت قتيلة بنت الحارث، أو بنت النضر بن الحارث في رجزها المشهور لما قتل النبي ﷺ النضر بن الحارث في رجوعه من بدر - كما أوضحنا قصته في أول هذه السورة الكريمة سورة الأنفال - قالت في شعرها، تقول^(١):

ظَلَّتْ سَيْوْفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُسُهُ اللَّهُ أَرْحَامٌ هُنَاكَ تَشَقُّقُ
فصرحت بأن مرادها بالأرحام بنو الأب، يعني من بني عمه وعصبته. وهذا يجوز، ولكنه لا ينفي غيره من إطلاق ذوي الأرحام على جميع القرابات^(٢). وهذه الآية ثبت في الصحيح وغيره - ولا يكاد يختلف فيه بين العلماء - أنها نسخت للموارثة التي كانت تقع بالهجرة والمؤاخاة والحلف؛ لأنهم كانوا يتوارثون بالهجرة والمؤاخاة ولا يرث القريب من قريبه شيئاً إذا كان لم يهاجر، كما تقدم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَرَثَةٍ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: الآية ٧٢] وأن الله نسخ ذلك بالقرابات، وأن المراد: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: أصحاب القرابات من قرابة الأب والأم، بعضهم أولى ببعض في الميراث. أي: من المهاجرين الذين آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار كما هو معروف، فنسخ الله ذلك الميراث أولاً بميراث القريب قريبه، والولي وليه.

﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي: في الميراث.

﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ قال بعض العلماء: المراد بكتاب الله أي: في حكم الله وأمره الذي كلف به خلقه وألزمهم إياه، والعرب كل شيء مكتوب مؤكداً تسميه كتاب الله. / وقال بعض العلماء: كتاب الله: هو اللوح

١٠/ب

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤١٨).

المحفوظ لأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ^(١) كما قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْهِ أُولِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا...﴾ [الأحزاب: الآية ٦] فأية الأحزاب كأنها بينت آية الأنفال هذه، وقال بعض العلماء: المراد بكتاب الله: القرآن؛ لأن الله بين الموارث في كتاب الله في القرآن في سورة النساء بينها بآية الصيف وآية الشتاء، فأية الشتاء هي: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ [النساء: الآية ١١] إلى آخر الآيات، وآية الصيف هي التي في آخر السورة: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: الآية ١٧٦].

وقد قدمنا^(٢) أن الكتاب بمعنى المكتوب، وأن إتيان (الفعال) بمعنى (المفعول) مسموع في كلام العرب موجود في أوزان معروفة، ككتاب بمعنى مكتوب، ولباس بمعنى ملبوس، وإله بمعنى مألوه، أي: معبود، وإمام بمعنى مؤتم به. وقد قدمنا^(٣) أن مادة الكاف والتاء والباء في لغة العرب (كَتَبَ) أن معنى هذه المادة في اللغة التي نزل بها القرآن معنى (كتب): ضم وجمع، فالكُتِبَ في لغة العرب معناه: الضم والجمع، وكل شيء ضمته وجمعت بعضه إلى بعض فقد كتبه، ومنه سميت الكتيبة من الجيش؛ لأنها قطعة عظيمة ضم بعضها إلى بعض، وجمع بعضها مع بعض، حتى صارت جملة عظيمة من الجيش، ومنه قول نابغة ذبيان^(٤):

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُورٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

ومن هذا المعنى سميت الكتابة كتابة؛ لأنك تضم نقش حرف إلى حرف إلى حرف حتى يتألف من مجموع هذا نقوش تُقرأ بها ألفاظ؛ ولأجل هذا قيل للخياطة (كُتِبَ) فالخياط يسمى كاتباً؛ لأنه يضم أطراف الأديم

(١) انظر: ابن جرير (٩٠/١٤).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

بعضها إلى بعض، وأطراف الثوب بعضها إلى بعض فيخيطها، فالخياطون
كُتَّاب، وفي لُغز الحريري^(١):

وَكَاتِبِينَ وَمَا خَطَّتْ أُنَامِلُهُمْ حَرْفًا وَلَا قَرُؤُوا مَا خُطَّ فِي الْكُتُبِ

يعني: الخياطين، ومنه قيل للسير الذي تُشد به الرقعة في السقاء:
كُتَّبة، وقيل لنفس الرقعة كُتَّبة؛ لأنها تضم في السقاء يُرقع بها، ومنه قول
غيلان بن عقبة ذي الرمة^(٢):

مَا بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرَبُ
وَفِرَاءٍ عَرْفِيَّةٍ أَثَى خَوَارِزَهَا مُشَلَّشٌ ضَيَعَتْهُ بَيْنَهَا الْكُتُبُ

يعني: ماء يسيل ضيعته الرقع والسيور المشدودة بها الرقع في السقاء
يسيل منها، شبه دمه به. ومن تسمية الخياطين (كُتَّابين) قول ابن دارة يهجو
فزارة^(٣):

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيَا خَلَوَتْ بِهِ عَلَى قَلُوصِكَ وَاكَتُبَهَا بِأَسْيَارِ

يعني: خط فرجها بأسيار لثلا يزني بها. هذا أصل معنى الكتابة.

وجمهور العلماء على أن معنى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكم الله
الذي هو حكمه الذي استقر عليه أمره، أن الميراث بالرحم والقربات لا
بالحجرة والمؤاخاة، فهذا نسخ هذا كما هو الذي عليه جمهور العلماء ﴿فِي
كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَكُلِّ شَيْءً عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: الآية ٧٥].

اختلف العلماء في المراد بـ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ في هذه الآية^(٤)،

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٣٨) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضوع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضوع السابق.

(٤) انظر: ابن جرير (٩٠/١٤)، القرطبي (٨/٨)، المغني (٨٢/٩)، ابن كثير (٣٣٠/٢)،
الأضواء (٤١٨/٢).

فذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد بأولي الأرحام هم خصوص الذين أعطاهم الله موارث من عصابات، أو أصحاب فروض، وأن هذه الآية بينتها آيات الموارث، وأن من لم يبين الله له نصيباً في كتابه لا شيء له ولا يدخل في هذا، وهذا قال به جماعة من العلماء، وممن ذهب إليه: مالك والشافعي (رحمهم الله)، قالوا: لا ميراث إلا لمن سئى الله له شيئاً، والمراد بـ (أولوا الأرحام) هذا مجمل بينته آيات الموارث، فلا ميراث لمن لم يجعل الله له سهماً. ومن أصرح أدلتهم في هذا حديث: «إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»^(١)

(١) روى هذا الحديث جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، ومنهم:

١ - أبو أمامة (رضي الله عنه)، عند أحمد (٢٦٧/٥) وأبي داود في الوصايا، باب: ما جاء في الوصية للوارث. حديث رقم: (٢٨٥٣) (٧٢/٨)، والترمذي في الوصايا، باب: ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢٠) (٤٣٣/٤)، وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٣) (٩٠٥/٢). والبيهقي (٢٦٤/٦)، والطيالسي (١١٢٧).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣) وحسن الحافظ إسناده، ونصب الراية (٤٠٣/٤)، والإرواء، (٨٨/٦).

٢ - عمرو بن خارجة (رضي الله عنه)، عند أحمد (١٨٦/٤)، ١٨٧، ٢٣٨ - (٢٣٩)، والدارمي (٣٠٢/٢) والترمذي في الوصايا، باب ما جاء: «لا وصية لوارث». حديث رقم: (٢١٢١) (٤٣٤/٤) وابن ماجه في الوصايا، باب: لا وصية لوارث. حديث رقم: (٢٧١٢) (٩٠٥/٢)، والبيهقي (٢٦٤/٦)، والطيالسي (١٢١٧)، والدارقطني (١٥٢/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٣/٤)، الإرواء (٨٨/٦).

٣ - أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عند ابن ماجه في الوصايا، باب لا وصية لوارث، حديث رقم: (٢٧١٤) (٩٠٦/٢)، والبيهقي (٢٦٤/٦)، وابن عدي في الكامل (١٥٧٥/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٨٩/٦).

٤ - ابن عباس (رضي الله عنهما) (بلفظ مقارب) عند البيهقي (٢٦٣/٦)، الدارقطني (٩٧/٤)، ٩٨، (١٥٢)، وابن عدي في الكامل (٣٠٧/١)، (١٥٧٠/٤).

وانظر: التلخيص (٩٢/٣) (وحسن إسناده)، ونصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٨٩/٦)، (٩٦).

قالوا: هذا الحديث فيه كلام معروف، والتحقيق أنه لا يقل عن درجة الاحتجاج، بين النبي فيه أن الله أعطى كل ذي حق حقه، قالوا: نص هذا الحديث على أنه ما بقي لصاحب حق أبداً إلا أعطاه الله إياه، فالذي لم يُسم له حق فليس له شيء، وهذا معروف، وممن ذهب إلى هذا من الأئمة: مالك والشافعي.

وقالت جماعة آخرون: المراد بأولي الأرحام: من لا ميراث لهم بفرض ولا تعصيب، وأنهم يرثون من لا وارث له، واستدلوا بهذه الآية الكريمة وبأحاديث أخر، منها ما هو ثابت في ميراث الخال، ومنها بعض جاء في ميراث العممة والخالة، والذين قالوا هذا قالوا: إن هؤلاء يصدق عليهم (أولوا الأرحام) بالوضع العربي، فلا يجوز إخراجهم منه، قالوا: ولأنهم من جملة المسلمين، وهم يزيدون بقراءة، ولو فرضنا أنه لبيت المال كان لخصوص المسلمين، فمن أدلى بسببين وهما الإسلام

- ٥ - جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما). عند الدارقطني (٩٧/٤)، وقال: «الصواب: مرسل» ١. هـ. وابن عدي في الكامل (٢٠٢/١). وانظر: التلخيص: (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٩٢/٦).
- ٦ - علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) (بلفظ مقارب) عند الدارقطني (٩٧/٤)، والبيهقي (٢٦٧/٦)، وابن عدي (٢٥١١/٧).
- وانظر: التلخيص (وضعف إسناده) (٩٢/٣)، نصب الراية (٤٠٥/٤)، الإرواء (٩٤/٦).
- ٧ - عبدالله بن عمرو (رضي الله عنهما) عند الدارقطني (٩٨/٤)، وابن عدي (٨١٧/٢). وانظر: التلخيص (٩٢/٢)، نصب الراية (٤٠٤/٤)، الإرواء (٩١/٦)، (٩٧).
- ٨ - معقل بن يسار (رضي الله عنه). عند ابن عدي (١٨٥٣/٥). وانظر: التلخيص (٩٨/٣).
- ٩ - زيد بن أرقم والبراء (رضي الله عنهما). عند ابن عدي (٢٣٤٩/٦). وانظر: نصب الراية (٤٠٥/٤).
- ١٠ - مجاهد (مرسلاً) عند البيهقي (٢٦٤/٦). وانظر: التلخيص (٩٢/٣).
- ١١ - جعفر بن محمد عن أبيه (مرسلاً) عند الدارقطني (١٥٢/٤).

والقربة أولى ممن يُدلي بسبب واحد وهو الإسلام. والذين قالوا هذا قالوا: إن المراد بأولي الأرحام من لا فرض لهم في كتاب الله وليسوا بعصبة، وهم أحد عشر حيزاً معروفة عند العلماء، وممن قال بتوريث أولي الأرحام بهذا المعنى: الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - وأحمد بن حنبل - رحمهم الله - وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار.

والذين قالوا بتوريث أولي الأرحام معروف أنهم اختلفوا في كيفية توريثهم اختلافاً متشعباً يرجع إلى أمرين^(١):

أحدهما: قول من يقال لهم: أصحاب التنزيل.

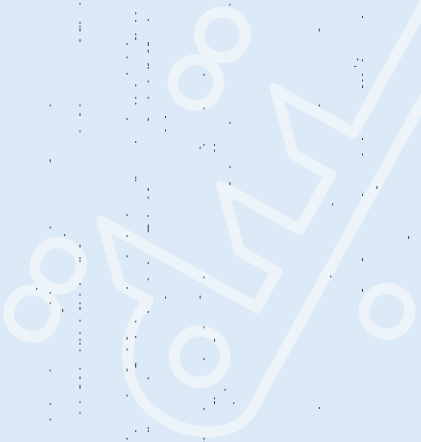
والثاني: قول من يُسمون بأصحاب القربات.

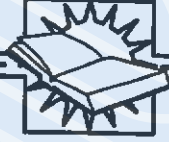
وأصحاب التنزيل: هم الذين مشى على مذهبهم أحمد بن حنبل وأصحابه. وأصحاب القربات: هم الذين مشى عليهم أبو حنيفة وأصحابه، والذين قالوا بالتنزيل قالوا: إن كل واحد من أولي الأرحام يُنزل منزلة من يدلي به، فيعطى ميراث من يدلي به، فإذا كان واحداً أخذ جميع المال، وإذا كانوا جماعة وكانوا نازلين قُربوا درجة درجة ثم نُظر جميع من يدلون به وعُرف ميراث كل واحد منهم فأعطى كل واحد منهم نصيب من يدلي به، وهذا معروف، وهو مشهور مذهب الإمام أحمد.

وأما أصحاب القربات الذين ذهب إلى مذهبهم أبو حنيفة (رحمه الله) فهم يعملون بالأقرب فالأقرب، قالوا: ما دام أبو الإنسان يوجد شيء من أولاده كأولاد بناته وأبناء بناتهم ونحو ذلك لا يُعطى شيء يُدلي بجده ويعطى بنو جد ذنبيه قبل الجد الذي فوقه وهكذا،

(١) انظر: المغني (٨٥/٩)، الأضواء (٤٢٤/٢).

ولم يزل يُعطى من يدلي بمن هو أقرب ثم من هو أقرب حتى ينتهي الأمر في ذلك. وتفصيل مذاهبهم معروفة في فروعهم - رحم الله الجميع - .





تفسير سورة التوبة

/ يقول الله (جل وعلا): ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ بُرِيءٌ مِنَ الْكُفْرِينَ ۚ﴾ (١) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَنَشِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آيَةِ ۚ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۚ﴾ [التوبة: الآيات ١ - ٤].

نزلت هذه السورة الكريمة عام تسع، رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك، وكان بعض الصحابة يقول: آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن براءة^(١).

واعلم أن الصحابة (رضي الله عنهم) لم يكتبوا في المصاحف العثمانية سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قبل هذه السورة الكريمة، مع أنهم كتبوه في كل سورة من سور القرآن غير سورة التوبة هذه، والعلماء لهم أقوال معروفة في سبب [عدم]^(٢) كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٣).

قال بعض العلماء: كانت سورة براءة طويلة قدر سورة البقرة،

(١) البخاري عن البراء (رضي الله عنه)، كتاب التفسير، باب ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...﴾ حديث رقم: (٤٦٥٤) (٣١٦/٨).

(٢) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) انظر: القرطبي (٦١/٨)، ابن كثير (٣٣١/٢)، الأضواء (٤٢٦/٢).

فنسخ الله أولها، فلما سقط أولها وكانت فيه البسمة سقطت البسمة مع المنسوخ الساقط منها.

وقال بعض العلماء: البسمة رحمة وأمان، وبراءة نزلت بالسيف والقتال ونقض العهود؛ فلذا لم تكتب فيها ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

وقال بعض العلماء: لما أرادوا كتب المصاحف العثمانية اختلفوا في براءة، فقال بعضهم: هي والأنفال سورة واحدة، وقال بعضهم: كلتا هما سورة مستقلة، فلما اختلفوا جعلوا بياضاً بين السورتين ليدل على قول من قال: إنهما سورتان، وتركوا سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ليدل على قول من قال: هما سورة واحدة، فرضي الفريقان، وقامت حجة كل منهما في المصحف الكريم.

وأظهر الأقوال هو ما روي عن عثمان بن عفان (رضي الله عنه) رواه بعض أصحاب السنن وغيرهم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: سألت عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لم عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وجعلتموها في السبع الطوال!!؟

فأجابه عثمان (رضي الله عنه) بما معناه: أن النبي ﷺ كان ينزل عليه القرآن، تنزل عليه السور والآيات ذوات العدد فيأمر بعض من يكتب له ويقول: ضعوا هذا في السورة التي يُذكر فيها كذا، وضعوا كذا في محل كذا، وكانت [«الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة» وبراءة من آخر القرآن، فكانت قصتها شبيهة بقصتها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، وظننت أنها منها..] (١) كأنهما سورة واحدة، فمن ثم واليت بينهما وجعلت

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام نقلتها من بعض روايات الحديث.

بينهما فصلاً، ولم أكتب بينهما ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١).

وهذه السورة الكريمة نزلت عام تسع [وكان النبي ﷺ قد بعث أبا بكر (رضي الله عنه) ليقم للناس الحج]^(٢) وأرسل في أثره علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على ناقته العضاء، وأمره أن يكون هو المتولي للأذان ببراءة في موسم الحج، وأن يقول للناس: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. فكان علي بن أبي طالب ذهب في أثر أبي بكر فأدركه، قال بعض العلماء: أدركه بالجحفة، فقال له: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور. وأخبره أن النبي ﷺ أرسله بصدر هذه السورة الكريمة يُنادي به في الموسم^(٣) - في موسم الحج - عام تسع من الهجرة،

(١) أخرجه أحمد (٥٧/١، ٦٩)، وأبو عبيد في فضائل القرآن (١٠٠/٢)، وفي غريب الحديث (١٤٧/٣ - ١٤٨)، (١٠٤/٤) وأبو داود في الصلاة، باب من جهر بها. رقم: (٧٧١) (٤٩٥/٢)، والترمذي في التفسير، باب ومن سورة براءة. رقم: (٣٠٨٦) (٢٧٢/٥)، وابن حبان (الإحسان ١/١٢٦)، والحاكم (٢٢١/٢، ٣٣٠)، والبيهقي في الكبرى (٤٢/٢)، والدلائل (١٥٣/٧)، وابن أبي داود في المصاحف ص ٣٩، وابن جرير (١٠٢/١)، والطحاوي في شرح المعاني (٢٠١/١ - ٢٠٢)، وفي مشكل الآثار (٣٨/١)، (١٥١/٢ - ١٥٦)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٣٩٦/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢٠٧/٣) وعزاه لابن أبي شيبة والنسائي وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه. وضعفه أحمد شاكر في تعليقه على: المسند (٣٢٩/١)، ابن جرير (١٠٢/١).

(٢) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [زيادة يتم بها الكلام.

(٣) بعث النبي ﷺ علياً (رضي الله عنه) في حجة أبي بكر (رضي الله عنه). رواه جماعة من الصحابة منهم:

١ - أبو هريرة (رضي الله عنه)، عند البخاري في الصلاة، باب ما يستر من العورة. حديث رقم: (٣٦٩) (٤٧٧/١) وأطرافه (١٦٢٢، ٣١٧٧، ٤٣٦٣، ٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧)، ومسلم (من غير ذكر علي رضي الله عنه) في الحج، باب: لا يحج البيت مشرك.. حديث رقم (١٣٤٧) (٩٨٢/٢).

٢ - أنس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة براءة. حديث رقم (٣٠٩٠) (٢٧٥/٥).

٣ - ابن عباس (رضي الله عنه)، عند الترمذي في التفسير، باب: (ومن سورة براءة)

حديث رقم (٣٠٩١) (٢٧٥/٥) وانظر: الإرواء (٣٠٣/٤).

فكان أبو بكر هو أمير الحج الذي يُقيم للناس حجهم، وكان علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يؤذن في الناس بأول هذه السورة الكريمة، بعضهم يقول: بأربعين آية منها. وبعضهم ينقص، وبعضهم يزيد، والروايات متفقة على أنه أرسله بهذه السورة الكريمة، بشيء منها يؤذن بها في المواسم.

ومضمون ما كان يؤذن به علي (رضي الله عنه) راجع إلى أربع جمل: إحداها: أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ومن كان له عهد فعهد إلى مدته.

وكان يؤذن في الناس بهذا. فعلم الكفار أنه لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ، ومن العام القابل وهو عام عشر لم يحج البيت كافر، ولم يطف بعدها عريان، فحج النبي ﷺ.

ومعنى قوله: ﴿بِرَاءةٌ﴾ البراءة مصدر كالشناة والدناة. وإعرابه (١) قال بعض العلماء: هو مبتدأ خبره محذوف، أي: هذه براءة من الله ورسوله.

وقال بعض العلماء: لا مانع من كون قوله: ﴿بِرَاءةٌ﴾ مبتدأ، وسوغ الابتداء بالنكرة لأنها وُصفت بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ كما قال (٢).

وَرَجُلٌ مِنَ الْكِرَامِ عِنْدَنَا

٤ - زيد بن أثنيع أنه سأل علياً (رضي الله عنه)... عند أحمد (٧٩/١)، والدارمي (٣٩٤/١)، والحميدي (٤٨) والترمذي في التفسير. باب (ومن سورة براءة) حديث رقم: (٣٠٩٢) (٢٧٦/٥) وانظر الإرواء (٣٠١/٤).

وأخرجه أحمد (٣/١) عن زيد بن أثنيع عن أبي بكر (رضي الله عنه).

٥ - جابر (رضي الله عنه)، عند النسائي في الحج، باب الخطبة يوم التروية. حديث رقم: (٢٩٩٣) (٢٤٧/٥).

(١) انظر: ابن جرير (٩٥/١٤)، الدر المصون (٥/٦).

(٢) هذا هو الشطر الثاني من أحد أبيات الخلاصة ص ١٧، وشطره الأول:

«وهل فتى فيكم فما خل لنا»

وأن قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ خبر المبتدأ، والوجهان من الإعراب كلاهما صحيح، والمعنى: هذه براءة من الله. أو براءة من الله واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين. ولفظة (من) في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ هي المعروفة بابتداء الغاية، أي: ابتداء هذه الغاية ومنشؤها كائن من الله. ومعنى براءة الله منهم: أنه (جلّ وعلا) برئت ذمته من عهودهم فلا يلتزم لهم عهداً ولا ذمة؛ لأنهم نقضوا العهود أو كادوا.

واعلم أن النبي ﷺ لما غزا غزوة تبوك كان المنافقون يرجفون أراجيف كثيرة، فسمع بها الكفار فأرادوا نقض العهود وتغيروا؛ لأن النبي ﷺ كانت بينه وبين بعض القبائل عهود ومواثيق، مصالحات ومهادنات، فلما سمع الكفار بأراجيف المنافقين نقض بعضهم، وبعضهم خيف منه النقض، فأنزل الله براءته من جميع الكفار إلا ما سيأتي استثناءؤه إن شاء الله.

واعلم أن الكفار أقسام^(١): منهم من كان له عهد مؤجل بأجل، وهؤلاء قسمان: من عهده أقل من أربعة أشهر، ومن عهده أكثر من أربعة أشهر، ومنهم من لا عهد له أصلاً، ومن له عهد مطلق لم يقيد بزمن معين، فهذه فرق الكفار، وهذه الآية تضمنت نقض العهود في هذه كلها إلا في صورة واحدة على التحقيق.

أما من كان له عهد إلى مدة أقل من أربعة أشهر فالتحقيق عند جمهور العلماء أنه يرفع عهده إلى أربعة أشهر ثم بعد الأربعة أشهر هو حرب لله ولرسوله، ومن كان له عهد مطلق فله أربعة أشهر يسبح فيها ويذهب في الأرض مقبلاً ومدبراً آمناً، ثم بعد انتهاء تلك الأربعة الأشهر هو حرب لله ولرسوله.

ومن لم يكن عنده عهد أصلاً فقال بعض العلماء: له هذه الأربعة الأشهر. وهذا أظهر القولين، بناء على أن قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ [التوبة: آية ٥] أنها أشهر الإمهال هذه الأربعة، لا الأشهر الحرم الأربعة.

(١) انظر: ابن جرير (٩٦/١٤)، القرطبي (٦٤/٨)، الأضواء (٤٢٨/٢).

وقال بعض العلماء: هي الأشهر الحرم الأربعة، وعلى ذلك لم يبق من عهده إلا خمسون يوماً، عشرون من ذي الحجة، والشهر الذي بعده الذي هو المحرم، فتتقضي عهودهم على خمسين يوماً على هذا القول.

فقوله: ﴿بِرَاءةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذه البراءة كائنة من الله ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ يعني النبي وأصحابه. وإنما خاطبهم جميعاً وإن كان النبي ﷺ هو الذي يتولى عقد العهود لأنهم أتباعه وأعدوانه، وهم معه في كل شيء من حَلِّ وعقد، فكل حَلِّ وعقد فعله النبي ﷺ فهم أصحابه وأعدوانه وأتباعه، فهم معه فيه؛ ولذا قال: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الكفار الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله (جل وعلا).

والتحقيق: أن هذه ما نزلت إلا في غزوة تبوك، وما زعمه ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما من أن صدر هذه السورة نزل قبل عام الفتح، بعد نقض قريش وبني بكر لمعاهدة صلح الحديبية؛ فهو خلاف الظاهر، مع أنه قال به ابن إسحاق ومقاتل وغيرهما^(١). قالوا: كان أول هذه السورة نزل قبل هذا؛ لأن النبي ﷺ لما عقد صلح الحديبية بينه وبين كفار قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) كان خزاعة دخلوا في حلف النبي ﷺ، ودخلت بنو بكر في حلف قريش، وكان ذلك الصلح دخلت فيه قبائل من بني كنانة منهم بنو الدليل ابن بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو مدلج بن بكر بن كنانة، وبنو ضمرة بن بكر بن كنانة، فهي أربع قبائل من كنانة دخلوا في ذلك الصلح مع النبي ﷺ، وكان قبل ذلك بين كنانة وخزاعة دم، وكان الدم في خصوص بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة من قبائل كنانة، فانتهزوا الفرصة وعدوا على خزاعة، وأعانهم قريش على خزاعة الإعانة المشهورة التي هي سبب غزوة الفتح؛ لأن بني الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة لما عدوا على خزاعة ونقضوا عهد

(١) انظر: القرطبي (٦٤/٨ - ٦٥).

النبي ﷺ وصلحه الذي أبرمه معهم في الحديبية، وأعانتهم قريش على ذلك بالسلاح، بل بعض رجال قريش دخل معهم في قتالهم، كما قاله بعض العلماء، وأرسل خزاعة عمرو بن سالم (رضي الله عنه) إلى النبي ﷺ بالمدينة يستنصره، وجاءه هنا في المدينة - حرسها الله - وأنشده رجزه المشهور^(١):

يا رَبِّ إني ناشدُ محمداً
كنتَ لنا أباً وكنّا ولدأ^(٢)
إن قريشاً أخلفوك الموعداً
وزعموا أن لست تنجي أحداً
فادعُ عبادَ الله يأتوا مدداً
أبيض مثل الشمس يجري صعداً
إن سيمَ خسفاً وجهه تربداً
وقتلونا رگعاً وشجداً
جَلَفَ أبينا وأبيه الأتِلداً
ثُمَّتْ أسلمنا ولم ننزعْ يدا
ونقضُوا ميثاقَكَ المؤكدا
وهم أذلُّ وأقلُّ عددا
فيهم رسولُ الله قد تَجَرَّدا
في فيلَقِ كالبحرِ يجري مُزبدا
هم بيئُونا بالوتيرِ هُجدا
فانصر هداك الله نصرأ أيّدا
فقال ﷺ: «لا نُصرت إن لم أنصركم»^(٣).

وكان ذلك سبب غزوة [الفتح]^(٤). هكذا قالوا إن هذا هو الذي جاءت فيه هذه الآيات، وأن قريشاً وبنو الدليل من بني بكر بن كنانة نقضوا وبقيت قبائل كنانة الآخرين، وهم: بنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة، وبنو مدلج، وبنو ضمرة لم ينقضوا العهد كما سيأتي في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: آية ٧] هكذا قالوا أنها نزلت قبل غزوة الفتح.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال، ووقع فيها هنا تقديم وتأخير كما وقع في الموضع السابق. وقد أثبتنا نص الآيات هناك في الهامش فليراجع. وانظر: القرطبي (٦٥/٨).

(٢) في ابن هشام (١٢٣٥): «قد كتتم وُلداً وكننا والداً».

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٤) في الأصل: «بدر» وهو سبق لسان.

والتحقيق أنها ما نزلت إلا بعد غزوة تبوك، وأرسل النبي بها أبا بكر (رضي الله عنه) ينادي في الناس بها، ثم أتبعه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه).

ومعنى الآية الكريمة: هذه براءة من الله، أو براءة من الله إلى الذين عاهدتم من المشركين جميعاً. يعني: من كان له منهم عهد أقل من أربعة أشهر، ومن لا عهد له أصلاً، ومن كان له عهد مطلق، ومن له عهد مؤقت إلا أنه خيف منه أن ينقض؛ لأن المعاهد من المشركين إذا خيف منه النقض وظهرت منه علامات ذلك وبوادره وجب إعلامه بنبد العهد إليه ونقض عهده، كما قدمناه في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانِذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: آية ٥٨] فعرفنا أن قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] صادق بمن لهم عهد غير مؤقت، وعهد مؤقت بأقل من أربعة أشهر، وعهد مؤقت بأكثر منها إن خيفت منهم الخيانة، بقي قسم واحد هو الآتي استثنائه مرتين وهو من كان له عهد مؤقت معين محدد بوقت معين أكثر من أربعة أشهر، وهو ثابت على عهده لم ينقض ولم يُخف منه نقض لشبوته على عهده، فهؤلاء باقون على عهدهم على التحقيق الذي لا شك فيه. وما قاله بعض العلماء من نقض عهودهم جميعاً؛ خلاف التحقيق؛ لأن الله يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا سَيْتًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ويقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَيْبِنُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] كما سيأتي إيضاحه؛ لأن المراد بالذين عاهدوه عند المسجد الحرام عند الحديبية وأطلق عليها: «المسجد الحرام» قال بعض العلماء: لأن بعضها الذي وقعت فيه المعاهدة كان من الحرم، والمسجد يطلق غالباً على جميع الحرم، وسيأتي هناك - إن شاء الله - أن هؤلاء الذين عاهدوا دخل فيهم قبائل من كنانة مع قريش، وأن الذي غدر: بنو الدليل من كنانة فقط وقريش، وبقية قبائل كنانة الأخرى

ثابتة على عهدهما. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١].

ثم هنا التفات من الغيبة إلى الخطاب، أي فقولوا للذين عاهدتكم من المشركين: سيحوا في الأرض أربعة أشهر (سيحوا في الأرض) معناه: اذهبوا في أرض الله مقبلين ومدبرين حيث ما أردتم، وأين أحببتم أن تتوجهوا، آمنين لا خوف عليكم، لا ينالكم منا سوء؛ لأنها أشهر أمان وإمهال لا ينالكم منا فيها سوء.

والحكمة في أن الله (جل وعلا) أجلهم هذه الأشهر الأربعة ليروا رأيهم، ويتأملوا في شأنهم لعل الله أن يهديهم إلى صوابهم. وهذا معنى قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: اذهبوا في جوانب أرض الله مقبلين ومدبرين آمنين، لا خوف عليكم في مدة هذه الأشهر الأربعة.

ثم قال: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أي: أيقنوا علماً يقيناً لا يتطرق إليه الشك ﴿أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ ﴿مُعْجِزِي﴾ أصله: معجزين بالنون، فحذفت النون للإضافة. والمعجزون جمع المعجز، وهو اسم فاعل (أعجزه) العرب تقول: «أعجزه يُعجزه» إذا صار غير قادر عليه. أنكم لا تفوتونه ولا تتعدرون عليه، بل أنتم في قبضته وتحت سلطانه وقهره، هو قادر عليكم واعلموا أيضاً ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ ﴿جَلَّ وَعَلَا﴾ ﴿مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢] المخزي: اسم فاعل أخزي، ومعنى إخزائه للكافرين: أنه مذلهم ومهينهم، يذلهم في الدنيا بالقتل والأسر، ويهينهم بذلك وفي الآخرة بعذاب الله، كما سيأتي في قوله: ﴿قَتَلْتَهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ صُودْرًا قَوِّمٌ مَّؤْمِنِينَ﴾ ﴿لَا﴾ الآية [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢].

ثم قال تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ جملة معطوفة على جملة؛ لأن جملة: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ [التوبة: آية ٣] معطوفة على قوله: ﴿بِرَأْيِهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: آية ١] ويجوز في قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ من الإعراب الوجهان الجائزان في

(براءة)^(١) يجوز أن يكون (أذان) خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا أذان من الله. ويجوز أن يكون (أذان) مبتدأ سوغ الابتداء فيه بالنكرة كونها وُصفت بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

والأذان معناه: الإعلام، وهو اسم مصدر (أذن) (يؤذن) (أذانا)، (وأذن) (يؤذن) (أذانا) والعرب ربما جعلت (الْفَعَال) قائماً مقام «التفعيل»؛ لأن العرب تقول: أذنته أعلمته، وأذنت أعلمت. ومعروف في علم التصريف أن (فعل) بالتضعيف ينقاس مصدرها على (التفعيل)، ولكنه يُسمع كثيراً إثبات المصدر منها على (الْفَعَال) كما قالوا: سلم عليه سلاماً، أي: تسليماً. وكلّمه كلاماً، أي: تكلّماً. وطلّقها طلاقاً، وبيّنه بياناً. إلى غير ذلك من الأوزان. وكذلك ربما جاء (الْفَعَال) في موضع (الإفعال) كقول العرب: آمنته أوّمته إيماناً. إذا جعلته في أمان. فإنهم يقولون: آمنه أماناً، وأذنه أذانا، أي: أعلمه إعلاماً. والأذان في لغة العرب: الإعلام. قال بعض العلماء: هو الإعلام المقترن ببناء؛ لأن اشتقاقه من الأذن؛ لأن النداء يقع في الأذن فيحصل بذلك الفهم والإعلام، ومنه الأذان للصلاة؛ لأنه إعلام بها ببناء. وكون الأذان بمعنى الإعلام معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الحارث بن حلزة^(٢):

أَذَنْتَنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبُّ نَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الشَّوَاءُ
يعني أعلمتنا بينها.

﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ هذا الأذان كائن مبدؤه من الله ورسوله ﴿إِلَى﴾ جميع ﴿النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] أصل الحج في لغة العرب جرى على السنة العلماء أنهم يقولون: الحج في اللغة القصد^(٣). والحج في لغة

(١) انظر: الدر المصون (٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القاموس (مادة: الحج) ٢٣٤، المفردات (مادة: حج) ٢١٨، المصباح المنير (مادة: حج) ص ٤٧.

العرب أخص من مطلق القصد؛ لأن الحج في اللغة لا يكاد تطلقه العرب إلا على قصد متكرر لأهمية في المقصود. فكل حج قصد، وليس كل قصد حجاً؛ لأن الحج هو القصد المتكرر لأجل الأهمية الكائنة في المقصود. وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول المخبّل السعدي حيث قال^(١):

أَلَمْ تَعَلَّمِي يَا أُمَّ أَسْعَدٍ أَنَّمَا تَخَطَّانِي رَبُّ الْمَنُونِ لِأَكْبَرَا
وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفِ حُلُولًا كَثِيرَةً يَحْجُونَ سَبَّ الزُّبَيْرِ قَانَ الْمُزَعَفَرَا

«سبّه» يعني به عمامته، أي: يقصدون عمامته - عبر بها عن شخصه - قصداً كثيراً متكرراً لأهمية ما يروونه عنده من النوال هذا أصل الحج.

ومعروف أن الحج في اصطلاح الشرع^(٢): هو الأفعال والأقوال التي تقال في المنسك المعروف.

قال بعض العلماء: وإنما قال له الأكبر؛ لأن العرب ربما كانوا يقولون: حج أصغر، وحج أكبر، يعنون بالأصغر: العمرة لنقصان أعمالها عن أعمال الحج^(٣).

واختلف العلماء في يوم الحج الأكبر^(٤) فذهبت جماعة من العلماء إلى

(١) البيتان في المشوف المعلم (٢٣١/١)، ولفظ البيت الأول فيه:

ألم تعلمي يا أم عمرة أنني تخطاني ريب الزمان لأكبيرا

(٢) انظر: القاموس الفقهي ص (٧٦ - ٧٧).

(٣) انظر: التمهيد (١٢٥/١)، ابن جرير (١٢٩/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٤٧/٦)، والبيهقي

(٢٦٨/٢)، وابن عطية (١٢٨/٨)، والمجموع (٢٢٣/٨)، وابن كثير (٣٣٢/٢)، والدر

المنثور (٢١١/٣)، حصول الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص ١٢٢.

(٤) انظر: سنن سعيد بن منصور (٢٣٦/٥ - ٢٤١)، التمهيد (١٢٥/١)، ابن جرير

(١١٣/١٤)، القرطبي (٦٩/٨)، المجموع (٢٢٣/٨)، تفسير البيهقي (٢٦٨/٢)، تفسير

ابن عطية (١٢٧/٨)، تهذيب السنن لابن القيم (٤٠٦/٢)، زاد المعاد (٥٤/١)، تفسير

ابن كثير (٣٣٢/٢ - ٣٣٥)، فتح الباري (٣٢١/٨)، الدر المنثور (٢١١/٣)، حصول

الأجر في أحكام وفضل العمل في أيام العشر ص ١١٦.

أن المراد به يوم عرفة. وعليه فمبدأ النداء بالأربعة الأشهر كائن ابتداء تأجيله من يوم عرفة. وقالت جماعة آخرون: هو يوم النحر. وخلاف العلماء في يوم الحج الأكبر هل هو يوم عرفة أو يوم النحر مشهور معروف، وكان بعض المحققين يختار أنه يوم النحر لأمر، منها: أنه جاءت بذلك روايات صحيحة، كرواية أبي هريرة في صحيح البخاري^(١). وقالوا: ولأن أكثر أفعال الحج إنما تكون يوم النحر؛ لأنه هو اليوم الذي يطاف فيه طواف الإفاضة، وينحر فيه، ويحلق فيه، ويقضى فيه التفتت، وأن يوم عرفة لا يختص بشيء خاص من مناسك الحج؛ لأن الوقوف وإن كان ركناً من أركان الحج فنفس اليوم لا يختص به عن الليلة لإجماع العلماء على أن من وقف بعرفة ليلة النحر أن ذلك يجزئه، بعضهم يقول: يلزمه دم لفوات النهار، وبعضهم يقول: حجه كامل - كمالك وأصحابه - ولا دم عليه. وقولهم: «الحج عرفة»، قالوا: لا يرد على هذا؛ لأن عرفة شامل لليل والنهار، فالوقوف الذي هو الركن الأعظم في الحج يكون في الليل، ولا يشترط أن يكون في النهار، والكلام في خصوص اليوم.

وقال بعض العلماء: يوم الحج الأكبر هو جميع أيام الحج؛ لأن العرب تقول: يوم صفين، ويوم الجمل، ويوم بُعَاث، وهو زمن يتناول أياماً معدودة متعددة، وأنه يشمل الجميع. وهذا أيضاً لا بأس به.

وجمهور العلماء على أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة هي من يوم النحر، وأن انقضاءها في العاشر من ربيع الثاني؛ لأن هذه الأشهر الأربعة عشرون منها من ذي الحجة من يوم الحج الأكبر، ثم منها المحرم كاملاً، وصفر كاملاً، وربيع الأول كاملاً، وعشر من ربيع الثاني، فتتم هنالك الأشهر الأربعة، وعلى هذا جماهير العلماء.

وقد اشتهر قول هنا عن الزهري لا شك في غلطه، وإن كان قائله جليلاً؛ لأنهم ذكروا عن الزهري (رحمه الله) أن أول هذه الأشهر الأربع أنه من ابتداء

(١) ولفظه: «بعثني أبو بكر في تلك الحجة في مؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى...» البخاري في التفسير، باب «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلَّمُوا...» حديث رقم: (٤٦٥٥) (٣١٧/٨).

شوال، وأنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وتنتهي بانتهاء المحرم^(١). وهذا لا يتمشى مع أن ابتداء الأذان صرح الله بأنه يوم الحج الأكبر. فالتحقيق هو ما قاله الجمهور لا ما قاله الزهري (رحمه الله)، إن صح عنه فهو غلط منه. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ عامة ﴿يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ هذا الإعلام هو إعلام بأن الله بريء من المشركين، ورسوله بريء منهم أيضاً، فالله بريء من المشركين بريء من ذمتهم وعهدهم، لا عهد لهم عليه يأمر به، ولم يلتزم لهم بشيء، وكذلك رسوله ﷺ.

ثم قال لهم: ﴿فَإِن تَبُتُّمْ﴾ عن ذنوبكم وكفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وصيغة التفضيل هنا ليست على بابها؛ لأن الكفر بالله لا خير فيه أصلاً، فلا معنى للتفضيل فيه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: تبتتم على كفركم وما أنتم عليه من الشرك.

﴿فَاعْلَمُوا أَنكُم عِزُّ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ فسرناه الآن.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اعلم أن التحقيق أن (البشارة) في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، والإخبار بما يسوء أيضاً. فمن أخبرته بما يسره فقد بشرته، ومن أخبرته بما يسوؤه فقد بشرته^(٢)؛ ولذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] والقرآن في غاية الفصاحة والإعجاز، وإطلاق البشارة على الإخبار بما يسر معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(٣):

أبشرتني يا سعدُ أن أحبتي جفوني وقالوا الوُدُ موعده الحشرُ
وقول الثاني^(٤):

(١) أخرجه ابن جرير (١٠١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٤٧/٦)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٤١٢/٢)، وذكره السيوطي في الدر (٢١١/٣) وعزاه لعبدالرزاق وابن أبي حاتم.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

يُبَسِّرُنِي الْغُرَابُ بَيْنَ أَهْلِي فَقُلْتُ لَهُ تُكَلِّتُكَ مِنْ بَشِيرٍ

هذا هو التحقيق أنها أساليب عربية، وأن البشارة تغلب للإخبار بما يسر، وأنها تطلق على الإخبار بما يسوء، هذا هو الظاهر، ومعلوم أن علماء البلاغة يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وأما البشارة بما يسوء فهي مما يسمونه الاستعارة (العنادية) المعروفة عندهم، وهي منقسمة إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف مقرر في علم البيان عند أهله^(١).

ونحن نقول دائماً: إن مثل هذا أساليب عربية نطقت بها العرب، وكلها أسلوب عربي فصيح في محله، وهذا معنى قوله: ﴿فَيَبِّتْرُهُمْ بِكَذَابٍ﴾ [آل عمران: آية ٢١] الظاهر أن تنكير العذاب هنا للتفخيم والتعظيم، ومن المعاني التي يستجلب لها التنكير: التفخيم والتعظيم، ويدل على هذا قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾ والأليم: (فَعِيل) بمعنى (مُفْعِل) أي: مؤلم. واعلم أن إتيان (الفعيل) بمعنى (المُفْعِل) واقع في القرآن وفي كلام العرب، فما ذكروا عن الأصمعي أن (الفعيل) لا يكون في اللغة بمعنى (المُفْعِل) فهو خلاف التحقيق^(٢). فمعنى أليم: مؤلم، أي: شديد الألم، وإتيان (الفعيل) بمعنى: (المُفْعِل) أسلوب عربي معروف يكثر في كتاب الله وفي لغة العرب، ومن إتيانه في القرآن قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: آية ٤٦] وقوله: ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: منذر فهو (فعيل) بمعنى (مُفْعِل) ﴿أَلِيمٌ﴾. بمعنى مؤلم. وقوله: ضرب وجيع. بمعنى: موجه، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وله أمثلة في القرآن كقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: آية ١١٧] أي: مبدعهما ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: منذر، ومن نظائره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة ذي الرمة^(٣):

ويرفع من صدر شَمَزْدَلَاتٍ يَصُكُّ وجوهها وهَجَّ أَلِيمٍ

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي (رضي الله عنه)^(١):

أَمِنَ رِيحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤرِّقُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ
فقوله: «السميع» يعني: المسمع. وقوله في قصيدته هذه^(٢):

وخيلٍ قد دلفتُ لها بخيلٍ تحيةً بينهم ضربٌ وجيع
أي: ضرب موجه. وهذا معنى قوله: ﴿وَنَشَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَدَابِ
الْبَئْرِ﴾ [التوبة: آية ٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا
وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَاهِدُهُمْ إِلَىٰ مَدِينِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
[التوبة: آية ٤].

قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء من قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: الآيتان ١، ٢]
هذه البراءة والتأجيل بخصوص أربعة أشهر لجميع الكفار المعاهدين وغيرهم
﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ [التوبة: آية ٤] ثم وفوا لكم بالعهود ولم ينقصوكم
شيئاً، وكان بعض العلماء يقولون^(٣): هؤلاء أهل مكة، ومعلوم أن أهل مكة
نقضوا. والتحقيق أنها في قبائل من كنانة بقوا على عهدهم ولم ينكثوا فأمر
النبي ﷺ بأن يفي لهم بعهدهم حتى تنتهي مدتهم، ومعلوم أن صلح
الحديبية قد عاهد النبي فيه قبائل من كنانة، ذكرنا أن منهم بني الدليل بن
بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبني ضمرة، وبني مدلج، وبني جذيمة بن
عامر، وقد قدمنا في تفسير سورة النساء في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِن
تَوَلَّوْا فخذوهم وأقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تخذلوا منهم ولينا ولا نصيراً﴾ ﴿٨٩﴾
﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: الآيتان ٨٩، ٩٠] إن
هؤلاء القوم الذين بينكم وبينهم ميثاق الذين شرطوا أن من وصل إليهم

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٣).

فحكّمه كحكمهم، منهم هلال بن عويمر الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم حيث عقد العهد لبني مدلج مع النبي ﷺ، وبنو جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة، فهؤلاء القبائل كانت أربع قبائل من كنانة، وكان غيرهم عقد ذلك، كبني أسلم عقد لهم الصلح هلال بن عويمر الأسلمي، فهؤلاء لم ينقضوا.

وجرى على السنة علماء التفسير^(١) أنه في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] وفي الآية الآتية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٧] يقولون: هؤلاء الذين ثبتوا وأمر النبي أن يفي لهم بعهدهم حتى تنقضي مدتهم هم خصوص بني ضمرة من قبائل بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومنهم عمرو بن أمية الضمري المشهور. والتحقيق أن قبائل كنانة لم يُعرف أنه نقض منهم العهد إلا بنو الدليل هم وقريش، أما قبائلهم الأخرى كبني جذيمة بن عامر وبني مدلج وبني ضمرة فلا يعلم أنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ وإن جرى على السنة العلماء أنها في خصوص بني ضمرة دون غيرهم من قبائل كنانة، ومعنى الآية الكريمة: هذا الحكم الذي ذكرنا من نقض العهود وتأجيلهم أربعة أشهر فقط، كل هذا في جميع المعاهدين ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ ﴿لَمْ يَنْقُصُوكُمْ﴾ من الشروط التي اشترطتم عليهم شيئاً، ولم يخيسوا بشيء من عهدكم، ولم ينقصوكم مالاً ولا نفساً ولا دماً، بل ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوا، ولم يظاهروا عليكم أحداً، ولم يعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الدليل بن بكر على خزاعة ﴿فَأَتَوْا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ﴾ ولا تعدوا عليهم حتى ينتهي عهدهم كاملاً إلى مدتهم التي اتفقتم أنتم وهم عليها أنها مدة الصلح والمهادنة بينكم حتى تنقضي.

(١) انظر: القرطبي (٧١/٨).

قال بعض العلماء: كان وقت نزول هذه البراءة بقي من عهد هؤلاء تسعة أشهر فأمر النبي ﷺ أن يفي لهم بها^(١). وهذا معنى قوله: ﴿فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٤] ومن المتقين الذين يوفون بعهدهم ولا ينقضونه، فدلّت الآية على أن الوفاء بالعهود وعدم النكث والنقض أنه من تقوى الله (جل وعلا) وهو كذلك.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٢) أن المتقين جمع تصحيح للمتقي، وأن أصل هذه المادة من (وقى)، ففاء هذه المادة واو، وعينها قاف، ولامها ياء. مادة التقوى فاؤها واو، وعينها قاف، ولامها ياء، فهي مما يسميه الصرفيون «اللفيف المفروق» هذا أصلها، إلا أنها دخلها تاء الافتعال كما تقول في قرب: اقترب، وفي كسب: اكتسب، وفي قطع: اقتطع، وفي «وقى» اوتقى.

والقاعدة المقررة في التصريف: أن كل فعل (مثال) - أعني معتل الفاء بالواو - إذا دخله تاء الافتعال وجب إبدال الواو تاء، وإدغام التاء في التاء، فقول فيها: «اتقى». هكذا^(٣).

وأصل الاتقاء في لغة العرب^(٤): هو أن تتخذ وقاية تكون بينك وبين ما تكرهه فتقيه منه. تقول العرب: اتقيت الرمضاء بنعلي، واتقيت السيف بمجني، ومنه قول نابغة ذبيان^(٥):

سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَّاوَلْتُهُ وَأَتَقْنَا بِالْيَدِ

أي: جعلت يدها وقاية بيننا وبين وجهها. وتفسير من قال: اتقنا: استقبلتنا. تفسير بالمعنى الإجمالي لا بالحقيقة. وهذا أصله معنى التقوى.

(١) انظر: البحر المحيط (٨/٥).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وهي في اصطلاح الشرع: أن يجعل العبد وقاية بينه وبين عذاب ربه، هذه الوقاية مركبة من شيئين هما: امتثال أمر الله، واجتناب نهي الله^(١)، والوفاء بالعهود من ذلك؛ لأن الوفاء بالعهود امتثال لأمر الله، وترك النقض انتهاء عما نهى الله عنه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤].

قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقِيمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٥ - ٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: آية ٥].

اختلف العلماء في المراد بهذه الأشهر الحرم^(٢): فقال بعض العلماء: المراد بها الأشهر الحرم المعروفة الآتي ذكرها في قوله في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ [التوبة: آية ٣٦] وهذه الأشهر الأربعة الحرم ثلاثة منها سرد وواحد منها فرد، فثلاثتها المتتابعة هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وآخر: رجب الفرد. هذه هي الأشهر الحرم.

وقال بعض العلماء: هذه هي المراد هنا في قوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ وعلى هذا القول فالباقي عن انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النداء بهذه الآيات من أول براءة في موسم الحج عام تسع، الباقي منها خمسون يوماً

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٢) انظر: ابن جرير (١٣٤/١٤)، القرطبي (٧٢/٨)، الأضواء (٤٣٠/٢).

فقط، وهي العشرون الباقية من ذي الحجة وتمام المحرم، فبانقضاء الخمسين تنتهي على هذا القول. / وهذا القول قاله بعض العلماء، وهو مبني على أن /ب/ تحريم الأشهر الحرم لم ينسخ، ومعلوم أن العلماء مختلفون في تحريم الأشهر الأربعة المذكورة هل هو باق إلى الآن أو نسخ^(١)؟ فكانت جماعة كثيرة من العلماء يقولون: إنه منسوخ. واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف في ذي القعدة من عام ثمان، وهذا ثابت أن النبي ﷺ بعض الزمن الذي حاصر فيه ثقيفاً في غزوة الطائف كان من ذي القعدة^(٢). قالوا: فلو لم ينسخ تحريم الأشهر الحرم لكف وانصرف عنهم بإهلال ذي القعدة. وكنا نرى هذا القول أصوب، مكثنا كثيراً من الزمن ونحن ننصر هذا القول ونقرر أنه الأصوب، ثم ظهر لنا بعد ذلك أن أصوب القولين وأولاهما بالصواب أن تحريم الأشهر الحرم باقٍ لم ينسخ. ومن أصرح الأدلة في ذلك: أنه دلت عليه الأحاديث الصحاح في حجة الوداع في آخر حياة النبي ﷺ؛ لأن قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حجة الوداع قبل موته بنحو ثمانين يوماً قوله: «إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»^(٣) نص دال على أن تحريم الأشهر الحرم

(١) انظر الناسخ والمنسوخ لأبي عبيد ص ٢٠٦، الناسخ والمنسوخ للنحاس (١/٥٣٥)، ابن جرير (٣١٣/٤)، القرطبي (٤٣/٣)، (١٣٤/٨)، ابن كثير (٣٥٥/٢).

(٢) البخاري في المغازي، باب غزوة الطائف في شوال. حديث رقم: (٤٣٢٥) (٤٤/٨). ومسلم في الجهاد والسير، باب غزوة الطائف. حديث رقم: (١٧٧٨) (١٤٠٢/٣) وليس في رواية الصحيحين ما يدل على أن بعض الحصار وقع في ذي القعدة. ولكن أشار إلى ذلك الحافظ في الفتح (٤٤/٨).

(٣) رواه عن النبي ﷺ جماعة من الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم:

١ - ابن عباس، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٣٩) (٥٧٣/٣) وطرفه (٧٠٧٩).

٢ - أبو بكر (رضي الله عنه)، عند البخاري في الحج، باب الخطبة أيام منى. حديث رقم: (١٧٤١) (٥٧٣/٣) وأطرافه (٦٧)، (١٠٥)، (٣١٩٧)، (٤٤٠٦)، (٥٥٥٠)، (٧٠٧٨)، (٧٤٤٧) ومسلم في القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال. حديث رقم: (١٦٧٩) (١٣٠٥/٣).

٣ - عبدالله بن عمرو، عند البخاري في الحدود، باب ظهر المؤمن حمى إلا في حد =

باقٍ لم ينسخ، وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

القول الثاني في هذه الآية الكريمة: أن المراد بقوله: ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أنها أشهر الإمهال الأربعة التي قدمنا بالأمس أن التحقيق أن أولها من يوم النحر من ذي الحجة عام تسع، وأنها تنقضي بالعشر من ربيع الثاني من ذلك العام، وإنما قيل لها «حُرْمٌ» لأن الله حَرَّمَ فيها قتال المشركين، وقال لهم فيها: سيحوا في الأرض أربعة أشهر، أي: آمينين مدبرين ومقبلين، قتالكم والتعرض لكم حرام. وهذا أظهر القولين هنا؛ لأن اللام في قوله: ﴿الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: آية ٥] الألف واللام فيها للعهد، والأشهر الحُرْمُ المذكورة لم تكن معهودة هنا، والمعهود هنا هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: آية ٢] وعلى هذا فانسلاخها هو ما قدمنا بعد انتهاء العشر الأول من ربيع الثاني كما لا يخفى. وقد بينا أن قول الزهري (رحمه الله) أن ابتداء أشهر الإمهال من شوال^(١) [أنه إن صح عنه فهو غلط منه. والصحيح قول الجمهور، وهو أن ابتداء تأجيل هذه الأشهر الأربعة من يوم النحر، وتنقضي في اليوم العاشر من ربيع الثاني].

وانسلاخ الأشهر: معناه انقضاء مدتها، يقول العرب: «انسلاخ الشهر، وانسلاخ العام» إذا مضى زمانه، وسلخته: إذا كنت في آخر يوم من أيامه وقد مضى علي. وهذا معروف في كلام العرب^(٢)، ومنه قول لييد في معلقته^(٣):
حَتَّى إِذَا سَلَخَا جُمَادَى سَنَةً جُزْءًا فَطَالَ صِيَامُهُ وَصِيَامُهَا

= أو حق. حديث رقم: (٦٧٨٥) (٨٥/١٢) وأطرافه (١٧٤٢، ٤٤٠٣، ٦٠٤٣، ٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٧٠٧٧) ومسلم في الإيمان، باب بيان معنى قول النبي ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً...» حديث رقم: (٦٦) (٨٢/١).

٤ - سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه. عند الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٨٧) (٢٧٣/٥). وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٢١٥٩). وقال: وفي الباب عن أبي بكره وابن عباس وجابر وحُذيم بن عمرو السعدي.

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) انظر ابن جرير (١٣٣/١٤ - ١٣٤)، القرطبي (٧٢/٨)، الدر المصون (١١/٦).

(٣) شرح القوائد المشهورات (١٤٤/١).

والأشهر: جمع شهر. و«الأفعل» جمع قلة؛ لأنها أربعة.

والحرم: جمع حرام، وهو الصفة المشبهة من حرم الشيء فهو حرام.

وإنما قيل للواحد منها «حرام» لأن الله حرم فيه القتال^(١). وهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ على القولين المذكورين ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يشركون بالله (جل وعلا)، اقتلوهم كلهم ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ (حيث): كلمة تدل على المكان، كما تدل (حين) على الزمان، وربما ضمنت معنى الشرط، ويجوز فيها لغة لا قراءة إبدال يائها واواً وتثليث ثائها^(٢).

ومعنى ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾: في أي مكان من أمكنة الأرض وجدتموهم فاقتلوهم. وقال بعض العلماء: هذا ما لم يكونوا في الحرم^(٣). وقال: عموم هذه الآية يخصه عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١]. وعلى هذا القول يكون القتال لا يجوز في الحرم إلا إذا بدؤوا بالقتال. بهذا قال جماعة من العلماء. وقال جماهير من أهل العلم: إنهم يقتلون في كل مكان، كما دل عليه عموم (حيث) هنا، وإن كانوا في الحرم. قالوا: أما آية: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فإنها كانت من مراحل تشريع القتال. وإيضاح هذا المعنى: أنه جرت العادة في كتاب الله أن الله (تبارك وتعالى) إذا أراد أن يُشرع أمراً عظيماً شاقاً تشريعه على النفوس إنما يُشرعه على سبيل التدرج لا مرة واحدة؛ لأنه حكيم عليم. وهذا أمثله كثيرة: فمنها: أنه لما أراد تحريم الخمر وكانت - قبحها الله - تصعب مفارقتها على من ألفها وتعهدها حرمها

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٣٦)، القرطبي (٨/٧٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: القرطبي (٢/٣٥١)، (٨/٧٣).

تدرجاً، ذمها أولاً فقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: آية ٢١٩] فبدأ بعييها، وأن فيها الإثم الكبير، وقال: ﴿وَأَثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ لتبتدىء نفس المؤمن تشمئز منها، ثم بعد ذلك حرّمها في أوقات الصلاة، يعني أنها حرمت عليهم في بعض الأوقات دون بعض، فحرّم عليهم شربها في الوقت التي تقرب فيه أوقات الصلاة، وكانوا إذاً لا يشربونها إلا من بعد صلاة الصبح؛ لأن من شربها بعد صلاة الصبح يصحو قبل صلاة الظهر، وكذلك بعد صلاة العشاء؛ لأن من شربها بعد صلاة العشاء يصحو عادة قبل صلاة الصبح، أما غير هذا من الأوقات فحرّم عليهم شربها، كما قال تعالى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: آية ٤٣]. ثم لما أنست نفوسهم بتحريمها في الجملة، وعييها أولاً، حرّمها تحريماً باتاً في سورة المائدة بقوله: ﴿يَجَسَّ مِن عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: آية ٩٠] وعلق الفلاح على اجتنابه، فكان هذا أسهل للتدرج الذي وقع في تحريمها.

وكذلك لما أراد تشريع الصوم - والصوم عبادة شاقّة على النفوس؛ لأن فيها منع البطون والفروج عن شهواتهما - شرّعها تدرجاً: كان أول ما بُدئ به: وجوب الصوم بثلاثة أيام من كل شهر مثلاً، ثم لما فُرض رمضان فُرض أولاً على سبيل الخيار بين الصوم وبين الإطعام كما تقدّم في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: آية ١٨٤] فلما أنست النفوس بالصوم في الجملة وتمرنّت عليه أوجب الصوم إيجاباً تاماً بقوله: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: آية ١٨٥].

وكذلك القتال - وهو محل الشاهد - لما كان عظيماً شاقاً على النفوس؛ لما فيه من تعريض المهج والأموال للتلف أذن فيه أولاً من غير أمر به في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: آية ٣٩]. أذن فيه أولاً ثم بعد ذلك أوجه في حال دون حال، فأوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم

- وهو محل الشاهد - في قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُفْتَلُوا فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] ثم لما استأنست النفوس بالقتال وتمرنت عليه أوجبه إيجاباً باتاً عاماً بقوله هنا: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

فهذه الآية الكريمة قوله: ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ هو صيغة عموم، فالألف واللام فيه تدل على العموم؛ لأن (المشركين): جمع (المشرك)، وهو اسم فاعل، والألف واللام الداخلتان على اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة - على أحد القولين - يقول علماء العربية: إنها موصولة، والموصولات من صيغ العموم كما تقرر في الأصول^(١). وعلى القول بأن هذا اللفظ قد تُناسى وصفيته فتكون الصفة غير صريحة فيؤول إلى الأسماء - أسماء الأجناس الجامدة - فيكون عموماً، فهو لفظ عام على كلا التقديرين يصدق بكل مشرك، إلا أن النبي ﷺ بين تخصيص هذا العموم بنهيه عن بعض من يتصف بالشرك، من ذلك: النساء والصبيان من الكفار فإنهم من المشركين، وقد نهى ﷺ عن قتلهم، وكذلك الرهبان في الصوامع نهى عن قتلهم، وكذلك الشيوخ الفانية نهى عن قتلهم، إلا إذا كان الشيخ الفاني يُستعان برأيه فإنه يُقتل؛ لأن رأيه عظيم على المسلمين؛ ولأجل ذلك قتل الصحابة دُريد بن الصمة يوم حنين، وكان ذا شية أعمى للاستعانة برأيه؛ لأنه وضع لهم الرأي الحكيم السديد، وخالفه مالك بن عوف النصرى كما سيأتي إيضاحه في غزوة حنين في هذه السورة الكريمة. وكذلك المُعاهدون.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء^(٢): قد لا تتناول أهل الكتاب؛ لأن آيتهم مذكورة في هذه السورة؛ لأن الله يقول: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

صَغُرُونَ ﴿١٩﴾ [التوبة: آية ٢٩] فالكتابي إذا أعطى الجزية يخرج من عموم هذه الآية.

واعلم أن بعض العلماء^(١) قالوا: إن الكتابي لا يدخل في اسم المشركين. قالوا: لأن الله غاير بينهما في آيات كثيرة كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] فعطف المشركين على أهل الكتاب، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقال: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران: آية ١٨٦]. وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ الآية [المائدة: آية ٨٢] فدلّت هذه الآية على المغايرة بين المشركين وأهل الكتاب، والتحقيق أن الكتابيين نوع من المشركين، وقد أوضح الله في هذه السورة الكريمة أن أهل الكتاب من المشركين حيث قال فيهم: ﴿اتَّخَذُوا آجْرَهُمْ وَرَهْبَهُمْ ازْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣١] فصرّح تعالى بأنهم مشركون إلا أنهم نوع خاص من المشركين، ربما أدخل في عمومهم، وربما أفرد منهم، كأنه غير داخل فيهم؛ للفوارق التي بين الكتابيين وعبدة الأصنام كما هو معروف، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥].

قال بعض العلماء: يؤخذ من عموم هذه الآية أن المسلم لو قدر على اغتيال الحربي لجاز له أن يغتاله.

وأخذ بعض العلماء من هذا قالوا: إذا لم يُقدر عليهم إلا بالقتل بالنار كالضرب بمنجنيق من بعيد ونحو ذلك، أن هذا يتناوله العموم^(٢). وبعض العلماء يقول: هذا مثله، وقد نهى ﷺ عن المثلة^(٣). وهذا معنى قوله:

(١) السابق.

(٢) انظر: السابق (٧٢/٨).

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمُجتممة.

حديث رقم: (٥٥١٦) (٦٤٣/٩) من حديث عبد الله بن يزيد (رضي الله عنه).

وأخرجه في المغازي (باب قصة عكل وعرينة) عن قتادة - بلاغاً - «بلغنا أن النبي ﷺ =

﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي مكانٍ من أمكنة الأرض وجدتموهم.

وقوله: ﴿وَخَذُوهُمْ﴾ يعني: بالأسر، فمعنى ﴿وَخَذُوهُمْ﴾: أوسروهم.

وهذه الآية الكريمة من براءة - وهي من آخر ما نزل من القرآن - تدل على أنه يجوز قتل المشركين وأخذهم بالأسر. وقال بعض العلماء: هذه الآية من سورة براءة نسخت قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَاةُ﴾ [محمد: آية ٤] فليس هناك إلا القتل^(١). وقال بعض العلماء: بل آية القتال هي التي نسخت آية براءة، فلا يقتل الأسير، إما أن يُمنَّ عليه وإما أن يُفدى^(٢).

والتحقيق: أن كل هذه الآيات محكم، وأنها لا ينسخ بعضها بعضاً؛ لأن النبي ﷺ منذ قاتل الكفار، ربما قتل الأسير، وربما فدى الأسير، وربما منَّ على الأسير، كل هذا يفعله ﷺ، فمعلوم أنه قتل بعض الأسارى يوم بدر، قتل النضر بن الحارث يوم بدر أسيراً^(٣)، وقتل عقبة بن أبي معيط يوم بدر أسيراً^(٤)، وقد دلت القصة التي ذكرناها في غزاة بدر في سورة الأنفال على أن قتله للنضر بن الحارث لم يكن عن وحي^(٥)، ولذا لما جاءه شعر أخته - أو ابنته - قتيلة بنت الحارث - أو قتيلة بنت النضر بن الحارث - لما أرسلت شعرها المشهور إلى النبي ﷺ الذي أبكاه حتى أخضل الدمع لحيته،

= بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة». وقد وصله الحافظ (رحمه الله) في الفتح (٤٥٩/٧).

وفي الباب أحاديث كثيرة رواها جماعة من الصحابة منهم: يعلى بن مرة، والمغيرة بن شعبة، وعمران بن حصين، والحكم بن عمير، وعابد بن قرط، وعلي بن أبي طالب، وأبو أيوب الأنصاري، وابن عمر، وزيد بن خالد، وأسماء بنت أبي بكر، وعمر بن الخطاب، وغيرهم (رضي الله عنهم أجمعين).

(١) (٢) انظر: القرطبي (٧٢/٨).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأنفال.

(٤) السابق.

(٥) السابق.

وقال فيه: «لو بلغني شعرها قبل أن أقتله لعفوت عنه»^(١) فدل على أنه لم يقتله بوحى من الله. وشعرها مشهورٌ قدمناه برمته في سورة الأنفال^(٢)، تقول فيه:

يا راكباً إن الأثيل مَظِنَّةٌ
أبلغ بها مَيْتاً بأن تحيةً
مني إليك وعبرةٌ مسفوحةٌ
هل يسمعنُ نضراً إن ناديمته
أحمدُ يا خيرَ ضيءِ كريمة
ما كان ضركَ لو مَنَنْتَ ورُبَّما
فالنضر أقربُ من أسزت قرابةً
ظلت سيوفُ بني أبيه تنوشه
صبراً يُقادُ إلى المنية مُتعباً

من صُبحِ خامسةٍ وأنتَ مُوقِفُ
ما إن تزال بها النجائبُ تخفِقُ
جادت بواكِفِها وأخرى تخنُقُ
أم كيف يسمعُ مَيْتٌ لا ينطقُ
في قومها والفخلُ فخلُ مُعْرِقُ
من الفتى وهو المغيظُ المُحنَقُ
وأحقُّهم إن كان عتقُ يُعتقُ
لله أرحامٌ هناك تُشَقِّقُ
رسفُ المقيّدِ وهو عانِ مُوثِقُ

فهذا يدل على أن الأمر في ذلك إلى الإمام، إن رأى المصلحة للمسلمين القتل قتل، وإن رأى أنها الفداء فدى، وإن رأى أنها المن من، وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - وأن الآيات كلها محكمة لم ينسخ بعضها بعضاً، والنبي ﷺ قد فعل كل ذلك، أطلق أبا عزة في غزاة بدر لما قال له: إنه ذو بنات. ولما أمسكه بحمراء الأسد من صبيحة أحد بعد أن اشترط عليه ألا يعين عليه المشركين وقال له: يا محمد، عفوك مرةً أخرى. فقال له: لا والله، لا تحك عارضيك بين نساء مكة وتقول: غررت محمداً مرتين!! فقتله (صلوات الله وسلامه عليه)^(٣). وهذا معنى قوله: «فَأَقْتُلُوا

(١) السابق.

(٢) السابق. وقد سقط بعد البيت الخامس بيت من القصيدة، وهو قولها:

أو كنت قابل فديةً فليُثَفَقُنْ بأعز ما يغلوبه ما يُنْفَقُ

(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٣٢٠/٦)، (٦٥/٩)، وأورده الشافعي في الأم (٢٣٨/٤)، وابن سعد في الطبقات (٣٠/٢)، والطبري في تاريخه (١٠/٣)، وابن هشام في سياقه لغزوة أحد.

الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ ﴿ [التوبة: آية ٥] بالأسر ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾ معناه: ضيقوا عليهم واحصروهم في معقلهم حتى لا يستطيعوا أن يخرجوا وينتشروا في الأرض، فضلاً عن أن يصلوا إليكم، فالمراد بالحصر هنا: حصرهم في أماكنهم وفي معقلهم، والتضييق عليهم ومنعهم من الانتشار في الأرض. هذا معنى قوله: ﴿وَأَحْضَرُوهُمْ﴾.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: المراد بالمرصد هنا: اسم مكان، وقد تقرر في فن التصريف: أن جميع المصادر الميمية، وأسماء الأمكنة، وأسماء الأزمنة إذا لم تكن يعني: من واوي الفاء كانت كلها على (مَفْعَل)، إلا اسم الزمان والمكان خاصة إذا كان من (فَعَلَ) بالفتح (يَفْعَلُ) بالكسر^(١). والمرصد هنا: القياس فيه: (المَفْعَل) وهو اسم مكان. معناه: مكان الرصد. والرصد: هو مراقبة الشيء ليتمكن منه في حالة غرته.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أي: في كل مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى يمروا عليكم فتأخذوهم، فكل شيء هو في طريق شيء مختفياً عنه لتمكنه غرته فهو رصد له. وهذا معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول عامر بن الطفيل^(٢):

ولقد علمت وما إخالك ناسياً
أنَّ المنية للفتى بالمرصد
ومن هذا قول الآخر، وهو عدي بن زيد حيث قال^(٣):

أعاذل إن الجهل من لذة الفتى
وإن المنايا للنفوس بمرصد

ومن هذا معنى قوله: ﴿يَجِدْ لَهُ سِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: آية ٩] ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَأْمُرُكَ﴾ [الفجر: آية ١٤] فمعنى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: اقعدهم لهم في جميع الطرق التي ترصدونهم فيها ليتمروا عليكم في حال غرتهم فتمكنوا منهم. والعرب تقول للإنسان الذي يختفي عند الماء لترد

(١) انظر: التوضيح والتكميل (٢/٨٣ - ٨٤).

(٢) البيت في القرطبي (٧٣/٨).

(٣) السابق.

عليه الوحش في الليل فيرميها: هذا راصد لها، ومكانه الذي هو فيه: مرصد لها، وهذا معنى معروف.

وقوله: ﴿كُلَّ مَرَصِدٍ﴾: قال بعض العلماء: هو منصوبٌ على أنه ظرف، ولما قاله الزجاج^(١) غلطه فيه أبو عليّ الفارسي^(٢) وقال: إن مثل هذا لا ينصب على الظرف؛ لأنّ الطريق مكانٌ محصور كالمسجد والبيت، فلا يكون ظرفاً، وإنما هو منصوبٌ بنزع الخافض، ويدل على أنه منصوبٌ بنزع الخافض: هو ما قدمنا في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: آية ٨٦] فعدها بالباء التي هي حرفُ الجر، ومعلومٌ عند علماء العربية أنّ النصب بنزع الخافض لا يكون على المشهور قياساً مطرداً، يُحفظ ما سُمع منه ولا يقاس عليه، خلافاً للأخفش الصغير، وهو علي بن سليمان؛ لأنه يقول: إنّ النزع بالخافض مطردٌ في كل ما أُمين فيه اللبس، وقد عقد مذهبه ابن مالك في الكافية فقال^(٣):

وابنُ سُليمانَ اطرادَه رأى إن لم يُخَفْ لَبَسٌ ك (مَنْ زَيْدًا نَأَى)

وعلى هذا فمعنى ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرَصِدٍ﴾: اقعدوا لهم في كل طريق ترقبونها وترصدونهم فيها حتى تأخذوهم في غرتهم، وعلى هذا فهو منصوبٌ بنزع الخافض. ونظيره من كلام العرب - في نصب الطريق، المرصد: هو الطريق، في نصبه وتقدير حرف الجر الذي هو منصوبٌ بنزعه - قول ساعدة بن جؤيئة الهذلي في بيته المشهور الذي هو من شواهد سيبويه في كتابه^(٤):

لَدُنْ بِهِزُ الْكَفِّ يَغْسِلُ مَثْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الثَّعْلَبُ

يعني: كما عسل - أي: جرى العسلان - الثعلب في الطريق.

(١) معاني القرآن (٤٣١/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (١١/٦).

(٣) شرح الكافية (٦٣٣/٢).

(٤) الكتاب (٣٦/١، ٢١٤).

وقال بعضُ العلماء: اختار بعض المتأخرين أنه ظرف، وإن كان محصوراً^(١)، وبذلك أعرب قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: آية ١٦] وهذا معنى: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾: اقتلوهم أولاً، وأسروهم، وحاصروهم في معقلهم وأماكنهم، وخذوا عليهم الطرق، وارصدوا لهم فيها لتأخذوهم.

وهذه أوامرٌ من الله بأنه يُبذل في التضييق على المشركين وقتلهم وأخذهم كل غاية المجهود. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾.

﴿فَإِن تَابُوا﴾ من كفرهم ورجعوا عن شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أقاموا صلاة المسلمين ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ وهي الحقوق الواجبة عليهم في الأموال، فالصلاة والزكاة معروفتان، وإقامة الصلاة: هي الإتيان بها على وجهها الأكمل من مراعاة أركانها، وشروطها، وسننها، وصلاتها في الجماعات، وأوقاتها، إلى غير ذلك. وإقامة الزكاة: هي إعطاء الواجب من الأنصباء التي بينها النبي ﷺ. إذا فعلوا هذا كله، بأن تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ السبيل^(٢) في اللغة: الطريق. والتخيلية: معناه الترك. فمعنى ﴿فَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾ اتركوا طريقهم لا تقعدوا عليها، والعرب تقول: خَلَّ سبيل فلان. أي: اترك له الطريق، ولا تقعد له في طريقه، ولا تتعرض له. فإذا خَلَّيت له طريقه يمر ويذهب بها كيف شاء، معناه: أنك لم تتعرض له، وهذا معروف في كلام العرب كثيرٌ مبتذل، يقولون: خَلَّ سبيله، أي: اتركه ولا تتعرض له؛ لأن سبيله: طريقه الذي يمشي بها، فإذا لم تقعد له فيها ولم تتعرض له فقد تركته يذهب ويقبل ويدبر من غير أن تتعرض له، وهو المعروف، ومن هذا المعنى قول ربيعة بن مكرم في رجزه المشهور في قصته مع دريد بن الصمة وأصحابه^(٣):

(١) انظر: البحر (١٠/٥)، الدر المصون (١٢/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) هذا الرجز في الأمالي (٢٧١/٢).

خَلَّ سَبِيلَ الْحَرَّةِ الْمَنِيعَةِ إِنَّكَ لَاقٍ دُونَهَا رَبِيعَهُ
فِي كَفِّهِ خَطِيئَةٌ مَطِيئَةٌ أَوْ لَا فَخِذَهَا طَعْنَةٌ سَرِيعَهُ
وَالطَّعْنُ مَنِيٌّ فِي الْوَرَى شَرِيعَةٌ

معنى: «خَلَّ سَبِيلَهَا» لا تتعرض لها واترك طريقها تذهب فيها وتتوجه كيف شئت. ومن هذا المعنى قول كعب بن زهير^(١):

فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لَا أَبَا لَكُمْ فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
وقوله: (خَلَّ سَبِيلَهَا) من كنايات الطلاق المعروفة عند الفقهاء في المذاهب. هذا معروف في كلام العرب، فكلُّ من تركته، وتركت له طريقه يذهب معها ويمر مقبلاً ومدبراً حيث شاء، فقد خليت سبيله، أي: تركته ولم تتعرض له، ومن هذا قول جرير يهجو عمر بن لحيء التيمي^(٢):

خَلَّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ وَابْرَزَ بِبِرْزَةٍ حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدْرُ
قَدْ خَفْتُ يَا ابْنَ الْتِي مَاتَتْ مَنَافِقَةٌ مِنْ خَيْبِ بَرْزَةٍ أَنْ لَا يَنْزِلَ الْمَطَرُ
وهذا معنى: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾.

وهذه الآية وأمثالها في القرآن هي التي تمسك بها الصديق أبو بكر (رضي الله عنه) في قتال أهل الردة، لما منعوا الزكاة، فإنَّ الصحابة أولاً قالوا: كيف نقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله؟! ومن مثل هذه الآية استدلَّ أبو بكر (رضي الله عنه) لأنَّ الله قال: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد ثلاثة شروط، وهي: توبتهم من الشرك، وإقامتهم الصلاة، وإيتاؤهم الزكاة. وقد تقرر في علم الأصول، أنَّ الشرط المشروط بشروط متعدِّدة لا يحصل المشروط إلا بجمعها. فلو قلت لعبدك: إن صام زيد،

(١) شرح قصيدة بانث سعاد للتبريزي ص(٣١).

(٢) البيتان في ديوانه ص(٢١١)، شواهد الكشاف ص(٤٧) وبين البيتين سبعة عشر بيتاً. ولفظ الشطر الأول من البيت الأول:

(خَلَّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ...)

وصلى، وقام وقعد فأعطه ديناراً، فإنه لا يستحق الدينار إلا إذا فعل جميع الشروط كلها، ولذا تخلية سبيلهم مشروطةً بهذه الشروط كلها؛ لأن ما عُلق على شرطين أو شروط لا يتحصل إلا بجميع تلك الشروط، كما هو مقرر في الأصول. وأخت هذه الآية آية قريباً في قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: آية ١١] مفهومه: أنهم إن لم يتوبوا، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة فلا تخلوا سبيلهم، وليسوا إخوانكم في الدين، أي: وهو كذلك.

وهذه الآية الكريمة قال بعض العلماء: يؤخذ منها أن من قال: «تُبْتُ» فقط لا يجزىء بذلك حتى يفعل أفعالاً تدل على صحة ما يقول؛ لأن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة براهين وأدلة على صدقه في توبته التي قال. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٥] كثير المغفرة والرحمة، ومن رحمته ومغفرته الكثيرة توبته ورحمته للذين تابوا من شركهم، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، فهو كثير المغفرة والرحمة، يرحم هؤلاء ويغفر لهم؛ لأن من تاب تاب الله عليه ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨].

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُومًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٦] [التوبة: آية ٦].

(إن) هي الشرطية. وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾: يقول علماء العربية: إنه مرفوعٌ بفعل محذوف يفسره ما بعده. أي: وإن استجارك أحد من المشركين؛ لأن ﴿إِنْ﴾ أداة شرط لا تتولى إلا الجمل الفعلية، فلا تتولى الجمل الاسمية؛ ولذا يقدر فعل بعدها. فـ ﴿أَحَدٌ﴾ عند علماء العربية فاعلٌ فعلٍ محذوف يفسره ما بعده^(١).

والأحد معناه: الواحد، وأصل همزته مبدلة من واو، أصل الأحد: (وَحَد) بواو؛ لأن هذه المادة أصلها واوية الفاء، وكثيراً ما تقول العرب في

(١) انظر: القرطبي (٧٧/٨).

الْوَحْدِ: الأحد، وربما نطقت بلفظ الْوَحْدِ على أصله^(١). ومن ذلك قول نابغة ذبيان^(٢):

كَأَن رَحَلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا بَدِي الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنَسٍ وَحِدِ
وقوله: ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ قد قَدَّمْنَا أَنَّ السَّيْنَ والتَّاءَ لِلطَّلَبِ فَمَنْ مَعَانِي (استفعل) أَنَّ السَّيْنَ والتَّاءَ لِلطَّلَبِ، كقولهم: «استغفر ربه» أي: طلبه المغفرة. و«استطعم» طلب الطعام، و«استسقى» طلب السقيا، و«استنجد» طلب النجدة. وهكذا. فقوله: ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾ طلب الإجارة منك. والإجارة: هي الأمان. أن تجيره وتؤمنه من أذى قومك حتى يسمع ما أنزل إليك. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ قال بعض العلماء: لما نادى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في الموسم بهذه الآية من سورة براءة، أتاه قوم فقالوا: إن انتهت هذه الأشهر الأربعة وانقضت أشهر الإمهال، وكان الواحد منا يريد أن يسمع من محمد ما يقول لينظر هل يتبعه أو لا، يُقتل؟! فقال لهم علي: لا يُقتل؛ لأن الله يقول: ﴿وَإِن أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجْرُهُ﴾^(٣).

معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أَنَّ بعض المشركين إذا أراد أن يسمع ما يقوله رسول الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياء التي يدعو إليها، ليستيقن في قرارة نفسه أهو حق فيتبعه أو يعلم أنه ليس بحق فيصد عنه، وطلب أن يجار، أن يُؤمَّن، وألا يصل إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أنزل على النبي؛ ليكون على بصيرة من أمره في الأخذ والترك، فإنه يجب أن يعطى ذلك الأمان حتى يسمع ويتلى عليه القرآن، ويُفهم بما فيه من الزواجر والمواعظ، ثم بعد ذلك إن أسلم

(١) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧٥.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧١) من سورة البقرة.

(٣) هذا الأثر ذكره القرطبي في التفسير عن سعيد بن جبير مرسلاً (٧٦/٨) وأبو السعود (٤٤/٤)، والأوسى (٥٣/١٠).

فيها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يرد إلى مأمنه وهو محل داره التي يأمن فيها. هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ هو هذا القرآن العظيم. وهذه الآية الكريمة من سورة براءة نص صريح في أن هذا الذي نقرؤه ونتلوه هو بعينه كلام الله، فالصوت صوت القاريء، والكلام كلام الباريء؛ لأنَّ الله صرَّح بأنَّ هذا المشرك المستجير يسمع كلام الله يتلوه عليه نبي الله ﷺ. فهذا المحفوظ في الصدور، المقروء في الألسنة، المكتوب في المصاحف، هو كلام الله (جَلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جَلَّ وعلا).

ونحن لا نحب إكثار الخوض فيه؛ لأنَّ هذه الصفة هي منشأ البلايا والمحن^(١)، ولكن نقول: إنَّ الكلام صفة الله التي لم يزل متصفاً بها، فلم يتجرد يوماً عن كونه متكلماً، فالكلام صفته المتصف بها أولاً لم يتجرد، ومع كونه متكلماً فهو في كل وقت يتكلم بما شاء كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله، فكلامه صفته ليس بمخلوق.

وقد أشرنا - مراراً - إلى المحنة التي ابتلى الله بها المسلمين في أيام الدولة العباسية بالامتحان بالقول بخلق القرآن؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن نشأت في أيام المأمون، ولم تزل في أيام المأمون حتى مات، واستفحلت في أيام المعتصم واستحكمت، وفي أيامه ضُرب سيد المسلمين في زمانه أحمد بن حنبل (رضي الله عنه وأرضاه)، يُضرب حتى يُرفع من محل الضرب لا يعرف ليلاً من نهار، وإذا أفاق قالوا له: قل: القرآن مخلوق. فيقول: لا، القرآن كلام الله، منه بدأ وإليه يعود. وكذلك مضى زمن الواثق والمحنة قائمة على ساق وقدم، وقد أزالها الله على يد المتوكل غفر الله له وعفا عنه؛ لأنَّ محنة القول بخلق القرآن أزالها المتوكل على الله بعد أن مضت في زمن المأمون والمعتصم والواثق. وكان بعض المؤرخين يقولون: إنها في أخريات أيام الواثق أنها بردت وانكسرت شوكتها وضعف شرها.

(١) يريد (رحمه الله) ما نشأ بسبب الاختلاف في هذه الصفة، وإلا فهي صفة كما من كل وجه.

وقد قدمنا في هذه الدروس السابقة^(١) أن ذلك على يد ذلك الشيخ الشامي، صاحب القصة المشهورة، وأنه شيخ جيء به من الشام أيام الواصل بالله، جيء به مكبلاً بالحديد ليمتحن ويقتل في محنة القول بخلق القرآن، وجيء به، وجلس الواصل يوماً - والرواية رواها الخطيب البغدادي عن ابن الواصل محمد من طرق أسانيدھا فيها ما يُنكر، ولكنها قصة معناها صحيح، تلقاها العلماء بالقبول - وذلك أن الواصل لما أراد قتل ذلك الشيخ الشامي (رحمه الله) كان إذا أراد قتل أحد أحضر ولده محمداً - وهو الذي روى الخطيب هذه القصة من طريقه - فجيء بالرجل مقيداً بالحديد، فقال للواصل: السلام عليك يا أمير المؤمنين!! قال: لا سلمك الله. فقال الشيخ: يس ما أدبك مؤدبك يا أمير المؤمنين!! الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّمُ بِنَجِيَةٍ فَبِحَيْثُهَا وَبِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: آية ٨٦] والله ما حَيَّيت بأحسن منها ولا رددتها. فقال الواصل: ائذنوا لأبي عبدالله - يعني الخبيث أحمد بن أبي دؤاد، عامله الله بما هو أهله؛ لأنه سبب هذه البلايا والمحن - وأحضره، فقال له ابن أبي دؤاد: الرجل متكلم!! فقال الواصل لابن أبي دؤاد: ناظر هذا الرجل. فقال الشيخ الشامي: ابن أبي دؤاد أحقر من أن يناظرني - كما جاء في بعض روايات قصته - فقال له ابن أبي دؤاد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشيخ: يا ابن أبي دؤاد: ما أنصفتني. يعني: أن الذي يراد أن يقدم للقتل أحق بأن يكون هو السائل. فقال له: سل. فقال: ما تقول يا بن أبي دؤاد في القرآن؟ قال: أقول إنه مخلوق. قال: مقاتلك هذه التي تدعو الناس إليها، وتأمروهم بها، ويفتن الخلفاء فيها يمتحنون فيها الناس بفتياك ورأيك، هل كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون - أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - هل كانوا عالمين بها أو لا؟ فقال ابن أبي دؤاد: ما كانوا عالمين بها. فقال الشيخ الشامي: ما شاء الله!! ما شاء الله!! جهلها رسول الله وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد!!، فقال ابن أبي دؤاد: أقلني، والمناظرة على بابها. فقال له: ذلك لك. ثم قال له: ما

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٤) من سورة الأنعام.

تقول في القرآن؟ قال: مخلوق. قال: مقالتك هذه التي تدعو الناس إليها هل كان رسول الله وخلفاؤه الراشدون عالمين بها أو لا؟ قال: كانوا عالمين بها، ولكنهم لم يدعوا الناس إليها. فقال له الشيخ الشامي: يا بن أبي دؤاد: ألم يسعك في أمة محمد ﷺ ما وسع رسول الله في أمته، ووسع خلفاءه الراشدين في رعاياهم؟! فألقمه حجراً وسكت، وقام الواصل وجلس في محل خلوته واضطجع، وجعل رجله على ركبته وقال: جهلها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعلمها ابن أبي دؤاد؟ ما شاء الله!! ما شاء الله!! ثم قال: علمها رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون ولم يدعوا الناس إليها، ألم يسعك يا بن أبي دؤاد ما وسع رسول الله وخلفاءه الراشدين في أمة محمد ﷺ؟ ثم دعا بالحداد وقال له: اذهب وفكّ قيد هذا الشيخ الشامي. وأعطاه أربعمئة دينار، وقال له: انصرف راشداً إلى أهلك. وذكر الخطيب في بعض روايات هذه القصة بأسانيد ليست قائمة أنه بعد ذلك لم يمتحن أحداً. بل روى - أيضاً - عنه أن الواصل رجع عنها في أخريات حياته.

وعلى كل حال فالقرآن كلام الله وصفته الأزلية، ليس بمخلوق، منه بدأ وإليه يعود، وهو صفته الأزلية لم يتجرد عن كونه متكلماً يوماً ما، وهو في كل يوم يتكلم بما شاء، كيف شاء، على الوجه اللائق بكماله وجلاله (جَلَّ وَعَلَا) من غير مشابهة للخلق، ومن غير تعطيل له من صفته (جَلَّ وَعَلَا). وهذا معنى قوله: ﴿فَأَجْرُهُ حَقٌّ يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ﴾.

﴿ثُمَّ أَلْفَعَهُ مَأْمِتُمْ﴾ [التوبة: آية ٦] أبلغه إياه: أوصله إليه. والمأمن هنا: اسم مكان - أيضاً - كالمرصد، فالمأمن والمرصد كلاهما اسم مكان، فالمرصد مكان الرصد، والمأمن: مكان الأمن، أي: أبلغه مكان أمنه، وهو داره الذي جاء منها، وأهله الذي جاء من قبيلهم. وهذا معنى قوله: ﴿أَلْفَعَهُ مَأْمِتُمْ﴾ ثم قال: ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من الأمر بإجارة المشرك المستجير حتى يسمع كلام الله ويتفهمه واقع بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا يعلمون الوحي، ولا يفهمون عن الله، فإذا طلبوا أن يعلموا ويتعلموا وسمعوا ما جاء عن الله فلا تمنعواهم من ذلك، فأمنوهم حتى

يَسْمَعُوا وَيَتَفَهَمُوا وَيَعْرِفُوا الْحَقَّ لَعَلَّ اللَّهَ يَهْدِيهِمْ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِثُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ اسْتَرَوْا بِعَائِدَةِ اللَّهِ فَمَنَا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخِوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُقِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة: الآيات ٧ - ١١].

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِثُ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: آية ٧].

لما أنزل الله أول هذه السورة ﴿بِرَأۡةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة: آية ١] فنبد العهد إلى كل المعاهدين، وأعلمهم بأنهم حرب بعد مضي أربعة أشهر، ولم يستثن من ذلك إلا القوم الذين ثبتوا على عهدهم ولم ينقضوه، ولم يظاهروا أحداً على المؤمنين، بين في هذه الآية الكريمة أن ذلك الحكم المذكور في أول هذه السورة أنه حكم واقع في محله، وأن نبد العهود إلى المشركين أمر في غاية الإحكام والصواب؛ لأنه قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ (كيف) هنا حرف يدل على الاستبعاد، يُسْتَبَعَدُ جَدًّا أَنْ يَكُونَ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ يُحْفَظُونَ بِهِ وَيَأْمَنُونَ بِهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، مع خبث ما يبطونه من العداوة للمسلمين.

/ والمعنى: أن نبد عهودهم إليهم حكم في غاية الصواب واقع في موقعه، موضوع في موضعه؛ لأنهم أهل خبث وأهل عداوة ومكر للإسلام، يستحقون بنبد عهودهم إليهم، وأن يكونوا حرباً، إلا الطائفة الذين ثبتوا. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ يأمنون به على أنفسهم

وأموالهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يأمر نبيه بالوفاء به ﴿وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ ﷺ يعمل لهم بمقتضاه ﴿إِلَّا﴾ الطائفة الثابتة التي لم يوجد منها غدر ولا مكر فهؤلاء مستثنون كما تقدم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ [عَهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ] ﴿١﴾ [التوبة: آية ٧] لأن صلح الحديبية الذي عقده النبي ﷺ مع قريش بواسطة سهيل بن عمرو العامري (رضي الله عنه) دخل في حلف قريش ودخل في صلحهم معهم قبائل من كنانة بن مدركة، منهم: بنو الدليل، وبنو ضمرة، وبنو مدلج أولاد بكر بن عبد مناة بن كنانة، وبنو جذيمة بن عامر، عامر هو ابن عبد مناة بن كنانة أخو بكر. فهم أربع قبائل من كنانة، هؤلاء القبائل الأربع من كنانة بن مدركة كانوا أهل عهد مع النبي ﷺ مع قريش، ثم نقض العهد منهم بنو الدليل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بأن عدوا على خزاعة، ونقض معهم قريش حيث أعانوهم على الخزاعيين، وبقي بنو ضمرة وبنو جذيمة بن عامر وبنو مدلج على عهدهم لم ينقضوا، وهم الذين استثناهم الله ﴿٢﴾.

وهذه المعاهدة وقع عهدها في الحديبية كما عليه جميع المؤرخين. والله (جلّ وعلا) ذكر أنها في المسجد الحرام، والتحقيق أن الحديبية بعضها في الحلّ وبعضها في الحرم. وهذه الآية تدل على أن معاهدة الحديبية وقعت في الطرف منها الذي هو من الحرم؛ لأنه جرت العادة أن الله ربّما أطلق المسجد الحرام وأراد به جميع الحرم، فالمراد به هنا: إلا الذين عاهدتم في حرم الله عند الحديبية.

وأطلق على اسم الحرم «المسجد الحرام» لأنه من أهم أجزائه، وهو أسلوب عربي معروف ﴿٣﴾، ومن إطلاق المسجد الحرام على جميع الحرم: ﴿وَلَا تُقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْبَلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: آية ١٩١] أي: لا

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت بقية الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٣) سيأتي عند تفسير الآية (٢٨) من هذه السورة.

تقاتلوهم في جميع الحرم؛ ولأجل هذه الإطلاقات سيأتيكم أن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] أن المراد به لا يقربوا الحرم كله بعد هذا العام. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ في صلح الحديبية ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ﴾ (ما) مصدرية ظرفية، وهي منصوبة بـ«استقيموا»^(١)، أي: استقيموا لهم وأوفوا لهم بالعهد إلى تمام مدتهم في جميع المدة التي استقاموا فيها لكم، ولا تبدؤوهم بنقض العهد. وهذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿فَاتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٤] هذا معنى قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾. والذين قالوا: إنها نزلت في قريش^(٢). يظهر أن قولهم خلاف التحقيق؛ لأن قريشاً نقضوا العهد وحاربهم النبي ﷺ في فتح مكة قبل نزول هذه الآيات من براءة؛ لأنها نزلت عام تسع، وأرسل النبي بها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أبي بكر ينادي بها في الموسم عام تسع. وفي ذلك الوقت أهل مكة قد نقضوا قبل هذا بزمان، وغزاهم النبي ﷺ وفتح مكة عنوة على التحقيق، وظفر بهم، وسموا الطلقاء، وأعطى عهداً لمن أراد منهم أن يترىص كصفوان بن أمية ومن في معناه. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ويدخل في المتقين دخولاً أولياً: الذين لا ينقضون العهود ويوفون بالعهود؛ لأن الوفاء بالعهد وعدم نقضه ونكته من تقوى الله (جلّ وعلا)، والمتصف بالتقوى يحبه الله. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَقْرَبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ يُرْضُونَكُمْ﴾

(١) انظر: الدر المصون (١٥/٦).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤٣/١٤).

يَأْفُوهِمْ وَنَأَىٰ قُلُوبَهُمْ وَأَكْثَرَهُمْ فَنَسِئُونَ ﴿٨﴾ [التوبة: آية ٨].

هذا تأكيدٌ بعد تأكيد؛ لأن حكم الله بنبذ العهود إلى الكفار أمرٌ في غاية الإحكام والصواب، واقعٌ في موقعه، موضوعٌ في موضعه، والفعل هنا محذوفٌ دلٌّ ما قبله عليه^(١). أي: كيف يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله وحالهم أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: إن يغلبوك ويقهروكم ويجدوا فرصة يهينونكم بها لا يراعون فيكم العهود ولا الذمم، ولا يراعون شيئاً، بل يقتلونكم، فمن كانوا بهذه المثابة من الغدر والمكر والخيانة وسوء الطوايا والنيات، نبذ عهودهم إليهم هو أمرٌ في غاية الحكمة والإصابة. وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا﴾ كيف يكون لهم - للمشركين - عهد والحال أنهم إن يظهروا، وقد عَلِمَ من اللغة العربية أن العرب ربّما تحذف الفعل بعد (كيف) إذا تقدم ما يدلّ عليه؛ لأن (كيف) هنا حُذِفَ بعدها قوله: ﴿كَيْفَ﴾ يكون لهم عهدٌ عند الله وعند رسوله والحال أنهم وغرّة صدورهم، حرب أصداد ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ونظير هذا من كلام العرب في حذف الفعل بعد كيف إذا دلّ المقام عليه قول الشاعر^(٢):

وَحَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَىٰ فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلْبِي

ويروى: «فكيف وهاتا هضبة وكثيب»، هذا قاله بدويّ أعرابي قال له قوم: إن القرى والمدن والحضر فيها الوباء، يموت الناس فيها غالباً. والصحة أجود في الصحاري؛ لأن أهلها أقلّ موتاً!! فخرج إلى الصحراء، فلما خرج إلى الصحراء فإذا قبر في الصحراء بجنب كثيب وهضبة فقال:

وَحَبَّرْتُ مَانِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَىٰ فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلْبِي

أي: فكيف مات هذا وهو في البادية وليس في القرى؟ وهذا معنى قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يغلبوك

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٧٨/٨).

(٢) البيت لكعب بن سعد الغنوي. وهو في ابن جرير (١٤/١٤٥)، القرطبي (٧٨/٨).

وينتصروا عليكم، تقول العرب: ظهوروا عليهم: إذا غلبوهم وانتصروا عليهم. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: آية ١٤] أي غالبين منتصرين؛ لأن أصل (ظَهَرَ): علاه فطلع على ظهره، والغالب كأنه يعلو المغلوب حتى يقف على ظهره، ومنه قوله: ﴿فَمَا أَصْطَفَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ أي: يعلوا ظهره^(١) ﴿وَمَا أَصْطَفَعُوا لَهُمْ نَقَبًا﴾ [الكهف: آية ٩٧]. كيف يكون لهم عهد وهم بهذه المثابة من خبث النيات والطويات، وشدة العداوة، وغرّة صدورهم، والحال ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يغلبوك ويقهروكم وينتصروا عليكم ﴿لَا يَرْجُبُوا﴾ أي: لا يراعوا فيكم.

﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ ولا يحفظوا لكم ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ اعلموا أن المراد بـ (الإل) هنا فيه لعلماء التفسير أقوال متقاربة^(٢):

قال بعض العلماء: (الإل) اسم الله بالعبرانية. واستأنسوا لهذا ببعض القراءات الشاذة: (لا يرقبوا فيكم إيلًا ولا ذمة)^(٣) والإيل من أسماء الله بالعبرية. فجبرائيل معناه: عبدالله، وإسرافيل: عبدالله، وإسرائيل: عبدالله. وهذا القول قال به جماعة من العلماء، أن (الإيل والإل) تطلق على الله، ومعروف في قصة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) أنه لما جاءه قوم من أصحاب مسيلمة الكذاب وقال لهم: اقرؤوا علي مما يدعي أنه ينزل عليه. فقرؤوا عليه شيئاً من ترهات مسيلمة الكذاب، فقال: أنتم تعلمون أن هذا لم يخرج من إل، أن هذا كلام لم يصدر من الله. وعلى هذا القول فالمراد: إن يظهروا عليكم ويغلبوك لا يراقبوا فيكم الله، ولا يراعوا فيكم الله، ولا اليهود. هذا قال به قوم.

وقالت جماعات من العلماء: (الإل) هنا المراد به القرابة، أي: لا يراعون فيكم قرابة، بل يقتلونكم وإن كنتم من قراباتهم. وبهذا قال جماعات

(١) انظر: القرطبي (٧٨/٨).

(٢) انظر: ابن جرير (١٤٦/١٤ - ١٤٩)، القرطبي (٧٩/٨)، الدر المصون (١٧/٦ - ٢٠).

(٣) انظر: المحتسب (٢٨٣/١).

من علماء التفسير، وإطلاق الإلّ على القرابة معنى معروف في كلام العرب مشهور، ومنه قول تميم بن مقبل^(١):

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلُوفٌ خَلَفُوا قَطَّعُوا الْإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرَّجْمِ

أي: قطعوا القرابات ولم يصلوها، ومنه بهذا المعنى قول حسان بن ثابت رضي الله عنه^(٢):

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ فِي قُرَيْشٍ كَيْلَ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ

يعني: إن قرابتك في قريش كذب كقرابة السقب الذي هو الحوار - أعني ولد الناقة - من رأل النعام، ولا قرابة بين أولاد الإبل وأولاد النعام، ومن هذا المعنى قول يزيد بن مفرغ الحميري في شعره الذي ينفي به نسب زياد بن أبيه عن قريش، ويعاتب معاوية في استلحاقه له؛ لما كان بينه وبين عباد بن زياد من العداوة، وما أهانه به عباد بن زياد كما هو معروف، قال يزيد بن مفرغ الحميري في ذلك أبياته المشهورة التي يقول فيها^(٣):

أَلَا أَبْلُغُ مَعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ مَخْلُغَةً مِنَ الرَّجْلِ الْيَمَانِي
أَتَغْضَبُ أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ عَطْفٌ وَتَرْضَى أَنْ يُقَالَ أَبُوكَ زَانِي

إلى أن قال في ابن زياد:

فَأَشْهَدُ أَنْ إِلَّكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلُ الْجِلِّ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

أي: إن قرابتك في قريش، وهذا معنى معروف في كلام العرب، وعلى هذا القول ﴿لَا يَرْفُقُونَ﴾ أي: لا يراعون ولا يحفظون فيكم ﴿إِلَّا﴾ أي: قرابة ﴿وَلَا ذِمَّةٌ﴾ أي: لا قرابة ولا عهداً، وقال بعض العلماء: الإلّ

(١) البيت في ابن جرير (١٤٨/١٤).

(٢) ديوانه ص (٢٤٢) والسقب: ولد الناقة. والرأل: ولد النعام.

(٣) الأبيات في تاريخ دمشق (١٨٠/٦٥ - ١٨١) ولفظ البيت الثالث فيه:

فَأَشْهَدُ أَنْ رَحِمَكَ مِنْ زِيَادٍ كَرَحِمِ الْفَيْلِ مِنْ وَلَدِ الْأَتَانِ

هو الحلف، فالعرب تقول: بيني وبين فلان إل. إذا كان بينكما حلف. قالوا: واشتقاق (الإل) أنهم كانوا إذا تحالفوا وتماسحوا بالأيدي عند الحلف رفعوا أصواتهم، والعرب تقول: «أل، يؤل» إذا صرخ ورفع صوته، ومنه: «أليل المريض» أي: أتين المريض المرتفع، والعرب تقول: «دعت الجارية أَلَّيْهَا» إذا ولولت؛ لأن الأليل صراخٌ وصوت. ومن قولهم: «دعت الجارية أَلَّيْهَا» إذا ولولت قول الكمي^(١):

وأنت ما أنت في غَبْرَاءِ مُظْلَمَةٍ إذا دَعَتْ أَلَّيْهَا الكَاعِبُ الفُضْلُ

وقال قومٌ آخرون: إن (الإل) معناه العهد. وعلى هذا القول فهو شيء معطوفٌ على نفسه باختلاف اللفظين، وقد قَدَمْنَا في هذه الدروس مراراً^(٢) أن عطف الشيء على نفسه بلفظين مختلفين أنه أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ؛ لأن المغايرة في اللفظ ربما نزلتها العرب كمغايرة المعنى. وهذا الأسلوب في اللغة العربية وفي القرآن، فمن أشهر أمثله في القرآن قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٤﴾﴾ [الأعلى: الآيات ١ - ٤] لأن (الذي) و(الذي) كلها واقعة على شيء واحد هو الله (جلٌ وعلا)، إلا أنه لما اختلفت الألفاظ صار العطف بسبب اختلافها، وهو أسلوبٌ معروفٌ في العربية، ومن شواهد المشهورة قول الشاعر^(٣):

إلى الملك القَرَمِ وابنِ الهَمَامِ وَلَيْثِ الكَتِيبةِ في المُرْدَحَمِ

وهو كثيرٌ في كلام العرب، ومما أنشده له صاحب اللسان قول الشاعر^(٤):

إني لأعظم في صدر الكَمِّيِّ على ما كان في زمن التجدير والقصرِ

(١) البيت في اللسان (مادة: أل) (١/٨٦)، الدر المصون (٦/٢٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) البيت في اللسان (مادة: جدر) (١/٤١٧).

وقول عترة في معلقته^(١):

حُيِّتَ مَنْ طَلَلِ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أَقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أَمِّ الْهَيْثَمِ
لأن (الإقواء) و(الإقفار) معناهما واحد. و(التجدير) و(القصر) معناهما
واحد.

واختار كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري - رحمه الله - أن
هذه المعاني كلها يجب حمل (الإل) عليها؛ لأنه شامل للعهد والقراية،
والحلف^(٢)، أي: لا يراعون فيكم عهداً، ولا قراية، ولا حلفاً، ولا
يراعون الله فيكم. وهذا الذي ذهب إليه هو من حمل المشترك على معانيه،
وحمل المشترك على معنيه أو معانيه مما اختلف فيه علماء الأصول، والذي
حرره المحققون من أصوليي أصحاب المذاهب الأربعة هو جواز حمل
المشترك على معنيه أو على معانيه^(٣)، فيجوز أن تقول مثلاً: عدا اللصوص
البارحة على عين زيد. تعني: أنه عَوَّرُوا عينه الباصرة، وَعَوَّرُوا عينه
الجارية، وسرقوا عينه التي هي ذهبه وفضته فتحمله على الجميع إذا قصدت
ذلك وكان في كلامك ما يدل عليه، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا ذِمَّةً﴾.

﴿يَرْقُبُوا﴾ معناه: يحفظوا ويراقبوا ويراعوا. والذمة: معناه العهد،
وكل ما تجب المحافظة عليه ويؤاخذ بنكته تسميه العرب (ذمة). وهو هنا:
العهد، وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ ﴿يَرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلام الطيب الحلو باللسان دون ما في
القلوب؛ لأن ما في قلوبهم من البغض وإضرار العداوة والشحناء لا
يساعد وما تجري به ألسنتهم، فالألسنة تقول شيئاً وما تنطوي عليه الصدور

(١) البيت في ديوانه ص ١١٨.

(٢) تفسير ابن جرير (١٤٨/١٤).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (١٨٩/٣ - ١٩٥)، البحر المحيط في أصول الفقه (١٢٦/٢) -
١٤٨، ١٦٦/٣ - ٤٧٢)، مجموع الفتاوى (٣٤٠/١٣ - ٣٤١)، زاد المعاد (٦٠٦/٥)،
قواعد التفسير (٨١٩/٢).

شيء آخر. وهذا معنى قوله: ﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَأَتَانِ قُلُوبِهِمْ﴾ أن توافق ما ينطقون به بأفواههم لما هي منطوية عليه من الكفر والبغض وشدة العداوة لكم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَتَانِ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ والقلوب هنا جمع قلب. وهذه الآيات وأمثالها تدل على أن الذي يدرك ويقع فيه الإباء والانقياد وجميع أنواع الإدراك كله القلب^(١). وذلك أمر لا شك فيه؛ لأن الذي خلق العقل ومن بالعقل أعلم حيث وضع العقل، فالله (جل وعلا) في آيات كتابه يبين دائماً أنه جعله في القلب كقوله: ﴿قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَمْ أَعِزُّ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: آية ١٧٩] وقوله: ﴿فَاتِبَهَا لَا تَعَى الْأَبْصُرُ وَلَكِنْ تَعَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: آية ٤٦] ولم يقل الله يوماً ما: «ولكن تعمى الأدمغة التي في الرؤوس». ولم يقل: «فإنها لا تعمى الأدمغة» أبداً؛ لأن العقل محل القلب هذا جاء به الوحي الصحيح وكلام من خلق القلب وتفضل بالقلب، فلم يأت في آية واحدة ولا في حديث واحد أن مركز العقل في الدماغ أبداً، لم يقل الله: «لهم أدمغة يفقهون بها» أبداً، ولكن يقول: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾، و﴿وَأَتَانِ قُلُوبُهُمْ﴾ ولم يقل: «وتأبى أدمغتهم» أبداً، والذي خلق القلب ومن به ووضعه لا شك أنه أعلم بالمحل الذي وضع به من فلسفات الكفرة الفجرة الجهلة وأذئابهم، وهذا معنى قوله: ﴿وَأَتَانِ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الفسق: الخروج عن طاعة الله، فكل خارج عن طاعة الله فهو فاسق، ومنه قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: آية ٥٠] أي خرج عن طاعة ربه، والعرب تقول: «فسق عن الطريق» إذا خرج منها. ومنه قول الراجز^(٢):

يَهْوَيْنَ فِي نَجْدٍ وَعَوْرًا غَائِرًا فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَائِرًا

فوَاسِقًا: أي: خارجات عن طريقهن.

والمراد بالفسق شرعاً: هو الخروج عن طاعة الله. والخروج عن

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٥) من سورة البقرة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

طاعة الله قد يعظم، وقد يكون بعضه أعظم من بعض، فالخروج الأكبر هو الكفر بالله، والمعاصي والكبائر خروج دون خروج؛ ولذا سُمي الكافر فاسقاً؛ لأنه خارج عن طاعة الله الخروج الأعظم، كقوله جل وعلا: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٦] وقد يطلق الفسق على خروج دون خروج، كالمرتكب لبعض الذنوب، كقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ مِّنْ بَنِيكَ﴾ [الحجرات: آية ٦].

وفي هذه الآية الكريمة سؤال معروف، وهو أن يُقال: لِمَ قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وهم جميعهم فاسقون، أكثرهم وأقلهم، كلهم فاسقون، فما وجه التعبير بقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ﴾؟.

أجاب جماعة من العلماء عن هذا السؤال بأن المراد بالفسق هنا فسق خاص، وهو فسق نقض العهود وعدم الوفاء بها^(١)، أي: وأكثرهم ناكثون، ناقضون للعهود، فاسقون هذا النوع الخاص من الفسق، وإن كان الجميع مشتركين في أنواع الفسق والكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الاشتراء في لغة العرب التي نزل بها القرآن معناه: الاستبدال، فكل أحد استبدل شيئاً من شيء تقول العرب: اشتراه، فالاشتراء في لسانها يتناول كل استبدال كائناً ما كان، ومن هذا المعنى قول الراجز^(٢):

بُدِّلْتُ بِالْجُمَّةِ رَأْسًا أَزْعَرَا وَبِالْثَّنَائِيَا الْوَاضِحَاتِ الدُّزْدَرَا
كَمَا اشْتَرَى الْمُسْلِمُ إِذْ تَنَصَّرَا

أي: كما تبدل المسلم، إذا أخذ النصرانية بدل الدين.

(١) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٠)، البغوي (٢/٢٧١)، القرطبي (٨/٨٠).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

والثمن في لغة العرب: تطلقه على كل عوض كائناً ما كان، تسميه العرب ثمناً. أما إطلاق (الشراء) على الثمن والمثمن، وتسمية المبيع (ثمنياً)، والمدفوع فيه (ثمنياً) فهو اصطلاح خاص للفقهاء في البيوع. ومن إطلاق (الشراء) على الاستبدال و(الثمن) على كل عوض في اللغة العربية قول علقمة بن عبدة التميمي^(١):

وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا لَهُ ثَمَنٌ مِمَّا تَضِنُّ بِهِ النَّفُوسُ مَعْلُومٌ
ومن هذا المعنى قول ابن أبي ربيعة المخزومي^(٢):

إِنْ كُنْتَ حَاوَلْتَ دُنْيَا أَوْ أَقَمْتَ لَهَا مَاذَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الْحَجِّ مِنْ ثَمَنٍ
أي: من عوض يخلفه لك. وهذا معنى ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ استبدلوا آيات الله الشرعية - التي هي هذا القرآن العظيم - تركوها وتعوضوا منها ثمناً قليلاً. واختلف العلماء بالمراد بهذا الثمن القليل^(٣)، فقال جماعة من العلماء: هي نزلت في قوم من الأعراب الذين كانوا عاهدوا النبي ﷺ فدعاهم أبو سفيان بن حرب، وأطعمهم أكلة، ونقضوا العهود بسبب ذلك. وهذا قاله جماعة كثيرة من المفسرين في هذه الآية. وهو مستبعد جداً؛ لأن هذه الآية من براءة نزلت بعد إسلام أبي سفيان؛ لأن أبا سفيان أسلم عام الفتح عام ثمان، وهذه نزلت عام تسع.

وقال بعض العلماء: هي في اليهود؛ لأنهم هم الذين تبدلوا الرُّشاً من بيان الحق، وهو ضعيف أيضاً.

والتحقيق - إن شاء الله - أن المعنى: أن الكفار تبدلوا من آيات الله والعمل بما جاء عن الله ثمناً قليلاً من متاع الحياة الدنيا، وهو - مثلاً - عدم التقيد بالشرع، وبقاؤهم على ما كانوا عليه، واتباعهم أهواءهم، كما قال

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) انظر: ابن جرير (١٥٠/١٤)، البغوي (٢٧١/٢)، القرطبي (٨٠/٨).

(جل وعلا): ﴿يَسْتَكْمِنُ وَيَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا

[البقرة: آية ٩٠] فتعوضوا من هذا اتباعهم هواهم، وبقاءهم على ما كانوا عليه؛ لأنه أحب إليهم. وهذا شيء تافه تعوضوا منه سعادة الدنيا والآخرة. وهذا معنى قوله: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الظاهر أن (صد)^(١) هنا هي المتعدية، والمفعول محذوف. أي: فصدوا الناس عن سبيله؛ لأن صدودهم في أنفسهم معلوم من قوله: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأن من اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً فهو صاد عن سبيل الله، فبين أنهم ضلال بقوله: ﴿أَشْتَرُوا بِعَاقِبَتِ اللَّهِ ثَمَنًا﴾ وبين أنهم مضلون بقوله: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: صدوا غيرهم عن سبيل الله (جل وعلا).

والسبيل: معناه الطريق. وسبيل الله: دين الإسلام؛ لأنه طريق الله التي أمر بها ووعد الجزاء الحسن لمن اتبعها؛ ولذا سُميت: (سبيل الله) أي: طريقه التي يدعو إليها، والتي توصل إلى رضاه، وإلى نيل ما عنده من الكرامة.

وقد قدمنا أن (السبيل) تُذَكَّرُ وتؤنث^(٢)، فمن تذكيرها في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الفِتَنِ يَتَّخِذُوهُ﴾ [الأعراف: آية ١٤٦] برجوع الضمير مذكراً على السبيل. ومن تأنيث السبيل: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: آية ١٠٨] ولم يقل: «هذا سبيلي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ».

وهذا معنى قوله: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِتْمَ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: آية ٩].

﴿سَاءَ﴾: فعل جامد لإنشاء الذم. هو بمعنى (بئس)؛ لأن (ساء) بمعنى (بئس) وتعمل عمل (بئس) (...).^(٣)

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٥، ١١٦) من سورة الأنعام.

(٣) في هذا الموضع كلمة غير واضحة.

و(ما) إذا جاءت بعد (بئس) أو (نعم) قال بعض العلماء: يجوز أن تكون نكرة مميزة للفاعل الذي هو الضمير المحذوف، ويجوز أن تكون هي فاعل (بئس) و(ساء) و(نعم)^(١). وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فعلى أنها مميزة فالتقدير: (ساء هو) أي: بئس هو شيئاً كانوا يعملونه. وعلى أنها فاعل فالأمر واضح. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ [التوبة: آية ١٠] كائناً من كان ﴿إِلَّا وَلَا ذِمَّةٌ﴾ أي: قرابة ولا عهداً. أو: لا يرقبون في مؤمن الله، لا يرقبون الله ولا يخافونه في المؤمنين فيتقون الله فيهم.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المعتدي: (مُفْتَعِل) من العدوان، والعدوان: مجاوزة الحد. والمراد بالمعتدين: الذين يجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: آية ١١] فسرناها بالأمس.

﴿فَإِخْوَانِكُمْ﴾ أي: فهم إخوانكم في الدين. مفهومه: أنهم إن لم يتوبوا من الشرك، أو لم يقيموا الصلاة، أو لم يؤتوا الزكاة لا يكونون إخواننا في الدين. وهذا معنى قوله: ﴿فَإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَنفِصِلُ الْآيَاتِ﴾ آيات هذا القرآن العظيم، نفصلها معناه: نبينها ونوضحها، ولا نترك بها إجمالاً.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ إنما خص القوم الذين يعلمون لأنهم هم المنتفعون بها؛ لأن من لم يرزقهم الله علماً لا ينتفعون بها. وجرت العادة في القرآن أنه يخص بالشيء العام المنتفعين به دون غيرهم، كقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَّن

(١) انظر: التوضيح والتكميل (١١٧/٢).

يَحْشَنَهَا ﴿٤٥﴾ [النازعات: آءة ٤٥] لأنه المنتفع بالإنذار، وإن كان منذراً للأسود والأحمر ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ [يس: آءة ١١] لأنه المنتفع مع أنه منذر للأسود والأحمر ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدْ﴾ [ق: آءة ٤٥] لأنه هو المنتفع، وإن كان يُذكر جميع الخلق بالقرآن^(١). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. ونرجو الله (جل وعلا) أن نكون ممن يفهم عن الله تفصيله لآياته؛ لأن هذا القرآن العظيم فصل الله فيه كل شيء، وأوضح فيه كل شيء ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ الآءة [الأعراف: آءة ٥٢].

﴿وَأَن تَكْفُرُوا أَتَمَنَّهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَمُوا فِي دِينِكُمْ فَقَلِيلًا أَمِمَّةٌ الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا أَمِنَ لَهُمْ لَعَلَّهُم يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْلِيلُونَ قَوْمًا تَكْفُرُوا أَتَمَنَّهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أَوْلَك مَرَّةٌ أَخْشَوْنَهُمْ فَاَللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَتَلْتَهُمْ يَءَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَسْخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: الآيات ١٢ - ١٦].

[هذه]^(٢) الآيات من سورة براءة يكاد المفسرون من الصحابة فمن بعدهم يُجمعون على أنها نازلة في نقض أهل مكة للعهد الذين عقده مع النبي ﷺ بالحديبية^(٣)، وذلك يدل على أن بعض هذه الآيات من سورة براءة نزلت قبل التاريخ الذي كنا نقول؛ لأن هذا نازل قبل عام تسع على القول بأنها في أهل مكة، وعامة المفسرين يقولون: إنها فيهم، ولا نعلم أحداً ممن اشتهر عنهم أخذ العلم يقول في غيرهم إلا القول المروي عن

(١) مضى عند تفسير الآءة (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع وُجد انقطاع يسير في التسجيل وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٣) انظر: ابن جرير (١٤/١٥٤)، القرطبي (٨/٨٤).

حذيفة بن اليمان (رضي الله عنه) أن هذه في قوم لم يقاتلوا بعد وقت نزولها^(١). وعلى هذا القول فلا تحفظ تفاصيل لهذا النكت والنفص، بل الظاهر والسياق يقتضي أنها في أهل مكة؛ لأن قوله: ﴿وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] الذين هموا بإخراجه هم أهل مكة، وعلى هذا عامة المفسرين.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَإِنْ كَفَرُوا أَيَّمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ [التوبة: آية ١٢] النكت في لغة العرب: هو تفكيك طاقات الشيء المفتول، فالجبل المفتول - مثلاً - إذا فككت طاقاته، وجعلت كل واحدة منها على حدة فقد نكثته، وقد نقضته، كما في قوله: ﴿كَأَلَّتِي نَقَضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: آية ٩٢] جمع نكت. وعلماء البلاغة يقولون: إن النكت والنفص حقيقة في الحسيات، كل مفتول فككت بين طاقاته فقد نقضته وقد نكثته، وأنها في المعنويات كالعهود مستعارة^(٢). ونحن دائماً نقول: إنها أساليب عربية نطق بها العرب منذ تكلمت بلغتها، ونزل بها القرآن، يطلق النكت على تفكيك طاقات الجبل، ويطلقه أيضاً على الإخلال بالعهود ونقضها وإبطالها.

﴿وَإِنْ كَفَرُوا أَيَّمَنَّهُمْ﴾ الأيمان: جمع يمين. قال بعض العلماء: هي العهود^(٣). وقال بعض العلماء: هي الأيمان التي تؤكد بها العهود؛ لأنهم إذا أخذت عليهم العهود أكدوها بالأيمان.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: من بعد العهد الذي عقده مع النبي ﷺ.

﴿وَإِنْ كَفَرُوا أَيَّمَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الطعن في

(١) أخرجه ابن جرير (١٥٦/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦١/٦)، وأورد البغوي (٢٧٢/٢) عن مجاهد قوله: «هم أهل فارس والروم».

(٢) انظر: المفردات (مادة: نكت) (٨٢٢)، القرطبي (٨١/٨)، فتح القدير (٣٤١/٢)، التحرير والتنوير (٧٣/٩).

(٣) انظر: ابن جرير (١٥٦/١٤).

الدين معناه: استنقاظه وثلبه بالمعائب. يقولون: إن دين الإسلام ليس بشيء، وأنهم يعيبونه إذا نقضوا العهد وعابوا الدين وثلبوه.

﴿فَقَتِلُوا آيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ الأصل: فقاتلوهم، إلا أن هؤلاء الذين ينقضون العهود ويسبون الدين أجرى الله العادة أنهم الرؤساء المتبوعون؛ لأن الله أجرى عادته بأن الذين يناصرون الرسل بالعداوة هم القادة المتبوعون المترفون، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ [الزخرف: آية ٢٣] المتنعمون الكبار منها. وهذه سنة الله في خلقه؛ ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان في حديثه الصحيح المشهور: أشرف الناس يتبعونه أم ضعافهم؟ فقال: بل ضعافهم. قال: أولئك أتباع الأنبياء^(١). وهذه سنة الله في كونه؛ ولذا قال: ﴿فَقَتِلُوا آيْمَةَ الْكُفْرِ﴾.

قرأ هذا الحرف من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر: ﴿آيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ بجعل الهمزة الأخيرة بين بين^(٢)، وقرأه عامة الباقيين من السبعة: ﴿آيْمَةَ﴾ بتحقيق الهمزتين.

والأئمة جمع إمام، وأصله: أئمة وزنه: (أَفْعَلَةٌ) جمع (فَعَال) كمثال وأمثله. توصل فيه إلى الإدغام بتسكين الميم الأولى، ونُقِلَتْ حركتها إلى الهمزة فقليل فيه: (أئمة)^(٣) والأئمة جمع الإمام، والإمام هو: المقتدى به. وللكفر أئمة يقتدى بهم فيه - والعياذ بالله - كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾ الآية [القصص: آية ٤١].

﴿فَقَتِلُوا آيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: رؤساء الكفر وعظماءه الذين عابوا دينكم

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٣) من سورة الأنعام.

(٢) قال ابن مجاهد في كتاب السبعة ص ٣١٢: «قرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: (آيْمَةَ) بهمز الألف وبعدها ياء ساكنة. غير أن نافعاً يُخْتَلَفُ عنه في ذلك... وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائي: (أئمة) بهمزتين» ١. هـ. وانظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٥، النشر (٣٧٨/١ - ٣٧٩) وقد فصل في كيفية تسهيل الهمزة الثانية، ونقل مذاهب القراء في ذلك.

(٣) انظر: القرطبي (٨٤/٨)، حجة القراءات ص ٣١٥، الدر المصون (٢٥/٦)، معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٢٧.

ونقضوا عهودكم. والعادة أن الذي يتصدى لتكذيب الرسل وعنادهم وعداوتهم الرؤساء المتبوعون، شياطين الإنس. وما جرى على السنة كثير من العلماء هنا أنهم: أبو جهل وأمية بن خلف وسهيل بن عمرو إلى أشرف المذكورين في غزوة بدر، فهو خلاف الظاهر^(١) للإجماع على تأخر هذه الآيات كثيراً إلى عام تسع، أو إلى أنها نزلت قبل الفتح عام ثمان، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾.

قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة. وهو جمع يمين، وقرأه ابن عامر من السبعة: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيْمَان لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَهَوْنَ﴾^(٢).

فعلى قراءة الجمهور^(٣): ﴿لَا أَيْمَنَ لَهُمْ﴾ جمع يمين، التحقيق فيها: أن نفي أيمانهم على قراءة الجمهور إنما يراد به أنهم لا يوفون بها وهي عندهم كلاً أيمان؛ لأنهم ينقضونها، وهذا أسلوب عربي معروف؛ تقول العرب لمن يكذب وينقض العهود: لا تغتر بيمين هذا فلا يمين له، يعني: لا يفي بها ولا يبرها ولا يوفي بعهد، وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، ومنه قول الحماسي^(٤):

وإن حَلَقْتَ لا يَنْقُضُ الْيَمِينَ عَهْدَهَا فليس لِمَخْضُوبِ الْبَنَانِ يَمِينُ
يعني ليس للنساء أيمان؛ لأنهن ينقضنها غالباً. هذا مراده.

وقد تمسك الإمام أبو حنيفة - رحمه الله - بظاهر هذه الآية فقال: لا

(١) انظر: ابن جرير (١٥٤/١٤)، ابن عطية (١٤١/٨)، القرطبي (٨٤/٨)، فتح القدير (٣٤١/٢).

(٢) انظر: السبعة ص (٣١٢)، المبسوط لابن مهران ص (٢٢٥).

(٣) في توجيه القراءتين انظر: ابن جرير (١٥٧/١٤)، القرطبي (٨٥/٨)، حجة القراءات ص (٣١٥)، الدر المصون (٢٥/٦).

(٤) البيت في القرطبي (٨١/٨)، الدر المصون (٢٦/٦) وفي القرطبي: «لا يَنْقُضُ النَّائِي» وفي الدر المصون: «لا تَنْقُضُ الدَّهْرَ».

تقبل يمين من كافر، ويمين الكافر كلا شيء، فلا يمين له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾^(١).

وعلى قراءة ابن عامر: ﴿إِنَّهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ففي معنى الآية الكريمة وجهان واضحا معروفاً من التفسير:

أحدهما: أن المراد بالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الذي هو دين الإسلام، يعني: لا إسلام لهم ولا دين.

القول الثاني: - وهو أظهرهما - أنه مصدر: (أَمَّنَهُ يَوْمِنُهُ إِيمَانًا) إذا أَمَّنَهُ وجعله في مأمن. فالعرب تقول: «أمنت فلاناً أو منه» معناه: أمنتته وجعلت له الأمان، وهو معنى مشهور في كلام العرب؛ منه قول الشاعر^(٢):

أَيَانَ نُؤْمِنُكَ تُؤْمِنُ غَيْرَنَا وَإِذَا لَمْ تُدْرِكِ الْأَمْنَ مِنَّا لَمْ تَزَلْ حَذِيرًا
وهذا أظهر القولين؛ لأن نفي الإيمان عن أئمة الكفر معروف واضح.
وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾.

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ متعلق بقوله: ﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ فقاتلوهم لأجل أن يكون قتالكم لهم رادعاً وسبباً لانتهائهم.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٣) أن من أشهر معاني (لعل) في القرآن معنيان:

أحدهما: أنها على معناها الظاهر من الترجي، والمعنى: قاتلوهم على رجائكم أن ذلك القتال يكون موجباً لانتهائهم عن الكفر والطعن في الدين، وهذا بحسب ما يظهر للناس الذين يجهلون العواقب، أما الله (جلّ وعلا) فهو عالم بما كان وما يكون، وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا

(١) انظر: المبسوط للسرخسي (١٤٧/٨).

(٢) البيت في البحر المحيط (٤١٩/٤)، الدر المصون (٥٢٩/٥).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٢) من سورة البقرة.

لَعَلَّكُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿ طه: آية ٤٤ ﴾ أي: على رجائكما بقدر علمكما أن يكون ذلك سبباً لأن يتذكر أو يخشى.

الوجه الثاني: هو ما قاله بعض علماء التفسير من أن كل (لعل) في القرآن فهي بمعنى: التعليل، إلا التي في الشعراء ﴿ وَتَسْخُدُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: آية ١٢٩] قالوا: هي بمعنى كأنكم تخلدون. وإتيان (لعل) بمعنى التعليل معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

فَقُلْتُمْ لَنَا كُفُّوا الْحُرُوبَ لَعَلَّنَا نَكْفُ وَوُثِّقْتُمْ لَنَا كُلَّ مَوْثِقٍ
فقوله: «كفوا الحروب لعلنا نكف» أي: كفوا لأجل أن نكف عنكم.

وقوله: ﴿ يَنْتَهُونَ ﴾ أي: يرتدعون ويكفون وينزجرون عما هم عليه من الكفر والطعن في الدين.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة من سورة براءة: أن الذي يطعن في دين الإسلام بلسانه ويستخف به أنه يُقتل^(٢)، أما إذا كان ذمياً عَقِدَتْ له ذمة المسلمين فطعن في الإسلام أو سب النبي ﷺ فالجمهور على أنه يُقتل^(٣)؛ لأن ذلك ينتقض به عهده ويبطل به عهده. وقال بعض العلماء: إنه لا يقتل ولكنه يُؤدَّب ويُعزَّر؛ لأنه أعطي له الأمان وهو على كفره. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ أي: قاتلوهم لعلهم ينتهون عن كفرهم.

/ قال تعالى: ﴿ أَلَا تَقُولُونَ قَوْمًا نَزَكُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَكُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَرِهَ اللَّهُ فَأَلَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: آية ١٣].

ب/٢

(ألا) هنا حرف تحضيض، والتحضيض معناه الطلب بحث وشدّة.

(١) السابق.

(٢) انظر: القرطبي (٨٢/٨).

(٣) السابق (٨٣/٨).

والمعنى: إن الله هنا طلب منهم بِحَثِّ وشدة أن يقاتلوا هؤلاء الكفرة أمة الكفر، وبيّن لهم أن قتالهم إياهم الذي حَضَّض عليهم فيه أن له أسباباً متعددة، كل واحد منها يستوجبه بانفراده، فكيف بها مجموعة؟

الأول منها: أنهم نكثوا أيمانهم.

الثاني: أنهم هموا بإخراج الرسول (صلوات الله وسلامه عليه).

الثالث: أنهم بدؤوكم بالقتال.

فهذه الأسباب حرية بأن يُقاتل الذين اقترفوها وجاؤوا بها. وهذا معنى قوله: ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا﴾.

قد قدمنا مراراً^(١) أن (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وأنه في الوضع العربي يختص بالذكور دون الإناث، بدليل قوله: ﴿لَا يَسْحَرَّ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا يَسَاءُ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: آية ١١] وأن المرأة ربما دخلت في اسم (القوم) بحكم التبع إذا اقترن بما يدل عليه، كقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَتَّبِعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقال بعض العلماء: سمي قوم الرجل قوماً لأنه لا قوام للإنسان إلا بجماعة ينضم إليها ويدخل في جملتها. وهذا معنى قوله: ﴿قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم، أو نقضوا العهود وأخلوا بالأيمان التي حلفوها توكيداً للعهود.

﴿نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣]

الجماهير على أن هؤلاء الذين هموا بإخراج الرسول هم كفار مكة^(٢) حين دبروا له المكيدة التي قدمناها موضحة في سورة الأنفال^(٣) في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُنِيبُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: آية ٣٠] والله (جل وعلا) نص في بعض الآيات أنهم أخرجوه بالفعل؛ لأنهم في الحقيقة

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (٨/٨٦)، الأضواء (٢/٤٣٠).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

اضطروه وألجؤوه (صلوات الله وسلامه عليه) إلى الخروج؛ لأن عمه أبا طالب ما دام حياً كان يكفهم عنه، ويردعهم عنه، ولا يقدر أن يبلغوا منه المبلغ الذي بلغوا بعد أن مات، وكان يقول له^(١):

واللّٰه لئن يصلوا إليك بجمّهم حتى أوسد في التراب دفيناً
اصدع بأمرك ما عليك غضاضةً

فلما توفي أبو طالب ضيقوا عليه حتى خرج (صلوات الله وسلامه عليه) ودخل هو وصاحبه الصديق في الغار كما ستأتي قصة ذلك مفصلة في هذه السورة الكريمة - سورة براءة - حيث نصّ الله عليه فيها. وقد قال جل وعلا:

﴿وَكَايِنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ هِيَ أَسَدٌ قُوَّةٌ مِّن قَرِيْبِكَ أَلْقَىٰ أَخْرَجَكَ﴾ [محمد: آية ١٣] فصرّح بأنهم أخرجوه. وقال (جل وعلا): ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: آية ١] وقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: آية ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: آية ٧٦] إلى غير ذلك من الآيات.

والرسول هو سيدنا محمد (صلوات الله وسلامه عليه). وأصل الرسول (فَعُول) بمعنى (مُفَعَّل) رسول بمعنى مُرسل. وأصل الرسول مصدر، وإتيان المصادر على وزن (الفعول) مسموع بقلّة، كرسول بمعنى الرسالة، وقبول، وولوع، في أوزان قليلة^(٢). والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، ومن إطلاقه مصدراً قول الشاعر^(٣):

لقد كذّب الواشونَ ما فُهِتْ عندهم بقولٍ ولا أرسلتْهم برسولٍ
يعني: ما أرسلتْهم برسالة. ومن فوائد كون أصل الرسول مصدراً؛ لأن هذا الأصل يُحل به بعض الإشكالات في القرآن؛ لأن من المقرر في

(١) الأبيات في البداية والنهاية (٤٢/٣)، ولفظ البيت الثاني هناك:

فامض لأمرك ما عليك غضاضة أنشُرَ وقرَّ بذاك منك عيونا

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

علم العربية أن المصدر إذا نُعت به ألزم الأفراد والتذكير، وربما تنوسي كونه مصدراً فُجمع^(١)، وقد جاء (الرسول) مجموعاً بلفظ المفرد، وقد جاء مثني بلفظ المفرد؛ لأن الله قال في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولًا رَّبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا﴾ [طه: آية ٤٧] فثنى، وقال في سورة الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بالأفراد. ووجه الأفراد في آية الشعراء: أن أصل الرسول مصدر، والمصادر إذا نُزلت منزلة الأوصاف أُفردت وذُكرت، ويدل لهذا أنه سُمع في لغة العرب إطلاق الرسول مراداً به الجمع؛ لأن أصله مصدر، ومنه بذلك المعنى قول أبي ذؤيب الهذلي^(٢):

أَلِكْنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ أَغْلَمُهُمْ بِنُوحِي الْخَبَرِ
يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿وَهَكُومًا يَخْرِاجُ الرَّسُولِ﴾.

ثم قال: ﴿وَهُمْ بَدَأُكُمْ أَوْلَك مَرَّةً﴾ [التوبة: آية ١٣] حذف المتعلق لقوله: ﴿بَدَأُكُمْ﴾ والظاهر أن المعنى: بدؤوكم بالقتال والعدوان عليكم أول مرة، واختلف العلماء في وجه ذلك على قولين^(٣):

أحدهما: أن ابتداءهم للقتال هو ما قدمناه مفصلاً في سورة الأنفال في غزوة بدر؛ لأن النبي ﷺ خرج فيها للغير خاصة ولم يخرج للقتال، فلما سآحل أبو سفيان بالغير، ونجت العير، واستنفر النفير، وجاءهم الخبر أن عيرهم قد سلمت، كان من حقهم في ذلك الوقت أن يرجعوا، كما أشار عليهم به عمير بن وهب وعتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، ولكن الخبيث أبا جهل قال: والله لا نرجع حتى نرد بدرأ - وكانت من مواسم العرب - وتعزف علينا الغواني، ونشرب الخمر. وفي بعض الروايات أنه قال: لا نرجع حتى نستأصل محمداً وأصحابه^(٤). فلما

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٨٦/٨).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة الأنفال.

نجت غيرهم وجاؤوا بعد ذلك إلى بدر معناه أنهم يريدون الشر، فكان هذا ابتداءهم بالشر.

وقال بعض العلماء: - وهو أظهرهما - أن معنى: ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ﴾ أي: بدؤوكم بنقض العهود وقتل من كان داخلاً في حلفكم كما وقع من قريش في إيعانتهم لبني الدليل بن بكر على خزاعة فقتلوهم، كما قال راجزهم^(١):

هَمَّ بَيَّئُونَا بِالْوَتِيرِ هُجْدَاً وَقَتَلُونَا رُكْعَاً وَسُجْدَاً
فابتداء هذا القتل كأنهم بدؤوا بالقتل ونقض العهود، وخرافة في ذلك الوقت لهم حكم أصحاب النبي ﷺ لدخولهم في عهده. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوْلَك مَرْؤُ﴾ كان في المرة الأولى ابتداء السوء حاصلًا منهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوْلَك مَرْؤُ﴾ [التوبة: آية ١٣].

ثم إن الله لما أمر النبي ﷺ وأصحابه بقتال الكفار أنكر عليهم أن يخافوا الكفار، قال: ﴿أَتَحْشَوْنَهُمْ﴾ بهمزة الإنكار. يعني: لا تخشوا هؤلاء أبداً فإنهم كفرّة فجرّة، والله (جل وعلا) أحق أن تخشوه فتمثلوا أمره، وتقاتلوا أئمة الكفر الذين هموا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالشر أول مرة. وهذا معنى قوله: ﴿أَتَحْشَوْنَهُمْ﴾.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (إن) في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ تشكل دائماً على المتعلمين وبعض العلماء^(٢)، و(إن) هذه هي التي اختلف فيها البصريون والكوفيون، وهي كثيرة في القرآن، فالبصريون يقولون: إن (إن) هذه أنها صيغة شرط جيء بها مراداً بها التهيج وقوة الحمل على الامتثال، وهو أسلوب عربي معروف، أن العرب تنطق بأداة الشرط ولا تريد به حقيقة تعليق جزاء على شرط،

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

وإنما تريد به التهيج والدعوة الصارمة إلى الامتثال، كما تقول للرجل: «إن كنت ابن فلان فافعل لي كذا» وأنت تعلم أنه ابن فلان، إلا أنك تستهضه وتستحته، ومن هذا المعنى قول واحد من أولاد الخنساء لما أوصتهم بالجهاد في سبيل الله^(١):

لَسْتُ لَخِنَسَاءٍ وَلَا لِلْأَخْرَمِ وَلَا لِعَمْرٍو ذِي الثَّنَاءِ الْأَقْدَمِ
 إِن لَمْ أَرِدْ فِي الْجَيْشِ جَيْشَ الْأَعْجَمِيِّ ماضٍ عَلَى الْهَوْلِ خِضَمَ خِضْمِ
 يعني: إن لم أرد في الجيش فلست ابناً لأبي ولا لأمي. لا يقصد التعليق وإنما يقصد تحريض نفسه على هذا. هذا معناها عند البصريين فيما يصح فيه هذا وفيما لا يصح فيه هذا كقوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الفتح: آية ٢٧] وهم داخلوه قطعاً. وقوله ﷺ في أحاديث الزيارة: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»^(٢) وهم لاحقون بهم قطعاً، قالوا: السر في هذا التعليق ليعلم الله خلقه أنهم لا يتكلمون عن مستقبل إلا بتعليقه على مشيئة من له المشيئة، ولو كان أمراً واقعاً لا محالة فكيف بغيره.

أما الكوفيون فإنهم يقولون: إن (إن) هذه بمعنى (إذ) وأنها تعليلية، ويقولون: «فالله أحق أن تخشوه إذ كنتم مؤمنين» أي: لأجل كونكم كنتم مؤمنين فذلك يستوجب منكم الخشية، وإطلاق (إن) بمعنى (إذ) ربما سمع في كلام العرب، وأنشد له بعض علماء العربية قول الفرزدق^(٣):

أَتَغَضَّبُ إِنْ أَدْنَا قُتَيْبَةَ حُرَّتَا جَهَاراً وَلَمْ تَغَضَّبْ لِقَتْلِ ابْنِ خَازِمٍ
 يعني: أتغضب لأجل «إذ حُرَّتْ أَدْنَا قُتَيْبَةَ؛ لأجل أن حُرَّتَا» وهذان الوجهان في قوله: ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣].

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما عند تفسير الآية (١١٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

قال تعالى: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥].

[﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ﴾^(١) وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ^(٢)]

لما أمر الله النبي ﷺ وأصحابه بمقاتلة أمة الكفر وعدمه وعده الجميل - وهو لا يخلف الميعاد - ليستنشط همهم بهذا الوعد على امتثال الأمر ﴿قَتَلُوهُمْ﴾ أي: قاتلوا الكفرة وأئمة الكفر ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ «يعذب» فعل مضارع مجزوم بجزاء الطلب، وجماهير من علماء العربية يقولون: إن جزم المضارع في جزاء الطلب أن أصله مجزوم بشرط مقدر دل الأمر عليه، وتقديره: إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم. وهو جائز^(٢)، فالجزم يجوز، ولو لم يجزم لكان جائزاً؛ لأن الجزم في جزاء الطلب لم يتعين. ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هذا التعذيب الذي يعذبهم الله بأيديهم هو القتل بالضرب الوجيع الذي يصل به صاحبه إلى النار.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ﴾ أي: يذلهم ويهينهم بالأسر، فإن القتل تعذيب، والأسر خزي وإهانة وإذلال، وهذا معنى قوله: ﴿يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ﴾. ﴿وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويعنكم عليهم حتى تقتلوا منهم وتأسروا.

﴿وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] (يشف) معناه: يداوي داء قلوبهم؛ لأن المؤمن يكون وغير الصدر خانقه على الكافر، كأن قلبه مريض لما فيه من شدة الغضب، وكون صدره وغراً على الكفار لكفرهم بالله وقتلهم للمسلمين فإذا أمكنه الله منهم وقتلهم وأسره شفى ذلك صدره لأن الغيظ كأنه داء كامن في صدره، والتمكن من الأعداء والتسليط عليهم وقتلهم وأسرهم يشفي ذلك الداء الكامن في الصدر،

(١) أول الآية ذهب من التسجيل. وقد أثبت أولها وجعلته بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٩) من سورة البقرة.

فينشرح الصدر، ويزول ما كان فيه من كامن المرض الدفين والحقد على الكفار. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور مبتذل جداً، ومنه قول مهلهل بن ربيعة^(١):

ولكننا نَهَكْنَا القومَ ضَرْباً على الأثباج منهم والنحورِ
هتَكْتُ به بيوتَ بني عبادٍ وبعضُ القتلِ أشفى للصدورِ

لأن طالب الثأر كأنه وَغِر الضمير حران فإذا قتل صاحبه بردت غلته وشفى ما في صدره. وهذا كثير معروف في كلام العرب مشهور. وهذا معنى قوله: «وَيَشْفُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» [التوبة: آية ١٤] قال جماهير من أهل التفسير: إن المراد بالقوم المؤمنين أنهم خزاعة^(٢) حيث تمالأ عليهم البكريون وقريش وقتلوه في الحرم، واستنجدوا بالنبي ﷺ لما أرسلوا عمرو بن سالم في قوم منهم بديل بن ورقاء، وقال عمرو رجزه الذي ذكرنا قبل هذا. وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا نصرت إن لم أنصر بني كعب»^(٣) يعني من خزاعة، وقد كان ذلك سبباً لغزاة الفتح، وقد قتل جماعة من المشركين يوم الفتح، قال بعض المؤرخين: قتل منهم اثنا عشر رجلاً يوم فتح مكة، والأظهر كما قدمنا مراراً أن أهل مكة قُتلت منهم جماعات. وقد جاء في صحيح مسلم ما يدل على ذلك^(٤)، ويدل على ذلك رجز حماس بن قيس المشهور الذي هو مشهور عند العلماء؛ لأن حماس بن قيس كان في مكة، وكان يقول لامرأته: لأخدمك نساء محمد ﷺ، ولأجعلهن لك خدماً. وكان يقول لها: إذا جئتك منهزماً فأغلقي الباب دوني. فكان في ذلك اليوم في الطائفة التي وقع فيها القتل والقتال فجاءها مذعوراً منهزماً، وكان يقول قبل يوم الفتح^(٥):

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) انظر: ابن جرير (١٦٠/١٤)، القرطبي (٨٧/٨).

(٣) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنفال.

(٤) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٥) تقدمت هذه الآيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال، وقد أثبتنا نصها هناك من

إِنْ يُقْبِلُوا الْيَوْمَ فَمَا لِي عَلَّةٌ هَذَا سِلَاحٌ كَامِلٌ وَأَلَّهُ
وَدُوٌّ غِرَارِزَيْنِ سَرِيْعُ السَّأَلِ

فلما جاء زوجته ووجهه كأنه زعفران من الخوف، وقال لها تفتح له
الباب، فقالت له: أين الذي كنت تقول؟ فقال^(١):

إِنَّكَ لَوْ شِهِدْتَ يَوْمَ الْحَنْدَمَةِ إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرَمَةُ
وَاسْتَقْبَلْتَنَا بِالسُّيُوفِ الْمُسْلِمَةِ لَهُمْ نَهِيَةٌ خَلْفَنَا وَهَمَّهَمَةٌ
يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَةٌ ضَرْباً فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا عَمَّغَمَةً
لَمْ تَنْطَقِي بِاللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ

وهذا صريح في أنهم قاتلوا وقتلوا. وفي صحيح مسلم: أنهم لم يتعرض لهم
ذلك اليوم أحد إلا أناموه^(٢) كما هو معروف. وقد ذكرناه مفصلاً في سورة
الأنفال^(٣). فهذا القتل قتل قريش وإذلالهم وقهرهم، شفى صدور الخزاعيين حيث
أخذوا بثأرهم وأذل الله عدوهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: الآيتان ١٤، ١٥] لِمَا
نالوا من شفاء غليل صدورهم من قهر أعدائهم كما قال الشاعر^(٤):

تَعَلَّمَ شِفَاءَ النَّفْسِ قَهْرَ عَدُوِّهَا فَبَالَغَ بِلَطْفِ فِي التَّحْيِيلِ وَالْمَكْرِ
وهذا معنى ﴿وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾.

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ قراءة الجمهور: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾
لأنها ليست معطوفاً على الجزاء، والأفعال المعطوفة على الجزاء جُزمت،
والقراءة هنا هي الجزم.

أما اللغة فيجوز في الأفعال المعطوفة على الشرط والجزاء معاً بعد أن

(١) تقدمت هذه الآيات عند تفسير الآية (١٥١) من سورة الأنعام، وقد أثبتنا نصها هناك من
بعض المصادر.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٣) السابق.

(٤) البيت في أوضح المسالك (٢٩٥/١)، شذور الذهب ص ٣٦٢.

تستكمل أداة الشرط شرطها وجزاءها، فالأفعال المعطوفة عليها معلوم أنها يجوز فيها ثلاث لغات: الجزم كما في قراءة هذه الآيات، والرفع، والنصب، وهو معنى معروف في كلامهم، وفي أوجه العربية الثلاثة يروى قول نابغة ذبيان^(١):

فإن يَهْلِكْ أبو قابوسَ يَهْلِكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ
ونأخذُ بعده بِذَنابِ عيشٍ أَجَبَ الظَّهرَ ليسَ لَهُ سَنامُ

فيه: «ونأخذُ»، «ونأخذُ»، «ونأخذُ» بالجزم، والنصب، والفتح. وهذا معنى قوله: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ بعد ذلك يتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه، قد يوفق بعض المشركين فيتوبون إلى الله ويتوب عليهم. وتوبة الله على عبده هي أن يقبل عشرته، ويقبل منه رجوعه حتى يكون الذي صدر منه كأنه لم يكن.

﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ أن يتوب عليه، فمفعول المشيئة محذوف.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ كثير العلم يبالغ في علم نفسه لإحاطة علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ لأنه حكيم في شرعه وفي أقواله وأفعاله وتدبيره وجزائه، فهو حكيم في كل شيء، وله الحكمة البالغة (جل وعلا).

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَى اللَّهِ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ بِالْمَسْجِدِ الْقَرْبِيِّ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ [التوبة: الآيات ١٦ - ١٩].

يقول الله (جل وعلا): ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: آية ١٦].

(أم) هنا هي المنقطعة. ومعنى (أم) المنقطعة عند علماء العربية: أنها تأتي بمعنى استفهام الإنكار، وبمعنى (بل) الإضرابية، وتأتي بمعناها معاً، وهو أجودها^(١).

و(حسبتم) معناه ظننتم. والإنكار الذي في قوله: «أم» يتوجه إلى من ظن أنه يدخل الجنة من غير ابتلاء ولا امتحان. والمعنى: أحسبتم، أي: أظننتم أن الله يترككم من غير أن يختبركم بالمشاق التي يظهر بالاختبار بها المطيع من العاصي، والمحق من المبطل، والصادق من الكاذب؟ والمعنى: لا بد أن يتليكم الله ويمتحنكم بأنواع الابتلاء، ومن أعظمها: الأمر بالجهاد في سبيل الله الذي فيه تعريض المهج والأموال للتلف والضياع؛ لأن ذلك يظهر به الزائف من الخالص، ويتبين به الصادق من الكاذب، وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ يعني أظننتم؟ الحسبان معناه الظن ﴿أَنْ تُتْرَكُوا﴾ أن يترككم الله من غير اختبار ولا امتحان ولا ابتلاء؟ لا. لا يكون ذلك أبداً ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ هي (لم) النافية دخلت عليها (ما) المزيدة لتوكيد النفي، وهي تدل على توقع حصول الأمر ولم يحصل بالفعل. وقوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ أي: يترككم الله ولم يختبركم اختباراً يُعلم به من هو الصادق منكم ومن هو الكاذب، ومن هو المخلص وغيره.

وهذه الآيات وأمثالها في القرآن التي ربما يفهم الجاهل منها أن الله يختبرهم ليظراً له علم بذلك الاختبار، هذا لا يُراد؛ لأن عالم الغيب والشهادة، عالم بما كان، وما سيكون، وما يقع، وعالم بالمعدومات والموجودات، والجائزات والمستحيلات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في علمه أنه لا يوجد وأنه لا يكون

(١) انظر: الكليات ص ١٨٢، معجم الإعراب والإملاء ص ٧٨.

يعلم أن لو كان كيف يكون، كما أوضحناه مراراً^(١).

وجرت العادة في القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا جاء عنه بعض الآيات التي فيها شبه خفاء لا بد أن يبيّنه ويوضحه في بعض المواضع، وقد أوضح هذا في آية من سورة آل عمران قدمناها مراراً، أوضح فيها أنه يختبر ويبتلي ليُظهر للناس حقيقة الناس، ويعلموا المخلص من الزائف، والصادق من الكاذب، وتلك الآية هي قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] بين أن ما أوقع بهم يوم أحد من تسليط المشركين عليهم وقتل سبعين منهم أنه فعل ذلك لأجل أن يتليهم ويختبرهم ويمحص ما في قلوبهم، فظهر المنافقون من الصادقين، ومع هذا قال بعد قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: آية ١٥٤] ومن هو عالم بما يخطر في الضمائر لا يستفيد بالاختبار علماً سبحانه (جلّ وعلا) عن ذلك. فالمراد بـ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ هنا إظهار معلومه للناس، أو العلم الذي يترتب عليه الثواب والجزاء؛ لأن الله عالم بأفعالهم قبل أن يفعلوها، وعلمه بها أولاً لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وعالم أيضاً بها وقت فعلها وذلك العلم الذي يترتب عليه الثواب والعقاب. وقال البغوي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ يعني: أحسبتم أن يترككم الله ولم ير الله عملكم حتى يتبين للناس المخلص من غيره^(٢).

وعلى هذا التفسير الذي فسرنا به فالمعنى يشبه قوله: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ١٠٥] وعلى كل حال فيجب على كل مسلم أن يعتقد أن علم الله محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما سبق في علمه أنه لا يكون يعلم أن لو كان كيف يكون. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٣) الآيات الكثيرة الدالة على إحاطة

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

(٢) تفسير البغوي (٢/٢٧٣).

(٣) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

علمه حتى بالمعلومات الذي سبق في علمه أنها لا توجد، وأنه عالم بأنها لو وجدت أنها لا تكون، وأنها لو كانت يعلم كيف تكون، دلت على هذا آيات كثيرة من كتاب الله، كقوله في سورة الأنعام: ﴿فَقَالُوا بَلَّغْنَاكُمُ الْبُرْءَ وَلَا تَكْذِبْ بِآيَاتِنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] إذا رأى الكفار الحقائق يوم القيامة ندموا على تكذيب الرسل وتمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليؤمنوا ويصدقوا الرسل، وهذا الرد الذي تمنوه الله عالم بأنه لا يكون، ومع ذلك فقد صرح بأن هذا الرد الذي لا يكون هو عالم أن لو كان كيف يكون، كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله ثبتهم عنها لحكمة وإرادة كما صرح به في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٦] وخروجهم هذا الذي لا يكون صرح بعلمه أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧].

ونظائر هذا كثيرة في كتاب الله (جل وعلا) وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ [التوبة: آية ١٦] يعني: يعلمهم علماً يظهرهم به للناس حتى يتميزوا به، أما هو فهو عالم بكل ما يصنعون وما يؤولون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ [المؤمنون: آية ٦٣] يعلمها قبل أن يعملوها. وهذه الآية نص الله على ما دلت عليه هنا في آيات كثيرة كقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا يُبْعَثُونَ يُخَالِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْكُمْ صُفْرًا وَلَا تُحِطُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ فِي الْفَجْرِ إِسْرَارًا وَيَتَّبِعُ الْمُكْفِرِينَ لَمَّا خَمِرُوا الْفَجْرَ إِحْسَارًا فَسَفَعَبُوا وَمِمَّا يُضِلُّهُمْ أَنَّمَا فَتَنَّاهُهم فَاسْمَعُوا وَالَّذِينَ يَسْمَعُونَ يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: آية ١١٠] ونظائرها قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ١٤٢] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا﴾ الآية [البقرة: آية ٢١٤]. وقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذِنِ اللَّهُ وَيَعْلَمِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤].

نَافِقُونَ ﴿١٦٦﴾ [آل عمران: الآيتان ١٦٦، ١٦٧] أي: يميز بينهم بما يعمله من الاختبار ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: آية ١٧٩] ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوا أَعْبَارَكُمْ﴾ [محمد: آية ٣١] إلى غير ذلك من الآيات القرآنية المصراحة بأنه قد اقتضت حكمة الله أن لا يترك خلقه من غير ابتلاء وامتحان بل لا بد أن يمتحنهم ويبتليهم بالشدائد والعظائم ليظهر الذي هو على الحق من الذي هو على الباطل، ويتبين الصادق من الكاذب. وهذا معنى قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رُسُلِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: آية ١٦].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا﴾ معطوف على فعل الصلوة، والمعنى: ولما يعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الذين لم يتخذوا من دون الله وليجة. والمعنى: لا بد أن يمتحنكم حتى يُعلم المجاهد في سبيل الله والمخلص الذي لم يتخذ وليجة من دون الله ولا رسوله؛ لأن بعض الناس ظهر نفاقهم وبعضهم ظهر اتخاذهم الوليجة من دون الله.

واعلم أن الوليجة في لغة العرب: كل شيء أدخلته في شيء فهو وليجة^(١). والمراد بها هنا: بطانة السوء؛ لأنهم يدخلون في المسلمين وليسوا منهم؛ لأن كثيراً من غير المخلصين يتخذون أعداء الله أولياء، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، ويطلعونهم على حقائقهم، وهم أعداء للمسلمين، كما كان عبدالله بن أبي وأصحابه يفعلون، هم مع الكفار واليهود، والمعنى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ولم يتخذوا من دون رسول الله، ولم يتخذوا من دون المؤمنين وليجة، أي: أولياء وبطانات سوء يوالونهم دون المسلمين؛ لأن الأعداء خارجون عن المسلمين، فإدخالهم فيهم كأنه وليجة لهم وإدخال لمن ليس منهم فيهم.

(١) انظر: المقاييس في اللغة، كتاب الواو، باب الواو واللام وما يثلثهما. (مادة: ولج)

فالوليعة هنا: بطانة السوء، وأولياء السوء، يتخذهم بعض غير الصادقين في إيمانهم أولياء، كما تقدم في قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: آية ٢٨] فاتخاذ هذه الأولياء هو الوليعة؛ لأن العدو الموالى من المسلمين المُدخل فيهم وليعة فيهم وليس منهم، والعرب تقول للرجل في القوم ليس منهم: هو وليعة. يعني داخل فيهم وليس منهم. ووليعة الأمر: دخيلته، وهؤلاء وليعة فلان، معناه: أصحاب سره وداخله، وتطلق على المفرد والجمع. وهذا معنى ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ [التوبة: آية ١٦] أي: دخيلة من الأعداء يتخذونهم أولياء، ويوالونهم، ويفشون إليهم أسرار المسلمين، كما كان يفعله المنافقون، وهذا المعنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبان بن تغلب:

فبئس الوليعة للهاربين والمعتمدين وأهل الرّيب
وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً﴾ أي: بطانة سوء وأولياء يدخلونهم ويولجونهم في المسلمين وليسوا من المسلمين، بل هم أعداء المسلمين، يفشون إليهم أسرار المسلمين، كما قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يعني: الخبير أخص من العالم، والخبرة أخص من العلم؛ لأن العلم يطلق على كل علم، والخبرة لا تطلق في اللغة إلا على علم خاص، وهو علم الشيء الذي من شأنه أن يخفى، فالعرب تقول في الشيء الذي شأنه أن يخفى: على الخبير سقط، وأنا خبير بهذا. فلو قلت مثلاً: أنا عالم بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، كان هذا كلاماً عربياً، ولو قلت: أنا خبير بأن الواحد نصف الاثنين، وأن الكل أكبر من الجزء، لما كان هذا كما ينبغي؛ لأن العرب لا

تكاد تطلق الخبرة إلا على المعرفة بما من شأنه أن يخفى، كما قال الشاعر في العيافة^(١):

خبير بثو لهبٍ فلا تكِ مُلغياً مَقَالَةً لهبِي إذا الطيرُ مَرَّتْ
ومعنى خبرته (جلّ وعلا): أنه يعلم الخفايا والخبايا كما يعلم الظاهر، فلا تخفى عليه خافية. وهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم الذي نوهنا عنه مراراً كثيرة ولا نزال ننوه عنه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [التوبة: آية ١٧] ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ مساجد هنا ذكرت مرتين: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ والثانية في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾. أما الأولى منهما وهي قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾، فقد قرأه عامة السبعة غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بصيغة جمع التكرير. وقرأه ابن كثير وأبو عمرو: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾. والله شاهدين على أنفسهم بالكفر^(٢).

أما مساجد الثانية وهي قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ فقد أجمع جميع القراء على قراءتها بصيغة الجمع ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ ولم يقرأها أحد بالإفراد كما هو معروف.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ سبب نزولها أن كفار قريش صدوا النبي ﷺ عن البيت الحرام، وقالوا: هو بيتنا ونحن أولياؤه، وافتخروا بعمارة المسجد الحرام، كما يأتي. يفتخرون دائماً ببيت الله الحرام وأنهم عمّاره وأهله، كما سيأتي في قوله: ﴿فَكَتَبَرْنَا عَلَيْهِمْ أَفَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ [المؤمنون: الآيتان ٦٦، ٦٧] وفي

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

القراءة الأخرى: ﴿تَهْجُرُونَ﴾^(١). ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أي: بالبيت، على أظهر التفسيرين؛ لأنهم يتكبرون به بأنهم قطانه وعماره وأولياؤه، فردّ الله عليهم في هذه الآية الكريمة. وقد قدمنا طرفاً من ذلك في سورة الأنفال في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنَفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: آية ٣٤]. وقال هنا: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ ما يصح ولا ينبغي ولا يمكن هذا التناقض؛ لأن المساجد بيوت الله، أُسِّسَتْ عَلَى طَاعَتِهِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِمَا يَرْضِيهِ، وَالْمُشْرِكُونَ كَفَرُوا فَجَرَّةٌ، أَعْمَالُهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ كُلُّهَا كُفْرٌ وَتَمَرْدٌ عَلَى اللَّهِ وَعُدْوَانٌ، كَيْفَ يَكُونُ هَذَا يَجْتَمِعُ مَعَ هَذَا؟! لِأَنَّ الْمَسَاجِدَ إِنَّمَا بُنِيَتْ لَطَاعَةِ اللَّهِ، وَتَوْسُّسِ عَلَى مَا يَرْضِيهِ اللَّهُ (جَلَّ وَعَلَا) وَهَؤُلَاءِ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا كُفْرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَهَذَا مِنَ الشَّيْءِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَ؛ لِأَنَّ فِيهِ اجْتِمَاعَ النِّقِيزِيِّينَ. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو: ﴿يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ هُوَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، مَسْجِدُ مَكَّةَ حَرَسَهَا اللَّهُ.

وقوله: ﴿شُهَدَاءٍ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ هذا محل التناقض؛ لأن عمارة المسجد الحرام فعل المطيعين والمتقربين إلى الله، كيف يفعلون هذا في وقت الحال التي هم شاهدون فيها على أنفسهم بالكفر؟

وقوله: ﴿شُهَدَاءٍ﴾ حال من واو الفاعل في قوله: ﴿يَعْمُرُوا﴾ أي: يعمروها في حال كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر.

قال بعض العلماء^(٢): شهادتهم على أنفسهم بالكفر إنما هي بأفعالهم؛ لأن من سجد ووضع جبهته للصنم فقد شهد على نفسه ونادى بأعظم الكفر وأفظعه. وعلى هذا فهي شهادة حال.

(١) السابق ص ٣١٣.

(٢) في معنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر. انظر ابن جرير (١٦٥/١٤)، القرطبي (٨٩/٨)، ابن كثير (٣٤٠/٢).

١/٣ / وقال بعض العلماء: هي شهادة مقال أيضاً، فهم شاهدون بالحال والمقال. قالوا: يُراد بذلك أنهم في تلبيتهم وطوافهم بالبيت في المسجد الحرام يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك [وقال بعض العلماء: شهادتهم على أنفسهم بالكفر هو أن الكافر إذا قلت له: ما دينك؟ فيقول:]^(١) النصراني نصراني، والصابيء صابيء، والمشرك يقول: مشرك؛ لأنه يعبد مع الله غيره. والله (جلّ وعلا) ذكر مثل هذا من شهادتهم على أنفسهم في غير هذا الموضع كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿١﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [العاديات: الآيتان ٦، ٧] أي: الإنسان، وفيه الأقوال المذكورة هنا. وهذا معنى قوله: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ لأن عمارة مساجد الله هي من القربة والطاعة لله لا تمكن من أحد هو في حال وقت فعله إيّاها شاهد على نفسه بأنه كافر.

وعمارة المسجد الحرام تشمل أمرين:

أحدهما: العمارة الحسية، وهي مَرْمَتُهُ وبنائه وتزيين بنائه.

والثانية: عمارته المعنوية، وهي عبادة الله وطاعته فيه، واللائق بالكفار هنا هو الأول؛ لأنهم كانوا يسدون البيت وقد بنوه، كما قال زهير^(٢):

وَأَفْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قَرِيشٍ وَجُرْهُمِ

وبناء قريش له معروف، حضره النبي ﷺ في صغره كما هو معروف. وهذا معنى قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ [التوبة: آية ١٧].

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الكفرة الشاهدون على أنفسهم بالكفر ﴿حَٰطَتِ أَعْمَلُهُمْ﴾ ومنها عمارتهم للبيت الحرام؛ لأن الكفر يحبط جميع الأعمال. ومعنى

(١) في هذا الموضع وُجد انقطاع في التسجيل. وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

انظر: ابن جرير (١٦٥/١٤)، ابن أبي حاتم (١٧٦٥/٦)، القرطبي (٩٠/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة الأعراف.

﴿حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ﴾ اضمحلت وكانت لا فائدة فيها؛ لأن أفعال الكفار تضمحل ولا تنفعهم يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (١٣) ويقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (١٥) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦) [هود: الآيتان ١٥، ١٦] أما أفعال الكافر من قُربِه فإنها تنفعه في الدنيا؛ لأن الكافر إذا أطاع الله في الدنيا مخلصاً في طاعته لوجه الله كأن يبر والديه، ويصل الرحم، ويقري الضيف، وينفس عن المكروب، ويعين [المظلوم] (١)، فإذا فعل الكافر هذه القرب يقصد بها وجه الله فإن الله يعاوضه في الدنيا ويعطيه ثوابه في الدنيا من الصحة والرزق والمال، ولا شيء له يوم القيامة، كما دلت على هذا آيات من كتاب الله، كقوله: ﴿تُؤْتَىٰ إِلَيْهِمْ أَعْمَلُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾، ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: آية ٢٠]. وثبت معناه في صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه (٢). وهذا معنى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [التوبة: آية ١٧] النار - والعياذ بالله - هي دار الخزي التي أعد الله لأعدائه يوم القيامة. والألف التي بين النون والراء منقلبة عن واو، فأصلها من مادة الأجوف واوي العين، أصلها (نوز) ولذا يقولون في النظر من بعيد إلى النار: تنورتها. فلو كانت يائية العين لقالوا: تنيرتها. قالوا واشتاقها من: نارت الظبية. إذا ارتفعت جافلة؛ لأن طبيعة النار الارتفاع (٣).

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ خلود الكفار في النار خلود أبدي سرمدي لا انقطاع له، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا حِثَّتْ ذُرَّتُهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧]، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (٣٠) [النبا: آية ٣٠]، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: آية ١٦٢].

(١) في الأصل: «الظالم» وهو سبق لسان.

(٢) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

ومعروف في هذا إيراد يورده الكفرة الملاحدة وأذنبهم ومن تعلق بهم يقولون: إن الله (جلّ وعلا) في غاية الحكمة والعدالة، وهو العدل الحكيم (جلّ وعلا) والكافر إنما عصى في الدنيا أياماً معدودة، قالوا: فكيف يكون العمل في أيام معدودة ومحدودة والجزاء دائم لا ينقطع أبداً؟ وأين الحكمة والإنصاف في هذا؟ قبح الله من يقول هذا!! وهذا يتمسك به الملاحدة وأذنب الكفرة^(١).

والجواب عن هذا أن الكافر - قبحه الله - خبثه الذي ينطوي عليه الذي هو سبب كل ما جاءه من البلايا هو دائم أبداً لا يزول ولا ينقطع، فكان جزاؤه دائماً لا يزول ولا ينقطع، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢١] (خيراً) نكرة في سياق الشرط وهي نعم، فلا يكون في قلوبهم خير أبداً في وقت ما كائناً ما كان. ومما يوضح ذلك: أنهم لما عاينوا النار، وشاهدوا الحقائق، وكشف الله غطاءهم عنهم، وعاينوا كل شيء، وتمنوا الرد إلى الدنيا مرة أخرى، صرح الله بأن ما طُبعوا عليه وما جُبلوا عليه من الكفر لا يزول أبداً، وأنه لو ردهم إلى الدنيا لرجعوا إلى كفرهم؛ لأنهم منطوون عليه لا يفارقهم أبداً، كما قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فهذا يدل على أنهم لا ينفكون عن كفرهم، وأنهم دائمون عليه أبداً، فكان جزاؤه دائماً عليهم أبداً، جزاءً وفاقاً، ولله (جلّ وعلا) الحكمة في كل ما يفعله، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير. وهذا معنى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَانٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

[المقرر]^(٢) عند علماء العربية أن (إنما) أداة حصر وإثبات. يعني:

﴿إِنَّمَا يَسْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ العمارة المعنوية بالعبادات وذكر اسم الله فيها،

(١) راجع هذه الشبهة والجواب عنها، عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

والعمارة الحسية، من بنائها وترميمها، هذا كله من شأن المؤمنين، لا من شأن الكفار، وهذا قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنٍ بِاللَّهِ﴾. (من) فاعل قوله ﴿يَعْمُرُ﴾ الذي آمن بالله هو الذي يعمر مساجد الله، لا الكافر الذي عمله ضد لما بنيت له المساجد، فهذا تناقض لا يمكن أن يكون عامراً للمساجد، وعمله ضد ما بنيت له المساجد، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنٍ بِاللَّهِ﴾ أي: صدق به (جلّ وعلا) وبكل ما يجب التصديق به.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هو يوم القيامة. وجرت العادة أن الله يذكر الإيمان باليوم الآخر مع الإيمان به؛ لأن الكفر باليوم الآخر سبب لكل البلايا وأنواع الكفر والجحود؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين: هما: جلب النفع، ودفع الضر، والذي لا يصدق بيوم القيامة لا يرغب في خير في ذلك اليوم، ولا يخاف من شر في ذلك اليوم، فلا ينزجر عن شيء، ولا يرعوي عن شيء؛ ولذا كان التكذيب بالبعث من أشنع أنواع الكفر بالله (جلّ وعلا) وقد صرح الله بأن المكذبين بالبعث والشاكين فيه من حطب جهنم في آيات كثيرة كقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: آية ١١] وقوله في المنكرين للبعث: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْمُكُمْ أَهَذَا كَمَا تَرَبَّأْنَا لِنَفِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾ استفهام إنكار منهم في الخلق الجديد بعد الموتة الأولى، قال الله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: آية ٥]. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ يعني: الصلوات المكتوبات الخمس. ﴿وَأَتَى الزَّكَاةَ﴾ الحقوق الواجبة في الأموال كما بيّناه مراراً.

﴿فَمَسَوْا أُولَئِكَ﴾ جماهير العلماء يقولون: (عسى) من الله واجبة^(١) لأن الله كريم لا يُطمع في شيء إلا هو فاعله لشدة كرمه (جلّ وعلا) وفضله.

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

﴿أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ أي: السالكين طريق النجاة والصواب الموصلة إلى الجنة، وقد جاء عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»^(١) لأن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٨] وقال أبو بكر بن العربي في الكلام على هذا الحديث في قوله: «فاشهدوا له بالإيمان» اشهدوا له شهادة ظاهرة؛ لأن فعله يدل عليها، وتعاهد المساجد يدل على إيمانه ظاهراً كما دل عليه قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أما حقيقة الباطن فهي عند الله جل وعلا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ لم يخف أحداً إلا الله. وفي هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن سؤال معروف، وهو أن يقال: لا يوجد أحد إلا هو يخشى من غير الله، ويخاف من غير الله؛ لأن كل المخاوف والمحاذير جُبلت طبائع البشر على الخوف والخشية منها، والذي لم يخش شيئاً من المخاوف والمحاذير هذا أمر صعب.

والعلماء يجيبون عن هذا بجوابين^(٢):

بعضهم يقول: الخشية التي هي شرك بالله التي يحذر الله منها هي خشية الأصنام، والخوف من المعبودات من دون الله، وهذا النوع دلت عليه آيات كثيرة؛ لأن عبدة الأصنام يخوفون من يسب الأصنام بأن الأصنام ستفعل له وتفعل، كما قالوا لنبي الله هود: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَبَكَ بَعْضَ آلِهَتِنَا

(١) أخرجه أحمد (٦٨/٣، ٧٦)، والدارمي (٢٢٢/١)، والترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التوبة. حديث رقم: (٣٠٩٣) (٢٧٧/٥)، وابن ماجه في المساجد والجماعات، باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة. حديث رقم: (٨٠٢) (٢٦٣/١)، والبيهقي (٦٦/٣)، والحاكم (٢١٢/١، ٣٣٢/٢)، وابن حبان (الإحسان ٣/١١٠). وابن أبي حاتم في التفسير (١٧٦٦/٦)، وانظر: ضعيف ابن ماجه ص ٦٢، المشكاة (٧٢٣)، ضعيف الجامع (١٨٤/١).

(٢) انظر: القرطبي (٩٠/٨).

يَسُورُ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكْفُرُونَ
جَمِيعًا ثُمَّ لَا نُنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ ﴿٥٦﴾ الآية [هود: الآيات ٥٤ - ٥٦]
وكذلك لما خوفوا منها نبي الله إبراهيم (عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام)
وقالوا له: سوف تفعل بك أصنامنا وتفعل، قال لهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا
أَشْرَكْتُمْ وَلَا تُخَافُونَ أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ
الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: آية ٨١] وخوفوا بها
نبي الله (صلوات الله وسلامه عليه)، كما نصّ الله عليه في سورة الزمر في
قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ثم قال رداً عليهم: ﴿الَّذِينَ اللَّهُ يَكْفِ
عَبْدَهُ﴾ [الزمر: آية ٣٦] وفي القراءة الأخرى^(١): ﴿يكاف عباده﴾ وهذا كثير
في القرآن، فهذه الخشية التي يخاف صاحبها من عاقبة الأصنام هذا كفر بالله
وشرك به.

وقال بعض العلماء: هي الخشية الدنيوية من الناس إذا كانت تحمل
الإنسان على أن يعصي الله، كالذي يخشى من الكفار ويجبن عن الجهاد في
سبيل الله، كما تقدم في قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهْ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٣] أما ما يعرض للإنسان من الخوف من الأشياء
والمحاذير بجبلته فهذا أمر لا مؤاخذه به؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها
كما هو معلوم، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا
مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: آية ١٨].

﴿أَجْمَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾
[التوبة: آية ١٩].

قال بعض العلماء: نزلت هذه الآية الكريمة في العباس بن
عبدالمطلب، ذلك أنه لما أسر يوم بدر كان علي بن أبي طالب
(رضي الله عنه) يلومه ويشدد عليه في قتاله للنبي ﷺ، وكان الصحابة

يعيرونه وأصحابه بالشرك بالله، فقال لهم: تذكرون مساوئنا ولا تذكرون محاسننا!! فقال له علي: ألكم محاسن؟ قال: نعم، نحن نعلم بيت الله الحرام، ونسقي الحاج، ونفك العاني، ونفعل ونفعل^(١).

وقال بعض العلماء: نزلت في عثمان بن طلحة، أو شيبه بن طلحة، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبدالمطلب. قال العباس: أنا صاحب السقاية. وقال صاحب بني عبدالدار: أنا سادن البيت، عندي مفتاح الكعبة، لو أشاء لبت فيها. وقال علي بن أبي طالب: صليت إلى القبلة قبل أن يصلي الناس إليها، وذكر الجهاد ونحو ذلك، فأنزل الله: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾^(٢).

وأكثر المفسرين أن سبب نزولها هو افتخار الكفار بسقائتهم الحاج،

(١) أخرج نحوه ابن جرير (١٧٠/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦) وإسناده صحيح، والواحد في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن المنذر وابن أبي حاتم من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). كما أورده عنه مختصراً وعزاه لابن مردويه.

وقد جاء في هذا المعنى جملة من الآثار منها:

١ - الشعبي: أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤)، وابن أبي حاتم (١٧٦٨/٦)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن مردويه وعبدالرزاق وابن أبي شيبه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

٢ - عبدالله بن عبيدة: أورده السيوطي في الدر (٢١٨/٣) وعزاه لابن أبي شيبه وابن مردويه وأبي الشيخ.

٣ - ابن سيرين: أخرجه الواحد في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٨/٣) للفريابي.

٤ - الضحاك: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).

(٢) أخرجه ابن جرير (١٧١/١٤) والواحد في أسباب النزول ص(٢٤٤) عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً. وقد جاء بمعناه عدة آثار منها:

١ - عن الحسن البصري: أخرجه الواحد في أسباب النزول ص(٢٤٤)، وعزاه في الدر (٢١٩/٣) لعبدالرزاق.

٢ - أنس بن مالك (رضي الله عنه): أورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لأبي نعيم في فضائل الصحابة، وابن عساكر.

٣ - السدي: أخرجه ابن جرير (١٧٢/١٤).

٤ - الشعبي: أخرجه ابن أبي حاتم (١٧٦٧/٦).

وعمارتهم المسجد الحرام، وجعلهم ذلك مثل إيمان المؤمنين، وأن لهم من الأجر مثل ما للمؤمنين، فأنكر الله عليهم.

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة حديث مشكل، لأنه خرَّج جماعة عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه)، ومن جملة من خرَّج حديثه مسلم بن الحجاج (رحمه الله) في صحيحه، أن سبب نزولها أن النبي ﷺ كان يوم جمعة وعند منبر النبي ﷺ رجال، فقال واحد منهم: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج. وقال الثاني: لا أبالي أن أفعل شيئاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام. وقال الثالث: الجهاد في سبيل الله أفضل من هذا كله. فزجرهما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وكان هذا يوم جمعة. فإذا صلى الجمعة استفتيت رسول الله فيم اختلفتم فيه. وأنه استفتى النبي ﷺ فأنزل الله: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَقَرَّرِ﴾ سبب نزول هذه الآية على هذا السياق أخرجه مسلم في صحيحه وجماعة^(١)، وهو مشكل جداً؛ لأننا لو فرضنا أن نزولها في المؤمنين لا يناسب قوله في آخرها: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ١٩] فدل على أن الصحيح أنها في الكفار، وهذا الحديث أصله فيه إشكال معروف في سبب نزول هذه الآية الكريمة، وقد أورد أبو عبدالله القرطبي (رحمه الله) في تفسير هذه الآية إزالة هذا الإشكال^(٢)، وكلامه فيه أجود ما وقفت عليه في إزالة إشكاله، قال: إنهم لما اختلفوا وذكر واحد منهم عمارة المسجد، وذكر الثاني سقاية الحاج، وذكر الثالث الجهاد، وسأل عمر بن الخطاب النبي ﷺ، أن النبي إنما قرأ الآية - وكانت نازلة قبل - مستدلاً بها لحكم ما اختلفوا فيه، وهي قوله: ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ فظن الراوي أن قراءة النبي لها أن ذلك وقت نزولها، وذلك ليس بوقت نزولها، فهي نازلة قبل ولكنه ذكرها استشهاداً واستدلالاً لما اختلفوا فيه. وهذا هو الأظهر والله تعالى أعلم.

(١) مسلم في الإمارة، باب: فضل الجهاد والخروج في سبيل الله. حديث رقم: (١٨٧٩)

(١٤٩٩/٣).

(٢) تفسير القرطبي (٩٢/٨).

وقوله: ﴿أَجْمَلْتُمْ سَقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ الظاهر أن (جعل) هنا هي التي بمعنى اعتقد، وأنه أنكر عليهم اعتقادهم تساوي هذين الأمرين وهما بعيد من المساواة، بينهما بون عظيم، وبون شاسع.

وكان بعضهم يقول: لا يبعد أن تكون هي التي بمعنى (صير) أي: صيرتم هذا كهذا وادعيتم أنه مثله.

وقد ذكرنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن لفظة (جعل) تأتي في اللغة العربية لأربعة معان، ثلاثة منها موجودة في كتاب الله، ورابعها موجود في اللغة العربية ولم يوجد في كتاب الله، من هذه المعاني الأربعة: كون (جعل) بمعنى (اعتقد) وجعل التي بمعنى اعتقد أصلها تنصب المبتدأ والخبر مفعولين، ومنها قوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: آية ١٩] وفي القراءة الأخرى^(٢): ﴿الذين هم عند الرحمن إنثاً﴾ والمعنى جعلوا الملائكة إنثاً، أي: اعتقدوهم إنثاً؛ لأنهم لم يصيروهم إنثاً ولا يقدرون، فهي (جعل) بمعنى (اعتقد).

والثانية (جعل) بمعنى (صير) ومنه قوله: ﴿جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدًا﴾ [الأنبياء: آية ١٥] أي: صيرناهم. وهذه أيضاً تنصب المبتدأ والخبر مفعولين.

والثالثة (جعل) بمعنى (خلق) وهي تتعدى إلى مفعول واحد، ومن هذا قوله في أول سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: آية ١] أي: خلق الظلمات والنور، بدليل عطفه على قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

هذه ثلاثة معاني كلها في القرآن: (جعل) بمعنى (اعتقد)، (جعل) بمعنى (صير)، (جعل) بمعنى (خلق).

الرابع منها: (جعل) بمعنى (شرع) جعل يفعل كذا إذا شرع فيه. وهذه

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٠، ١١٢) من سورة الأنعام والآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

(٢) مضت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

ليست موجودة في كتاب الله، وهي موجودة في كلام العرب بكثرة، ومنه قول الشاعر^(١):

وقد جعلت إذا ما قمتُ يُثْقِلُنِي ثوبي فأنهضُ نَهْضَ الشَّارِبِ السَّكِرِ
وهذا معنى قوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩].

والسقاية هي إحدى الوظائف؛ لأن قصي بن كلاب - وهو مُجَمَّع - لما جَمَعَ قريشاً وأخذ سدانة الكعبة من خزاعة، وجمع قريشاً وكان يُسمى مُجَمَّعاً؛ لأنه جمع قبائل قريش بمكة، وهو الذي يقول فيه ابن خذافة^(٢):

أبوكم قُصَيٌّ كان يُدْعَى مُجَمَّعاً به جَمَعَ اللُّهُ الْقَبَائِلَ من فِهْرٍ
جعل الوظائف وهي السقاية والرفادة والندوة واللواء وحجابه البيت
هذه الوظائف كلها جعلها لعبدالدار بن قصي؛ لأن أولاد قصي أربعة:
عبد بن قصي، وكان عبدالدار بن قصي، وعبدالعزيز بن قصي،
وعبد مناف بن قصي. وكان عبدالدار بن قصي أقل أولاده شرفاً وأكثرهم
خمولاً، فأعطاه جميع الوظائف. وجعل إلى عبدالدار السقاية، والرفادة،
والحجابه، ودار الندوة، واللواء.

اللواء هو حمل اللواء في الميدان عند التحام الحرب.

ودار الندوة: هي الدار التي كانوا لا يعقدون ولا يحلون إلا بها،
اشتراها بعد ذلك حكيم بن حزام وباعها وتصدق بثمنها^(٣). ولما قالوا له:
يا أبا خالد: بعث مأثرة قريش!! قال لهم: الشرف بالدين لا بالديار.

والسقاية: كان قصي يجمع أموالاً على قريش يجعل منها الرفادة
والسقاية.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٢) تقدم هذا البيت في سبيل الهدى والرشاد (٢٧٥/١).

(٣) أخرجه الطبراني من طريقين (١٨٦/٣ - ١٨٧) وقال في المجمع (٣٨٤/٩): «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن» ١. هـ.

الرفادة: مال يكون عندهم يكون رفقاً لمن تعطل، إذا مات بعير حاج اشتروا له بعيراً، وإذا افتقر أحد أو انقطعت به النفقة زدوه منه حتى يصل إلى أهله. كل هذا يفعله قصي ويأخذ هذا المال على قريش.

والسقاية: كانوا يأخذون النبيذ والشراب الطيب ويجعلونه في الموسم في الأماكن التي تغشاها الناس، فيأتي الناس فيشربون مجاناً. وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن أعرابياً جاء واستسقاها من سقايتهم فسقوه نبيذاً، فقال الأعرابي: سبحان الله إن الناس يسقون في سقايتهم اللبن والعسل وأنتم تسقون النبيذ!! يعيهم بأن سقايتهم نبيذ. فأخبره ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بهم وسقوه من نبيذها، وأمرهم أن يسقوا الناس منه. قال: لا نزيد على ما أمرنا به رسول الله ﷺ^(١). ومعلوم أن هذا النبيذ الذي أمر النبي بسقيه على تقدير صحة هذا أنه نبيذ لا يسكر كثيره؛ لأن النبيذ الذي يسكر كثيره لا ينبغي أن يقدم على شربه؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»^(٢) كما هو معروف. فهذه هي سقاية الحاج.

والرفادة والحجابه التي هي سدانة البيت كانت كلها لعبدالدار، ولما شبّ أولاد عبد مناف وأرادوا نزع هذه الأشياء من بني عبدالدار، ووقعت المخالفة بين قريش، وتحالفوا للقتال الحلف الذي يقال فيه «حلف المطيين» و«حلف لَعَقَةِ الدَّم» كما هو معروف، ثم اصطلحوا على أن تبقى السقاية والرفادة أن ترد لبني عبد مناف، ويبقى للعبدريين اللواء والندوة وحجابه البيت، أي: سدانة الكعبة حرسها الله. فهذه السقاية كانوا يفتخرون بها ويقولون: نحن نسقي الحاج ونعمر بيت الله!! ويجعلون هذا أفضل ممن يؤمن بالله، فأنكر الله عليهم فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ [التوبة: آية ١٩] الحجاج يقدمون عليكم فتسقونهم ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ كترميمه وبنائه.

﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ لا بد أن يقدر مضاف في أحد الأمرين^(٣). قال

(١) أخرجه ابن سعد (١٣١/٢)، وأورده السيوطي في الدر (٢١٩/٣) وعزاه لابن سعد.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٣) انظر: القرطبي (٩١/٨)، الدر المصون (٣١/٦).

بعض العلماء: يقدر في الأول، والمعنى: أ جعلتم أصحاب سقاية الحاج، أو أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن، أي: كالذين آمنوا بالله؟

وقال بعض العلماء: يقدر المضاف في الثاني «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ» كعمل من آمن بالله. والأمران جائزان، وأظهرهما: تقديره في الأول، والمعنى: أ جعلتم أهل سقاية الحاج وأصحاب عمارة المسجد كالذين آمنوا بالله، لا يكونوا مثلهم أبداً. ويُستأنس لهذا بالقراءة الشاذة المروية عن ابن الزبير وأبي بن كعب وأبي وجزة وغيرهم في قوله: «أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام»^(١) السقاة: جمع الساقى، كقاضي وقضاة. والعمرّة: جمع عامر، ككاتب وكتّبة، وظالم وظلمة. فهي قراءة شاذة إلا أنها يُستأنس بها للمعنى.

والحاج: اسم جنس لكل من يحج بيت الله الحرام، وسقائتهم: كما كانوا يسقون النيذ والشراب الحلو في المواسم أيام الحج.

«وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» كما بناه قريش في صغر النبي ﷺ. جعلتم واعتقدتم هذا «كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» لا يكون مثله.

ثم قال: «لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ» لا يستوي هؤلاء وهؤلاء؛ لأن عمل هؤلاء باطل للكفر؛ لأن الله قال: «وَنَطَّلُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [هود: آية ١٦] وقال (جلّ وعلا): «وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبْكَ مَنْشُورًا» [الفرقان: آية ٢٣] وقال: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [التوبة: آية ١٩] أي: ومنهم الكفرة الذين يفتخرون بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، فهم قوم ظالمون لا يهديهم الله (جلّ وعلا).

قال تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ»^(٢) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ

(١) ذكرها ابن جنبي في المحتسب (٢٨٥/١)، والقرطبي (٩١/٨)، وأبو حيان في البحر

(٢/٥) ولم أجد من عزاها لأبي بن كعب.

وَجَنَّتْ لَمْ فِيهَا نَيْمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَتَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ - ٢٤].

يقول الله (جل وعلا): ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢١﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَمْ فِيهَا نَيْمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٢﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ [التوبة: الآيات ٢٠ - ٢٢].

لما قال أهل مكة مفتخرين بأنهم يسقون الحاج، ويعمرون المسجد الحرام، ويفكون العاني - أي: الأسير - وافتخروا بمثل هذه الخصال، وأنكر الله عليهم تسويتهم بين ذلك وبين الجهاد والإيمان في قوله الذي ذكرنا أمس ﴿أَجَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٩] صرح هنا بأن الإيمان بالله والهجرة والجهاد في سبيل الله أعظم درجة وأفضل مما يفتخر به أهل مكة. والظاهر أن صيغة التفضيل هنا لمطلق الوصف؛ لأن كفار أهل مكة لا درجة لهم في سقاية الحاج ولا عمارة المسجد؛ لأن الله يقول: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ١٧] ومعنى الآية الكريمة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وبكل ما يجب به الإيمان ﴿وَهَاجَرُوا﴾ أوطانهم وديارهم وأموالهم ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإعلاء كلمة الله هؤلاء ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ (درجة): تمييز محول عن الفاعل، أي: أرفع رتبة ومكانة ﴿وَأُولَئِكَ﴾ المذكورون ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ الظافرون بالخط الأكبر؛ لأن العرب تقول: «فاز فلان». إذا ظفر بما كان يتمنى، وظفر بأكبر مطلوب، يقولون: «فاز»: نال الفوز، ومنه: ﴿فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: آية ١٨٥]. والإتيان بضمير الفصل بين المسند والمسند إليه في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يدل على اختصاصهم بالفوز

دون الذين قالوا: نحن نسقي الحاج ونعمر المسجد الحرام. وهذا معنى قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَىٰكَ هُرُّ الْفَأَزُونَ﴾.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير حمزة ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع بَشَّرَهُ يُبَشِّرُهُ. وقرأه حمزة من السبعة^(١): ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾ الآية، فعلى قراءة حمزة: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع (بَشَّرَهُ) ثلاثياً مجرداً (يُبَشِّرُهُ) بالضم. وعلى قراءة الجمهور: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ مضارع (بَشَّرَهُ) بالتضعيف (يُبَشِّرُهُ، تبشيراً).

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٢) أن البشارة في لغة العرب هي الإخبار بما يسر، فكل من أخبرك بما يسرك فقد بَشَّرَكَ، وبَشَّرَكَ على اللغة الأخرى، وأنه يطلق أيضاً على البشارة بما يسوء، فالعرب أيضاً تسمي الإخبار بما يسوء (بشارة) إذا اقترن بما يدل على ذلك، وهو كثير في القرآن، كقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: آية ٣٤] وقد ذكرنا أنه أسلوب عربي معروف. تقول العرب: «بَشَّرَهُ بكذا». إذا أخبره بما يسوؤه، ومنه قول الشاعر^(٣):

يُبَشِّرُنِي الْغُرَابُ بِبَيْنِ أَهْلِي فقلتُ له ثَكِلْتُكَ من بَشِيرِ
وَبَيْنَ أَهْلِهِ مِمَّا يَسُوؤُهُ الْإِخْبَارُ بِهِ. وقول الآخر^(٤):

أَبَشَّرْتَنِي يَا سَعْدُ أَنْ أَحْبَبْتِي حَفَوْنِي وقالوا الوُدُّ موعده الحَشْرُ
فجفاء الأحبة إخبار بما يسوء. ومعلوم أن الذين تكلموا في البلاغة والذين كانوا يقسمون الكلام إلى حقيقة ومجاز يقولون: إن البشارة حقيقة في الإخبار بما يسر، وهي في الإخبار بما يسوء استعارة عندهم، ويجعلونها من الاستعارة المسماة في اصطلاح البيانين بالاستعارة العنادية، ويقسمونها

(١) انظر: الإتحاف (١٩/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٤) السابق.

إلى تهكمية وتمليحية كما هو معروف في محله^(١). ونحن نقرر دائماً أنها أساليب عربية، كلها حقيقة في محله، وقد وضعنا في ذلك رسالة تُسمى (منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز) وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] الرحمة: مصدر رَحِمَهُ، والرحمة من صفات الله (جَلَّ وَعَلَا)، ونحن معاشر المسلمين نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ونثبت له ما أثبت لنفسه، منزهين خالق السماوات والأرض عن مشابهة الخلق، فلا نميل إلى التعطيل، ولا إلى التمثيل، بل نقر بصفات الله ونؤمن بها على سبيل المخالفة لصفات الخلق، كما علمنا الله في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] ومراراً نوضح مذهب السلف في آيات الصفات عند كل المناسبات.

ومعنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: آية ٢١] قرأ هذا الحرف عامة السبعة غير شعبة - أبي بكر - عن عاصم: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراء. وقرأه شعبة عن عاصم ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بضم الراء^(٢) وهما لغتان فصيحتان، وقرءتان صحيحتان؛ لأن العرب تقول في مصدر رضي تقول: رضي يرضى رضاً ورضواناً. وتزيد فيه الألف والنون، والألف والنون تزدان في بعض المصادر كثيراً كالكفران والرجحان والغفران والرضوان. والكسر والضم لغتان فيه، ورضوان الله: رضاه (جَلَّ وَعَلَا)، والرضا أيضاً صفة من صفات الله (جَلَّ وَعَلَا) أثبت لنفسه الاتصاف بها إذا امثلت أوامره واجتنبت نواهيه، كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: آية ٨] ونحن دائماً نوصي أنفسنا وإخواننا وعامة المسلمين أن يعتقدوا في مذهب السلف المعتقد الواضح الذي هو في ضوء القرآن العظيم، الذي لا إشكال فيه ولا قيل ولا قال، وصاحبه يلقي الله سالماً من البلايا التي وقع فيها الناس الذين أكثروا الخوض في ذلك بقيل وقال.

(١) السابق.

(٢) انظر: الإنحاف (٢/٨٩).

وإيضاح مذهب السلف في آيات الصفات كما بيّنه القرآن وأوضحه هذا المحكم المنزل أنه يتأسس على ثلاثة أصول من جاء بها كاملة لقي الله سالماً، ومن أخلّ بواحد منها أوقع نفسه في بلية فلا يدري هل يتخرج منها أو لا؟^(١).

أول هذه الأسس: هو الأساس الأعظم للتوحيد، والحجر الأساسي لمعرفة الله على طريق صحيح، هذا الأساس الأعظم هو: أن يعتقد الإنسان أن خالق السماوات والأرض منزّه عن مشابهة جميع خلقه في جميع صفاتهم وأفعالهم وذواتهم، فالخلق صنعة، والخالق (جلّ وعلا) صانع ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: آية ٨٨] والصنعة لا تشبه صانعها، فمن رزقه الله فهم هذا الأساس عن الله وعلم أن الخلائق صنعة، وأن خالقهم هو صانعهم ومدبرهم ومنشئهم علم أنه لا مناسبة بين صفاته وصفاتهم، وأنه منزّه كل التنزيه، مقدس كل التقديس عن مشابهة خلقه، لا في ذواتهم، ولا في صفاتهم، ولا في أفعالهم. هذا الأساس الأعظم، فمن رزقه الله هذا الأساس، وفهمه عن الله، وطهر قلبه من أدران التشبيه، وأقذار التمثيل، كان يهون عليه بعد ذلك أن يصدق الله فيما وصف به نفسه، ويؤمن بصفات الله على الوجه اللائق بكماله وجلاله^(٢).

وهذا الذي أقوله لكم ليس من تلقاء نفسي بل هو من تعليم خالق السماوات والأرض في المحكم المنزل الذي هو أعظم كتاب أنزله الله على أشرف رسول، لأن الله يقول فيه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: آية ١١] فوضع الأساس الأول الذي هو أساس التنزيه ومخالفة الخلق في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: آية ١١] ثم وضع بعده الأساس الثاني وهو الإيمان بصفات الله على أساس ذلك التنزيه، لا إيماناً دنساً وسخاً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا.. لا، بل هو إيمان منزّه مبني على أساس التنزيه. وقوله: ﴿وَهُوَ

(١) راجع ما تقدم عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الأنعام.

(٢) وهذا هو الأساس، والأصل الثاني من الأصول الثلاثة المشار إليها.

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فيه سر أعظم، ومغزى أكبر، وتعليم عظيم من رب العالمين، كأنه يقول لك: تَعَقَّلْ يا عبدي وتفهم، ولا تنفي عني سمعي وبصري بدعوى أن المخلوقات تسمع وتبصر، وأن إثبات ذلك فيه تشبيه، لا.. لا.. راع في إثبات السمع والبصر أول الآية، وابنه على نفي المماثلة والمخالفة، وارتبط أول الآية بآخرها، فأولها تنزيه، وآخرها إيمان بالصفات على أساس ذلك التنزيه، فلا تقطع أول الآية من آخرها، ولا آخرها من أولها، بل اربط بينهما، ولا تقل: المخلوقات تسمع وتبصر، وإثبات السمع والبصر لله تشبيه. لا، أثبت السمع والبصر، ولكن إثباتاً مبنياً على ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ لا إثباتاً وسخاً نجساً قدراً ذاهباً إلى صفات الخلق، لا.. لا، فأول الآية تنزيه بلا تعطيل، وآخرها إيمان بالصفات وإثبات لها بلا تمثيل.

الأصل [الثالث] (١) من هذه الأصول الثلاثة: هي أن يعلم الإنسان قدره، ويقف عند حده؛ لأن خالق السماوات والأرض أعظم وأجل وأكبر من أن تحيط به العقول المخلوقة المسكينة، والله يقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] فنفى الإحاطة للعلم البشري عن خالق السماوات والأرض نفيًا باتًا.

فمن لقي الله وهو متمسك بهذه الأسس الثلاثة في ضوء كتاب الله لقيه في سلامة وفي غير ندامة. ونحن الآن في طريقنا في إسراع وحث إلى الوقوف بين يدي الله (جلّ وعلا)؛ لأن هذه اللحظات والدقائق والثواني يظن الجاهل أنها هادئة، وأنها واقفة، وهي تقطع بنا آلاف الأميال إلى المحشر، فعن قريب ونحن قائمون بين يدي الله في صعيد واحد، ينفذنا البصر ويسمعنا الداعي، ويسألنا الله، والله يقول: ﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُزِيلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّكَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: آية ٦] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِيهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: الآيتان ٩٢، ٩٣] فيوشك أن يقول لنا: ماذا كان موقفكم من صفاتي التي كنت أثنى بها على نفسي في كتابي، ويثني بها علي رسول الله ﷺ؟

(١) في الأصل: «الثاني»، وهو سبق لسان.

[ولا يقول لك الله: لِمَ نزهتني عن مشابهة خلقي؟ لا والله، لا يقول لك ذلك]^(١) / أبدأ بل تنزيه رب السماوات عن مشابهة خلقه في ذواتهم وصفاتهم وأفعالهم طريق سلامة محققة لا شك فيه، ولا يقول لك الله: لِمَ صدقتني فيما مدحت به نفسي، وأثنت به على نفسي، وأنزلته في كتابي معلماً خلقي أن يمدحوني به؟! لا يقول لك: هذا أبدأ، ولا يقول لك: لِمَ تقف عند حدك، وتقر بما لا تعلم؟ لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُحِطُونَ بِهِ عَلَمًا﴾ بل هي كلها طرق سلامة محققة.

واعلموا أيها الإخوان أن أول البلياء ومنشأ الرزايا كله من أنجاس القلوب بسبب التشبيه، كل البلياء منشؤها الوحيد بسبب أنجاس القلوب من أقدار التشبيه. هذا أصل البلاء والمحن والفتن الذي طبقت وجللت هذه المعمورة؛ لأن السلفي - مثلاً - العامل بضوء القرآن، إذا سمع الله يثني على نفسه بصفة من الصفات التي أثبتتها لنفسه، سواء كانت صفة ذات أو صفة فعل، كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الفرقان: آية ٥٩] امتلاً قلبه إجلالاً وتعظيماً وإكباراً، وعلم أن هذا الاستواء الذي أثنى الله به على نفسه في سبع آيات من كتابه أنه بالغ من غايات الكمال والجلال والتنزيه والتقديس والمباعدة عن صفات المخلوقين ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين. أما إذا كان قلب الإنسان فيه بعض أقدار التشبيه فأول ما يسبق إلى ذهنه أن هذا الاستواء ظاهره استواء المخلوقات - سبحانه الله وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً - فيخطر في ذهنه أنه انتصاب كانتصاب هذا، فيتقدر القلب من أقدار التنجيس والتشبيه، فعند ذلك تأتي البلياء، وبعد ذلك إذا قال: ظاهر هذا هو مشابهة صفات المخلوقين جاءت البلياء من هنا، ثم إنه دعاه شؤم هذا التشبيه إلى أن ينفي هذه الصفة عن الله، ومن ينفي عن الله وصفاً أثبتته لنفسه فهو «أجراً من خاصي الأسد»^(٢). ثم إذا نفى هذه الصفة عنه ذهب يتلمس إلى وصف في زعمه

(١) في هذا الموضع وقع مسح في التسجيل، وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها المعنى.

(٢) انظر: الأمثال لأبي عبيد ص ٣٧٥.

ملائم، ثم يبدل الاستواء بالاستيلاء فيقول: استوى معناه استولى!! ويضرب لهذا مثلاً بقول الراجز في بشر بن مروان^(١):

قد استوى بشرٌ على العراقِ من غير سيفٍ ودمٍ مهراقِ
فهذا غلط شديد كبير أيها الإخوان!! ونحن نرجو الله أن الذين وقعوا فيه من العلماء أن يعفو الله عنهم ويغفر لهم لحسن نياتهم، فهم كما قال الشافعي رحمه الله^(٢):

رَامَ نَفْعاً فَضَرَ من غير قَصْدٍ ومن البرِّ ما يكونُ عُقُوقاً
ونرجو الله ألا يكونوا كالذين قال الله فيهم: ﴿فَدَلَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا يَتَسَوَّونَ﴾ [البقرة: آية ٥٩]. وهذا الذي ذهبوا إليه أعظم وأشر وأضر من الذي فروا منه؛ لأننا نقول: أيها الإنسان الذي ضربت مثلاً لاستيلاء الله على عرشه الذي فسرت به الاستواء من تلقاء نفسك باستيلاء بشر بن مروان على العراق وضربت له المثل ببيت الراجز المذكور:

قد استوى بشرٌ على العراقِ من غير سيفٍ ودمٍ مهراقِ
أما تستحي من الله؟ أما تخاف الله؟ وبأي مبرر سوغت لنفسك أن تشبه استيلاء الله على عرشه الذي زعمت باستيلاء بشر بن مروان على العراق؟ وهل يوجد في الدنيا تشبيه أنتن وأخس وأقبح من هذا؟! شبّهت العرش بالعراق، ورب السماوات والأرض ببشر بن مروان، وهذا يفتح باباً إلى بحور من أنواع التشبيه لا ساحل لها أبداً؛ لأنه فيه تشبيه استيلاء الله على عرشه المزعوم بكل مخلوق قهر مخلوقاً فغلبه فاستولى عليه!! فمن هنا يضطر هذا القائل أن يقول: الاستيلاء الذي فسرت به الاستواء استيلاء منزّه عن استيلاء المخلوقين. ونحن نقول: كيف تنزهه وأنت تضرب له المثل

(١) مضى عند تفسير الآية (١٥٨) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٤٨) من سورة الأنعام.

باستيلاء بشر بن مروان؟ ثم نقول: إذا لزمنا أن ننزه أحد الكلمتين: إما الاستواء الذي نصّر الله عليه في كتابه وأنزله في سبع آيات من القرآن كتاباً يتلى أو الاستيلاء الذي جئت به، أيهما أحق بالتنزيه؟ والجواب: ولا شك أن كلام رب العالمين الذي أنزله وحياً يُتلى من فوق سبع سماوات أحق بالتنزيه من غيره. فمقصودنا أن نبين لإخواننا أن المدار على حفظ القلب والمحافظة عليه من أقدار التشبيه، وأن يعلم الإنسان أن كل وصف وصف الله به نفسه فهو بالغ من غاية الجلال والكمال والإعظام والإكبار والتقدّيس ما يقطع جميع علائق أوهام المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين، فيحمل على أظهر المعاني وأعظمها وأقدسها وأليقها بالله (جلّ وعلا) وأبعدها عن مشابهة صفات المخلوقين.

ولو قال قائل: نحن لا نعقل استواء تدركه عقولنا إلا مثل استواء المخلوقين. فنقول له: وهل عقلت كيفية الذات المقدسة المتصفة بهذا الاستواء؟ فلا بد أن يقول: لا. فنقول: معرفة كيفية الصفات متوقفة على معرفة كيفية الذات، والله يقول: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] والأشياء تختلف بإضافاتها، فالصفة المضافة والمُسندة إلى الله تخالف المضافة والمُسندة إلى غيره كمخالفة ذات الله لذوات خلقه، فصفات الخلق حق، وصفات الله حق، إلا أن صفات الله لاثقة بذات الله، منافية لصفات المخلوقين كمنافاة [ذات الخالق لذوات] (١) الخلق، والإضافات تتغير بها المخلوقات فكيف بما بين الخالق والمخلوق؟ فمثلاً - ولله المثل الأعلى - كلمة (رأس) أعني: كلمة (الراء والهمزة والسين) (رأس) هذه الكلمة إذا أضفتها إلى الإنسان وقلت: رأس الإنسان. وأضفتها إلى الوادي فقلت: رأس الوادي. وأضفتها إلى المال فقلت: رأس المال. وأضفتها إلى الجبل فقلت: رأس الجبل، أليست هذه الإضافات مختلفة في حقائقها، متباينة كل التباين؟ مع أنها مخلوقات حقيرة ضعيفة تباينت وتخالفت لاختلاف إضافاتها، فما بالك باختلاف الواقع بين الخالق والمخلوق؟ لا مشابهة هناك ولا مناسبة بين خالق ومخلوق. فعلينا أن نمشي

(١) في الأصل: «صفة الخالق لصفات». وهو سبق لسان.

على هذا النمط، وإذا سمعنا الله يثني على نفسه بصفة أن نعتقد أنها صفة بالغة من غايات التنزيه والكمال والإجلال ما يقطع علائق أوهام المشابهة بينها وبين صفات المخلوقين، ونؤمن بها على خصوص هذا الأساس من التنزيه، ولا نؤمن بها إيماناً وسخاً قدرأ ذاهباً إلى المشابهة بصفات الخلق، لا.. لا، ثم نقطع الطمع عن إدراك الكيفيات والإحاطة العلمية؛ لأن الله نفاها نفيأ باتأ في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: آية ١١٠] فإننا إذا نكون منزّهين ربنا، مصدقين لربنا، واقفين عند حدنا، وتنزيه الله طريق مأمونة، وتصديق الله ورسوله طريق مأمونة، والوقوف عند الحد طريق مأمونة. وسنبسط على هذا الكلام - إن شاء الله - في بعض المناسبات الآتية. وهذا معنى قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢١].

الجنات: جمع تصحيح للجنة، والجنة في لغة العرب^(١): البستان، فإن العرب تسمي كل بستان جنة، وسيأتي قوله: ﴿كَمَا بَلَّوْنَا أَحْسَبَ الْبَلْتَةَ﴾ [القلم: آية ١٧] والبستان صاحب القصة المعروفة. وإطلاق الجنة على البستان إطلاق معروف مشهور، ومنه قول زهير بن أبي سلمى^(٢):

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ مِنْ التَّوَاضِيحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا
هذا أصل الجنة في لغة العرب، وهي في اصطلاح الشرع: دار الكرامة التي أعد الله لأولياته يوم القيامة، فهي شجرة مثمرة، ونخلة مضطردة، وغرفة عالية، وزوجة حسناء، نرجو الله أن يرزقنا الجنة وما قرب إليها من قول وعمل نحن وإخواننا المسلمين. وهذا معنى قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾.

النعيم: خفض العيش ولينه، وهو ضد البؤس كما هو معروف.

وقوله: ﴿مُقِيمٌ﴾ أي دائم أبداً لا يزول، وهذا كمال النعمة؛ لأن كمال النعمة الإقامة فيها وعدم الانتقال عنها؛ لأن أعظم ما يكدر النعم والمساّر هو أن يفكر الإنسان في أنه يفارقها. فترى الإنسان في لذاته وفي

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٩) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

نعمه وترفه، إذا فكر في أنه غداً يموت عنها، وتنكح نساؤه، وتقسم أمواله، ويذهب عنه كل شيء فزع من ذلك، وأظلمت الدنيا في عينيه، ولم يتلذذ بما هو فيه، وقد صدق أبو الطيب حيث يقول^(١):

أشدُّ الغم عندي في سُرورٍ تيقنَ عنه صاحبُه انتقالاً
وهذا معروف عندهم، فكمال اللذة والنعمة إنما هو بالإقامة أبداً، والله (جلّ وعلا) نصر في آيات من كتابه على أن نعيم الجنة لا ينقطع ولا يزول، كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا سَاءَ رِبِّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾ [هود: آية ١٠٨] فقلوه: ﴿غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾ أي: غير مقطوع أبداً، وكذلك قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] أي: باق لا نفاذ له أبداً، والآيات الدالة على هذا متعددة في كتاب الله، وهذا معنى قوله: ﴿وَجَنَّتِ لَمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [التوبة: الآية ٢٢] على الدوام لا يزولون، كما قال جلّ وعلا: ﴿لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا جُورًا﴾ [الكهف: آية ١٠٨] لا يتحولون عنها إلى غيرها.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الأجر في لغة العرب: جزاء العمل. ومعنى ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: جزاء عملهم وهو الجنة، ووصفه بالعظم لِمَا فِي الْجَنَّةِ مِنْ عَظِيمِ الشَّانِ؛ لأن الله يقول فيها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: آية ١٧] ولأجل هذا وصف هذا الجزاء بالعظم. وقد جاء مفصلاً في القرآن جميع ملاذه، كالمناكح في النساء التي هن في غاية الجمال، والملابس التي هي في غاية الجمال، والمشارب، والأواني، والحلي، والولدان، والغلمان إلى غير ذلك من نعيم الجنة المفصل في آيات هذا القرآن العظيم، وهذا معنى قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢٢].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءِآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ ءَوِيَّةً إِنْ ءَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٣].

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٢) من سورة الأعراف.

سبب نزول هذه الآية الكريمة أنه كان رجال من المسلمين يؤمنون بالله ويريدون الهجرة، فإذا أراد الواحد منهم أن يهاجر إلى رسول الله ليشارك المسلمين فيما هم فيه من الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله جاءت امرأته وأولاده وأبوه وأخوه يناشدونه بالله ألا يذهب عنهم، ويقولون له: إلى من تكلنا؟ ويشبطونه، فبعضهم يمكث من أجل هذا. فنهاهم الله عن هذا، وسيأتي في سورة التغابن آية التغابن النازلة في عوف بن مالك الأشجعي، وهي قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] لأنها نزلت في عوف بن مالك، كان كلما أراد الهجرة جاءت امرأته وأولاده وناشدوه بالله، وقالوا: إلى من تكلنا؟ فيتشبط، فلما هاجر بعد ذلك وجد المسلمين سبقوه بكل خير، فندم وأراد أن يضرب امرأته وأولاده بسبب تشبیطهم إياه. فأمر الله المسلمين أن يتحفظوا من الأولاد والأزواج لئلا يشبطوهم عن الجهاد في سبيل الله، وأنهم إن وقع منهم شيء أن لا يؤاخذوهم، بل يعفوا عنهم ويصفحوا^(١)، كما قال في آية التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: آية ١٤] ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: اصفحوا عنهم واغفروا لهم ولا تؤاخذوهم. وهذا معنى قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] قالوا: لم يذكر الأولاد هنا وذكرها في غير هذا الموضع، لا تتخذوهم أولياء توالونهم إذا كانوا يريدون أن يقطعوكم عن الهجرة.

﴿إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ قرأ الهمزة الثانية من قوله: ﴿أَوْلِيَاءَ إِنْ أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ نافع وابن كثير وأبو عمرو مسهلة بين بين، والباقون بتحقيقها كما هو معلوم^(٢).

ومعنى ﴿أَسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ﴾ معناه: اختاروه وآثروه على الإيمان، إن

(١) الترمذي في التفسير، باب: ومن سورة التغابن. حديث رقم: (٣٣١٧) (٤/٤١٩)،
والحاكم (٢/٤٩٠)، وابن جرير (٢٨/١٢٥) وانظر: صحيح الترمذي (٣/١٢١).

(٢) انظر: الإنحاف (٢/٨٩).

آثروا الكفر واختاروه على الإيمان لا تتخذوهم أولياء، بل قاطعوهم وهاجروا ولا تركنوا إليهم. ويتعدد في القرآن إطلاق (استحب) بمعنى: (اختار) و(آثر) ومنه قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [فصلت: آية ١٧] أي: فاختاروه وآثروه عليه. ومنه قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: آية ٣] أي: يؤثرونها ويقدمونها عليها. وهذا معنى قوله: ﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَمِنْكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٣] فيكون معهم فيما هم فيه ويترك الهجرة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن أصل مادة (الظلم) مادة الظاء واللام والميم، (ظلم) أنها في لغة العرب التي نزل بها القرآن أصلها في الوضع العربي: هو وضع الشيء في غير محله. فمن وضع شيئاً في غير محله تقول العرب: إنه ظلم؛ لأنه وضع الشيء في غير محله. ومنه قالوا للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: «ظالم»؛ لأنه وضع الضرب في غير محله؛ لأنه يفسد زبده، ومنه قول الشاعر^(٢):

وقائلة ظلمتُ لكم سِقَائِي وهل يخفى على العكِدِ الظَّلِيمِ
وقول الآخر^(٣):

وصاحب صدق لم تَرُدَّنِي شَكَاتِهِ ظلمتُ وفي ظلمي له عامداً أجزؤ
أصل الظلم هو وضع الشيء في غير محله، وجاء في القرآن في موضع واحد بمعنى النقص، وهو: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْطَفَهَا وَلَمْ تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ [الكهف: آية ٢٣٣] أي: ولم تنقص منه شيئاً. وأصل الظلم وضع الشيء في غير محله، وأعظم أنواع وضع الشيء في غير محله: الكفر بالله؛ لأنه وضع للعبادة في غير من خلق، فالذي يأكل رزق الله، ويتقلب في نعيمه، ويعبد غيره قد وضع عبادته في غير موضعها، فهو ظالم، وهذا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

أكبر أنواع الظلم؛ ولأجل هذا يكثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم على الكفر، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقد ثبت في صحيح البخاري^(١) أن النبي ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: بشرك. ثم تلا آية لقمان: ﴿يَبْقَىٰ لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا أصل الظلم. وقد يكون ظلم دون ظلم؛ لأن من أطاع الشيطان وعصى ربه بغير ما يكفر به قد وضع الطاعة في غير موضعها، ووضع المعصية في غير موضعها حيث عصى ربه وأطاع عدوه. ومن كفر بالله وضع العبادة في غير موضعها؛ ولذلك هنالك ظلم هو كفر، وهنالك ظلم دون ظلم هو خروج عن طاعة الله لا يبلغ بصاحبه الكفر، وهذا معنى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا الأمر في غير موضعه فاتخذوا من يضرهم أولياء، وتركوا ما ينفعهم من الهجرة والجهاد في سبيل الله. وهذا معنى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: آية ٢٤].

سبب نزولها هو ما أشرنا له آنفاً؛ لأن بعض الناس كان إذا أسلم عاقته هذه العوائق عن الهجرة والجهاد في سبيل الله (جلّ وعلا) بأن تعطله عن ذلك الأبناء والآباء والإخوان والعشائر والزوجات والأموال المكتسبة والتجارات التي يُخاف أن تضيق بالكساد ويضيع ربحها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن الجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ هو أمر تهديد كما يأتي.

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

وقوله: ﴿ءَابَاؤُكُمْ﴾ اسم كان. و﴿أَحَبَّ﴾ خبرها.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا نبي الله لهؤلاء المتخلفين عن الهجرة في سبيل الله بسبب هذه العوائق الآتية، قل لهم: إن كانت هذه الأمور التي عاقتكم أحب إليكم من الله ومن رسوله ومن جهاد في سبيله فانظروا أمراً يأتاكم من الله. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾.

الآباء جمع الأب، والعرب تقول: «أب» إذا نكرتها تعربها على العين وتحذف لامها ولا تعوض منه شيئاً، وهي من الأسماء التي تعرب على العين عند التنكير والتعريف. أما إذا أُضيفت فإن لامها ترجع لها^(١)، وأصل لام (الأب) واو، أصله (أبو) فلام الكلمة واو، فإنها إذا أُضيفت - مثلاً - أعربت بالواو والألف والياء، فرجعت لها لامها كما هو معروف. وإذا نُكِّرت أو عُرِّفت أسقطت لامها وأُعربت على العين^(٢).

والإخوان جمع أخ. وأصل (أخ) أيضاً لامه المحذوفة واو؛ ولهذا رجعت في جمع التكسير في قوله: ﴿وإِخْوَانُكُمْ﴾ فالأخ أصله (أخو) بالواو، فلامه المحذوفة واو^(٣)، وهو كالأب في جميع ما كنا نذكر. هذا معنى قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾. الأبناء جمع الابن وهو معروف.

﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ الأزواج جمع زوج، وزوج الرجل امرأته، ومفرده (زوج) بلا هاء، وهذه هي اللغة الفصيحة. العرب تقول: هذه زوجته، أي: امرأته، وزعم بعض علماء العربية أن قولهم (زوجته) بالتاء أنها من لحن الفقهاء، وأنها لا أساس لها في العربية. والتحقق أن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أنها (زوجه) بلا تاء، وأن التاء لغة فيها مسموعة وليست لحناً كما يقوله بعضهم^(٤). ومن إطلاق الزوجة بالتاء على امرأة الرجل قول

(١) انظر: شرح قطر الندى ص ٤٦.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٧.

(٣) انظر: المصدر السابق ص ١٧.

(٤) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٨٩) من سورة الأعراف.

الفرزدق، همام بن غالب، وهو عربي قح^(١):

وإنَّ الذي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي كَسَاعَ إِلَى أَسَدِ الشَّرِّ يُسْتَبِيلُهَا
ومنه قول الحماسي^(٢):

فشكا بناتي شجوهن وزوجتي والظاعنون إليَّ ثم تَصَدَّعُوا

وفي صحيح مسلم من حديث أنس أن النبي ﷺ قال في صفة: إنها زوجتي^(٣). فالتحقيق أن الزوجة بالتاء لغة لا لحن، وأن اللغة الفصحى في امرأة الرجل أن يقال فيها: (زَوْجُهُ) بلا هاء. وهذا معنى ﴿وَأَزْوَاجَكُمْ﴾ أي: نساؤكم.

﴿وَعَشِيرَتَكُمْ﴾ قرأ هذا الحرف عامة السبعة - غير أبي بكر عن عاصم - (أعني بأبي بكر: شعبة) قرؤوه كلهم ﴿وَعَشِيرَتَكُمْ﴾ بالإفراد. وقرأه شعبة عن عاصم: ﴿وَعَشِيرَاتِكُمْ﴾^(٤) بجمع التصحيح، جمع عشيرة، وعشيرة الرجل ثبت في صحيح البخاري وغيره ما يدل على أنها تشمل إلى الجد العاشر؛ لأنه ثبت في الصحيح^(٥) أن النبي ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: آية ٢١٤] أنه أمثلها فنأدى بني فهر، وفهر هو جده العاشر ﷺ، فدلَّ هذا الحديث الصحيح على أن العشائر تشمل إلى الجد العاشر من الرجل، وهذا معنى ﴿وَعَشِيرَتَكُمْ﴾.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ الاقتراف في لغة العرب معناه الاكتساب، أموال

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) انظر: المبسوط لابن مهران ص(٢٢٦).

(٥) البخاري في التفسير، باب: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حديث رقم: (٤٧٧٠) (٥٠١/٨) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٤٩٧١) ومسلم في الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ حديث رقم: (٢٠٨) (١٩٣/١) من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما). وقد جاء نحوه عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

اكتسبتموها تخافون إن سافرتم عنها أن تضع **﴿وَبِحَجْرَةٍ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾** تخافون إذا هاجرتم عنها أن تكسد ولا تجد رواجاً وربحاً، وكان بعض العلماء يقول: إن التجارة التي يخاف كسادها من عنده بنات - مثلاً - إذا خرج كسدن ولم يجدن أزواجاً يتزوجوهن^(١). والأول هو ظاهر القرآن، وهو ظاهر اللغة، وإن كان الثاني قال به جماعة.

﴿وَمَسْكِنٌ﴾ جمع المسكن وهي الديار والقصور **﴿تَرْضَوْنَهَا﴾** يعني ترضونها سكناً وتحبون الإقامة والسكنى فيها، إن كان هذا كله أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله **﴿فَتَرَبَّصُوا﴾** قد ثبت في الصحيح^(٢) عن النبي ﷺ أنه لا يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من أهله وولده بل ومن نفسه التي بين جنبيه، فلا يؤمن أحد حتى يكون ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه ومن كل شيء كائناً ما كان. وكذلك محبة الله (جلّ وعلا)، فالمسلم يحب الله (جلّ وعلا) ويحب رسوله ﷺ. واعلموا أيها الإخوان أن العلامة الواضحة لمحبة الله ورسوله هي امتثال أمر الله واجتناب نهي الله فيما بلغه عنه رسوله محمد ﷺ. هذا هو علامة المحبة. واعلموا أن كل من يدعي محبة رسول الله ﷺ وهو يخالفه أنه كذاب، كذاب، لا يحب الله ولا رسوله، ومن يخالف الله فالحب منتقص بقدر المخالفة، والمحب جداً لا يخالف محبوبه، فعلاقة حب الله وحب رسوله الواضحة والشهادة به القاطعة هي اتباع ما جاء عن الله على لسان رسوله محمد ﷺ، ومصداق هذا في كتاب الله: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران: آية ٣١] فمحبة الله ومحبة رسول الله علامتها

(١) انظر: القرطبي (٩٥/٨).

(٢) البخاري في الإيمان، باب: حب رسول الله ﷺ من الإيمان. حديث رقم: (١٥) (٥٨/١)، ومسلم في الإيمان، باب: وجوب محبة الرسول ﷺ. حديث رقم: (٤٤) (٦٧/١)، من حديث أنس (رضي الله عنه). وأخرجه البخاري في الموضع السابق (١٤) من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه). وقد ذكره الشيخ بمعناه، ولفظه: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» وفي بعض الألفاظ: «من أهله وماله والناس أجمعين».

القاطعة اتباع رسول الله، فكل من يدعي أنه يحب الله ويحب رسول الله ويرتكب الأمور المخالفة لما جاء به رسول الله عن الله فهو كذاب، كذاب، كذاب في دعواه المحبة. وهذا أمر معروف عند الناس؛ لأنه من الجبلة المعروفة عند العامة أن المحبة تقتضي الاتباع:

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع^(١)
وقد صدق من قال^(٢):

قالت وقد سألت عن حال عاشيقها بالله صفة ولا تنقص ولا تزيد
فقلت لو كان رهن الموت من ظماً وقلت قف عن ورود الماء لم يرد
هذا في محبة مخلوق على وجه غير لائق فكيف بمحبة الله ورسوله؟
فالمحب لله هو مطيع الله، والمحب لرسول الله ﷺ هو متبع رسول الله ﷺ.

وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ التريص في لغة العرب: الانتظار، ومنه:
﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: آية ٢٢٨].

تَرَبَّصْ بِهَا رَبِّبَ الْمَنُونِ لَعَلَّهَا تُطَلَّقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا^(٣)
قال بعض العلماء: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ الظاهر أنه واحد
الأمر، ولا شك أن في هذه الآية تهديداً وتخويفاً لمن دام على إيثاره هذه
الأشياء على الله وعلى رسوله ﷺ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ والله جل وعلا ﴿لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٧٩/١٣) ونسبه للحسن بن محمد بن العنفة.

(٢) البيتان في ديوان يزيد ص ٨٣، وهي أيضاً في (قرى الضيف) ص ١١٨، بالإسناد إلى أبي المطاع ذي القرنين بن ناصر الدولة أبي محمد من شعره. وذكرهما الأبيهي في المستطرف (٣٨٥/٢)، وابن الجوزي في المدهش ص ٣١٤، بدائع الفوائد (٢١٦/٣) ولفظهما هناك:

قالت لطيف خيال زارها ومضى بالله صفة ولا تنقص ولا تزيد
فقال: خلفته لو مات من ظماً وقلت: قف عن ورود الماء لم يرد
قالت: صدقت الرفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي

(٣) البيت في القرطبي (١٠٨/٣)، واللسان (مادة: ربص) (١١٠٦/١)، والدر المنثور (١٢٠/٦) وعزاه لابن الأنباري في الوقف والابتداء، وهو أيضاً في فتح القدير (٢٣٢/١) (٩٩/٥).

مثل هذه الآيات فيه سؤال معروف للعلماء، كقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فالله (جل وعلا) نفى هدايته للفاستقين، ونفى هدايته للظالمين، مع أننا نشاهد بعض الفاسقين الظالمين يهديه الله، وكم من كافر شديد في الكفر، ظالم فاسق يهديه الله. هذا وجه الإشكال.

وأجاب العلماء عن هذا بجوابين:

أحدهما: أن قوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ من العام المخصوص، وأن المراد بها الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون من الفسقة والظلمة الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ الآية [يونس: الآيات ٩٦، ٩٧].

وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما زالوا متصفين بالظلم والفسق، فإذا نزعوا عن ذلك برحمة الله وهدايته زال عنهم اسم الفسق والظلم، فلا مانع إذاً من هداهم. هكذا قاله بعض العلماء والله تعالى أعلم. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٤].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ۗ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ [التوبة: الآيات ٢٥ - ٢٧].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ اللام جواب قَسَم محذوف، والله لقد نصركم الله. أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في مشاهد ومواضع كثيرة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٥] بين الله في هذه الآية الكريمة أن النصر من عند الله وحده، لا

بكثرة العدد ولا بكثرة العدد، ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: آية ٢٤٩] لأن أكثر غزاة قبل تبوك غزاها النبي ﷺ غزوة حنين، كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف مقاتل فتح بهم مكة، وألفان من مسلمة الفتح من قريش ومن معهم وهم الطلقاء. وكان بعض العلماء يقول: إنه دخل مكة وفتحها باثني عشر ألفاً. فيكون المجموع: أربعة عشر ألفاً. ذكروا أن الصحابة قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. بعضهم يقول: إن هذه قالها أبو بكر (رضي الله عنه)، وقيل: قالها رجل آخر. فلما أعجبتهم الكثرة وأنهم كانوا اثني عشر ألفاً، أو أربعة عشر ألفاً، وقيل: ستة عشر ألفاً. وأكثر الروايات أنهم كانوا اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف فتح بهم مكة، وألفان من أهل مكة أسلموا وغزوا معه. ﴿فَلَمْ تَغْنِ عَنْكُمْ﴾ هذه الكثرة ﴿شَيْئًا وَمَضَّاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضَ بِمَا رَحَّبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ وهذا نص الله فيه على ما وقع بالمسلمين أول وقعة حنين، يبيّن لهم أن النصر من عنده (جلّ وعلا) وحده لا من كثرة العدد والعدد.

ونحن دائماً في هذه الدروس إذا جاءت غزوة من مغازي رسول الله ﷺ في الآيات القرآنية نفضلها ونذكر تفاصيلها لتمام الفائدة كما أوضحنا فيما مضى غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة [بدر]^(١) في سورة [الأنفال]^(٢)، وسيأتي في سور القرآن العظيم أكثر مغازيه ﷺ.

وهذه الغزوة التي أشار لها الله هنا وبين أن الصحابة أعجبتهم كثرتهم فيها، وأن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً، وأنهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، هي غزوة حنين، وسنشير الآن إلى هذه الغزوة ونذكر تفاصيلها.

أما حنين فهو وادٍ من أودية تهامة بين مكة والطائف غير بعيد من ذي المجاز، وأما الذين غزاهم فهم هوازن، وهوازن قبيلة من قبائل قيس

(١) في الأصل: «الأنفال». وهو سبق لسان.

(٢) في الأصل: «بدر». وهو سبق لسان.

عيلان بن مضر؛ لأن هوازن هو ابن منصور بن خصفة بن عكرمة^(١) بن قيس عيلان بن مضر.

قال بعض أصحاب المغازي والسير^(٢): لما سمع هوازن بخروج النبي ﷺ من [المدينة]^(٣) ظنوا أنه يقصدهم في غزاة الفتح فتجمعوا، جمعهم رئيسهم في ذلك الوقت، ورئيسهم في ذلك الوقت مالك بن عوف النصرى من بني نصر بن بكر بن هوازن. ثم لما بلغهم أن النبي ﷺ فتح مكة جمعهم مالك بن عوف وعزموا على مقاتلة النبي ﷺ، فسمع النبي ﷺ بأخبارهم فأرسل إليهم عبدالله بن أبي حدرد الأسلمي (رضي الله عنه) عيناً يعرف له أخبارهم، فدخل في القوم مخفياً وسمع أخبارهم، وعرف أنهم عازمون على حرب النبي ﷺ. وكان النبي ﷺ قد فتح مكة في رمضان من سنة ثمان.

قال بعض أصحاب المغازي^(٤): فتحها لعشرين خلت من رمضان وعشر بقيت، وأنه أقام العشر الأواخر من رمضان بمكة بعد أن فتح مكة وخمس ليال من شوال، ثم غزا بعد خمس عشرة ليلة من فتحه مكة غزا هوازن باثني عشر ألفاً من أصحابه، عشرة آلاف الذين فتح بهم مكة، والألفان الذين أسلموا وخرجوا غازين معه من الطلقاء أهل مكة، ثم إن النبي ﷺ سمع بأن هوازن تجمعوا له في وادي حنين فقصدهم (صلوات الله وسلامه عليه) وقد صلى (صلوات الله وسلامه عليه) الصبح، وفي مخرجه هذا من مكة إلى حنين. مرّ بذات أنواط، وهي سدرة خضراء كبيرة كان المشركون يأتونها يوماً من السنة يذبحون عندها، ويعكفون عندها، ويعلقون عليها سلاحهم تسمى «ذات أنواط» وكان كثير ممن معه حديث عهد بالإسلام، فقالوا له: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال (صلوات الله وسلامه عليه): الله أكبر قلتُم والذي نفسي بيده ما قال قوم موسى لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾

(١) في ابن هشام (١٧٦/١) ابن عكرمة بن خصفة.

(٢) السابق ص ١٢٨٣.

(٣) في الأصل: «مكة». وهو سبق لسان.

(٤) السابق ص ١٢٨٢.

[الأعراف: آية ١٣٨] (١) وكان العباس بن مرداس السلمي قال: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة قاصداً هوازن قال قصيدة يصف فيها جيش رسول الله ﷺ وما يعزم عليه من غزو هوازن منها أنه يقول (٢):

أَبْلِغْ هَوَازِنَ أَعْلَاهَا وَأَسْفَلَهَا عَنِي رِسَالَةٌ نُضِجَ فِيهِ تَبْيَانُ
إِنِّي أَظُنُّ رَسُولَ اللَّهِ صَابِحَكُمْ جَيْشاً لَهُ فِي فَضَاءِ الْأَرْضِ أَرْكَانُ
فِيهِمْ سُلَيْمٌ أَحْوَكُمْ غَيْرَ تَارِكِكُمْ وَالْمُسْلِمُونَ عِبَادُ اللَّهِ غَسَّانُ
وَفِي عِضَادَتِهِ الِیْمَنِيُّ بَنُو أَسَدٍ وَالْأَجْرِبَانُ بَنُو عَبْسٍ وَذُبْيَانُ
تَكَادُ تَرْجُفُ مِنْهُ الْأَرْضُ رَهْبَتُهُ وَفِي مَقَدِّمِهِ أَوْسٌ وَعِثْمَانُ

يعني بـ (أوس وعثمان) قبيلتي مزينة من قبائل أد بن طابخة بن إلياس، ومزينة أمهم. فتوجه إليهم رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منهم كان مالك بن عوف جمع جميع من طاعوه من هوازن، وكانت خرجت معه بنو نصر كلها (بنو نصر بن بكر بن هوازن)، وبنو جُشم كلها، (جُشم بن بكر بن هوازن) وبنو سعد كلهم، (سعد بن بكر بن هوازن)، ولم يخرج معه كثير من بني عامر بن صعصعة من قبائل هوازن، تخلف عنه بنو ربيعة، وبنو كلاب، وجاء معه أوزاع قليلة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، وجماعة من بني عمرو بن عامر بن صعصعة، وبني عوف بن عامر بن صعصعة، وجاء معه ثقيف كلها، وكانت ثقيف كلها ترجع إلى قبيلتين، وثقيف أهل الطائف، وثقيف هو ابن بكر بن منبه بن هوازن، هم من قبائل هوازن، وإن كان كثير من الناس يظن أنهم مع هوازن، فهم من هوازن؛ لأن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن جاءت معه ثقيف كلها لم يبق منهم أحد، وكان رئيس الجميع مالك بن عوف النصري، وكان في ثقيف أهل الطائف رئيسان، رئيس

(١) أخرجه أحمد (٢١٨/٥)، وعبدالرزاق (٢٠٧٦٣)، وابن أبي عاصم في السنة (٧٦)، والترمذي في الفتن، باب ما جاء «لتركب سنن من كان قبلكم» حديث رقم: (٢١٨٠) (٤/٤٧٥)، والحميدي (٨٤٨)، والطيالسي (١٣٤٦)، والطبراني في الكبير (٣٢٩٠، ٣٢٩٤)، وابن حبان (الإحسان ٨/٢٤٨)، وابن نصر في السنة ص ١٦، ١٧، وابن جرير (٨١/١٣)، (٨٢).

(٢) القصيدة في سيرة ابن هشام ص ١٢٨٧.

الأحلاف، ورئيس بني مالك؛ أما رئيس الأحلاف ذلك اليوم فهو قارب بن الأسود بن مسعود بن المُعْتَب، ورئيس بني مالك هو ذو الخمار، وهو سبيع بن الحارث، وأخوه أحمر بن الحارث. وجاء دريد بن الصمة من بني جشم بن بكر، وكان سيداً عظيماً من سادات هوازن، مُجَرَّباً في الحروب، وكان في ذلك الوقت شيخاً فانياً يرتعش، لا فائدة فيه إلا التيمن برأيه، جاء راكباً في شَجَار^(١) له، وكان جماع الناس إلى مالك بن عوف النصري، فقال دريد: هذا المحل الذي أنتم فيه أي وإد أنتم فيه؟ قالوا: نحن الآن بوادي أوطاس. قال: نعم مجال الخيل، لا حزنٌ ضرس ولا سهل دهنس. ثم إنه قال: مالي أسمع بكاء الصغير، ونهاق الحمير، ورغاء البعير، ويعار الشاء؟ قالوا له: جمع مالك بن عوف مع هوازن مواشيهم وأموالهم ونساءهم وذرائعهم!! فقال: أين مالك؟ فدُعي له مالك بن عوف، فقال: يا مالك!! لقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده، فما لي أسمع رغاء البعير، وبكاء الصغير، ونهاق الحمير، ويعار الشاء؟ قال: سُقت مع الناس أموالهم ونساءهم وأولادهم. قال: ولم؟ قال: أريد أن يكون عند ظهر كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ولا يفر. فقال دريد يهزأ بمالك (أَنْقَضَ بِهِ) - أي أَخْرَجَ مِنْ فَمِهِ صَوْتاً اسْتَهْزَأَ بِهِ - وقال: راعي ضأن والله، هل يرد المنهزم شيء؟! هذا ليس برأي؛ لأنها إن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، فكان الأولى أن تردهم إلى متمتع بلادهم وُعليا قومهم، فإن كانت لك فإنه لا ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك. فقال مالك: والله لا أفعل غير هذا. ثم قال: يا معشر هوازن والله لتطيعنني أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري!! فقالوا: أطعنك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني. ثم قال: هل حضر أحد من بني كعب أو كلاب؟ قالوا: ما حضرها أحد من بني كعب ولا كلاب. يعني كعباً وكلاتاً أولاد عامر بن صعصعة. قال: غاب الجد والحد^(٢) لو كان

(١) الشجار: يشبه اليهودج لكنه غير مُعْطَى من الأعلى.

(٢) الحد: يعني الحدة والشجاعة.

يوم رفعة وعلاء لم يغب عنه كعب وكلاب. قال: من حضرها من عامر؟ قالوا: بنو عوف بن عامر، وبنو عمرو بن عامر. قال: ذاك الجذعان من عامر لا ينفعان ولا يضران. ثم قال دريد^(١):

يا ليتني فيها جَدَعٌ / أَخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ ١/٤
أَفُودُ وَطَفَاءَ الزَّمْعِ^(٢) / كأنها شاةٌ صَدَعُ^(٣)

ثم إن مالك بن عوف أمرهم فكمنوا للنبي ﷺ وأصحابه في مضايق وادي حنين وأحنائه، كانوا في مضايق الوادي بجنتي الوادي كامنين له.

وقال لهم ملكهم - مالك بن عوف النصري -: إذا أقبل عليكم القوم فشدوا عليهم شدة رجل واحد. فصلّى النبي ﷺ الصبح وسار بأصحابه في الغلس - يعني: بقية ظلام الليل مختلطة بضياء الصبح - فانحدروا في وادي حنين يمشون، فلم يشعروا بشيء إلا وقد دخلوا في مكمن القوم، فشدوا عليهم شدة رجل واحد، وصارت الرماح والسهام كأنها رجل جراد منتشر عليهم، فوقع ما وقع، وزلّ المسلمون، ووقع ما قال الله: ﴿فَلَمْ تَقْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذْرِبًا﴾ فثبت رسول الله ﷺ وهو على بغلته البيضاء، وبعضهم يقول: الشهباء؛ لأن لونها بياض فيه شُهبة. والعباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) أخذ بزمامها. وبعضهم يقول: أخذ بركابها الأيمن، أو حَكَمَتِهَا، وأخذ بركابها الثاني أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان مع النبي جماعة من آل بيته، منهم علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، والعباس بن عبدالمطلب، وأبو سفيان بن الحارث، والفضل بن العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنهم)، وربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، وأسامة بن زيد،

(١) ذكرهما ابن هشام في السيرة ص ١٢٨٥، مرويات غزوة حنين (٢٣٤/١).

(٢) الوظفاء: طويلة الشعر.

الزمع: الشعر الذي فوق مربوط قيد الدابة. فهو يذكر صفة فرس.

(٣) الشاة هنا: الوعل.

والصدع: الفتى القوي الشاب من الأوعال ونحوها.

وأيمن بن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ. وثبت رسول الله ﷺ ذلك الثبات العظيم، وكان يركض البغلة في نحر العدو يسرع إليهم ويقول:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب
وهذا من الشجاعة منقطع النظير^(١)؛ لأنه على بغلة لا تحسن الكرّ ولا الفر، لا تصلح لكرّ ولا لفر، وقد انكشف عنه أصحابه (صلوات الله وسلامه عليه)، وليس معه إلا قوم قليل، ومع هذا يركض في وجه العدو وينوه باسمه ليعرفه من لم يكن يعرفه!! وقال للعباس بن عبدالمطلب - وكان رجلاً ضخماً قوياً جهير الصوت جداً - ناد: يا أصحاب السّمرة. فنادى العباس بأعلى صوته: يا أصحاب السّمرة. والسّمرة هي شجرة الحديدية التي وقعت تحتها بيعة الرضوان، وقد بايعوه فيها على أن لا يفروا عنه. وفي بعض المرات يقول: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة. يدعوهم. فسمعوا نداءه فقالوا: يا لبيك. وتراجع إليه المسلمون من كل فج، وقد أعجزهم أن يردوا الأباعر التي يركبونها؛ لأنها ألمها وقع السهام، فلم يقدروا على ردها ولا عطفها.

قال العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه): فوالله لما ناديتهم فسمعوا صوتي فكأنما عطفوا عليه عطفة البقر على أولادها. وكان (صلوات الله وسلامه عليه) أخذ قبضة من تراب فرمى بها في أوجه القوم وقال: شأته الوجوه. وذكر ابن عبدالبر وغير واحد أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الجيش الذين أسلموا بعد ذلك أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما لبثنا أن هزمناهم واتبعناهم حتى أتينا على صاحب البغلة الشهباء فزجرنا زجراً قوياً، وأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها في أوجهن فلم تبق عين ولا فم إلا امتلأت من ذلك الحصى. ورجعوا منهزمين، فمن ذلك الوقت الذي رمى تلك القبضة في أوجههم وكان خدهم كليلاً وأمرهم مدبراً. ثم إنه (صلوات الله وسلامه عليه) وكان العباس بن عبدالمطلب (رضي الله عنه) في ذلك اليوم شديد الشجاعة يُنوه بالنفر الذين

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

بقوا معه، والذي يقوله العباس في شعره أنهم عشرة فقط حيث يقول^(١):

ألا هل أتى عرسي مُكري ومقدمي بوادي حنين والأسنة تشرع
إلى أن قال:

نصّرنا رسولَ الله في الحربِ تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فأفشعوا
وعاشِرُنَا لاقى الجِمامَ بنفسِه لما مسّه في اللّو لا يتوّجّع

يعني بعاشرهم الذي لاقى الجِمام أي: الموت: أيمن بن أم أيمن (رضي الله عنه)، أمه أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ، فرجع المسلمون لما سمعوا نداء العباس، فاجتمع عليه من أوائلهم مئة رجل، فأمرهم النبي ﷺ أن يصدقوا الحملة على القوم، فاجتلد الناس اجتلاداً شديداً، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فإذا هم يجتلدون ويتقاتلون قتالاً شديداً، فقال (صلوات الله وسلامه عليه): «الآن حمي الوطيس»^(٢). وكانت من الكلمات التي لم يسبق قبلها، قال بعض من روى قصة حنين هذه: فوالله ما تراجع المسلمون إلا والأسرى بجانب رسول الله ﷺ^(٣). وكان ممن ثبت ذلك اليوم ثباتاً عظيماً أم سليم امرأة أبي طلحة، وهي حامل في ذلك الوقت بعبداً بن أبي طلحة، كانت تشدّ وسطها ببرد وفي يدها خنجر، وهي ممسكة بغير أبي طلحة، ولما سألوها عن الخنجر قالت: إذا قرب مني بعض المشركين بعجت به بطنه^(٤). فهي عظيمة في الشجاعة والثبات، فرجع أصحاب رسول الله ﷺ وركبوا أكتاف العدو يقتلونهم ويأسرونهم، ثم إنهم فروا وانهزموا، طائفة منهم فيها سيدهم مالك بن عوف انهزموا ورجعوا إلى حصن الطائف

(١) البيت الأول أورده ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٦/٢٩٩) ولبيه بيتان غير المذكورين هنا. والبيتان الأخيران ذكرهما ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/٩٦) (مع بعض الاختلافات)، والقرطبي (٨/٩٨)، والحافظ في الفتح (٨/٣٠) دون الأول. وهما في مرويات غزوة حنين (١/١٨٣).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد والسير، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٥) (٣/١٣٩٨ - ١٣٩٩) بلفظ: «هذا حين حمي الوطيس».

(٣) السيرة لابن هشام ص (١٢٩٢).

(٤) مسلم في الجهاد، باب غزوة النساء مع الرجال. حديث رقم: (١٨٠٩) (٣/١٤٤٢).

فتحصنوا به، وطائفة عسكروا في أوطاس. وأوطاس محل هو وحنين يجمعهم واد واحد، إلا أنهم عسكروا في محل بعيد منه، فأرسل النبي ﷺ في أثرهم سرية أتمر عليها أبا عامر الأشعري (رضي الله عنه)، ومعه في تلك السرية ابن عمه أبو موسى الأشعري، فأدرك أبو عامر قلمهم، وأخذ ما عندهم من السبايا أيضاً، واستشهد أبو عامر، أصابه سهم في ركبته فمات، واستحضر القتلى ذلك اليوم في ثقيف خاصة، ثم في بني مالك فقتل منهم سبعون رجلاً، أو أكثر، وقتل قوم من أصحاب رسول الله ﷺ، وكثير من هوازن، فهزمهم الله تبارك وتعالى، وفي ذلك اليوم قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله سلبه» (١).

وكان أبو قتادة (رضي الله عنه) كما ثبت عنه رأى رجلاً عليه رجل من المشركين يريد أن يقتله، فجاء فضرب المشرك من ورائه على حبل عاتقه فقطع درعه وقطع حبل عاتقه، قال: فرجع إلي فضمني ضمة شممت منها ريح الموت، ثم أدركه الموت فأرسلني. ثم إنه بعد ذلك سأل عن درع ذلك الرجل ليأخذها؛ لأنه قاتله، والنبي ﷺ قال: «من قتل قتيلاً له عليه بيتة فله سلبه» فنادى أبو قتادة: من يشهد لي؟ فلم يجد أحداً يشهد له، فأخبر رسول الله ﷺ، فقال رجل من القوم: هو عندي يا رسول الله، فأرضه منه. قال له أبو بكر: لاها الله لا يعمد إلى أسد من أسود الله يقاتل عن الله ورسوله فيعطيك سلبه!! قال له ﷺ: «صدق أبو بكر» (٢).

فهذه القصة أولاً انهزم فيها المسلمون، وقد ثبت في الصحيح (٣) عن البراء بن عازب (رضي الله عنه) أنه سأله رجل: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر (صلوات الله وسلامه عليه)، وكان يقول: «أقبلوا إلي عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله.

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

(٣) البخاري في المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٥) -

ثم إن النبي ﷺ جمع جميع سبي هوازن، وكان فيه آلاف عديدة من السبايا من النساء والذراري، ومن الأموال ما لا يحصيه إلا الله، من الإبل والنساء وجميع الأموال، وكان قد نُقل بعض أصحابه، فأعطى علي بن أبي طالب جارية تسمى ربيعة بنت هلال، وأعطى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) جارية تسمى زينب بنت حيان، في أشياء كثيرة^(١). ثم إن النبي ﷺ رجع بنفسه يتبع فلهم إلى الطائف، فحاصر أهل الطائف؛ لأن أهل الطائف - ثقيفاً - لما مات منهم ما مات في غزوة حنين ورجعوا تحصنوا بحصن الطائف، وصاروا يُخرجون السهام من كوى الحائط يُرامون بها أصحاب رسول الله ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ زمناً يحاصره، ومات في حصارهم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم متحصنون لم يؤذن له في فتحهم، فسأل عنهم معاوية بن نوفل الديلي: ماذا ترى؟ قال: أرى أنّ هؤلاء القوم كالشعلب في جحره، إن أطلت المقام على جحره أخذته، وإن ذهبت عنه لا يضرك بشيء^(٢)، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم فأبى أن يدعو عليهم، وقال: «اللهم اهد ثقيفاً واثت بهم»^(٣) ثم بعد ذلك أسلموا، وجاءوا وافدين إلى رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ أمر بالسبايا والمغانم فذهب بها رجل أمره عليها إلى الجعرانة وكانت هناك حتى رجع رسول الله ﷺ من حصاره إلى الطائف، فلما رجع جاءه وفد هوازن مسلمين، وقام خطيبهم زهير بن صرد أبو صرد أمام النبي ﷺ وقال له: يا نبي الله إنا أصل وعشيرة، وإنه قد وقع بنا ما ترى، وإنا تبنا إلى الله ورجعنا مسلمين. ولو وقع ما وقع بنا وجئتنا الحارث بن أبي شمر الغساني أو النعمان بن المنذر لرجونا عائدته بالخير وعطفه علينا، وأنت خير مكفول، وكذا وكذا، فرُد علينا أموالنا

(١) ذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٤٢.

(٢) ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٠/٤) وعزاه للواقدي.

(٣) أخرجه أحمد (٣٤٣/٣)، والترمذي في المناقب، باب مناقب ثقيف وبني حنيفة. حديث

رقم: (٣٩٤٢) (٧٢٩/٤)، والواقدي في المغازي (٩٣٦/٣ - ٩٣٧)، وابن سعد في

الطبقات (١١٤/٢) والطبري في التاريخ (١٣٣/٣) وذكره ابن القيم في الهدى (٤٩٧/٣)،

وابن كثير في التاريخ (٣٥٠/٤)، والحافظ في الفتح (٤٥/٨).

وانظر: ضعيف الترمذي ص ٥٢٧، مرويات غزوة حنين (٣٣٦/١ - ٣٣٧).

ونساءنا. قال لهم ﷺ: «اختاروا أيهما أحب إليكم: أسبيكم أم أموالكم؟» فقالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا فنختار نساءنا وأولادنا. فقال لهم النبي ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم» فقال المهاجرون: ما كان لنا منها فهو لرسول الله. وقال الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله. وقال الأقرع بن حابس التميمي: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن الفزاري: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس السلمي: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال لهم العباس: وهتتموني حيث لم تجيزوا ما قلت عليكم. ثم إن النبي ﷺ ردّ لوفد هوازن جميع سباياهم، جميع نساءهم وأولادهم^(١).

واختلفت عبارات المؤرخين وأصحاب المغازي هل كان ردهم لهم قبل أن تقسم الغنائم، أو بعد قسمها^(٢)؟ وظاهر كلام ابن إسحاق ومن وافقه أنه كان قبل قسم الغنائم، وموسى بن عقبة وغيره من أئمة المغازي يقولون: إنه كان بعد أن قسمت غنائمهم. قال ابن عمر (رضي الله عنه): كانت الجارية التي أعطاني عمر بن الخطاب أرسلتها إلى أخوالي من بني جُمح يصلحونها ويزينونها لي حتى أطوف بالبيت وأرجع فأدخل بها، فلما رجعت أنوي الدخول بها إذا أصلحها لي أخوالي فإذا الناس يشتدون، قلت: ما بالكم؟ قالوا: رد إلينا رسول الله ﷺ نساءنا وأولادنا، فقال: اذهبوا إلى صاحببتكم في بني جُمح فخذوها^(٣). ثم إن زهير بن صُرد خطيب هوازن الذي خطب لهم رسول الله ﷺ استعطفه بخطبة نثرية، وبشعر أيضاً، فمن شعره الذي يستعطفه به^(٤):

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣) من طريق ابن إسحاق، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤) وأصل قدومهم على النبي ﷺ وتخيره لهم بين الأموال والذراري في البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ...﴾ حديث رقم: (٤٣١٨) (٣٢/٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٣٥٤/٤).

(٣) أخرجه أحمد (٦٩/٢)، وابن جرير في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام في السيرة (١٣٤٢)، وابن كثير في تاريخه (٣٥٤/٤).

(٤) أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٤/٥)، والطبراني في الكبير (٢٧٠/٥)، والأوسط =

امئن علينا رسول الله في كرم
 امئن على بيضة قد عاقها قدر
 امئن على نسوة قد كنت ترضعها
 امئن على نسوة قد كنت ترضعها
 فإنك المرء نرجوه وننتظر
 ممزق شملها في دهرها غير
 إذ فوك تملؤه من مخضها الدرر
 وإذ يزينك ما تأتي وما تذر

وقد كان قال له في خطبته: إنما وراء هذه الحضرة من نساء هوازن خالاتك وحواضك^(١). ثم إن النبي ﷺ رد عليهم جميع نسائهم وأولادهم، وكان عيينة بن حصن قد أخذ عجوزاً وقال: هذه العجوز لها حسب ونسب في قومها، فيكون فداؤها شيئاً كثيراً غالياً. فالنبي ﷺ خير: من أراد أن يعطي شيئاً من سبايا هوازن ليُرد إلى أهله مجاناً فعل، ومن أراد العوض عنه قال له رسول الله ﷺ: «سنموضك عنه من أول ما فتح الله علينا، ومن أول ما أفاء الله علينا ست فرائض».

والظاهر أن مراده بالفرائض رؤوس من الإبل؛ لأن حقة الزكاة تسمى (فريضة) ثم إن عيينة بن حصن قيل له: خذ عن هذه ستاً. فقال: لا. فامتنع وقال: لا آخذ عنها شيئاً. يطمع في فداء كثيراً!! فقال له زهير بن صرد: والله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد. فلما قال له هذا الكلام قبل معاوضتها بما عوض به بقايا السبي^(٢)، ثم إن أهل الغزاة الذين حضروها من الأعراب وغيرهم خافوا أن يرد النبي ﷺ على

= (٤٥/٥)، والصغير (٢٣٦/١)، والخطيب في تاريخه (١٠٦/٧)، والطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٥٧٦/١)، وذكرها الذهبي في الميزان، وابن كثير في تاريخه (٣٥٣/٤). وقد سقط هنا بعد البيت الثاني بيتين، وفي بعض الروايات ثلاثة أبيات. وأما البيتين الثالث والرابع هنا فهما بيت واحد ورد في بعض الروايات باللفظ الأول وفي بعضها باللفظ الثاني. وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٥٦/٢ - ٤٦٠). وقد حسنه الحافظ في اللسان (٩٩/٤ - ١٠٤)، والفتح (٣٤/٨)، وانظر: الإصابة (٥٥٣/١).

(١) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٤/٣)، وذكره ابن هشام ص ١٣٤٠، وابن كثير في تاريخه (٣٥٢/٤) وانظر المصادر في الهامش السابق.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٣٥/٣)، وذكره ابن هشام (١٣٤٢) وابن كثير في تاريخه (٣٥٥/٤).

هو وزن الأموال أيضاً، فضيقوا عليه فقالوا: يا نبي الله اقسم علينا فيئنا، حتى الجؤوه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: «ردوا عليّ ردائي، فوالله لو كان لكم من الفيء مثل شجر تهامة لقسمته كله عليكم، ولا تجدوني جباناً ولا كذاباً ولا بخيلاً»^(١). (صلوات الله وسلامه عليه)، فأعطى ذلك اليوم المؤلفة قلوبهم، أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وعيينة بن حصن مائة من الإبل، وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل، وابنه معاوية مائة من الإبل، وصفوان بن أمية مائة من الإبل؛ لأن النبي ﷺ لما عزم على غزاة حنين استعار من صفوان بن أمية الجمحي أدراعاً كانت له وسلاحاً، فقال له: أغضباً يا محمد؟ قال: «بل عارية مضمونة»^(٢) وكانت تلك الأدرع قد فقد منها شيء في القتال، فلما أراد النبي ﷺ أن يعوضه قال له: إن في قلبي اليوم ما لم يك في قلبي بالأمس، إني صرت أرغب في الإيمان. ولم يأخذ عوض أدراعه، قال بعض العلماء: لما أراد الخروج استسلف من ربيعة المخزومي آلافاً كثيرة يستعين بها، وأعطى المؤلفة قلوبهم.

ولما وقع بالمسلمين ما وقع أولاً وولّوا مدبرين كان بعض قریش إيمانهم في ذلك الوقت لم يكن قوياً حتى ذكروا مثله عن أبي سفيان بن حرب (رضي الله عنه) قالوا: كان في ذلك الوقت إيمانه مدخولاً، فقال: هزيمتهم لا يردها البحر^(٣). وكان مع صفوان بن أمية أخوه لأمه - وصفوان بن أمية في ذلك الوقت على شركه، ومعه أخوه لأمه - بعضهم يقول: اسمه كلدة بن الحنبل. فلما وقع بالمسلمين ما وقع أولاً وولّوا

(١) البخاري في الجهاد، باب: الشجاعة في الحرب والجبن. حديث رقم: (٢٨٢١)

(٣٥/٦) وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٣١٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤٠١/٣)، (٣٦٥/٦)، وأبو داود في البيوع، باب في تضمين العارية.

حديث رقم: (٣٥٤٥ - ٣٥٤٧) (٤٧٦/٩ - ٤٧٨)، والحاكم (٤٧/٢)، والبيهقي (٨٩/٦)

من حديث أمية بن صفوان عن أبيه. وبعضهم يرويه عن أناس من آل عبدالله بن

صفوان، وبعضهم: عن ناس من آل صفوان، وللحديث شاهد من حديث جابر

(رضي الله عنه) عند الحاكم (٤٨/٣ - ٤٩). وانظر: الإرواء (٣٤٤/٥).

(٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (١٢٨/٥)، والطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، وذكره ابن هشام

ص ١٢٩٠، وابن كثير في تاريخه (٣٢٧/٤) وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٣/١).

مدبرين قال: الآن بطل سحر محمد. فقال له صفوان بن أمية وهو مشرك: اسكت فض الله فاك، والله لأن يربني رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن^(١).

وكان شيبه بن عثمان بن أبي طلحة قُتل أبوه عثمان بن أبي طلحة يوم أحد في حَمَلَة اللواء من بني عبدالدار، وعمه طلحة بن أبي طلحة وغيره من أعمامه، وكان حنقاً على النبي ﷺ، فخرج في غزاة حنين وهو على كفره يريد أن يصادف غرة من رسول الله ﷺ ليقته ويأخذ بثأره، فلما انكشف المسلمون ووقع ما وقع قال شيبه: جئت من طرف بغلته الأيمن فإذا عمه ممسك بركاب بغلته، قلت: هذا عمه ولن يخذله، فجئت من الطرف الثاني فإذا أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب ممسك ركابه من الجنب الآخر، فقلت: وهذا ابن عمه لن يخذله، فجئت من ورائه فلما قربت منه وأردت أن أساوره بالسيف وقلت: الآن آخذ ثأري فأقتل محمداً ﷺ، في بعض الروايات أنه قال: جاءني عنق من نار كأنه برق خاطف فصرت أرجع القهقري خوفاً منه، فالتفت إلي رسول الله ﷺ فقال: «ادن يا شيب!!» فمسح صدره ودعا له الله. قال: والله ما رفع يده عني حتى صار أحب إلي من كل شيء. وفي بعض روايات هذه القصة عن شيبه بن عثمان بن أبي طلحة (رضي الله عنه)، قال: لما أردت أن أضربه وأقتله جعل في فؤادي شيء لا أدري ما هو منعني منه، فتيقنت أنه ممنوع مني، ثم دعا لي فصار أحب الناس إلي^(٢). فصار شيبه بعد أن كان يريد قتل النبي ﷺ يقاتل معه في إخلاص ونصح.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه (١٢٨/٣)، والطبراني في الكبير (٢٩٩/٧)، والبيهقي في الدلائل (١٢٨/٥، ١٤٥)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (مختصر ابن منظور ٩/١١ - ١٠) وساق ابن هشام بعضه ص ١٢٩٠، كما ساق ابن كثير في تاريخه (٣٣٣/٤) رواية البيهقي وابن إسحاق. وكذا في التفسير (٣٤٥/٢)، وابن القيم في زاد المعاد (٤٧٠/٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٨٤/٦)، والحافظ في الإصابة (١٦١/٢)، والسيوطي في الخصائص (٩٤/٢ - ٩٥) وعزاه لأبي القاسم البغوي وأبي نعيم وابن عساکر، وانظر: مرويات غزوة حنين (١٦٧/١ - ١٦٩). ولا يصح في سبب إسلامه شيء من الروايات.

ثم إن النبي ﷺ لما قسم غنائم حنين أعطى المؤلفَةَ قلوبهم، فأعطى مائة من الإبل، مائة من الإبل، وأعطى ما ملأ بين جبلين غنماً لرجل، وكان أعطى عيينة بن حصن مائة من الإبل، والأقرع بن حابس مائة من الإبل، ولم يعطِ العباس بن مرداس السلمي. فغار العباس بن مرداس السلمي وعاتب رسول الله ﷺ في شعره المشهور وقال له (١):

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ عَيْنَيْنِ وَالْأَقْرَعِ
وَالْعُبَيْدِ: فرسه. قال:

أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعُبَيْدِ بَيْنَ عَيْنَيْنِ وَالْأَقْرَعِ
فَمَا كَانَ حَصَنٌ وَلَا حَابِسٌ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا
كَانَتْ نَهَاباً تَلَفِيئُهَا
وَيُقَاطِظِي الْحَيَّ أَنْ يَرْقُدُوا
وَقَدْ كُنْتُ فِي الْحَرْبِ ذَا تُذْرٍ
إِلَّا أَقَائِلَ أُعْطِيئُهَا

فقال ﷺ: «اقطعوا عني لسانه فكملاوا له مائة من الإبل» (٢).

ولما أعطى قريشاً ورؤساء قبائل العرب ولم يعطِ الأنصار شيئاً وجد الأنصار في أنفسهم موجدة، وقالوا: يعطي قريشاً الغنائم وسيوفنا تقطر من دمائهم!! فسمع رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل سعد بن عبادة (رضي الله عنه) يجمع له الأنصار، فجمع له جميع الأنصار، فأخبره أن القوم

(١) تقدمت هذه الأبيات عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال. وقد وقع فيها شيء من التقديم والتأخير.

(٢) هذا الحديث أصله في صحيح مسلم من غير قوله: (اقطعوا عني لسانه) مسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفَةَ قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه. حديث رقم: (١٠٦٠) (٧٣٧/٢) وهو بالسياق الذي ذكره الشيخ (رحمه الله) في سيرة ابن هشام ص (١٣٤٦). وقد ذكره ابن كثير في تاريخه (٣٥٩/٤) من طريق موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن إسحاق.

اجتمعوا، فجاءهم، قال: «ما شيء سمعته عنكم يا معشر الأنصار؟» قالوا: وما هو؟ قال: «سمعت أنكم تقولون: يعطي قريشاً ولا يعطينا وسيوفنا تقطر من دمائهم، أو كلام نحو هذا» فقالوا: قد قال هذا بعض سفهائنا، وأما أهل الحلم منا فلم يقولوه. فقال لهم: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضللاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم بي؟» قالوا له: لله المنة ولسوله ﷺ. قال: «أولا تجيبونني يا معشر الأنصار؟» قالوا: ماذا نقول؟ قال: «لو شئتم لقلتم: ألم تأتينا مُكذِّباً فصدقناك؟ وطريداً فأويناك؟ ومخلولاً فنصرناك؟» ثم قال: «يا معشر الأنصار ألا يرضيكم أن يذهب الناس بالشاء والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟ لو سلكت الناس وادياً والأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعب الأنصار» فبكى القوم حتى أخضل الدمع لحاهم، وقالوا: رضينا يا رسول الله ﷺ^(١).

وكانت قيلت في حنين أشعار، ونحن لا نريد الإكثار من إيراد الأشعار فيها، لكن نذكر طرفاً منها، ومن أشهر ما قيل في غزوة حنين: شعر العباس بن مرداس السلمي (رضي الله عنه)، يفخر بقومه بني سليم، ويذكر الفتح وحنين في قصائده، ومن ذلك قوله في رائيته المشهورة^(٢):

ما بَالُ عَيْنِكَ فِيهَا عَائِرٌ سَهْرٌ	مِثْلُ الْحَمَاطَةِ أَغْضَى فَوْقَهَا الشُّفْرُ
عَيْن تَأْوِيهَا مِنْ شَجْوِهَا أَرْقُ	فَالْمَاءُ يَغْمُرُهَا طَوْرًا وَيُنْحَدِرُ
كَأَنَّهُ نَظْمٌ دُرٌّ عِنْدَ نَاطِمَةٍ	تَقَطَّعَ السَّلْكُ مِنْهُ فَهُوَ مُنْتَثِرُ
يَا بَعْدَ مَنْزِلٍ مَنْ تَرْجُو مَوَدَّتَهُ	وَقَدْ أَتَى دُونَهُ الصَّمَانُ فَالْحَقَرُ
دَعُ مَا تَقْدَمُ مِنْ عَهْدِ الشَّبَابِ فَقَدْ	وَلَّى الشَّبَابُ وَزَارَ الشَّيْبُ وَالزُّعْرُ
وَإِذْكَرَ بِلَاءِ سُلَيْمٍ فِي مَوَاطِنِهَا	وَفِي سُلَيْمٍ لِأَهْلِ الْفَخْرِ مُفْتَخِرُ
قَوْمٌ هُمْ نَصَرُوا الرَّحْمَنَ وَاتَّبَعُوا	دِينَ الرَّسُولِ وَأَمْرُ النَّاسِ مُسْتَجِرُ

(١) البخاري في المغازي، باب: غزوة الطائف. حديث رقم: (٤٣٣٠) (٤٧/٨)، وأخرجه في موضع آخر، انظر حديث رقم: (٧٢٤٥)، ومسلم في الزكاة، باب: إعطاء المؤلفات قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه. حديث رقم: (١٠٦١) (٧٣٨/٢).

(٢) الأبيات في ابن هشام ص ١٣١٧ - ١٣١٨، والبداية والنهاية (٤/٣٤٢ - ٣٤٣).

ولا تَخَاوِرُ فِي مَشْتَاهُمُ الْبَقْرُ
 فِي دَاوَةَ حَوْلَهَا الْأَخْطَارُ وَالْعَاكِرُ
 وَحَيَّ ذِكْوَانَ لَا مَيْلَ وَلَا ضَجْرُ
 بِبِطْنِ مَكَّةَ وَالْأُرُوْحُ تُبْتَدِرُ
 نَخْلٌ بِظَاهِرَةِ الْبِطْحَاءِ مُنْقَعِرُ
 لِلدِّينِ عِزًّا وَعِنْدَ اللَّهِ مُدْحَرُ
 وَالخَيْلُ يَنْجَابُ عَنْهَا سَاطِعُ كَدِرُ
 كَمَا مَشَى اللَّيْثُ فِي غَابَاتِهِ الْخَدِرُ
 تَكَادُ تَأْفُلُ مِنْهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 لِلَّهِ نَنْصُرُ مِنْ شَيْئِنَا وَنَنْتَصِرُ
 إِلَّا وَأَصْبَحَ مِنَّا فِيهِمْ أَثَرُ

وهو في شعره دائماً ينوه بالضحاك بن سفيان (رضي الله عنه)، قالوا:
 لأن النبي ﷺ جعله بمائة رجل، وكان عليه لواء سليم، وكانت سليم ألف
 مقاتل، كما بينه العباس بن مرداس في شعره حيث يقول في عينيته
 المشهورة (١):

فَمَطَّلَى أَرِيكَ قَدْ خَلَا فَالْمَصَانِعُ
 رَحِيٌّ وَصَرَفُ الدَّارِ لِلْحَيِّ جَامِعُ
 لِبَيْنِ فَهَلْ مَاضٍ مِنَ الْعَيْشِ رَاجِعُ
 فَلِإِنِّي وَزِيرٌ لِلنَّبِيِّ وَتَابِعُ
 خَزِيمَةُ وَالْمَرَّازُ مِنْهُمْ وَوَاسِعُ
 لَبُوسٌ لَهُمْ مِنْ نَسِجِ دَاوُدَ رَائِعُ
 بِأَسْيَافِنَا وَالنَّقْعُ كَابٍ وَسَاطِعُ

عَفَا مِجْدَلٌ مِنْ أَهْلِهِ فَمَتَالِعُ
 دِيَارٌ لَنَا يَا جُمْلُ إِذْ جُلَّ عَيْشُنَا
 حُبَيْبَةُ أَلْوَتْ بِهَا غُرْبَةُ النَّوَى
 فَإِنْ تَبْتَغِي الْكِفَارَ غَيْرَ مَلُومَةٍ
 دَعَانَا إِلَيْهِمْ خَيْرٌ وَفِدَا عِلْمَتُهُمْ
 فَجِئْنَا بِالْأَلْفِ مِنْ سُلَيْمٍ عَلَيْهِمْ
 فَجُئْنَا مَعَ الْمَهْدِيِّ مَكَّةَ عَنُوءَ

(١) هذه القصيدة ذكرها ابن هشام ص ١٣١٣ - ١٣١٤، ابن كثير في تاريخه (٣٤١/٤)
 وقد أسقط الشيخ منها هنا - بعد البيت السادس - بيتاً نظراً لما في معناه من
 الإيهام. والله أعلم.

علانية والخيلُ يغشى مُتونها حميمٌ وآين من دم الجوفِ ناقعُ
ويومَ حنينٍ حينَ سارثِ هوازُنْ إلينا وضاقَتْ بالنفوسِ الأضالعُ
صَبْرُنَا مع الضحاكِ لا يستفِرُّنَا قِرَاعُ الأعادي منهم والوقائعُ
أمام رسول الله يخفقُ فوقنَا لواءٌ كخُذُوفِ السحابةِ لامعُ

ولم تُرد الإكثار من إيراد من تكلم فيها والذين قالوا شعراً في حنين غير كثير.

ولما قسم ﷺ غنائم حنين، وأعطى هذا العطاء العظيم، وأرضى الأنصار بما أرضاهم به كان (صلوات الله وسلامه عليه) خلف على مكة عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية (رضي الله عنه)^(١)، وكان إذ ذاك ابن عشرين سنة.

هذا طرف أشرنا له من هذه الواقعة التي نوّه الله (جلّ وعلا) بها في كتابه، ولم نرد الإطالة فيها كثيراً، وسنرجع - إن شاء الله - في اليوم الآتي إلى معنى الآية ونفسرها؛ لأننا الآن ما ذكرنا إلا بسط سبب نزولها الذي نزلت فيه. وكان بعض العلماء يقول: هذه أول آية نزلت من سورة براءة. فهذه الآية نزلت قبل أولها.

يقول الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

اللام توطئة قسم محذوف، أي: والله ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: أعانكم على أعدائكم ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ المواطن: جمع موطن، وموطن الحرب معناه مشهده وموقفه، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(٢):

وكم موطن لولاي طِخَتْ كما أرى بأجرامه من قُلة النِّيَقِ مُنْهوي

(١) أورده ابن هشام ص ١٢٨٦، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٥).

(٢) البيت ليزيد بن أم الحكم، وهو في الكتاب (٢/٣٧٤)، البحر المحيط (٥/٢٣)، الدر المصون (٦/٣٧). وقوله: «طخت» أي: هلكت. والأجرام: جمع جزم وهو الجسد. والقُلة: ما استدار من رأس الجبل. والنِّيَق: أعلى الجبل.

أي: كم مشهد حرب. لقد أعانكم الله على أعدائكم في مواقف ومشاهد عديدة، كما نصركم يوم بدر، ويوم الخندق، ويوم قريظة، ويوم النضير، ويوم الحديبية، ويوم فتح مكة، إلى غير ذلك من المواقف التي تخرجون منها وأنتم ظاهرون منصورون.

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ قيل التقدير: في أيام مواطن، ويوم حنين أيضاً، أي: ولقد نصركم يوم حنين ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ يوم حنين حين التقوا بهوازن، وكانوا كمنوا لهم في مضايق وادي حنين ومخارمه وأحنائه، ثم شدوا عليهم شدة رجل واحد، وكانوا في هذه الواقعة قبل ملاقة العدو كأن الصحابة أعجبوا بكثرتهم لأنهم اجتمع منهم ذلك اليوم شيء لم يجتمع مثله قط فيما مضى، وقالوا: لن نُغلب اليوم من قلة. فبين لهم الله أن النصر من عنده وحده، لا بالعدد ولا بالعدد ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أعجبتكم بكثرة عددكم وقتلتم: لن نُغلب اليوم من قلة ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ هي، أي: الكثرة التي أعجبتكم لم تغن ﴿عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ لم تُفدكم ولم تُجددكم قبل أن يُنزل الله عليكم سكينته وينصركم. وهذا امتحان من الله وابتلاء وبيان لخلقه أن النصر بيده وحده لا بكثرة العدد ولا بكثرة العدد؛ ولذا لما أمدهم بالملائكة بين لهم مع ذلك أن النصر به وحده، قال: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١٢٦] ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: آية ٢٥] فلم تنفعكم ولم تُجدد عنكم شيئاً. والعرب تقول: هذا لا يغني شيئاً، وما أغنى عني هذا شيئاً. يعنون: ما نفعني وما أجداني.

وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن أصله من الغناء بالفتح والمد، فالغناء في لغة العرب: - كسحاب - معناه: النفع. ومعنى (لا يغني عنه) أي: لا يحصل له به غناء. أي: نفع. وقد قدمنا لغات

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨)، والآية (٩٢) من سورة الأعراف.

هذه المادة مراراً في هذه الدروس، وبيننا أن الغنَاء بالفتح والمد - غَنَاء كسحاب - أن معناه: النفع. ومنه قول بعض شعراء بني أسد بن خزيمة^(١):

وقلَّ غنَاء عنك مال جمعته إذا صار ميراثاً ووارك لاحد
«قل. غنَاء عنك» أي: قلَّ نفعاً لك. تمييزُ مُحَوَّلٍ عن الفاعل.

وأن (الغَنَى) بالمد والقصر أنه الإقامة في الموضع، فالعرب تقول: غَنَيَْ بالمكان يغنَى به غَنَى - على القياس - أي: أقام به. ومنه في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: آية ٢٤].

والغِنَاء - بكسر الغين والمد إلى الهمزة، غِنَاء ككتاب - معناه: الألحان المطربة - قَبَحَهَا الله -.

والغِنَى بالكسر والقصر هو ضد الفقر، والغِنَى بالضم والقصر جمع غنية وهو المال الذي يقتنيه الإنسان فيغتني به في حياته.

والغِنَاء بضم فمد لا أعرفه في لغة العرب. وهذا معنى قوله: ﴿قَلَّمْ تَغْنَبْ عَنْكُمْ سَيِّئًا﴾.

﴿وَصَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَّبَتْ﴾ الباء بمعنى (مع)، و(ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبِهَا، والرُّحْبُ بالضم: هو الاتساع، والرُّحْبُ: وصف، تقول: مكان رَحْب، يعني: وسيع، وصدر رَحْب أي: وسيع. والرُّحْبُ: معناه السعة، والرُّحْبُ بالفتح المصدر ف (الباء) بمعنى (مع) و(ما) مصدرية. والمعنى: ضاقت عليكم الأرض في حال كون ذلك مع سعتها ورُحْبِهَا متلبسة بسعتها ورُحْبِهَا. والجار والمجرور في موضع الحال، كقولك: زرتي بثيابي. أي مع ثيابي. أي: في حال كوني متلبساً بها. والخائف يضيق عليه فضاء الأرض الواسع؛ لأن من اشتد خوفه ضاقت الأرض في عينه وإن كانت

(١) البيت في ديوان الحماسة (٥١/٢)، المزهر (٣٠٦/٢).

طويلة عريضة واسعة، كما قال الشاعر^(١):

كَأَنَّ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الْخَائِفِ الْمَطْلُوبِ كِفَّةٌ حَابِلٍ
وَهَذَا مَعْنَى «وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ».

﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْرِبِينَ﴾ مولين الأدبار منهزمين؛ لأنهم أول المرة في ذلك اليوم انهزموا. وعن سلمة بن الأكوع (رضي الله عنه) أنه انهزم فيمن انهزم، وكان لابساً بردين متزراً بأحدهما متردياً بالآخر، فلما اشتد منهزماً هارباً انحل الإزار الذي يتزر به وعجل عن أن يشده فصار جامعاً له بيديه، ومرّ على النبي ﷺ في هذه الحالة والنبي (صلوات الله وسلامه عليه) في غاية الثبات والطمأنينة، فالتفت إليه وقال: «رأى ابن الأكوع فرعاً»^(٢) وهو هارب، فرجعوا مدبرين. هذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْرِبِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٥] ﴿مُدْرِبِينَ﴾ معناه: مولين عدوكم بأدباركم، فارين منه.

﴿ثُمَّ أُنزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ السكينة: فعيلة من السكون، ومعناها: الطمأنينة والأمنة المستوجبان لأكمل الثبات ﴿ثُمَّ أُنزِلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ [التوبة: آية ٢٦] أي: أمنته من الخوف، وطمأنينته في القلوب المستوجبة لأكمل الثبات على رسوله محمد ﷺ حيث كان على بغلته الشهباء (دُلْدُل) يركضها إلى نحور العدو ويقول: «أقبلوا إلي عباد الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»

«أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»^(٣)

﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وأنزل سكينته أيضاً على المؤمنين. قال بعض العلماء: المراد بالمؤمنين الذين أنزل الله سكينته عليهم: من ثبتوا معه ﷺ. وقال بعض العلماء: يدخل فيهم الذين رجعوا بعد الفرار والهزيمة وقاتلوا

(١) البيت في القرطبي (١٠٠/٨).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد، باب في غزوة حنين. حديث رقم: (١٧٧٧) (١٤٠٢/٣).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

معه عدوه. والتحقيق: أن الله أنزل سكينته على الجميع، الذين بقوا معه ولم يفروا والذين رجعوا إليه.

واختلف العلماء فيمن بقي معه ولم ينهزم^(١)، وكان بعض العلماء يقول: عشرة رجال أو أحد عشر رجلاً، وقد ذكرناهم بالأمس، ومن جملتهم: شيبه بن عثمان بن أبي طلحة كان يريد الغدر بالنبي ﷺ فأمن في ذلك الوقت، وكان من الثابتين المقاتلين مع رسول الله ﷺ. وكثير من أصحاب المغازي يقولون: ثبت معه نحو من مائة رجل أو ثمانين. وبعض العلماء يوفق بين القولين يقول: أما العشرة أو الأحد عشر فلم يتحركوا، وأما المائة أو الثمانون فهم الذين رجعوا بسرعة وحملوا على عدو النبي ﷺ، ذكروا أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قتل ذلك اليوم أربعين رجلاً بيده، وذكروا عن أبي طلحة أنه لما قال النبي ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيْنَةٌ فَلَهُ سَلْبُهُ»^(٢) أنه قتل عشرين رجلاً فأخذ أسلابهم، وكان علي (رضي الله عنه) ذلك اليوم هو الذي أسقط الجمل الذي عليه راية هوازن؛ لأن رايتهم كانت عند رجل على رمح طويل راكب على جمل أحمر، يتقدم أمام الناس، فإذا أدرك الناس طعنهم بالرمح، وإذا فاتوه رفع لواءه على الرمح ليراه مَنْ بَعْدَهُ!! فابتدره علي (رضي الله عنه) ورجل من الأنصار فضرب عليّ الجمل على عرقوبيه فسقط على عجزه، فابتدر الأنصاري الرجل فأطرنّ رجله بنصف ساقه وانجحف عن رحله^(٣).

ثم إن الله قال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ هذه الجنود هي الملائكة لم يرها المؤمنون ولكن الكفار رأوها، فذكر ابن عبد البر أنه روى من طرق كثيرة عن أولاد أولئك الذين

(١) انظر: ابن هشام ص(١٢٨٩)، البداية والنهاية (٤/٣٢٦، ٣٣٠)، فتح الباري (٨/٢٩)، مرويات غزوة حنين (١/١٦٩ - ١٨٤).

(٢) مضى قريباً عند تفسير الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) أخرجه الواقدي (٣/٩٠٢)، والبيهقي في الدلائل (٥/١٢٧)، والطبري في التاريخ (٣/١٢٨)، وذكره ابن هشام ص(١٢٨٩)، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٦) وانظر: مرويات غزوة حنين (١/١٦٤).

كانوا من الكفار شهدوا حيناً عن آبائهم أنهم قالوا: لقينا أصحاب محمد ﷺ فما وقفوا لنا حلب شاة، فهزمناهم واتبعناهم، حتى إذا انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء أو البغلة الشهباء رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق وقالوا لنا: «ارجعوا، شاهت الوجوه»^(١)، وقد كان النبي قال أيضاً هذه الكلمة «شاهت الوجوه، انهزموا». وجاء من روايات أخر أن مالك بن عوف النصرى سيد هوازن أرسل عيوناً يتجسسون له أخبار النبي ﷺ، فجاؤوه وقد انخلعت أوصالهم. أي: كأن ما بين عظامهم متفكك. فقالوا: رأينا رجالاً بيضاً على خيل بلق فما تمالكنا أن وقع بنا ما ترى^(٢).

والله (جلّ وعلا) في هذا القرآن العظيم ذكر التأييد بجنود الملائكة في أربع سور من كتابه، في ثلاثة منها يقول: ﴿لَوْ تَرَوْهَا﴾ وفي الرابعة لم يقل: ﴿لَوْ تَرَوْهَا﴾.

/ أما الثلاث التي قال فيها: ﴿لَوْ تَرَوْهَا﴾ فمنها: الملائكة الذين نزلوا في غزوة الخندق - غزوة الأحزاب - الآتي ذكرهم في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: آية ٩].

الثانية: الملائكة المنزلون في غزوة حنين هذه، المذكورون في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٢٦].

الثالثة: الملائكة الذين نزلوا بنبينا ﷺ يوم دخل في الغار هو وصاحبه، وسيأتي بسط قصتهم - إن شاء الله - في هذه السورة الكريمة سورة براءة، وذلك في قوله: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هَمَّ فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: آية ٢٥].

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٤/١٨٦، ١٨٨)، وذكره ابن عبد البر في الدرر في اختصار المغازي والسير ص ١٦٨، وانظر: مرويات غزوة حنين (١/٢٠٨ - ٢٠٩).

(٢) أخرجه الواقدي في المغازي (٣/٨٩٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/١٠٨)، والطبري في التاريخ (٣/١٢٧)، وذكره ابن هشام في السيرة، وابن القيم في الهدى (٣/٤٦٧)، وابن كثير في تاريخه (٤/٣٢٣)، وابن الأثير في الكامل (٢/١٧٨).

[٤٠] ففي هذه المواضع الثلاثة كلها يقيد بـ (لم تروها) (لم تروها) لأنه ينزل ملائكة لا يراهم بنو آدم؛ لأنهم ليسوا من شكلهم ولا من جنسهم حتى يروهم. وفي الموضع الرابع لم يقيد بقوله: (لم تروهم) وهو الملائكة النازلون يوم بدر، المذكورون في الأنفال وآل عمران، حيث قال الله في الأنفال: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيَاتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا ارْزُقُوا فَآصِرُوا فَوْقَ الْأَغْنَابِ﴾ الآية [الأنفال: آية ١٢]. وذكرهم أيضاً في سورة آل عمران في قوله: ﴿وَلَقَدْ بَصُرْنَا اللَّهُ بِبَدْرِ...﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ رُبَّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [آل عمران: الآيتان ١٢٣، ١٢٤] وقد قدمنا في سورة الأنفال^(١) أن أظهر الأقوال أن الملائكة قاتلت يوم بدر، وأنها لم تقاتل في غيرها بل تأتي لتجيب الكفار وتقوية قلوب المؤمنين ونصرتهم، هذا هو الظاهر، وقد ذكر (جلّ وعلا) فرقاً شاسعاً بين من يفر في غزوة بدر ومن فر في غيرها؛ لأنه شدّد غاية التشديد فيمن يفر في غزوة بدر كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَكَءٌ بِفَضْلِ رَبِّكَ أَلَّا﴾ [الأنفال: آية ١٦] بهذا التشديد العظيم، ولم يقل مثل هذا فيمن انهزم من الصحابة يوم أحد، ولا فيمن انهزم منهم يوم حنين؛ لأن بعض الصحابة انهزموا يوم أحد، وبعضهم لم يرجعوا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ ثم قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: آية ١٥٥] ثم قال هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] فأشار إلى أنه تاب عليهم من هزيمتهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّا تَرَوُهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم هوازن، عذبهم بأيدي المؤمنين حيث قتلوهم قتلاً وجيعاً وأسروهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وأموالهم مصداقاً لقوله: ﴿فَتَلَوْتُمُوعًا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِبَصُرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِ سُدُودًا قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: (١) مضى عند تفسير الآية (٩) من سورة الأنفال.

آية ١٤] ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين كانوا يقاتلون النبي وأصحابه كهوازن ﴿وَذَلِكَ﴾ العذاب ﴿جَزَاءَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٢٦] ثم الله تعالى قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] قال بعض العلماء: ﴿يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ يدخل فيه المنتهزمون الذين انهزموا عن رسول الله ﷺ، مَنْ رجع منهم وكَرَّ وَمَنْ لم يرجع. قالوا: ويدخل فيه الكافرون الذين قال الله: ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: آية ٢٦] لأن كثيراً منهم تابوا فتاب الله عليهم. وقد كان رئيس هوازن مالك بن عوف (رضي الله عنه)، أسلم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأنه لما انهزمت هوازن راح مع قُلِّ الطائف - والقُلِّ هو بقية المنتهزمين - وتحصن بحصن الطائف، فأرسل إليه النبي ﷺ سراً: أنه إن قدم إليه رد إليه أهله وولده وأعطاه. فخاف إن أعلم ثقيفاً بذلك أن يمنعه، فأمر أن يُرحل جملة في محل عَيْنَه لهم، ثم جاءه مختفياً، وسار إلى رسول الله ﷺ، وجاء إلى النبي ﷺ مسلماً فأكرمه رسول الله ﷺ، وزد إليه أهله وولده، وأعطاه مائة من الإبل كما أعطى المؤلفين. وقد كان مالك بن عوف سيد هوازن مدح النبي ﷺ ببعض أشعاره، ومن ذلك قوله لما رد له رسول الله ﷺ ما رد له وأعطاه مائة من الإبل^(١):

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله
في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ
هذا يمدحه به رئيس الذين كانوا أعداءه بالأمس يقاتلونه، رجع في هذا الزمن القريب إلى مدحه والثناء عليه هذا الثناء الجميل:

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ
أَوْ قَىٰ وَأَعْطَىٰ لِلْجَزَيْلِ إِذَا اجْتَدَىٰ
وَإِذَا الْكُتَيْبَةُ عَرَدَتْ أَنْيَابُهَا
فَكَأَنَّهُ لَيْتَ عَلَىٰ أَشْبَالِهِ
في الناسِ كلهم بمثلِ محمدِ
ومتى تَشَأُ يُخْبِرُكَ عَمَّا فِي عَدِيٍّ^(٢)
بِالسَّمْهَرِيِّ وَضَرَبَ كُلُّ مُهَنْدٍ
وَسَطَ الْهَبَاءَةَ خَادِرٌ فِي مَرْصِدِ

(١) هذا الخبر مع الأبيات أخرجه البيهقي في الدلائل (١٩٨/٥)، وأورده ابن هشام ص ١٣٤٣، وابن كثير في تاريخه (٣٦١/٤). وانظر: مرويات غزوة حنين (٤٦٩/٢).

(٢) معلوم أنه لا يعلم ما في غد إلا الله تعالى.

وهذا معنى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَوْ تَرَوْهَا وَعَدَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) وذلك جزاء الكافرين [التوبة: آية ٢٦] فقسم النبي ﷺ غنائم هوازن بعد أن رد إليهم أولادهم ونساءهم، قسم غنائمهم بالجعرانة في ذي القعدة عام ثمان - ثم إنه أحرم بعد أن قسمها بعمرة^(١) - من الهجرة.

وكانت في السبايا التي جيء بها رسول الله ﷺ: الشيماء بنت الحارث بن عبدالعزى، أمها حليلة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، كانت تقول لهم: مهلاً علي لا تزعجونني فإنني أخت صاحبكم من الرضاعة، فلما جاءت أخبرت النبي ﷺ فسألها عن العلامة فقالت له: عضه عضضتنيها في كتفي وأنا متوركتك. فعرف ﷺ العلامة فبسط لها رداءه وأجلسها عليه وأكرمها غاية الإكرام، وخيرها أن تبقى معه محبة مكرمة أو أن يردها إلى أهلها ويمتعها. فاختارت الرد إلى أهلها فمتعها. كانوا يقولون: من جملة ما أعطها جارية وغلماً، زوّجت الغلام من الجارية، قالوا: وكان عقبهما فيهم لا يكاد ينقطع^(٢). وهذا من كرمه ووفائه (صلوات الله وسلامه عليه)، فإن الإنسان إذا استعرض شيئاً من سيرته (صلوات الله وسلامه عليه) رأى العظمة الهائلة من الشجاعة الكاملة، والحلم الكامل، والكرم الكامل، والوفاء الكامل (صلوات الله وسلامه عليه). وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: آية ٢٧] على من يشاء أن يتوب عليه، وهذه يفهم منها أنه تعالى تاب على الذين انهزموا وإن لم يصرح بها. أما الذين انهزموا يوم أحد

(١) عمرته ﷺ بعد قسم غنائم حنين خرّج حديثها البخاري في صحيحه، كتاب العمرة، باب: كم اعتمر النبي ﷺ؟ حديث رقم: (١٧٧٨) (٦٠٠/٣)، وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث رقم: (١٧٧٩، ١٧٨٠، ٣٠٦٦، ٤١٤٨)، ومسلم في الحج، باب بيان عدد عمر النبي ﷺ وزمانهن. حديث رقم: (١٢٥٣) (٩١٦/٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الواقدي (٩١٣/٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٩/٥، ٢٠٠)، والطبري في تاريخه (١٣١/٣)، وابن عبدالبير في الاستيعاب (٣٤٤/٤)، وأورده ابن حزم في جوامع السيرة ص ٢٤٥، وابن هشام ص ١٣٠٦، وابن كثير في تاريخه (٣٦٣/٤) وابن الأثير في أسد الغابة (٢٥٧/٥)، (١٦٧/٧)، والكامل (١٨٠/٢)، والحافظ في الإصابة (٤٥٦/٣)، (٣٤٤/٤)، وانظر: مرويات غزوة حنين (٢٦٥/١).

فقد صرح بأنه تاب عليهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: آية ١٥٥].

وقوله هنا: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ التوبة تطلق من الله على عبده، ومن العبد إلى ربه، فإذا أطلقت التوبة من العبد إلى ربه عُذِّيت بـ (إلى) ولم تُعَدَّ بـ (على) تقول: تبت إلى الله. ولا تقول: تبت على الله. وإذا توجهت من الرب إلى عبده عُذِّيت بـ (على) تقول: تاب الله عليه. ولم تقل: تاب إليه. أما التوبة الواقعة من المخلوقين فإن الوصف منها يطلق على (تائب) وعلى (توَّاب) بصيغة المبالغة. أما توبة الله على عبده فلم يأتِ الوصف منها إلا على (توَّاب).

وقد قدمنا مراراً^(١) أن توبة العبد إلى ربه المستوجبة لتوبة الله على عبده أنها واجبة فوراً من كل ذنب، وأن من أخرها كان ذلك ذنباً تجب منه التوبة. وقد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(٢) أن في التوبة إلى الله (جلّ وعلا) إشكالين معروفين عند العلماء:

أحدهما: إطباق العلماء على أن توبة العبد إلى ربه هي مركبة من ثلاثة أركان، وهي: إقلاعه عن الذنب إن كان متلبساً به، وندمه على ما صدر منه، ونيته أن لا يعود. فهذه هي الأركان التي تتألف منها توبة العبد النصوح إلى ربه، الذي إذا فعلها جاءته توبة الله؛ لأن الله يتوب على من تاب عليه، كما قال (جلّ وعلا): ﴿تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: آية ٨] وهم يقولون: «عسى من الله واجبة»^(٣). هذا فيه إشكالان معروفان:

أحدهما: أن التوبة واجبة بإجماع العلماء فوراً من كل ذنب يُجترم. فعلينا جميعاً إذا صدر من الواحد منا ذنب أن يرجع إلى الله ويتوب إليه فوراً ولا يؤخر التوبة من ذلك، فإن أخرها كان تأخيرها ذنباً يحتاج إلى توبة

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢٩) من سورة الأنعام.

أخرى. والندم من أركانها بالإجماع، وركن الواجب واجب إجماعاً، فالندم على الذنب واجب؛ لأنه من أركان التوبة، وركن الواجب واجب، والإشكال هنا في الندم؛ لأن المعروف أن الندم من الانفعالات النفسية والتأثرات، لا من الأفعال الاختيارية كما هو مشاهد، والعلماء مجمعون على أنه لا تكليف إلا بفعل اختياري، وأن الانفعالات والتأثرات النفسانية لا يملكها أحد، فكيف يكلف بالندم ويُوجب عليه وهو انفعال وتأثر نفساني ليس تحت طاقته، وأنت تشاهد الإنسان يجاهد نفسه ليطرد عنها الندم، كالبائع المغبون يتجلد ويتقوى ويريد أن لا يندم وهو يندم غصب أنفه؛ لأنه انفعال وتأثر، كما أن بعض الناس يريد أن يندم ولا يندم إذا كان الذنب الذي وقع فيه - والعياذ بالله - مما كان يشتهي جداً، كالذي يظفر بقبله من امرأة يعشقها، إذا أخطر ذلك على قلبه يصعب عليه أن يندم عليه؛ لأنها أمنيته التي كان يرجوها فإذا كان الندم قد يريده الإنسان ولا يجده، وقد يدفعه عنه ولا يندفع، وهو انفعال وتأثر نفساني فكيف يكون ركناً من أركان التوبة، ويكون واجباً، ومعلوم إجماع العلماء على أن الله لا يكلف إلا بفعل؟

هذا الإشكال أجاب عنه العلماء بأن المراد بإيجاب الندم هو إيجاب الأخذ في أسبابه؛ لأن الإنسان إذا أخذ بأسباب الندم أخذاً صحيحاً ولم يحاب نفسه لا بد أن يندم، ومن كانت أسبابه الموصلة إليه متيسرة في طوع المكلف فكأنه متيسر في طاقة المكلف؛ لأن الإنسان إذا أخذ نفسه أخذاً حقيقياً وعرفها في داخل قرارة نفسه أنه لا يوجد في الدنيا إنسان يبلغ من البله والتغفيل ما يستلذ به طعاماً أو شراباً حلواً وفيه سم قاتل؛ لأن عامة العقلاء لا يحبون الطعام الحلو ولا الشراب الحلو ولو كان في غاية اللذابة والحلاوة إذا كان في داخله سم فتاك قاتل، هذا يعافه جميع الناس ويكرهونه، ولا شك أن حلاوات المعاصي ولذاتها عند الجهلة، وإنما هي منطوية عليه من السم القاتل الفتاك، وهو سخط خالق السماوات والأرض وغضبه، أن العاقل إذا تأمل في هذا تأملاً حقيقياً ولم يحاب نفسه وأخذها بالتحقيق لا بد أن يندم؛ لأن الإنسان لو نال ما نال من حلاوة الذنب فهو يعلم أن تلك الحلاوة منطوية على أشد السموم وأفتكها وهو سخط خالق

السموات والأرض وغيظه؛ لأنه قد يستوجب هلاكه في الدنيا وعذابه السرمدي في الآخرة، وهذا معروف؛ لأنه لا يأخذ الإنسان في أسباب الندم أخذاً صحيحاً حقيقياً ويعرف عواقب الذنب وسرعة انقضاء حلاوته.

فلا تقرب الأمر الحرام فإئماً حلاوته تفنى ويبقى مزيروها^(١)

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من المعاصي ويبقى الإثم والعار

تبقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدها النار^(٢)

فمن عرف حقارة لذة المعصية وشدة السموم الفتاكة المنطوية عليها، وأعمل عقله تعميلاً صحيحاً لا بد أن يندم، فلما كانت الأسباب الموصلة إلى الندم متمسرة لا يعجز عنها إلا من حابى نفسه ولم يستعمل أسباب الندم صار الندم كأنه في طوق الإنسان.

الإشكال الثاني: هو ما ذكره العلماء في الإقلاع؛ لأن الإقلاع عن

الذنب والكف عن شر الذنب، وعدم التماذي فيه، هذا ركن من أركان

التوبة، فلا توبة مع عدم الإقلاع؛ لأن المتلبس بالذنب الذي لم يقلع عنه لا

توبة له بإجماع العلماء، والإشكال في هذا أن بعض الناس يتوب مع تعذر

الإقلاع عليه، كالذي كان ينشر بدعة من البدع حتى طارت في أقطار الدنيا،

وصار يُعمل بها في مشارق الأرض ومغاربها، ومعلوم أن من سنّ سنة سيئة

فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أوزارهم

شيئاً. ثم إنه ندم على بدعته وأراد الإقلاع والرجوع عنها، لكن شره منتشر

مستطير في أقطار الدنيا؛ لأن البدعة التي بثت وهي إلى الآن في أقطار الدنيا

يتناقلها الناس بعضهم عن بعض، ويضلون بها بعضهم عن بعض، فهل

نقول: هذا مقلع؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع، أو نقول: ليس بمقلع؛ لأن

فساده لم يزل فهو منتشر في أقطار الدنيا الآن؟

(١) البيت في تاريخ دمشق (٣٣٤/١٤) ونسبه للحسين بن مطير.

(٢) البيتان في الآداب الشرعية (٢٢٧/٢)، شعر الدعوة الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين ص ٥١٦، وقد نسبها بعضهم لعثمان بن عفان (رضي الله عنه).

ومن هذا القبيل: من غصب أرضاً، كأن غصب أرضاً مثلاً عشرين ميلاً في عشرين ميلاً وهو جالس في وسطها، ثم إنه ندم على الغصب وأراد أن يخرج من الأرض المغصوبة نادماً، الزمن الذي يمكنه قبل أن يخرج منها لو أدركه الموت وهو فيها هل نقول: هل هذا تائب؛ لأنه فعل غاية ما يستطيع؟ أو نقول: لم يقلع؛ لأنه إلى الآن لم يتخل عن الشيء الذي غصبه، بل هو في حوزته إلى الآن، وهو يشغله بجسمه؟ ومن هذا المعنى: من رمى إنساناً من بعيد بسهم ثم لما فارق السهم ندم والسهم في الهواء فتاب إلى الله (جلّ وعلا) والسهم في الهواء، ثم بعد أن تاب أصاب السهم في الرمية فقتله، هل نقول: هو تائب؛ لأنه فعل في ذلك الوقت ما يستطيع، أو نقول: ليس بتائب؛ لأن فسادته منتشر، وأثر جريمته باق لم ينقطع؟ هذه مسائل اختلف فيها علماء الأصول حول الإقلاع عن الذنب في التوبة^(١). والمحققون من علماء الأصول أن الإنسان إذا فعل غاية ما في وسعه وندم على ما صدر منه أن الله يغفر له بذلك ويتوب عليه؛ لأن الله يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: آية ٢٨٦] وهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ مفعول المشيئة محذوف، أي: ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه ﴿وَاللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ كثير المغفرة والرحمة لعباده؛ لأن الله غفور رحيم، فقد جاء في غزوة حنين هذه أن النبي ﷺ رأى امرأة من السبي تصيح تطلب ولدها وهي في غاية التشويش إليه حتى وجدته فجعلت تقبله وتضمه إليها من شدة شفقتها عليه، فقال النبي ﷺ لأصحابه: أترون هذه طارحة ولدها هذا في النار؟ قالوا: لا. قال: ولم؟ قالوا: لشفقتها عليه. قال: الله أرحم بكم من هذه بولدها^(٢). فالله (جلّ وعلا) أرحم من كل شيء.

فلو أن فرعونَ لما طَعَى وقالَ على الله إفكاً وزوراً

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

(٢) البخاري في الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانفته. حديث رقم: (٥٩٩٩) (٤٢٦/١٠)، ومسلم في التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: (٢٧٥٤) (٢١٠٩/٤).

أَتَابَ إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْفِرًا لِمَا وَجَدَ اللَّهُ إِلَّا غَفُورًا^(١)
الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة فجاؤوا بأشنع كفر كيف يستعطفهم الله
ويقول لهم: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾
[المائدة: آية ٧٤] هذا الاستعطاف والكلام اللين العظيم في الاستعطاف
والوعد بالمغفرة للذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة يدل على عظمة رحمة الله
وسعة مغفرته (جلّ وعلا) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ
سَلَفَ﴾ [الأنفال: آية ٣٨] كائناً ما كان من شدة رحمة الله ومغفرته.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَأُوا
الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾
[التوبة: الآيتان ٢٨، ٢٩].

يقول الله جلّ وعلا: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا
يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: آية ٢٨] هذه
مما كان ينادي به علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مواسم عام تسع،
ولم يحج بعدها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، خاطب الله عباده في هذه
الآية الكريمة باسم الإيمان ليكون ذلك أذع وأبعث على الامتثال، أمراً لهم
أن يبعدوا الكفار عن مسجده ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾
صرح في هذه الآية الكريمة بأن المشركين نجس، والنجس أصله مصدر
نجس الشيء ينجس نجساً فهو نجس بفتح فكسر، أصله مصدر. وهذا من
النعته بالمصدر، والمصدر إذا نُعت به أفرد ودُكر، تقول: مشرك نجس،
ومشركة نجس، ومشركان نجس، ومشركات نجس، ومشركون نجس.

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة الأنفال.

تطلقه بالإفراد على الواحد والاثنين والجمع من الذكور والإناث.

قال بعض العلماء: هي نجاسة كالنجاسة الحسية؛ ولذا قال بعض العلماء: ذات المشرك نجس كالكلب والخنزير. وعن الحسن البصري رحمه الله: مَنْ صافح مشركاً فليتوضأ^(١).

وجماهير العلماء - وهو الصواب إن شاء الله - على أن النجاسة في هذه الآية الكريمة معنوية، فهو نجس معنى، والمعنى أعظم من الحس؛ لأن شركه بالله أثن شيء وأفزره وأنجسه، وكان بعض العلماء يقول: نجاسته أيضاً لأنه لم يتطهر من جنابة، ولم يتوضأ ولم يجتنب شيئاً من القاذورات والأنجاس، فهو ملازم للنجاسة. وأكثر العلماء على أن الكافر الذي لم يتلبس بدنه بنجاسة أن نجاسته معنوية لا حسية، وأنه لأجل هذه النجاسة المعنوية أمر الله أن يُبعد عن المسجد الحرام ولا يقرب منه.

قال عطاء (رحمه الله) وغير واحد من العلماء: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] المراد بالمسجد الحرام: الحرم كله^(٢)، أي: لا يقرب المشركون حرم الله كله، بل يجب إبعادهم عن الحرم وعدم قربانهم إياه. وهذا القول هو الحق والصواب - إن شاء الله - لأنه دل استقراء القرآن العظيم على أن الله يطلق المسجد الحرام على جميع الحرم، وهذه الآية من جملة الآيات التي أطلق فيها المسجد الحرام وأراد الحرم كله، كقوله: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: آية ١] والصحيح أن الإسراء وقع به من بيت أم هانئ بنت أبي طالب في مكة في الحرم لا في نفس المسجد، وقد قدمنا في الآيات الماضية قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عٰهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: آية ٧] والمعاهدة في طرف الحرم من الحديبية، فهذه الآيات دلت على أن منع الكفار والمشركين من القربان عام لجميع الحرم لا لخصوص المسجد وحده، خلافاً لمن قام مع اللفظ.

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٢/١٤).

(٢) السابق.

والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ دل مسلك الإيماء والتنبيه من مسالك العلة في الأصول على أنها أداة تعليل، وكذلك قرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل^(١)، كقولهم: سهى فسجد. أي: لعله سهوه. وسرق فقطعته يده. أي: لعله سرقته. وأساء فأذّب. أي: لعله إساءته. ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: آية ٢٨] لعله نجاستهم التي يجب أن تبعد من المسجد وَيَقْوَى إياها. والحاصل أن الصحيح - إن شاء الله - أنه لا يجوز أن يدخل جميع حرم مكة مشرك^(٢). والصواب - إن شاء الله - أنها لا يدخلها الكتابيون من يهود ولا نصارى^(٣)، خلافاً لما ذهب إليه جماعة من العلماء، وهو مروى عن أبي حنيفة (رحمه الله) أنه لا مانع من دخول اليهودي والنصراني الذمي - مثلاً - الحرم، بل المسجد. قالوا: لأن الله إنما منع منه خصوص المشركين. قالوا: وأهل الكتاب ليسوا من المشركين^(٤). واستدلوا بآيات من كتاب الله ظاهرها المغايرة بين أهل الكتاب والمشركين، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ١] وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: آية ٦] وقوله: ﴿وَلَسْتُمْ مِنَ الَّذِينَ أُرْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [آل عمران: آية ١٨٦] وقوله: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: آية ١٠٥] وقوله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: آية ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات التي عطف الله فيها أهل الكتاب على المشركين، قالوا: والعطف يقتضي المغايرة، فدل أنهم ليسوا من المشركين، والتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن أهل الكتاب من المشركين، وقد نصّ الله على أنهم من المشركين في هذه الآية الكريمة من سورة براءة؛ لأنه لما ذكر أهل الكتاب وقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة البقرة.

(٢) في هذه المسألة انظر: ابن جرير (١٩١/١٤)، القرطبي (١٠٤/٨)، إعلام الساجد للزركشي ص ١٧٣.

(٣) انظر: المغني (٢٤٥/١٣).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿التوبة: آية ٢٩﴾ ثم صرح بأن أهل الكتابيين من المشركين في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَن يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١] فصرح بأنهم مشركون بعد أن صرح بمنع المشركين من المسجد الحرام أتبعه بأن الكتابيين من نفس المشركين، وهذا برهان واضح.

وقال: ﴿أَخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا...﴾ [التوبة: آية ٣١] ومعلوم أن الذي اتخذ الأخبار والرهبان أرباباً من المشركين شرك ربوبية كما لا يخفى. وسيأتي في هذه الآيات الكريمة من سورة براءة بيان أن كل من اتبع تشريع أحد ونظامه واتبع تشريع الشيطان المخالف لتشريع الله كل متبع لتشريع الشيطان الذي يشرعه على السنة أوليائه تاركاً تشريع الله الذي شرعه على السنة رسله كافرٌ مشرك بالله^(١)، كما سنوضحه في هذه الآيات الآتية. ومن أصرح الأدلة عليه أنه لما وقعت تلك المناظرة المشهورة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم من أحكام الحلال والحرام، وحزب الشيطان يقولون: إن ذلك الحكم حلال، ويستدلون بوحى شيطاني، وحزب الرحمن يقولون: إن ذلك الحكم حرام. ويستدلون بوحى قرآني، لما اختصموا وأدلى كل بحجته تولى الله الفصل بينهم فأفتى بينهم فتوى سماوية تتلى قرآناً في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني الميتة؛ لأن الكفار أوحى إليهم الشيطان: أن سلوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فقال لهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذكيتموه وذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم أحسن من الله. فهؤلاء استدلوا بوحى إبليسي!! ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!!

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

والمسلمون استدلوا بوحى قرآني، وهو ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أَمْيَتَةً﴾. فلما أدلى كل بحجته فصل الله بينهم فأفتى في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ أَسَدُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميته، أي: وإن زعموا أنها ذبيحة الله. ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفُسْقٌ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] أي: الأكل منها فسق. ثم قال: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفْرٍ إِلَىٰ أُولِيَٰهِمْ لِيُجَدِِّلَهُمْ﴾ يعني قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم إذن أحسن من الله. ثم قال، وهو محل الفتيا السماوية من رب العالمين: ﴿وَإِنَّ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] فصرح بأن من أطاع تشريع الشيطان في حل الميته أنه مشرك برب العالمين، ولا شك أن اليهود والنصارى أطاعوا الشيطان فيما هو أعظم من إباحة الميته كما لا يخفى، والشيطان عالم بأن الذين يتبعون نظامه وقانونه أنهم مشركون به، عالم هذا في قرارة نفسه، ولكنه في الدنيا يدلس لهم ويجحد، فإذا كان يوم القيامة الذي تظهر فيه الصفات، وتبرز فيه الحقائق أوضح لهم تبرؤه من شركهم به كما سيأتي في سورة إبراهيم الخليل في الخطبة العظيمة التي ذكرها الله عن الشيطان، وهي قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَمْ أَنْفَسَكُم مَّا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ وَمَا أَنَا بِمُضِرِّكُمْ إِلَّا كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] فصرح بأنهم كانوا مشركين به من قبل، ولا شك أن اليهود والنصارى داخلون في هذا دخولا أولياً، وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُكُمْ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: آية ١٠٠] واليهود والنصارى داخلون فيهم بلا شك، وهذا الشرك الشيطاني باتباع نظامه وشرعه هو الذي وبَّخ الله مرتكبه في سورة (يس)، وبين مصيره النهائي في قوله: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَنِيَّ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [١٠] وَأَنْ اعْبُدُونِي﴾ [يس: الآيتان ٦٠، ٦١] إلى أن قال موبخاً لهم ناعياً عقولهم: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ﴾ [١٢] ﴿[يس: آية ٦٢] ثم بين مصيرهم النهائي الأخير في قوله: ﴿هَلْ يَدْرِيهِمْ جَهَنَّمَ أَلَيْسَ كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [١٣] أَصَلَوْهَا الْيَوْمَ﴾ [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤] وهذا الشرك الشيطاني بالاتباع هو الذي نعى إبراهيم عنه أباه في قوله: ﴿يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] وقال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آلِهَةً﴾ [سبأ: الآية

[٤١] وسيأتي لهذا المبحث زيادة إيضاح بالآيات القرآنية قريباً في الآيات الآتية - إن شاء الله - في الكلام على قوله: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُفَعَتُهُمْ أَزْوَاجًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] فهذه النصوص ولا سيما آية براءة هذه التي صرحت أن خصوص أهل الكتاب من المشركين تدل على منعهم من دخول الحرم، وما نُقل عن بعض العلماء ورُوي عن الإمام أبي حنيفة من أنهم لا مانع من دخولهم الحرم، فيه نظر، والأصوب والأظهر أنهم يمنعون منه؛ لأنهم نجس؛ ولأن الله صرح بأنهم مشركون. والتحقيق - إن شاء الله - أن المراد بالمسجد الحرام فيها الحرم كله، فلا يجوز أن يدخل حرم مكة مشرك بالله ولا كافر، كتابياً أو غيره، وما روي عن جابر (رضي الله عنه) من أنه خصص هذه الآية الكريمة وقال: لا يدخل فيها العبد والأمة، إذا كان للمسلم عبد ذمي أو أمة ذمية مملوكان فلا مانع من دخولهما المسجد^(١). وروي فيه حديث مرفوع، والتحقيق عند المحدثين أن الموقوف على جابر هو الأثبت الصحيح والمرفوع ليس بصحيح^(٢). وقولُ قاله جابر لا يمكن أن يُخصص به النص الصريح، ولا سيما النص المبني حكمه على العلة؛ لأنه صرح بأنهم نجس، وأشار بالفاء إلى أن تلك النجاسة هي سبب منعهم من قربان المسجد.

وعلى كل حال فالمشركون كعبد الأوثان أجمع جميع العلماء على منعهم من دخول المسجد، واختلفوا في الكتابي وفي غير المسجد من سائر الحرم، وقد بينا أن الصواب - إن شاء الله - منعهم من ذلك كله. ولو جاءت من المشركين رسالة إلى سلطان المسلمين - وهو بمكة - لا يُدخل الرسول، بل يخرج إليه خارج الحرم حتى يسمع منه ما يقول، ويعطيه الرد خارج الحرم، أو يرسل إليه من ينوب عنه في ذلك^(٣). قال بعض العلماء^(٤) - وبه قال جماعة من المالكية - إن الواحد منهم

(١) أخرجه ابن جرير (١٩٦/١٤) من طريق عبد الرزاق.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٩/٣، ٣٩٢) وقال عنه ابن كثير: «تفرد به الإمام أحمد مرفوعاً، والموقوف أصح إسناداً» ا.هـ. تفسير ابن كثير (٣٤٦/٢).

(٣) انظر: القرطبي (١٠٤/٨).

(٤) السابق، وانظر: إعلام الساجد للزركشي ص ١٧٥.

إن دخل مختفياً ومات ودفن في الحرم وأطلع عليه أنه ينش قبره، وتخرج عظامه من الحرم، ولا يترك في حرم الله؛ لأنه نجس قدر - قبحه الله - فالتحقيق أنه لا يجوز أن يدخل حرم الله كافر، وأن الله نهى عن قربانهم إياها، لا يقربوه فضلاً عن أن يدخلوه.

واختلف العلماء في غير المسجد الحرام من المساجد هل يدخل الكفار المساجد غير المسجد الحرام^(١)؟ اختلف العلماء في ذلك، فذهب مالك (رحمه الله) وأكثر أصحابه في طائفة من العلماء إلى أنه لا يجوز أن يدخل كافر مسجداً من مساجد الله كائناً من كان في أي قطر من أقطار الأرض في حرم أو حل. / واستدل مالك لهذا الحكم بأدلة، قالوا: من تلك الأدلة أن الله (جلّ وعلا) صرح بالعلة فقال: ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُونَ نَجَسٌ﴾ وقد تقرر في علم الأصول أن العلة تارة تعمم معلولها وتارة تخصصه^(٢)، وقد جاءت مواضع من كتاب الله وسنة رسوله لا خلاف فيها بين العلماء أن العلة تعمم معلولها، قالوا: ومن أمثلة ما تعمم فيه العلة معلولها قوله (صلوات الله وسلامه عليه) في حديث أبي بكره الثابت في الصحيح: «لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان»^(٣) نص^(٤) النبي ﷺ في هذا الحديث الصحيح على منع علة الحاكم الغضبان من الحكم؛ لأن الغضب يشوش فكره، فيمنعه من تقصي فهم أقوال الخصوم، وفهم ما يحكم عليهم به. قالوا: إذا كان الحاكم في غاية الجوع والعطش المفرطين، أو في غاية الحزن والسرور المفرطين، أو في غاية الحزن والحقن المفرطين - والحقن: مدافعة البول. والحقب: مدافعة الغائط - إذا كان في أمر من هذه الأمور يشوش الفكر تشويشاً عظيماً مثل تشويش [الغضب]^(٥) أو أشد لا يجوز له أن يحكم، فتعليه بالغضب المستلزم لتشويش الفكر علة عممت هذا الحكم

١/٥

(١) انظر: القرطبي (١٠٤/٨)، إعلام الساجد ص ٣١٨.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنفال.

(٣) مضى تخريجه عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

(٤) في الأصل: «هذه الآية الكريمة نص فيها النبي...» وهو سبق لسان.

(٥) في الأصل: «الفكر». وهو سبق لسان.

وعدته إلى كل شيء يشوش فكر الإنسان. قالوا: فكذلك قوله: ﴿نَجَسٌ﴾ قدر، ومعلوم أن المساجد بيوت الله، وأن الله قال: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُكُمْ﴾ [النور: آية ٣٦] وأن شيئاً صرح الله بأنه نجس، ومعلوم قذارة النجس، لا ينبغي أن يدخل في بيوت الله التي أسست لعبادة الله وعلى الطهارة وعلى تجنب الأقدار. هذا من أدلة مالك، واستدل الإمام مالك أيضاً بما قدمنا من آية سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُكُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: آية ١١٤] قال: معناه لا يدخلونها أبداً إلا خائفين من المسلمين أن يطلعوا عليهم فينكلوا بهم. فسر الآية هذا التفسير، واستدل بعمومها.

وذهب آخرون من العلماء، منهم الأئمة الثلاثة، إلى أن دخول الكافر لمسجد غير المسجد الحرام قالوا: لا مانع منه ولا يُمنع، وبعضهم يقيد بقوله: إن دعت إلى ذلك حاجة، وبعضهم يُطلق. واستدلوا على ذلك بأدلة، منها: أن النبي ﷺ ربط ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة - لما أخذ أسيراً - ربطه وهو كافر في سارية من سواري مسجده هذا^(١). قالوا: وأنزل وفد نجران في المسجد وهم كفار^(٢)، ومعلوم أن في هذا البحث مناقشة، وأن من قال: يمنع دخول الكفار المساجد، أجابوا عن كل بجواب، فقالوا في حديث ثمامة: إنه وقع قبل تحريم دخول المساجد. وجاءوا بأدلة احتجوا بها، وحاصل ما للعلماء فيها هو ما ذكرنا.

وكان بعض العلماء يقول^(٣): إذا أسلم الكافر لزمه أن يتطهر؛ لأنه

(١) البخاري في المساجد، باب الاغتسال إذا أسلم، وربط الأسير أيضاً في المسجد. حديث رقم: (٤٦٢) (٥٥٥/١) وأطرافه (٤٦٩، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٤٣٧٢).

(٢) خبر قدوم وفد نجران على النبي ﷺ أورده ابن سعد في الطبقات (٨٤/٢/١)، وابن هشام في السيرة ص ٦١٠، وابن كثير في التفسير (٣٦٨/١)، وابن القيم في الزاد (٦٢٩/٣). وليس في الخبر أنه أنزلهم المسجد، وإنما دخلوا عليه في المسجد، وأنهم صلوا فيه إلى المشرق.

(٣) انظر: المغني (٢٧٤/١ - ٢٧٦)، القرطبي (١٠٣/٨).

نَجَس، وقال بعضهم: يجب على الكافر الطهارة إذا أسلم، قالوا: لأنه لا بد أن تكون كانت عليه جنابة. وهذا قال به جماعة من العلماء، ويدل له: أمره ﷺ ثمامة بن أثال الحنفي لما أسلم أن يغتسل^(١). قالوا: ذهب إلى حائط أبي طلحة واغتسل فيه. وقالوا أيضاً: أمر قيس بن عاصم لما أسلم أن يغتسل بماء وسدر^(٢). وكان ابن وهب من أصحاب مالك يقول: لا يجب عليه إذا أسلم غسل؛ لأن الإسلام يَجِبُ كل شيء قبله، وَيَجِبُ الجنابات، وَيَجِبُ كل شر وسوء كان قبله. هذا معنى قوله: ﴿فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾.

﴿بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَذَا﴾، وعامهم هذا هو عام تسع على التحقيق، وخالف قوم منهم قتادة^(٣) وأبو بكر بن العربي^(٤)، قالوا: هو عام عشر. وقال أبو بكر بن العربي المالكي: عجباً لعاقل يقول: إن هذا العام عام تسع!! ونحن نقول: العجب كل العجب من كلام ابن العربي هذا!! والعام بلا شك أنه عام تسع، والإشارة بقوله: ﴿هَذَا﴾ إلى العام الذي هم فيه في ذلك الوقت الراهن، وهو عام تسع بلا نزاع، والذي غلط في هذا من العلماء وقال: هو عام عشر. التبس عليه ما بين المضاف والمضاف إليه؛

(١) أخرجه أحمد (٣٠٤/٢، ٤٨٣)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وابن خزيمة (١٢٥/١)، وابن حبان (٢٦٩/٢)، والبيهقي (١٧١/١)، وابن الجارود (٢٤/١) وأصله في الصحيحين كما في الحديث المتقدم قريباً وفيه: أنه ربطه بسارية من سواري المسجد. وليس فيه أنه أمره بالاعتسال. وانظر: الإرواء (١٦٤/١).

(٢) أخرجه أحمد (٦١/٥)، وعبدالرزاق (٩/٦)، وأبو داود في الطهارة، باب الرجل يسلم فيؤمر بالغسل. حديث رقم: (٣٥١) (١٩/٢)، والترمذي في الصلاة، باب ما ذكر في الاعتسال عندما يسلم الرجل. حديث رقم: (٦٠٥) (٥٠٢/٢)، والنسائي في الطهارة، باب غسل الكافر إذا أسلم. حديث رقم: (١٨٨) (١٠٩/١)، وابن الجارود (٢٥/١)، وابن خزيمة (١٢٦/١)، وابن حبان (٢٧٠/٢)، والبيهقي (١٧١/١) وانظر: الإرواء (١٦٣/١).

(٣) الرواية التي نقلها ابن جرير (١٩٢/١٤) عن قتادة (رحمه الله) مصرحة بأنه عام تسع. ولعل الشيخ (رحمه الله) عزا ذلك لقتادة متابعة للقرطبي (١٠٦/٨)، وابن العربي في أحكام القرآن (٩١٥/٢).

(٤) أحكام القرآن (٩١٥/٢).

لأن المضاف هو لفظة (بعد)، والباء والعين والذال ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ البعدية المضافة إلى عامهم هذا، فعامهم هذا هو عام تسع يقيناً لا شك فيه، وما بعد عام تسع أوله عام عشر؛ لأن الشيء إذا انتهى عام تسع فالزمن الذي بعد انتهائه يسمى أنه بعده. فالبعدية واقعة بعام عشر، أما العام المذكور في قوله: ﴿عَامِهِمْ هَذَا﴾ المضاف إليه البعدية، فهو عام تسع بلا نزاع كما لا يخفى.

ثم قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وهذه الآية تدل على أن الكفار يُمنعون من الإتيان إلى الحرم لأن أهل مكة كانوا في الموسم تحج إليهم قبائل العرب من أقطار الدنيا فيأتون بالأموال والطعام يبيعونها، فلما مُنعوا من أن يحجوا، وأمر المشركون بتجنب الحرم، قالوا: من أين نعيش؟ كنا نعيش مما يأتي به هؤلاء في مواسمهم فإننا سنفتقر، ولن يبقى لنا شيء نعيش به إن مُنع هؤلاء من القدوم علينا؛ لأننا كنا نعيش بما يوردونه من الأطعمة والأموال ونحو ذلك. فقال لهم الله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ﴿خِفْتُمْ﴾ من الخوف. أصل ﴿خِفْتُمْ﴾ من خاف يخاف.

هذه المادة فاؤها خاء، وعينها واو، ولامها فاء، وقد يُشكل على طالب العلم من أين جاءت هذه الكسرة التي كُسر بها الخاء في قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ مع أن المادة من الأجوف الواوي العين. فسبب كسر الخاء من قوله: ﴿خِفْتُمْ﴾ أن ماضي (خاف) أصله (خَوَف) بكسر الواو، قُلبت الواو ألفاً فقليل فيه: (خاف) والواو المبدلة من الألف أصلها مكسورة، فإذا بُني الفعل إلى ضمير الرفع كالتاء هنا سقطت العين بالاعتلال وجُعِلت كسرة الواو الساقطة بالاعتلال نقلت إلى الفاء ليدل على أن العين كانت مكسورة كما هو مقرر معلوم في فن التصريف^(١).

وقد ذكرنا^(٢) أن الخوف في لغة العرب هو الغم من أمر مستقبل. وأن

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنفال.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

الحزن هو الغم من أمر فائت. وربما أطلقت العرب أحدهما في موضع الآخر كما هو معروف.

وقوله: ﴿عَيْلَةً﴾ العيلة في لغة العرب: معناها الفقر. تقول العرب: عال الرجل يعيل عيلة. إذا افتقر فقراً. ف (العيلة) من أجوف يائي العين عال يعيل عيلة إذا افتقر. وعال يعول بالواو إذا جار وعدل عن الحق. وذكر بعضهم أنه مسموع عن العرب أيضاً: عال يعول - بالواو - إذا افتقر^(١). وهو غريب!!

أما (عيلة) فمعناه فقراً. وعال يعيل بمعنى افتقر، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أحيحة بن الجلاح الأنصاري^(٢):

وما يدري الفقير متى غناه وما يدري الغني متى يعيل
أي: لا يدري الغني متى يفتقر، ومنه بهذا المعنى قول جرير^(٣):

والله نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل
وصفه بنفسه توكيداً لاختلاف اللفظين. فالمعنى: إن خفتم فقراً فسوف يغنيكم الله من فضله، ولا شك أن الله أغناهم من فضله. قال بعض العلماء: أغناهم من فضله بما فتح من باب الجزية. قالوا: والدليل عليه أن الآية التي بعدها آية الجزية، فأخذ المسلمون الجزية من الكفار واستغنى بها المسلمون. وقال بعض العلماء: أغناهم بإنزال المطر، وأخصبت الأرض، فأخصبت بلاد اليمن، وأخصبت تباله وجرش، و جلبوا لهم من الطعام والودك، وأسلم قبائل العرب في اليمن وفي نجد وفي غيره، فكانوا يحجون كل سنة ويأتونهم بمثل ما كانوا يأتونهم به من الطعام والأموال فأغناهم الله بذلك^(٤). وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

(١) انظر: ابن جرير (١٩٣/١٤).

(٢) البيت في ابن جرير (١٩٢/١٤).

(٣) البيت في ديوانه ص. ٣١٣.

(٤) هذه المعاني ذكرها القرطبي (١٠٦/٨).

قال بعض العلماء^(١): يؤخذ من هذه الآية الكريمة حكم، وهو أن تعلق القلب بأسباب الرزق والمعيشة لا ينافي التوكل ولا يقدر في توكل الإنسان؛ لأن هؤلاء القوم لما تخيل لهم أن الطريق التي كانوا يعيشون منها أنها انقطعت بمنع المشركين من الحج، وخافوا الفقر من هذا الطريق ما عنف الله عليهم ولا عابهم بل قررهم على ذلك، فقال لهم: إن خفتم الفقر من هذا الطريق، ومن أن السبب الذي كنتم تعيشون به أنه انقطع فسوف يغنيكم الله بأسباب أخرى. وهذا معنى معروف، أن الأسباب لا تنافي التوكل، فالمسلم الذي يعلم ما جاء عن الله يتسبب ويتعاطى جميع الأسباب لحياته، ويتسبب في أسباب الرزق والمعيشة على الوجوه الشرعية غير المزرية، ومع ذلك فهو متوكل على الله، والذي يترك جميع الأسباب ويقول: توكلت على الله!! هذا مخالف للشرع، مخالف لما جاء عن الله، والذي يعتمد في كل شيء على الأسباب ولا ينظر إلى ربه هذا أيضاً ضال مضل، والذي يستعمل الأسباب كما شرعها له ربه، ويكون اعتماده في الحقيقة على ربه فهذا هو المؤمن. ألا ترون أن نبي الله يعقوب، وقد قال الله فيه: ﴿وَاللَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] علم أولاده السبب في التحرز عن العين فقال لهم: ﴿يَبْنَئِي لَّا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَجِدْ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَاتٍ﴾ فهذا تسبب في التحرز عن العين؛ لأنها تضر، ثم صرح مع ذلك بتوكله الكامل على الله حيث قال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنَّ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: الآية ٦٧] فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل كما هو معروف، وقد قال الله لمريم: ﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةَ﴾ [مريم: آية ٢٥] ولا شك أنه لو أراد أن يتساقط عليها رطبها من غير سبب لتساقط من غير سبب، ولكنه أجرى العادة بأن جعل للأرزاق والمعاش والأشياء أسباباً، ربط بين الأسباب ومسبباتها بما شاء بقدرته وحكمته:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجذع يساقط الرطب ولو شاء أن تجنيه من غير هزه جنته ولكن كل شيء له سبب^(١)

فالأخذ في الأسباب مع مراعاة الشرع، وتعلق القلب بالله، وتوكله على الله، هذه طريقة الأنبياء، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَمَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ﴾ [المائدة: آية ٣] يعني: أن من اضطر إلى أكل الميتة أكل الميتة وتسبب في إمساك رمقه بأكل الميتة، ولم يقل له فانتظر وتوكل على الله حتى ينزل لك رزق من السماء!! لم يقل هذا تعليماً للناس بالأخذ بالأسباب، وتعلق قلوبهم بربهم، وتوكلهم عليه. وهذا معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ إن شاء أن يغنيكم. فعلق الغنى بمشيئته، فلا يكون شيء إلا بمشيئته (جلّ وعلا)؛ لأن الأرزاق مقسومة بمشيئته (جلّ وعلا)، فهو الذي تولى قسمها بنفسه ولم يكله إلى أحد، كما سيأتي في سورة الزخرف في الكلام على قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: آية ٣٢] ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: آية ٧١]. هذا معنى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ (جلّ وعلا) ﴿عَلِيمٌ﴾ محيط علمه بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل، وكل ما يقول، وكل ما يشرع، فأفعاله كلها في غاية الحكمة، وأقواله وتشريعه وجزاؤه كله في غاية الحكمة، هذا معنى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٢٨].

قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمُ اللَّهُ إِنْ يُلْفَى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٥﴾ أَنْكَرُوا أَحْبَابَهُمْ

(١) تقدم ذكرهما في الحاشية عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف، والبيتان في المستطرف (٢/١٢٨، ٥٤٨)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (١/٥٩٠).

وَرَهْبَتُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
 [التوبة: الآيات ٢٩ - ٣١].

يقول الله (جل وعلا): ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ
 الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: آية ٢٩].

كان الصحابة (رضي الله عنهم) ينتظرون نزول هذه الآية الكريمة بسبب
 آية نزلت على النبي ﷺ هي من المنسأ الذي قدمناه في قوله: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ
 آيَةٍ أَوْ نُنسَخَ﴾ [البقرة: آية ١٠٦] على قراءة: ﴿نُنسأها﴾^(١) يعني: نؤخرها؛
 لأن الله يؤخر بعض الآيات إلى أمد معلوم، ثم يأتي بديلها، تارة يأتي بديلها
 ناسخاً، وتارة تكون منسأة لا منسوخة؛ لأنها كانت معلوماً أنها مغياة بغاية.
 وإيضاح هذا: أن الله أنزل آيات في أهل الكتاب تدل على عدم قتالهم،
 كقوله في سورة البقرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنَ
 بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا
 وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: آية ١٠٩]. ﴿فَاعْتُوا وَأَصْفَحُوا﴾ أي:
 عن أهل الكتاب ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ أي: حتى يأتيكم الأمر الأخير
 من الله. وكانت هذه الآية من سورة براءة الذي كانوا ينتظرونه في
 آية البقرة، فأنزل الله: ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾
 [التوبة: آية ٢٩]. لأن أهل الكتاب من يهود ونصارى وإن قالوا لا إله
 إلا الله وأقروا بالقيامة فهم كمن أنكر وجود الله وأنكر وجود القيامة؛ لأنهم
 لما اتخذوا الأرباب معه وأشركوا به في الأرباب وقالوا: إن عزيراً ابنه، وإن
 المسيح ابنه!! هذا قول من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر؛ لأن الكافر إذا
 كفر بالله من وجه لا ينفعه الإيمان به من وجه آخر، فمن قال: لا إله
 إلا الله، وادعى لله ولداً، أو شريكاً، أو رباً معه، فهذا لا يؤمن بالله ﴿وَلَا

بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وهو يوم القيامة، ﴿وَلَا يَحْرَمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بل يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، الذي هو دين الإسلام.

وفي قوله: ﴿دِينَ الْحَقِّ﴾ وجهان من التفسير^(١):

أحدهما: أن (الحق) هو ضد الباطل، وأن دين الحق من إضافة الموصوف إلى صفته. أي: الدين الذي هو الحق الذي هو دين الإسلام. ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥]. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: آية ١٩].

الوجه الثاني: أن الحق هو الله، فالحق من أسماء الله. ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: دين الله الذي شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ.

وقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ بيان للذين أمروا بقتالهم الموصوفون بأنهم لا يؤمنون بالله إلى آخر ما ذكر.

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من يهود ونصارى.

وعندما نزلت تجهز ﷺ لقتال النصارى في غزوة تبوك كما ستأتي تفاصيله في هذه السورة الكريمة.

﴿حَتَّىٰ يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾: (حتى) حرف غاية، والمغياً هنا ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أي: قاتلوهم وأمد ذلك القتال إلى غاية هي أن ﴿يَعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ إذا لم يؤمنوا بالله، فإن آمنوا بالله فذلك، وإلا فلا بد أن يعطوا الجزية.

الجزية: (فغلة) وقد تقرر في علم العربية أن (الفِغلة) بكسر الفاء تأتي لبيان الهيئات، من هيئات المصدر. وأصلها من جزي يجزي؛ لأن

(١) انظر البحر المحيط (٢٩/٥).

الكفار - أهل الكتاب -: ينعم عليهم المسلمون بحقق دمائهم وعدم قتلهم. والمدافعة عنهم، ومنع كل من أراد أن يظلمهم، فهذا الإحسان يجازونه نوعاً من الجزاء عبّر عنه بالجزية من (جزى يجزي) إذا كافأ ما أسدي إليه، تقول العرب: أحسن إلي فجزيته، أي: كافأته بما أسدي، ومنه قول الشاعر^(١):

يجزيك أو يشني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزى

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ فيه أوجه من التفسير معروفة عند العلماء لا يكذب بعضها بعضاً^(٢): قال بعض العلماء: ﴿بُعُطُوا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ﴾: أي: عن قهر وتحت ذل وكل ما أعطاه الإنسان مقهوراً ذليلاً تقول العرب: أعطاه عن يد. وقال بعض العلماء: يعطيه عن يد معناه يسلمه بيده ولا يرسل به غيره، فالدافع واقف والآخذ جالس. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: نقداً متسلماً باليد لا نسيئة. وقال بعض العلماء: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ أي: عن اعترافهم بنعمة المسلمين عليهم حيث قبلوا منهم العوض ولم يقتلوهم. والحال في هذا ﴿وَهُمْ صَفْرُونَ﴾ الصاغرون: المتصفون بالصغار. والصغار في لغة العرب معناه: الذل والحقارة والهوان. ومعنى: ﴿وَهُمْ صَفْرُونَ﴾ أي: حقيرون ذليلون. وسنين هنا - إن شاء الله - بعض أحكام الجزية:

اعلموا أولاً أن النبي ﷺ نزل عليه القرآن بجواز أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) بين أنهم وإن أخذت منهم الجزية فلا يجوز بحال من الأحوال ولا بوجه من الوجوه أن يتركوا يسكنون في جزيرة العرب، إقامة الكفار وسكناهم في جزيرة العرب ممنوع لا يجوز بحال، فيجب على المسلمين أن يخرجوهم من جزيرة العرب جميعها ولا يتركوا فيها كافرين. وهذا من آخر ما أوصى به

(١) البيت في القرطبي (١١٤/٨)، البحر المحيط (٣٠/٥).

(٢) انظر: القرطبي (١١٥/٨)، البحر المحيط (٣٠/٥).

محمد ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس، وأوصى عند موته بثلاث، قال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم» قال الراوي: ونسيت الثالثة^(١). فهذا حديث صحيح أوصى به النبي عند موته. وقد أخرج مسلم وغيره أنه (صلوات الله وسلامه عليه) قال: «الأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً»^(٢). وروى الإمام أحمد وغيره عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: «لا يترك بجزيرة العرب دينان»^(٣). وروى أحمد وغيره عن أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنه) قال: آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «أخرجوا يهود أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب»^(٤).

فهذه الأحاديث وأمثالها تدل على أنه لا يجوز أن يسكن كافر بجزيرة العرب كائناً ما كان، وأن على المسلمين إخراج الكفار من جزيرة العرب، ولكنهم لا يمنعون من الإتيان إليها لتجارة أو نحوه من غير إقامة بها، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) إذا أراد بعض اليهود دخول الحجاز لتجارة أذن له وأجل لهم ثلاثة أيام يبيعون فيها ويشترون ثم يذهبون^(٥).

(١) البخاري في الجزية والموادعة، باب إخراج اليهود من جزيرة العرب. حديث رقم: (٣١٦٨) (٢٧٠/٦)، ومسلم في الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه. حديث رقم: (١٦٣٧) (١٢٥٧/٣).

(٢) مسلم في الجهاد والسير، باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب. حديث رقم: (١٧٦٧) (١٣٨٨/٣) من حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٣) أخرجه أحمد (٢٧٥/٦) وقال الهيثمي في المجمع (٣٢٥/٥): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع» ا.هـ.

(٤) أخرجه أحمد (١٩٥/١، ١٩٦)، وأبو يعلى (٨٧٢/١)، والحميدي (٨٥)، والدارمي (١٥١/٢ - ١٥٢)، والطيالسي (٢٢٩)، والبيهقي (٢٠٨/٩). وانظر: السلسلة الصحيحة (١١٣٢).

(٥) أخرجه البيهقي (٢٠٩/٩).

واعلموا أن الجزية إذا أسلم الكافر اختلف العلماء هل تسقط عنه الجزية^(١)؟ وأظهر القولين: أنه تسقط عنه الجزية لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لا جزية على مسلم»^(٢) ولأنه لا تؤخذ منه وهو صاغر؛ لأن المسلم لا يُحقر ولا يُهان.

وقال الشافعي في طائفة من العلماء: إذا أسلم لم تسقط عنه الجزية؛ لأنها بقيت ديناً فيه، فهي كسائر الديون، إلا أنه عند أدائها يؤديها غير صاغر ولا مهان؛ لأجل إسلامه، ولكنها تقرر في ذمته.

واختلف العلماء: في القدر الذي يؤخذ من أهل الجزية^(٣)، وممن تؤخذ الجزية^(٤)؟ فقال جماعة من العلماء: تؤخذ الجزية من كل كتابي عجمياً كان أو عربياً، والجزية بالأديان لا بالأنساب. وهذا القول هو الصحيح والأظهر.

وقال بعض العلماء: تؤخذ من مشركي العجم ولا تؤخذ من مشركي العرب. وهو قول أبي حنيفة رحمه الله^(٥).

والحق أن الجزية تؤخذ من كل كتابي عربياً كان أو غيره، وقد أمر النبي ﷺ معاذاً لما أرسله إلى اليمن أن يأخذ من كل حالم من كفار أهل اليمن - أهل الكتاب - الذين لم يسلموا أن يأخذ من كل حالم ديناراً

(١) انظر: بدائع الصنائع (١١٢/٧)، المغني (٢٢١/١٣ - ٢٢٢)، القرطبي (١١٣/٨ - ١١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢٢٣/١، ٢٨٥)، وأبو عبيد في الأموال ص ٤٩، وأبو داود في الخراج والفيء، باب الذمي الذي يسلم في بعض السنة. حديث رقم: (٣٠٣٧) (٣٠٥/٨)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء: ليس على المسلم جزية. حديث رقم: (٦٣٣) (١٨/٣)، والبيهقي (١٩٩/٩)، والدارقطني (١٥٦/٤، ١٥٧)، وابن عدي (١٨٤٥/٥)، (٢٠٧٢/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٢/٩). وانظر: الإرواء (٩٩/٥).

(٣) انظر: بدائع الصنائع (١١٧ - ١١٢)، المغني (٢١١/١٣ - ٢١٢)، القرطبي (١١١/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٦/١).

(٤) انظر: الأم (٢٤٠/٤، ٢٨١)، القرطبي (١١٠/٨)، المغني (٢٠٢/١٣) فما بعدها، أحكام أهل الذمة (١/١) فما بعدها.

(٥) انظر: المدونة (٤٦/٢ - ٤٧)، بدائع الصنائع (١١٠/٧ - ١١١)، المغني (٢٠٦/١٣ - ٢٠٧، ٢٠٨).

منهم^(١). وبعث خالد بن الوليد إلى أكيدر فأخذ من أكيدر الجزية^(٢). وأكيدر دومة معلوم أنه عربي، أصله من كندة، كما قاله غير واحد.

وأخذ الجزية من أهل نجران^(٣). وأكثر أهل نجران نصارى عرب. وهذا هو التحقيق، فالحق الذي لا شك فيه أن الكتابي الذي كان على دين أهل الكتاب قبل أن يُبعث محمد ﷺ تؤخذ منهم الجزية بنص هذه الآية؛ ولأنها لم تُفصل.

وأما المجوس فقد ثبت عن النبي ﷺ أنهم تؤخذ منهم الجزية، فقد روى البخاري في صحيحه عن عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر^(٤). وقد أخذ الجزية من أهل البحرين^(٥) وأكثرهم في ذلك الوقت كانوا مجوساً.

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤٠، ٢٤٧)، وعبدالرزاق (٤/٢١)، وابن أبي شيبة (٣/١٢٦ - ١٢٧)، والترمذي في الزكاة، باب ما جاء في زكاة البقر. حديث رقم: (٦٢٣) (١١/٣) وقال: «هذا حديث حسن. وروى بعضهم هذا الحديث عن سفيان عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق أن النبي... وهذا أصح» ا.هـ. وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٦١ - ١٥٦٢) (٤/٤٥٧) وفي الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٢، ٣٠٢٣) (٨/٢٨٧)، وابن ماجه في الزكاة، باب صدقة البقر. حديث رقم: (١٨٠٣) (١/٥٧٦)، والنسائي في الزكاة، باب زكاة البقر. حديث رقم: (٢٤٥٠ - ٢٤٥٢) (٥/٢٥ - ٢٦)، والحاكم (١/٣٩٨)، والبيهقي (٤/٩٨)، (٩/١٩٣)، وابن خزيمة (٤/١٩)، وابن حبان (الإحسان ٧/١٩٥). وقال ابن عبد البر في التمهيد (٢/٢٧٥): «إسناده متصل صحيح ثابت» ا.هـ. وانظر: التلخيص (٢/١٥٢)، الإرواء (٧٩٥)، صحيح أبي داود (٢/٥٨٩)، صحيح ابن ماجه (١/٣٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢١) (٨/٢٨٦)، والبيهقي (٩/١٨٦، ١٨٧). وانظر: صحيح أبي داود (٢/٥٨٩).

(٣) أخرجه أبو داود في الإمارة، باب في أخذ الجزية. حديث رقم: (٣٠٢٥) (٨/٢٩١)، والبيهقي (٩/١٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب. حديث رقم: (٣١٥٧) (٦/٢٥٧).

(٥) أخرجه البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب.

حديث رقم: (٣١٥٨) (٦/٢٥٧)، وطرفه (٤٠١٥، ٦٤٢٥)، ومسلم في الزهد =

فالحق الذي لا شك فيه أنها تؤخذ من المجوس لما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ»^(١) وثبت عن عبدالرحمن بن عوف أنه قال: أشهد فقد أخذ رسول الله الجزية من مجوس هجر. وكان عمر بن الخطاب توقف في أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عنده عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه)^(٢). والشافعي (رحمه الله) يقول: لا تؤخذ إلا من الكتابي عربياً كان أو عجمياً، أو من المجوسي بالسنة. أما المشركون من عبدة الأوثان وما جرى مجراهم^(٣) قال الشافعي: لا تؤخذ منهم الجزية. وقال به جماعة من العلماء. قالوا ووجهه: أن الله في المشركين ما نص إلا على القتل ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥] وفي أهل الكتاب قال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] وفي المجوس ثبت أخذ الجزية منهم بالسنة. فالمشركون لهم السيف، وأهل الكتاب لهم الجزية بالقرآن، والمجوس لهم الجزية بالسنة، وبهذا قال جماعة من العلماء منهم الشافعي.

وقال مالك بن أنس (رحمه الله) في جماعة من العلماء: إنها تؤخذ من كل كافر وثنياً كان يعبد الأصنام أو مجوسياً، أو كتابياً، فتؤخذ من جميع الكفار. هذا قول مالك في طائفة من العلماء.

= والرقائق. حديث رقم: (٢٩٦١) (٢٢٧٣/٤) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري (رضي الله عنه).

وقد أخرجه الترمذي في السير، باب ما جاء في أخذ الجزية من المجوس، حديث رقم: (١٥٨٨) (١٤٧/٤) من حديث السائب بن يزيد. وعقبه بقوله: «وسألت محمداً عن هذا فقال: هو مالك عن الزهري عن النبي ﷺ» ا.هـ. وقد أخرجه مالك ص ١٨٧ عن الزهري بلاغاً.

(١) أخرجه مالك في الموطأ ص ١٨٨، والبيهقي (١٨٩/٩) من حديث عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه). وقال ابن عبدالبر في التمهيد (١١٤/٢): «هذا حديث منقطع» ا.هـ. وله شاهد من حديث السائب بن يزيد (رضي الله عنه). قال في المجمع (١٣/٦): «رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه» ا.هـ. وانظر: الإرواء (٨٨/٥).

(٢) مضى تخريجه قريباً.

(٣) انظر: المدونة (٤٦/٢)، الأم (١٧٢/٤ - ١٧٤)، المغني (٢٠٣/١٣ - ٢٠٤، ٢٠٨).

وأقل ما جاء في قدر الجزية على الرجل من أهل الكتاب دينار^(١). قال جمهور العلماء: لا تنقص الجزية عن دينار. وبعضهم يقول: لا حد لها، فما صالح عليه الإمام هو الذي يؤخذ.

وكان عمر بن الخطاب أخذ الجزية من أهل الشام^(٢)، وأخذها من أهل السواد^(٣). وكان النبي ﷺ أمر معاذاً أن يأخذ الجزية من أهل اليمن من كل حالم ديناراً^(٤).

والتحقيق أنها لا تؤخذ من الصبيان والنساء، بل من الرجال المقاتلين، كما دلّ عليه حديث معاذ: «خذ من كل حالم ديناراً»^(٥). يعني: لا صبيّاً، ولا امرأة؛ ولأن الصبيان والنساء ليسوا من المقاتلين ولا يجوز قتلهم. والله يقول في المقاتلين: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾. فدل أن الذي يعطي الجزية هم المقاتلون لا غيرهم. كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل الشام على الواحد أربعة دنانير^(٦).

وعن ابن أبي نجيح أنه سأل مجاهداً (رحمه الله): ما بال أهل اليمن أخذ منهم في الجزية دينار، وأهل الشام أربعة دنانير؟ قال: ذلك باعتبار الفقر واليسار، وهؤلاء فقراء أخذ منهم دينار، وهؤلاء موسرون أخذ منهم أربعة دنانير^(٧). وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذ الجزية من أهل السواد، فأخذ من الفقير والمراد به الفقير الذي له حرفة وتَسَبَّبَ اثني عشر

(١) كما جاء في حديث معاذ (رضي الله عنه) لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وأمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً. وقد مضى تخريجه قريباً.

(٢)(٣) سيأتي تخريجهما قريباً.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

(٥) مضى تخريجه قريباً.

(٦) أخرجه البيهقي (١٩٥/٩).

(٧) البخاري في الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب (٢٥٧/٦).

درهماً، ومن المتوسط أربعة وعشرين درهماً، ومن الغني ثمانية وأربعين درهماً^(١).

وبعض العلماء يقول هذا، وبعضهم يقول: أربعة دنانير، وبعضهم يقول: دينار. وقد أمر النبي بدينار، وأخذ عمر من أهل الشام أربعة دنانير، ومن أهل السواد اثني عشر [درهماً]^(٢) للفقير، وأربعة وعشرين للمتوسط، وثمانية وأربعين للغني.

والتحقيق - إن شاء الله - أن كل هذا واسع بحسب ما يراه الإمام، إلا أنه لا ينبغي أن ينقص الجزية عن دينار. وهذا معنى قوله: ﴿حَقَّ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] لأن الله تبارك وتعالى ما أذن في تركهم إلا بهذا.

واختلف العلماء في العوض الذي أعطيت عنه الجزية^(٣): قال بعض العلماء: عوضها حقن دمائهم. وعلى هذا القول إذا أسلم سقطت عنه الجزية؛ لأن دمه حقه الإسلام. وقال بعضهم: عوضها حقن دمائهم، والمدافعة عنهم، ومنع من أراد أن يظلمهم. وعلى هذا تبقى الجزية فيه ولو أسلم. هكذا قاله بعض العلماء.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ ﴿٣٠﴾ أَخَذُوا أَسْمَاءَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَزْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمَرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٣٠، ٣١].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قرأ هذا الحرف عامة القراء

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٤١/١٢)، والبيهقي (١٩٦/٩).

(٢) في الأصل: «ديناراً». وهو سبق لسان.

(٣) انظر: المغني (٢٠٢/١٣)، القرطبي (١١٣/٨)، أحكام أهل الذمة (٢٥/١).

السبعة غير عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ بلا تنوين على الراء. وقرأه عاصم والكسائي: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ﴾ بتنوين الراء^(١). وقرأ عامة السبعة غير عاصم: ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضم الهاء ليس بعدها همزة. وقرأ من السبعة عاصم وحده: ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بكسر الهاء وهمزة بعده^(٢).

وفي الآية التي قبل هذا أمر الله (جلّ وعلا) بعقوبة أهل الكتاب بقوله: ﴿قَاتِلُوا﴾ ثم بين موجب تلك العقوبة بقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم أكد موجب عقوبته بقوله هنا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ يعني: هؤلاء الذين أمرتكم بقتالهم مرتكبون من الجرائم ما يستوجب قتالهم ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: آية ٢٩] فأوجب على أهل الكتاب عقوبات شديدة، منها: قتالهم حتى يدفعوا الجزية ﴿عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أخساء أذلاء. وكذلك لحقارتهم على الله/ بيّنا أن النبي ﷺ أوصى بإخراجهم من جزيرة العرب [وتطهيرها منهم]^(٣). ومن آخر ما أوصى به النبي ﷺ تطهير جزيرة العرب من اليهود والنصارى وسائر المشركين^(٤). ولا شك أن هذا أمر مهم، لو لم يكن مهماً لما أوصى به النبي عند موته (صلوات الله وسلامه عليه)، ولكنه (صلوات الله وسلامه عليه) علمنا في هذا الدين العظيم أن له عزائم ورضصاً، فهذا الدين العظيم أنزله الله منقسماً إلى عزائم ورضص، فعزائمه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها، ورضصه: تستعمل عند الأوقات المناسبة لها؛ لأن الدين السماوي لا بد أن يكون مشتملاً على مواجهة التطورات والأحداث حيث ما كانت وأياً ما كانت، ففي كل حال له فيها مواجهة.

ونريد هنا أن نبين بعض الأشياء التي يجوز أخذها من الكفار والتي

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

(٢) السابق ص ٢٢٦.

(٣) في الأصل: «وتطهيرهم منها». وهو سبق لسان.

(٤) مضى تخريجه قريباً.

لا يجوز أخذها؛ ليكون المسلم على بصيرة من ذلك، ويعلم ما ينبغي وما لا ينبغي، ويفترق بين ما يضر وما لا يضر. لا شك أنه إن كانت القوة كاملة للمسلمين من غير حاجة للكفار في شيء أنهم يقومون بأنفسهم ويقيمون عزائم الله في المشركين من قتل حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وتطهير جزيرة العرب منهم إلى غير ذلك مما قدمنا أنه لا بد منه في كل الأحوال وفي كل الظروف، أي: إذا كان محل العزائم والمسلمون في قوتهم كما ينبغي، أما إذا كان المسلمون في ضعف عن ذلك، أو في حاجة ماسة ضرورية إلى الكفار فلكل حال مقال، وقد علمنا النبي ﷺ المخرج في جميع هذه الأشياء، فهو (صلوات الله وسلامه عليه) لما أمكنه أن يجلي بني قينقاع من غير حاجة المسلمين ولا ضرورة عليهم أجلاهم من المدينة إلى الشام، ولما أمكنه بعد ذلك أن يجلي بني النضير أجلاهم من المدينة إلى أطراف الشام كما سيأتي في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَّتُمْ أَنْ يَبْرُجُوا...﴾ إلى آخر الآيات [الحشر: آية ٢]. ولما كانت حاجة المسلمين ماسة إلى عدم إجلاء خيبر لم يجلبهم بل عاملهم ليتولوا القيام على نخل خيبر وأرضها، وأعطاهم شطر ثمار نخل خيبر وما يخرج من أرضها، وهو ﷺ عازم على إخراجهم عندما أمكنت الفرصة، وصار وقت العزيمة، وانتهى وقت الرخصة؛ ولذا ثبت في بعض الروايات الصحيحة أنهم لما قالوا له: أقرنا على الأرض نقوم على نخلها وزرعها بشرها. قال لهم ﷺ: «نقيمكم على ذلك ما شئنا، وإن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم»^(١) لأنه عازم على إخراجهم (صلوات الله وسلامه عليه)، عندما تسنح الفرصة المواتية لذلك، فالعزيمة لها وقتها، وإذا كان الوقت للعزيمة لا يجوز أن تهمل بحال من الأحوال، فإذا كان الظرف مناسباً للرخص أعملت الرخص؛ لأن دين الإسلام دين مرن صالح لمواجهة جميع التيارات والأحداث

(١) البخاري في الحث والمزراعة، باب: إذا قال رب الأرض: أقرك ما أقرك الله. حديث رقم: (٢٣٣٨) (٢١/٥)، ومسلم في المساقاة، باب: المساقاة والمعاملة بجزء من الثمر والزرع. حديث رقم: (١٥٥١) (٣/١١٨٧).

والتطورات، وقد قدمنا في سورة [آل عمران] (١) طرفاً جيداً من هذا في الكلام على قوله: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ ثَمَنَةً﴾ [آل عمران: آية ٢٨] أي: إلا أن تخافوا منهم خوفاً فلذلك حال وحكم آخر.

واعلموا - أيها الإخوان - أن المؤسف كل المؤسف هو أن الذي يجوز لنا أن نأخذه من الكفار والذي يمتنع علينا أن نأخذه منهم معكوس في أقطار المعمورة الآن!! يأخذون منهم ما لا يحل أخذه، ويتركون ما لا ينبغي تركه، فيعكسون القضية عكساً تاماً!! وإيضاح هذا المعنى أنه يجوز للمسلمين أن ينتفعوا بأعمال الكفار التي هي أمور دنيوية بحتة ويحذروا كل الحذر من أن يقلدوهم في شيء من أوامر الدين. وسنذكر لكم أمثلة من هذا يتضح بها المقام (٢): هذا سيد الخلق محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - لما تواطأت عليه قوى الشر واضطروه أن يخرج من مسقط رأسه - كما قدمنا في سورة الأنفال في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوا أَوْ يُقْتُلُوا أَوْ يُخْرِجُوا﴾ [الأنفال: آية ٣٠] ودخل هو وصاحبه في غار كما سيأتي تفصيله في هذه السورة الكريمة إن شاء الله - وجد في ذلك الوقت كافراً من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأريقط، وكان في ذلك الوقت كافراً من عبدة الأوثان، إلا أن عنده خبرة دنيوية بالطرق من مكة إلى المدينة؛ لأنه (صلوات الله وسلامه عليه) في ذلك الوقت محتاج إلى خبير بالطرق؛ لأن الطرق المعهودة السابلة أمسكها الكفار وجعلوا جعائل لكل من أتى بمحمد ﷺ أن يعطوه الأموال الكثيرة، فصار لا يمكن أن يسير في الطرق المعهودة والسبل السابلة، بل لا بد أن يذهب من بئيات طرق ليست هي المعهودة، وهذه تحتاج إلى خبرة خاصة، ووجد هذه الخبرة عند كافر من بني دؤل بن كنانة يسمى عبدالله بن الأريقط، فأودعه رواحله وأعطاه الموعد، وكان ذلك الكافر أميناً معه، فجاءه في الموعد

(١) في الأصل: «النساء». وهو سبق لسان.

(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

وذهب به وجاء به من طرق غير معهودة حتى أوصله المدينة بسلام^(١). فالنبي ﷺ عند الحاجة انتفع بخبرة هذا الكافر ولم يقل: هذه خبرة نجسة قدرة لأنها من كافر، بل انتفع بها على حد قولهم «اجتنِ الثمار وألقِ الخشبة في النار». وكذلك لما سمع بالكفار في غزوة الأحزاب قال له سلمان الفارسي - كما هو مذكور في الأخبار والسير -: كنا إذا خفنا خندقنا^(٢). فأشار إليه بالخندق، وهو خطة حربية عسكرية، فقام النبي ﷺ وانتفع بهذه الخطة الحربية العسكرية وإن كانت ابتدعتها أذهان فارس الذين هم كفرة يعبدون النار، ولم يقل: هذه خطة نجسة قدرة؛ لأن أصلها من الكفار!! بل انتفع بما ينفعه في دنياه وهو محافظ على دينه. وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ هم أن يمنع الرجال من أن يطؤوا نساءهم في حالة إرضاعهن؛ لأن العرب كانوا يظنون أن الرجل إذا أتى أبوه أمه وهي ترضعه أن ذلك يضعف عظمه ويترك فيه ضعفاً طبيعياً!! كانوا إذا ضرب الرجل ونبا سيفه عن الضريبة قالوا: هذا من آثار الغيلة، وهي وطء المرضع!! وكان شاعرهم يقول^(٣):

فوارسُ لم يُعَالُوا في رضاعٍ فتَنَبُّوا في أَكْفُهُم السِّيفُ
فأخبر النبي ﷺ عن فارس والروم أنهم يفعلون ذلك ولا يضر أولادهم^(٤)، فأخذ هذه الخطة الطيبة من فارس والروم ولم يمنعه خبث من جاء بها عن أن يأخذها. فهذا تعليم الصادق المصدوق (صلوات الله وسلامه عليه).

ومما هو واضح أن ما جاء به الكفرة الفجرة الخنازير الذين يسمون أنفسهم (أهل الحضارة) أنهم جاؤوا بماء زلال، وجاؤوا بسم فتاك قتال؛ لأن ما في الحضارة الغربية من المنافع الدنيوية لا يحتاج أن يتوّه عنه، فهم خدموا الإنسان - من حيث إنه جسم - خدمة هائلة ما كانت تخطر على

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

البال. ولا يحتاج أن يُنوّه عنها، ولكنهم بالنسبة إلى الروح وإلى عنصر الإنسان من حيث كونه روحاً مفلسون كل الإفلاس. فعلى المسلمين أن يميزوا بين ما يضرّ وما لا يضر، فيأخذوا منهم الأمور الدنيوية فينتفعوا بخيرتهم في الأمور كما انتفع ﷺ في الأمور الدنيوية من الكفار، أما أنهم يأخذون عنهم كفرهم وتمردهم على الله وإفلاسهم الروحي النهائي فهذا مما لا يجوز ولا كان ينبغي لعاقل أن يفعله.

ونحن دائماً نبتين الموقف السليم في الأوضاع الراهنة للإسلام والمسلمين، ونعرضه على الدليل العظيم المعروف عند علماء الأصول بـ (السبر والتقسيم)، وعند علماء المنطق. بـ (الشُرطي المُتفَصِّل)، وعند علماء الجدل بـ (الترديد والتقسيم)^(١)، فنقول: إن موقف المسلمين مما أحدثته الحضارة الغربية التي صارت سبب ضلال ودمار مع ما أدخل في الثقافات من البلايا والويلات، نقول: وهو بالتقسيم الصحيح منحصر في أربعة أقسام حصراً استقرائياً^(٢)، وقد تقرر في علم البحث والمناظرة، وعلم الأصول أن للحصر طريقين: إما عقل، وإما استقراء، فهو محصور في أربعة طرق بطريق الاستقراء: أولها: أن نقول: يجب علينا أن نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية من مائها الزلال وسمها الفتاك القتال، فهذا قسم واحد، أو نقول: نتركهما معاً، أو نأخذ نافعها ونترك ضارها، أو نأخذ ضارها ونترك نافعها، فهي أربعة أقسام بالحصر الاستقرائي، فإذا رجعنا لهذه الأقسام الأربعة بالسبر الصحيح نجد ثلاثة منها باطلة، وواحداً صحيحاً، وهذه فائدة السبر والتقسيم، التقسيم: يحصر الأوصاف، والسبر: يميز بين خبيثها وطيبها وصالحها وطالحها. فلو قلنا: نأخذ جميع ما أنتجته الحضارة الغربية، فإن من أراد أن يأخذ الماء الزلال ممزوجاً بالسم الفتاك القتال لا ينتفع بالماء، ومن أراد تقدماً من الأمور الدنيوية التي عندهم مع ما فيها من الانحلال، وضياع الأخلاق، والتمرد على نظام السماء، والإلحاد والكفر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤٤) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

بخالق السماوات والأرض، فهذا لا ينفع معه شيء، إذا الدين لم يكن فلا كانت الدنيا. فهذا قسم باطل يقيناً، ولو قلنا: نتركهما جميعاً، فهذا القسم باطل أيضاً؛ لأن ترك الأخذ بالقوة تواكل وعجز وتمرد على نظام السماء؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: آية ٦٠]. فترك القوة والاستعداد للعدو مخالف للشرع الكريم، ومخالف للفطر السليمة، فالحياة بتطوراتها الراهنة لا يجوز للمسلمين أن يتركوا استعمال القوة وجميع أنواع الوسائل لتكون عندهم قوة يدافعون بها عن أنفسهم ودينهم، فهذا القسم باطل أيضاً.

القسم الثالث: وهو أن يؤخذ سمها فقط، ويترك زلالها، فمن وجد ماء زلالاً وسمّاً فاتكأً قتالاً، واختار السم على الماء فهذا مجنون أهوج!!
أما أن نأخذ نافعها ونترك ضارها، فهذا هو اللائق بكل عاقل أن يأخذ ما ينفعه ويترك ما يضره.

والمؤسف كل المؤسف أن الذين تأثروا بهذه الحضارة من الناس الذين أصلهم مسلمون لم يأخذوا من هذه الحضارة إلا سمها الفتاك القتال، ولم يتنفعوا بمائها الزلال، فتراهم يقلدونهم في الإلحاد والكفر بالله والمسخرة من الدين، والاستهزاء بآيات الله، في الوقت الذي لم يأخذوا عنهم شيئاً مما أنتجوه من الأمور النافعة في الدنيا.

ما أحسنَ الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكُفْرَ والإفلاسَ بالرجل^(١)
فهم يجمعون بين الكفر والإفلاس - والعياذ بالله - وهذا الشيء الذي طبق المعمورة وانتشر في أقطار الدنيا فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وعلى كل حال فدين الإسلام هو هو، وصلته بالله هي هي، دين عريق عظيم أسسه قويمه عظيمة، لو لم يكن مبنياً على أسس عظيمة وكتابه محفوظ لطمسوا أثره في قرون!! ولكنه دين عريق ثابت الجذور لا يتغير ولا يتزعزع، وإنما تنكّر له المنتسبون إليه فصاروا خفافيش تقودهم الكفار إلى ما

(١) تقدم هذا البيت عند تفسير الآية (١٥٥) من سورة الأنعام.

يشاؤون، فيقلدونهم في كل كفر وكل إحداء، وكل انحطاط خلقي، وكل تمرد على نظام السماء، وكفر بخالق السماوات والأرض، في الوقت الذي لا ينتفعون بالأمور [الدينية]^(١). وإنما حكينا هذا أسفاً من واقع نرجو الله أن يزيل هذا عن المسلمين.

ولما كان جزاء الكفار وعقوبتهم عظيمة بين بعض أسباب ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٠] قال بعض العلماء^(٢):
قالت جماعة من اليهود، منهم: سلام بن مشكم، وشأس بن قيس، ونعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف من اليهود - قبحهم الله - زعموا أن عُزيراً ابن الله.

وقال بعضهم: قاله القدماء من اليهود فاتبعهم الآخرون.

وقال بعضهم: إن الذي قاله قبل اليهود في زمن محمد ﷺ، وأن سبب ذلك أنهم قتلوا الأنبياء ورفع الله التوراة ومسحها من قلوبهم، أو أن بختنصر قتل علماءهم، وضاعت عليهم التوراة، وكان بعضهم دفنها في محل، وكان عُزير قد قدمنا قضيته أن الله أماته مائة عام ثم بعثه، وجاء وقد ضاعت التوراة عليهم، بقوا لم يحفظوا منها شيئاً، فعلمه الله إياها فقرأها عليهم لم يخرم منها حرفاً، فقالوا: ما علمه الله إياها إلا لأنه ابنه!! ومما يدل على أن هذه المقالة صدرت من اليهود أن هذا القرآن يتلى من قديم الزمان من نزول هذه الآية ولم يُعلم أن يهودياً في زمانها كذب بذلك وقال: ما قلنا هذا!! مع مسارعتهم إلى التكذيب.

﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ﴾ [التوبة: آية ٣٠] يعني عيسى بن مريم قالوا إنه ابن الله. - قبحهم الله - فأشركوا.

وقوله: ﴿يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: آية ٣٠] على قراءة الجمهور، وهو مضارع: (ضاهاه يضاويه) إذا حاكاه وشابهه. وعلى قراءة

(١) في الأصل: «الدينية». وهو سبق لسان.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٠٢/١٤).

عاصم: ﴿يُضَكِّهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فهو بمعناه؛ لأن (ضاهاً) يقال فيها: (ضَاهَاً) بلا همز، ويقال فيها: (ضَاهَاً) بالهمز، وهما لغتان صحيحتان وقراءتان سبعيتان صحيحتان^(١).

ومعنى المضاهاة والمضاهأة معناها: المحاكاة والمشابهة. يعني: يحاكون ويشابهون قول الذين كفروا^(٢) من كفار مكة الذين قالوا: الملائكة بنات الله. وقال بعض العلماء: قالها المتأخرون من اليهود يحاكون المتقدمين منهم. وقال بعض العلماء: قال النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ يحاكون اليهود في قولهم: ﴿عَزَّزْنَا بِنُ اللَّهِ﴾ وهذا كله لا يكذب بعضه بعضاً، وهذا معنى قوله: ﴿يُضَكِّهُنَّ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ وفي الكلام حذف مضاف دلّ المقام عليه، أي: يحاكي قولهم قول الذين كفروا من قبل.

﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال بعض العلماء^(٣) معناه: لعنهم الله.

وقال بعض العلماء: (قاتله الله) كلمة تعجب تقولها العرب إذا تعجبت من شيء يقولون: قاتل الله فلاناً ما أفعله لكذا. أو ما أشد استحقاقه لأن يُقتل، أو نحو ذلك.

قوله: ﴿أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ﴾ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ (يفعلون) من الإفك، والإفك: أسوأ الكذب؛ لأن أصل مادة (أفكته) إذا قلبه. كل شيء قلبته فقد (أفكته) ومنه قيل لقرى قوم لوط: (المؤتفكات) لأن جبريل أفكها، أي: قلبها فجعل عاليها سافلها. وإنما سمي أسوأ الكذب (إفكاً) لأنه صرف للكلام عن معناه الصحيح إلى معاني أخر كاذبة^(٤). وهذا معنى قوله: ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠].

قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٢٢٦.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٠٥/١٤)، القرطبي (١١٨/٨).

(٣) انظر: ابن جرير (٢٠٧/١٤)، القرطبي (١١٩/٨).

(٤) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأعراف.

هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى
 اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
 بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
 [التوبة: الآيات ٣١ - ٣٣].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ
 اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: آية ٣١].

ذكر الله (جلّ وعلا) في هذه الآيات الكريمات من سورة براءة جرائم
 اليهود والنصارى فعد منها أنهم نسبوا له الأولاد، وأتبع ذلك بقوله:
 ﴿فَنَلَّهُمُ اللَّهُ أَنْ يَوْفُكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٠] كيف يُصرفون عن الحق
 مع وضوحه، ويدعون للواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد، يدعون له
 الأولاد فيقولون: عُزَيْر ابن الله، والمسيح ابن الله؟ سبحانه وتعالى عما يقول
 الظالمون علواً كبيراً.

ثم ذكر من معائبهم وإجرامهم بلايا أخر فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ
 وَرُهَيْبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: آية ٣١]
 أي: واتخذوا المسيح بن مريم رباً من دون الله أيضاً. وهذه الآية جاء عن
 النبي ﷺ أنه فسرها لعدي بن حاتم (رضي الله عنه) لما سأله عنها، فقد
 أخرج الترمذي وغيره عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه أتى النبي ﷺ
 وفي عنقه صليب من ذهب، فقال له ﷺ: «اطرح هذا الوثن من عنقك»
 وسمعه يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ - وكان
 عدي في الجاهلية نصرانياً - فقال عدي: ما كنا نعبدهم من دون الله. فقال
 له النبي ﷺ: «الم يحلوا لكم ما حرم الله، ويحرموا عليكم ما أحل الله
 فتبعوهم؟» قال: بلى. قال: «ذلك عبادتهم»^(١). وهو معنى اتخاذهم أرباباً.
 وهذا التفسير النبوي المقتضي أن كل من يتبع مُشْرِعاً فيما أحل وحرّم مخالفاً
 لتشريع الله أنه عابد له، متخذة رباً، مشرك به، كافر بالله هو تفسير صحيح

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

لا شك في صحته، والآيات القرآنية الشاهدة لصحته لا تكاد تحصيها في المصحف الكريم، وسنين - إن شاء الله - طرفاً من ذلك:

اعلموا أيها الإخوان أن الإشراف بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلاهما بمعنى واحد، لا فرق بينهما ألبتة، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير ما شرعه الله، وقانوناً مخالفاً لشرع الله من وضع البشر، معرضاً عن نور السماء الذي أنزله الله على لسان رسوله، من كان يفعل هذا هو ومن يعبد الصنم ويسجد للوثن لا فرق بينهما ألبتة بوجه من الوجوه، فهما واحد، فكلاهما مشرك بالله، هذا أشرك به في عبادته، وهذا أشرك به في حكمه، والإشراك به في عبادته، والإشراك به في حكمه كلاهما سواء، وقد قال الله (جلّ وعلا) في الإشراف به في عبادته: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠].

وقال في الإشراف به في حكمه أيضاً: ﴿لَمْ يَغِبْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعَ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦]. وفي قراءة ابن عامر من السبعة: ﴿ولا تشرك في حكمه أحداً﴾^(١) بصيغة النهي المطابقة لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠] فكلاهما إشراك بالله؛ ولذا بين النبي لعدي بن حاتم أنهم لما اتبعوا نظامهم في التحليل والتحرير وشرعهم المخالف لشرع الله كانوا عبدة لهم، متخذيهم أرباباً، والآيات القرآنية في المصحف الكريم المصّرحة بهذا المعنى لا تكاد تحصيها، ومن أصرحها: المناظرة التي أشرنا لها في الأيام الماضية، ووعدنا بإيضاح مبحثها هنا، وهي المناظرة التي وقعت بين حزب الرحمن وحزب الشيطان في حكم تحليل لحم الميتة وتحريمه، فحزب الشيطان يقولون: إن الميتة حلال، ويستدلون بوحي من وحي الشيطان، وهو أن الشيطان أوحى إلى أصحابه وتلامذته في مكة أن اسألوا محمداً عن الشاة تصبح ميتة من هو الذي قتلها؟ فلما قال: الله قتلها. احتجوا على النبي وأصحابه في تحريمهم الميتة بفلسفة من وحي الشيطان وقالوا: ما

(١) مضى عند تفسير الآية (١٠٦) من سورة الأنعام.

ذبحتموه وذكيتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون حرام!! فأنتم أحسن من الله إذأ!! فهذا فلسفة الشيطان ووحى إبليس استدل بها كفار مكة على اتباع نظام الشيطان وتشريعه وقانونه بدعوى أن ما ذبحه الله أحلّ مما ذبحه الناس، وأن تذكية الله أطهر من تذكية الخلق، واستدل أصحاب النبي والنبي ﷺ على تحريم الميتة بوحي الرحمن في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: آية ٣] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: آية ١٧٣] فأدلى هؤلاء بنص من نصوص السماء، وأدلى هؤلاء بفلسفة من وحي الشيطان، ووقع بينهم جدال وخصام، فتولى رب السماوات والأرض الفتيا في ذلك بنفسه فأنزلها قرآناً يتلى في سورة الأنعام معلماً بها خلقه، أن كل من يتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً مخالفاً لما شرعه الله على لسان رسول الله ﷺ فهو مشرك بالله كافر متخذ ذلك المتبوع رباً، فأنزل الله ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ منه الميتة. أي: وإن قالوا: إنها ذكاة الله، وأنها أطهر. ثم قال: ﴿وَأِنَّكُمْ لَفِسْقٌ﴾ أي: إن الأكل من الميتة لفسق. أي: لخروج عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْمِنَ بِاللَّهِ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من الكفرة ككفار مكة ﴿لِيَجْذَلِبُواكُمْ﴾ لأجل أن يجادلوكم بوحي الشيطان، ما ذبحتموه حلال، وما ذبحه الله حرام، فأنتم أحسن من الله. ثم قال - وهو محل الشاهد -: ﴿وَإِن أٰطَعْتُمُوهُم﴾ أي: اتبعتموهم في ذلك النظام الذي وضعه الشيطان لأتباعه وأقام دليلاً من وحيه عليه ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله، متخذون من اتبعتم تشريعه رباً غير الله. وهذا الشرك في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هو الشرك الأكبر المخرج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهو الذي أشار الله إليه في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: آية ١٠٠] وهو الذي صرح به الشيطان في خطبته يوم القيامة المذكورة في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: آية ٢٢] وهو المراد على أصح التفسيرين في قوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ آٰلِهَةً﴾ [سبأ: آية ٤١] يعبدون الشياطين باتباعهم أنظمتهم وتشريعاتهم على السنة

الكفار، وهو الذي نهى عنه إبراهيم أباه: ﴿يَتَّبِعْتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: باتباع ما يقرر لك من نظام الكفر والمعاصي مخالفاً لشرع الله الذي أنزله على رسله، وهذه العبادة بعينها هي التي وبخ الله مرتكبها وبين مصيره الأخير في سورة يس في قوله: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبده بسجود ولا ركوع وإنما عبده باتباع نظام وتشريع وقانون شرع لهم أموراً غير ما شرعه الله فاتبعوه وتركوا ما شرع الله فعبده بذلك واتخذوه رباً كما بيّنه النبي ﷺ لعدي بن حاتم (رضي الله عنه)، فهذا أمر لا شك فيه، وهو المراد بقوله: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾ [النساء: آية ١١٧] يعني: ما يعبدون إلا شيطاناً مريداً، أي: عبادة اتباع نظام وتشريع. واعلم أن قوماً زعموا أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى شرع الشيطان والذي وضعه، وادّعوا مع ذلك أنهم مؤمنون فعجّب الله نبيه من دعواهم الكاذبة الفاجرة التي لا يمكن أن تصدق في سورة النساء في قوله (جلّ وعلا): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: آية ٦٠]. وكل من تحاكم إلى غير ما أنزل الله فهو متحاكم إلى الطاغوت، وهؤلاء قوم أرادوا التحاكم إلى الطاغوت وزعموا أنهم مؤمنون بالله فعجّب الله نبيه من كذب هؤلاء وعدم حيائهم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ﴾ الذي شرع لهم تلك النظم والأوضاع التي يسиров عليها ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وأقسم الله (جلّ وعلا) إقساماً سماوياً من رب العالمين على أنه لا إيمان لمن لم يحكم رسول الله فيما جاء به عن الله خالصاً من قلبه في باطنه وسره في قوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: آية ٦٥] وبين الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة من كتابه أن الحكم له وحده لا شريك له في حكمه، وكلما ذكر اختصاصه بالحكم أوضح العلامات التي يعرف بها بين من يستحق أن يحكم

ويأمر وينهى ويشرع ويحلل ويحرم، وبين من ليس له شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: آية ٤٠] ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: آية ٧٠] وسنين لكم أمثلة من ذلك، من ذلك قوله في سورة الشورى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم إن الله كأنه قال: هذا الذي يكون المرجع إليه، والقول قوله، والكلمة كلمته، حتى يُرد إليه كل شيء، اختلف فيه ما صفاته التي يتميز بها عن غيره؟ قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ثم بين صفات من يستحق الحكم والتشريع والتحليل والتحرير والأمر والنهي فقال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [١١] فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٢﴾ لَمْ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمُونَ ﴿١٣﴾ [الشورى: الآيات ١٠ - ١٢] هذه صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى، أفتررون أيها الإخوان أن واحداً من هؤلاء القرود الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون القوانين الوضعية فيهم واحد يستحق هذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويحلل ويحرم ويأمر وينهى؟! ومن الآيات الدالة على هذا النوع قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٧٥] ثم بين صفات من له أن يحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ﴾ [٧٦] قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ [القصص: الآيات ٧٠ - ٧٣] هل في الكفرة القرود الخنازير الكلاب أبناء الكلاب الذين يضعون النظم ويزعمون أنهم يرتبون بها علاقات الإنسان ويضطون بها شؤونه هل في هؤلاء من يستحق أن يوصف بهذه الصفات التي هي صفات من له أن يحكم ويأمر وينهى ويحلل ويحرم؟! ومن ذلك قوله تعالى في

أخريات القصص: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: آية ٨٨].

/ والآيات القرآنية في مثل هذا كثيرة جداً. والحاصل أن التشريع لا يكون إلا للأعلى الذي لا يمكن أن يكون فوقه أمرٌ ولا ناهٍ ولا متصرف، فهو للسلطة العليا، أما المخلوق الجاهل الكافر المسكين فليس له أن يُحطل ويحرّم، والعجب كل العجب من قوم كان عندهم كتاب الله ورثوا الإسلام عن آبائهم، وعندهم هذا القرآن العظيم، والنور المبين، وستة خير الخلق ﷺ، يبين الله ورسوله كل شيء، ومع ذلك يعرضون عن هذا زاعمين أنه لا يحسن القيام بشؤون الدنيا بعد تطوراتها الراهنة، يطلبون الصواب في زبالات أذهان كفرة خنازير، لا يعلمون شيئاً!! هذا من طمس البصائر - والعياذ بالله - لا يصدق به إلا من رآه، ولكن الخفافيش يعميها نور القرآن العظيم، فالقرآن العظيم نورٌ عظيم، والخفافيش لا يكاد أن يرى النور:

خَفَافِيشُ أَعْمَاهَا النَّهَارُ بِضَوْئِهِ فَوَافَقَهَا قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ^(٢)

هذا القرآن العظيم ينصرفون عنه، وترى الواحد الذي هو مسؤول عنهم يعلن في غير حياء من الله ولا حياء من الناس بوجه لا ماء فيه، بكل وقاحة أنه يحكم في نفسه وفي الناس الذين هم رعيته الذين هو مسؤول عنهم يحكم في أديانهم، وفي أنفسهم، وفي عقولهم، وفي أنسابهم، وفي أموالهم، وفي أعراضهم، قانوناً أرضياً وضعه خنازير كفرة جهلة أنتن من الكلاب والخنازير، وأجهل خلق الله، معرضاً عن نور السماء الذي وضعه الله (جلّ وعلا) على لسان خلقه، فهذا من طمس البصائر لا يصدق به إلا من رآه - والعياذ بالله - اللهم لا تطمس بصائرنا ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا.

واعلموا - أيها الإخوان - أن كل من يتعالم أمام الخالق (جلّ وعلا) بلا

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وقد أكملت الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

حياء في وجهه أنه يعرض عما أنزل الله على محمد ﷺ مدعياً أنه لا يقدر أن يقوم بتنظيم علاقات الدنيا يطلب النور والهدى في زبالات أذهان خنازير كفره فجرة جهلة في غاية الجهل أنه هو وفرعون وهامان وقارون في الكفر سواء؛ لأنه لا يعرض عن الله، وعن تشريع الله، ويفضل عليه تشريع الشيطان، ونظام إبليس الذي شرعه على السنة أوليائه إلا من لا نصيب له في الإيمان بوجه من الوجوه، كما رأيت الآيات الكثيرة الدالة على ذلك، وتعجب الله نبيه من ادعاء مثله الإيمان. فعلى المسلمين جميعاً أن يعلموا ويعتقدوا - ونحن نقول: لا شك يجب على كل مسلم كائناً من كان أن يعلم - أنه لا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله، ولا دين إلا ما شرّعه الله، فمن سوى الله لا تحليل له ولا تحريم؛ لأنه عبد مسكين ضعيف مربوب، عليه أن يعمل بما يأمر به ربه، فيتبع ما يشرعه ربه. وهذا معنى قوله: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُحْبَكَيْهِمْ أَزْيَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأخبار: جمع خبر بفتح الحاء وكسرها. والتحقيق أنهما لغتان. والأخبار: العلماء. والرهبان: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمع راهب، وشدّ قوم فقالوا: إن الواحد منهم يقال له (رهبان) واستدلوا بقول الراجز^(١):

لو كلّمْتُ رُهبَانَ دِيرٍ فِي الْجَبَلِ لَأَقْبَلَ الرَّهْبَانَ يَهْوِي وَتَزَلُّ
أنه واحد. والتحقيق: أنه جمع راهب.

﴿أَزْيَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الأرياب: جمع رب؛ لأنهم عبدوهم، والعبادة من صفات الرب (جلّ وعلا) وحده لا يُعبد سواه.

﴿وَمَا أُمْرُوا﴾ بما أمروا به من الدين ﴿إِلَّا﴾ لأجل أن يعبدوا الله وحده ﴿إِلَهًا وَجِدًا﴾ أي: معبوداً واحداً ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا هو وحده (جلّ وعلا) ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزيهاً له أتم تنزيه عما يشركون به شرك ربوبية وشرك طاعة وشرك عبادة.

(١) البيت لعروة بن حزام، وهو في ديوانه ص ٣١، فتح القدير (٦٨/٢) ولفظ الشطر الثاني:

«لرحف الرهبان يمشي وزحل»

وهذه الآية من سورة براءة بين الله فيها أن النصارى واليهود مشركون كما أشرنا إليه سابقاً. وهذا معنى قوله: ﴿سُبْحٰنَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣١].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: آية ٣٢] قال بعض العلماء: نور الله هو هذا القرآن العظيم، وقد سمى الله هذا القرآن نوراً في آيات كثيرة كقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا﴾ [النساء: آية ١٧٤] ﴿وَلٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ﴾ [الشورى: آية ٥٢] ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: آية ١٥٧] ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: آية ٨] هو نور أضواء الله به كل شيء، وكل من لا يعلم أنه نور وأنه حق فإن ذلك إنما جاءه من قبل عماء؛ لأنه خفاش أعمى، والأعمى لا يرى الشمس، وقد بين الله هذا في سورة الرعد في قوله: ﴿أَفَنَنْتَ يَقُولُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ [الرعد: آية ١٩] فصرح بأن الذي يمنع من أن يعلم أنه الحق إنما هو عماء.

إذا لم يكن للمرء عينٌ بصيرة فلا عَرَوْا أَن يَزْتَابَ وَالصَّبْحُ مُسْفِرٌ^(١) وقوله: ﴿يُرِيدُونَ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ يعني يذهبوا أدلة هذا القرآن العظيم ويبتلوها ويمنعوا إقامة أدلته وإظهاره للحق والدين.
﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ في قوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وجهان^(٢):

أحدهما: أن المراد أن إطفاءه بأفواههم هو تكذيبهم به وقولهم: إنه شعر أو سحر أو كهانة أو أساطير الأولين أو مكذوب على الله. فهذا إرادتهم تكذيبه وإبطاله بأفواههم بالقول الكاذب.

وقال بعضهم: شبه فعلهم بمن رأى نوراً مستضيئاً ملاً أقطار الدنيا وأراد أن ينفخه ليطفئه بنفخة؛ لأن النفخ يطفىء النور الضعيف، ولا يقدر

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: ابن جرير (٢١٣/١٤ - ٢١٤)، ابن كثير (٣٤٩/٢)، البحر المحيط (٣٣/٥).

على النور العظيم القوي. كأنه شبه إرادتهم لإطفائه بمن يريد أن ينفخ في نور عظيم ملاً الأرض ليطفئه بالنفخ، وهذا لا يمكن أبداً ﴿وَيَأْتِ اللَّهُ﴾ (جلّ وعلا) ﴿إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ للعلماء بحث لغوي في قوله: ﴿وَيَأْتِ اللَّهُ﴾ (١) قالوا: لأن الاستثناء يكون من نفي قبله، وهنا ليس فيه نفي، والإثبات لا يُستثنى منه، فلا تقول: ضربت إلا زيداً، وأكرمت إلا عمراً.

وأجاب بعض العلماء عن هذا بأن الإياء فيه معنى الامتناع، والامتناع مضمن معنى الجحد، هم يريدون كذا ولم يرد الله إلا أن يتم نوره. فهو في معنى النفي.

وقال بعض العلماء: هو متعلق بمحذوف: ويأبى الله كل شيء إلا إتمام نوره، فهذا وحده لا بد أن يقع.

ثم قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فلو كره الكافرون إتمامه فهو متممه مهما كان.

﴿هُوَ﴾ أي: الله ﴿الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ [التوبة: آية ٣٣] هو محمد ﷺ.

﴿يَالْهُدَى﴾ قال بعض العلماء: الهدى أيضاً هو هذا القرآن؛ لأن الله يقول: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: آية ١٨٥] قالوا: ﴿يَالْهُدَى﴾ أي: بالقرآن الفارق بين الحق والباطل ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ هو دين الإسلام؛ الذي لا يقبل الله غيره ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: آية ١٩] ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: آية ٨٥] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: آية ٣].

﴿يُظهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ الضمير في قوله: ﴿يُظهِرُهُ﴾ فيه وجهان للعلماء (٢): قال بعضهم وهو مروى عن ابن عباس (٣): الضمير عائذ إلى

(١) انظر: الدر المصون (٤٠/٦).

(٢) انظر: ابن جرير (٢١٥/١٤)، القرطبي (١٢١/٨)، ابن كثير (٣٤٩/٢).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢١٥/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

النبي ﷺ. أي: أرسله بهذا الهدى ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ ليطلعه على جميع الأديان فيبين لأهلها حقيقتها من باطلها، كما قدمناه في قوله: ﴿وَمُهَيِّئْنَا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: آية ٤٨] ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: آية ١٥] ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: آية ٩٣] وغير ذلك من الآيات أن النبي ﷺ علم من كتاب الله ما جاء في جميع الكتب المتقدمة.

القول الثاني: - وعليه الأكثر - أن الضمير للدين ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: ليظهر دين الإسلام، أي: يعليه على جميع الأديان كلها. وهذا الإعلاء يدخل فيه إظهاره بالحجة والبرهان، فبراهينه قاطعة، وحججه ساطعة لا شك فيه، وكتابه محفوظ، فلا شيء يوازيه ولا يشابهه.

قال بعض العلماء: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ أي: ينصره ويُعَلِّبَهُ على جميع الأديان، وقد وفى الله بهذا فيما مضى، وسيُفِي به - أيضاً - في المستقبل؛ لأن الدين فيما مضى ظهر على جميع الأديان، وأدَلّ الدول الكبار العظيمة المعروفة، كالدولة الكسروية، والدولة القيصرية، لم يبق منهم إلا من هو يعطي الجزية عن يد وهو صاغر، أو مسلم، وانتشر في أقطار الدنيا من شرقها وغربها، وظهر على كل الأديان، وأدَلّ أهلها، وسيأتي ذلك في آخر هذا الزمان أيضاً كما جاء في أحاديث صحيحة كثيرة أنه لا يبقى في آخر الزمان أحدٌ إلا كان مسلماً^(١)، ولم يكن في المعمورة غير دين الإسلام. وهذا معنى قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: آية ٣٣] إظهاره على الدين كله.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي

(١) ساق ابن كثير في تفسيره (٣٤٩/٢) كثيراً من هذه الأحاديث المشار إليها.

كَتَبَ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةً حُرْمًا ذَلِكَ الدِّينُ الْقَنِينُ
فَلَا تَظَلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا بَعَثْنَاكُمْ كَافَّةً
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ [التوبة: الآيات ٣٤ - ٣٦].

قال الله (جلّ وعلا): ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ
وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ
هَذَا مَا كَفَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ [التوبة: الآيتان
٣٤، ٣٥] لما ذكر الله (جلّ وعلا) أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أرباباً بين أن الرهبان والأحبار لا ينبغي اتخاذهم أرباباً؛ لأن
أكثرهم فجرة غير مستقيمين فقال: ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ
لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: فكيف تتخذون هؤلاء أرباباً مع أن
الإنسان لو اتخذ أشرف الأنبياء رباً أو أعظم الملائكة رباً لكان من كبار
المشركين، أخرى من يتخذ الفجرة أرباباً ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلتَّيَكَّةِ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ [آل عمران: الآية ٨٠]
﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ...﴾ العلماء ﴿وَالرُّهْبَانِ﴾:
المتعبدين في صوامعهم.

﴿يَأْكُلُونَ﴾ هذه أصلها لام الابتداء التي تزحلقها (إن) المكسورة عن
المبتدأ إلى الخبر ﴿يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ قال بعض العلماء:
يأخذون الرُّشاً. وقال بعض العلماء: يأخذون من أتباعهم أموالاً باسم الدين
ثم يأكلونها، قال بعضهم: يأخذون أموالاً باسم الكنيسة والبيعة ونحو ذلك
مما يخيلون لأتباعهم أن أخذه من الدين ومرادهم الغرض الدنيوي^(١).

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن من استشار الرهبان والأحبار
من أتباعهم هل يأخذ دين الإسلام يمنعونهم من ذلك، ويصدونهم عن
سبيل الله التي هي دين الإسلام.

(١) انظر: القرطبي (١٢٢/٨).

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ العرب تقول: «كنت الشيء» إذا جمعته وجعلت بعضه إلى بعض. وكثيراً ما يطلق على المال المجموع بعضه إلى بعض المدفون في الأرض، والكنز في اللغة يطلق على كل مجموع مضموم بعضه إلى بعض، ومنه: ناقة مكتنزة اللحم؛ لأن لحمها بعضه منضم إلى بعض. سواء كان في باطن الأرض أو على ظاهرها^(١).

قال بعض العلماء: هذه في أهل الكتاب. قاله معاوية، واختلف معه أبو ذر (رحمه الله). كان أبو ذر في الشام فشكاه معاوية إلى عثمان فأشخصه عثمان إلى المدينة، وكان أبو ذر (رضي الله عنه) عنده مذهب معروف مخالف لجميع أقوال الصحابة يضيق في اقتناء المال، وكان (رضي الله عنه) يقول: إن الإنسان إذا ادخر شيئاً زائداً عن حَلَّتِهِ الضرورية فهو كنز يكوى به وجهه وظهره وجنبه، وكان يذكر هذا للناس، ومن أجل هذا أمره عثمان (رضي الله عنه) أيام خلافته أن يخرج إلى الربيعة وتوفي بها (رضي الله عنه وأرضاه)^(٢)، وأبو ذر معذور؛ لأنه جاء النبي في أول الإسلام، وكان المسلمون في أول الإسلام فقراء ليس عندهم شيء، وكان التشديد في إمساك الذهب والفضة في ذلك الوقت عظيماً، فسمع من النبي شيئاً ورجع إلى أهله بالبادية، ثم أنزل الله فريضة الزكاة، وكثر المال واتسع الأمر، وزال التشديد، ولم يعلم (رضي الله عنه) بشيء من ذلك، فصار على التشديد الأول؛ لأنه سمعه من رسول الله ولم يسمع ما طرأ بعد ذلك. هذا قاله بعض الصحابة وهو الظاهر أنه الحق^(٣).

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ

(١) انظر: القرطبي (١٢٣/٨)، الدر المصون (٤٢/٦).

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ما أدي زكاته فليس بكنز. حديث رقم: (١٤٠٦)

(٣) وأخرجه في موضع آخر، حديث رقم: (٤٦٦٠).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٤/٢).

﴿اللَّهُ﴾ رد الضمير هنا على الفضة ولم يقل: «ولا ينفقونهما» وللعلماء في توجيهه في اللغة العربية أقوال^(١)، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين بـ (الواو) أو (الفاء) أو (أو)، وهو في (أو) أظهر اكتفاء ببعضهما؛ لأن الآخر مفهوم منه، وهو كثير في القرآن وفي كلام العرب^(٢)، فمن أمثله في القرآن: ﴿يَكْبُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَفْقَهُونَهَا...﴾ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: الآية ٢٠] ومن أمثله بـ (أو): ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي﴾ [النساء: آية ١١٢] ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: آية ١١] ومن رجوع الضمير إلى المتعاطفين بـ (أو) قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ [النساء: آية ١٣٥] ومثال إفزاده في المتعاطفين بـ (الفاء): قول امرئ القيس^(٣):

فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمُها

فرده على أحدهما. وهو في العطف بـ (الواو) كآلية كثير جداً في كلام العرب، منه قول نابغة ذبيان^(٤):

وقد أراني ونُغماً لاهيين بها والدهرُ والعيشُ لم يههم بإمْرارٍ ولم يقل: «ولم يههما». ومنه قول حسان رضي الله عنه^(٥):

إن شَرخَ الشَّبابِ والشَّعْرَ الأَسْوَدَ ما لم يُعاصِ كان جُنُونًا وهو كثير في كلام العرب.

(١) انظر: الدر المصون (٤٢/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة البقرة.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٦) من سورة الأنعام.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٥) السابق.

وقوله: ﴿يَكْزُبُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ التحقيق - إن شاء الله - الذي هو الصواب: أن كنز الفضة والذهب الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله من الزكاة^(١)، أما ما أديت زكاته، وأخرج حق الله الواجب فيه، فالباقي بعد هذا لا يُسمى كنزاً، وإن كان تحت الأرض، ولا يكوى به صاحبه، هذا هو المذهب الحق - إن شاء الله - وأدلته واضحة، وبراهينه ساطعة لا شك فيها؛ لأن الله أوجب في مال الإنسان من ذهبه أو فضته أو ماشيته أو ثماره وزروعه وكل ذلك أوجب فيه حقاً معيناً في أقدار معينة بينها رسول الله ﷺ، بين أنها هي الحق في مال الإنسان، وأن أخذها يطهر الإنسان ويطهر له ماله، فإذا أدى ما أوجبه الله عليه وأمره به فقد طهر هو وطهر ماله، ولم يبق فيه شيء عليه تبعه؛ لأن الله لو كان يكوي به جنبه ووجهه وظهره فلا فائدة في دفع الزكاة إذا كان المال يلزم أن ينفقه كله، فلا وجه للزكاة ولا محل للموارث؛ لأن الفرائض والموارث التي نزل بها كتاب الله إنما هي في أموال تبقى بعد صاحبها، فالتحقيق الذي لا شك فيه - إن شاء الله - أن الكنز الذي يكوى به صاحبه هو ما منع فيه حق الله ولم يؤدّ زكاته، أما ما أدى زكاته وأعطى حق الله فيه فليس بكنز ولا يكوى به، فإن شاء أكثر من التطوع، وإن شاء أمسك لنفسه، والقدر الواجب أوجب الله أخذه معيناً بتحديد من رسوله ﷺ، ومما يوضح هذا قوله [لرسوله] ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: آية ١٠٣] وهي الزكاة، فعرفنا أن أخذها يطهرهم ويزكيهم. وفي حديث ضمام بن ثعلبة لما أمره النبي بدعائم الإسلام، وذكر له فرض الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا إلا أن تتطوع»^(٣). فهذا هو الحق - إن شاء الله - أن ما أديت زكاته فليس بكنز ولو تحت الأرض، وما لم تؤدّ زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان ظاهراً على وجه الأرض.

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٣١ - ٤٣٤).

(٢) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (١٢) من سورة الأعراف.

قال: ابن خويز منداد من المالكية: هذه الآية من سورة براءة تضمنت زكاة العين^(١). يعني بالعين: النقدين، الذهب والفضة.

ونحن عادة في هذه الدروس إذا مررنا بآية من كتاب الله هي أصل باب من أبواب الفقه نتعرض إلى مسائله الكبار، ونبين عيونها ومسائلها التي لها أهمية، وهذه الآية الكريمة على التحقيق فيها كأنها تشير إلى الزكاة، وأن من لم يؤدها أنه يُكوى بذلك المال الذي لم يؤد زكاته كما سيأتي في حديث مسلم.

اعلموا أن المسلمين أجمعوا على وجوب زكاة الفضة والذهب، وأن النبي ﷺ - لا خلاف بين العلماء من كافة المسلمين أنه - يبين قدر نصاب الفضة وقدر الواجب فيها، فبين أن نصاب الفضة مئتا درهم شرعي، وأنها خمسة أواق، والأوقية: أربعون درهماً، وأن قدر الواجب منها: ربع العشر^(٢)، هذا أمر لا شك فيه، أن مائتي درهم ففيها زكاة يخرج منها ربع عشرها، وليس في أقل من مائتي درهم شرعي زكاة. والدرهم الشرعي: قال علماء المالكية بالتحديد: ينبغي أن يكون بوزن أهل مكة الأول المتعارف؛ لما ثبت عن ابن عمر عند النسائي وأبي داود أن النبي ﷺ قال: «المكيال مكيال أهل المدينة، والوزن وزن أهل مكة»^(٣) فالخمس الأوسق تعرف بصاع

(١) نقله القرطبي (١٢٤/٨)، والشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٤/٢).

(٢) انظر المدونة (٢٤٢/١ - ٢٤٤)، بدائع الصنائع (١٦/٢ - ١٨)، المغني (٢٠٩/٤ - ٢١٣)، الأضواء (٤٣٤/٢ - ٤٣٥).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب البيوع، باب قول النبي ﷺ: «المكيال مكيال أهل المدينة» رقم (٣٣٢٤) (١٨٨/٩)، والنسائي في كتاب الزكاة، باب كم الصاع، رقم (٢٥٢٠) (٥٤/٥)، في كتاب البيوع، باب الرجحان في الوزن. رقم (٤٥٩٤) (٢٨٤/٧)، والطبراني في الكبير (١٣٤٤٩)، والبيهقي (٣١/٦)، كلهم من طريق أبي نعيم الفضل بن دكين، عن سفيان عن حنظلة عن طاووس عن ابن عمر.

وأخرجه أبو عبيد في الأموال (١٦٠٧)، ومن طريقه البيهقي (٢٠٦٣) عن أبي المنذر إسماعيل بن عمر عن سفيان به. وأخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (٩٩/٢) من طريق الفريابي عن سفيان به.

وأخرجه ابن حبان (٣٢٨٣) من طريق أبي أحمد الزبيري عن سفيان فخالف من تقدم في متن الحديث وإسناده. انظر الإرواء (١٣٤٢) (١٩١/٥).

النبي ﷺ في المدينة، ومائتا درهم - نصاب الفضة - تعرف بالوزن الذي كان معروفاً عند أهل مكة.

وقد حرر علماء المالكية الأمرين^(١) وقالوا: إن الدرهم المكي الشرعي وزنه خمسون وخمسا حبة من مطلق الشعير. هكذا الذي يقولون، وزاد بعضهم: سُبُع الحبة. والتحقيق عندهم هو هذا، فإذا كان عند الإنسان مائتا درهم شرعية فإنه يجب عليه زكاتها وإخراج ربع عشرها كما هو معلوم، وهذا لا نزاع فيه بين العلماء. وكل درهم ستة دوانق، وكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل، وأربعون درهماً هي الأوقية. وهذا معروف لا نزاع فيه.

وأكثر العلماء على أن الفضة لا وقص فيها^(٢)، فإذا كانت عنده مائتا درهم أخرج ربع عشرها، وكل ما زاد فبحسابه. وقال بعض العلماء: إذا زاد عن مائتي درهم لم يكن عليه شيء حتى يبلغ الأربعين درهماً.

أما الذهب فقد ذكر بعض العلماء أنه لم يثبت فيه تحديد من النبي ﷺ لا في نصابه ولا في المخرج منه^(٣)، وهذا مروى عن الشافعي، وقاله ابن عبد البر، وبالغ ابن حزم في نصره، أن النبي لم يثبت عنه شيء في تحديد نصاب الذهب ولا في قدر المخرج منه. والتحقيق أن النبي ﷺ ثبت عنه قدر نصاب الذهب وقدر المخرج منه، وأن نصاب الذهب عشرون ديناراً ليس فيما دونها صدقة، وأن في الذهب مثل ما في الفضة ربع العشر.

اعلموا أولاً أن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين كل واحد منها قد دلّ على أن الزكاة تجب في الذهب، وقد دلّ عليه القرآن في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...﴾ الآية [التوبة: آية ٣٤]. ودلت عليه السنة الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يخرج منهما حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من

(١) مضى عند تفسير الآية (١٤١) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: الأضواء (٤٣٦/٢).

(٣) انظر: الأم للشافعي (٤٠/٤)، الاستذكار لابن عبد البر (٣٤/٩)، المحلى (٦٦/٦)،

الأضواء (٤٣٨/٢).

نار فأحمي عليها فيكوي بها جنبه وظهره ووجهه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، كلما بردت أعيدت فأحمي عليها حتى يقضي الله بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»^(١) فهذا نص صحيح ثابت في صحيح مسلم أن الذهب تجب فيه الزكاة، وأن من لم يؤد زكاته يكوى به يوم القيامة، ويُصفح له صفائح من نار. إذا عرفتم أن أصل زكاة الذهب واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فيبان تحديد النصاب وقدر المخرج منه كأنه بيان لإجمال من كتاب الله، وقد جاء عن النبي ﷺ ما يبين هذا الإجمال ويوضحه، ويُعيّن قدر نصاب الذهب، وقدر الواجب إخراجه فيه، وهو ما رواه أبو داود في سننه من طريق أبي إسحاق عن عاصم بن ضمرة السلولي والحرث الأعور الهمداني عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أن النبي ﷺ قال ما معناه: «إن في عشرين ديناراً من الذهب نصف دينار»^(٢). وهذا بعينه تحديد النصاب بعشرين ديناراً، وتحديد الواجب فيه بربع العشر، هذا الحديث رواه أبو داود وسكت عنه. ومعروف أن كثيراً من العلماء ناقشوا في هذا الحديث وضعفوه بالحرث الأعور، وقالوا: وعاصم بن ضمرة السلولي ضعيف أيضاً، فضعفوا هذا الحديث. ونحن نقول^(٣): إن هذا الحديث عند المناقشة الصادقة ليس بضعيف، وأن الحرث الأعور وإن كان ضعيفاً عند قوم - وإن وثقه ابن المدني وغيره^(٤) - فقد ضعفه أكثر

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٧) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه عبدالرزاق (٨٩/٤)، وأبو داود في الزكاة، باب في زكاة السائمة. حديث رقم: (١٥٥٧، ١٥٥٨) (٤٤٤/٤، ٤٤٧) مع تردد بعض رواته - عند أبي داود - في رفعه. وأخرجه ابن أبي شيبة (١١٩/٣)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٦٩ موقوفاً على علي (رضي الله عنه).

وانظر: الاستذكار (٢١/٩، ٣٤)، التلخيص (١٧٣/٢)، الإرواء (٢٩١/٣).

(٣) انظر: الأضواء (٤٣٨/٢ - ٤٤٢).

(٤) العبارة غير منضبطة من حيث المعنى كما ترى. ولعل الشيخ أراد أن يقول: «وإن كذبه ابن المدني وغيره... فسبق لسانه إلى ذلك. لأن ابن المدني كذب الحرث الأعور كما نقل ذلك الذهبي في الميزان (٤٣٥/١) ويدل على ذلك ما ذكره الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٤٣٩/٢). والحرث الأعور كذبه كذلك: الشعبي وأبو إسحاق السبيعي،

العلماء. أما عاصم بن ضمرة فالتحقيق أنه صدوق أثنى عليه غير واحد، وهو لا بأس به، فروايته محتج بها وهي معتزدة بأشياء عديدة تقوم بها الرواية الضعيفة أخرى التي هي غير ضعيفة؛ لأن روايته معتزدة برواية الحارث الأعور، وهو يُقبل في المتابعات والشواهد، ومعتزدة بإجماع المسلمين على مقتضاه؛ لأن هذا الحديث أجمع على مقتضاه عامة المسلمين ولم يخالف منهم أحد إلا شيء يروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه، أما فقهاء الأمصار والصحابة والأئمة الأربعة وأصحابهم وكافة العلماء المعروفين لم يخالف أحد منهم في أن نصاب الذهب عشرون ديناراً، وأن الواجب فيه ربع العُشر كالفضة، وروى عن الحسن البصري أن نصابه أربعون^(١)، وعن

= وأبو خثيمة وذكر إبراهيم النخعي أنه أتهم، وقال أبو بكر بن عياش: «لم يكن الحارث بأرضاهم، كان غيره أرضى منه. قال: وكانوا يقولون: إنه صاحب كتب كذاب» ا.هـ. وقال جرير: «كان الحارث الأعور زيفاً» ا.هـ. وعن مغيرة: «لم يكن الحارث يصدق عن علي في الحديث» ا.هـ. وقال ابن حبان: «كان الحارث غالياً في التشيع واهياً في الحديث» ا.هـ. وضعفه الدارقطني، وقال ابن عدي: «عامة ما يرويه غير محفوظ» ا.هـ. وترك الاحتجاج به أبو زرعة وأبو حاتم وابن مهدي، وابن معين ضعفه، ومرة قال: «ليس به بأس» ا.هـ. وقال مرة: «ما زال المحدثون يقبلون حديثه» ا.هـ. وقال مرة: «ثقة». وتعبه عثمان الدارمي بقوله: «ليس يتابع يحيى على هذا» ا.هـ. وكذا النسائي قال مرة: «ليس بالقوي» وقال مرة: «ليس به بأس» وقال ابن سيرين: «أدرت الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث الأعور تُنى بعبدة، ومن بدأ بعبدة تُنى بالحارث» ا.هـ. وقال: «كان أصحاب ابن مسعود خمسة يُؤخذ عنهم، أدرت منهم أربعة وفاتني الحارث فلم أره وكان يُفضل عليهم» ا.هـ. وعن سفيان: «كنا نعرف فضل حديث عاصم بن ضمرة على حديث الحارث» ا.هـ. وقال فيه الذهبي: «من كبار علماء التابعين على ضعف فيه» ا.هـ. وقال: «والجمهور على توهين أمره مع روايتهم لحديثه في الأبواب» ا.هـ. وقد نقل الشيخ (رحمه الله) في الأضواء (٥٦/٢) قول بعض من رماه بالكذب ولم ينقل عن أحد توثيقه. فقول الشيخ (رحمه الله) هنا: «فقد ضعفه أكثر العلماء» ا.هـ. في محله، وإنما توسعت في هذا التعليق لأن عبارة الشيخ هذه أيضاً لربما توهم القارئ أنها من سبق اللسان وليست كذلك.

(١) أخرج عبدالرزاق في المصنف (٨٩/٤)، وابن أبي شيبة (١١٨/٣)، وابن عبدالبر في الاستذكار (٢٥/٩) عن الحسن: «ما زاد على المائتين فلا يؤخذ منه شيء حتى يبلغ أربعين» وجاء عنه رواية ثانية نقلها النووي في المجموع (١٧/٦) أنه لا زكاة فيما هو دون أربعين مثقالاً لا تساوي مائتي درهم.

طاووس أنه يقاس بالفضة، فما بلغ من الذهب قيمة مائتي درهم كانت فيه الزكاة، وما دون ذلك فلا. وهذا لا يكاد يلتفت إليه^(١) لكثرة من خالفه من أجلاء العلماء من الصحابة فمن بعدهم. فحديث عاصم بن ضمرة حجة، وهو معتضد برواية الحارث الأعور، وبإجماع المسلمين، وهذا إنما هو بيان لأمر ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنه واجب، ومعلوم أن البيان إرشاد ودلالة، وهو يصح في كل شيء يجلو الجهالة والإجمال.

وهذا هو التحقيق - إن شاء الله - أن نصاب الذهب عشرون مثقالاً، وأن الواجب فيها ربع العشر، وأنه لا وقص فيه فما زاد فبحسابه.

فإن كان عنده بعض النصاب من الذهب وبعضه من الفضة فهل يضم الفضة للذهب^(٢)؟ ليس في ذلك نص عن رسول الله ﷺ، وأنظار العلماء اختلفت فيه، فذهب بعض العلماء إلى أنه لا يضم الذهب إلى الفضة ولا الفضة إلى الذهب في الزكاة، وتوقف في هذا الإمام أحمد بن حنبل في رواية الأثرم، وقطع في رواية حنبل أنه لا يضم أحدهما إلى الآخر^(٣). فمن كانت عنده عشرة مثاقيل ومائة درهم لا زكاة عليه على هذا، وبهذا قال الإمام الشافعي وأكثر أصحابه في طائفة كثيرة من العلماء. وقال مالك بن أنس وأصحابه: يضم الذهب إلى الفضة فيكون النصاب منهما معاً. وهو مروى عن أبي حنيفة (رحمة الله) على الجميع. وعلى هذا فلو كان عنده مائة درهم وعشرة دنانير وجبت عليه الزكاة، فأخرج من الدنانير ربع عشرها، ومن الدراهم ربع عشرها وهكذا.

(١) أخرج عبدالرزاق (٩٢/٤)، وابن عبد البر في الاستذكار (٢٤/٩) عن طاووس قال: «إذا زادت الدراهم على مائتي درهم فلا شيء فيها حتى تبلغ أربعمائة درهم». قال في المغني (٢١٢/٤ - ٢١٣): «وقال عامة الفقهاء: نصاب الذهب عشرون مثقالاً من غير اعتبار حقيقتها، إلا ما حكى عن عطاء وطاووس والزهري... أنهم قالوا: هو معتبر بالفضة، فما كان قيمته مائتي درهم ففيه الزكاة وإلا فلا؛ لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ تقدير في نصابه» أ.هـ.

(٢) انظر: الاستذكار (٤٠/٩)، المبسوط (١٩٢/٢)، المجموع (١٨/٦)، المغني (٢١٠/٤)، الأضواء (٤٤٤/٢).

(٣) انظر: المغني (٢١٠/٤).

واعلموا أن من توابع هذه المسألة أشياء اختلف فيها العلماء سنذكر طرفاً منها، من ذلك: إذا كان الذهب والفضة حلياً مصوغاً مباحاً تزين به النساء، هل تجب فيه الزكاة أو لا^(١)؟ اختلف فيه العلماء وفقهاء الأمصار والصحابة فمن بعدهم، فذهب كثير من العلماء إلى أنه لا زكاة في الحلي المباح، منهم مالك والشافعي وأحمد وأصحابهما وخلق لا يحصى من الصحابة فمن بعدهم. وذهب آخرون إلى أن الحلي المباح تجب فيه الزكاة، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه وخلق من الصحابة فمن بعدهم. واحتج كل بحجج، أما الذين قالوا: لا تجب فيه الزكاة فإنما احتجوا بحديث جاء في ذلك وآثار عن الصحابة، واحتجوا بوضع اللغة، أما الحديث الذي جاء في ذلك هو حديث رواه البيهقي في كتاب معرفة السنن والآثار، رواه من طريق عافية بن أيوب عن الليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) أن النبي ﷺ قال: «لا زكاة في حلي»^(٢).

هذا الحديث قال الآخرون: لا يجوز الاحتجاج به؛ لأن عافية بن أيوب مجهول وغالى البيهقي (رحمه الله) فقال: إن العمل بحديث عافية هذا من جنس العمل بأحاديث الكذابين.

ونحن نقول: إن هذه مغالاة منه (رحمه الله)؛ لأن عافية بن أيوب لم يقل فيه أحد إنه كذاب، وغاية ما في الباب أن البيهقي ظن أنه مجهول، وقد وثقه غير البيهقي، فقد نقل ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل عن أبي زرعة أنه وثق عافية بن أيوب هذا وقال: لا بأس به^(٣). وقال ابن

(١) انظر: الاستذكار (٦٦/٩)، المبسوط (١٩٢/٢)، المجموع (٣٢/٦)، المغني (٤/٢٢٠)، الأضواء (٤٤٥/٢).

(٢) البيهقي في المعرفة (٣/٢٩٨) وقال: «لا أصل له مرفوعاً، إنما يُروى عن جابر من قوله غير مرفوع» ا.هـ. وقد رواه الشافعي في الأم (٤١/٢)، وعبدالرزاق (٤/٨٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٩، والدارقطني (٢/١٠٧)، والبيهقي في السنن (٤/١٣٨) موقوفاً على جابر (رضي الله عنه). وانظر: تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٠)، نصب الراية (٢/٣٧٤)، الإرواء (٣/٢٩٤)، الأضواء (٤٤٦/٢).

(٣) الجرح والتعديل (٧/٤٤).

الجوزي في جرحه وتعديله: لا أعلم فيه قادحاً ولا جرحاً^(١). فدعوى أنه من الكذابين ليس بصحيح.

واحتجوا بآثار من الصحابة كثيرة؛ لأنه جاءت آثار عن الصحابة أنهم لا يخرجون زكاة الحلي، وهو ثابت عن عائشة^(٢) وابن عمر^(٣) وجماعة من الصحابة (رضي الله عنهم) واحتجوا بالقياس، ومعلوم أن القياس يستعمل مع النص إذا كان لتعزيد النص لا ليخالفه؛ لأن النصوص لا مانع من اعتضاد بعضها بعضاً، وقد تقرر في الأصول^(٤) أن النص الذي يوافق^(٥) [القياس مقدم في حال الترجيح].

النوع الثاني من القياس: وهو المعروف عندهم بـ (قياس العكس)، وقياس العكس قال جماعة من الأصوليين: يُحتج به، وأبى الاحتجاج به جماعة آخرون^(٦). وقياس العكس قد نبه عليه النبي ﷺ في الحديث الثابت في صحيح مسلم؛ لأنه ﷺ لما قال: «وفي بضع أحدكم أجر» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته وله فيها أجر؟ قال: «أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟»^(٧) فهذا قياس عكس، وهو إعطاء

(١) قال ابن الجوزي في كتاب التحقيق (كما في تنقيح التحقيق) (١٤٢١): «ما عرفنا أحداً طعن فيه» ا.هـ.

(٢) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٣) أخرجه البيهقي في المعرفة (٢٩٣/٣)، وفي السنن الكبرى (١٣٨/٤).

(٤) انظر: شرح الكوكب المنير (٦٩٥/٤)، الأضواء (٤٥٠/٢).

(٥) في هذا الموضوع انقطع التسجيل، وما بين المعقوفين [زيادة يتم بها الكلام.

قال في الأضواء (٤٤٨/٢): «وأما القياس فمن وجهين: الأول: أن الحلي لما كان لمجرد الاستعمال لا للتجارة والتنمية ألحق بغيره من الأحجار النفيسة كاللؤلؤ والمرجان، يجامع أن كلاً مُعَدَّ للاستعمال لا للتنمية. وقد أشار إلى هذا الإلحاق مالك - رحمه الله - في [الموظأ] بقوله: فأما التبر والحلي المكسور الذي يريد أهله إصلاحه ولبسه فإنما هو بمنزلة المتاع الذي يكون عند أهله، فليس على أهله فيه زكاة. قال مالك: ليس في اللؤلؤ ولا في المسك والعنبر زكاة».

(٦) انظر: شرح الكوكب المنير (٢١٩/٤)، وانظر الكلام على هذا القياس مع الأمثلة والتطبيقات المذكورة في الأضواء (٤٤٩/٢ - ٤٥٠).

(٧) مسلم في الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع معروف. حديث رقم: (١٠٠٦) (٦٩٧/٢) من حديث أبي ذر (رضي الله عنه).

حكم عكس حكم لتعاكسهما في العلة^(١).

قالوا: وكذلك هنا في الحلبي المباح، فإن العروض لا تجب الزكاة في عينها، فإذا كانت للتجارة وجبت الزكاة في عينها، عكس الذهب والفضة، فإن الزكاة في عينها، فإذا انقطع عنها اسم النماء والتجارة صارت لا زكاة فيها، من قياس العكس.

ومن أمثلة قياس العكس عند المالكية مما اختلفوا مع غيرهم في القبيء هل ينقض الوضوء أو لا؟ قالوا: لا ينقض الوضوء كثير القبيء، قياساً على قليل القبيء، عكس البول، فإنه لما انتقض الوضوء بقليله انتقض بكثيره. ومن أمثلة قياس العكس عند الحنفية قولهم: لا قصاص في القتل بكبير المُثقل، كعمود الحديد والصخرة، قياساً على صغير المُثقل، كالقضيبي الذي لا قصاص في الضرب به، عكس المُحدّد، فإنه لما وجب القصاص في قليله وجب في كثيره. هذا هو غالب حجة أهل هذا القول الذين قالوا: لا زكاة في الحلبي.

أما الذين قالوا: تجب في الحلبي المباح زكاة فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وبآثار عن السلف، وبوضع اللغة، وبالقياس أيضاً^(٢). أما وضع اللغة من حجة الأولين فقولهم: إنه ﷺ قال: «وفي الرقة^(٣) ربع العشر»^(٤) وقال: «ليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة»^(٥).

(١) انظر: الأضواء (٢/٤٤٩).

(٢) انظر: الأضواء (٢/٤٥١).

(٣) قال في الأضواء (٢/٤٥٠): «قال أبو عبيد: الرقة عند العرب: الورق المنقوشة ذات السكة السائرة بين الناس، ولا تطلقها العرب على المصوغ، وكذلك قيل في الأوقية. قال مقبيده - عفا الله عنه -: ما قاله أبو عبيد هو المعروف في كلام العرب، قال الجوهري في صحاحه: الورق: الدراهم المضروبة، وكذلك الرقة، والهاء عوض عن الواو. وفي القاموس: الورق - مثلثة، وككتف -: الدراهم المضروبة، وجمعه أوراق ووراق كالرقة» ١. هـ.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: زكاة الغنم. حديث رقم: (١٤٥٤) (٣/٣١٧-٣١٨).

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة، باب: ليس فيما دون خمس ذوو صدقة. حديث رقم:

(١٤٥٩) (٣/٣٢٢). وأخرجه في موضع آخر، انظر رقم: (١٤٨٤). ومسلم في الزكاة،

قالوا: والورق لا تطلق إلا على الدراهم المنقوشة، ولا تطلق على الخلي. هذا من حجة الأولين بالوضع اللغوي.

وأما الذين قالوا: تجب الزكاة فيه فاحتجوا أيضاً بأحاديث جاءت عن النبي ﷺ، وأثار عن السلف، وبالقياس، وبوضع اللغة أيضاً.

ومن الأحاديث الدالة على ذلك: ما رواه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - وجده: هو عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) - أن النبي ﷺ دخلت عليه امرأة ومعها ابنتها، وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من ذهب - يعني سوارين من ذهب - فقال لها: «أتؤدين زكاة هذا؟» فقالت: لا. فقال: «أيسرك أن يسورك الله بهما يوم القيامة سوارين من نار؟!» فخلعتهما فقالت: هما لله ولرسوله^(١).

= حديث رقم: (٩٧٩) (٦٧٣/٢) من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه). وأخرجه مسلم أيضاً من حديث جابر (رضي الله عنه) في الزكاة، حديث رقم: (٩٨٠) (٦٧٥/٢).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١٥٣/٣)، وعبدالرزاق (٨٥/٤ - ٨٦)، وأحمد (١٧٨/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٧، وابن زنجويه في الأموال (٩٧٣/٣)، وأبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الخلي. حديث رقم: (١٥٤٨) (٤٢٥/٤)، والترمذي في الزكاة، باب: ما جاء في زكاة الخلي. حديث رقم: (٦٣٧) (٢٠/٣ - ٢١) وعقبه بقوله: «وهذا حديث قد رواه المشني بن الصباح عن عمرو بن شعيب نحو هذا، والمشني بن الصباح وابن لهيعة يضعفان في الحديث. ولا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء» ا.هـ. وقال ص ٢٠: «وقد روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ أنه رأى في الخلي زكاة. وفي هذا الحديث مقال» ا.هـ. والنسائي في الصغرى، في الزكاة، باب: زكاة الخلي. حديث رقم: (٢٤٧٩، ٢٤٨٠) (٣٨/٥) وفي الكبرى، في الزكاة، باب: زكاة الخلي. حديث رقم: (٢٢٥٨، ٢٢٥٩) (١٩/٢). والبيهقي في الكبرى (١٤٠/٤)، وابن حزم في المحلى (٧٨/٦) وأشار لضعفه. (بعضهم يرويه مرسلاً وبعضهم موضوعاً) وقد ذكر له ابن الجوزي في التحقيق أربع طرق، وقد أعلها ابن عبدالهادي في التنقيح (١٤٢٥/٢) جميعاً. وقال الحافظ في الدراية (٢٥٨/١): «صححه ابن القطان، وقال المنذري: لا علة له. قلت: أبدى له النسائي على غير قاذحة» ا.هـ. إلى أن قال: «وروي أحمد وابن أبي شيبة والترمذي من طريق المشني بن الصباح وابن لهيعة وهما ضعيفان...» ا.هـ. وانظر: نصب الراية (٣٧٠/٢ - ٣٧١)، وقال في الإرواء (٢٩٦/٣): «وإسناده إلى عمرو عند أبي داود والنسائي وأبي عبيد جيد» ا.هـ. وانظر: آداب الزفاف ص ٢٥٦، صحيح أبي داود (٢٩١/١)، صحيح النسائي (٥٢٣/٢).

هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. والتحقيق أن رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - مع ما فيها من الكلام - أنها يصح الاحتجاج بها، وأنها ليست بضعيفة. وقال الترمذي في هذا الحديث: لم يرد من طريق صحيحة^(١) وذكره من طرق كلها ضعيفة، ولم يطلع على رواية حسين المعلم له.

والتحقيق أنه جاء من رواية أقل درجاتها الحسن، فلا شك في الاحتجاج بهذا الحديث من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص، وهذا روي أيضاً عن غيرها. وقد أخرج أبو داود في سننه أيضاً عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها كانت تلبس أوضاعاً من ذهب، فسألت رسول الله فقالت: أكنز هو يا رسول الله؟ قال: «ما بلغ أن تُؤدى زكاته فأديت زكاته ليس يكنز»^(٢) فهذا يدل على أن الأوضاع التي تتزين بها من حليها أن فيها الزكاة. ويعتضد هذا بحديث عائشة (رضي الله عنها) أن النبي ﷺ دخل عليها وفي يدها فتحات من فضة - والفتحات: نوع من الخواتم لا فصوص له، وقد يكون في أصابع اليد، وقد يُجعل في أصابع الرجل - فقال: «ما هذه؟» قالت: فقلت: شيء صنعته لأتزين لك به! فقال: «أتؤدين زكاتها؟» قالت: لا، قال: «هو حسبك من النار»^(٣).

(١) سنن الترمذي (٢٠/٣، ٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٤٩) (٤/٤٢٦) والدارقطني (٢/١٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٤/١٤٠) وعقبه بقوله: «وهذا يتفرد به ثابت بن عجلان» ا.هـ. وفي الصغرى (١/٣٢٥ - ٣٢٦)، والحاكم (١/٣٩٠) وقال: «صحيح على شرط البخاري» ا.هـ. ووافقه الذهبي. وأخرجه الطوسي في مستخرجه على الترمذي (٣/٢٢٨) وقال: «هذا حديث حسن» ا.هـ. وذكره ابن حزم في المحلى (٦/٧٩) وعقبه بقوله: «عتاب مجهول» ا.هـ. وانظر: تنقيح التحقيق (٢/١٤٢٣، ١٤٢٦)، نصب الراية (٢/٣٧١). وقد حسن الألباني أحد طرقه في التعليق على المشكاة (١/٥٦٨)، وصحيح أبي داود (١/٢٩١).

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي. حديث رقم: (١٥٥٠)، (١٥٥١)، والدارقطني (٢/١٠٥) وقال: «محمد بن عطاء مجهول» ا.هـ. والبيهقي في الكبرى (٤/١٣٩ - ١٤٠)، وفي الصغرى (١/٣٢٦) وعقبه بقوله: «وهذا إسناد حسن» ا.هـ. والحاكم (١/٣٨٩) وقال: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وابن =

واستدلوا أيضاً بحديث أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: دخلت على رسول الله ﷺ أنا وخالتي، وعلينا أساور من ذهب، فقال: «أتؤديان زكاة هذا؟» فقلنا: لا. فقال: «أديا زكاته، أيسركما أن تسؤرا بهما سوارين من نار يوم القيامة؟»^(١). فهذه أربعة من أصحاب رسول الله يروون عنه وجوب الزكاة في الحلبي: ابن عمرو بن العاص، وأم سلمة، وعائشة، وأسماء بنت يزيد، وعضدوا هذا أيضاً بالقياس. وورد فيه آثار عن الصحابة أيضاً، كان عبدالله بن عمرو بن العاص يأمر خازنه أن يُخرج زكاة حلبي بناته^(٢).

واستدلوا بالقياس، قالوا: تجب الزكاة في الذهب والفضة في المصوغ منهما كما جازت في المسكوك والمسبوك، بجامع أن الكل أصله من ذهب وفضة، أصله من عين وجبت فيها الزكاة.

واحتجوا بوضع اللغة، قالوا: إن أصل الحلبي المصوغ أصله يقال له ذهب وفضة، والصنعة لا تُذهب حكم الأصل، ولا تنقل اسمه من كل الوجوه.

هذا حاصل ما احتج به هؤلاء، وما احتج به هؤلاء، ومعلوم أن العقول إذا ازدحمت في مثل هذا وتشابهت الأدلة أن النبي ﷺ ألقى على

= زنجويه في الأموال (٩٧٣/٣ - ٩٧٤). وذكره ابن حزم في المحلى (٧٩/٦) وقال: «يحيى بن أيوب ضعيف» ا.هـ.

وقال الحافظ في التلخيص (١٧٨/٢): «وإسناده على شرط الصحيح» ا.هـ. وصححه الألباني في الإرواء (٢٩٧/٣)، صحيح أبي داود (٢٩١/١).

وانظر الكلام على الحديث في تنقيح التحقيق (١٤٢٣/٢، ١٤٢٧)، نصب الرأية (٣٧١/٢).

(١) أخرجه أحمد (٤٦١/٦)، والبيهقي (١٤١/٤). وقد أعله ابن عبد الهادي في التنقيح (١٤٢٣/٢، ١٤٢٦) بشهر بن حوشب، وعبدالله بن عثمان بن خثيم، وعلي بن عاصم. وقال الحافظ في الدرزية (٢٥٩/١): «وفي إسناده مقال» ا.هـ. وانظر: نصب الرأية (٣٧٢/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥٤/٣)، وعبدالرزاق (٨٤/٤)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٩٨، ٤٤٥، والدارقطني (١٠٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٣٩/٤)، وابن زنجويه في الأموال (٩٧٥/٣). وانظر: نصب الرأية (٣٧٤/٢).

مثل هذا أنواراً نبوية وأضواء عظيمة من ضوء النبوة تبين المخرج الصحيح منه، وهو قوله ﷺ: «دع ما يربك إلى ما لا يربك»^(١)، «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»^(٢) فلا ينبغي للإنسان إلا أن يزكي حلي امرأته وبناته للخروج من عهدة التكليف؛ لأن من زكاه لقي الله سالمًا منه بلا نزاع، ومن [لم يزكه]^(٣) كان في قيل وقال، جماعة يقولون: لا عليك، وجماعة يقولون: إن زكاة الحلي واجب.

ومما يدخل تحت هذه المسألة: زكاة العروض المعدة للبيع والشراء^(٤). أجمع عامة علماء المسلمين على أن عروض التجارة تجب فيها

(١) أخرجه عبدالرزاق (١١٧/٣ - ١١٨)، والطيالسي ص ١٦٣، والدارمي (١٦١/٢)، وأحمد (٢٠٠/١)، والترمذي في أبواب صفة القيامة، باب (٦٠). حديث رقم: (٢٥١٨) (٢٦٨/٤)، والنسائي في الأشربة، باب: الحث على ترك الشبهات. حديث رقم: (٥٧١١) (٣٢٧/٨)، والحاكم (١٣/٢) (٩٩/٤)، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ١. هـ. وابن حبان (الإحسان ٥٢/٢)، والطبراني (٧٥/٣ - ٧٦)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٨)، وأبو يعلى (١٣٢/١٢). من حديث الحسن بن علي (رضي الله عنهما). وصححه الألباني في الإرواء (١٥٥/٧)، غاية المرام ص ١٣٠ - ١٣١، المشكاة (٨٤٥/٢)، صحيح الترمذي (٣٠٩/٢)، ظلال الجنة ص ١٧٩.

وللحديث شاهد من حديث واثلة بن الأسقع (رضي الله عنه) عند أبي يعلى (٤٧٦/١٣)، والطبراني (٧٨/٢٢) وقال في المجمع (٢٩٤/١٠): «وفيه عيب بن القاسم وهو متروك» ١. هـ. ومن حديث أنس (رضي الله عنه) (موقوفاً) عند أحمد (١١٢/٣، ١٥٣).

ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في الصغير (١٠٢/١) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن أبي رومان» ١. هـ. قال الألباني في الإرواء (١٥٦/٧) وهو ضعيف، «وبقية رجاله ثقات» ١. هـ. وذكره الخطيب في التاريخ (٢٢٠/٢)، (٣٨٦/٦)، وأبو نعيم في الحلية (٣٥٢/٦). وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٩٧٤): موضوع.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه. حديث رقم: (٥٢) (١٢٦/١). وأخرجه في موضع آخر برقم: (٢٠٥١)، ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات. حديث رقم: (١٥٩٩) (١٢١٩/٣).

(٣) في الأصل: «زكاه». وهو سبق لسان.

(٤) انظر: المبسوط (١٩٠/٢)، المحلى (١١٤/٦)، المجموع (٤٧/٦)، المغني (٢٤٩/٤) - (٢٦٢)، الموسوعة الفقهية (٢٦٨/٢٣)، الأضواء (٤٥٧/٢).

الزكاة، وأنها تُزكى مثل زكاة العين، تُقَوَّم عند الحول، ما يُشترى منها بالذهب يُقَوَّم بالذهب، وما يُشترى بالفضة يُقَوَّم بالفضة. قال هذا بعض العلماء، ثم يخرج ربع عشرها، وهذا لا نعلم خلافاً فيه إلا شيء يُروى عن داود الظاهري وبعض أتباعه^(١). وأما عامة الصحابة، وفقهاء الأمصار، ومنهم الأئمة الأربعة، وأتباعهم، على وجوب الزكاة في عروض التجارة، واستدلوا لذلك بأدلة منها أحاديث جاءت بذلك عن النبي ﷺ منها: ما أخرجه الحاكم بإسنادين وقال: «كلاهما صحيح على شرط الشيخين» وأخرجه الدارقطني والبيهقي أن النبي ﷺ قال: «في الإبل صدقتها، وفي الغنم صدقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البزُّ صدقتها»^(٢) والبز: يشمل جميع ما يُلبس وهذه من عروض التجارة. وهذا الحديث فيه مناقشات طويلة عريضة معروفة يطول ذكرها. وجميع هذه المسائل قد بيّنا مناقشات العلماء فيها في الذهب والفضة، والتجارات، والمعادن، والديون في كتابنا أضواء البيان في الكلام على هذه الآية الكريمة من سورة براءة^(٣).

والحاصل: أنه جاء عن أبي ذر وعن سمرة بن جندب الفزاري (رضي الله عنه) كلاهما جاء عنه حديث يدل على زكاة عروض التجارة، أما

(١) انظر: المحلي (١١٤/٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢١٣/٣)، وأحمد (١٧٩/٥)، والترمذي في العلل الكبرى (٣٠٧/١) وعقبه بقوله: «سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبي أنس. يقول: حَدَّثْتُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ أَبِي أَنَسٍ» ا.هـ. وابن زنجويه في الأموال (٧٨٣/٢)، والبزار (٣٤٠/٩)، والبيهقي (١٤٧/٤)، والحاكم (٣٨٨/١) وقال: «على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ا.هـ. وتعقبه ابن عبد الهادي في التنقيح (١٤٣٨/٢) بقوله: «وفيه نظر» ا.هـ. وأخرجه الدارقطني (١٠١/٢ - ١٠٢). (بألفاظ متقاربة).

والحديث ضعفه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٣٨٨/٢)، (٥٥/٥ - ٥٦)، وذكر له الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢) أربعة طرق - وهي عند الدارقطني - فضعف - الحافظ - ثلاثة منها وقال عن الرابع: «وهذا إسناد لا بأس به» ا.هـ.

وقال عن الحديث في الدراية (٢٦٠/١): «وإسناده حسن» ا.هـ. وانظر في الكلام عليه في: تنقيح التحقيق (١٤٣٦/٢ - ١٤٣٧)، إتحاف المهرة (١٨١/١٤) نصب الراية (٣٧٦/٢)، أضواء البيان (٤٥٨/٢).

(٣) الأضواء (٤٣٤/٢) فما بعدها.

حديث أبي ذر فقد ذكرناه. وأما حديث سمرة بن جندب الذي رواه عنه أبو داود أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعد للبيع^(١). وفي مناقشات طويلة عريضة، فمن مضعف ومصحح، وجماعة صححوا حديث الحاكم، وصححه الحاكم، وانتصر كثير لتصحيحه، ولا شك أنه معتضد بإجماع المسلمين في عهد الصحابة فمن بعدهم على أن عروض التجارة تجب فيها الزكاة. وقد ثبت عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه أخذ زكاة الجلود من حمّاس، فعن أبي عمرو بن حمّاس أن أباه مرّ بعمر بن الخطاب يحمل جلوداً فقال: هل أدبت زكاة هذا؟ - في جلود يتّجر بها - فقال: لا، قال: هذا مال، فحسبوه فوجدوا الزكاة قد وجبت فيه، فأخذ منه زكاة الجلود^(٢). فهذا ثابت عن عمر بن الخطاب ولم يخالفه أحد من الصحابة فالتحقيق الذي لا شك فيه وجوب الزكاة في عروض التجارة.

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة، باب: العروض إذا كانت للتجارة هل فيها من زكاة؟ حديث رقم: (١٥٤٧) (٤٢٤/٤)، والدارقطني (١٢٧/٢)، والبيهقي في الكبرى (١٤٦/٤) - (١٤٧)، والصغرى (٣٢٧/١)، والطبراني في الكبير (٢٥٣/٧، ٢٥٧)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥) وقال: «أما حديث سمرة فاسقط؛ لأن جميع رواه ما بين سليمان بن موسى وسمرة (رضي الله عنه) مجهولون لا يُعرف من هم» ا.هـ. وقال الهيثمي في المجمع (٦٩/٣): «في إسناده ضعف» ا.هـ. وقال الذهبي في الميزان (٤٠٨/١) عن سلسلة هذا الإسناد: «وبكل حال هذا إسناد مظلم لا ينهض بحكم» ا.هـ. وقال ابن عبدالهادي في التنقيح (١٤٣٥/٢): «انفرد أبو داود بإخراج هذا الحديث وإسناده حسن غريب» ا.هـ. والحديث سكت عنه أبو داود والمنذري، وحسنه ابن عبدالبر، وضعفه الحافظ في التلخيص (١٧٩/٢)، والدراية (٢٦٠/١) والألباني في التعليق على المشكاة (٥٦٨/١)، ضعف أبي داود ص ١٥٤.

وانظر: بيان الوهم والإيهام (١٣٩/٥)، إتحاف المهرة (٣٠/٦)، تنقيح التحقيق (١٤٣٥/٢) التعليق المغني على الدارقطني (١٢٧/٢ - ١٢٨)، أضواء البيان (٤٥٩/٢) - (٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٨٣/٣)، والشافعي (شفاء العي بتخريج وتحقيق مسند الشافعي (٤١٤/١)، وفي الأم (٤٦/٢)، وأبو عبيد في الأموال ص ٣٨٤، وعبدالرزاق (٩٦/٤)، والبيهقي (٣٢٧/١)، وابن زنجويه في الأموال (٩٤١/٣ - ٩٤٢)، وذكره ابن حزم في المحلى (٢٣٤/٥ - ٢٣٥) وقال: «وأما حديث عمر فلا يصح؛ لأنه عن أبي عمرو بن حمّاس عن أبيه، وهما مجهولان» ا.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (١٨٠/٢).

أما زكاة الديون، وهل تمنع الديون الزكاة من المال أو لا^(١)؟ فليس في ذلك شيء عن النبي ﷺ؛ لأنه لم يرد عن رسول الله شيء في زكاة الدين، ولا هل هو مسقط للزكاة أو لا؟ والعلماء مختلفون فيه، فاختلفوا في زكاة الدين، فكان مالك بن أنس - رحمه الله - يرى على التاجر المدير^(٢) أن يزكي دينه، يزكي الحال منه على الموسرين بالعدد، والمؤجل يزكيه بالقيمة؛ لأنه يزكي الدين مع عروض التجارة. وإذا كان الدين على حال مليء موسر مقر وعليه بينة فمالك يقول: إن مثل هذا كمثل الشيء الذي في صندوقه؛ لأن القدرة على التحصيل حصول، فيزكيه بالعدد، وهذا مذهب الشافعي. وقال آخرون: لا يزكيه إلا إذا قبضه. في تشايع وأقوال معروفة.

وهل يُسقط الدين الزكاة أو لا^(٣)؟ لا نص فيه عن رسول الله ﷺ، والعلماء مختلفون فيه، وأقوالهم مع كثرتها متشابهة ترجع إلى ثلاثة مذاهب: قوم قالوا: إن الدين لا يسقط شيئاً من الزكاة، وقوم قالوا: يسقطها كلها. وقوم فرقوا بين الأموال الظاهرة والباطنة، قالوا: يُسقط الدين الزكاة في الأموال الباطنة. والأموال الباطنة: هي الذهب، والفضة، وعروض التجارة، فهذه يسقطها الدين. والأموال الظاهرة: هي المواشي، والثمار، والحبوب، والمعادن، قالوا: زكاة هذه لا يسقطها الدين؛ لأنها ظاهرة، والزكاة واجبة في عينها في أقوال معروفة.

ومن المسائل التي اختلفوا فيها: زكاة المعادن^(٤)، وقد راجب فيها،

(١) انظر: المبسوط (١٩٤/٢)، المحلى (١٠٣/٦)، المجموع (٢٠/٦)، المغني (٢٦٩/٤)، الموسوعة الفقهية (٢٣٨/٢٣).

(٢) قال في الأضواء (٤٥٧/٢): «فالمدير: هو الذي يبيع ويشترى دائماً، والمحتكر: هو الذي يشتري السلع ويتربص بها حتى يرتفع سعرها، وإن لم يرتفع سعرها لم يبعها ولو مكث سنين» أ. هـ.

(٣) انظر: المبسوط (١٩٧/٢)، المحلى (٩٩/٦، ١٠١)، المغني (٢٦٣/٤)، الموسوعة الفقهية (٢٤٥/٢٣)، أضواء البيان (٤٦٢/٢).

(٤) انظر: المحلى (١٠٨/٦)، المجموع (٧٥/٦)، القرطبي (٣٢٣/٣ - ٣٢٤)، المغني (٢٣٨/٤)، الموسوعة الفقهية (١٩٧/٣٨)، أضواء البيان (٤٦٦/٢).

فذهب مالك والشافعي أنه: لا يجب في زكاة المعادن إلا في معدن الذهب والفضة خاصة؛ لأن الذهب والفضة من الذين فيهما الزكاة، وجمهور العلماء منهم مالك والشافعي وأحمد على أن زكاة المعدن ربع العشر، وفي مذهب مالك والشافعي: أن المعدن إذا كان معدن ذهب أو فضة كل ما يخرج منه من ذهب وفضة أديت منه زكاته حالاً ولم يُنتظر به الحول، وهي ربع العشر، ولا زكاة عندهما في معدن إلا إذا كان ذهباً أو فضة. وكان الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) يقول: تجب الزكاة في جميع المعادن، سواء كانت من الذهب والفضة، أو من الحديد، والنحاس، والرصاص، أو الزجاج، والزرنيخ، وسائر المعادن، حتى المعادن السائلة كالقار، والنفط، فإنها تجب فيها الزكاة عنده، فزكاتها عنده ربع العشر.

أما الإمام أبو حنيفة (رحمه الله) فإن الواجب عنده من المعادن الخمس؛ لأنه يرى الخمس من الركاز، وقد جاء في ذلك حديث أنه ﷺ سئل عن الركاز؟ وأنه قال: «الذهب والفضة المخلوقان في الأرض يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١)، وهذا الحديث لا يصح.

(١) أصل الحديث (وهو قوله ﷺ: «في الركاز الخمس») متفق عليه، والزيادة المذكورة عند البيهقي في الكبرى (١٥٢/٤) وعقبه بقوله: «تفرد به عبدالله بن سعيد المقبري وهو ضعيف جداً جرحه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وجماعة من أئمة الحديث. وقال الشافعي: في رواية أبي عبدالرحمن الشافعي البغدادي عنه: قد روى أبو سلمة وسعيد وابن سيرين ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبي هريرة حديثه عن النبي ﷺ: «في الركاز الخمس» ولم يذكر أحد منهم شيئاً من الذي ذكر المقبري في حديثه، والذي روى ذلك شيخ ضعيف إنما رواه عبدالله بن سعيد المقبري، وعبدالله قد اتقى الناس حديثه فلا يُجعل خبر رجل قد اتقى الناس حديثه حجة» ١.هـ. وأخرجه أبو يعلى (٦٦٠٩) بنحوه. وذكره الهيثمي في المجمع (٧٨/٣) وقال: «فيه عبدالله بن سعيد بن أبي سعيد وهو ضعيف» ١.هـ. وذكره ابن عدي في الكامل (٨٣٣/٢) وقال: «هذا الحديث أخطأ إبراهيم بن راشد على الدولابي... والبلاء في هذا الحديث من إبراهيم بن راشد لا من الدولابي ولا من ابن حبان» ١.هـ. وذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (٩/٢) بلفظ أبي يعلى وقال: «قال الدارقطني: هذا وهم؛ لأن هذا ليس من حديث الأعمش ولا من حديث أبي صالح، إنما يرويه رجل مجهول عن آخر عن أبي هريرة» ١.هـ. وانظر: تلخيص الحبير (١٨٢/٢)، نصب الراية (٣٨٠/٢).

ولا تجب الزكاة في المعادن عند أبي حنيفة إلا فيما ينطبع منها كالذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وما جرى مجرى ذلك. ومن ذلك قول له وجه من النظر قالت به جماعات من العلماء: أن المعدن إذا كان في استخراجه كلفة ونفقات أن زكاته ربع العشر، وإذا كان يخرج بلا كلفة ولا مشقة أن زكاته الخمس.

وأجمع المسلمون على أن الركاز فيه الخمس^(١)، واشترط الشافعي أن يكون الركاز من ذهب أو فضة، وعامة العلماء على خلافه، والركاز عند غير أبي حنيفة: دفن جاهلي، وعند أبي حنيفة يشمل جميع المعادن. هذه أقوال العلماء ذكرناها مختصرة، وقد أوضحناها في كتابنا الذي أشرنا إليه.

(...) (٢) بهزمة محققة، وقراه ورش وحده عن نافع: ﴿إنما النسبي زيادة في الكفر﴾ [التوبة: آية ٣٧] بياء مشددة، وما زعمه بعضهم - وقال به ابن جرير - من أن قراءة ورش هذه عن نافع غلط^(٣). خلاف التحقيق، بل هي قراءة سبعية صحيحة لا كلام فيها، قرأ بها ورش عن نافع ﴿إنما النسبي زيادة في الكفر﴾ أبدلت الهزمة بياء، ثم أدغمت الياء في الياء كما يقرأ بعض القراء: ﴿النبيء﴾ بالهزمة وبعضهم يقرأ ﴿النبي﴾^(٤) بتشديد الياء^(٥).
وقرأ قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قرأه نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن

(١) انظر: المجموع (٧٥/٦)، القرطبي (٣٢٢/٣ - ٣٢٤)، المغني (٢٣١/٤ - ٢٣٨)، الموسوعة الفقهية (٩٨/٢٣)، أضواء البيان (٤٦٩/٢).

(٢) ذهب جزء من التسجيل في هذا الموضوع، ويمكن أن نستدرك بعض النقص فننقل القراءات الواردة في ﴿النسبيء﴾ عن كتاب «السبعة» لابن مجاهد ص ٣١٤، حيث يقول: «اتفقوا على همز ﴿النسبيء﴾ ومده وكسر سينه، إلا ما حدثني به محمد بن أحمد بن واصل، عن محمد بن سعدان، عن عبيد بن عقيل، عن شبيل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النسبيء زيادة﴾ في وزن (النسبع). وحدثني ابن أبي خيثمة، وإدريس، عن خلف، عن عبيد، عن شبيل، عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿إنما النسبيء﴾ مشددة الياء غير مهموزة. وقد زوي عن ابن كثير: ﴿النسبيء﴾ بفتح النون وسكون السين وضم الياء مخففة. والذي قرأت به على قبيل: ﴿النسبيء﴾ بالمد والهمز مثل أبي عمرو. والذي عليه الناس بمكة: ﴿النسبيء﴾ بمدودة^(٥). هـ.

(٣) تفسير ابن جرير (٢٤٤/١٤).

(٤) تقدمت عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

(٥) انظر: البحر المحيط (٣٩/٥)، الدر المصون (٤٦/٦).

عامر وشعبة عن عاصم: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفتح الياء وكسر الضاد، مضارع (ضَلَّ يَضِلُّ) مجرداً لازماً، وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بضم الياء وفتح الضاد مبنياً للمفعول^(١).

أما قراءة ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فليستا سبعيتين^(٢).

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءٌ وَعَمَلُهُمْ﴾ بإبدال الهمزة الثانية واواً. وقرأه غيرهم من السبعة: ﴿سُوءٌ أَعْمَلُهُمْ﴾ بتحقيق الهمزة الثانية^(٣). هذه هي القراءات السبعية في الآية.

وسبب نزول هذه الآية الكريمة هو ما أشرنا إليه بالأمس أن الكفار كانوا يتلاعبون في الأشهر الحرم^(٤)، وبعضهم يقول: في أشهر الحج، فيحرمون منها ما لم يحرمه الله، ويحلون ما لم يحلله الله^(٥). فبين (جلّ وعلا) في هذه الآية أن ذلك كفر على كفر، أنه كفر ازدادوا به كفراً على كفرهم الأول.

والعلماء مختلفون في أول من سنّ هذه السنة السيئة الخبيثة، وهي سنة النسيء. فكان بعض العلماء يقول: أول من أحدثه الملعون عمرو بن لحي بن قمعة بن إلياس بن مضر، وهو الخبيث الذي هو أول من جاء بالأصنام إلى جزيرة العرب، وهو أول من بخر البحائر فيها، وسبب السوائب، وغير معالم دين إبراهيم التي كانت في جزيرة العرب عليه لعائن الله^(٦).

وأكثر المؤرخين يقولون: إن أول من سنّ هذه السنة القبيحة قوم من بطن من بني كنانة يسمى بني فقيم، وهم من أولاد مالك بن كنانة، يزعم العرب أنهم كانوا متمسكين بدين إبراهيم، وكانوا يشرعون لهم ما شاؤوا،

(١) انظر: السبعة ص ٣١٤.

(٢) انظر: المحتسب (١/٢٨٨ - ٢٨٩).

(٣) انظر: الإنحاف (٢/٩١).

(٤) كما أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٥/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرج ذلك ابن جرير (٢٤٨/١٤) عن مجاهد.

(٦) انظر: القرطبي (٨/١٣٨).

ويتبعونهم فيما شاؤوا، يقال: إن أول من فعل ذلك منهم رجل يسمى نعيم بن ثعلبة^(١).

والذي قاله غير واحد من المؤرخين وأوضحه ابن إسحاق في سيرته أن أول من فعل هذا منهم رجل يُسمى القَلَمَس. والدليل على ذلك موجود في أشعارهم. واسم القَلَمَس هذا حذيفة بن عبيد بن فقيم، وبنو فقيم بطن من بني مالك بن كنانة. كان هذا الرجل الذي هو حذيفة المعروف بالقلمس يقول لهم: سأؤخر عنكم تحريم المحرم وأنسؤه إلى صفر، فذهبوا فقاتلوا في المحرم فإني حولت حرمة إلى صفر، فهم يتبعونه، ثم لما مات القلمس قام بهذا الأمر بعده ابنه العباد بن القلمس، فكان يحل لهم هذا التحليل وهذا التحريم، ثم لما مات العباد قام به بعده ابنه قَلْع بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه أمية بن قَلْع بن عباد، ثم لما مات قام به بعده ابنه عوف بن أمية، ثم لما مات قام به بعده ابنه جنادة بن عوف المعروف بأبي ثمامة، كنيته ككنية مسيلمة الكذاب، وهو الذي قام عليه الإسلام وهو بهذه السنة السيئة الخبيثة. كانوا إذا انتهت أيام حجهم وانقضت أيام منى ذهبوا إلى هذا الرجل الذي هو أبو ثمامة جنادة بن عوف بن أمية الكناني فيقول: أنا الذي لا يُعاب ولا يُجاب، ولا مرد لما أقول، أخرت عنكم تحريم المحرم إلى صفر^(٢). فيتبعونه، فجاء الإسلام بتغيير هذا ورد كل شيء إلى محله.

وقد ذكرنا بالأمس أن العلماء اختلفوا في الأشهر الحرم هل حرمتها باقية إلى الآن؟ ويكون من نساء النسيء الآن ازداد كفراً وفعل كفراً. أو هي منسوخة ولا تحريم في الأشهر الحرم، وأن قتال العدو يجوز في جميع الأشهر^(٣)؟ وذكرنا بالأمس أن المشهور عند العلماء الذي عليه الأكثر أنه قد نُسخ تحريم الأشهر الحرم، واستدلوا على ذلك بظواهر

(١) السابق.

(٢) أخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (٢٤٥/١٤). وذكره ابن هشام في السيرة ص ٥٦.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من سورة التوبة.

آيات ليست صريحة في ذلك، ومن أصرح ما استدلوا به هو ما ذكرنا من أنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً في غزوة الطائف بعضاً من ذي القعدة^(١). وهذا ثابت في الصحيحين ثبوتاً لا مطعن فيه. قالوا: لم تنسخ لما حاصر النبي ﷺ ثقيفاً في ذي القعدة وهو شهر حرام. وقد ذكرنا بالأمس أن الذي كان يظهر لنا وننصره أن تحريم الأشهر الحرم قد نُسخ، وأن الذي تحققناه بعد ذلك وصرنا نجزم به أنها باقية التحريم إلى الآن، ولم يُنسخ تحريمها، كما كان يقسم عليه عطاء بن أبي رباح (رحمه الله)، كان يحلف أن حرمتها باقية^(٢). ومن أصرح الأدلة في ذلك هو الحديث الذي أشرنا إليه أمس؛ لأن النبي ﷺ خطب به يوم النحر في حجة الوداع عام عشر، ولم يعش بعد ذلك إلا نحو ثمانين يوماً، وقد صرح فيه بأن ذلك الشهر حرام، وذلك اليوم حرام، وذلك البلد حرام^(٣)، ولم يأت بعد ذلك شيء ينسخ هذا التحريم الثابت عنه (صلوات الله وسلامه عليه).

وهذه الآية الكريمة قبل أن نشرع في تفسيرها نشير إلى أن فيها حكماً يجب على كل مسلم أن يعتبر به وينظره؛ لأن هؤلاء القوم كفار، كانوا يسجدون للأصنام، فلما أحلّ لهم رجل شيئاً حرّمه الله، وحرّم عليهم شيئاً أحلّه الله، وهم يعلمون أن الله حرّم تلك الأشهر الحرم، ولا يشكون في ذلك، وأن هذا الرجل الكناني أحلّ لهم ما حرّمه الله، وحرّم عليهم ما أحلّه الله، فاتبعوا تحريم هذا الإنسان، فصرح الله بأن هذا كفر جديد ازدادوه إلى كفرهم الأول. فهذه الآية الكريمة من سورة براءة من أصرح النصوص القرآنية في أن كل من اتبع نظاماً غير نظام الله، وتشريعاً غير تشريع الله، وقانوناً غير قانون الله، أنه كافر بالله، إن كان يزعم الإيمان فقد كفر، وإن كان كافراً فقد ازداد كافراً جديداً إلى كفره الأول. والآيات الدالة على هذا

(١) السابق.

(٢) أخرجه أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ ص(٢٠٧)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٥٣٥/١)، وابن جرير (٣١٤/٤).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥) من هذه السورة.

المعنى لا تكاد تحصيها في هذا المصحف الكريم، الذي هو أعظم كتاب أنزله الله من السماء إلى الأرض، وهو آخر كتاب أنزله الله على أكرم نبي، وآخر نبي جمع فيه له علوم الأولين والآخرين. وسنذكر لكم طرفاً من ذلك كما ذكرناه قبل هذا مراراً^(١) نبين به أن الحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، وأن كل من اتبع نظاماً وتشريعاً وقانوناً - ولو سماه ما سماه - غير ما أنزله الله في وحيه على نبيه ﷺ أنه كافر بذلك، فإن كان كافراً قبله ازداد كفرأً جديداً إلى كفره الأول، وإن كان يزعم الإيمان فقد جاء بما يكفر به. ومن أصرح الأدلة في هذا: المناظرة العظيمة المشهورة التي وقعت بين الكفار والمسلمين في حكم من أحكام الحلال والحرام، فالمسلمون يقولون: إن هذا الأمر حرام. ويستدلون بنص من نصوص الوحي. وحزب الشيطان وتلامذته وأتباعه يقولون: إن هذا الحكم حلال. ويستدلون على ذلك بفلسفة من وحي الشيطان. ويأتي كل منهم بدليله، فلما تحاجوا وتخاصموا وحصل الجدل بينهم في ذلك أفتى الله تعالى بنفسه فتوى سماوية تُتلى علينا قرآناً في سورة الأنعام، وإيضاح هذا: أن الشيطان - لعنه الله - جاء كفار قريش وقال لهم: سلوا محمداً ﷺ عن الشاة تصبح ميتة، من هو الذي قتلها؟ فأجابهم: الله قتلها. فقالوا: إذن ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة بسكين من ذهب تقولون: هو حرام، فأنتم إذن أحسن من الله!! فأنزل الله في ذلك بإجماع العلماء في سورة الأنعام هذه الفتوى السماوية بعد أن بين الله خصام المتخاصمين فيها فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكَّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ الْمَيْتَةُ. وَإِنْ زَعَمَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَنهَا ذَبِيحَةُ اللَّهِ، وَأَنْ مَا قَتَلَهُ اللَّهُ أَحَلَّ مِمَّا قَتَلَهُ النَّاسُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِئَّ سَوْءٌ﴾ الضمير في قوله: ﴿إِنَّهُمْ﴾ راجع إلى المصدر الكامن في جوف الفعل الصناعي في قوله: ﴿تَأْكُلُوا﴾ أي: وإنه أي: الأكل من الميتة ﴿لَفِئَّ سَوْءٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله، وإن زعم حزب الشيطان أنها ذبيحة الله، وأن ما قتلته الله أحلّ وأطهر مما قتلته الناس. ثم قال: ﴿وَإِنَّ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

الشَّيْطَانِ لِيُوْحِنَ إِلَيْكَ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْدِلُوْكُمْ ﴿١٢١﴾ ﴿لِيُوْحِنَ إِلَيْكَ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ وحي الشيطان ﴿لِيُجْدِلُوْكُمْ﴾ بالوحي الشيطاني، وهو قولهم: ما ذبحتموه حلال، وما قتله الله حرام، فأنتم إذا أحسن من الله!! ثم أفتى الله الفتوى السماوية التي تتردد في آذان الخلق مساءً وصباحاً بقوله: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: آية ١٢١] وإن أطعتم أتباع الشيطان في تحليل ما حرّمه الله ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ بالله شركاً أكبر، كما قال في هؤلاء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا الشرك شرك أكبر مخرج عن الملة؛ لأنه شرك طاعة، وشرك الطاعة شرك في الحكم، والشرك في الحكم كالشرك في العبادة لا فرق بينهما البتة؛ لأن الله هو الملك الجبار العظيم الأعظم لا يرضى أن يكون معه شريك في عبادته ولا أن يكون معه شريك في حكمه سبحانه (جلّ وعلا) أن يكون له شريك في عبادته أو شريك في حكمه، وقد بين هذين الأمرين في سورة واحدة من كتابه وهي سورة الكهف، فقال في الإشراف به في عبادته: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ١١٠] وقال في الإشراف به في حكمه: ﴿لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرَ بِهِهٖ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: آية ٢٦] فمن اتخذ تشريعاً غير تشريع الله، واتبع نظاماً غير نظام الله، وقانوناً غير ما شرعه الله - سواء سماه نظاماً أو دستوراً، أو سماه ما سماه - هو كافر بالله؛ لأنه يقدم ما شرعه الشيطان على السنة أوليائه مما جمع من زبالات أذهان الكفرة على نور السماء الذي أنزله الله (جلّ وعلا) على رسله ليُستضاء به في أرضه، وتنشر به عدالته وطمأنينته ورخاؤه في الأرض.

وهذا مما لا نزاع فيه، وهذا الشرك الذي هو شرك اتباع، اتباع قانون ونظام وتشريع هو الذي يوبخ الله مرتكبه يوم القيامة على رؤوس الأشهاد في سورة يس في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَأْخِذْ بِكُم بِعَهْدٍ إِذْ كُنْتُمْ بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ...﴾ [يس: آية ٦٠] ما عبدوا الشيطان بأن سجدوا للشيطان، ولا ركعوا للشيطان، ولا صاموا له، ولا صلوا، وإنما عبادتهم للشيطان هي اتباع ما سنّ لهم من النظم والقوانين من الكفر بالله ومعاصي الله. ثم قال: ﴿وَأَنْ

عَبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ﴿١١٢﴾ [يس: الآيتان ٦١، ٦٢] أي: خلائق كثيرة لا تحصى.

ثم وبخ عقولهم فقال: ﴿أَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: آية ٦٢] ثم ذكر المصير النهائي للذي كان يتبع نظام إبليس، وقانون الشيطان في دار الدنيا ذكر مصيره النهائي في قوله: ﴿هَلِدُوهُمْ جَهَنَّمَ أَلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ أَضَلَّوْهَا أَلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١٣﴾ [الآيات [يس: الآيتان ٦٣، ٦٤]. وهذا هو معنى قول إبراهيم: ﴿يَتَأْتِيَ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: آية ٤٤] أي: لا تتبع ما شرع لك الشيطان وسنه من الكفر بالله، ومعاصي الله، وهو معنى قوله: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْتَنَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا﴾ [النساء: آية ١١٧] أي: ما يدعون إلا الشيطان، وهو دعاء عبادة باتباع نظامه وتشريع. وهو أصح الوجهين في قوله (جلّ وعلا) في الملائكة: ﴿أَهْوَلَاءَ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: آية ٤٠] لأن الملائكة قالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ [سبأ: آية ٤١] أي: يتبعون الشياطين ويعبدونهم باقتفاء ما يسنون لهم من القوانين والنظم، وهذا أمر لا نزاع فيه، فكل من يتبع نظام أحد وتشريع أحد وقانونه فهو متخذه رباً؛ ولذا جاء في الحديث المشهور عن عدي بن حاتم (رضي الله عنه) أنه لما جاء النبي ﷺ وكان في عنق عدي صليب فقال له النبي: «يا عدي ألق هذا الوثن من عنقك» وصادفه يقرأ سورة براءة هذه، سمعه يقول: ﴿أَتَحْكُدُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣١] وكان عدي نصرانياً في الجاهلية فقال: ما كنا نتخذهم أرباباً. فأجابه النبي بما معناه: ألم يحلوا لكم ما حرم الله ويحرموا عليكم ما أحل الله فتبعوهم؟ قال: بلى. قال: تلك عبادتهم، وبذلك اتخذتموهم أرباباً^(١).

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن كل من يتبع نظاماً غير نظام الله وإن سماه قانوناً أو دستوراً أو سماه ما سماه فهو كافر بالله، ولو كان كافراً قبل ذلك وارتكب شيئاً يعلم أن الله حرمه فحلل ما يعلم أن الله حرمه، أو حرم

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٧) من سورة الأنعام.

ما يعلم أن الله حلّه، فإنه ولو كان كافراً قبل هذا يزداد بذلك كفراً جديداً إلى كفره الأول، كما قال هنا: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧] وهذا معروف لا نزاع فيه بين العلماء، فالحلال هو ما أحله الله، والحرام هو ما حرّمه الله، والدين هو ما شرعه الله، ولا تشريع إلا لله؛ لأن التشريع والأمر والنهي لا يكون إلا للسلطة التي ليس فوقها شيء، والله (جلّ وعلا) هو خالق هذا الخلق، وخالق النعم التي أنعم بها عليه، فهو الملك فلا يرضى أن يأمر فيه غيره وينهى، بل الأمر له وحده، والنهي له وحده، والتشريع له وحده، فكل مشروع دونه ضال، وكل متبع تشريعاً غير تشريعه فهو كافر به - جلّ وعلا - وقد بين الله (جلّ وعلا) في آيات كثيرة هذا المعنى، فكان قوم في زمن النبي ﷺ أرادوا أن يتحاكموا إلى غير شرع الله، وأدعوا أنهم مؤمنون فعجّب الله نبيه من كذب دعواهم، وأن دعواهم الإيمان لا تصحّ بوجه من الوجه مع إرادتهم التحاكم إلى غير الله، وذلك في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِمْ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: آية ٦٠] فعجبه من دعواهم الإيمان وهم يريدون التحاكم إلى غير ما شرعه الله، وهذا لا يخفى، وأقسم الله (جلّ وعلا) في آية من كتابه أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يكون متبعاً في قرارة نفسه لما جاء به سيّد الرسل محمد (صلوات الله وسلامه عليه) وذلك بقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: آية ٦٥] هذا قسم من الله أقسم به ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فما ظنكم بالذين يحكمون فيما شجر بينهم قانون نابليون وما جرى بعده من زبالات أذهان الكفرة؟ ألا ترون أن الله أقسم في هذه الآية من سورة النساء أنهم لا يؤمنون؟ ومن أصدق من الله قبلاً ومن أصدق من الله حديثاً؟ فعلى كل مسلم أن يعلم أن الحاكم هو الله، وأن الحكم لله وحده، وأنه لا يحلّ إلا الله، ولا يحرم إلا الله، فلا حلال إلا ما أحله الله، ولا حرام إلا ما حرّمه الله على لسان رسوله ﷺ، ولا دين إلا

ما شرعه الله. فما عمّت به البلوى من انصراف جلّ من في المعمورة عن نور السماء الذي أنزله الله على سيّد خلقه وأعظم رسله، موضحاً له في أعظم كتاب أنزله من سمائه إلى أرضه، منصرفين عن هذا مع وضوح أدلته وقيام براهينه وصيانيته لمقومات الناس؛ لأن القرآن العظيم والستة النبوية الميمنة له جاء فيهما غاية الحفاظ على جميع مقومات الإنسان في دار الدنيا والآخرة، ولا سيّما الجواهر الستة التي يدور عليها نظام العالم في الدنيا ونظام العدالة والجور فيه، وهذه الأمور الستة لا يوجد شيء أشدّ محافظة عليها مما جاء به سيد الخلق محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، وتعني بهذه الستة التي أشرنا إليها: المحافظة على الدين السماوي الذي هو الصلة بين السماء والأرض وبين الله وخلقه، ثم المحافظة على الأنفس من القتل والإزهاق، ثم المحافظة على الأنساب من الضياع والاختلاط وتقدير الفرش، ثم المحافظة على العقول من الضياع؛ لأن العقول إذا ضاعت صار المجتمع حيوانات يضرب بعضه بعضاً، ثم المحافظة على الأموال، ثم المحافظة على الأعراض. فدين الإسلام جاء بأعظم حياة وصيانة للدين، وحياة وصيانة للنفس، وحياة وصيانة للعقل، وحياة وصيانة للنسب، وحياة وصيانة للمال، وحياة وصيانة للعرض، وستأتي هذه الأشياء في هذه الدروس كلّ في محله، وقد قدمنا ما جاء منها.

فهذا دين الإسلام الذي بيّن الله فيه كل شيء، وحافظ فيه على جميع المقومات، وأعطى فيه الأجسام حقوقها، والأرواح حقوقها، وأرشد الإنسان إلى عمل مزدوج يقوم به الإنسان معاوناً جسمه روحه، وروحه جسمه؛ لأن من أخلّ بناحية الجسم أهمل، ومن أخلّ بناحية الروح فهو أضيع وأضيق. فعلينا جميعاً أن نعلم أنه لا بدّ من اتباع شرع الله ودين الله، وأن من طلب تشريعاً وتحليلاً وتحريماً في غير ما شرعه الله فهو ليس على دين الإسلام، أحرى أن يكون من المؤمنين الذين يقولون: إن الله ينصرهم وأنه معهم وهم أعداؤه، وقد بيّن الله في القرآن أن الذي له التحريم والتحليل، والأمر والنهي لا يكون إلا له صفات يست كصفات خلقه، بل صفاته مميزة عظيمة لاثقة به دالة على أنه هو الذي يأمر وينهى ويحلل ويحرّم، كقوله تعالى:

﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ وكأنه قال: أتريدون أن تعرفوا صفات من يكون له الحكم في الأشياء ولا يصدّر في حكم إلا عنه ما هي؟ ثم بينها في قوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: آية ١٠] ثم بين صفات من له الحكم ﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ﴿١١﴾ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِيَسْطَ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: الآيات ١٠ - ١٢] هذه صفات من له الحكم، أما الكفرة الفجرة الخنازير أبناء الكلاب فليس لهم أن يحكموا في بلاد الله، ولا في عباد الله، ويحرموا ما شاءوا ويحللوا ما شاءوا، فمتبعهم هو أعمى الناس بصيرة وأضلهم سبيلاً.

خفافيش أعمها النهار بظوئه فوافقها قطع من الليل مظلم^(١)
 والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تُوْمَتُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: آية ١٢] الذي له الحكم هو العلي الكبير الذي علّوه وعظّمته فوق كل شيء، وهو أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء. ويقول (جلّ وعلا): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: آية ٨٨] فلا يكون الحكم إلا لمن لا يهلك، ولمن كل شيء هالك إلا وجهه، هذه صفات من له الحكم، ويقول (جلّ وعلا): ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: الآية ٧٠] ثم بين صفات من له الحكم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْتَلَّ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿٧١﴾ إلى آخر الآيات [القصص: آية ٧١]. فالحكم لا يكون إلا للعظيم الأعظم الذي هو الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الفاعل ما يشاء في كل شيء، هذا الذي يتبع تشريعه ويحل ما أحل، ويحرم ما حرم، أما القوانين والنظم الملتقطة من زبالات أذهان الكفرة الفجرة فلا يتبعها ويعتقدها ويحكمها في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

أموال المجتمع وعقوله وأنسابه وأديانه وأعراضه إلا من أعمى الله بصائرهم،
ومن أعمى الله بصيرته فلا حيلة له ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾
[النور: آية ٤٠] ﴿أَفَنْ يَبْلُغُ آتَمًا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى...﴾
[الرعد: آية ١٩] لا ليس كمثلها.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: آية ٣٧]
[٣٧] اختلف العلماء في تحقيق كلمة (النسيء) هنا^(١) فقال بعضهم: هو من
(نَسَأَ) الثلاثية وهو (فَعِيلٌ) بمعنى مفعول، فالعرب تقول: نَسَأَهُ يَنْسِئُهُ نَسْأً،
إذا أخره. والعرب تأتي بـ (الفعل) مكان (المفعول) كما يقولون: قَتَلَ مَكَانَ
مَقْتُولٍ، وَجَرِيحَ مَكَانَ مَجْرُوحٍ، وَنَسِئَ مَكَانَ مَنْسُوءٍ، أي: مؤخر. فعلى
هذا القول فالنسيء (فَعِيلٌ) بمعنى (مفعول) وكقتيل بمعنى مقتول، وجريح
بمعنى مجروح. وعلى هذا فهو من (نَسَأَ) الثلاثية.

والقول الثاني: أن النسيء اسم مصدر (أنسأ) الرباعية على وزن (أفعل)
لأن العرب تقول: أنسأ الأمر يُنْسِئُهُ إنسَاءً ونسِئَةً. فالإنسَاء مصدر قياسي،
والنسيء مصدر (أَنَسَأَ) مصدراً سماعياً، كما جاء النذير مصدراً لأنذر،
والنكير مصدراً لأنكر، والنسيء مصدراً لأنسأ، بمعنى: آخر.

فعلى أن النسيء اسم مصدر بمعنى الإنسَاء فلا إشكال؛ لأن الإنسَاء
فعل الفاعل، وعلى هذا فلا إشكال في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾ أي: لأن تأخير
الشهر الحرام وإنسائه من نقله من المحرم وتأخيره منه إلى صفر. هذا
التأخير والإنسَاء زيادة في الكفر؛ لأنه أحل ما حرم الله وهو المحرم، وحرم
ما أحله الله وهو صفر.

أما على القول بأن (النسيء) (فَعِيلٌ) بمعنى (مفعول) وأنه من (نَسَأَ)
الثلاثية، وأن النسيء بمعنى الزمان المنسوء، فيكون في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾
إشكال؛ لأن نفس الشهر المنسوء المؤخر ليس هو عين الزيادة؛ ولذا لا بد
في هذا المعنى من تقدير مضاف، أي: إنما نَسِئُ النسيء زيادة في الكفر، أو

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٣/١٤)، القرطبي (١٣٦/٨)، الدر المصون (٤٦/٦).

إنما النسيء ذو زيادة، أي صاحب زيادة في الكفر حاصلة فيه. فاتضح من هذا أنه على أن النسيء اسم مصدر من (أَنَسَأَ) فلا تقدير في قوله: ﴿زِيَادَةٌ﴾. وعلى أنه (فعليل) بمعنى (مفعول) من (نَسَأَ) الثلاثية فلا بد من تقدير مضاف إما قبل الزيادة أو قبل النسيء، فتقول: نَسَأُ المنسوء زيادة، أي: تأخير الشهر زيادة في الكفر. أو تقول: المنسوء ذو زيادة، أي: صاحب زيادة في الكفر لوقوعها بسببه. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لأنهم كانوا كفاراً، فلما أحلوا محرماً وهم يعلمون أن الله حرّمه، وحرّموا صفاً وهم يعلمون أن الله ما حرّمه، صاروا بهذا التشريع مرتكبين كفراً جديداً كما بينا، ازدادوا بهذا الكفر كفراً جديداً إلى كفرهم الأول.

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ معناه: يضلهم الشيطان كما يأتي في قوله: ﴿زَيْنٌ لَهُمْ سَوْءٌ أَعْمَلِيهِمْ﴾. ﴿يُجِلُّونَهُ عَامًا وَيَكْفُرُونَ عَمَّا﴾ قد أشرنا بالأمس أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة والحديث الذي جاء في مضمونها أن الزمان قد استدار كهيئته.. الحديث^(١). غلط فيه خلق من كبار المفسرين، ومن تكلموا على الحديث، وأن الصورة الحقيقية التي قالت بها جماعة من السلف^(٢) - والقرآن يشهد لصحة قولهم - أنها التي كان يعملها الكنانيون القلّس ومن بعده، وكان شاعرهم يفتخر بذلك ويقول شاعرهم وهو عمير بن قيس المعروف بـ (جدل الطعان)^(٣):

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب: ما جاء في سبع أرضين...، رقم (٣١٩٧) (٢٩٣/٦). وانظر الأحاديث: (٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٤٤٠٦، ٤٦٦٢، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧). وأخرجه مسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب: تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، رقم (١٦٧٩) (١٣٠٥/٣). وهو جزء من حديث خطبة حجة الوداع.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٥/١٤)، القرطبي (١٣٧/٨)، ابن كثير (٣٥٤/٢).

(٣) الأبيات ذكرها ابن هشام ص ٥٦، والبيت الثالث عند الشيخ جعله ابن هشام ثانياً، ولفظه عنده:

فأي الناس فاتونا بوتر وأي الناس لم نعلك لجاما
وقد مضى البيت الثاني منها عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

لقد علمت مَعَدُّ أن قومي كرامُ الناس أن لهم كرامًا
 ألسنا الناسئين على مَعَدُّ شهورَ الحلِّ نجعلها حرامًا
 وأيُّ الناسٍ لم يدرك بوثرٍ وأيُّ الناسٍ لم يعلك لحامًا

أنهم كانوا يأتون جنادة بن عوف إذا صدروا من منى، فيقوم ويقول:
 أنا الذي لا أجد ولا أعاب، ولا مردة لما أقول هذا العام قد أخرجت عنكم
 حرمة المحرم إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفرًا ويأتي في
 العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أجد ولا أعاب، ولا مردة لما
 أقول، قد حرّمت هذا العام محرّمًا وأبحت صفرًا. كما هي العادة، فيحلّ
 لهم المحرّم عامًا ويحرّم مكانه صفرًا، ويحرّم المحرّم عامًا ويترك الأشهر
 على حالها^(١). وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ وموافق
 لقوله: ﴿يُؤَاظَمُونَ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] أما الصور الأخرى فلا
 تتفق مع الآية.

أما الذين زعموا أنه يقول لهم في بعض السنين: حللت لكم المحرم
 وصفر معاً فهما صفران، لا محرم في هذه السنة، وإنما فيها صفران. فيحل
 لهم المحرم ويترك صفرًا على حلاله الأصلي، وفي السنة القابلة يقول: هما
 محرمان، المحرم الذي كان حرامًا، وصفر بدل المحرم الذي حرّمناه في
 السنة القابلة. فهذا وإن قال به جماعة كبيرة من العلماء^(٢) فهو لا يصح؛
 لأنهم على هذا القول في إحدى السنتين ما حرّموا إلا ثلاثة أشهر، والأشهر
 الحرم أربعة، وفي السنة الثانية حرّموا خمسة أشهر، فلم يواظبوا ما حرّم الله
 لا في السنة الأولى ولا في السنة الثانية. وكذلك قول من قال: إنهم كانوا
 يسمون صفرًا محرّمًا، ويسمون ما بعد صفر صفرًا، وكل شهر يسمونه باسم
 ما بعده، ويحججون في كل شهر عامين، وأن حجة أبي بكر عام تسع،
 وافقت ذا القعدة، وأن أبا بكر حجّ بالناس عام ذي القعدة، وإن النبي ﷺ
 حجّ بالناس حجة موافقة ذا الحجة، وأن هذا معنى استدارة الزمان كهيئته

(١) تقدم عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: ابن جرير (٢٤٩/١٤)، القرطبي (١٣٩/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢).

يوم خلق السماوات والأرض^(١). فهذا لا شك في أنه فاسدٌ باطل؛ لأن الله صرح في كتابه بقوله في حجة أبي بكر بالناس عام تسع: ﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: آية ٣] وقد أذن ببراءة علي (رضي الله عنه) ومن معه يوم الحج الأكبر، ومعلوم أن الله لا ينزل في كتابه يوم الحج الأكبر يريد أنه من ذي القعدة! فهذا من الباطل الذي لا شك فيه، فهذا كله لا يصح، فالتحقيق أن هذه الصورة التي نزل بها القرآن التي كان يفعل لهم الكنانيون أنهم سنة يحرمون صفرًا ويحلون المحرم مكانه، وفي سنة يُقون الأمر على حاله فيحلون المحرم سنة ويحرمونه سنة ويواطئوا بذلك - يوافقوا - عدة ما حرم الله، وهي أربعة أشهر من السنة. وهذا معنى قوله: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾.

العام: السنة، والألف التي في مكان عينه منقلبة عن واو، فيكسر على (أعوام) فعينه واو.

﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: آية ٣٧] المواطأة: الموافقة، أي ليوافقوا عدة ما حرم الله؛ لأن الله حرم أربعة أشهر من السنة فهم يحرمون قدر ما حرم الله إلا أنهم يعصون الله بتغييره عن محله، فالعدة هي العدة ولكن عين الزمان ليست هي عين الزمان، فهم يصيبون في العدة ويخطئون في تعيين المعدود، ومن هنا كانوا عصاة بذلك. هذا هو الصحيح في معنى الآية الذي لا إشكال فيه، والصور الأخر فيها نظر، ليست بصواب، وإن قال بها من قال بها من العلماء. هذا معنى قوله: ﴿لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾.

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ زين لهم الشيطان سوء أعمالهم الخبيثة. وهذا يدل على أن من أسوأ الأعمال وأخبثها تحليل ما حرمه الله وتحريم ما أحل الله ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٣٧] هذه الآية وأمثالها

(١) انظر: ابن جرير (٢٤٨/١٤)، القرطبي (١٣٧/٨)، ابن كثير (٣٥٦/٢ - ٣٥٧).

بالقرآن فيها سؤال معروف، وإشكال مشهور، وهو أن يقول طالب العلم: هذه الآية وأمثالها صرّح الله فيها بأنه لا يهدي الكافرين، مع أننا نشاهد الله يهدي كثيراً من الكافرين، فالله يهدي من يشاء من الكفار، ويضل من يشاء، فما وجه تعميمه في قوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا وجه السؤال.

وللعلماء عنه جوابان معروفان:

أحدهما: أن هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن من العام المخصوص، أي: لا يهدي القوم الكافرين الذين سبق في علمه عدم هدايتهم وشقاؤهم شقاءً أزلياً، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: الآيات ٩٦، ٩٧] وقوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾ [يس: آية ٧] ونحو ذلك من الآيات. وعلى أن هذه الآية الكريمة من العام المخصوص بآياتٍ آخر فلا إشكال.

وقال بعض العلماء: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ما دام الله (جلّ وعلا) مريداً منهم أن يكونوا كافرين، فإذا شاء الله أن يهديهم هداهم. وقال بعض العلماء: لا يهديهم ما داموا مصريين على كفرهم^(١).

/ نقول^(٢): إن من عادتنا التي نجري عليها في هذه الدروس أن نتعرض لما نظن أنه يسأل عنه طلبية العلم، وقد مرّ في الآية الماضية أمس، سؤال معروف يتساءل عنه طلبية أهل العلم، ونسينا أن نتكلم عليه، فأحببنا أن نستدركه الآن تمييزاً للفائدة، ونعني بذلك: أننا ذكرنا في اليومين الماضيين، أن العلماء اختلفوا في نسخ الأربعة الحرم، وأن قوماً قالوا:

١/٧

(١) انقطاع في التسجيل، ويمكن مراجعة جواب الشيخ (رحمه الله) على هذا الإشكال عند تفسير الآية (١٤٥) من سورة الأنعام. وما بين المعقوفين [] زيادة يتم بها الكلام.

(٢) تنبيه: في تفسير الشيخ (رحمه الله) لهذه الآية بقي الجواب عن إشكال معروف وهو توجيه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام. وقد استدرك الشيخ (رحمه الله) هذه المسألة والجواب عنها في بداية الكلام على الآية التي بعدها، فألحقته في موضعه هنا، وجعلت الآيات (٣٨، ٣٩)، بعد جواب الشيخ عن هذا الإشكال.

نُسخت، فجاز للمسلمين الجهاد في كل السنة، وأن جماعة من العلماء قالوا: إن تحريمها باق لم يُنسخ، وذكرنا أننا كنا أولاً نعتقد صحة نسخها، وأنا عرفنا بعد ذلك أن الصحيح عدم نسخها، وذكرنا أن من أصرح الأدلة على نسخها ما ثبت أن النبي ﷺ حاصر ثقيفاً بالطائف في بعض ذي القعدة وهو شهر حرام، ولو لم يكن القتال فيها حلالاً لما حاصروهم فيها، فعلمنا من هنا أن طالب العلم يقول: إذا قررتم أن التحقيق عدم نسخها فما وجه حصار النبي ﷺ لثقيف في الشهر الحرام؟!

هذا هو السؤال الذي كنا نود أن نتعرض للإجابة عنه، وهذا السؤال أجاب عنه جماعة من العلماء بما ملخصه في نقطتين وهما^(١):

أن حصار النبي ﷺ لثقيف كان ابتداءه في شهر حلال، والدوام قد يغتفر فيه ما لا يغتفر في الابتداء؛ لأن من المسائل ما يحرم فيها الابتداء ولا يحرم فيها الدوام، ألا ترون أن الرجل المحرم لا يجوز له أن يبتدىء تزويجاً، ولو تزوج قبل إحرامه ثم أحرم لم ينفسخ تزويجه بهذا الإحرام الطارئ على تزويجه، وكذلك الإحرام يمنع ابتداء الطيب فيه، فلو كان متطيباً قبله، لا يمنع الدوام على الطيب الأول الإحرام عند جماهير العلماء، فالشاهد أن الدوام في بعض الصور قد يُغتفر فيه ما لا يُغتفر في الابتداء، وفي هذه الصورة يتأكد بشيء آخر وهو ما قدمنا في العام الماضي في كلامنا على غزوة حنين^(٢) في تفسير آية: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كُفِّرُكُمْ﴾ [التوبة: آية ٢٥] أن النبي ﷺ لما فتح مكة في رمضان عام ثمان، ولم يكن يريد أن يغزو هوازن، سمع أن مالك بن عوف النصري، سيد هوازن جمع من أطاعه من هوازن وفيهم ثقيف؛ لأن ثقيفاً من هوازن؛ لأن ثقيفاً بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور، وأنهم تجمعوا له يريدون حربه، فهم الذين بدؤوا بإرادة الحرب، ولم يكن النبي ﷺ قاصداً حربهم في ذلك الوقت قبل ذلك، فلما هزمهم النبي ﷺ يوم حنين واستفاء أموالهم، رجع

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأنعام.

فَلَهُمْ (وَالْقُلُوبُ بَقِيَّةُ الْمُنْهَزِمِينَ) فَتَحَصَّنُوا بِحِصْنِ الطَّائِفِ. فَحِصَارُهُ ﷺ لِلطَّائِفِ لِيَسْتَنْزِلَ الَّذِينَ كَانُوا يُقَاتِلُونَهُ فِي غَزْوَةِ حَنِينٍ مِنْ تَمَامِ غَزْوَةِ حَنِينٍ، وَكَانُوا هُمُ الْبَادُونَ بِالْقِتَالِ، وَالْأَشْهُرُ الْحُرْمِ إِذَا بُدِيَ الْمُسْلِمُونَ فِيهَا بِالْقِتَالِ قَاتَلُوا، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿الْشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: آية ١٩٤] وكما قدمناه في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْبَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: آية ١٩١] فهذا هو الذي أجاب به العلماء عن حصار النبي ﷺ لثقيف على القول ببقاء حرمة الأشهر الحرم.

يقول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ [التوبة: الآيتان ٣٨، ٣٩].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: آية ٣٨].

أجمع كافة العلماء، أن هذه الآية الكريمة من سورة براءة نزلت لما استنفر النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم^(١)، وفي غزوة تبوك، كان ذلك في ساعة العسرة، كما يأتي منصوصاً في هذه السورة الكريمة، وكان وقت شدة الحر، والأرض في غاية الجذب، وكان في المدينة النخيل حين أزهرت ثمرته، وطابت الظلال والمياه الباردة، فركنوا إلى الدعة، وإلى نعيم الدنيا في الظل والثمار والمياه والظلال الباردة، فركنوا إلى هذا؛ لأن العدو قوي وكثير العدد جداً، والشقة بعيدة، والزمان حار؛ ولذا من تكاسلوا منهم وبخهم الله هذا التوبيخ العظيم في هذه الآية الكريمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

(١) انظر: ابن جرير (٢٥١/١٤)، القرطبي (١٤٠/٨)، ابن كثير (٣٥٧/٢).

ءَامِنُوا مَا لَكُمْ ﴿٣٨﴾ أي شيء ثبت لكم يقتضي نكولكم عن الغزو واختياركم للذة والراحة على مرضاة الله وإعلاء كلمة الله؟ ﴿مَا لَكُمْ﴾ أي شيء ثبت لكم. ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ أي: إذا قال لكم رسول الله ﷺ وأصحابه: ﴿أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ انفروا معناه: تهيؤوا خارجين متحركين لحرب الروم. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأن القتال والجهاد في سبيل الله هو أعظم أنواع سبيل الله (جلّ وعلا).

﴿أَنفَأَقَلُّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تثاقلتم) والمقرر في علم العربية: أن كل ماض على وزن (تفاعل) أو على وزن (تفعل) إذا تقاربت حروفه الأولى، يكثر في اللغة العربية إدغام بعضها في بعض واجتلاب همزة الوصل لإمكان النطق بالساكن^(١)، وهذا يكثر في القرآن في (تفاعل) و(تفعل)، كقوله هنا في (تفاعل): ﴿أَنفَأَقَلُّتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أصله: (تثاقلتم)، ﴿فَأَذَرْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: آية ٧٢] أصله: (تدارأتم)، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذَارَكُوا﴾ [الأعراف: آية ٢٨] أصله: (تداركوا)، ﴿بَلِ أَذْرَكَ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: آية ٦٦] أصله: (تدارك علمهم). وكذلك هو في (فعل) كقوله (جلّ وعلا): ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾ [يونس: آية ٢٤] أصله: (تزينت) من (تفعل)، ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا﴾ [النمل: آية ٤٧] أصله: (تطينرنا). وهذا أسلوب عربي معروف، ومن شواهد العربية المشهورة ما أنشده الفراء من قول الشاعر^(٢):

تُولِي الضَّجِيعَ إِذَا مَا اسْتَفَاهَا حَصِرًا عَذَبَ الْمَذَاقِ إِذَا مَا اتَّبَعَ الْقَبْلُ
يعني بقوله «ما أتابع»: تتابع.

ومعنى ﴿أَنفَأَقَلُّتُمْ﴾ تثاقلتم، أي: تكاسلتم وتباطأتم وتقاعدتم عن الخروج في سبيل الله لغزو الكفار.

ثم إن الله أنكر عليهم إنكاراً قوياً بأداة الإنكار التي هي الهمزة في قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ قد تقرر في علم العربية أن

(١) مضى عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة، وانظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)، الدر المنصور (٤٩/٦).

(٢) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٧٢) من سورة البقرة.

لفظة (من) تأتي بمعنى البدل^(١)، كقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [الزخرف: آية ٦٠] أي: لجعلنا بدلکم ملائكة في الأرض ﴿أَرْضِيئُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: بدل الآخرة، وإتيان (من) بمعنى البدل، أسلوب عربي معروف، ومنه قول الشاعر^(٢):

فليت لنا من ماء زمزم شربة مبردة باتت على طهيان
يعني ليس لنا شربة باردة مكان زمزم؛ لأنه يؤخذ حار، ويروي:

فليت لنا من ماء حنّان شربة مبردة باتت على طهيان
والطهيان: عود كانوا يجعلونه مرتفعاً في جانب البيت متلقياً للهواء يعلقون عليه الماء ليبرد^(٣).

وقوله: ﴿أَرْضِيئُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الهمزة همزة إنكار؛ لأن أسفه الناس وأقلهم عقلاً هو من يرضى بالدنيا بدلاً من الآخرة؛ لأنه يعتاض القليل التافه من الكثير الذي لا يقدر قدره إلا الله، وفي هذا وبخهم؛ لأنه نقض ضمني للعقد الذي عقده معهم؛ لأن الله (جلّ وعلا) عقد عقدة بينه وبين عباده المؤمنين وأبرمها، وهو أنه اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بالجهاد، يشتري من المؤمن حياته الدنيوية وهي حياة قصيرة منغصة مشوشة بالأمراض والمصائب والبلايا والمشاق، يشتريها منه بحياة أبدية سرمدية، لا شيب فيها ولا هرم ولا مرض ولا غضب ولا ألم ولا تشويش، ويشتري منه مالا قليلاً وعرضاً زائلاً من الدنيا بالحوار العين والولدان وغرف الجنة وأنهارها وثمارها، والنظر إلى وجه الله الكريم. فهذا هو البيع الربح، والله يقول في هذه السورة الكريمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْبَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ

(١) انظر: ابن جرير (٢٥٢/١٤)، القرطبي (١٤١/٨)، الدر المصون (٥٠/٦).

(٢) البيت ليعلى بن مسلم الشكري، أو الأحوال الكندي. وهو في القرطبي (١٤١/٨)، الدر المصون (٥٠/٦).

(٣) انظر: القرطبي (١٤١/٨).

حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ بِرَبِّكَ الَّذِي بَاعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٣٨﴾ [التوبة: آية ١١١].
 هذا هو البيع الرابح والمعاملة الراجحة، أما الذي ينقضها وينكثها ويقدم
 للدنيا على الآخرة فهذا سفيه يستحق أشد الإنكار؛ ولذا أنكر الله عليه
 بقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ فإنه لا يقنع بالدون إلا من
 هو في غاية الدون، وقد صدق من قال^(١):

إذا ما علا المرء رام الغلأ ويقنع بالدون من كان دُونَاً

فلا يقنع بالدون إلا من هو دون كما لا يخفى، وهذا معنى قوله:
 ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾. قد قدمنا في هذه الدروس مراراً أن
 تسمية الله (جلّ وعلا) في كتابه للدار الذي نؤول إليها تسميته إياها (الآخرة)
 ينبغي للمسلم أن ينظر فيه ويعتبر فيه، وقد أوجب الله على كل إنسان أن ينظر
 في مبدئه، وإذا نظر في مبدئه دعاه ذلك إلى النظر في انتهاء أمره الذي يؤول به
 إلى مسمى الآخرة، وإيضاح ذلك أن الله قال بصيغة أمر سماوي من الله ﴿فَلْيَنْظُرْ
 الْإِنْسَانُ رِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: آية ٥] لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ لام أمر
 صادرة من خالق السماوات والأرض، متوجهة إلى مسمى الإنسان، يأمره الله أن
 ينظر إلى الشيء الذي خلق منه ليعلم مبدأ أمره ومن أين جاء؟ وما سبب
 وجوده؟ وعلى أي طريق جاء؟ ثم لينظر بعد ذلك في مصيره، وإلى أين يذهب
 به، وإلى أين يصير، وإلى أين يكون آخر أمره؟ وقد بين لنا هذا المحكم المنزل
 الذي جمع الله به علوم الأولين والآخرين، مبدأ هذا الإنسان الضعيف ومنتهاه،
 ومصيره النهائي الذي لا يحيد عنه إلى شيء آخر، فبين أن أول الإنسان تراب
 بله الله بماء، وهو قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
 مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الحج: آية ٥] فمبدأ رحلة الإنسان ومنشؤه من التراب، بله الله
 بالماء، فصار طيناً، وهو قوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: آية
 ٦١] ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: آية ١١] ثم جعل نسله من سلالة
 من طين، ثم إن الله خمّر ذلك الطين حتى صار حمأ مسنوناً، ثم أبيضه حتى

(١) مضى عند تفسير الآية (١٦٨) من سورة الأعراف.

صار صلصالاً كالفخار، ثم خلق منه آدم وجعله لحماً ودماً، ثم خلق منه
 زوجته، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِلْدٍ﴾ [النساء: آية
 ١] هي آدم ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء. وذكر ذلك في الأعراف وفي الزمر
 كما هو معروف، ثم بعد أن حصل رجل وامرأة صار طريقة وجود الإنسان على
 طريق التناسل المعروفة، يكون أولاً من نطفة أمشاج من ماء الرجل وماء المرأة،
 ثم يخلق الله تلك النطفة علقة وهي الدم الجامد الذي إذا صُبَّ عليه الماء الحار
 لم يذب، ثم يجعل الله تلك العلقة مضغة، ثم المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام
 لحماً، ويخلق هذا البشر السوي الذي تنظرون إليه، الذي كل موضع إبرة منه
 فيها من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر العقول، وقد ذكرنا مراراً أن أعظم ما
 فتن به ضعاف العقول من المسلمين جذقُ الإفرنج، في حالة الدنيا، ومن أبرع
 ما برعوا فيه الطب، وأنا أقول لكم: إنه لو اجتمع اليوم جميع من في المعمورة
 من مهرة الأطباء يريدون أن يعملوا عملية في جنين في رحم أمه فإنهم لا
 يقدرُونَ أن يعملوا العملية حتى يشقوا بطنها ورحمها والمشيمة التي على الولد،
 ثم يأتوا بالأشعة الكهربائية ليتمكنهم أن يروا، ثم يعملوا، فقد تموت وهو
 الأغلب!! وهذا خالق السماوات والأرض (جلّ وعلا)، ليس فينا ولا فيهم ولا
 في غيرنا أحد إلا وهو يعمل فيه آلاف العمليات الهائلة وهو في بطن أمه، من
 غير أن يحتاج إلى شق بطنها، ولا إلى شق رحمها، ولا إلى شق المشيمة التي
 على الولد ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ
 رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا نَصْرُوهُ﴾ [الزمر: الآية ٦].

هذه الأعين قد فتحها الله (جلّ وعلا) وأنتم في بطون أمهاتكم، وصبغ
 بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وأنبت عليها هذا الشعر، وجعل لها
 هذا الوعاء من الجفون، وهذا الدماغ خلقه وجعله في هذا الوعاء، وخاط عليه
 هذه العظام هذه الخياطة الهائلة، وهذا الأنف خلقه وثقبه، وهذا الفم خلقه
 وثقبه، وجعل اللسان، وأجرى في الفم عيناً باردة هي الريق، يبتلع بها
 الطعام، لو أمسك عنه الريق لما ابتلع الزيد الذائب، وشق له مجاري البول،
 ومجاري الغائط، ومجاري العروق والشرايين للدورة الدموية، ولو نُظِرَ إلى
 موضع عضو واحد من الإنسان لوجد فيه من غرائب صنع الله وعجائبه ما يبهر

العقول، ومع هذا كله فخالق السماوات والأرض يجعل هذه العمليات الهائلة فيكم وأنتم في بطون أمهاتكم، من غير أن يحتاج إلى بنج، بل بنج القدرة وعظمة الخالق، يُفعل للمرأة جميع هذا وهي تضحك وتفرح وتمرح وتعصي خالق السماوات والأرض، لا تشعر بشيء، لعظمة وقدرة هذا الإله الخالق العظيم (جلّ وعلا)، ثم إن الله (جلّ وعلا) يخلق هذا الإنسان بما فيه من الغرائب والعجائب الذي كل موضع إبرة منه يبهز العقول بما أودع فيه الله من بارع صنعه وغرائب عجائبه، ثم يخرجها من بطن أمه ويسهل له طريق الخروج من ذلك المكان الضيق كما يأتي في قوله: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾ [عبس: آية ٢٠] ثم يلهمه أخذ الثدي وهو في ذلك الصغر، ويلطف به حتى يكبر ويعظم ويكون قوياً يجادل في ربه، وتلك المحطة هي التي نحن فيها الآن، فقد جاوزنا ما قبلها من المحطات، وهي التي نحن فيها الآن، وهذه المحطة التي نحن فيها هي المحطة التي يؤخذ منها الزاد، والسفر أمامها طويل، والشقة هائلة، فكأن الإنسان يُقال له: يا مسكين أنت في رحلة عظيمة، وآخرها أعظم من أولها، أشد مسافة وأكبر خطراً وأعظم غرراً، فخذ أهبتك في وقت الإمكان، وليس موضع يمكنك به أخذها إلا في هذا الزمن، الذي لا تدري في أي وقت يقطعك الموت فيه ويخترمك، فعلى الإنسان أن يبادر بأعظم ما يكون من السرعة ليأخذ زاده ويستعد عدته لبقية هذا السفر العظيم الهائل الشاق، ثم بعد هذه المرحلة تنتقل جميعاً إلى مرحلة تسمى مرحلة القبور، نصير جميعاً إلى القبور كما صار إليها من قبلنا. وذكروا أن أعرابياً بدوياً سمع قارئاً يقرأ ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ [١] حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ [٢] ﴿ [التكاثر: الآيتان ١، ٢]. قال: انصرفوا والله من المقابر إلى دار أخرى^(١). لأن الزائر منصرف لا محالة، ثم إنهم يوم القيامة يُخرجون من القبور إلى محطة أخرى وهي محطة عرصات الحشر، يجتمعون فيها جميعاً في صعيد واحد ينفذهم البصر ويُسمِعهم الداعي، ثم يقضي الله بين خلقه بالشفاعة الكبرى، شفاعة سيد الأنبياء محمد (صلوات الله وسلامه عليه)، فإذا انقضى حسابهم وتمت

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٥٤٥/٤).

مجازاتهم، عند ذلك صدروا أشتاتاً ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: [الزلزلة: آية ٦] فمذهوب به ذات اليمين إلى الجنة، ومذهوب به ذات الشمال إلى النار، ولا يجتمعون بعد ذلك، وهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، وهذه الأشتات قد أوضح الله معناها في سورة الروم، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: الآيات ١٤ - ١٦]. فإذا دخلوا أماكنهم دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وفي ذلك الوقت يدعى بالموت في صورة كبش أملح، في مرأى كل منهم ثم يُذبح، ويقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، وذلك هو معنى قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: آية ٣٩] إذ قضي الأمر وذبح الموت واستقر كل في منزله استقراراً أبدياً، فهذا الاستقرار الذي لا تحوّل بعده، من أجله قيل للدار (الآخرة) لأنها ليس بعدها محطة أخرى ينتقل إليها، فهي آخر المحطات التي ينتقل إليها، لا يبعثون عنها حولاً في الجنة، ولا خروج لهم من النار، وهذا هو معنى قوله: (الآخرة).

قوله تعالى: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْقَلِيلَ﴾ جداً، قد جاء عن النبي ﷺ أنه ضرب لذلك مثلاً بمن وضع إصبعه في البحر، فلي نظر بماذا يخرج به أصبعه من البحر^(١)، فذلك بمثابة قلة الدنيا بجانب الآخرة، وهذا معنى قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْقَلِيلَ﴾ في الآخرة إلا قليلاً، لأن الدنيا دار قليل ما فيها، وأهلها الذين كانوا يتمتعون بها إذا بعثوا يحلفون أنهم ما مكثوا فيها إلا ساعة كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبَسُوا مِن دُونِ سَاعَاتِهِمْ إِلَّا نَجْمًا كَالْفُجَارِ﴾ [الروم: آية ٥٥] وبين أن أقواهم عقلاً وأثبتهم نظراً

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: فناء الدنيا. حديث رقم: (٢٨٥٨)

يَدْعِي أَنَّهُمْ مَكَثُوا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ فِي طه: ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا بِهِمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: آية ١٠٤] وهذا معنى قوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (الدنيا) تأنيث الأدنى، وهي في غاية الدناءة والدنو؛ لأنها قيل من الدنو بأنها عرض عاجل الآن، وقيل من الدناءة بالنسبة إلى الآخرة^(١).

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩].

قوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ هي (إن) الشرطية أدغمت في (لا) يعني: إلا تنفروا، إن لم تمتثلوا أمر الله وتنفروا لجهاد أعداء الله وإعلاء كلمته فإن ذلك ضرره عليكم لا على الله ولا على رسوله.

وهذه الآية فيها سر عظيم يعلم به الإنسان أن كل ما يفعله إنما أثره راجع إلى نفسه، فإن كان شراً فهو يجني شراً على نفسه، وإن كان خيراً فهو يجلب الخير لنفسه ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: آية ٧]. فعلى كل عاقل في دار الدنيا أن يعتبر بمعنى هذه الآية وما في معناها من الآيات، وهو أن ما يفعله الإنسان لا يجنيه إلا هو، وأن حركات الإنسان في دار الدنيا يبني بها مسكنه الذي يصل إليه ويخلد فيه خلوداً أبدياً يوم القيامة، فهذه الحركات والسكنات في دار الدنيا يظن الجاهل أنها أمور لا طائل تحتها، ولا يلزم الاحتياط والنظر الدقيق فيها، وهذا من أشنع الغلط؛ لأن حركات الإنسان في دار الدنيا مقبلاً ومدبراً، ذاهباً وجائياً، متصرفاً هنا وهنا، كله يبني منزله ومقره النهائي، إما أن يبني بذلك غرفة من غرف الجنة يخلد فيها، أو يبني به سجناً من سجون جهنم، هذا هو الواقع، فعلى كل مسلم أن ينظر في أقواله وأفعاله، فيعلم أنه ينفع بالطيب منها نفسه، ويضر بالخبيث منها نفسه، ليحاسب فيجتنب الخبيث ويجتلب الطيب، وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا﴾ إلا تمتثلوا أمر الله ورسوله بالنفر إلى الأعداء لجهاد أعداء الله، وإعلاء كلمة الله، ونصر

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

دين الله ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنتم الذين تنالون الضر من ذلك ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الظاهر أن هذا العذاب شامل لعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، لأن التكاسل عن مقاومة الأعداء في دار الدنيا من أسباب عذاب الدنيا؛ لأنه يضعف المسلمين ويقوي أعداءهم فيُهينونهم في قعر بيوتهم كما هو واقع الآن، لأن المسلمين، أو من يتسمون باسم المسلمين معذبون في أقطار الدنيا من جهة الكفرة، يضطهدونهم، ويظلمونهم، ويقتلونهم، ويتحكمون في خيرات بلادهم، وهذا كله من أنواع عذاب الدنيا لتركهم الجهاد وإعلاء كلمة الله (جلّ وعلا)، وما ذكره غير واحد عن ابن عباس من أنه قال: إن هذه الآية نزلت في بعض قبائل العرب، استنفرهم النبي ﷺ إلى الغزو فامتنعوا، فمنع الله عنهم المطر، وأضرهم بالقحط^(١). هذا قد يدخل في الآية في الجملة، ولا يمكن أن يكون معناها؛ لأن الله يقول: ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِّلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾. فهذا يدل على أن المراد به ليس حبس المطر، وإن كان حبس المطر من أنواع العذاب التي تسببها مخالفة الله (جلّ وعلا)؛ لأن مخالفة الله وعدم القيام بأمره ونهيه هي سبب كل البلايا كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: آية ٣٠].

﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الأليم: معناه الموجع الذي يجد صاحبه شدة ألمه ووجعه، والتحقيق هو ما قدمناه مراراً^(٢): أن الأليم بمعنى المؤلم، وأن (الفعيل) يأتي في لغة العرب بمعنى (المُفعل). فما ذكره بعضهم عن الأصمعي من أن (الفعيل) لا يكون بمعنى (المُفعل) وعليه أراد بعضهم أن يفسر الأليم بأنه يُؤلم به أو يحصل بسببه ألم، فكله خلاف التحقيق، والتحقيق أن من أساليب اللغة العربية إطلاقهم (الفعيل) وإرادة (المُفعل) وهذا معروف في كلامهم، ومنه ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ﴾ [الأنعام: آية ١٠١] أي:

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد، باب: كراهية ترك الغزو، حديث رقم: (٢٤٨٩)

(١٨٣٧)، والبيهقي (٤٨/٩)، والحاكم (١١٨/٢)، وابن جرير (٢٥٤/١٤) وهو في

ضعيف أبي داود ص ٢٤٦.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

مبدعها، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ [هود: آية ٢٥] أي: منذر لكم، ونظيره من كلام العرب قول غيلان بن عقبة المعروف بذي الرئمة^(١):

ويرفعُ من صدورِ شَمَزْدَلَاتٍ يَصُكُّ وُجُوهَهَا وَهَجَّ أَلِيمٌ
أي: مؤلم، وقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي^(٢):

أَمِنْ رِيحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤرِّفُنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعٌ
فقوله: «الداعي السميع» يعني: الداعي المسمع، وقول عمرو بن معد يكرب أيضاً^(٣):

وخيلٌ قد دَلَفْتُ لَهَا بِخَيْلٍ تحيةً بينهم ضَرْبٌ وَجِيعٌ
أي: موجه. وهذا هو الصحيح.

﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أكثر الله (جل وعلا) في القرآن من ذكره أن الموجودين إذا لم يطيعوه ويمثلوا أمره فهو غني عنهم قادر على إذهابهم وإزالتهم بالكلية والإتيان بمن يخلفهم، بل من يكون خيراً منهم، وقد قدمنا هذا مراراً وسيأتي أيضاً، فمن الآيات التي بين بها هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: آية ١٣٣] وقوله في الأنعام: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَدَلِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: آية ١٣٣] وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [١٩] وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم: الآيتان ١٩، ٢٠].

وقوله في سورة القتال: ﴿وَاللَّهُ الْغَفِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: آية ٣٨] ﴿مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ﴾ [المائدة: آية ٥٤] أي: بدلاً من هؤلاء المرتدين، وهذا معنى قوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: آية ٣٩] أي: يأتي

(١) السابق.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الأعراف.

(٣) السابق.

يقوم يجعلهم بدلكم خيراً منكم، إذا استئنفروا نفروا، ولا يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، كما دلت عليه هذه الآيات المذكورة، وهذا معنى قوله: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

وقد ذكرنا مراراً^(١)، أن لفظة (القوم) اسم جمع لا واحد له من لفظه، يطلق في اللغة العربية الإطلاق الأول على الذكور خاصة دون النساء؛ لأنه وُضع للذكور خاصة، وربما دخلت فيه النساء بحكم التبع إذا دلّ على ذلك قرينة، أما الدليل على أن القوم اسم جمع خاص بالرجال، في أصل وضعه: فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] ثم قال: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ فعطفه النساء على القوم يدل على عدم دخولهن في اسم القوم، ونظيره من كلام العرب قول زهير بن أبي سلمى^(٢):

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آلِ حِضْنِ أُمِّ نِسَاءٍ
 فعطف النساء على القوم، وربما دخلت النساء في اسم القوم بحكم التبع إذا دلت على ذلك قرينة خارجية، ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ قال بعض العلماء: الضمير المنصوب في «تضروه» عائد إلى الله، أي: لا تضروا الله شيئاً بعدم امتثالكم أمره ولا سعيكم في إعلاء كلمته^(٣). وهذا الوجه هو الذي يشهد له القرآن كقوله (جل وعلا): ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [محمد: آية ٣٢] وتدل على هذا الآيات القرآنية الكثيرة أن الله غني عن خلقه الذين

(١) مضى عند تفسير الآية (٨٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) انظر: القرطبي (١٤٢/٨)، ابن كثير (٣٥٨/٢).

يدعوهم لطاعته، فإنما يدعوهم لنفعمهم، فامثالهم نفعه لهم، وتمردهم ضرره عليهم، كما قال تعالى: ﴿تَكْفُرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَسْتَقَىٰ اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ [التغابن: آية ٦]، ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: آية ٨]، ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: آية ٧] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: الضمير المنصوب عائد إلى النبي ﷺ^(١)، أي: لا تضروا النبي ﷺ بذلك؛ لأن الله تكفل له بنصره، كما يأتي في قوله: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ...﴾ الآية [التوبة: آية ٤٠] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: آية ٣٩] معناه: أنه (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، فهو قادر على ما شاء، وقادر أيضاً على ما لم يشأ، فهو (جلّ وعلا) قادر على هداية أبي بكر الصديق، وقادر على هداية أبي لهب، لا شك أنه قادر على الأمرين، وقد أراد أحد المقدورين، وهو هداية أبي بكر، ولم يرد المقدور الثاني وهو هداية أبي لهب، فهو (جلّ وعلا) قادر على كل شيء، لا يتعاصى عليه شيء، يقول للشيء كن فيكون، خلقه لجميع البشر كخلقه لنفس واحدة ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [القمان: آية ٢٨] لأنه (جلّ وعلا) لا يتعاصى على قدرته شيء سبحانه (جلّ وعلا).

٧/ب / يقول الله جلّ وعلا: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

هذه الآية يقول الله (جلّ) فيها للذين تكاسلوا عن غزوة تبوك وتشاقلوا وتباطؤوا أن يغزوا الروم مع النبي ﷺ: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ﴾ (إن) هي الشرطية مدغمة في (لا) والضمير المنصوب في (تنصروه) عائد إلى النبي ﷺ، يعني: إن تتقاعسوا وتشاقلوا عن نصره نبيه ﷺ في غزوة تبوك فإن الله ناصره

(١) انظر: القرطبي (١٤٢/٨).

لا محالة، سواء تناقستم أم لم تتناقلوا. وقد بين (جل وعلا) أنه نصره في حالة الضعف والقلة، في حالة كان هو وصاحبه داخلين في غار مختفين عن المشركين، فلما نصره الله في حالة الضعف والقلة فكيف لا ينصره في حالة الكثرة والقوة؟ وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ﴾ فالله ناصره على كل حال، ثم بين نصره له السابق في حالة الضعف والقلة ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ على أعدائه حيث أنجاه الله منهم، وخيب مكرهم وأبطله، ثم أظهره عليهم بعد ذلك. وهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾.

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حين أخرجه الذين كفروا وهم كفار مكة، ومعنى إخراجهم له أنهم اضطروه وألجؤوه إلى أن يخرج؛ لأن النبي ﷺ كان في حياة عمه أبي طالب يدفع عنه مكر قريش، ويحميه منهم، ويقول له^(١):
وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ حَتَّى أَوْسَدَ فِي الثَّرَابِ دَفِينًا
فلما مات أبو طالب وجاء الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة خاف قريش من النبي ﷺ، وعظم عليهم أمره، وهالهم شأنه، فقالوا: هذا الرجل صار له أتباع في القبائل الأخرى، فما نأمن أن يغزونا بأتباعه فيحتلنا. واعتزموا على أن يقتلوه، وقد قدمنا السبب الذي ألجأ النبي ﷺ إلى الهجرة في سورة الأنفال، في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْرَكُوا أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾^(٢) [الأنفال: آية ٣٠]. وذلك أن قريشاً لما هالهم أمر النبي ﷺ وعظم عليهم شأنه، وخافوا أن تتبعه قبائل العرب فيغزوهم بهم حاولوا أن يقتلوه، فاجتمعوا في دار الندوة، واجتمع جميع سادات قبائل قريش في ذلك الاجتماع، وجاءهم إبليس - عليه لعائن الله - في صورة شيخ جليل جائياً من بلاد نجد، وقال لهم: قد علمت بما اعتزمتم عليه. وأراد أن يجلس معهم ليتبادل معهم الرأي، فأدخلوه معهم، فتشاوروا في أمر رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم، يقال هو أبو البخترى: احبسوه ووتركه محبوساً حتى يموت. فقال ذلك الشيخ الذي هو إبليس في

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣) من سورة التوبة.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

صورة ذلك الشيخ: ليس هذا لكم برأي؛ لأنكم إن حبستموه جاء بنو عمه وأتباعه فانتزعوه منكم، وغلبوكم عليه. فقال آخر: نرى أن نخرجه من بلادنا وأرضنا ونصلح شأننا بعده إذا أخرجناه. فقال لهم إبليس اللعين في صورة ذلك الشيخ: ليس هذا والله برأي؛ لأنكم إن أخرجتموه فقد عرفتم حلاوة منطقته، وعدوبة لسانه، فقد يتبعه الناس فيغزوكم في دياركم فيغلبكم على أمركم. فقال أبو جهل لعنه الله: إن عندي لرأياً ما أراكم ذكرتموه، خذوا من كل قبيلة من قبائل قريش شاباً حدثاً قوياً وأعطوه سيفاً وأمرؤهُم يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في قبائل قريش، فلن يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا جميع قريش، فيقبلوا منا عقله، فنعقله ونعطيهم دينه، ونستريح من شأنه. فقال لهم إبليس اللعين: هذا والله هو الرأي. فأجمعوا رأيهم على هذا وأنهم يقتلونهم، واجتمعوا لتنفيذ ذلك عند باب الدار التي ينام فيها رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) قبل ذلك هاجر إلى الحبشة فيمن هاجر، فلقبه عمرو بن الدغنة سيد بني القارة، وهم بنو الهون بن خزيمة بن مدركة بن إلياس، فقال لأبي بكر: أنت لا تذهب، وأنت في ذمتي. فرجع به في ذمته، وأعطاه قريش ذمة ابن الدغنة على أن لا يظهر قراءته ولا دينه، وأن يجعل دينه سراً في بيته، فلما طال ذلك على أبي بكر (رضي الله عنه) صار يُظهر صلاته وقراءته، فأرسلت قريش إلى عمرو بن الدغنة، الذي كان في ذمته أبو بكر (رضي الله عنه)، فقالوا: نحن لا نحب أن نخفر ذمتك، وإن صاحبك صار يفعل ما لم يحصل عليه الاتفاق، فكلم ابن الدغنة أبا بكر (رضي الله عنه) فقال: إما أن تفي بالشرط الذي توافقنا عليه، وإما أن ترد إلي ذمتي. فقال له أبو بكر (رضي الله عنه): رددت إليك ذمتك، وأنا في ذمة الله تعالى. وكان أبو بكر لما أراد أن يهاجر أشار له النبي ﷺ أنه يطمع أن يؤذن له في الهجرة، فقعد أبو بكر (رضي الله عنه) طمعاً في أن يؤذن لرسول الله ﷺ في الهجرة فيكون رفيقه، واشترى راحلتين، وكان يعلفهما الحَبْط، وهو ورق السمرة، شجر معروف، علفهما إياه شهراً عديدة، أربعة، أو ستة، أو غير ذلك. فلما اجتمعت قريش لقتل النبي ﷺ وكان النبي ﷺ يأتي بيت أبي بكر كل يوم إما أول النهار أو آخره، فبينما هم ذات يوم إذ قدم عليهم رسول الله ﷺ في حر

الظهيرة، فقال أبو بكر: هذا وقت ما جاءنا به رسول الله، والله ما جاء إلا لأمر حدث. ثم لما دخل عليه رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: أقم من عندك. فقال: هم أهلك يا رسول الله، هم ابنتاي - يعني عائشة وأسماء (رضي الله عنهما) - فأخبر النبي أبا بكر (رضي الله عنه) أن الله أذن له في الهجرة، فقال: الصحبة يا رسول الله. فقال: الصحبة. قالت أسماء (رضي الله عنها): ما رأيت أحداً يبكي من الفرح قبل ذلك اليوم، فأبو بكر يبكي من الفرح. كذا قاله غير واحد من أهل الأخبار والسير، ثم إن قريشاً اجتمعوا لتنفيذ الخطة وقتل رسول الله ﷺ، فجاء جبريل فأخبر النبي ﷺ وأمره بالخروج، فنادى النبي ﷺ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأمره أن يضطجع في مكانه، وأن ينام في البُرد الذي كان ينام فيه رسول الله ﷺ، ثم إن الله أخذ بأعينهم فمر بهم النبي ﷺ وقرأ عليهم آيات من أول سورة يس حتى بلغ ﴿فَأَعْيَيْنَهُمْ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [يس: آية ٩] ووضع على رأس كل واحد منهم التراب. ثم خرج هو وأبو بكر (رضي الله عنه). قال بعضهم: خرج من خوخة في قفى دار أبي بكر التي في بني جُمَح، وذهب هو وأبو بكر إلى الغار، وهو غار في جبل من جبال مكة يُسمى ثوراً، فدخل فيه هو والنبي ﷺ، وجاءه ليلاً، ومكثوا فيه ثلاث ليال بأيامها حتى يرجع الطلب، وآجروا رجلاً من بني دؤل بن كنانة يُسمى عبدالله بن الأريقط على دين كفار قريش، يُقال: إن له خوولة في بني سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي، فأمنه واستأجره على راحلتيهما وواعده بعد ثلاث ليال أن يأتيهم بالراحلتين في غار ثور، وكان كافراً أميناً، كتم سرهما وحفظ عليهما أمرهما، وجاءهما في الموعد، وكان عبدالله بن أبي بكر (رضي الله عنهما) غلاماً ثَقِفاً شاباً عاقلاً، كان يأتيهم بأخبار قريش وكل ما قالوا وتحدثوا به في شأنهم في النهار يأتيهم به في الليل في الغار، وكانت أسماء (رضي الله عنها) تأتيهم بالطعام، وكان عامر بن فهيرة الطائي (رضي الله عنه) مولى أبي بكر الصديق كان عبداً مملوكاً لأولاد أم رومان، وهي أم عائشة، كانت لها أولاد قبل أبي بكر، وكان عامر بن فهيرة هذا عبداً لهم، فاشتراه أبو بكر (رضي الله عنه) فأعتقه، فكان مولى لأبي بكر، كان يريح على النبي وأبي بكر غنماً لأبي بكر (رضي الله عنه) فيحلب لهم منها

فيشربون بالليل، ثم إذا كان في آخر الليل صاح بها فأصبح مع رعاء قريش، ولا يدرون أنه كان معهم. فمكثوا فيها ثلاث ليال، فجاءهم عبدالله بن الأريقط الدؤلي - رفيقهم - وركبا، وكان خريّتا ماهراً، سار بهم في طرق غير معهودة؛ لأن الطرق المعهودة عليها الرصد والعيون، وكانت قريش أخذوا قائفاً خبيراً بقص الأثر يقال هو سراقه بن مالك بن جعشم، ويقال هو غيره، فاقترض بهم الأثر حتى بلغ الغار، وقال: من هاهنا ضاع الأثر. ويقول أصحاب الأخبار والسير: إن الله قيّض العنكبوت فنسجت على الغار^(١)، وقيّض حمامتين وحشيتين فباضتا على فم الغار^(٢)، فلما جاء كفار مكة ووصلوا فم الغار، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «ما بالك بائنين الله ثالثهما؟»^(٣) فرجعوا خائبين. فلما كان بعد ثلاث ليال ورجع الطلب جاءهم عبدالله بن الأريقط براحليتهما وركبا ومعهما عامر بن فهيرة. وكان عامر بن فهيرة رديف أبي بكر والنبي ﷺ على إحدى الناقتين اللتين اشتراهما أبو بكر لهذا الغرض، وهي ناقته العضباء المشهورة، ولما عرضها عليه أبو بكر (رضي الله عنه) أبى أن يقبلها إلا بالثمن (صلوات الله وسلامه عليه)، فخرج بهما في طريق يُسمى طريق الساحل، وجاء إلى طرق غير معهودة، وابن إسحاق ذكر المَحَالَّ التي جاء منها^(٤)، تارة يصلون إلى الطريق المعهودة، وتارة يخرجون عنها حتى وصلوا المدينة. ومن أشهر ما حصل في طريقهم إلى المدينة قصة أم معبد، وقصة سراقه بن

(١) مضى عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٤/١)، والبخاري (كشف الأستار ٢/٢٩٩) ولا يصح في بيض الحمامتين شيء. وانظر: أحاديث الهجرة ص ١٣٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب: مناقب المهاجرين وفضلهم، منهم أبو بكر رقم (٣٦٥٣) (٨/٧). وانظر الأحاديث رقم (٣٩٢٢، ٤٦٦٣).

وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر الصديق. رقم (٢٣٨١) (١٨٥٤/٤).

(٤) نقله عنه ابن هشام ص ٥١٤ - ٥١٦، وابن كثير في البداية والنهاية (١٨٩/٣). وقد جاء ذلك في بعض الروايات عند الحاكم (٨/٣)، وابن سعد (١٥٧/١/١) وانظر مجمع الزوائد (٥٥/٦).

مالك بن جعشم. ومما نزل من القرآن في هذا السفر، نزلت فيه آيات من القرآن منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ﴾ [القصص: آية ٨٥] قال بعض العلماء: نزلت في الجحفة في سفر الهجرة هذا، وفي هذا السفر مر على ديار بني مدلج، يقول بعضهم: هي قريب من قديد فقال رجل: رأيت أشخاصاً كأنهم القوم الذين يطلبهم قريش. فعلم سراقه بن مالك أنهم هم، ولكنه طمع بأن يأخذهم أو يقتلهم فينال الجعائل التي جعلتها قريش. فقال: لا، أولئك قوم خرجوا للكلا. ثم بعد هنيهة خرج وأمر جاريته أن تسرج فرسه من وراء أكمه، ثم خرج مختفياً فركب على فرسه، فلما قاربهما ساخت به قوائم فرسه في الأرض، في القصة المشهورة، فطلب الأمان من رسول الله ﷺ^(١)، قال بعض أهل السير والأخبار: إن النبي ﷺ كتب له رقعة، وصار يثبط الناس ويردهم عن رسول الله ﷺ، فسمع بذلك الخبيث أبو جهل، وأرسل إلى بني مدلج يحذرهم من نصر سراقه لنبي الله ﷺ، ويقول أبو جهل لعنه الله في ذلك أشعاراً في غاية الكفر، ويعيب على سراقه نصره لنبي الله ﷺ، ومما يقول في ذلك^(٢):

بني مُدَلِّجٍ إِنِّي أَخَافُ سَفِينَهُكُمْ
سُرَاقَةُ مُسْتَعْرِ لِنَصْرِ مُحَمَّدٍ
عَلَيْكُمْ بِهِ أَلَا يُفَرِّقُ شَمْلَكُمْ
فِيصْبِحَ شَتَّى بَعْدَ عَزِّ وَسُودِدِ

فسمع بشعره سراقه بن مالك وأرسل إليه بأبياته المشهورة التي ذكرها غير واحد من المؤرخين وأصحاب السير وهو قوله (وكان أبو جهل يكنى أبا الحكم)^(٣):

(١) خبر سراقه وما قبله مما يتعلق بالهجرة من روايات كل ذلك تقدم تخريجه في مواضع سابقة. منها عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٢) البيتان في البداية والنهاية (١٨٦/٣).

(٣) الأبيات في دلائل النبوة للبيهقي (٤٨٩/٢)، البداية والنهاية (١٨٦/٣) مع اختلافات يسيرة في الأبيات الثلاثة الأولى، أما البيت الأخير فنصه في البداية والنهاية:

بأمرٍ تودُّ النصرَ فيه فلإنهم
وإنَّ جميعَ الناسِ طُراً مُسَالِمةً
وفي الدلائل:

بأمرٍ يودُّ النصرَ فيه بِإِلَيْهَا
لو أن جميعَ الناسِ طُراً تسالمةً

أبا حكم واللّه لو كنتَ شاهداً
علمتَ ولم تشكك بأن محمداً
عليك بكف القوم عنه فإنني
بأمر يود الناس فيه بأسرهم

لأمرِ جَوَادِي إذ تسوخ قوائمه
رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه
أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأن جميع الناس طراً يسالمه

ومر في هذه الطريق بعاتكة بنت خالد الخزاعية المعروفة بأُم معبد (رضي الله عنها)؛ لأنها أسلمت وقد رويت قصتها عنها وعن أخيها حُبَيْش بن خالد ويقال حُنَيْس بن خالد وغيرهما^(١) أنهم كانوا في شدة، وكانت أغنامهم عازبة، فمرّ بها رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة وعبدالله بن الأريقط، فسألوها هل عندها لحم أو تمر يباع؟ فقالت: لا شيء عندها. وقالت: لو كان عندنا القَرَى ما أعوزكم. لأن الحي في شدة، والأغنام عازبة، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر خيمتها فقال: «ما بال هذه الشاة؟» قالت: خلفها الجهد. قال: «أتأذنين لي أن أحلبها؟» قالت: إن وجدت فيها حليباً فاحلبها. فدعا بها رسول الله ﷺ فمسح ضرعها وسمى الله، فتفاجت واجترت، ودعا بإناء عظيم فحلب فيه حتى امتلأ، فسقاها هي ومن معها، ثم سقى قومه، وشرب ﷺ وقال فيما يقول أهل الأخبار: «ساقى القوم آخرهم شرباً»^(٢) ثم أخذ الإناء وملاه مرة أخرى وتركه عندها وخرج. فلم تمكث إلا قليلاً أن جاء زوجها أبو معبد فوجد الإناء

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٧٦/١)، (٤٩١/٢)، والحاكم (٩/٣)، وابن سعد (١٥٥/١/١)، وابن عساکر (انظر: تهذيب تاريخ دمشق ٣٢٦/١)، والآجري في الشريعة ص ٤٦٥.

وذكره الهيثمي في المجمع (٥٥/٦) من حديث جابر (رضي الله عنه) مختصراً، وعزاه للبخاري، وقال: «وفيه من لم أعرفه» ا.هـ. وأورده من حديث حُبَيْش بن خالد (رضي الله عنه) (٥٥/٦) وقال (٥٨/٦): «رواه الطبراني في إسناده جماعة لم أعرفهم» ا.هـ. كما أورده من حديث قيس بن النعمان (٥٨/٦) وقال: «رواه البخاري ورجاله رجال الصحيح» ا.هـ.

(٢) أخرجه ابن سعد (١٥٥/١/١) في خبر الهجرة. وهذه الجملة «ساقى القوم آخرهم شرباً» وردت أيضاً في مناسبة غير سفر الهجرة كما في حديث أبي قتادة (رضي الله عنه) عند مسلم في المساجد ومواضع الصلاة، باب قضاء الصلاة الفاتنة رقم (٦٨١) (٤٧٢/١).

مملوءاً من اللين، فعجب منه وقال: كيف هذا اللين؟ ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: جاءنا رجل مبارك من صفته كيت وكيت، فقال: صفه لي يا أم معبد. فوصفته وصفها المشهور، فقالت له: رأيت رجلاً ظاهراً الوضأة، حَسَنَ الخَلْقِ، مليح الوجه، لم تعبهُ تُجَلَّةٌ^(١)، ولم تُزِرْ به صُغَلَّةٌ، قسيم وسيم، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشفاره حَوْرٌ، وفي صوته صَحْلٌ، أكحل أقرن أزج، في عنقه سَطَعٌ، وفي لحيته كثافة. إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعليه البهاء، حلوا المنطق، فَضْلٌ ليس بنزر ولا هَذْرٌ، كأن منطقه خَرَزَاتٍ نظم يتحدَرْنَ أو ينحدرن، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم من قريب، رَبْعَةٌ لا تُنْسَوُهُ عَيْنٌ لطوله، ولا تقتحمه عَيْنٌ لِقصره، إلى آخر ما ذكرت من أوصافه الكريمة الجليلة صلوات الله وسلامه عليه^(٢).

وهذه المعاني الجليلة قد لا يفهما كل الناس، سئير إلى ما لا يفهم منها: فقولها: (لم تعبهُ التُّجَلَّةُ)^(٣): بضم التاء والجيم معناه عظم البطن وكبرها. وقيل: ارتفاع الخاصرتين وتوؤهما.

(ولم تُزِرْ به صُغَلَّةٌ): الصُّغَلَّةُ: صغر الرأس صغراً مفرداً. يعني: ليس ضخماً البطن، ولا صغير الرأس جداً، بل هو ضامر البطن، رأسه ليس بصغير صغراً مزيماً.

وقولها: (في عينيه دَعَجٌ): الدَعَجُ: سواد العين مع سعتها.

وقولها: (في أشفاره وَطْفٌ): الوَطْفُ: هو كثرة شعر الجفن.

وقولها (أَزَجٌ) تعني: قليل شعر الحاجب.

وقولها: (أقرن): تعني أن شعر حاجبيه يمتد طرف هذا حتى يقرب من هذا مع الرَّجَجِ فيه.

(١) المثبت في أكثر الروايات (تُجَلَّةٌ)، وفي بعضها: (تُخَلَّةٌ). والتُّجَلَّةُ: عظم البطن، والنحلة: الدقة والنحول.

(٢) هذه الأوصاف وردت في بعض الروايات عند الحاكم (٩/٣)، والبيهقي في الدلائل (١/٢٧٨ - ٢٧٩)، وابن سعد (١/١٥٦)، وابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق (١/٣٢٦ - ٣٢٧).

(٣) راجع الحاشية قبل السابقة.

وقولها: (في عنقه سَطَع): أي طول؛ لأنه ليس قصير العنق. إلى آخر ما ذكرته من أوصافه الجميلة.

فلما جاء زوجها قال: هذا والله صاحب قريش الذي يطلبونه ولأجهدن في أن أصحبه. وذكر غير واحد أنه أسلم بعد ذلك وهاجر إلى النبي ﷺ.

وفي صبيحة ذلك اليوم سمع قريش هاتفاً من الجن يسمعون صوته مرتفعاً، ولا يرون شخصه، يُشَدُّ ذلك الشعر المشهور الذي يقول فيه^(١):

جَزَى اللّهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقَيْنِ حَلًّا خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبِدِ
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلَا بِهِ فَأَصْلَحَ مِنْ أَمْسَى رَفِيقٌ مُحَمَّدِ
فِيَا لَقْصِيَّ مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَعَالِ اللَّهِ جَاهَاً وَسُودِدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَكَانَ فَتَاتِهِمْ وَمَقْعَدُهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصِدِ
سَلُّوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاءَ تَشْهَدِ

ولم يدرِ قريش أين ذهب النبي ﷺ حتى سمعوا هاتفاً من الجن على أبي قُبَيْسٍ ينشد هذا الشعر، يسمعون أيضاً صوته ولا يرون شخصه:

فإن يُسَلِّمِ السَّعْدَانُ يُصْبِحُ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لَا يَخْشَى خِلافَ الْمُخَالِفِ
فقال أبو جهل: ما هذان السعدان، سعد كذا أو سعد كذا^(٢). فسمع بعد ذلك الهاتف يقول^(٣):

أَيَا سَعْدُ سَعْدِ الْأَوْسِ كُنْ أَنْتَ ناصراً وَيَا سَعْدُ سَعْدِ الْخَزْرَجِيِّنِ الْعَطَّارِ
أَجِيبَا إِلَى دَاعِيِ الْهُدَى وَتَمَيِّبَا عَلَى اللَّهِ بِالْفِرْدَوْسِ مُنِيَّةَ عَارِفِ
فإن جزاء الله للطَّالِبِ الْهُدَى جَنَّاتٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ ذاتِ رِفَارِفِ

(١) هذه الأبيات ضمن الرواية المفصلة في قصة أم معبد، وقد سبق تخريجها قريباً.

(٢) القائل هو أبو سفيان. ومقالته: «من السعدان: أسعد بن بكر، أم سعد بن هُدَيْمٍ؟» وهما قبيلتان.

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢/٤٢٨ - ٤٢٩)، ونقله عنه ابن كثير في البداية والنهاية (١٦٥/٣).

ثم إن النبي ﷺ استمر في طريقه ذاهباً إلى هذه المدينة - حرسها الله - وكان الأنصار (رضي الله عنهم) سمعوا بخروج النبي ﷺ، وكان النبي في طريقه، لقي الزبير بن العوام كما ذكره البخاري^(١) في قوم مسلمين جاؤوا تجاراً من الشام، فكساهم ثياباً بيضاً و جاؤوا يلبسون ثياباً بيضاً، وكان الأنصار كلما صلوا الصبح خرجوا إلى حرتهم ينتظرون رسول الله ﷺ فرحاً بقدومه، فلم يزالوا ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، والزمن زمن حر في ذلك الوقت، ولم يزالوا كذلك حتى رجعوا إلى بيوتهم وقت شدة الحر بعد أن غلبتهم الشمس على الظلال، فصعد رجل من يهود على أطم من أطامهم فأبصر برسول الله ﷺ والذين معه في ثياب بيض يزول بهم السراب، فلم يتمالك أن نادى بأعلى صوته: يا بني قَيْلَةَ هذا جدُّكم الذي تنتظرون، فثار الأنصار في السلاح وتلقوه (صلوات الله وسلامه عليه)^(٢). وفي بعض الروايات الثابتة^(٣) أنه لما قرب من المدينة جلس في ظل نخلة، وأن الأنصار جاؤوه في السلاح، وكان كثير منهم لم ير النبي ﷺ ولم يعرف هو أو أبو بكر جلس تحت ظل تلك الشجرة حتى تحول الظل عن النبي ﷺ فقام أبو بكر فظلَّ عليه بردائه، فعلموا أنه هو. وجاء في بعض الروايات أنه جاء المدينة في حرِّ الظهيرة^(٤). وفي بعضها^(٥) أنه دخلها في الليل. وقد وفق بينهما بعض العلماء^(٦) بأن أصل قدومه وقت الظهيرة، وأنه جلس تحت تلك النخلة حتى صار آخر النهار. فجاء بني عمرو بن عوف

(١) مناقب الأنصار، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة. حديث رقم: (٣٩٠٦) (٢٣٨/٧ - ٢٣٩).

(٢) الكلام إلى هذا الموضع تابع لرواية البخاري.

(٣) أوردتها ابن هشام (٥١٧ - ٥١٨)، وابن كثير في تاريخه (١٩٦/٣).

(٤) كما في رواية البخاري السابقة عن عروة.

(٥) كما في رواية مسلم من حديث الهجرة المخرج في الصحيحين من حديث البراء عن أبي بكر (رضي الله عنهما)، وقد تقدم تخريجه عند تفسير الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٦) انظر: البداية والنهاية (١٩٦/٣)، فتح الباري (٢٤٤/٧).

في قباء، وقدم أولاً على بني عمرو بن عوف من الأوس في قباء ومكث فيهم مدة. واختلف العلماء في قدر المدة التي مكث فيهم^(١)، فثبت في صحيح البخاري وغيره أنه مكث فيهم بضع عشرة يوماً^(٢)، وجاء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأدرك النبي ﷺ وهو في بني عمرو بن عوف بقباء؛ لأن النبي ﷺ كانت تدعوه قريش (الأمين) وكان عنده كثير من الودائع يحفظها لأمانته عندهم، فخلف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بعد أن هاجر هو وأبو بكر حتى يرد على الناس ودائعهم، ثم يتبعه ﷺ، فلحق به وهو في بني عمرو بن عوف بقباء. كان ابن إسحاق يقول: قدم النبي ﷺ على بني عمرو بن عوف بقباء يوم الإثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول، ومكث فيهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء والأربعاء والخميس^(٣)، ثم سار يوم الجمعة إلى المدينة. وهذا قول ابن إسحاق. وروى البخاري عن طريق الزهري ما يقتضي أنه مكث في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة^(٤). فلما خرج من بني عمرو بن عوف ذاهباً إلى المدينة، قال ابن إسحاق وغيره^(٥): وافته الجمعة حذاء مسجد بني سالم بن عوف، المسجد الذي في الوادي بين قباء والمدينة، فصلى فيه الجمعة. قالوا: وهي أول جمعة صلاها بالمدينة، فجاءه عتبان بن مالك (رضي الله عنه) وعباس بن عباد بن نضلة في رجال من بني سالم بن عوف، وقالوا: يا نبي الله: أقم عندنا في العزة والعدد والمنعة. فقال يعني ناقته: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فخرجت ذاهبة إلى المدينة، فلما وازى دور بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد وفروة بن عمرو في رجال من بني بياضة فقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت بديار بني ساعدة من الخزرج تلقاه سعد بن عباد (رضي الله عنه) والمنذر بن عمرو

(١) انظر: تاريخ ابن كثير (١٩٨/٣)، فتح الباري (٢٤٤/٧).

(٢) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٣) نقله ابن هشام ص ٥٢٠.

(٤) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٥) نقله ابن هشام ص ٥٢٠.

(رضي الله عنهم) وقالوا: يا نبي الله هلم إلينا في العدة والعدد والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت ببني عدي بن النجار وهم أخواله الأقربون ﷺ؛ لأن جده عبدالمطلب أمه سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النجار، تلقاه منهم رجال منهم سليط بن قيس وأبو سليط. فقالوا: يا نبي الله هلم إلى أخوالك في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» فلما مرت بديار بني الحارث بن الخزرج^(١) تلقاه جماعة منهم، منهم سعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، وخارجة بن زيد (رضي الله عنهم)، في رجال من بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا رسول الله هلم إلينا في العدد والعدة والمنعة. قال: «خلوا سبيلها إنها مأمورة» حتى بلغت ديار بني مالك بن النجار فبركت بجانب هذا المسجد. وكان إذ ذلك الوقت مريداً، والمربد موضع إصلاح التمر، وكان ليتيمين من بني مالك بن النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وابن إسحاق يقول^(٢):
إنهما في حجر معاذ بن عفرأ. وجاء في صحيح البخاري من طريق الزهري ما يقتضي أنهما في حجر أسعد بن زرارة (رضي الله عنه)^(٣). فبركت الناقة، فلما بركت قال ابن إسحاق^(٤): لم ينزل عنها رسول الله ﷺ حتى قامت ومشت قليلاً ثم التفتت ورجعت إلى مبركها الأول. وتحلحلت فيه ووضعت جرانها في الأرض. والجران: باطن عنق البعير، وكان أقرب بيت لذلك بيت أبي أيوب الأنصاري - خالد بن زيد (رضي الله عنه) - فأخذ رحل رسول الله ﷺ إلى بيته، ولم يزل ﷺ في بيت أبي أيوب حتى بنى هذا المسجد، وبنى مساكنه وحجره التي بجانبه فانقل إليها.

هذا ملخص عما جاء في هذا السفر المبارك، سفر الهجرة، فيه بعض روايات ثابتة في الصحيح، وفيه كثير منه في السيرة والأخبار، والسير

(١) كان مروره ﷺ بديار بني الحارث بن الخزرج قبل مروره ببني عدي بن النجار كما في رواية ابن إسحاق.

(٢) نقله ابن هشام ص ٥٢١.

(٣) تقدم تخريجها قريباً.

(٤) وعنه ابن هشام ص ٥٢١.

والأخبار تُحكى، وإنما يُحتاج إلى التصحيح فيها لما يتوقف عليه بعض الأحكام الشرعية، وهذه القصة ذكر بعض العلماء فيها أحكاماً مفيدة كثيرة منها:

أن النبي ﷺ استأمن كافرأ على سره وأمنه، وانتفع بخبرة كافر، ومثل هذا يحتاج إلى التنبيه عليه اليوم؛ لأن الناس اليوم بين مُفرط ومفرط في الانتفاع من الكفار، فبين مُفرط يزعم أن تقليد الكفار يلزم في كل شيء، حتى ولو كان الانسلاخ من دين الله، ومنهم مفرطون يقولون: لا تأخذوا عنهم شيئاً ولو من أمور الدنيا البحتة. والتحقيق أنه يؤخذ عنهم ما يجوز أخذه، ولا يؤخذ عنهم ما لا يجوز أخذه. والنبي ﷺ علم أمته ذلك في وقائع كثيرة، من ذلك أنه لما لم يجد إلا أميناً كافرأ ائتمن هذا الأمين الكافر وعامله وانتفع بخبرته العظيمة في الطرق على حد قولهم: «اجتن الثمار وألق الخشبة في النار»^(١) ولم يكن جامداً، ولم يقل: هذا كافر، والكافر خبيث، والانتفاع بالخبيث خبيث. بل تبرأ منه. لا، بل انتفع بخبرته واستأجره؛ ولهذا نظائر كثيرة، من ذلك: أن النبي ﷺ لما سمع بقدوم الأحزاب مع كثرتهم وقلة المؤمنين قال له سلمان الفارسي: كنا إذا خفنا خندقنا^(٢). فالخندق خطة عسكرية ابتدعتها أذهان فارس، وهم كفار يعبدون النار، فلم يقل النبي ﷺ: هذه خطة نجسة؛ لأن الكفار ابتدعوها. بل أخذ بها وانتفع بها وهو متمسك بدينه، وقد ثبت في صحيح مسلم ما يقتضي أن النبي ﷺ هم بمنع الغيلة، وهي وطأ المرضع؛ لأن العرب كانوا يعتقدون أن المرأة إذا كانت ترضع ولدها إذا جامعها زوجها وهي ترضع ولدها أن ذلك يضعف ولدها ويضعف عظمه ويضره، وكانوا إذا ضرب الرجل فنبأ سيفه عن الضريبة، قالوا: هذا من آثار الغيلة عليه، وُطئت أمه وهو يرضعها حتى كان شاعرهم يقول^(٣):

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

فوارسُ لم يُغَالُوا في رِضَاعٍ فَتَنَّبُوا في أَكْفُهُم السِّيُوفُ
 فسمع ﷺ عن الروم وفارس أنهم يفعلون هذا ولا يضر أولادهم فأخذ
 هذه الخطة الطيبة عن الروم وفارس^(١). وهذه الخطة العسكرية عن فارس
 والانتفاع بهذه الخبرة عن هذا الرجل الكافر الذي يعبد الوثن ليعلم أمته أنهم
 يأخذوا من الكفار أمورهم الدنيوية البحتة، ولا يقلدهم في كفرهم
 وضلالهم، وهذا واضح لا إشكال فيه.

ومعنى الآية الكريمة: أن الله (جلّ وعلا) يقول: إلا تنصروا نبي الله
 وتتقاعسوا وتتباطؤوا عنه في غزوة تبوك فالله يكفيه ولا يحتاج إليكم وقد
 نصره في مواضع أعسر وأشد من هذا، فقد نصره الله حين أخرجته الذين
 كفروا بما ذكرنا من تواطئهم عليه وإجائهم إلى الخروج. كان بعض العلماء
 يقول^(٢): يؤخذ من هذه الآية من سورة براءة بعض الأحكام الفقهية، وأن
 الإنسان إذا أكره إنساناً على الاعتداء، كأن أكرهه على أن يقتل أو يتلف
 مالا، أن المكره (بكسر الراء) أعني باسم الفاعل، يلزمه غرم ذلك
 والقصاص فيه، لأن [الله]^(٣) نسب الإخراج إليهم؛ لأنهم أجزؤوا النبي ﷺ
 إليه. فسمى المكره فاعلاً، فهذا له وجه من النظر ظاهر. وهذا معنى قوله:
 ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا [التوبة: آية ٤٠] كَقَوْلِهِ: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرِيْبَةٍ هِيَ أَشَدُّ
 قُوَّةً مِّن قَرِيْبِكَ الَّتِي أَرْحَمَكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾ [محمد: آية ١٣]
 ﴿وَهَكُومًا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: آية ١٣] ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا
 بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: آية ١].

وقوله: ﴿ثَانِيكٍ أَثْنَيْنِ﴾ حال ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في حاله
 ﴿ثَانِيكٍ أَثْنَيْنِ﴾ أي: واحداً من اثنين ليس معه إلا رجل واحد ﴿إِذْ هُمَا
 فِي الْفَكَارِ﴾ بدل من قوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ف (إذ) الثانية بدل
 من (إذ) الأولى، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ﴾ الغار هو الثقب في الجبل، والمراد

(١) تقدم تخريجه عند تفسير الآية (١١٥) من سورة الأنعام.

(٢) انظر: القرطبي (١٤٣/٨).

(٣) في الأصل: «النبي». وهو سبق لسان.

به الغار المذكور في جبل ثور من جبال مكة ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ وقد أجمع جميع المسلمين أنه أبو بكر (رضي الله عنه). وفي هذه الآية من سورة براءة أعظم منقبة لأبي بكر (رضي الله عنه)، فما يحاول به الإمامية وغيرهم من الشيعة من الكلام في أبي بكر (رضي الله عنه) وتفنيده ما دلت عليه هذه الآية من فضله وعظمته، كله باطل لا يلتفت إليه، وقد قال بعض العلماء^(١): من أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله كفر لتكذيبه بهذه الآية الكريمة.

﴿لَا تَحْزَنْ﴾ الحزن في لغة العرب^(٢) هو الغم من أمر فائت، وربما تُطلقه العرب على الغم من أمر مستقبل نادراً، كما هنا. والخوف: الغم من أمر مستقبل، وربما أطلقتها العرب على الغم من أمر فائت، أي: لا يداخلك حزن من الخوف.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: آية ٤٠] وقد قال أبو بكر في قصة الغار قصيدته الرائية المشهورة التي يبين فيها قول النبي ﷺ هذا له حيث يقول^(٣):

قال الرسول ولم يجزغ يوقرني ونحن في سُدفة من ظُلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا وقد تكفّل لي منه بإظهار
إلى آخر القصيدة المشهورة، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ العرب تقول: (حَزَن) بكسر الزاء (يحزَن) بفتحها (حَزَنًا) على القياس و(حُزَنًا) إذا أصابه الحَزَن، وأكثر ما يستعمل الحزن في الغم من أمر فائت، وقد يُطلق على الغم من أمر مستقبل كما هنا.

(١) انظر: القرطبي (١٤٦/٨).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأنعام.

(٣) البيتان ذكرهما ابن كثير في تاريخه (١٨٣/٣) ولفظهما هناك:

قال النبي - ولم أجزع - يوقرني ونحن في سُدْف من ظُلمة الغار
لا تخش شيئاً فإن الله ثالثنا وقد توكل لي منه بإظهار

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ﴾ هذه معية خاصة، والله (جلّ وعلا) يتن في كتابه أن له مع خلقه معية خاصة ومعية عامة. أما المعية الخاصة كقوله هنا: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين﴾ [الشعراء: آية ٦٢]، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [طه: آية ٤٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، فمعنى هذه المعية: أن الله ناصرهم وحافظهم وكالثمير ومعينهم، هذه هي المعية المذكورة هنا.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ السكينة: (فعيلة) من السكون، وهي الطمأنينة وثبوت الجأش حتى لا يكون فيه خوف ولا حزن. ﴿عَلَيْهِ﴾ التحقيق أن الضمير عائد إلى النبي ﷺ، وقال بعضهم: هو إلى أبي بكر^(١)؛ لأنه هو الحزين الذي يتشوش ضميره ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ [التوبة: آية ٤٠] أي: أيد نبي الله ﷺ أي: قواه ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ ظاهر هذه الآية الكريمة أن وقت إتيان الكفار إلى الغار أن الله (جلّ وعلا) جعل عند النبي في ذلك الوقت جنوداً من الملائكة لم يرها الناس، لو أراد الكفار أن يفعلوا به شيئاً لأهلكوهم، وهذا هو ظاهر الآية، وأكثر المفسرين يقولون: إن معنى ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ يعني: ما وقع من نزول الملائكة يوم بدر، ويوم الأحزاب، ويوم حنين كما تقدم إيضاحه. وظاهر القرآن أن جنود الملائكة تحيط به في ذلك الوقت، والله الذي هو أعظم معه بنصره وعزه وقوته في ذلك الوقت لا يخاف شيئاً، ولكن الله (جلّ وعلا) يشرع بأفعال رسله وأقوالهم لخلقهم، فالله (جلّ وعلا) مع عظمته وجلاله وتصريح النبي بأنه معه، وأن الله أيدته بجنود الملائكة، مع هذا يدخل في غار في ظلمة الليل، والغار فيه الحيات وخشاش الأرض؛ ليسن للناس ويشرع لهم حمل أعباء تبليغ الرسالة والدعوة، وأن يتحملوا في شأن الدعوة إلى الله كل البلايا والمشاق، ويستهنوا فيها بكل عظيم، هذا هو السر في ذلك، وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا﴾ السفلى: تأنيث الأسفل، وهو الذي يفضل غيره في السفالة والخساسة والانحطاط، كلمة الكفار جعلها الله هي

١/٨

(١) انظر هذه الأقوال في ابن جرير (٢٦١/١٤)، القرطبي (١٤٨/٨).

السفلى، وكلمة الكفار هي كلمة الكفر، وعبادة الأصنام، وعبادة غير الله (جلّ وعلا). ومعنى كونها هي السفلى: اندحار أهلها وقمعهم وإظهار كلمة الله.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ كلمة الله: لا إله إلا الله وما تضمنته، صارت هي العليا، وصار الحكم لها، وصار صنديد الكفرة بين مقتول ومأسور ومسلم، وصارت أحكام الله هي التي تنفذ، وكلمته هي التي يعمل بها في أرضه، ودحض الله الكفار وأهلكهم. وهذا معنى قوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ العزيز: الغالب الذي لا يغلبه شيء. والعزة: الغلبة، ومنه: ﴿وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: آية ٨] أي: لله الغلبة ولرسوله وللمؤمنين، ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخَطَابِ﴾ [ص: آية ٢٣] أي: غلبني في الخصام. ومن أمثال العرب: «من عزّ بز»^(١) يعنون من غلب استلب. ومنه قول الخنساء بنت عمرو بن الشريد السلمية الشاعرة^(٢):

كأن لم يكونوا جمى يُخْتَشَى إذ الناس إذ ذاك مَنْ عَزَّ بَزًا
والحكيم^(٣): هو من يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها. وهذان الاسمان من أسماء الله (العزيز الحكيم) المتضمنان هاتين الصفتين من صفات الله، وهي عزه وحكمته وحكمه هما أبلغ شيء في امثال أمره وطاعته (جلّ وعلا)؛ لأن عزته أي غلبته وقوته وقهره وسلطانه يجعلك أيها المسكين العظيم تخافه وتخضع لأمره ونهيه، وكونه (جلّ وعلا) حكيماً لا يأمرك إلا بما فيه لك الخير، ولا ينهك إلا عما فيه لك الشر، ذلك يقتضي أيضاً أن تطيعه وتخضع لأمره ونهيه. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٤٠].

قال تعالى: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ

(١) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الأنعام.

اللَّهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا
لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْكُمُ الشُّقَّةُ وَسَبَحِلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَمُرَجِنًا مَعَكُمْ
يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى
يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ [التوبة: الآيات ٤١ - ٤٣].

يقول الله (جل وعلا): ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

قال جماعة من العلماء: هذه الآية الكريمة هي أول آية نزلت من
سورة براءة. قالوا: أول ما نزل منها: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ الآية، ثم
بعد ذلك نزل أولها وآخرها^(١).

وقوله: ﴿انْفِرُوا﴾ أمرٌ بالنفر، والنفر المراد به هنا: التهيؤ والحركة
للجهاد في سبيل الله، وكل متحرك بسرعة لأمر من الأمور تقول العرب:
نفر له، كقولهم: النَّفْرُ غداة كذا. يعنون: تفرق الناس من منى ذاهبين إلى
أوطانهم؛ لأنهم تنقضي مهمة حجهم فيسرعون الحركة متفرقين إلى
أوطانهم. كما قال ابن أبي ربيعة^(٢):

لا نلتقي إلا ثلاث منى حتى يفرق بيننا النَّفْرُ
فمعنى قوله: ﴿انْفِرُوا﴾ تحركوا مسرعين للجهاد في سبيل الله.

وقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ حالان، والخِفَاف جمع خفيف. والثقال:
جمع ثقيل. و«الْفَعِيل» إذا كان وصفاً يكثر جمعه على (الْفِعَال) جمع كثرة
كما هو معروف في محله.

والمراد بقوله: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ جاء فيه لأهل العلم ما يقرب من
خمسة عشر قولاً أو أكثر^(٣)، والمراد بها كلها: إنما هو تمثيل الخفة

(١) ذكره ابن جرير بسنده عن أبي الضحى (٢٦٩/١٤، ٢٧٠) وعزاه القرطبي (١٤٩/٨) لأبي
مالك الغفاري.

(٢) البيت في ديوانه ص ١٩٠.

(٣) انظر ابن جرير (٢٦٢/١٤ - ٢٦٩)، القرطبي (١٥٠/٨).

والثقل. والمعنى الجامع لذلك كله: ﴿أَنْفِرُوا﴾ تحركوا مسرعين إلى جهاد الروم إلى تبوك في حال كونكم خفافاً أو ثقالاً.

والمراد بالخفاف: الذين تخف عليهم الحركة لتهيؤ أسباب القوة والحركة عندهم.

والثقال: الذين يثقل عليهم ذلك لسبب من الأسباب. وأقوال العلماء في هذا كالأمثلة لذلك، كقول من قال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ شباباً وشيوخاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مرضاً وصحاحاً. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نشاطاً وغير نشاط. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أصحاب عيال وغير أصحاب عيال. وقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: أصحاب ضياع وبساتين أو غير أصحابها. فهذه أقوال كثيرة. كقول من قال: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ مشاغيل وغير مشاغيل. إلى ذلك (...)(١).

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَفْزِنُكَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ
﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٤٤، ٤٥].

لما دعا النبي ﷺ المسلمين إلى النفر في غزوة تبوك جاء رؤساء المنافقين كعبدالله بن أبي بن سلول، والجد بن قيس، وهؤلاء أعظم المنافقين، ومن سار في ركابهم، جاؤوا إلى النبي ﷺ يستأذنونهم في الجلوس والتخلف عن غزوة تبوك؛ لأنهم أعداء للإسلام في باطن أمرهم، فبين الله أن ذلك الاستئذان رغبة في التخلف ليس من فعال المسلمين، وأنه من فعال الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. قال: ﴿لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ...﴾. الجمهور يقرؤون: ﴿يَسْتَفْزِنُكَ﴾ والسوسي: ﴿يستأذنك﴾ بإبدال الهمزة (٢).

﴿لَا يَسْتَفْزِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ يصدقون بالله (جلّ وعلا)،

(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل.

(٢) انظر: الإقناع لابن البادش (٤١٢/١)، النشر لابن الجزري (٣٩٠/١).

وإيمانهم بالله الإيمان بالله إذا أطلق شمل الإيمان من الجهات الثلاث، وهو تصديق القلب بالاعتقاد، واللسان بالإقرار، والجوارح بالعمل. فالمؤمن بمعنى الإيمان الصحيح هو من آمن قلبه ولسانه وجوارحه. وهذا الاستئذان ليس من أفعال المسلمين ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الإيمان باليوم الآخر كثيراً ما يجعله الله مذكوراً مع الإيمان به؛ لأن من لم يؤمن باليوم الآخر لا يخاف بأساً يوم القيامة ولا يطمع في خير، فهو يفعل ما يشاء، فالكفر باليوم الآخر رأس كل شر، والإيمان به رأس كل خير.

﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ (أَنْ) هذه كلام العلماء فيها راجع إلى قولين^(١):

أحدهما: أنها هذه التي يُحذف قبلها حرف الجر. والمعنى على هذا: «لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله في أن يجاهدوا» أي: في الجهاد وترك الجهاد؛ لأن المؤمنين بالله مسارعون إلى مرضاة الله، منقادون إلى الجهاد، سائرون مع النبي ﷺ.

لا يستأذنون لأجل أن يؤذن لهم في التخلف، وقد تقرر في علم العربية أن حذف حرف الجر قبل المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها و(أَنْ) وصلتها مطرد لا نزاع في اطراده^(٢)، ومحل المصدر بعد حذف حرف الجر أكثر علماء العربية يقولون منصوب، وهو الذي عليه كبرائهم. وقال قوم: هو مخفوض. واستدلوا على خفضه بقول الشاعر^(٣):

فما زُرْتُ لَيْلَى أَنْ تَكُونَ حَبِيبَةً إِلَيَّ وَلَا دَيْنَ بِهَا أَنَا طَائِلِبُهُ
قالوا: خفض «ولا دين» عطفاً على المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها بعد حذف حرف الجر. قالوا: والأصل: «وما زرت ليلى لكونها حبيبة، ولا لدين» والمحققون منهم يقولون: محله نصب. وهذا الذي عليه جمهورهم، قالوا: ولا شاهد في البيت لأنه مما يُسمى عند النحويين عطف التوهم. وحاصل عطف

(١) انظر: الدر المصون (٥٧/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

التوهم عند النحويين أنه تكون الكلمة يجوز فيها الخفض وليست بمخفضة، فيعطفون عليها المخفوض نظراً إلى جواز خفضها، وإن كانت غير مخفوضة في الواقع^(١). ومن شواهد المشهورة قول زهير بن أبي سلمى^(٢):

بَدَا لِي أَنِّي لَسْتُ مُدْرِكَ مَا مَضَى وَلَا سَابِقِ شَيْئاً إِذَا كَانَ جَائِياً
فقوله: (ولا سابق) بالخفض في رواية بيت زهير عطفاً على «مدرک» وهو منصوب، إلا أنه يجوز جره بالباء، فيجوز: لست بمدرك ولا سابق. ونظيره قول الآخر^(٣):

مَشَائِمُ لَيْسُوا مُضْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنِ غُرَائِهَا
كما هو معلوم في محله. ونحن نذكر هذه الأشياء العربية وإن كان أكثر المستمعين لا يفهمونها لأننا نريد أن تكون هذه الدروس القرآنية يستفيد منها كل الحاضرين على قدر استعداداتهم، والله يوفق الجميع للخير.

الوجه الثاني: أَنْ (أَنْ) هذه هي التي تُحذف قبلها (لا) أو مضاف كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النساء: آية ١٧٦] ففي قوله: ﴿أَنْ تَضَلُّوا﴾ ونحوه وجهان. أي: يبين الله لكم لثلاث تضلوا، أو كراهة أن تضلوا. هذان الوجهان في (أَنْ) في القرآن فيما يماثل هذا كقوله: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ وقوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا﴾ [الحجرات: آية ٦] أي: لثلاث تصيبوا، أو كراهة أن تصيبوا. وهذان الوجهان في قوله: ﴿لَا يَسْتَنْذِرُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: الآية ٤٤] بل إذا أمرت بالجهاد قاموا مسرعين ممثلين أمر الله، راغبين في غزو الكفرة لأن تكون كلمة الله هي العليا. وهذه الآية تدل على أن المؤمن بمعنى المؤمن الصحيح من صفاته الكاشفة أن يكون مبادراً للجهاد في سبيل الله مضحياً بالنفيس والغالي من نفسه وماله

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

(٢) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

(٣) تقدم هذا الشاهد في الموضع السابق.

للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله (جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿لَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤] التقوى في قلوب الناس لا تخفى على الله، فالله يعلم ما في قلوب الناس، لا يخفى عليه برٌّ من فاجر، ولا متقي من عاصي.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: آية ٢٣٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَحَنَّ آدَمَ مِنْ جَبَلٍ أَوْرِيذٍ﴾ [ق: آية ١٦] ﴿عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ لا يخفى عليه المتقي من العاصي، فمن زعم للنبي أنه معه، وأنه يحب الإسلام والجهاد، إلا أنه معذور بكذا وكذا لأعدار كاذبة فالله عالم بكذبه، عالم بالمتقي حقاً وبغيره، لا يخفى عليه شيء من ذلك. وفي هذا تهديد للمنافقين الذين يدعون التقوى ويضمرون غيرها، ووعده عظيم للمؤمنين الذين تنطوي قلوبهم على تقوى الله حقاً. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤].

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٤٥] قد تقرر عند جماهير العلماء أن (إنما) أداة حصر، والصحيح أن (إنما) أداة حصر كما حرره علماء الأصول في مبحث (دليل الخطاب) أعني (مفهوم المخالفة) والبلاغيون في مبحث (القصر)^(١) ف (إنما) أداة حصر. يعني: لا يستعذرك هذا الاستئذان الذي يُراد به التخلف عن الجهاد والقعود لأعدار كاذبة.

﴿إِنَّمَا يَسْتَعِدُّنَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الذين لا يصدقون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر فلا يرغبون فيما عند الله، ولا يخافون عذاب الله.

وقوله: ﴿وَأَرْزَأْتِ قُلُوبَهُمْ﴾ شَكَتِ قُلُوبَهُمْ. ف ﴿وَأَرْزَأْتِ﴾ معناه: شَكَتِ. والتاء فيه تاء الافتعال. وأصل حروفه الأصلية: الراء في محل الفاء، والياء في محل العين، والباء في محل اللام، أصل المادة (رَئِبَ) بـ (راءٍ) فـ (ياء) فـ (باء) والتاء تاء الافتعال، وأصلها (وارتبت قلوبهم)^(٢)

(١) مضى عند تفسير الآية (٦٥) من سورة الأعراف.

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ١٣٣، ٣٩١، ٣٩٣.

أي: داخلها الريب. أصل الريب في لغة العرب معناه الإزعاج والإقلاق. هذا أصل معناه الأصلي، تقول العرب: رابه الأمر. إذا أزعجه وأفلقه. وهذا هو معناه الحقيقي، ومنه قول توبة بن الحُمَيْرِ الخفاجي^(١):

وكنْتُ إذا ما زُرْتُ لَيْلَى تَبَرَّقَعَتْ وقد رَابَنِي مِنْهَا الْعَدَاةُ سُفُورُهَا

أي: أزعجني وأفلقني، وكلما جاء الريب في القرآن والارتياب فمعناه الشك على كل حال. وإنما سُمِّي الشاك مرتاباً وأطلق اسم الريب على الشك لأن الشاك لا تطمئن نفسه إلى طرف الإيجاب، ولا إلى طرف السلب، فهو تارة يميل إلى الإيجاب، وتارة يميل إلى السلب، فنفسه منزعة قلقة ليست مطمئنة إلى الثبوت ولا إلى النفي. ومعنى ﴿وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شَكَتْ قُلُوبُهُمْ والعياذ بالله. وأسند الارتياب إلى القلوب لأن القلب هو محل الإدراك الذي يكون فيه الشك، ويكون فيه اليقين، ويكون فيه العلم والإدراك. وهذا الارتياب سببته لهم المؤمنون يوم القيامة كما يأتي بيانه في سورة الحديد؛ لأنه سيأتي في سورة الحديد - إن شاء الله - أن كل من كان يقول: لا إله إلا الله في دار الدنيا يعطيه الله نوراً، فيكون عند المنافقين نور، وعند المؤمنين نور، فإذا - مثلاً - اشتد الأمر وصار الناس في فصل الخطاب انظفاً نور المنافقين وبقوا في ظلام دامس، وعند ذلك يقول المؤمنون: ﴿رَبَّنَا آتِنَا نُورَنَا﴾ [التحریم: آية ٨] ويقول المنافقون للمؤمنين: ﴿انظُرُونَا نَقْنِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قَبْلَ أَنْ رَجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْبُ بَاطِنُهُمْ فِيهِ الرِّحْمَةَ وظَهَرُهُمْ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: آية ١٣] فإذا ضُرب ذلك السور بين المنافقين والمؤمنين قال المنافقون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: آية ١٤] ألم نكن معكم في دار الدنيا؟ وكنا نحضر معكم المساجد والغزوات، ونأتي معكم المواطن؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا ﴿وَلَكِنَّكُمْ فُتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ وهذا محل الشاهد. ذلك الارتياب الذي قال عنهم هنا: ﴿وَأَزْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَعِيهِمْ يَرْدَدُونَ﴾ [التوبة: آية ٤٥] هو من الأسباب التي تجعلهم يوم القيامة وراء السور - والعياذ بالله - .

(١) مضى عند تفسير الآية (٢) من سورة الأعراف.

وقوله: ﴿فَهَمَّ فِي رَيْبِهِمْ﴾ أي: فهم في شكهم ﴿بَرَدَدُورٌ﴾ أي: يذهبون حائرين تارة يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى، يذهبون ويرجعون، يتوجهون إلى الإيمان مرة ويكفرون مرة (والعياذ بالله جل وعلا). وهذا معنى قوله: ﴿وَأَزَقَاتٍ قُلُوبُهُمْ فَهَمَّ فِي رَيْبِهِمْ بَرَدَدُورٌ﴾.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لِحُلُلِكُمْ بِبِعُونِكُمْ الْقِنَنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤٦، ٤٧].

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ هؤلاء المنافقون الذين جاؤوا يستأذنون النبي ﷺ في القعود كعبدالله بن أبي، والجد بن قيس، وأضرابهم، قال الله لنبية إنهم يستأذنون ويعتذرون الأعذار الكاذبة وهم في باطن أمرهم مصرّون على القعود وعدم الخروج، وبين دليل ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ لو أراد هؤلاء المنافقون المستأذنون الخروج معك إلى غزوة تبوك ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ معك ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا للخروج وتهيؤوا له؛ لأن من يعزم على الخروج إلى قتال العدو يتهايا قبل ذلك ويستعد لذلك بإحضار العدة اللازمة لذلك، ولكن هؤلاء لم يعدوا شيئاً، ولم يُبالوا بشيء، فدل على أنهم مصرّون عازمون على التخلف. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ﴾ [التوبة: آية ٤٦] أي: للخروج ﴿عُدَّةً﴾ أي: لتأهبوا له أهبتة وتهيؤوا له بإعداد ما يلزمه.

﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ كره الله انبعاثهم كوناً وقدرأ؛ لأن الله يعلم أنهم لو خرجوا مع رسوله ما كان في خروجهم له إلا الشر، فلا يجد منهم إلا الضرر والشر، فثبطهم عنه بحكمته لطفأ برسوله ﷺ ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ الانبعاث مصدر انبعث ينبعث إذا ذهب إلى الشيء. ومنه: ﴿إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾﴾ [الشمس: آية ١٢] ومعنى ﴿انبِعَاثَهُمْ﴾ أي: خروجهم غازين معك إلى تبوك، كره الله خروجهم معك لضرر ذلك عليك، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ عن ذلك الخروج مراعاة لمصلحتك. والتثبيط: التبطئة

والتعويق وعدم الخروج، فثبطهم عنك مراعاة لمصلحتك ومصلحة من معك من المسلمين، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿قِيلَ﴾ هنا مبني للمفعول حذف فاعله، واختلف العلماء في فاعله المحذوف^(١)، فقال بعض العلماء: قال بعضهم لبعض في سرهم وباطن أمرهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ واستأذنه لتقعوا. وقال بعضهم: أذن لهم النبي ﷺ فقال: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ وعلى هذا القول ف (اقعدوا) هو الإذن. وبعضهم يقول: قوله: ﴿مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ أذن لهم إذناً صاحبه لا يرضى عنهم. والمراد بالقاعدين: الذين ليس من شأنهم الحضور، كالصبيان والزمنى والنساء، ونحو ذلك ممن ليس من شأنه الخروج للقتال.

وقال بعض العلماء: هو كوني قدرى، الله يقول للشيء: «كن فيكون»، فقال: «اقعدوا». فكان قعودهم، واختار هذا بعض العلماء.

ثم إن الله قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: آية ٤٧] لو خرج فيكم رؤساء هؤلاء المنافقين الذين يحركونهم ويرأسونهم في الشر كابن أبي بن سلول والجد بن قيس - قبحهما الله - وأمثالهم ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم﴾ غازين إلى تبوك ﴿مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ ما حصلت منهم على فائدة ولم يزيدوكم إلا خبالاً. والخبال معناه: الفساد. أي: ما زادوكم إلا فساداً؛ لأنهم يفسدون عليكم.

وقوله: ﴿وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ﴾ العرب تقول: أوضع يوضع إضاعاً. إذا أسرع في سيره. فالإيضاع: الإسراع في السير. واسم فاعله (موضع) ومنه قول امرئ القيس^(٢):

أَرَأَنَا مُوَضِّعِينَ لَأَمْرِ غَيْبٍ وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
و﴿خِلَالَكُمْ﴾ معناه: بينكم، يعني: لا يزيدونكم إلا فساداً على فساد،

(١) انظر: القرطبي (١٥٦/٨)، البحر المحيط (٤٨/٥).

(٢) ديوانه ص ٤٣.

ولأسرعوا فيما بينكم بالمشي بالنميمة وإلقاء المخالفات والأراجيف والأكاذيب التي تضر المسلمين ولا تنفعهم. وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ لأن العدو إذا كان في ثياب صديق يفعل كل شر ويضر كل مضرة من حيث لا يشعر به، فهم لا يزيدونكم إلا الفساد. أي: لا يزيدونكم شيئاً كائناً ما كان إلا الفساد والخبال، فإنهم يفسدون عليكم وكأنهم يفسدون وهم في المدينة، فإذا سافروا كان خبالهم وفسادهم أكثر؛ لأنهم يلقون بينهم بالنمائم ويلقون الأراجيف والتخويف من المشركين وإلقاء التشاويش كي يخاف المسلمون، ولتفسد ذات بينهم، وهم أعداء - قبحهم الله - وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا وَضَعُوا لَكُمْ أَلْفَنَةً﴾ ﴿يَبْغُونَكُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ومعناه يطلبون لكم الفتنة. ﴿أَلْفَنَةً﴾ هي ما يوقعون بكم من الشر، من المعادة بينكم بإلقاء النميمة والخوف من الأعداء بإلقاء الأراجيف الكاذبة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ في هذا الحرف وجهان من التفسير للعلماء^(١):

قال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أي: عيون يسمعون الأخبار ويأتونهم بها ليقدروا بذلك على ما شاؤوا من الفساد والخبال.

وقال بعض العلماء: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ هم سادات وأشراف في قومهم، وفيكم من يسمع لهم لمكانتهم وشرفهم في قبيلته كابن أبي والجد بن قيس ومن يكون له شرف وسيادة في قومه يسمعون منه وتؤثر دعايته السيئة عليهم بإلقاء الفتن والأراجيف. وهذا معنى قوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ وهذه الآية الكريمة نص الله (جلّ وعلا) فيها على إحاطة علمه، وأنه (جلّ وعلا) من شدة إحاطة علمه بالأشياء يعلم الأشياء الذي سبق في علمه أنها لا تكون^(٢)، هو يعلم أن لو كانت كيف تكون؛ لأن هؤلاء المتخلفين عن غزوة تبوك كالجد بن قيس وعبدالله بن أبي بن سلول

(١) انظر: ابن جرير (٢٨١/١٤)، القرطبي (١٥٧/٨)، ابن كثير (٣٦١/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

لا يحضرونها أبداً؛ لأن الله كره انبعاثهم فثبّطهم عنها لحكمة إلهية، ومصالحة للمسلمين، فهم لا يحضرونها أبداً، وقد سبق في علم الله الأزلي أنهم لا يحضرونها أبداً، وأنهم لا يخرجون معه أبداً، وخروجهم هذا الذي سبق في سابق علمه أنه لا يكون صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، فعرفنا من هذا أنه (جلّ وعلا) يعلم الموجودات والمستحيلات والمعدومات والجائزات، حتى إنه من إحاطة علمه ليعلم المعدوم الذي سبق في سابق علمه أنه لا يوجد يعلم أن لو وُجد كيف يكون لشدة إحاطة علمه بالأشياء، فخروج هؤلاء لا يكون، وهو عالم ذلك الخروج الذي لا يكون أن لو كان كيف يكون، كما قال هنا: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا﴾ الآية [التوبة: آية ٤٧] والآيات الدالة على هذا المعنى كثيرة جداً، من ذلك ما قدّمنا في سورة الأنعام من أن الكفار يوم القيامة إذا رأوا القيامة وعانوا الحقيقة تمنوا أن يردوا إلى الدنيا مرة أخرى ليصدقوا الرسل ويؤمنوا بالله، وهذا الرد الذي تمنوه علم الله أنه لا يكون، وقد صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون، وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُوقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَلَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: آية ٢٧] هذا الرد الذي تمنوه هو عالم أنه لا يكون، وقد صرح بأنه عالم أن لو كان كيف يكون حيث قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] والآيات بمثل هذا كثيرة في كتاب الله كقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْحَوَىٰ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المؤمنون: آية ٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ الآية [النساء: آية ٦٦].

فهذه الآيات من كتاب الله دلت على إحاطة علم الله (جلّ وعلا) بكل شيء، حتى بالمعدومات التي سبق في علمه أنها لا توجد، فهو عالم أن لو وُجدت كيف يكون، فهو عالم بأن أبا لهب لن يؤمن، وهو يعلم لو آمن أبو لهب أيكون إيمانه تاماً أو ناقصاً، وهكذا. وهذا يدل على أن المحيط بالعلم هو الله (جلّ وعلا) وحده، وخلق الله لا يعلمون من العلم إلا ما علمهم العليم

الخبير الأعظم كما دلّ عليه هذا القرآن في آيات كثيرة، وإيضاح ذلك أن أعلم المخلوقين الملائكة والرسول - على جميعهم صلوات الله وسلامه - فالملائكة لما قال لهم الله: ﴿فَقَالَ أَنبِيُّنَا بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: الآيتان ٣١، ٣٢] قولهم: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ (لا) فيه، هي (لا) التي لنفي الجنس، فنفوا جنس العلم من أصله عن أنفسهم إلا شيئاً علمهم الله إياه ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾.

وكذلك الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) مع علمهم وفضلهم وجلالتهم لا يعلمون من أمر الله إلا شيئاً علمهم الله إياه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ أَلِيمٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: آية ٨٥].

هذا سيد الرسل وأكمل الخلق نبينا محمد (صلوات الله وسلامه عليه) - وهو هو - رُميت أحب أزواجه إليه بفرية وإفك، حيث رُميت بصفوان بن المعطل السلمي في غزوة المريسيع، وهو لا يدري ما قيل عنها أحق أو كذب، وكان يقول لها: يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فتوبني، فإن الله يتوب عليك^(١). ولم يدري هل ما قيل عنها حق أو كذب حتى أخبره العليم الخبير (جلّ وعلا) قال: ﴿أَوَلَيْكَ مِثْرَةٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: آية ٢٦].

وهذا نبي الله إبراهيم إمام الأنبياء (صلوات الله عليهم جميعاً) ذبح عجله وتعب هو وامرأته في إنضاج العجل يظن أن الملائكة يأكلون، لا يدري من هم، حتى إنه لما رآهم لم يأكلوا خاف منهم كما في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: آية ٧٠] وصرح لهم بأنه خائف منهم حيث قال: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَنَحْنُ﴾ [الحجر: آية ٥٢] حتى ضحكت امرأته، ولما ارتحلوا عنه ونزلوا بنبي الله لوط - وهو هو - ضاق بهم ذرعاً وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: آية ٧٧] ولم يدري أنهم ملائكة حتى قال كلامه المحزن: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٌ سِدِيرٌ﴾

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٩) من سورة الأنعام.

[هود: آية ٨٠] وما علم أنهم ملائكة حتى قالوا له: ﴿يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ الآيات [هود: آية ٨١].

وهذا نبي الله نوح - وهو هو - يقول لربه: ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِ وَادٍ وَعَدَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: آية ٤٥] ولا يدري أن ذلك الولد الذي يطلب ربه أن ينجيه أنه كافر ليس من أهله الموعود بنجاتهم حتى قال له العليم الخبير: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّكِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّهُ يَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: آية ٤٦] فما قال نوح إلا أن قال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: آية ٤٧].

وهذا نبي الله يعقوب - وهو هو - قال الله فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: آية ٦٨] ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم، وولده في مصر بينه وبينه مراحل لا يدري ما شأنه ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّبُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ الآية [يوسف: آية ٨٧].

وهذا نبي الله سليمان - وهو هو - أعطاه الله الرياح غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له مردة الشياطين والجن، ما كان يدري عن مأرب وجماعة بلقيس حتى ذهب إليهم الضعيف المسكين الهدهد، ولما توعد الهدهد، وكان الهدهد حصل منهم بعض علم الجغرافيا والتاريخ، وهذا العلم لم يكن عند سليمان في ذلك الوقت، وكان سليمان يهدد الهدهد ويقول: ﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَكِيدًا أَوْ لَأَأَذِجَنَّكَ أَوْ لِيَأْتِيَنِي سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: آية ٢١] فجاء الهدهد لما عرف بعض علم جغرافية اليمن وتأريخها، وسليمان لا يدري عنه، أفاده هذا العلم قوة ووقف أمام سليمان وقفة الرجل الصامد، ونسب الإحاطة لنفسه ونفاها عن سليمان وقال: ﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِشْتِكَ مِنْ سَيِّئِ بِنْتِكُمْ يَفِينٌ﴾ [٢٢] إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمَلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرْشُ عَظِيمٌ [٢٣] وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا﴾ الآيات [النمل: الآيات ٢٢-٢٤]. فسليمان ما كان يدري عن هذا، ولم يقل له إلا أن قال: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَالِقَهُ إِيَّيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [٢٨] وأمثال هذا كثير. فالله (جل وعلا) هو العليم

الأعظم، والملائكة والرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) يعلمون من علم الله ما علمهم الله من غيبه وما لم يعلمهم لم يعلموه، وهو (جلّ وعلا) وحده هو المحيط علمه بكل شيء، العالم بما كان وما يكون، وبالمعدوم والموجود، والمعدوم الذي لا يوجد أن لو وُجد كيف يكون ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: آية ٦٥] وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَوْا فَذَلِكُمْ يَبْغُونَكُمْ أَلْفَنَّةً وَفِيكُمْ سَعَنُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ كقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٤] فقال في الأولى: إن تقوى المتقين لا تخفى عليه، وأن ظلم الظالمين لا يخفى عليه.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن أصل معنى الظلم في لغة العرب هو: وضع الشيء في غير محله، مادة الظاء واللام والميم (ظلم) معناها وضع الشيء في غير محله. هذا هو أصل معنى هذه المادة، وأعظم أنواعها هو الشرك بالله؛ لأن الشرك بالله وضع للعبادة في غير موضعها؛ لأن من يأكل نعم الله ويتقلب في رزقه وعافيته إذا كان يعبد غيره فقد ظلم، أي: وضع العبادة في غير موضعها، كما قال تعالى عن لقمان: ﴿يَبْنِي لَكَ شُرَكَاءَ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: آية ١٣] وقال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: آية ٢٥٤] ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: آية ١٠٦] ولأجل هذا كان الظلم في القرآن يطلق على الشرك وعلى غيره من المعاصي والمخالفات، وثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أن قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: آية ٨٢] قال: ولم يلبسوا إيمانهم بشرك^(٢). هذا أصل الظلم في لغة العرب.

وهو في الشرع على نوعين: ظلم أكبر، وظلم دون ظلم، فالظلم

(١)(٢) مضي عند تفسير الآية (٥١) من سورة البقرة.

الأكبر هو وضع العبادة في غير موضعها، وهو الشرك بالله. وظلم دون ظلم وهو أن يطيع عدوه إبليس ويعصي ربه، فالذي أطاع الشيطان وعصى الله قد ظلم نفسه؛ لأنه عرضها لسخط الله ووضع الطاعة في غير موضعها، والمعصية في غير موضعها. وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧] وهذا المعنى مشهور في كلام العرب، أن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، ومنه قد تقول العرب للذي يضرب لبنه قبل أن يروب: هو ظالم؛ لأنه وضع الضرب في غير موضعه؛ لأن ضربه قبل أن يروب يُضيع زبده، وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

وقائلة ظلمتُ لكم سقائي وهل يخفى على العكدي الظليمُ
«ظلمتُ لكم سقائي» تعني: ضربته لكم قبل أن يروب. والعكدي: عصب اللسان. يعني: أن اللسان لا يخفى عليه الظليم وغير الظليم، أي الذي ضرب قبل أن يروب وغيره، ومن هذا المعنى قول الآخر^(٢):

وصاحبٍ صدقي لم تَرِدْني شكَّائهُ ظَلَمْتُ وفي ظَلَمِي لَهُ عَامِداً أَجْرُ
ومن هنا قالت العرب للأرض الذي حُفِرَ فيها وليست محلاً للحفر: «مظلومة» ومنه قول نابغة ذبيان^(٣):

إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَأَيَّ مَا أُبَيَّنُّهَا والنَّوِي كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ
وقالوا للتراب المتزوع من القبر «ظليم» لأن أصل القبر يُحفر في محل لم يحفر قبل ذلك عادة، فهو حفر في محل ليس موضعاً للحفر، ومنه قول الشاعر^(٤):

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق.

فَأَصْبَحَ فِي غَبْرَاءَ بَعْدَ إِشَاحَةٍ مِنْ الْعَيْشِ مُرَدودٌ عَلَيْهَا ظَلِيمُهَا
 وجاء الظلم في القرآن الكريم بمعنى النقص في آية واحدة في سورة
 الكهف، وهي قوله: ﴿كَلِمَاتُ الْجَنَانِ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:
 آية ٢٣] أي: لم تنقص منه شيئاً. هذه وحدها في القرآن جاء فيها الظلم
 بمعنى النقص. والعلماء يقولون: إن أصلها من المادة التي ذكرنا؛ لأن
 صاحب البستان ينفق ويصرف عليه المال، فإذا جاء بِغَلَّةٍ وثمره طيبة فكأنه
 جاء بشيء في موضعه حيث رد لصاحبه المال ووجد منه ربحاً، أما إذا
 صرف فيه المال ولم يأتِ بشيء فقد ضاع المال المصروف فيه، ولم يأتِ
 شيء بخلف منه، فكأن هذا وضعٌ للشيء في غير موضعه للضياع والرزية.
 وهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٧].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ
 الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أُنذِرْنَا لِي وَلَا
 نَفْتِنِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِنْ
 نَصَبْتَ حَسَنَةً سَوْؤُهُمْ وَإِنْ نَصَبْتَ مُصِيبَةً يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ
 قَبْلُ وَكَانُوا يُسْوِئُونَ ﴿٥٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ
 مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَالْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا إِحْدَى
 الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا
 فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتَضُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: الآيات ٤٨ - ٥٢].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿لَقَدْ آتَيْنَا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ
 حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة: آية ٤٨].

لَمَّا بَيَّنَّ اللهُ (جلّ وعلا) للنبي والمسلمين أنه ثبت عنهم عظماء
 المنافقين للمصلحة، وأنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، أي:
 فساداً ومشياً بالنميمة وتثيلاً وإلقاءً للأراجيف، بين أن هذا الذي ينطوي
 عليه المنافقون من الشر كان موجوداً فيهم قبل ذلك، قبل أن ينزل القرآن في
 شأنهم وأن تطلعوا عليهم؛ لأن عظماء المنافقين بالمدينة كعبدالله بن أبي بن
 سلول، والجد بن قيس أخي بني سلمة، عندما جاء رسول الله ﷺ بالمدينة

وآمن الأنصار شق ذلك عليهم وعظم، وأبوا أن يؤمنوا، وصاروا يفكرون في الحالة التي يبطلون بها دعوة دين الإسلام ويخرجوا النبي ﷺ ويمنعون الناس من الإيمان، فلما جاءت غزوة بدر عرفوا قوة المسلمين. قال لهم ابن أبي: هذا أمر مُسْتَقْبِلٌ فآمنوا ظاهراً^(١). وهم في الباطن يترصدون بهم الدوائر، يجيلون أفكارهم في الحالة التي يضررونهم بها.

﴿لَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي: طلبوا الفتنة، طلبوا لكم الفتنة قبل هذا من رد الناس عن الدين، وإبطال الدين، وعدم اتباع النبي ﷺ، والإفساد بين المسلمين.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ العرب تقول: قلب الأمور، وقلب الأمر. معناه: أن يتفكر بدقة ويدبر في الأمور ويقلبها وجهاً إلى ظهر، وظهراً إلى وجه ليتأمل في الحالة التي يحصل بها مقصوده. فمعنى قلبوا الأمور: أجالوا الأفكار ونظروا في الدهر جنباً إلى جنب من هذا الأمر إلى هذا، واحتمال هذا وهذا ليصلوا بذلك إلى رد الناس عن النبي ﷺ، والقعود في وجه الدعوة إلى الله (جلّ وعلا)، وهذا معنى معروف في كلام العرب، تقول العرب: قلبت أمري، وقلبت أموري، إذا أجلت فكري في المسائل ونظرت فيها وفي احتمالاتها لنعلم أي الأمور هو الذي يعينني على قصدي. وهذا معنى معروف في كلام العرب مشهور نزل به القرآن العظيم، منه قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي زوج أم هانئ بنت أبي طالب (رضي الله عنها)، فإن زوجها هبيرة لما فتح النبي ﷺ مكة فرّ كافرأ إلى نجران، ولم يزل بها حتى مات - والعياذ بالله - وقد أرسل إلى أم هانئ من هناك من نجران هذه الأبيات - وفيها محل الشاهد - وهو قوله لها^(٢):

لَعَمْرُكَ مَا وَلَّيْتُ ظَهْرِي مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ جَفَلًا وَلَا خِيْفَةَ الْقَتْلِ

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٦١/٢).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٨) من سورة الأعراف.

ولكنني قلبت أمري فلم أجد لسيفي غناءً إن ضربت ولا نبلي وقففت فلما خفت ضيعة موقفي رجعت لعود كالهزبر أبي الشبل ومحل الشاهد منه قوله «قلبت أمري» أي: أجلت فكري ونظرت وتاملت في الأمور فوجدت ثباتي وعدم فراري يؤدي إلى قتلي ولا نتيجة بعده. وهذا معنى قوله: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: أجالوا أفكارهم وقلبوا الأمور ونظروا في احتمالاتها لينالوا كيداً يكيدونك به من تشييط عن الدين، أو إلقاء شر بين المسلمين، أو إعانة عدو عليك حتى يظفر بك - قبحهم الله - .

﴿حَقَّ جَاءَ الْحَقُّ﴾ جاء الحق وهو نصر الله لنبية بدين الإسلام، وقتل صناديد قريش يوم بدر.

﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ معناها: غلب دين الله وظهر انتصاره واستقباله، فعند ذلك أسلموا إسلاماً غير حقيقي، وهم يتربصون الدوائر بالمؤمنين في باطنهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ والحال هم كارهون - قبحهم الله - لأن كل ما يناله المسلمون من نصر وفتح وخير يكرهونه ويسوؤهم، وكل ما جاءهم من شر يفرحون به، وهذه عادة الكفار، لا يزالون يحاولون رد المؤمنين عن الدين حتى يقتطعهم الله من ذلك، كما قال الله في الكفار: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَبِّلُونَكُمُ حَتَّى يَرْدُوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا﴾ [البقرة: آية ٢١٧] وبين أنهم لم يستطيعوا في قوله: ﴿الْيَوْمَ نَبِّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ﴾ [المائدة: آية ٣] كذلك المنافقون كانوا يطمعون في ضياع الدعوة، وأن النبي ﷺ يضمحل أمره حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ذلك - قبحهم الله - وهذه من خسائس المنافقين يظهرها الله لنبية ﷺ، ومن أسماء هذه السورة العظيمة: (الفاضحة) لأنها فضحت أسرار المنافقين كما تقدم، وسيأتي فيها كثيراً. وهذا معنى قوله: ﴿حَقَّ جَاءَ الْحَقُّ وَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ .

/ وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُلُ أَثَدَّنَ لِي﴾ [التوبة: آية ٤٩] قرأ هذا

الحرف عامة السبعة غير ورش عن نافع والسوسي عن أبي عمرو: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُولُ أَيْذُنَ لِي﴾ بهمزة محققة، وقرأه ورش والسوسي بإبدال الهمزة واواً مادةً للآم ﴿ومنهم من يقول وزن لي﴾ أما عند الوقف فقد أجمع جميع القراء على أنك إن وقفت على ﴿يَقُولُ﴾ ابتدأت فقلت: ﴿أيذن لي﴾^(١) وهو الأمر من أذن له يأذن له. تقول العرب: أذن له يأذن له. وإذا جاء منها أمر تقول: ائذن لي. أصله: إئذن لي. ولكن القاعدة المقررة في العربية: أن كل همزتين اجتمعتا في كلمة أخراهما ساكنة وجب إبدالها حرف مد مجانساً للمشكلة التي قبلها سواء أكانت التي قبلها همزة وصل أو همزة قطع، وهذا حكم لا خلاف فيه بين القراء ولا بين علماء العربية ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُولُ أَيْذُنَ لِي﴾ أي: ائذن لي في القعود ولا تكلفني بالشخوص إلى غزوة تبوك. وهذه الآية نزلت في الجد بن قيس الخبيث المنافق أخي بني سلمة، كان رجلاً سيذاً فيهم، ولما قدم النبي ﷺ قال لبني سلمة: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: الجد بن قيس على أنا نبخله؛ لأنه بخيل لا يجود بالمال. فقال: وأي داء أدوأ من البخل؟ إنما سيدكم هذا الشاب الأبيض الجعد^(٢). يعني بشر بن البراء بن معرور. وكان حسان

(١) انظر: الإتحاف (٩٢/٢).

(٢) في بعض روايات الحديث أن النبي ﷺ قال ذلك في عمرو بن الجموح (رضي الله عنه)، كما في الأدب المفرد رقم (٢٩٧) من حديث جابر (رضي الله عنه). وهو في صحيح الأدب المفرد رقم: (٢٢٧). وأخرجه الحاكم (٢١٩/٣) - وصححه ووافقه الذهبي - من حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) بنحو حديث جابر. وأورده الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (١٤٦/١) وعزاه لابن إسحاق. كما أورده الحافظ في الإصابة (١٥٠/١)، وفي الفتح (١٧٨/٥).

أما الرواية التي فيها أن النبي ﷺ قال ذلك في بشر بن البراء (رضي الله عنه) فقد ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٧ - ٢٤٨، وأوردها الحافظ في الفتح (١٧٩/٥) وعزاه للوليد بن أبان في كتاب الجود من حديث كعب بن مالك (رضي الله عنه). وقد صحح الحافظ هذه الرواية وجمع بينها وبين الرواية الأخرى. بيد أن الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب (١٤٦/١)، وابن الأثير في أسد الغابة (٢١٨/١) رجحا أنها في بشر بن البراء. والله أعلم.

(رضي الله عنه) يمدح بشر بن البراء بتسويد النبي ﷺ إياه ويقول^(١):

وَسُوْدُ بَشْرٍ بِنِ الْبِرَاءِ بِجُودِهِ وَحُقُّ لِبَشْرِ بْنِ الْبِرَاءِ أَنْ يُسُوِّدَا
فَتَىٰ إِنْ أَتَاهُ الْوَفْدُ أَتْلَفَ مَالَهُ وَقَالَ خَذُوهُ إِنِّي عَائِدٌ غَدَا

فنزلت هذه الآية في الجعد بن قيس على ما عليه جماعة المفسرين
﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُوْلُ أَثَدْنَ لِي﴾ هو الجعد بن قيس أخي بني سلمة. ذكر ابن
إسحاق وغيره^(٢) أن النبي ﷺ في وقت تجهيزه لغزوة تبوك قال له: «يا جعد
هل لك في جلاّد بني الأصفر؟» يعني الروم. فقال له الجعد: يا رسول الله
- ﷺ - ائذن لي في الجلوس فإني رجل قد علم قومي أنني لا صبر لي عن
النساء، وإن نساء بني الأصفر فيهن جمال ووضاءة وجوه أخاف إن رأيتهن
أن لا أصبر عنهن، فائذن لي ولا تفتني بصباحة وجوههن إذا خرجت
إليهن. وهذا عذر بارد وليس قصده إلا النفاق، فأنزل الله فيه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ
يَكْفُوْلُ أَثَدْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾، أي: بصباحة وجوه نسائهم على ما قاله غير
واحد.

وقال بعض العلماء وأسنده ابن جرير^(٣) إن النبي ﷺ قال له: «يا
جعد بن قيس هل لك في جلاّد بني الأصفر لتغنم منهم سراري ووصفاء؟»
فقال: ائذن لي ولا تفتني بالنساء. هذا مترع آخر ووجه في الآية.

وجمهور العلماء يقولون: هي في الجعد بن قيس، وهو عذر نفاق
لا شك فيه، وهو لا عذر له، وإنما يتلمس الأعداء الكاذبة ليجلس
- قبحه الله - .

(١) البیتان عند الواحدی فی أسباب النزول ص ٢٤٨، القرطبي (١٥٩/٨) ونص البيت الثاني هناك:

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله وقال خذوه إنني عائد غدا
(٢) أخرجه ابن جرير (٢٨٧/١٤) من طريق ابن إسحاق. وأخرجه الطبراني في الكبير
(١٢٢/١٢) وقال الهيثمي في المجمع (٣٠/٧): «فيه يحيى الحماني وهو ضعيف» .هـ.
وأورده أيضاً الواحدی فی أسباب النزول ص ٢٤٧، ولم يذكر السند.
(٣) ابن جرير (٢٨٨/١٤) عن ابن زيد مرسلًا.

ثم إن الله قال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ الفتنة التي يزعم أنه يتوقاها وهي خوفه أن يفتتن بجمال نساء بني الأصفر هذه ليست هي الفتنة، ولكن الفتنة العظيمة هذه التي سقط فيها ووقع فيها وهي تخلفه عن الجهاد واعتذاره الكاذب لرسول الله ﷺ ونفاقه، هذه هي الفتنة والضلال. فالمعنى: هذا الذي سقط فيه باعتذاره هو عين الفتنة العظيمة لا فتنة جمال نسائهم الذي يزعم أنه هو الذي يخاف فتنته. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا تَقْتَتِي﴾.

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩] في هذه الآية الكريمة وعيد شديد للمنافقين، وجهنم طبقة من طبقات النار، وتطلق على النار.

وقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ لأنها تهلكهم وتغشاهم فتحتوي عليهم من جميع الجهات، وتغلق أبوابها عليهم، ويضيق عليهم فيها كما بين تعالى ذلك في آيات كثيرة، فبين إحاطة النار بهم في قوله في العنكبوت: ﴿يَسْعَطُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَفْسَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: الآيتان ٥٤، ٥٥] وقوله تعالى في الكهف: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيضُوا يُعَاثُوا يَمَاءً كَأَلْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ...﴾ الآية [الكهف: آية ٢٩]. وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهُمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنبياء: آية ٣٩] ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: آية ٤١] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على إحاطتها بهم. وبين (جلّ وعلا) أنها تطبق عليهم وتغلق أبوابها، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: الآيتان ٨، ٩] وأنها تضيق عليهم ضيقاً شديداً كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ألقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان: آية ١٣] أعاذنا الله وإخواننا المؤمنين منها. وهذا معنى قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: آية ٤٩].

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَبِّحْهُنَّ وَسُبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ فَعَبِّرْهَا وَعَدِّهَا وَحَسْبُهَا﴾

أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَكَتَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ [التوبة: آية ٥٠].

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ هذا مما أبداه الله لنبيه من أسرار المنافقين القبيحة ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ المراد بالحسنة هنا: غلبة الأعداء والظفر والنصر. يعني: إن ظفرتهم بأعدائكم وغلبتموهم ونصركم الله عليهم تسؤهم تلك الحسنة، ساءهم ذلك لأن العدو الشديد العداوة يسوؤه ما ينال عدوه من الخير، معناه: إن غزوتهم ونصركم الله وغلبتم وظفرتهم ساءهم ذلك وحزنوا من أجله ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ كأن يقتل قومك، أو لا ينصروا، أو يأتيك شيء يؤذيكم ويؤذي قومك ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ إذا سمعوا أن سرية من السرايا أو جيشاً من الجيوش وقع فيهم قتل أو جراح قالوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ نحن خفنا من هذا وأخذنا لأنفسنا بالاحتياط فاستأذنا حتى جلسنا وسلمنا من تلك البلايا التي نالتهم من القتل والجراح ﴿وَقَوْلُوا﴾ عن دين الله ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون من جهتين: أنكم أصابكم ذلك السوء، وأنهم هم ما كانوا معكم - سلموا منه - كما تقدم إيضاح هذا المعنى في سورة النساء؛ لأن الله أوضحه فيها بقوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ يَلْبِطُنَّ فَإِنَّ أَخْبَتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَتْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ [النساء: آية ٧٢] معنى قوله: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَوْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ حاضرأ معهم فيصيبني ما أصابهم من القتل والجراح، وهو السبب الذي تولوا به وهم فرحون الآن. فالآية معناها: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ﴾ يا نبي الله ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: يعطك الله ظفراً ونصراً ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تلك الحسنة ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ﴾ سيئة كقتل قومك وجراحهم وإدالة الكفار منهم ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا﴾ أخذنا لأنفسنا بالاحتياط وتخلفنا عن هذا الذي وقعوا فيه حذراً منا واحتياطاً أن يصيبنا مثل ما أصابهم ﴿وَيَكْتَلُوا﴾ عن دين الإسلام، ونصرة رسول الله، أو يتولى بعضهم راجعاً إلى بعض، والحال ﴿وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ مسرورون بالسوء الذي أصابكم وسلامتهم منه، وأنهم لم يحضروه معكم. هذا معنى قوله: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَكْتَلُوا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾.

ثم إن الله (جلّ وعلا) أمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: آية ٥١] لن يصيبنا أذى من الأذى لا قتل ولا جراح ولا مصيبة كائنة ما كانت إلا ما كتبه لنا ربنا في أزله. وقوله: ﴿مَوْلَانَا﴾ أي سيدنا وناصرنا. والمولى: أصله (مَفْعَل) من الولاية. والمولى في لغة العرب يطلق على كل من ينعقد بينك وبينه معنى تكون تواليه ويواليك به^(١)؛ ولذا كثر إطلاق المولى على ابن العم؛ لأن بني العم يوالوك بعصبة القرابة وتواليهم، ويطلق على المعتق؛ لأن العتق ولاية حصلت بينه وبين المعتق، فهو يطلق على المعتق وعلى المعتق. ويطلق المولى على الصديق، وعلى كل من بينك وبينه ولاية كائنة ما كانت^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ [النساء: آية ٣٣] أي: عصبة يرثون المال، كبني العم ونحوهم من العصبات، ومن هذا المعنى قول الفضل بن العباس من أولاد أبي لهب^(٣):

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تُظهروا لنا ما كان مدفوناً وإطلاق المولى على ابن العم مشهور في كلام العرب، ومنه قول طرفة بن العبد^(٤):

وَأَعْلَمُ عِلْمًا لَيْسَ بِالظَّنِّ أَنَّهُ إِذَا ذُلَّ مَوْلَى الْمَرْءِ فَهُوَ ذَلِيلٌ
والله (جلّ وعلا) مولى المؤمنين؛ لأنه يواليهم بالنصر والثواب والرحمة وهم مواليه؛ لأنهم يوالونه بالطاعة، حتى إن كل شيء يوالي شيئاً يقال له: (مولى) ولذا جعل الله النار مولاهم كما قال: ﴿مَأْوَانِكُمْ أَتَارُ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسَّ الْأَصْبِرُ﴾ [الحديد: آية ١٥] لأنها تواليهم لما عملوا من الأعمال السيئة المؤدية لها. وهذا معنى قوله: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ

(١) مضى عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٠) من سورة الأنعام.

(٣) السابق.

(٤) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام.

اللَّهُ لَنَا ﴿التوبة: آية ٥١﴾ في أزله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ سيدنا ومدبر شؤوننا ونحن متوكلون عليه ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقديم المعمول هنا في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ يدل على الحصر، أي: لا يُتَوَكَّلُ إلا على الله وحده. والتوكل معناه: تفويض الأمور، وكَلْتُ الأمر إليه: فَوَّضْتُهَا إليه.

وعلى العبد أن يفوض أموره إلى ربه (جلّ وعلا) ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. والتوكل على الله والتفويض عليه لا ينافي الأسباب، فيجب على المسلم أن يأخذ بالأسباب كما جاء به الشرع الكريم، ويكون في قرارة نفسه متوكلاً على الله، وهذا سيد المتوكلين (صلوات الله وسلامه عليه) مرّ عليكم في الأيام الماضية أنه مع شدة توكله على الله وثقته بالله يتسبب بالمحافظة من أعدائه بأن يدخل في غار مظلم في جبل ثور ليسن لأمته التوكل على الله والأخذ بالأسباب مع التوكل على ضوء الشرع الكريم، وهذا هو الحق الذي لا شك فيه، فترك الأسباب من الضلال، والاعتماد بالكلية عليها من الضلال، والحق هو أن يأخذ الإنسان بالأسباب حسب ما جاء به الشرع الكريم متوكلاً قلبه على الله، مفوضاً أمره إليه، عالماً بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه كما قال هنا: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: آية ٥١] وقد أوضح الله لنا في سورة الحديد أن جميع المصائب وجميع الأمور لا يصيب الإنسان منها إلا شيء كان مقدراً قبل أن يخلق الخلق، وقبل أن توجد المصيبة، وربنا يقول لنا في آية الحديد الآتية ما معناه: بينت لكم أن جميع الأمور كتبناها وحسمتها عندي لتحصلوا على أمرين: أحدهما: أن لا تفرحوا بشيء أتاكم فإنه آتيكم لا محالة، ولا تحزنوا على شيء فاتكم لأنه فأتى لا محالة، وهذا نص عليه تعالى بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ أي: أن نخلقها ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: آية ٢٢] إنما بينا لكم هذا القدر السابق الأزلي ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: آية ٢٣] لا تحزنوا على شيء فاتكم فهو فأتى لا محالة؛ لأن الله كتب ذلك وقدره ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾

فهو آت لا محالة. هذه الآيات القرآنية إذا تأملها المسلم وتدبر معانيها فهم عن الله، وهانت عليه أمور الدنيا فلم تعظم في قلبه، وهذا معنى قوله: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: آية ٥١].

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَارْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [٥٢] [التوبة: آية ٥٢].

﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ كان المنافقون - قبحهم الله - في المدينة يداً مع الكفار واليهود على النبي ﷺ وأصحابه يفسون إليهم أسرارهم، ويلقون الأراجيف في قلوب المؤمنين، فهم يد مع الكفار والمنافقين على رسول الله ﷺ؛ ولذا كان المنافقون والكفار واليهود كأنهم طائفة واحدة ضد الإسلام والمسلمين؛ ولذا قال هنا: أنتم أيها المنافقون المتعاونون مع إخوانكم من الكفار واليهود الذين ترتبصون الدوائر بنا.

التربص في لغة العرب: الانتظار، العرب تقول: «تربص»: إذا انتظر، وتربص بالسلعة إلى وقت الغلاء: انتظر بها. وهذا معروف، وهو مشهور جداً في كلام العرب، ومنه قول الشاعر^(١):

تربص بها ريب المنون لعلها تطلق يوماً أو يموت حليلها

فالتربص الانتظار. ومعنى الآية الكريمة: أنتم أيها المتربصون بنا عواقب الدهر ونوائبه راجين أن تدور علينا الدوائر فتهلكنا لا ترتبصون بنا إلا واحدة من اثنتين كلتهما أحسن من الأخرى. ﴿هَلْ تَرْتَضُونَ﴾ أصله: (هل ترتبصون) حذفت فيه إحدى التاءين. (هل) استفهام بمعنى النفي، ما تنتظرون بنا عاقبة إلا عاقبة هي إحدى الحسينين. الحسن: تأنيث الأحسن، وتجمع على الحسن بضم ففتح، تقول: هذه الأنثى هي الحسنى، أي: الأحسن من غيرها. وتجمعها على الحسن بضم ففتح كما هو معروف في

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٤) من سورة التوبة.

محلّه. فالحسنى صيغة تفضيل، والحسنيين تأنيث الحسنى، وهي صيغة تفضيل. والمعنى لا تنتظرون بنا إلا إحدى خصلتين كلتاهما أحسن من غيرها:

إحداهما: أن نغلب أعداءنا وينصرنا الله عليهم فنظفر بالنصر والغنيمة ورضى الله (جلّ وعلا)، وهذه الخلة لا يوجد أحسن منها، فعاقبتنا إن صارت إليها عاقبة كريمة محمودة.

والثانية: أن يقتلنا أعداؤنا فنموت فننال الشهادة، والشهادة هي أعظم فوز يناله المسلم في دار الدنيا، فهي أيضاً حسنى؛ لأنها أحسن من كل شيء.

وهذه الآية الكريمة من أعظم الآيات التي تجعل المسلم يشناق إلى الجهاد غاية الاشتياق؛ لأنك لا تجد في الدنيا رجلاً مآله إلى خير عظيم على كل التقديرات إلا المجاهد في سبيل الله؛ لأنه إن مات نال أمانة الدنيا والآخرة، ونال الفوز والحياة الأبدية، والكرامة التي لا نظير لها، وإن نصره الله على عدوه فرجع ظافراً غانماً فائزاً فهذا أيضاً حسن، وهذا لا يكون لأحد إلا للمجاهد في سبيل الله، فمن تأمل معنى هذه الآية الكريمة اشتاق لا محالة إلى الجهاد في سبيل الله. وقد ذكر أصحاب المغازي أن النبي ﷺ لما أراد الخروج إلى المشركين في غزوة أحد كان جابر بن عبد الله أبوه عبد الله بن عمرو بن حرام له بنات سبع، فجابر أخواته سبع، ذكروا أن النبي ﷺ أشار عليهم أن يبقى مع البنات واحد، الابن أو الأب لئلا يموتا فتبقى الإناث لا قيم عليهن، فقال الوالد وهو عبد الله بن عمرو بن حرام (رضي الله عنه وأرضاه): يا بني كل شيء أوثرك فيه على نفسي إلا الشهادة في سبيل الله، فوالله لا أوثر على نفسي بها أحداً، واستشهد يوم أحد (رضي الله عنه). ولا خلاف بين العلماء بأنه من الذين أنزل الله فيهم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ مَاتُوا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) إلى آخر الآيات [آل عمران: آية ١٦٩] وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنبَاءَ﴾ [التوبة: آية ٥٢] أي: ما تتربصون وتنتظرون بنا إلا واحدة من إحدى مسألتين كلتاهما أحسن من كل شيء ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ ظفر ونصر وفوز بالظفر والنصر، أو شهادة في سبيل الله. وهذا كله خير، فكل احتمال

صرنا إليه هو احتمال كريم، وهو أحسن من غيره. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا
إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾.

﴿وَعَنْ نَّرَبِّصُ بِكُمْ﴾ ننتظر بكم خلاف ذلك: إحدى السوايين، نحن
ننتظر بكم إحدى السوايين، كلتاها أسوأ من الأخرى: أحدهما: أن
يصيبكم الله بعذاب من عنده، كأن ينزل عليكم عقوبة فيهلككم لكفركم
وتمردكم وتصيرون إلى النار، أو يسلطنا عليكم ويأمرنا بقتلكم فنقتلكم كما
قال في إخوانهم الكفار: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ
عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ١٤] وهذا معنى قوله:
﴿وَعَنْ نَّرَبِّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ إذا
عرفتم أنكم لا تتربصون بنا إلا الخير ونحن لا نتربص بكم إلا الشر إذن
فتربصوا ونحن متربصون أيضاً، فكلنا يصير إلى ما يتربص به الآخر إليه.
وهذا معنى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٢].

يقول الله (جل وعلا): ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ
كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ٥٣ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا
وَهُمْ كَادِحُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَلَا تُصِجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزَهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ٥٥ ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا
هُم مِّنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ٥٦ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا
لَّوَلُوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ٥٧ ﴿[التوبة: آية ٥٣ - ٥٧].

قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حمزة والكسائي: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا﴾ بفتح الكاف، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ بضم الكاف^(١).
وقرأ عامة السبعة أيضاً غير حمزة والكسائي: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ
مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ بالتاء. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وما منعهم أن يقبل منهم
نفقاتهم﴾ بالياء^(٢).

(١) انظر: الإتحاف (٩٣/٢).

(٢) انظر: السبعة ص ٣١٤ - ٣١٥.

وهذه الآية الكريمة من الآيات النازلة في الجذ بن قيس أخي بني سلمة؛ لأن النبي ﷺ لما دعاه إلى الخروج في غزوة تبوك واعتذر له أعذار المنافقين المتقدمة قال له: ائذن لي في القعود، وهذا مالي أعينك به، خذ مالي نفقة مني في سبيل الله واتركني أنا أتخلف^(١). فأنزل الله في إنفاقه الذي عرض على النبي ﷺ: ﴿قُلْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَهُوَ اللَّهُ لَهْؤِلاءِ الْمُنَافِقِينَ ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ أَي: في حال كونكم طائعين أو كارهين لن يقبل الله منكم نفقة؛ لأنه يعلم أنكم كفار في الباطن، وصيغة الأمر في قوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا﴾ تقرر في الأصول^(٢) أن من الصيغ التي ترد لها (افعل) قصد التسوية بين الأمرين، فمن أساليب اللغة أن تأتي بصيغة (افعل) تقصد بذلك أن تسوي بين الأمرين، المذكورين بعد ذلك، ونظيره في القرآن: ﴿فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا صَبْرًا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: آية ١٦] يعني: صبركم وعدمه سواء لا ينفعكم ذلك. ﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٨٠] يعني: استغفارك وعدمه سواء، لا ينفع استغفارك ولا عدمه، كذلك قوله هنا: أنفقوا طائعين أو مكرهين لا ينفعكم ذلك الإنفاق؛ لأن الله لا يقبل أعمال الكفرة. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [التوبة: آية ٥٣] طوعاً أو كرهاً: مصدران منكران في موضع الحال. أي: في حال كونكم طائعين أو مكرهين. وإتيان التسوية بين الأمرين بصيغة (افعل) معروف في كلام العرب، ذكرنا له أمثلة في القرآن العظيم، ومن أمثله في كلام العرب قول كثير عزة^(٣):

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ
يعني: إن أسأت أو أحسنت إلينا فكل ذلك سواء لا يغير ودنا القديم بالنسبة إليك.

وقوله: ﴿لَنْ يُقْبَلَ مِنْكُمْ﴾ لن يقبل الله نفقتكم. قال بعض العلماء: لم يقبلها رسول الله فزدها عليهم. وقال بعضهم: لا يقبلها الله، أي: لا

(١) أخرجه ابن جرير (٢٩٤/١٤)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) انظر: شرح الكوكب المنير (٢٧/٣).

(٣) البيت في ابن جرير (٢٩٣/١٤)، القرطبي (١٦١/٨).

يؤتيهم عليها أجراً؛ لأنها لا يُراد بها وجه الله.

ثم قال: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله. والفسق في لغة العرب^(١) معناه الخروج. وفي اصطلاح الشرع^(٢): الفسق الخروج عن طاعة الله. تارة يعظم ذلك الخروج فيكون كفراً، وتارة يكون خروجاً دون خروج، وفسقاً دون فسق، فيكون بارتكاب كبيرة؛ ولأجل هذا كان الفسق يطلق في القرآن على الكفر كقوله: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] وتارة يطلق على ارتكاب المحرم الكبير كقوله: ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَبَيَّنْهُ﴾ [الحجرات: آية ٦] وقوله في القاذفين: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: آية ٤].

وهذه الآية معلوم تعلق المعتزلة بها في أن السيئات تبطل الحسنات، قالوا: لأن الله صرح بأن فسقهم أبطل نفقتهم. ومن هنا زعموا أن كبائر الذنوب تبطل الأعمال. وهذا مذهب باطل لا شك في بطلانه، وهذه الآية التي تعلقوا بها بين الله (جلّ وعلا) بطلان حججهم منها في قوله بعده - يليه -: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ فصرح بأن المبطل للأعمال هو صريح الكفر. وهذا معنى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾.

والضمير في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ منصوب في محل المفعول. أعني بقولي: (الضمير) المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ﴾ في محل نصب مفعول به ل (منع) - أي ما منعهم قبول نفقاتهم - بناء على أن (منع) تتعدى للمفعول الثاني بنفسها، كمنعت زيدا كذا وكذا. وهو الصحيح^(٣).

وأما المصدر المنسبك من (أن) وصلتها في قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ فالتحقيق فيه أنه في محل رفع، وهو فاعل (منع) وتقرير

(١)(٢) راجع ما سبق عند تفسير الآية (٥٩) من سورة البقرة.

(٣) انظر: الدر المصون (٦/٦٦).

المعنى: ما منع قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، أي: إلا كفرهم بالله. فإيضاح المعنى: ما منع قبول النفقات منهم إلا كفرهم بالله.

وقال بعض العلماء: إن فاعل (منع) ليس المصدر المنسبك من (أن) وصلتها، وأنه ضمير يعود إلى الله. أي: وما منع الله قبول نفقاتهم إلا أنهم كفروا، إلا لأجل أنهم كفروا. والأول هو الأظهر^(١).

وقوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ لأن المنافقين وإن كانوا يظهرون الإيمان ظاهراً فهم في باطن الأمر كفرة فجرة، فهم كافرون في باطن الأمر، والكافر لا يقبل منه صرف ولا عدل، ولا خلاف بين العلماء أن الكفر سيئة لا تنتفع معها حسنة، فلا ينتفع الإنسان بعمل إلا إذا كان مبنياً على أساس العقيدة الصحيحة.

وقد قدّمنا في هذه الدروس مراراً^(٢) أن العمل الصالح الذي يُثاب به صاحبه يوم القيامة هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: منها أن يكون مطابقاً لما جاء به النبي ﷺ؛ لأن الله لا يقبل أن يتقرب إليه إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ، فمن تقرب إليه بما لم يشرعه لم يقبله منه ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: آية ٢١].

الثاني: أن يكون العبد فيما بينه وبين الله في نيته التي لا يعلمها إلا الله مخلصاً في عمله لله؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: آية ٥] ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: آية ١١].

الثالث: هو هذا الذي نحن بصده: أن يكون العمل مبنياً على أساس الإيمان بالله والعقيدة الصحيحة؛ لأن العمل كالسقف، والعقيدة الصحيحة والإيمان بالله كالأساس، والسقف لا يستقيم إلا على أساس؛ ولذا من عمل أعمالاً صالحة ليست مبنية على أساس الإيمان فهي باطلة منهارة لا ينتفع

(١) انظر: المصدر السابق (٦٦/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٥٤) من سورة الأنعام.

بها، والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: آية ١٢٤] فقيّد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا لا نزاع فيه؛ لأن كل عمل يعمله الكافر ولو كان مطابقاً للشرع، والكافر مخلص فيه لله، فإن بعض الكفار يبر والديه، ويصل رحمه، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، وينفس عن المكروب، كل ذلك يقصد به وجه الله، فهذه قُرْبٌ صحيحة موافقة للشرع هو مخلص فيها لله، لا ينفعه الله بها يوم القيامة؛ لأن الله يقول: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ ﴿١٣﴾ [الفرقان: آية ٢٣] وقال (جلّ وعلا): ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَبَعُوا فِيهَا وَبَدَّلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ [هود: آية ١٦] ﴿أَعْمَلْتُمْ كُفْرًا...﴾ [النور: آية ٣٩] ﴿كُرْمًا﴾ [إبراهيم: الآية ١٨] ونحو ذلك من الآيات، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن عمل الكافر الصالح - كأن يبر والديه، وينفس عن المكروب، ويقري الضيف، ويعين المظلوم، ويصل الرحم - يقصد بذلك وجه الله، فمثل هذا من الأعمال الصالحة إذا فعله الكفار أثابهم الله به في دار الدنيا فأعطاهم عرض الدنيا من المال وأطعمهم وسقاهم ورزقهم العافية، ولا يكون لهم عند الله جزاء، وقد ثبت هذا المعنى من حديث النبي ﷺ الذي رواه عنه أنس، ورواه مسلم في صحيحه من حديث أنس عن النبي ﷺ: أن الله يطعم الكافر بعمله الصالح في الدنيا، ويثيبه في الدنيا، فإذا جاء الآخرة لم يكن له عمل يُجازى عليه، أما المسلم فالله يثيبه بعمله في الدنيا ويدخر له في الآخرة^(١).

والآيات الدالة على أن الكفار ينتفعون بأعمالهم في الدنيا جاءت في القرآن، كقوله: ﴿مَنْ كَانَتْ يَرْيَدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَمْ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يَرْيَدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ ﴿٢٠﴾ [الشورى آية: ٢٠] وما دلّ عليه هذا الحديث الصحيح من أن الكافر يُجازى بعمله في الدنيا ولا يُجازى به في الآخرة، وما دلّ عليه بعض الآيات. وقال بعضهم: إن منه قوله

(١) مسلم في صفات المنافقين وأحكامهم، باب: جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة،

وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا. حديث رقم: (٢٨٠٨) (٢١٦٢/٤).

تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: آية ٣٩] قال بعض العلماء: وفاه حسابه في دار الدنيا بما رزقه على عمله الصالح من العاقبة. وإن كان الوجه الآخر أصح في الآية، كل هذا الذي هو إثابة الكافر من عمله في الدنيا لا شك مقيد بمشيئة الله؛ لأن ذلك دلت عليه آية سورة بني إسرائيل، وهي قاضية على كل شيء في هذا الباب. أعني قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: آية ١٨] فقوله: ﴿عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ قيد بالمشيئة للجزء الثابت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ من حديث أنس. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: آية ٥٤].

قد قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن أصل مادة الكاف والفاء والراء معناها التغطية والستر، فكل شيء غطيته وسترته فقد كفرته، ومنه قيل للزَّرَاعِ: (كفار)؛ لأنهم يكفرون البذر في بطن الأرض، وقيل لليل: (كافر) والعرب تسمى الليل كافراً؛ لأنه يكفر الأجرام ويغطيها بظلامه. وكفر الشيء إذا غطاه وستره، ومن هذا المعنى قول لبيد بن ربيعة في معلقته^(٢):

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٍ فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا
أي: ستر النجوم وغطاها غمام تلك الليلة. وقوله أيضاً في معلقته هذه في تسمية الليل كافراً^(٣):

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ وَأَجْنَّ عَوْرَاتِ الشُّغُورِ ظَلَامُهَا
هذا أصل معنى المادة في لغة العرب، ومنه قيل لتكفير الذنوب تكفير الذنوب؛ لأن الله يسترها ويغطيها بحلمه حتى لا يظهر لها أثر، من (كفرته) إذا سترته.

(١) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة الأعراف.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

والكافر يغطي أدلة التوحيد ويحاول جحدها وتغطيتها وهي كالشمس في رابعة النهار، أو يحاول تغطية نِعَم الله عليه بأكله رزقه وعبادته غيره.

قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: آية ٥٤] هو محمد ﷺ، والرسول بمعنى مُرسل، أي: بالإنسان الذي أرسله الله (تبارك وتعالى)، وهو نبينا. والرسول (فعل) بمعنى (مُفَعَّل) وأصله مصدر، وإتيان المصادر على وزن (فَعُول) بفتح الفاء نادر موجود في كلمات معدودة^(١) كالقبول، والولوع، والرسول بمعنى الإرسال والرسالة. والتحقيق أن أصل الرسول مصدر، والعرب تطلق الرسول وتريد المصدر الذي هو الرسالة، ومنه قول الشاعر^(٢):

لقد كَذَّبَ الواثُونَ ما فُهِتَ عندهم بقولٍ ولا أُرْسَلْتَهُم برسُولٍ
أي: ولا أرسلتهم برسالة، وقول الآخر^(٣):

أَلَا أَبْلِغُ بني عمرو رسولاً بأني عن فُتَاخَتِكُمْ غني
أبلغ بني عمرو رسالة. وإنما قلنا: إن الرسول أصله مصدر لنبيين بذلك أن في ذلك حلاً لبعض الإشكالات في القرآن العظيم؛ لأن الأشياء التي أصلها مصادر إذا تنوسيت فيها المصدرية واستعملت استعمال الأوصاف جاز أن يُراعى فيها أصلها وهو المصدر، والعرب إذا نعتت بالمصدر التزمت الإفراد والتذكير، ومن هنا كان الرسول يجوز إفراده مراداً به الجمع أو التثنية؛ لأن أصله مصدر؛ ولذلك جاء مفرداً في سورة الشعراء في قوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: آية ١٦] نظراً إلى أصل مصدريته. وجاء مثنى في سورة طه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: آية ٤٧] اعتداداً بالوصفية العارضة وإلغاء المصدرية الأصلية؛ ولذلك كانت العرب تطلق الرسول وتريد

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٧٨) من سورة البقرة.

به الجمع على عاداتها إذا نعتت بالمصادر، ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي (١):
 الْكُنْيِ إِلَيْهَا وَخَيْرَ الرَّسْلِ سُولِ أَعْلَمَهُمُ بِنَوَاحِي الْخَبْرِ
 يعني: وخير الرسل. وهذا معنى قوله: ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ.

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ هي هذه الصلاة المكتوبة، أقامها الله وأدامها
 ﴿إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى﴾ إلا والحال هم كسالى، والكسالى جمع الكسلان:
 المتكاسل عنها الذي هي ثقيلة عليه؛ لأن الله يقول: ﴿وَأِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى
 الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: آية ٤٥] لأن الصلاة لا تخف إلا على من يريد جزاء الله
 وثوابه، أما المنافقون والذين لا إيمان لهم، فهي أثقل شيء عليهم؛ ولذا لا
 يأتونها إلا متكاسلين في غاية الكسل يراؤون الناس ولو كانوا بانفرادهم لا
 يطلع عليهم الناس لما صلوها كما تقدم في قوله تعالى في سورة النساء:
 ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: آية ١٤٢] هذه
 حالة المنافقين - قبحهم الله -.

﴿وَلَا يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٤] فقوله: ﴿وَلَا
 يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ معناه: أن المنافقين لا يخرجون نفقة طيبة بها
 أنفسهم، ولا يخرجونها إلا كرهاً لثلا يطع المسلمون على نفاقهم فيجروا
 عليهم أحكام الكفرة. وبهذا تعلم أن قوله: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾
 [التوبة: آية ٥٣] أنهم كارهون على كل حال، وأن المراد بالآية تسوية
 جميع الحالات، الحالة الواقعة وغيرها أنهم لا فائدة لهم في ذلك. وهذا
 معنى قوله: ﴿وَلَا يُفْقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ أي: كارهون ذلك الإنفاق؛
 لأنهم لا يطلبون ما عند الله ولا يرجون عاقبة ولا جزاء من الله، فالإنفاق
 في سبيل الله يعدونه مغرمًا ويكرهونه غاية الكره كما سيأتي في قوله:
 ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَسْخُذْ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكِبْرِ الدَّوَابِّ عَلَيْهِمْ ذَايِرَةٌ
 السَّوْءُ﴾ [التوبة: آية ٩٨].

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنعام.

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَخَلْفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٌ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٥٥، ٥٦].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: آية ٥٥].

نهى الله نبيه ﷺ عن أن يستحسن ما أعطى للمنافقين من متاع الدنيا من الأموال والأولاد، لا يعجبك ما أعطيناهم من الأموال والأولاد فإنا أعطيناهم إياه استدراجاً منا وعاقبته سيئة ووخيمة عليهم في الدنيا والآخرة، لا تستحسن ذلك ولا تعجب به؛ ولا تمدن إليه عينيك كما قال: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣٦﴾﴾ [طه: آية ١٣٦] وقال: ﴿أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُثَدِّهُرُ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ يَدَيْهِ سَائِرُ لَهْمٍ فِي الْفَيْرَتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: الآيتان ٥٥، ٥٦] ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ [سبأ: آية ٣٧] ﴿مَا آغَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: آية ٢] إلى غير ذلك من الآيات، لما بين الله في هذه الآيات من سورة براءة أن المنافقين لا حظ لهم من الله في الآخرة أيضاً لا ينبغي أن يستحسن، ولا أن يعجب به؛ لأنه تافه أعطوه والأولاد أيضاً وعاقبته سيئة عليهم ﴿إِنَّمَا نُطَلِّي لَهْمٌ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: آية ١٧٨] هذا معنى قوله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾ العرب تقول: أعجبه الشيء يعجبه إذا استحسنه استحساناً يسره، فكل من استحسن الشيء استحساناً يسر به تقول العرب: أعجبه، أي: لا تستحسن ما أعطيناهم من متاع الدنيا استحسان سرور ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بإعطائه إياهم ليعذبهم، هذه اللام التي تأتي في القرآن بكثرة وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة فيها خلاف للعلماء؛ لأنه يكثر في القرآن وفي كلام العرب إتيان هذه اللام بعد فعل الإرادة كقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَيِّبَ لَكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ونحو ذلك من الآيات، وقوله هنا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: آية

[٥٥] تكثر هذه اللام بعد فعل الإرادة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: آية ٢٦] وهي موجودة في كلام العرب نحو هذا، ومنه قول الشاعر^(١):

أريد لأتسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى بكل سبيل
هذه اللام التي تأتي في القرآن وفي كلام العرب بعد فعل الإرادة اختلف العلماء في معناها، وأظهر أقوالهم فيها قولان:

أحدهما: أنها لام نادرة المعنى تأتي بمعنى (أن)، وأنها لام مصدرية، وإن لم يكن علماء العربية عدوا حرف اللام من الموصولات الحرفية المصدرية، قالوا: فهذه اللام بمعنى (أن) والدليل على هذا القول تعاقب هذه اللام و(أن) في قوله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [التوبة: آية ٣٢] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ [الصف: آية ٨] ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٥] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ﴾ في الآية الآتية. وعلى هذا القول فاللام مصدرية بمعنى (أن)، وهو قول يقل من يقوله من علماء العربية.

القول الثاني: أن المفعول محذوف، واللام لام تعليل لمحذوف، والمعنى على هذا القول: إنما يريد الله إعطاءهم ومتاعهم بها لأجل أن يعذبهم بها في الحياة الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ قال بعض العلماء: الضمير عائد إلى الأموال.

وفي هذه الآية وجهان معروفان من التفسير عند العلماء^(٢): قالت جماعة من العلماء: في الآية الكريمة تقديم وتأخير، والمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها - أي في الآخرة - وعلى أن في الآية تقديماً وتأخيراً فلا إشكال في المعنى. وهذا القول مروى عن ابن عباس^(٣) وجماعة من السلف.

(١) البيت لكثير عزة وهو في تاريخ دمشق (٨٠/٥٠).

(٢) انظر: القرطبي (١٦٤/٨)، البحر المحيط (٥٤/٥)، الدر المصون (٦٧/٦).

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٩٦/١٤) من طريق علي بن أبي طلحة.

وقال جماعة من العلماء منهم الحسن البصري وغيره^(١): إن الآية لا تقديم فيها ولا تأخير، وأن الله يعذب المنافقين بالأموال في الحياة الدنيا. وعلى قولهم فالضمير راجع إلى الأموال فقط دون الأولاد، ومعنى كون الله يعذبهم بأموالهم في الحياة الدنيا أن الله يفرض عليهم فيها الزكاة ويفرض عليهم فيها الحقوق الواجبة فتؤخذ قهراً منهم رغم أنوفهم، وأعظم ما يعظم على الإنسان إذا كان يؤخذ الشيء من تحت يده وهو محب له كرهاً رغم أنه لا يريد به وجه الله، وأن الله أيضاً يسلط عليها المصائب والبلايا فتحزن قلوبهم وتتعذب، ولأنه يتعذبهم في جمعها أولاً فتأتيهم بمتاعب من جهات متعددة، منها: تعذبهم ونصبهم في جمعها أولاً وما ينزل بها من المصائب، وتكليفهم دفع الزكاة فيها، وإنفاقها في سبيل الله للجهاد ونحو ذلك، فهذا تعذيب لهم؛ لأن أشد ما يؤلم المنافق أخذ ماله من تحت يده قهراً لعزة المسلمين ونصر دين الإسلام، هذا أمر يؤلم قلوبهم جداً، وكل ما يؤلم الإنسان يسمى تعذيباً له. وعلى هذا القول فلا تقديم ولا تأخير في الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: ويجمع لهم مع ذلك عذاب الآخرة ﴿وَتَزَهَّقَ أُنْفُسُهُمْ﴾ أي: يموتوا ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيتصل لهم عذاب الآخرة الذي لا ينقطع بعذاب الدنيا. وهذا معنى قوله: ﴿وَتَزَهَّقَ أُنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْتِمَانَهُمْ لِمَنَّكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] هذه عادة المنافقين يتقون بالإيمان الكاذبة ﴿وَيَخْلِفُونَ﴾ للنبي والمسلمين ﴿بِاللَّهِ إِيْتِمَانَهُمْ لِمَنَّكُمْ﴾ في الباطن والظاهر، والله يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِمَنَّكُمْ﴾ بل هم أعداؤكم ولا عاشروكم إلا مرغمين على ذلك لا يجدون عنه مفرأ، كما يأتي في الآية الآتية بعد هذا ﴿وَيَخْلِفُونَ﴾ للنبي وأصحابه قاتلين ﴿إِيْتِمَانَهُمْ لِمَنَّكُمْ﴾ باطناً وظاهراً، والله يقول: ﴿وَمَا هُمْ بِمَنَّكُمْ﴾ هم كفرة أعداء ليسوا منكم ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يفرقون معناه: يخافون. العرب تقول: فَرَّقَ الرَّجُلَ بِكسر الراء يَفْرُقُ بفتحها على القياس فَرَقاً بفتحتين فهو فَرِيقٌ إذا كان خائفاً

(١) أورد هذه الروايات ابن جرير (٢٩٦/١٤).

شديد الخوف^(١). وهو معنى معروف في كلام العرب، ومنه قول أبي محجن الهذلي في أبياته المشهورة^(٢):

القومُ أعلمُ أني لساعتهم إذا تطيشُ يد الرعيذة الفرق
الذي يرتعد إذا أراد أن يرمي فترتعد يده من الفرق وهو الخوف. أي:
﴿وَلَا كُنْتُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ أي: يخافون منكم فيتوددون ويحلفون لكم الأيمان
الكاذبة أنهم منكم في الباطن وليسوا منكم في الباطن، بل هم أعداء كفرّة
فجرّة، هم أعدى الناس لكم كما سيأتي قريباً. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَا كُنْتُمْ
قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ ثم بيّن شدة عداوتهم لهم فقال: ﴿لَوْ يَحْدُوثُ مَلَجًا﴾
[التوبة: آية ٥٧] لو كانوا يجدون ملجأ يلجؤون إليه ويعتصمون به دونكم
للجوءوا إليه.

﴿أَوْ مَعْرَاتٍ﴾ المغارات جمع مغارة، والمغارة: هي الغيران في
الجبال. المغارة: الغار في الجبل، وهو بفتح الميم. والتحقيق أن أصل ألفه
منقلبة عن واو؛ لأن المغارة من غار يغور إذا انحدر في أسفل، ومنه ﴿إِنْ
أَصْبَحَ مَأْوَاكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: آية ٣٠] أي: غائراً. وكل غائر منسفل فهو
غور. ومعنى مغارة: أي: غاراً منسفلاً ينحدرون في أسفله ويختفون فيه
عنكم.

﴿أَوْ مُدْخَلًا﴾ قراءة السبعة وجمهور القراء غيرهم: ﴿مُدْخَلًا﴾ والمُدْخَلُ
أصل وزنه [مفتعلاً] من دخل، أصله (مُدْتَحَل) بالتاء، أبدلت التاء دالاً
وأدغمت الدال في الدال^(٣). والمُدْخَلُ هو المكان الذي يُدْخَلُ فيه كالسرب
والنفق في باطن الأرض. أي: لو يجدون غيراناً في الجبال أو أنفاقاً وسروباً
في داخل الأرض يدخلون فيها، أو ملجأً يعتصمون به لولوا راجعين إليه

(١) انظر: المفردات (مادة: فرق) (٦٣٤).

(٢) البيتان لأبي محجن الثقفي. وهما في تاريخ دمشق (٤٦/٦٨، ٤٧) وفيه «أنى من سراتهم».

(٣) انظر: القرطبي (١٦٥/٨)، الدر المصون (٦٨/٦ - ٦٩)، معجم مفردات الأبدال والإعلال ص ١٠٧.

عنكم/ ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ يجمحون مضارع جمح يجمع إذا أسرع في سيره 1/9
إسراعاً لا يرد وجهه شيء، ومنه: فرس جموح إذا كان اللجام لا يمسكه
ولا يرده عن وجهته شيء، فكل مسرع في جريه لا يرده عن وجهه شيء
تسميه العرب جموحاً وجامحاً. أي: لو وجدوا أي موضع يذهبون فيه إليكم
ولا يصحبونكم لولوا إليه في غاية الإسراع لا يردهم عنه شيء، ولكنهم لا
يجدون طريقاً أبداً غير معاشرتكم فهم مُلجؤون إليها يعاشرنكم مكرهين لا
مفر ولا ملجأ لهم، ولو وجدوا أي مفر للجوءوا إليه، وهذا غاية العداوة،
بيّن الله أسرارهم وشدة عداوتهم لنبيه ليتحرز منهم؛ لأن العدو إذا كان في
ثياب صديق هو أشد الأعداء:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة (١)
وهذا معنى قوله: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٧].

يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمَنْ يَلْمِزْكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا
رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ (٥٨) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ
رَاغِبُونَ﴾ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُوفِ قُلُوبِهِمْ
وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَدْرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: الآيات ٥٨ - ٦٠] ذكر كثير من أهل العلم
أن هذه الآية نزلت في حرقوص بن زهير ذي الخويصرة التميمي رأس
المنافقين. قالوا: وجد النبي ﷺ يقسم مالا فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم
تعديل - قبحه الله - وقصة ذي الخويصرة معروفة ثابتة في الصحيح (٢)، ولكن

(١) نسبه في قرى الضيف (١٢٧/٣) إلى ابن حجاج، وفي محاضرات الأدباء للراغب
(٢١/٣) نسبه إلى علي بن عيسى.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام. حديث رقم: (٣٦١٠)
(٦١٧/٦) وأخرجه في مواضع أخرى، انظر الأحاديث (٤٣٥١)، (٦٩٣١)، ومسلم في
الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم. حديث رقم: (١٠٦٤) (٧٤١/٢) من حديث أبي
سعيد الخدري (رضي الله عنه).

الذي يظهر أن هذه الآية ليست نازلة فيه، وإن زعم كثير من كبراء المفسرين أنها نازلة في ذي الخويصرة، وإنما قلنا إن الأظهر أنها نازلة في غيره أن المعروف أن القسمة التي قال فيها حرقوص بن زهير التميمي المعروف بذي الخويصرة أصل الخوارج - قبحه وقبحهم الله - أن ذلك في قسم النبي لغنائم حنين، قال ذلك فيه، وهذه الآية يصرح الله فيها بأنهم لمزوه في قسم الصدقات وهي الزكوات والصدقات غير الغنائم^(١)، فالأظهر أن الأصوب فيها هو ما قاله ابن جريج (رحمه الله) وغيره أنها نزلت في رجل من الأنصار من المنافقين حضر النبي ﷺ يقسم مالا من الصدقات فقال: يا نبي الله اعدل فإنك لم تعدل - قبحه الله - فنزلت هذه الآية فيه^(٢).

وهذه الآيات من سورة براءة يبين الله فيها أصنافاً من المنافقين يقول: ومنهم من هو كذا، ومنهم من هو كذا، كما تقدم في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَكْفُرُ أَتَدْنٰ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ [التوبة: آية ٤٩] وقال هنا: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ وسيأتي قوله: ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ آلِنَا﴾ [التوبة: آية ٦١]. هذه طوائف من المنافقين تعمل قبائح مختلفة الأصناف بينها الله في هذه السورة ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من المنافقين ﴿مَّنْ يَلْمِزُكَ﴾ يا نبي الله، واللمز معناه:

(١) الذي يظهر أنهما واقعتان متشابهتان:

الأولى: في قسم غنائم حنين، وذلك في الجعرانة حيث قال له رجل: «يا محمد اعدل» كما في حديث جابر (رضي الله عنه) عند البخاري (٣١٣٨) ومسلم (١٠٦٣).
الثانية: في قسم ذهبية بعث بها علي (رضي الله عنه) من اليمن والنبي ﷺ في المدينة. وقد قسمها رسول الله ﷺ بين أربعة نفر، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله... الحديث. كما في حديث أبي سعيد الذي تقدم تخريجه قريباً. وقد جاء في بعض الروايات عند البخاري ومسلم التصريح باسمه وهو ذو الخويصرة التميمي. وكذا في رواية ابن جرير (٣٠٣/١٤) والواحدي في أسباب النزول ص ٢٤٩، وفيهما أيضاً التصريح بأن هذه الحادثة كانت سبب نزول الآية.
قال الحافظ في الفتح (٦٨/٨): «تنبيه: هذه القصة غير القصة المتقدمة في غزوة حنين. وهم من خلطها بها» ا.هـ.

وقال في (٢٩٣/١٢) «وقد ظهر أن المعترض في الموضعين واحد» ا.هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣٠٢/١٤) وقد رواه ابن جريج عن داود بن أبي عاصم، ولا يخفى أن هذا له حكم الإرسال.

العيب والطعن. تقول العرب: لمزه. إذا عابه وطعن فيه، ومنه قوله: ﴿يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٧٩] ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: آية ١١] أي: لا يعب أحدكم أخاه ويطعن فيه ومنه ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ (١) لأن اللُّمَزَةَ فُعْلَةٌ تدل على المبالغة، أي: كثير لمز الناس، أي: عيبتهم والطعن فيهم. ومن هؤلاء المنافقين صنف آخر يلزمك يا نبي الله، يطعن عليك ويعيبك في قسم الصدقات ويقولون: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، ولم يراع فيها العدل كما ينبغي.

ثم إن الله بين قبائحهم وفضحهم بأن هذا القول الذي تجرؤوا عليه ما حملهم عليه إلا الطمع والشرة ومحبة شيء يعطونه في خصوص أنفسهم؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا﴾ فإن أعطوا من الصدقات رضوا ذلك العطاء وسكتوا وفرحوا ﴿وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا﴾ (إذا) حرف مفاجأة، وقد قدمنا في هذه الدروس أن (إذا) الفجائية فيها لعلماء العربية ثلاثة أقوال: قيل: هي حرف، وقيل: ظرف مكان، وقيل: ظرف زمان، كما هو مقرر في محله^(١). والمعنى: إذا لم يُعْطُوا من الصدقات شيئاً فاجأ ذلك سخطهم، أي: غضبتهم وعدم رضاهم. فبين الله أن سخطهم ورضاهم منوطان بمصلحتهم الخاصة إذا أعطوا شيئاً رضوا وفرحوا، وإذا لم يعطوا شيئاً غضبوا وسخطوا. وهذه ليست حالة من يريد وجه الله ولا المصلحة العامة؛ ولذا قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ يسخطون مضارع (سخط الأمر) بكسر الخاء (يسخطه) بفتحها (سَخَطاً) على القياس، وسَخَطاً إذا كرهه، وسَخِطَ الرجل بمعنى غضب، ومنه: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: آية ٨٠] أي: غضب عليهم - والعياذ بالله ..

ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَيْنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: آية ٥٩] معروف في علم العربية أن (لو) حرف شرط في الماضي، وأن حروف الشرط إنما تتولى الجمل الفعلية، ومعلوم أن (أن) في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ

(١) مضى عند تفسير الآية (٢٠١) من سورة الأعراف.

رَضُوا ﴿ في محل مصدر، والمصدر الذي هي في محله اسم. والعلماء يجيبون عن هذا بأن متعلق (لو) محذوف^(١) عامل في قوله: ﴿أَنْهَهُمْ﴾ والمعنى: ولو ثبت، أو لو وقع أنهم فعلوا كذا لكان خيراً لهم ﴿وَلَوْ أَنْهَهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ رضوا أصله: (رَضُوا) أصله (فَعِلْ) وأصل لأمه واو؛ لأن أصل رضي (رَضِيَ) بالواو؛ لأنك تقول منها: الرضوان بالواو، ولا تقول: الرضيان بالياء. أصلها (رَضِيَ) بالواو فتطرفت الواو بعد كسرة فوجب إبدالها ياء، فقليل فيها (رضي) بالياء مبدلة من الواو^(٢) ومن المعروف في علم التصريف أن كل فعل ناقص - أعني معتل الآخر - إذا أسند إلى واو الجمع حذفت لأمه، أصله (رضيو) والياء مبدلة من واو، فحذفت اللام التي هي ياء أصلها واو وجعلت كسرتها ضمة لمجانسة الواو، فلذا قيل فيه: (رضوا) وأصل وزن الكلمة بالميزان الصرفي (فَعَلُوا) ووزنها الحاضر الآن (فَعُوا) لأنها محذوفة اللام. وهذا معنى قوله: ﴿إِن أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا شَيْئاً إِذَا هُمْ يَسْتَحْطُونَ﴾ (إذا) الفجائية تأتي جواباً للشرط كما هو معروف في محله. ثم إن الله قال: ﴿وَلَوْ أَنْهَهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ لو رضوا بنصيب الله الذي قسم لهم كما يُعطى لسائر المسلمين من الصدقات وغيرها ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ حسبنا معناه: يكفينا الله (جلّ وعلا)؛ لأن في الله خلفاً من كل شيء، وكفاية من كل شيء، فمعنى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ يكفينا الله ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ﴾ سيعطينا الله من فضله، أي: من فضل الله على يد رسوله ﷺ، وسيؤتينا رسوله ما أمره الله به أن يؤتينا، لو حسنوا الظن بالله، وتوكلوا على الله، ورجبوا فيما عند الله، وقالوا: إنا إلى ربنا راغبون. أي: رغبتنا إليه، ورهبتنا إليه؛ لأن طمعنا وأملنا كله فيه؛ لأن المؤمن بمعناه الصحيح رغبته إلى الله؛ لأنه يطيع الله ويتقيه ويرغب فيما عند الله (جلّ وعلا) من الخير، كما قال تعالى مادحاً للأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْتَرْعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: آية ٩٠] وقال

(١) انظر: البحر المحيط (٥٦/٥)، الدر المصون (٧٢/٦).

(٢) انظر: معجم مفردات الإبدال والإعلال ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

لنبينا ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَلِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾ [الشرح: الآيتان ٧، ٨] لأن الرغبات كلها إلى الله (جلّ وعلا)؛ لأنه هو الذي بيده الخير، وكل شيء بيده، فرغبة المؤمن إليه (جلّ وعلا) يستنزل رحمات الله وما يرجو من الله بطاعة الله (جلّ وعلا) وتقواه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: آية ٥٩] جواب (لو) محذوف دل المقام عليه، والتقدير: لو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم. وقد جاء في القرآن وفي كلام العرب حذف جواب (لو) إذا دلّ المقام عليه، فهو كثير في القرآن وفي كلام العرب فمن أمثلة حذف جواب (لو) في القرآن مع دلالة المقام عليه قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾﴾ [التكاثر: آية ٥] أي: لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سُرَّتْ بِهِ أَلْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُمُّ بِهِ الْمَوْتَى﴾ [الرعد: آية ٣١] فجواب (لو) محذوف واختلف العلماء في تقديره على قولين متقاربين^(١): قال بعضهم: تقدير جواب (لو) في آية الرعد هذه ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سُرَّتْ بِهِ أَلْجِبَالُ﴾ لكان هذا القرآن على حد قوله^(٢):

ولو طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَهَا لَطَارَتْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَطِرْ
وقال بعض العلماء: تقديره: ﴿وَلَوْ أَن قُرْءَانًا سُرَّتْ بِهِ أَلْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ لكفروا بالرحمن. ويدل لهذا قوله بعده: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: آية ٣٠] ومن حذف جواب (لو) في كلام العرب قول الشاعر^(٣):

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا

(١) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال وراجع ما تقدم عند تفسير الآية (١٠٩)

من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

(٣) مضى عند تفسير الآية (٥٠) من سورة الأنفال.

يعني: لو شيء أتانا رسوله سواك لدفعناه. وهذا معنى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: آية ٥٩].

﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٦٠].

لما كان من المنافقين طائفة يلمزون رسول الله ﷺ في قسَم الصدقات ويفترون عليه أنه لم يعدل في قسَمها بين الله لهم أن الله تولى قسَمها وبينها وهو ﷺ منقذ لما أوضحه الله (جلّ وعلا) فقال: ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ﴾ المراد بالصدقات هنا: زكوات المال الواجبة، فالله (جلّ وعلا) بين في هذه الآية من سورة براءة مصارف زكاة المال التي هي إحدى دعائم الإسلام الخمس، جعلها ثمانية، وهي: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب، والغارمون، وفي سبيل الله، وابن السبيل، هي ثمانية، و(إنما): أداة حصر وإثبات، يعني: لا يثبت استحقاق الزكاة لشيء غير واحد من هذه المصارف الثمانية بإجماع العلماء.

﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الفقراء: جمع فقير، والفعل إذا كان وصفاً ينقاس جمعه جمع كثرة على (فُعَلَاء) على العادة ما لم يكن معتل اللام أو مُضَعَّفًا. وهذا معروف^(١)، كل (فعليل) في القرآن وفي كلام العرب بمعنى (فاعل) لم يكن معتل اللام ولا مُضَعَّفًا ينقاس تكسيره جمع كثرة على (فُعَلَاء) ككريم وكرماء، وأديب وأدباء، وشريف وشرفاء، وعليم وعلماء، وفقير وفقراء. أما إذا كان معتل اللام أو مُضَعَّفًا فالقياس أن يُكسَّر على (أفِعَلَاء) فمثال معتل اللام: كتقي وأتقياء، وسخي وأسخياء، ونبي وأنبياء. وكذلك المُضَعَّف: كحبيب وأحباء، وشديد وأشداء. كما هو معلوم في محله. فالفقراء جمع فقير، وهو جمع على القياس. والمساكين: جمع مسكين كذلك.

(١) مضى عند تفسير الآية (٣) من سورة الأعراف.

واختلف العلماء في الفقير والمسكين أيهما أحوج وأسوأ حالاً^(١)؟ والقاعدة المقررة عند علماء التفسير كما قالها غير واحد من المتأخرين ويكادون يطبقون عليها: أن الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا. ومعنى هذا الكلام: أنهما إذا افترقا بأن جاء في آية من كتاب الله أو حديث من سنة رسول الله اسم الفقير وحده، أو المسكين وحده، شملهما معاً، دخل الفقير في المسكين، والمسكين في الفقير؛ لأن كونهما محتاجين يشمل كليهما وإن كان أحدهما أشد فقراً من الآخر، وإن اجتمعا كما نص عليهما موجودين كقوله هنا: ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ فقد اجتمعا، فيلزم إذا اجتمعا أن يفترقا، فيكون للفقير معنى خاص به، وللمسكين معنى خاص به. والحاصل أنه إذا ذكر الفقير وحده أو المسكين وحده دخل الفقير في المسكين والمسكين في الفقير، وإذا ذكرا معاً في محل واحد كهذه الآية وكمن أوصى للفقراء والمساكين كان لكل منهما معنى يخصه.

والعلماء مختلفون في الفقير والمسكين أيهما أسوأ حالاً؟ فذهب جماعة من فقهاء الأمصار وأهل اللغة إلى أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين، وهذا مذهب الشافعي (رحمه الله)، ورواية قوية عن أحمد (رحمه الله)، وبه قال جماعة من السلف، أن الفقير أحوج من المسكين. وقالت طائفة: إن المسكين أحوج من الفقير، وهو مذهب مالك وأصحابه، ومذهب أبي حنيفة (رحمه الله). وكل منهما يوجه قوله، أما مالك فقال: إن المسكين أحوج من الفقير لأن الله قال: ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبٍ﴾ [البلد: آية ١٦] فوصف المسكين بأنه لاصق بالتراب لا شيء عنده، والعرب تطلق الفقير على من عنده شيء لا يغنيه، فعنده بلغة ولكنها لا تغنيه، قال: ويدل ذلك قول راعي نمير وهو عربي قح^(٢):

أما الفقير الذي كانت حلوبته رفق العيال فلم يُترك له سبْدُ
فسمّاه فقيراً وعنده حلوبة قدر عياله. وأما الذين قالوا الفقير أحوج

(١) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

(٢) السابق.

فإنهم قالوا: إن الفقير مشتق من فقرات الظهر؛ لأن الفاقة كأنها فقرت ظهره، أي: قصمته. وقالوا: المسكين: الله قال في سفينة الخضر وموسى: ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَمْعَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: آية ٧٩] فسمى أهلها مساكين مع أن عندهم سفينة عاملة في البحر بالإيجار، فدلّ على أن الفقير أسوأ حالاً. وهذا خلاف بين أهل اللغة والعلماء معروف، جماعة يقولون: الفقير أسوأ حالاً، وجماعة يعكسون. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهِمَا﴾ [التوبة: آية ٦٠] معناه: أن السهم الثاني يعطى للعاملين عليها، وهم الذين يتعبون في تحصيل الزكاة، كالجباة الذين يرسلهم الإمام ليجمعوا الزكاة من أقطار الناس ويأتون بها ويذهبون بها ليفرقونها. فالعاملون عليها كالجباة للزكاة من خارج، والمفرقين لها على الناس، فهؤلاء لهم سهم في الزكوات وهو قدر أجرتهم. وأظهر الأقوال أنه لا يتقدر فيه شيء معين إلا بقدر أجرتهم، وكل ما يعطى أحد من هؤلاء فيه خلاف كثير^(١)، وأظهرها أنه كله يوكل إلى اجتهاد الإمام، ونصيب العاملين عليها يكون بقدر أجرة مثلهم بحسب ما عانوه من التعب، يعطون على قدر ذلك، سواء كانوا فقراء أو أغنياء. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْمَعْمَلِينَ عَلَيْهِمَا﴾.

والسهم الثالث للمؤلفة قلوبهم، والمؤلفة قلوبهم المراد بهم قوم كانوا في زمن النبي ﷺ عندهم إيمان إلا أن إيمانهم ليس بقوي ولهم مكانة وشوكة إذا حسن إسلامهم اعتزّ بهم الإسلام والمسلمون وقويت شوكة المسلمين، أو ناس لهم شرف إذا كانوا في الإسلام تابعهم غيرهم، فالمراد أنه يكون رجال دخلوا في الإسلام لهم مكانة وقوة وفائدة للإسلام فيهم، وإيمانهم ليس بقوي، فتجبر خواطرهم وتؤلف قلوبهم بالمال ليستحسنوا الإيمان ويتمكن الإسلام من قلوبهم فتكون في ذلك المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، ومعلوم أن المؤلفة قلوبهم يقسمهم كتب الفروع إلى أقسام متعددة^(٢) وقصدنا هناك أن نذكر ما يكون مصرفاً للزكاة، وهو الإنسان الذي

(١) انظر: ابن جرير (٣١١/١٤)، القرطبي (١٧٧/٨).

(٢) انظر: ابن كثير (٣٦٥/٢).

يكون في إسلامه خير للمؤمنين، والظاهر أنه لا بد أن يكون مسلماً؛ لأن الزكاة لا تدفع للكافر وهي قربة لا يستحقها إلا المسلمون، فمن قال: إنها تدفع للكافر ليسلم فالظاهر أنه خلاف الظاهر.

وأعلم أن النبي ﷺ كان في زمنه نصيب المؤلفة قلوبهم، وألغى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نصيب المؤلفة قلوبهم، ولم يكن بعد ذلك معروفاً في صدقات المسلمين وزكواتهم^(١). وهذه الفقرة دخل منها كثير من الذين ينتصرون للقوانين بشيطنة وخفية وراء الستار، ويزعمون أن الشرع يتغير بتغير الأوضاع، قالوا: لأن النبي دفع نصيب المؤلفة قلوبهم وعمر لما رأى المصلحة لا تحتاج إلى ذلك لم يدفعه لهم؛ ليتصلوا بذلك إلى أن الشرع تابع للمصالح، وأنه قابل للتغيير في كل وقت وزمان تبع المصالح والتطورات الراهنة، وهذا باطل؛ لأن الشرع أنزله الحكيم الخبير العظيم الجليل العالم بكل ما كان وما يكون، فجعله شرعاً خالداً إلى يوم القيامة، مسائراً لجميع التطورات، تمكن مجابته لكل الأحداث مهما كانت، ولا إشكال في إلغاء عمر لنصيب المؤلفة قلوبهم؛ لأن هذه الأصناف الثمانية لا يعطى منها إلا شيء موجود فإذا عدم الشيء فإنما لم يجعل له سهم لعدمه، فالإنسان إذا قطعت يده مثلاً والله يقول في الوضوء: ﴿فَأَغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: آية ٦] لا نقول: هذا لم يغسل يده لأن يده سقطت!! فالإسلام لما عز وتمكن من قلوب المسلمين وقويت شوكة الإسلام لم يبق هنالك مؤلف، فلما ذهب هذا الصنف ذهب نصيبه بذهابه، وقد أجمع العلماء أن كل ما ذهب من هذه الأصناف الثمانية يذهب نصيبه معه، إذا لم يوجد ابن السبيل فلا نصيب لابن السبيل، فكل ما ذهب منها ذهب نصيبه معه، فعدم إعطاء عمر نصيب المؤلفة نظراً لعدم وجود المؤلفة بالكلية؛ لأن الإسلام قوي وتمكنت شوكته وصار لا تأليف لأحد. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ﴾.

وعلى كل حال فالتحقيق في هذه المسألة أن حكم المؤلفة قلوبهم باق

(١) انظر: ابن جرير (٣١٥/١٤)، القرطبي (١٨١/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

إذا وجدوا وكان رجال لهم مكانتهم وقوتهم في دين الإسلام، والإسلام محتاج إليهم، والمسلمون محتاجون إليهم، فإنه يرجع نصيبهم لتألفهم للمصلحة العامة كما فعل النبي ﷺ وجاء به القرآن العظيم، وإن كان لا تأليف هنالك، ولا حاجة ولا ضعف في الإسلام ولا ضعف في الإيمان، بل المسلمون في قوة ونشاط وفي عزة وقوة ومنعة فالمؤلفة غير موجودين فيسقط نصيبهم لعدمهم، وكذلك هذه الأصناف الثمانية كل ما عدم منها سقط نصيبه معه.

واعلم أن العلماء مختلفون في هذه الأصناف الثمانية هل يجب أن تكون الزكاة موزعة بينها ثمانية أجزاء ولا يجوز أن يُحْرَم واحد منها، أو يجوز أن تعطى الزكاة لواحد منها، أو لاثنتين، أو لثلاثة دون تعميم الآخرين^(١)؟ هذا خلاف معروف بين العلماء، فذهبت جماعة من العلماء منهم مالك وأبو حنيفة (رحمه الله) وجماعة كثيرة من فقهاء الأمصار إلى أنه لا يلزم تعميم هذه الأصناف، بل يجوز أن تعطى الزكاة لصف واحد منها، وأن كل ذلك موكول إلى نظر الإمام يرى الأصلح فالأصلح فيؤثر أقرها وأحوجها وأشدها مصلحة للعامة. هذا قول مالك وأبي حنيفة وجماعة كثيرة من العلماء، قالوا: والآية إنما بينت المصارف الذي لا يجوز أن تُتعدى بها الزكاة إلى غيرها وصفح واحد منها يكفي. وكان بعض علماء المالكية يقول: أكبر دليل على عدم وجوب تعميم الأصناف أنا لو أعطينا الفقراء جزءاً فإننا لا يقول أحد أننا نعهم جميع الفقراء، وإذا أعطينا المساكين جزءاً فلا يمكننا أن نعهم جميع المساكين، فإذا كان الصف الواحد لا يمكن تعميمه فلا يلزم تعميم الأصناف جميعها؛ لأننا لو مشينا مع التعميم لزمنا أن نعهم نصيب الفقراء على جميع الفقراء ولا نترك فقيراً واحداً، ونصيب المساكين على جميع المساكين ولا نترك مسكيناً واحداً. والحاصل أن هذا خلاف قديم اختلفت فيه أنظار العلماء، فمنهم من يقول: إن المراد بـ ﴿إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ أنها لام التملك، واستدلوا بحديث جاء عن النبي ﷺ

(١) انظر: ابن جرير (٣٢٢/١٤)، القرطبي (١٦٧/٨)، المغني (١٢٧/٤).

أن الله لم يكل قسمها إلى نبي وإنما جزأها ثمانية أجزاء، قالوا: واللام للتمليك، فهي شركة بين هؤلاء الثمانية، ومن حَرَمَ واحداً من هؤلاء الثمانية فقد ضمن له نصيبه؛ لأنه حَرَمَهُ ما أعطاه الله إياه.

وقالت جماعة من العلماء: المراد بالآية: أن هذه هي المصارف الذي لا يجوز تعديها إلى غيرها، ولم يلزم تعميمها، بل يوكل إلى نظر الإمام، فما رآه الإمام أحسن للمصلحة العامة فعله للمسلمين، فلو اقتضى نظره أن يصرفها لواحد من هذه الثمانية دون غيرها لفعل. هذا ملخص كلام العلماء في هذا الموضوع.

وقوله: ﴿وَالْعَرْمِينَ﴾ الغارمون معناه: أصحاب الديون الذين يُطلبون بالدين، والغارمون عند العلماء فيهم تفصيل^(١): منهم من يكون غارماً لمصلحة عامة للمسلمين، كالذي يجد بعض القبائل بينها شحناء وفتن وستقع بينها قتلى وبلايا ثم يتحمل الديات ويكون غارماً لتلك الديات للمصلحة العامة، فمثل هذا النوع لم يختلف العلماء في أنه يعطى من زكاة المسلمين ويغرم عنه ما تحمل للمصلحة العامة للمسلمين من زكوات المسلمين ولو كان غنياً. وبعضهم يقول: لا يعطى عنه إلا إذا كان فقيراً. وأما إذا كان الإنسان تحمل الديون في خاصة نفسه، كالذي يتحمل لينفق [على]^(٢) أهله وأولاده، وينفق في تجارته ثم يخسر، ونحو ذلك من الأمور فأكثر العلماء على أن هذا إذا كان لم يستدن في سرف، ولم يستدن في معصية، ولم يبذر المال في المعاصي أنه يدخل في الغارمين، وأنه يقضى عنه قدر دينه من الزكاة، وبعض العلماء يقول: ولو عنده مال. وبعض العلماء يقول: لا يعطى هذا الغارم من الزكاة إلا إذا كان لا شيء عنده، أو عنده شيء إذا أعطاه للغرماء بقي فقيراً لا شيء عنده. وأظهر القولين في هذا: أنه يقضى عنه الدين إلا إذا كان ملياً يقدر على قضاء الدين ويبقى عنده ما يكفيه. وبعض العلماء يقول: هو غارم على كل حال، يقضى عنه سواء كان غنياً أو

(١) انظر: ابن جرير (٣١٧/١٤)، القرطبي (١٨٣/٨)، ابن كثير (٣٦٥/٢).

(٢) ما بين المعقوفين [] زيادة يقتضيها السياق.

فقيراً. والأول أظهر. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْفَرِمِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ
وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾.

قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ اختلف العلماء في المراد به^(١)، فذهبت جماعة
من العلماء إلى أن المراد بالرقاب: إعانة المكاتبين خاصة. وذهب إلى هذا
الشافعي في طائفة من العلماء، واستدلوا لهذا بقوله تعالى في سورة النور:
﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ
مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: آية ٣٣] قالوا: ﴿مِن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي
آتَاكُمْ﴾ هو المذكور في قوله هنا: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ وعلى هذا القول الذي
قاله الشافعي وجماعة من فقهاء الأمصار إذا كان المكاتب عليه نجوم من
كتابته فإنه يعان بما عسر عليه من نجوم كتابته من زكاة المسلمين ليتخلص
حراً.

وذهبت جماعة من العلماء منهم مالك بن أنس وأصحابه في طائفة من
فقهاء الأمصار إلى أن معنى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ أنه ليس معناه المكاتبين،
قالوا: المكاتبون داخلون في قوله: ﴿وَالْفَرِمِينَ﴾ لأن المكاتب غارم لسيده
نجوم كتابته. قالوا: أما معنى قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فهو أنه يُشترى من زكاة
المسلمين عبيد ويكونون أحراراً ولاؤهم للمسلمين. قالوا: وهذا هو معنى
قوله: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾. و﴿وَالْفَرِمِينَ﴾ تكلمنا الآن عليه.

وقوله: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لا خلاف بين العلماء أن الغزاة الذين
ليسوا في الديوان داخلون في سبيل الله، وإيضاح هذا أن عمر بن
الخطاب (رضي الله عنه) لما جعل مسألة الديوان كتب أسماء الجند في
ديوان قيد أسماءهم فيه، وكل قطر من الأقطار عدّد ما فيه من المُقاتلة
وكتبهم في ديوان ليحفظوا الثغور ويعينوا على الجهاد، وكانت لهم أرزاق
معروفة في بيت مال المسلمين، وهؤلاء إذا قتل واحد منهم عَقِلَ عنه
الآخرون قبل عصبته، فهؤلاء قال العلماء: ليسوا هم المراد هنا؛ لأن

(١) انظر: ابن جرير (٣١٦/١٤)، القرطبي (١٨٢/٨)، الأضواء (٤٧٠/٢).

لهم أرزاقاً من بيت مال المسلمين وهم مدونون معروفون، وأن المراد بهؤلاء الغزاة: هم الذين يتطوعون ليقاتلوا ويسدوا الثغور مع المسلمين، مع أنهم لم تكن لهم أرزاق مكتوبة، ولم يكونوا مكتوبين في الديوان، فهؤلاء يعطون من زكاة المسلمين وإن كانوا أغنياء، ويعطون ما يشترون به السلاح والمراكب ليسدوا ثغور المسلمين فيجاهدوا في سبيل الله، وكون المراد في سبيل الله الغزاة هو قول الشافعي (رحمه الله) في طائفة من العلماء.

وقال الإمام مالك وأصحابه: إن المراد بسبيل الله كل ما يتعلق بالغزو والرباط فيدخل فيه جميع ما يتعلق بالغزو كسواء السلاح والكراع، والرباط في سد الثغور المخوفة التي يخشى أن تدخل منها الكفار للمسلمين، أن هذا كله يدخل في سبيل الله.

وذهبت جماعة من العلماء وهو مروى عن الإمام أحمد بن حنبل أن (في سبيل الله) الحُجَاج والعُمار، أنه يعطى من بيت مال المسلمين للعاجز عن الحج والعمرة ما يحج به ويعتمر. قالوا: والحج والعمرة في سبيل الله. هذا ملخص عيون كلام العلماء في هذه المصارف. وهذا معنى قوله: ﴿وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ السبيل في لغة العرب^(١): الطريق. ومعنى (ابن السبيل) ولد الطريق، وإنما قيل للمسافر الغريب: (ابن السبيل) لأحد أمرين: قال بعض العلماء: لأنه ملازم للطريق لذهابه معها، وكل ملازم لشيء تقول له العرب ابنه، ومنه سمت الطير الملازم للماء (ابن الماء) كما هو معروف، ومنه قول غيلان ذي الرمة^(٢):

وردت اعتسافاً والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماءٍ مُحَلِّقٍ
فسماه ابن الماء لملازمته للماء.

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٦) من سورة الأنعام.

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤١) من سورة الأنفال.

وقالت طائفة من علماء العربية: إنه إنما قيل له (ابن السبيل) لأن السبيل وهي الطريق كأنها تمخضت لنا عنه ورمتنا به كما ترمي النفساء الناس بولدها، كان غائباً في بطن الطريق فرمنا به، كما تكون النفساء ولدها غائب في بطنها فترمينا به. وهذا المعنى يوجد في كلامهم، وقد أوضحه مسلم بن الوليد الأنصاري - وإن كان كلامه إنما يذكر مثلاً لا استدلالاً؛ لأنه في زمن الدولة العباسية، ولكنه أوضح هذا المعنى - بقوله حيث يقول يذكر رجلاً سافر في فلاة من الأرض شهرين إلى أمير ليمدحه قال له^(١):

تمخضت عنه تمأ بعد محمله شهرين ببداء لم تُضرب ولم تلد
ألقته كالنضل معطوفاً على همم يعمدن منتجعاتٍ خيرٍ مُعتمد

فصرح بأن هذه الفلاة تخمضت عن هذا وولדתه وأنتجته، فكذلك الطريق كأنها تتمخض عنه وترميهم به. وأكثر العلماء يقولون: سُمي (ابن السبيل) لملازمته للطريق، وابن السبيل هو الإنسان الذي فنت نفقته وانقطع زاده وهو متغرب عن أوطانه يعطى من زكاة المسلمين زاداً وما يبلغه إلى وطنه ولو كان غنياً في محله، ولا تتبع ذمته ولو كان غنياً في محله؛ لأنه مصرف للزكاة في ذلك الوقت وإن كان غنياً في بلده، وهذا من محاسن دين الإسلام وما فيه من مكارم الأخلاق. قال بعض العلماء: ويدخل في ابن السبيل ما لو كان له سفر يضطر إليه، كما لو كانت له أولاد في دار حرب أو في ضيعة وهو مضطر إلى الإتيان بهم ولا مال عنده فإنه يُعطى ليذهب ويجيء ويكون داخلاً في ابن السبيل.

وقد أجمع العلماء على أن ابن السبيل إذا كان مسافراً في معصية لا يجوز أن يعطى من الزكاة شيئاً لأنه إعانة له على معصيته، والله يقول: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: آية ٢] وإن كان سفره في قرابة فلا خلاف في أنه يعطى. وإن كان في مباح فقد اختلف العلماء في ذلك،

(١) هذان البيتان سبق ذكرهما في الموضع السابق.

فقالوا: لا يعطى؛ لأن المباح لا يلزم. وقال بعض العلماء: يعطى؛ لأن السفر المباح فيه جميع التسهيلات التي في السفر الواجب، فالسفر المباح تقصر فيه الصلاة، ويفطر فيه المسافر، ويفعل فيه كل الترخصات، فكذلك يعان صاحبه عليه. هكذا قال بعضهم والله تعالى أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ مصدر، أي: فرض الله هذا فريضة عليكم ﴿وَاللَّهُ﴾ جلّ وعلا ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور في مواضعها ويوقعها في مواقعها.

/ يقول الله (جلّ وعلا): ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۗ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: آية ٦١].

قرأ هذا الحرف عامة القراء غير نافع: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بياء مشددة، وقرأه نافع وحده: ﴿يؤذون النبيء﴾ بهمزة^(١). وأبدل ورش ومن وافقه همزة ﴿يُؤْذُونَ﴾ فقرأ: ﴿يؤذون﴾ وقرأ عامة السبعة غير نافع وحده: ﴿ويقولون هو أذنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بضم الذال في الحرفين، وقرأه نافع وحده: ﴿أذن﴾ بسكون الذال^(٢).

وقرأ عامة السبعة غير الكسائي: ﴿ورحمة﴾ بالرفع، وقرأ الكسائي وحده ﴿ورحمة﴾ بالخفض^(٣).

فعلى قراءة الجمهور فهو عطف على المضاف في قوله: (أذنٌ خيرٌ لكم ورحمة) وعلى قراءة الكسائي^(٤) فهو عطف على المضاف إليه. أي: (أذنٌ خيرٌ ورحمة لكم)^(٥).

(١) مضى عند تفسير الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وانظر: الإتحاف (٩٤/٢).

(٢) انظر: السبعة ص ٣١٥، المبسوط لابن مهران ص ٢٢٧.

(٣) قراءة الخفض إنما هي لحمزة وليست للكسائي. انظر: السبعة ص ٣١٥، المبسوط لابن مهران ص ٢٢٧، وقد استدرك الشيخ ذلك فنه على الصواب كما سيأتي قريباً.

(٤) الصواب: حمزة كما سبق.

(٥) انظر حجة القراءات ص ٣٢٠، الدر المصون (٧٤/٦).

وقوله: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ هذا صنف آخر من أصناف المنافقين؛ لأن الله بيّن في هذه الآية أصناف المنافقين، قال: ﴿وَمِنَهُم مَّن يَكْفُرُ أَتَدْنِي وَلَا نَفْسِي﴾ [التوبة: آية ٤٩] ﴿وَمِنَهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: آية ٥٨] ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] كان في المنافقين طائفة يسطون ألسنتهم إلى رسول الله ﷺ بالكلام السيء فيعيبونه ويقولون فيه ما لا ينبغي، وهذا هو قوله: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ [التوبة: آية ٦١] أي: ومن المنافقين الطائفة الذين يؤذون النبي محمداً ﷺ بالاستطالة في عرضه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ معنى هذا أنه إذا قيل لهم: كيف تقدحون في نبي الله ﷺ وتعيبونه وهو إن علم بذلك فعل بكم وفعل بكم؟ فيقولون: لا يهمننا ذلك؛ لأنه أذن!! العرب تقول: فلان أذن. وأذن بالسكون لغة فيه، إذا كان يسمع من كل من جاءه، فإذا كان الرجل كلما جاءه أحد وأخبره سمع منه وصدقه قالت العرب: هذا الرجل أذن. يعنون: هو كلما جاءه أحد بخبر صدقه، ونحن إن قيل عنا إنا أذيناه جئناه وكذبنا له وحلفنا له فيصدقنا، فنحن نؤذيه ولا تضرنا عاقبة ذلك؛ لأن ما كنا أن نكذب الحديث ونحلف له عليه، وهو أذن يصدق كل من جاءه بخبر، فيصدقنا ولا ينشأ لنا من ذلك سوء. وهذا معنى قوله: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ لما عابوا النبي ﷺ آذوه وعابوه بأنه أذن في زعمهم الباطل - قبحهم الله - يعنون: يسمع من كل من حدثه، بيّن الله أنه أذن ولكنه أذن خير خاصة، لا أذن شر، فإذا جاءه الناس بالخير وبالحق صدقهم في الخير والشر، أما الباطل فليس بأذن فيه ولا بمصدق أحداً فيه، ولا ينفعكم اعتذاركم الباطل. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ هو أذن خير لكم، أي: يسمع - هو سامع - ولكنه سامع خير، سامع من كل من جاءه بخير وبحق لا من كل من جاءه بشر وبباطل مثلكم فليس بأذن له. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدق بالله (جلّ وعلا) التصديق الكامل من الجهات الثلاث، يؤمن بالله تصديقاً صحيحاً من قلبه ولسانه وجوارحه (صلوات الله وسلامه

عليه) ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يصدق المؤمنين العدول الأتقياء إذا جاؤوه بمقالة، أما الكفرة الكذبة أمثالكم فلا يصدقهم.

وجرت العادة باستقراء القرآن أن الله تبارك وتعالى إذا كان الإيمان بالله عداه بالباء، كأن يقول: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾ [الحجرات: آية ١٥، النساء: آية ١٣٦] ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: آية ١١٤] وإذا كان الإيمان معناه تصديق مخلوق فإنه يعديه باللام دائماً؛ ولذا قال هنا: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: ويصدق المؤمنين. ولا يكاد هذا التصديق المتعلق بالآدميين يوجد في القرآن إلا مجروراً باللام، كقوله: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: آية ٢٦] ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: آية ١٧] وقوله هنا: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ويصدق المؤمنين الأتقياء في الخير الذي جاءه به، ولكن ليس بأذن للكفرة الفجرة أمثالكم. فقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ على قراءة الجمهور هو أذن خير، وهو أيضاً رحمة للمؤمنين، وقد أرسله الله رحمة للعالمين.

وفي هذه الآية سؤال معروف؛ لأن طالب العلم يقول: الله قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فقيّد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: آية ١٠٧] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين، وهذا وجه السؤال.

والجواب عنه: أن الله (جلّ وعلا) أرسله (صلوات الله وسلامه عليه) رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يحزها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يحزها. وضرب العلماء لهذا مثلاً قالوا: لو أن سلطان البلد مثلاً - ولله المثل الأعلى - أرسل لجميع سكان البلد إنعاماً كثيراً كأن أجرى لهم المياه تأتيهم، وأجرى عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض

الناس قبل من الله فضله وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضل عليه ببعثه (صلوات الله وسلامه عليه).

وأما على قراءة حمزة الذي قرأ: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخفض - هو حمزة لا الكسائي^(١) - أما على قراءة حمزة ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ هو أذن خير ورحمة. معطوف على الخير؛ لأن الله (جلّ وعلا) جعل فيه الخير والرحمة فإذا كان سامعاً من أحد فهو سماع لا يقود إلا إلى خير من خير ورحمة لا سماع شر. ولا يخفى ما في قراءة حمزة من عدم ظهور المعنى، وظهور المعنى على قراءة الجمهور. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ بالاستطالة في عرضه بكلام السوء ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من الله (جلّ وعلا)، وقد بين في الأحزاب أن ذلك العذاب مصحوب باللعة أيضاً في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إلى آخر الآية [الأحزاب: آية ٥٧]. وهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦٢] قال بعض العلماء: كانت جماعة من المنافقين ومعهم غلام حدث من الأنصار يسمى عامر بن قيس، فقال بعض المنافقين لبعض: والله إن كان ما يقوله محمد ﷺ حقاً لنحن شر من الحمير، فغضب ذلك الغلام وقال: أتشكون في حق ما يقوله، والله إن ما يقوله لحق، وإنكم لشر من الحمير، ثم نما الحديث إلى النبي ﷺ، فلما سألهم: ما حملكم على أن تقولوا ما قلتم، حلفوا بالله ما قلناه، قال من روى هذه القصة في سبب هذا النزول: وكان ذلك الغلام الأنصاري يدعو الله ويقول: اللهم بين المحق منا من الكاذب، فأنزل الله هذه الآية من سورة براءة تصديقاً

(١) سبق التنبيه على ذلك قريباً.

لذلك الرجل وتكذيباً لأولئك المنافقين^(١) ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ أما قيل عنا لكذب، ولا نقول إلا خيراً، ولا نظهر إلا الخير ﴿لِيَرْضَوْكُمْ﴾ بذلك ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ في باطن الأمر، ولم يكونوا منافقين، ولم يقعوا في نبيه ﷺ بما لا ينبغي.

وقد رد الضمير هنا على الرسول وحده قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ من أن يعيويه. قال بعض العلماء^(٢): إنما اكتفى بالضمير الواحد لأن إرضاء الله إرضاء لرسوله، وإرضاء الرسول إرضاء الله ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: آية ٨٠] فلما تلازما صارا كأنهما شيء واحد.

وذهب غير واحد من علماء العربية وعلماء التفسير^(٣) إلى أن رجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به لأن الآخر مفهوم منه أسلوب عربي معروف كثير في القرآن العظيم وفي كلام العرب وهو كثير، أن العرب ربما حذفوا بعض الأمرين واستغنت عنه بالآخر، سواء كان في ضمير أو غير ضمير، فمن أمثله في غير الضمير قول قيس بن الخطيم^(٤):

نحنُ بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأي مُخْتَلِفٌ
فحذف «راضون» لدلالة «راضٍ» عليها وقد أنشد هذا لهذا المعنى سيبويه في كتابه، وأنشد سيبويه لهذا المعنى أيضاً قول عمرو بن أحمر الباهلي^(٥):

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيثاً وَمِنْ أَجْلِ الطَّوِيِّ رَمَانِي

(١) أخرجه ابن جرير (٣٢٩/١٤) وابن أبي حاتم (١٨٢٨/٦) عن قتادة مرسلًا، وليس فيه تسمية الذي نقل ذلك إلى رسول الله ﷺ. وعزاه في الدر (٢٥٣/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم.

وقد ساق رواية عند ابن أبي حاتم عن السدي مرسلًا وفيها تسمية الأنصاري. وفي المطبوع من ابن أبي حاتم رواية عن السدي تتعلق بتفسير الآية لكن لا علاقة لها بسبب النزول أو تسمية الأنصاري.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٤/٨)، الدر المصون (٧٥/٦).

(٣) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٤) البيت في الكتاب لسيبويه (٧٥/١).

(٥) السابق.

أي: كنت بريئاً وكان والدي بريئاً، فحذف أحدهما للدلالة الآخر عليه، وأنشد له سيويه في كتابه أيضاً: قول ضابيء بن الحارث البرجمي^(١):

فمن يكُ أمسى بالمدينة رحله فإني وقياراً بها لغريب
فإني لغريب وقيار لغريب. هذا من أمثله في غير الضمير، وأمثلة حذف أحد الضميرين اكتفاءً عنه بالآخر كثيرة في كلام العرب وفي القرآن العظيم، فمن أمثلتها في القرآن في المتعاطفات بالواو كما هنا: قوله: ﴿يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا﴾ [التوبة: آية ٣٤] ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا﴾ [البقرة: آية ٤٥] ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الأنفال: آية ٢٠] وأمثال ذلك كثيرة في القرآن. ومن أمثله في كلام العرب قول نابغة ذبيان وهو شاهده المشهور^(٢):

وقد أراني ونُعماً لاهيين بها والدهر والعيش لم يههم بإمرار
يعني: لم يههما. فرد الضمير على واحد من العيش أو الدهر؛ لأن الآخر مفهوم منه، ومنه قول حسان رضي الله عنه^(٣):

إن شَرخَ الشَّبَابِ وَالشُّعْرَ الْأَسْوَدَ مَا لَمْ يُعَاصِ كَانَ جُنُونًا
فلم يقل: ما لم يعاصيا. وهو كثير.

وأما في المعطوف بـ (أو) فالقياس أن يرجع الضمير بالإفراد؛ لأن الضمير في المتعاطفات بـ (أو) يرجع إلى الأحد الدائر بينها، وهو القياس كقوله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ﴾ [النساء: آية ١١٢] وقد رده إلى أحدهما بعينه تعالى في قوله: ﴿وَإِذَا﴾^(٤) ﴿رَأَوْا تَحِيْرَةً أَوْ لَوْا أَنْفُسَهُمْ فِيهَا﴾ [الجمعة: آية ١١].

وقد يرجع إلى أحدهما في المتعاطفات بالفاء، ومن أمثلة رجوعه إلى أحدهما في المتعاطفين بالفاء قول امرئ القيس في معلقته^(٥):

(١) الكتاب (٧٥/١).

(٢) مضى عند تفسير الآية (٤٥) من سورة البقرة.

(٣) السابق.

(٤) في هذا الموضع انقطاع في التسجيل. وقد أثبت تمام الآية وجعلت ذلك بين معقوفين.

(٥) ديوانه ص ١١٠.

فَتَوَضَّحَ فَالْمِقْرَاءَةُ لَمْ يَغْفُ رَسْمَهَا لِمَا نَسَجْتَهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ
فَرَدَهُ لِإِحْدَاهُمَا. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالْمَعْنَى: يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ
وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ
يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ - قَبَّحَهُمُ اللَّهُ - . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ
يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: آية ٦٢].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنْتُمْ لَكُمْ نَارُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا
ذَلِكَ الْخَيْرِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: آية ٦٣].

قدمنا في هذه الدروس مراراً^(١) أن كل فعل مضارع مجزوم بـ (لم) إذا
تقدمتها همزة استفهام بأن قيل فيه (ألم) كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) فيه
لعلماء التفسير وجهان في جميع القرآن:

أحدهما: أن تصير مضارعه ماضوية، ويصير نفيه إثباتاً، فأصله
مضارع منفي بـ (لم) فتصير حقيقة معناه أنه ماضٍ مثبت فتقلب المضارعة
ماضوية، وينقلب النفي إثباتاً، وهذا مطرد كقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ معناه:
علموا أن من حاد الله ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَمْ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: آية ٨] جعلنا له
عينين ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: آية ١] شرحنا لك صدرك. فإن
قيل: بأي وجه انقلبت المضارعة ماضوية، وانقلب النفي إثباتاً، مع أن
النفي والإثبات نقيضان؟ فالجواب: أن انقلاب المضارعة ماضوية أمر
واضح لا إشكال فيه؛ لأن (لم) حرف قلب، تقلب المضارع من معنى
الاستقبال إلى معنى الماضي، وهذا أمر معروف لا نزاع فيه ولا إشكال،
أما انقلاب النفي إثباتاً فوجهه أن همزة الاستفهام التي قبل حرف (لم) هي
استفهام إنكار، والإنكار مضمن معنى النفي، فيتسلط النفي الكامن في
الهمزة على النفي الصريح في (لم) فينفيه، ونفي النفي إثبات. هذا وجه
من قال هذا القول.

القول الثاني: أن كل فعل مضارع مسبوق بـ (ألم) في جميع القرآن هو

(١) مضى عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الأنعام.

استفهام تقرير، والمراد باستفهام التقرير هو حمل المخاطب على أن يقر فيقول: بلى، وليس المراد منه طلب فهم البتة. فالمراد بهذا على هذا القول أن يقولوا: بلى نعلم أنه من يحادد الله ورسوله فأَن له نار جهنم ﴿أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ إنما فَك الإِدغام هاهنا لأن الفعل مجزوم، ومعلوم أن المضعف إذا جزم أو صار أمراً جاز فيه الإِدغام وَفَك الإِدغام كما هو معروف في محله. ومعنى قوله: ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ﴾ أي: يشاق الله ويخالفه ويعاضيه. وأصل المحادة: من الحد؛ لأن المحاد يكون في الحد الذي ليس فيه من حاده، تقول: زيد محاد لعمرو. أي: مشاق له ومعاد له ومعاند؛ لأنه في الحد الذي ليس فيه، فهذا في الحد الذي ليس فيه هذا وذلك بعكس ذلك أيضاً. وهذا معنى معروف في كلام العرب، وأعظم محادة لله هي إيذاء نبيه ﷺ والتجرؤ على ذلك بالأيمان الباطلة الكاذبة.

﴿فَأَن لَّمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ إذا كانت (أن) مثلاً في جزاء الشرط بعد فاء جاز فيها الفتح كما هنا وجاز فيها الخفض أيضاً، وهما لغتان عربيتان؛ وقراءة الجمهور منهم السبعة هنا: ﴿فَأَن لَّمْ﴾ بفتح الهمزة، ولو كسرت لجاز لغة لا قراءة؛ لأن القراءة الصحيحة بعكسه ﴿فَأَن لَّمْ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أضاف النار إلى جهنم لأن جهنم طبقة من طبقاتها.

﴿خَلِدًا فِيهَا﴾ في حال كونه خالداً فيها، وهي حال مقدره كما هو معلوم.

﴿ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: الخلود في النار - عياداً بالله - بسبب محادة الله ومشاقته، والخزي العظيم أي: الذل الأكبر والهوان الأعظم. فالخزي في لغة العرب: غاية الذل والهوان والانسفال. وقد صرح الله (جلّ وعلا) بأن من حاد الله في غاية الذل والمهانة والسفالة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: آية ٢٠] فقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ يبين أن الخزي هنا - عياداً بالله - يتضمن أعلى الذل والحقار والصغار، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبُورًا كَمَا كَتَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: آية ٥] وذلك الكبت ملتزم لأصناف الذل

والمهانة والله (جلّ وعلا) يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ [آل عمران: آية ١٩٢] أي: أذلّته وأهنته - والعياذ بالله أجارنا الله منها وإخواننا المسلمين - وهذا معنى قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الضمير ضمير الشأن، والجملة هي اسم (أن)، و(أن) الثانية فيها للعلماء أوجه^(١) متعددة أصحها وأقربها للصواب أنها هي (أن) الأولى كررت لما طال الفصل بينهما، وتكرير (أن) إذا طال الفصل أسلوب عربي معروف كثير في كلام العرب، ومنه هذه الآية على الصحيح. ﴿فَأَنبَأَ لَمُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾.

﴿خَالِدًا فِيهَا﴾ الخلود معناه: المكث الطويل، والمراد بخلود أهل النار خلود لا انقطاع فيه البتة؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] فليس للنار خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير، وقد قدمنا في هذه الدروس^(٢) أن جماعة من العلماء زعموا أن النار تفتنى، وأنهم يخرجون منها، واستدلوا بقوله: ﴿لَيَبَيِّنَنَّ فِيهَا أَهْقَابًا﴾ [النبأ: آية ٢٣] ويقولوه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في سورة هود [هود: آية ١٠٧] ويقولوه: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: آية ١٢٨] وبيننا مراراً أن التحقيق في خلود أهل الجنة وخلود أهل النار أنه خلود أبدي لا انقطاع له أبداً لا يزول ولا يحول فهو باق بقاء سرمدياً لا انقطاع له، أما خلود أهل الجنة فقد صرح الله به في آيات من كتابه كقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ يُجْدُونَ﴾ [هود: آية ١٠٨] ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقًا مَّا لَكُمْ مِن تَقَادٍ﴾ [ص: آية ٥٤] وقوله (جلّ وعلا): ﴿مَّا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: آية ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات، وأما خلود أهل النار فجاءت فيه آيات كثيرة كقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿فَإِنَّ لَمُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: آية ٧٤] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: آية ٩٧] والحاصل أن من قال من

(١) انظر: ابن جرير (٣٣٠/١٤)، القرطبي (١٩٤/٨)، الدر المصون (٧٧/٦).

(٢) مضى عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام، والآية (٣٦) من سورة الأعراف.

السلف: «إن النار تفتنى ويبقى محلها لا أحد فيه» يجب حملها كما صرح به البغوي في تفسيره^(١) على الطبقة التي كان فيها عصاة المسلمين؛ لأن الله يخرجهم بعد أن تطهرهم النار فيؤولون إلى الجنة فتبقى طبقتهم التي كانوا فيها خاوية، أما الكفار فهم باقون معذبون لا يموتون ولا يخفف عنهم العذاب ولا تفتنى النار عنهم، وقد نفى الله فناءها بقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ فمن يدعي أن لها خبوة نهائية ليس بعدها زيادة سعير زد عليه بهذه الآية الكريمة، وكذلك لا يخرجون منها؛ لأن الله يقول: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: آية ٢٠] ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: آية ٢٢] ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: آية ١٦٧] ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: الآية ٣٧] وكذلك لا يموتون فيها كما قال: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: آية ١٧] ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْفَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: آية ٣٦] إلى غير ذلك من الآيات كما أوضحناه في هذه الدروس.

١/١٠ / (٢) [أما آية النبأ، وهي قوله: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ (٣٣) ﴿النَّبَأُ: آية ٢٣] فقد بينتها غاية البيان آية سورة ص، وإيضاح ذلك أن المعنى: ﴿لَيْثِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿أَحْقَابًا﴾ في حال كونهم في تلك الأحقاب ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ (٢٤) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَعَسَاقًا﴾ (٢٥) ﴿النَّبَأُ: الآيتان ٢٤، ٢٥] فإذا انقضت أحقاب [الحميم والغساق، عذبوا بأنواع آخر من أنواع العذاب لا نهاية لها ولا يعلمها إلا الله. وإنما قلنا: إن هذه الأحقاب، مختصة بأحقاب الحميم والغساق لأن الله بين ذلك وصرح به في سورة (ص) وخير ما يفسر به القرآن القرآن؛ لأن الله يقول في (ص): ﴿هَذَا وَإِلَىٰ الظَّالِمِينَ لَشَرٌّ مِّنْ مَّكَانٍ﴾ (٥٥) ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنَ السَّمَاءِ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ﴾ (٥٧) ﴿وَمَا آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ (٥٨) [ص: الآيات ٥٥ - ٥٨] فبين أن هنالك أصنافاً آخر

(١) تفسير البغوي (٢/٤٠٣).

(٢) في هذا الموضع انقطع التسجيل. وتم استيفاء النقص من كلام الشيخ (رحمه الله) على هذه المسألة عند تفسير الآية (٣٦) من سورة الأعراف. وجعلت ذلك بين معقوفين.

وأشكالاً من أنواع العذاب غير الحميم والغساق. فبيّنت آية (ص) هذه آية النبأ، بياناً واضحاً وخيراً ما يفسر به القرآن القرآن.

وذكرنا^(١) أن بعض الملحدين يقول: أين الإنصاف والحكمة في أن تكون أيام المعصية في دار الدنيا وأيام الكفر مدة محدودة والجزاء في مدة لا تنقضي، فأين العدل والميزان، في عملٍ في مدة معينة مع جزاءٍ في مُدَد لا تنقضي ولا تنتهي؟!!

والجواب عن هذا: أن خبث الكافر الذي عُذّب بسببه هو باقٍ دائم لا يزول في جميع المُدَد، فكان العذاب دائماً لا يزول؛ لأن سببه باقٍ لا يزول، والدليل على أن خبث الكفار باقٍ لا يزول أبداً فكان جزاؤه دائماً لا يزول أبداً لأنهم لما رأوا النار وعابنوا الحقائق يوم القيامة وندموا على تكذيب الرُّسل فتمنوا الردّ إلى الدنيا ليتوبوا ﴿فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: آية ٢٧] قال الله فيهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: آية ٢٨] فصرّح (جلّ وعلا) بأنهم لو رُدوا إلى الدنيا بعد معاينة النار والعذاب وبلايا القيامة لعادوا لما نهوا عنه.

وهو تصرّيح بأن خبثهم الطبيعي منطبقٌ فيهم دائماً لا يزول، فلذلك كان جزاؤه دائماً لا يزول. والجزاء بحسب العمل؛ ولذا قال تعالى: ﴿جَزَاءُ وَفَقًا﴾ ﴿١٦﴾ [النبأ: آية ٢٦] موافقاً لأعمالهم فخبثهم لا يزول وجزاؤهم لا يزول، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: آية ٢٣] ف (خيراً) نكرة في^(٢) سياق الشرط وهي تعتم، فعرفنا أن الله لم يعلم فيهم خيراً ما في وقتٍ ما كائناً ما كان، ولما كان الخير منتفٍ عنهم أبداً والشرّ ملازم لهم أبداً، كان جزاؤهم لازماً أبداً. وهذا معنى قوله: ﴿فَأَنْتَ لِمَنْ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ﴾ [التوبة: آية ٦٣] - والعياذ بالله - ﴿الْخَيْرِيُّ الْعَظِيمُ﴾ الهوان والخزي الكبير. والعظيم صفة مشبهة من عَظُم الشيء يعظم فهو عظيم، وهو معنى معروف لا خفاء به.

(١) راجع ما سبق عند تفسير الآية (١٢٨) من سورة الأنعام.

(٢) السابق.

قال تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ كَانَ اللَّهُ مُخْرِجًا مَا يَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ قَسَاصًا ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَدُوا فَذَكَّرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سُبُلٍ مُّجْرِبِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحَتُهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفٰرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: الآيات ٦٤ - ٦٨].

يقول الله (جل وعلا): ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخِرُوا إِنْ كَانَ اللَّهُ مُخْرِجًا مَا يَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قرأ هذا الحرف عامة القراء، غير ابن كثير وأبي عمرو: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ ومعنى القراءتين واحد، فالله (جل وعلا) في هذه السورة الكريمة يوضح ما تنطوي عليه ضمائر المنافقين، فبين لبيته ﷺ في هذه الآية الكريمة أن المنافقين في غاية الخوف والقلق والحذر من أن ينزل الله على نبيه قرآناً يكشف به أسرارهم، ويوضح ما تنطوي عليه ضمائرهم من الكفر والسوء فقال: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ﴾ مضارع حذر الأمر يحذره إذا كان يخاف وقوعه خوفاً شديداً.

قوله: ﴿أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ التحقيق أن المصدر المنسبك من (أَنْ) وصلتها في محل نصب مفعول به ليحذر^(١)؛ لأنه (يحذر) تتعدى بنفسها دون حرف، وأشد سيويه لتعدي (حذر) بنفسها قول الشاعر^(٢):

حذرُ أموراً لا تضييرُ وآمنٌ ما ليس ينجيه من الأقدار

فقوله: «أموراً» مفعول به لـ (حذر) وهو الوصف من حذر يحذر فهو حذرٌ ﴿أَنْ تُنَزَّلَ﴾ يعني: يحذر المنافقون تنزيل سورة من الله عليهم. أي:

(١) انظر: الدر المصون (٧٩/٦).

(٢) الكتاب (١١٣/١).

على النبي وأصحابه تفضح المنافقين، وقال بعض العلماء: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المنافقين؛ لأنها إذا نزلت في شأنهم مبيّنة فضائحهم وما تنطوي عليه أسرارهم فكأنها نزلت عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله ﴿أَسْتَهْزِؤُا﴾ صيغة الأمر هنا للتهديد، يعني: دوموا على ما أنتم عليه من الاستهزاء بآيات الله وبالله ورسوله فستلقون جزاء ذلك ﴿إِنكُ اللَّهُ مُخْرِجٌ﴾ أي: مظهر لنبيه بما يوحي إليه ما أنتم تسرونه وتبطنونه، ذلك الذي تحذرون أن يفضحكم الله فيه، إن الله مخرجه ومظهره، وقد أطلع الله نبيه ﷺ على حقائقهم بعد أن لم يكن يعلمها؛ لأن قوله هنا: ﴿إِنكُ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ﴾ يدل على أن النبي في هذا الوقت لم يكن يعلمه كما يأتي في قوله: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النَّفَاقِ لَا يَتْلَمَهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: آية ١٠١] وقد بين الله لنبيه المنافقين، أشار له إلى معرفتهم بقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ﴾ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ لَئِيْمَةً﴾ ثم قال: ﴿وَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: الآيتان ٢٩، ٣٠] وقد أطلع الله نبيه عليهم في غزوة تبوك، وأطلع النبي حذيفة بن اليمان على جماعة منهم بأسمائها. وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَسْتَهْزِؤُا إِنكُ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ﴾ [التوبة: آية ٦٤].

قوله: ﴿مَّا﴾ في محل المفعول به لاسم الفاعل الذي هو (مخرج) والسؤال الذي يتبادر في هذا جوابه ظاهر، لأن (مخرج) هنا قد وقع وتعلق بالماضي، والمقرر في علم العربية أن اسم الفاعل إذا كان نكرة لا يعمل إلا بمسوغ، ولا يعمل في الماضي، وهنا كأنه عمل في الماضي. والجواب واضح؛ لأن هذه الآية تحكي ما كان في ذلك الوقت مستقبلاً؛ لأن وقت نزول هذه الآية يحكي الله (جلّ وعلا) فيها أنه سيفعل ذلك في المستقبل، فإذا لم يتعلق اسم الفاعل بامرٍ ماضٍ كما لا يخفى. وهذا معنى قوله: ﴿إِنكُ اللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا تَحَدَّرُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُمْ لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوذُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: آية ٦٥] نزلت هذه الآية في غزوة تبوك بإطباق المفسرين في قوم استهزؤوا بالله وآياته ورسوله. قال بعض العلماء: كان النبي ﷺ يسير في

غزوة تبوك وأمامه ركبٌ من المنافقين، فكان بعضهم يقول لبعض: «يظن هذا أنه يفتح قصور الشام ويقدر على بلاد بني الأصفر، هيهات هيهات» فأطلع الله نبيه على ذلك فاستوقفهم فسألهم: «لم قلتم هذا؟» قالوا: كنا نخوض ونلعب، لم نقل هذا عن طريق الجد، وإنما قلناه عن طريق الهزل واللعب. فأجابهم الله: ﴿أَيُّ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ نَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْدِرُوا فَعْدَاكُمْ كَفَرْتُمْ﴾^(١) [التوبة: آية ٦٥].

وذكر بعض العلماء أن النبي ﷺ ضلّت راحلته في غزوة تبوك فقال جماعة من المنافقين: انظروا إلى هذا الرجل يدعي أنه يعلم علم الغيب، وأنه ينزل عليه الوحي وهو لا يدري أين ذهبت ناقته!! وأن جبريل أتاه فأخبره بموضعها، أمسكتها شجرة كذا بزمامها، فناداهم وقال: «لم قلتم ما قلتم؟» قالوا: كنا نخوض ونلعب^(٢).

وعلى كل حال فلا خلاف بين العلماء أن هذه الآية من سورة براءة نزلت في غزوة تبوك في قوم استهزؤوا بالنبي ﷺ واستخفوا به، فسألهم رسول الله ﷺ فأجابوا معتذرين اعتذاراً كاذباً قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ فِي الْحَدِيثِ وَنُلْعَبُ﴾ نهزأ ونضحك فيما بيننا لا نقول ذلك عن جدّ وقصد. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنُلْعَبُ﴾.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نبي الله: ﴿أَيُّ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ نَسْتَهْزِئُونَ﴾ يعني تستهزئون بالله وبرسوله وبآياته؟! فالاستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر بواح لا

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٤/١٤)، وابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦)، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٥٠، عن قتادة مرسلأ. وعزاه في الدر (٢٥٤/٣) لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٢٣٢/٥)، وذكره ابن هشام في السيرة ص ١٣٧٥، من طريق ابن إسحاق. وانظر: الذهب المسبوك ص ٢٤٩، وليس للآية ذكر في الرواية التي وقفت عليها. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣٠/٦) وكذا أورده السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنُلْعَبُ﴾ قال رجل من المنافقين: يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا في يوم كذا وكذا وما يدريه بالغيب؟! وعزاه السيوطي لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

عذر لصاحبه البتة. قال بعض العلماء^(١): يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن من استهزأ بالله وبرسوله وبآياته ولو كان هازلاً مازحاً أنه يكون كافراً؛ لأنه لا هزل في الكفر، وقد جاء في الحديث أن بعض المسائل هزلها كجدها، كالطلاق، والعتاق، وهي ثلاث مسائل معدودة في الحديث: «ثلاث جدهن [جد]^(٢): الطلاق والعتاق...» ونسيت الثالثة^(٣) مع أنها مختلف فيها هل هي الرجعة أو غيرها.

وهذا معنى قوله: ﴿قُلْ أَيْلَهُمْ وَعَإِيْنِهِمْ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَمْنَدِرُوا﴾ الاستهزاء: الاستخفاف، ولا تعتذروا هذا الاعتذار البارد الكاذب، ليس مقبولاً منكم حتى تتوبوا توبة نصوحاً ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: بعد إظهاركم الإيمان وإعلانكم إياه.

ثم قال: ﴿إِنْ تَقُفْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبْ طَائِفَةٌ﴾ [التوبة: آية ٦٦] قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة، غير عاصم وحده: ﴿إِنْ يُعَفِّبْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبْ طَائِفَةٌ﴾ بأنهم كانوا مجرمين بقوله: ﴿يُعَفِّبْ﴾ بالياء وبناء الفعل للمفعول، و﴿تُعَذَّبْ﴾ طائفة بالتاء، وضم طائفة على أنه نائب الفاعل، وقرأ عاصم وحده من السبعة: ﴿إِنْ تَقُفْ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبْ طَائِفَةٌ﴾^(٤) بنون العظمة ونصب طائفة الثانية. وفي نظم ابن المرحل^(٥):

(١) انظر: القرطبي (١٩٧/٨).

(٢) في الأصل: «هزل». وهذا سبق لسان، والصواب: جدهن جد وهزلهن جد.

(٣) الثلاث في أشهر الروايات هي: النكاح والطلاق والرجعة.

والحديث أخرجه أبو داود في الطلاق، باب: في الطلاق على الهزل، حديث رقم: (٢١٨٠) (٢٦٢/٦)، والترمذي في الطلاق، باب ما جاء في الجدل والهزل في الطلاق. حديث رقم: (١١٨٤) (٤٨١/٣)، وابن ماجه في الطلاق، باب من طلق أو نكح أو رجع لاعياً. حديث رقم: (٢٠٣٩) (٦٥٨/١)، والدارقطني (١٨/٤)، والحاكم (١٩٨/٢)، وابن الجارود (٤٤/٣). وللوقوف على روايات الحديث وألفاظه انظر: التعليق المغني على الدارقطني (١٩/٤)، إرواء الغليل (٢٢٤/٦).

(٤) مضت عند تفسير الآية (٥١) من سورة الأعراف.

(٥) السابق.

لعاصم قراءة لغيرها مخالفة
إن نعت عن طائفة منكم نعت طائفة

فهذه قراءة عاصم وحده، برواية حفص وشعبة عنه معاً.

وهذا معنى قوله: ﴿لَا تَعَذِّرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. إِنَّ نَعْفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ ﴿

قال بعض العلماء^(١): هذا العفو نزل في [مخشي بن الحمير] لأنه كان من الذين خاضوا في الاستهزاء. قال بعض العلماء^(٢): كانوا ثلاثة نفر اثنان استهزؤوا وواحد ضحك لهما من كلامهما، ثم إن الثالث الذي هو مخشي بن الحمير (رضي الله عنه) تاب إلى الله، وحسن إسلامه، وعفى الله عنه، وأنزل الله فيه: ﴿إِنَّ نَعْفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾.

وقال غير واحد إن مخشياً (رضي الله عنه) تاب من نفاقه، وحسن إسلامه، وأتاب إلى الله، ودعا الله أن يموت شهيداً، وأن لا يطلع أحد على قبره، وقال من قال هذا: قتل باليمامة شهيداً. ولم يطلع عليه أحد، ولم يعثر عليه (رضي الله عنه)، هكذا قال بعضهم^(٣).

﴿إِنَّ نَعْفَ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ تابت إلى الله وأتابت إليه ورجعت عن النفاق إلى الإيمان الخالص والتوبة النصوح ﴿نَعَدَّتْ طَائِفَةٌ﴾ أخرى لم يتوبوا بل كانوا مصرين على النفاق والاستهزاء بالله وآياته ورسوله بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مرتكبين الجريمة، وهي الإصرار على الكفر والنفاق من غير إقلاع ولا توبة عنه، والمجرمون^(٤) جمع المجرم، والمجرم مرتكب

(١) أخرجه ابن جرير (٣٣٦/١٤) عن ابن إسحاق مرسلأ. وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨٣١/٦) كما أورد السيوطي في الدر (٢٥٤/٣) شاهداً له عن كعب بن مالك (رضي الله عنه)، وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم. وأورده أيضاً عن ابن عباس وعزاه لابن مردويه.

(٢) انظر: القرطبي (١٩٩/٨).

(٣) جاء ذلك في أثر كعب بن مالك وابن عباس اللذين أشرنا إليهما قريباً.

(٤) مضى عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

الجريمة، والجريمة هي الذنب العظيم الذي يستحق صاحبه النكال العظيم (ومجرمون) هنا اسم فاعل (أجرم) بصيغة (أفعل) بالهمزة التي صار بها رباعياً، ويستعمل هذا الفعل استعمالين: أجرم رباعياً بصيغة (أفعل) وجرم ثلاثياً مجرداً. وما جاء مستعملاً في القرآن إلا بصيغة الرباعي فقط (مجرمون). ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: آية ٢٩] ولم يأت بصيغة الثلاثي المجرد في القرآن ولكنه جاء بذلك في لغة العرب، ومن ذلك قول الشاعر:

وَنُنْصِرُ مَوْلَانَا وَنَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا النَّاسُ مَجْرُومٌ عَلَيْهِ وَجَارِمٌ^(١)

لأن المجروم اسم مفعول جرمه الثلاثي المجرد بلا نزاع، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ نَفْسًا عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ تَعَذَّبَتْ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰلْسِفُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: الآيتان ٦٧، ٦٨].

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: آية ٦٧] المنافق هو من يظهر الإيمان، ويُسر الكفر، وهو المسمّى في عرف الفقهاء بالزنديق. قال بعض العلماء: اشتقاقه من النفاق وهي جحر اليربوع؛ لأن جحر اليربوع يكون له أبواب مختلفة يدخل من باب ويخرج من آخر، فالمنافق يخرج بغير ما دخل به، هكذا قيل.

﴿الْمُنْفِقُونَ﴾ الذكور ﴿وَالْمُنْفِقَاتُ﴾ الإناث، هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن مما استدلّ به جماعة من أهل الأصول على مسألة أصولية مختلف فيها وإيضاحها أن الصفات التي يشترك فيها الذكور والإناث إذا جاءت في كتاب الله أو سنة رسوله بصيغة خاصة بالذكور فهل يدخل فيها الإناث نظراً إلى اشتراكهنّ مع الذكور في أصل الوصف، أو يختص بها الذكور لأن البناء

(١) تقدم هذا الشاهد عند تفسير الآية (٥٥) من سورة الأنعام.

مختص بالذكور؟! وإيضاح هذا، أن النفاق هو صفة تتصف بها الأنثى والذكر، ولكن قوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ﴾ اختص بالذكور، فإذا جاء في كتاب الله جمع مذكر سالم أصل معناه يشترك فيه الذكور والإناث، هل يحكم بدخول الإناث أو لا يحكم بدخولهن إلا بدليل منفصل؟! هذا خلاف مشهور في الأصول^(١)، قال أكثر أهل الأصول: إن الجموع المذكرة السالمة ونحوها مما يختص بجماعة الذكور، إذا ورد في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ لا يدخل فيه النساء إلا بدليل خاص، لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع، واستدلوا على أن النساء لا يدخلن في الجموع المذكرة بمثل هذه الآية في القرآن، قالوا: لو كانت المنافقات الإناث يدخلن في اسم المنافقين بصيغة الجمع المذكر السالم لكفى ذلك عن عطفهن عليهم، قالوا: والعطف دليل المغايرة وعدم الدخول، واستدلوا لهذا بكثرة نحوه في القرآن كقوله: ﴿لِعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: آية ٧٣] وقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفْضُلُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: آية ٣٠] ثم قال: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النور: آية ٣١] فقالوا: فعطف النساء على الذكور المجموعين بصيغة الجمع المذكر يدل على عدم دخولهن فيه لاختصاص الصيغة بالذكور، وإن كان الوصف شاملاً للجميع. وكتابه

وذهبت طائفة أخرى إلى أن النساء يدخلن في الجموع المذكرة وما جرى مجراها؛ لأن الجميع سواء في التكليف، واستدلوا بآيات من كتاب الله جاء مصرحاً فيها بدخول الأنثى في صيغة الجمع المذكر السالم، كقوله تعالى في امرأة العزيز: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: آية ٤٣] فأدخل هذه المرأة في (الكافرين) وهو جمع مذكر سالم. وقوله في مريم ابنة عمران: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقُوفُ﴾ [التحريم: آية ١٢] وفي القراءة الأخرى: ﴿وَكُتِبَ فِيهَا الْوَقُوفُ﴾ [التحريم: آية ١٢] فأدخل مريم وهي امرأة في اسم (القانتين)^(٢).

(١) انظر: شرح الكوكب المنير (٢٣٥/٣).

(٢) انظر: المبسوط لابن مهران ص ٤٤٠.

وهو جمع مذكر سالم، قالوا: ونظيره قوله في امرأة العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذُنُوبِكِ إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: آية ٢٩] وهذا خلاف معروف في الأصول. وأكثر الأصوليين يقولون: إنهن لا يدخلن. وأجمع العلماء على عدم دخول النساء في صيغة الذكور في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْؤُسِهِمْ حَفِظُونَ﴾ [٥] إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ [المؤمنون: الآيتان ٥، ٦] فلا يجوز للمرأة أن تتخذ عبدا وتتسراه؛ لأن الإناث لم يدخلن في هذه الصيغة المختصة بالذكور، وعلى كل حال فأظهر قولي الأصوليين - وعليه أكثرهم - أن أصل اللغة يقتضي تغليب الذكور على الإناث، وهذا لا نزاع فيه، أما التبادر عند الإطلاق، فهل يتبادر دخول النساء في الجموع المذكرة أو لا؟ فالظاهر أنه ما دخلن في جمع مذكر سالم إلا بقرينة زائدة دالة على ذلك، وأنه إذا تجرد من القرائن لم يدخلن فيه، وعلى هذا أكثر علماء الأصول.

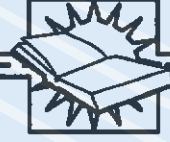
وقوله: ﴿بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: آية ٦٧] هذه الآية تضمنت تكذيب المنافقين المذكور في قوله: ﴿وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيْمَانَهُمْ لِمَنَّكُمْ﴾ [التوبة: آية ٥٦] وصدقت قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُنْكَرٍ﴾ [التوبة: آية ٥٦] كأن الله يقول: المنافقون يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم. الحقيقة هم ليسوا منكم ولكن بعضهم من بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، بل هم بعضهم من بعض؛ لأنهم هم المتشابهون في الأخلاق والأهداف، أخلاقهم واحدة وغرضهم واحد، فبعضهم من بعض وبعضهم أولياء بعض، وليسوا منكم ولستم منهم، فهذا معنى قوله: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ ثم بين صفاتهم التي يجتمعون فيها وهي ضد صفات المؤمنين، على خط مستقيم، وهي قوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ والمؤمنون يأمرون بالمعروف ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ والمؤمنون ينهون عن المنكر.

والمنكر: اسم مفعول أنكره، والمراد به كل ما أنكره الشرع ولم يأذن فيه. والمعروف: اسم مفعول (عرفه) وهو كل ما عرفه الشرع ودعا إليه وأمر به.

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُشْكِرِ وَالْمَكْفُورِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ المراد بقبض اليد هنا كناية عن البخل وعدم مدّ الأيدي بما ألزم الله بإعطائه، فهم لا يزكون ولا ينفقون، فالعرب تقول: فلان يتعوّد قبض اليد، ويده مقبوضة، ويقبض يده يكون بذلك عن البخل. يعنون: لا يوجد. فبسط اليد معناه الجود، وقبض اليد معناه البخل، قال بعض العلماء: قبضهم أيديهم: بخلهم بما يلزمهم من الزكوات وسائر الإنفاق. وقال (...).^(١)



(١) في هذا الموضع انقطع التسجيل، وهو آخر ما وجد من دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير.



ثبت مصادر التعليق

- ١ - الأحاد والمثاني: ابن أبي عاصم. تحقيق: باسم الجوابرة. ط: دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢ - آداب البحث والمناظرة: محمد الأمين الشنقيطي. ط: شركة المدينة للطباعة والنشر، جدة.
- ٣ - آداب الزفاف في السنة المطهرة: محمد ناصر الدين الألباني. المكتبة الإسلامية، الأردن - عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٤ - الآداب الشرعية والمنح المرعية: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي. ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة.
- ٥ - الآيات البيّنات: أحمد بن قاسم العبادي الشافعي. تحقيق: زكريا عميرات. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٦ - الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير: الحسين بن إبراهيم الجوزقاني. تحقيق: عبدالرحمن الفيرواني. ط: المطبعة السلفية بنارس. الناشر: إدارة البحوث الإسلامية، بالجامعة السلفية بنارس؛ الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٧ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة: عبدالله بن محمد ابن بطة العكبري. تحقيق: رضا نعسان معطي، دار الراية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٨ - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: حمود بن عبدالله التويجري. دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٩ - إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: أحمد بن محمد البنا. تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- ١٠ - إتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة: أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني. ط: مجمع الملك فهد ومركز خدمة السنة والسيرة النبوية بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١١ - الإتيان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: المكتبة العصرية، بيروت، (١٤٠٧هـ).
- ١٢ - أثر الاختلاف في القواعد الأصولية في اختلاف الفقهاء: مصطفى سعيد الخن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ١٣ - الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة: بدر الدين الزركشي. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).
- ١٤ - الأحاديث المختارة: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي. تحقيق: عبد الملك بن دهيش. ط: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٥ - الاحتجاج بالأثر على من أنكر المهدي المنتظر: حمود بن عبدالله التويجري. ط: مكتبة دار العليان، بريدة، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
- ١٦ - الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي. قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٧هـ).
- ١٧ - أحكام أهل الذمة: شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: صبحي الصالح. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٩٨٣م).
- ١٨ - أحكام الجنائز وبدعها: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ١٩ - أحكام الفصول في أحكام الأصول: أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي. تحقيق: عبدالله محمد الجبوري. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٩هـ).
- ٢٠ - الإحكام في أصول الأحكام: أبو محمد علي بن حزم الأندلسي الظاهري. تحقيق: أحمد شاکر. مطبعة العاصمة، القاهرة.
- ٢١ - أحكام القرآن: محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، لبنان.

- ٢٢ - أدب الكاتب: عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد الدالي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٢٣ - الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل البخاري. ترتيب: كمال يوسف الحوت. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٢٤ - الأذكار: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: بشر بن محمد بن عيون. ط: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٥ - إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق: يحيى بن شرف النووي. تحقيق: عبدالباري السلفي. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٦ - إرواء الغليل: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).
- ٢٧ - أسباب النزول: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري. تحقيق: عصام الحميدان. دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢٨ - أسباب النزول: جلال الدين السيوطي. ط: دار ابن قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٩ - الاستذكار: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي. ط: دار قتيبة للطباعة والنشر ودار الوعي، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٣٠ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).
- ٣١ - أسد الغابة في معرفة الصحابة: عز الدين بن الأثير. تحقيق: محمد إبراهيم البناء، ومحمد أحمد عاشور. ط: دار الشعب.
- ٣٢ - أسرار البلاغة في علم البيان: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: محمد رشيد رضا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٣٣ - الأسماء والصفات: البيهقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٣٤ - أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب: محمد درويش الحوت. دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ٣٥ - الأشباه والنظائر: جلال الدين السيوطي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، (١٣٩٥هـ).

- ٣٦ - أشرط الساعة: يوسف بن عبدالله الوابل. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٣٧ - الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٢٨هـ).
- ٣٨ - إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: الحسين بن محمد الدامغاني. تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٨٥م).
- ٣٩ - الأصنام: هشام بن محمد الكلبي. تحقيق: أحمد زكي. مصورة عن طبعة دار الكتب سنة (١٣٤٣هـ). الناشر: الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.
- ٤٠ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
- ٤١ - الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. صححه: أحمد محمد مرسى. ط: المطبعة العربية، باكستان.
- ٤٢ - الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٩٨٠م).
- ٤٣ - إعلام الساجد بأحكام المساجد: محمد بن عبدالله الزركشي. تحقيق: مصطفى المراغي. الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: طه عبدالرؤف سعد، دار الجيل، بيروت، (١٩٧٣م).
- ٤٥ - أعلام النساء: عمر رضا كحالة. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).
- ٤٦ - الأغاني: عبدالستار أحمد فراج. ط: دار الثقافة، بيروت.
- ٤٧ - الاقتصاد في الاعتقاد: الغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٨ - اقتضاء الصراط المستقيم: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: ناصر العقل. توزيع: وزارة الشؤون الإسلامية. الطبعة السابعة، (١٤١٩هـ).

- ٤٩ - الإقناع في القراءات السبع: أبو جعفر أحمد بن علي ابن الباذش. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٥٠ - الإكسير في علم التفسير: سليمان بن عبدالقوي الصرصري البغدادي. تحقيق: عبدالقادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة.
- ٥١ - إكمال الإعلام بتثليث الكلام: محمد بن عبدالله بن مالك الجياني. تحقيق: سعد بن حمدان الغامدي. ط: مكتبة المدني، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٤هـ).
- ٥٢ - إكمال إكمال المعلم: أبو عبدالله الأبي. ط: مكتبة طبرية، الرياض.
- ٥٣ - ألفية ابن مالك (الخلاصة): محمد بن عبدالله بن مالك. ط: دار طيبة للنشر، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).
- ٥٤ - الأم: محمد بن إدريس الشافعي. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٥٥ - الأمالي: أبو علي القالي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.
- ٥٦ - الأمثال: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: عبدالمجيد قطامش. ط: دار المأمون، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).
- ٥٧ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصوله وضوابطه وآدابه: خالد بن عثمان السبت. ط: المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، لندن، (١٤١٥هـ).
- ٥٨ - الأموال: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد خليل هراس. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٥٩ - الأنساب: عبدالكريم بن محمد السمعاني. تحقيق: عبدالله البارودي. ط: الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٦٠ - الإنصاف: علاء الدين أبو الحسن بن سليمان المرداوي. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٧٦هـ).
- ٦١ - أهل الفترة ومن في حكمهم: موفق أحمد شكري. ط: مؤسسة علوم القرآن، عجمان، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٦٢ - الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف: محمد بن إبراهيم بن المنذر. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٦٣ - إيثار الحق على الخلق: أبو عبدالله محمد بن المرتضى اليماني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.

- ٦٤ - الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني. ط: الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٦٥ - الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: أحمد حسن فرحات. ط: دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٦٦ - إيضاح المبهم من معاني السلم: أحمد بن عبدالمنعم الدمنهوري. تحقيق: عبدالجليل العطا البكري. ط: مكتبة البيروتي، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٦٧ - الإيمان: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: دار الأرقم، الكويت.
- ٦٨ - الإيمان: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٦٩ - الإيمان: محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده. تحقيق: علي بن ناصر الفقيهي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٦هـ).
- ٧٠ - الإيمان: محمد بن يحيى العدني. تحقيق: حمد الحربي. ط: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٧١ - الإيمان الأوسط: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. توزيع: مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان.
- ٧٢ - الإيمان ومعالمه وسننه: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: الألباني. مطبعة المدني، مصر.
- ٧٣ - البحر المحيط: محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي الغرناطي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٧٤ - البحر المحيط في أصول الفقه: بدر الدين محمد بن بهادر الشافعي الزركشي. تحقيق: عبدالستار أبو غدة. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٧٥ - بدائع الصنائع: أبو بكر بن مسعود الكاساني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٧٦ - بدائع الفوائد: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. دار الفكر، بيروت.

- ٧٧ - البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠١هـ).
- ٧٨ - البدع والنهي عنها: محمد بن وضّاح القرطبي. تحقيق: محمد أحمد دهمان. دار الصفا، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٧٩ - البذور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة: عبدالفتاح بن عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٨٠ - البرهان في أصول الفقه: أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: عبدالعظيم محمود الديب. ط: دار الوفاء للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة، المنصورة، (١٤١٢هـ).
- ٨١ - البرهان في توجيه متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرمانني. تحقيق: عبدالقادر عطا. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٨٢ - البرهان في علوم القرآن: محمد عبدالله الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ).
- ٨٣ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- ٨٤ - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: محمود شكري الألوسي. تحقيق: محمد الأثري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٨٥ - بلوغ المرام من أدلة الأحكام: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٨٦ - البهجة في شرح التحفة: أبو الحسن علي بن عبدالسلام التسولي. ط: مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، (١٣٧٠هـ). وكذا: طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٧هـ).
- ٨٧ - بهجة المجالس وأنس المجالس: أبو عمرو يوسف بن عبدالبر. تحقيق: محمد مرسي الخولي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٨٨ - البيان والتبيين: أبو عثمان الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار الجيل، بيروت.
- ٨٩ - تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الزبيدي. دار مكتبة الحياة، بيروت.

- ٩٠ - تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري. ط: دار الفكر، (١٣٩٩هـ).
- ٩١ - تاريخ بغداد: أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- ٩٢ - التاريخ الكبير: إسماعيل بن إبراهيم البخاري. ط: دار الكتب العلمية، لبنان.
- ٩٣ - تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. المكتبة العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠١هـ).
- ٩٤ - التبصرة في أصول الفقه: إبراهيم بن علي الشيرازي. تحقيق: محمد حسن هيتو. ط: دار الفكر، دمشق، (١٤٠٠هـ).
- ٩٥ - التبيان في أقسام القرآن: شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية. صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ٩٦ - التبيان في شرح الديوان: أبو البقاء العكبري. تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأنباري، وعبدالحفيظ شلبي، دار المعرفة، بيروت.
- ٩٧ - التحرير والتنوير: محمد الطاهر ابن عاشور. ط: الدار التونسية للنشر.
- ٩٨ - تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج: عمر بن علي المعروف بابن الملقن. تحقيق: عبدالله بن سعاف اللحياني. ط: دار حراء للنشر، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٩٩ - تخريج الأحاديث الضعاف من سنن الدارقطني: أبو محمد عبدالله بن يحيى الغساني. تحقيق: أشرف بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم. ط: دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٠٠ - تخريج أحاديث متقدمة في كتاب التوحيد: فريح بن صالح النهلال. دار الأثر، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١٠١ - تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري: أبو محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. تحقيق: سلطان بن فهد الطيشي. ط: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٠٢ - تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد: عبدالله بن يوسف بن هشام الأنصاري. تحقيق: عباس مصطفى الصالحي. ط: دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- ١٠٣ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي. تحقيق: عبد الوهاب بن عبداللطيف. ط: المكتبة السلفية.
- ١٠٤ - تذكرة الأريب في تفسير الغريب: أبو الفرج ابن الجوزي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٧هـ).
- ١٠٥ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. ط: دار الفكر، لبنان.
- ١٠٦ - التراتيب الإدارية: عبدالحى الكتاني. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٠٧ - تسهيل المنطق: عبدالكريم بن مراد الأثري. ط: سجل العرب، الطبعة الثانية، (١٩٨٤م).
- ١٠٨ - التعريفات: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: عبدالرحمن عميرة. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ١٠٩ - تعظيم قدر الصلاة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: عبدالرحمن الفيروزآبادي، مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١١٠ - تغليق التعليق على صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: سعيد عبدالرحمن موسى القزقي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ١١١ - تفسير سورة النور: محمد الأمين بن محمد الشنقيطي. عناية: عبدالله بن أحمد الأهدل. ط: دار المجتمع للنشر، جدة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ١١٢ - التفسير الصحيح: حكمت بشير. ط: دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ١١٣ - تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن أبي حاتم): عبدالرحمن بن محمد بن إدريس (ابن أبي حاتم). تحقيق: أسعد محمد الطيب. ط: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ١١٤ - تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ١١٥ - تفسير مبهمات القرآن: أبو عبدالله محمد بن علي البلنسي. تحقيق: حنيف بن حسن القاسمي. ط: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤١١هـ).

- ١١٦ - تفسير المشكل من غريب القرآن: مكّي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: علي حسين البواب. ط: مكتبة المعارف، الرياض، (١٤٠٦هـ).
- ١١٧ - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية.
- ١١٨ - تفسير النصوص في الفقه الإسلامي: محمد أديب صالح. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٤هـ).
- ١١٩ - تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: صغير أحمد شاغف الباكستاني. ط: دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٢٠ - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني.
- ١٢١ - تلخيص كتاب الاستغاثة: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ١٢٢ - التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر النمري القرطبي. تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمد بن عبدالكبير البكري. ط: المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ١٢٣ - تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: محمد بن أحمد بن عبدالهادي الحنبلي. تحقيق: عامر حسن صبري. ط: المكتبة الحديثة، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ١٢٤ - التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل: عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني. ط: حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ١٢٥ - تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٢٦ - تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ١٢٧ - تهذيب سنن أبي داود: ابن القيم الجوزية. تعليق: محمد حامد الفقي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٠هـ).
- ١٢٨ - تهذيب الكمال في أسماء الرجال: أبو الحجاج يوسف المزي. تحقيق:

- بشار عواد معروف. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ١٢٩ - تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. دار القومية العربية للطباعة، (١٣٨٤هـ).
- ١٣٠ - توضيح النحو: عبدالعزيز محمد فاخر.
- ١٣١ - التوضيح والتكميل لشرح ابن عقيل: محمد بن عبدالعزيز النجار، الطبعة الثانية، (١٣٩٩هـ).
- ١٣٢ - تيسير التحرير: محمد أمين المعروف بأمير بادشاه. ط: دار الكتب العلمية، لبنان. الناشر: دار الباز، مكة المكرمة.
- ١٣٣ - تيسير الكريم الرحمّن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمّن بن ناصر السعدي. ط: المطبعة السلفية.
- ١٣٤ - جامع الأصول في أحاديث الرسول: المبارك بن محمد بن الأثير الجزري. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ١٣٥ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: محمود وأحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ومكتبة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثالثة، (١٣٨٨هـ).
- ١٣٦ - جامع بيان العلم وفضله: أبو عمر يوسف بن عبدالبر. تحقيق: أبو الأشبال الزهيري. دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٣٧ - جامع التحصيل في أحكام المراسيل: خليل العلائي. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: الدار العربية، الطبعة الأولى، (١٣٩٨هـ).
- ١٣٨ - جامع التفسير من كتب الأحاديث: أشرف على إخرجه: خالد آل عقدة. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).
- ١٣٩ - جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: أبو الفرج عبدالرحمّن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي. تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ١٤٠ - الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (١٩٦٥م).

- ١٤١ - الجامع لشعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: مختار أحمد الندوي. الدار السلفية، بمباي، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٤٢ - الجدل على طريقة الفقهاء: أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي. الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
- ١٤٣ - الجهل بمسائل الاعتقاد وحكمه: عبدالرزاق بن طاهر بن أحمد معاش. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٧هـ).
- ١٤٤ - الجواب الواضح المستقيم في التحقيق في كيفية إنزال القرآن الكريم: محمد بن إبراهيم آل الشيخ. مطبعة الحكومة، مكة المكرمة، (١٣٦٩هـ).
- ١٤٥ - جواهر البلاغة في المعاني والبيان البديع: السيد أحمد الهاشمي. ط: دار الكتب، بيروت.
- ١٤٦ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الزرعي الدمشقي، دار الفكر، بيروت.
- ١٤٧ - حاشية البناني على جمع الجوامع: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٥٦هـ).
- ١٤٨ - حاشية الروض المربع: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم. ط: المطابع الأهلية، الرياض، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ١٤٩ - حاشية محمد علي الصبان على شرح علي بن محمد الأشموني لألفية ابن مالك. دار الفكر، بيروت.
- ١٥٠ - الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة: إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني. تحقيق: محمد بن ربيع. دار الزاوية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٥١ - حجة القراءات: أبو زرعة عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).
- ١٥٢ - حجج القرآن: أحمد بن محمد الرازي. ط: دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ١٥٣ - الحروف العاملة في القرآن الكريم بين النحويين والبلاغيين: هادي عطية مطر الهلالي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٥٤ - حصول الأجر في أحكام وفضائل العمل في أيام العشر: سعود الخماس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢١هـ).

- ١٥٥ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم أحمد بن عبدالله الأصفهاني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٥٦ - حلية الفقهاء: أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق: عبدالله التركي. ط: الشركة المتحدة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ١٥٧ - الحماسة: الوليد بن عبيد البحتري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٨٧هـ).
- ١٥٨ - حياة الحيوان الكبرى: كمال الدين الدميري. المكتبة الإسلامية، بيروت.
- ١٥٩ - الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون. ط: مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية.
- ١٦٠ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبدالقادر بن عمر البغدادي. ط: دار صادر، بيروت.
- ١٦١ - الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: محمد علي النجار. دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٦٢ - الخصائص الكبرى: جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد خليل الهراس. مطبعة المدين، مصر، دار الكتب الحديثة، مصر.
- ١٦٣ - خلاصة البدر المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير: سراج الدين عمر بن علي بن الملقن. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ١٦٤ - خير الكلام في القراءة خلف الإمام: محمد بن إسماعيل البخاري. ط: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ١٦٥ - درء تعارض العقل والنقل: أحمد بن عبدالحليم بن تيمية. تحقيق: محمد رشاد سالم. ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).
- ١٦٦ - الدراية في تخريج أحاديث الهداية: أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر. تحقيق: عبدالله هاشم اليماني المدني. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ١٦٧ - درة التنزيل وغرر التأويل: محمد بن عبدالله الإسكافي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٦٨ - الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة: جلال الدين السيوطي. تحقيق: خليل محيي الدين الميس، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

- ١٦٩ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ١٧٠ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور: جلال الدين السيوطي، دار المعرفة، بيروت.
- ١٧١ - الدعاء المأثور وآدابه وما يجب على الداعي اتباعه واجتنابه: أبو بكر الطرطوشي الأندلسي. تحقيق: محمد رضوان الداية. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ١٧٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب: محمد الأمين الشنقيطي (مطبوع في آخر أضواء البيان).
- ١٧٣ - دلائل النبوة: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: عبدالمعطي قلعجي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ١٧٤ - ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس: تحقيق: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ١٧٥ - ديوان الأقيشر الأسدي: تحقيق: محمد علي دقه. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م).
- ١٧٦ - ديوان امرئ القيس: تحقيق: مصطفى عبدالشافى. دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ١٧٧ - ديوان أوس بن حجر: شرح: محمد بن يوسف نجم. الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).
- ١٧٨ - ديوان البحتري: ط: دار بيروت للطباعة والنشر، (١٤٠٨هـ).
- ١٧٩ - ديوان بشار بن برد: شرح وتكميل: محمد الطاهر بن عاشور. ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، (١٣٨٦هـ).
- ١٨٠ - ديوان تأبط شرأ: تحقيق: طلال حرب. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ١٨١ - ديوان حاتم الطائي: شرحه: أحمد رشاد. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ١٨٢ - ديوان حسان بن ثابت: تحقيق: عبد الأمير مهنا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- ١٨٣ - ديوان الخطيئة برواية وشرح ابن السكيت: تحقيق: نعمان محمد أمين طه. ط: مطبعة المدني، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- وكذا: بشرح أبي سعيد السكري. ط: دار صادر.
- ١٨٤ - ديوان حميد بن ثور الهلالي: صنعه: عبدالعزيز الميمني. ط: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧١هـ).
- ١٨٥ - ديوان ابن دريد: تحقيق: عمر بن سالم. ط: الدار التونسية، (١٩٧٣م).
- ١٨٦ - ديوان أبي دلامة الأسدي: إعداد: رشدي علي حسن. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت، (١٤٠٦هـ).
- ١٨٧ - ديوان الراعي النميري: شرح واضح الصمد. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٨٨ - ديوان ابن الرومي: شرح وتحقيق: عبدالأمير علي مهنا. ط: دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ١٨٩ - ديوان ابن الرومي: تحقيق: حسين نصار.
- ١٩٠ - ديوان زهير بن أبي سلمى: ط: دار صادر.
- ١٩١ - ديوان شعر ذي الرمة: تعليق: زهير فتح الله. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٥م).
- ١٩٢ - ديوان الشنفرى: ط: دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ١٩٣ - ديوان طرفة بن العبد: تحقيق: درية الخطيب. مطبوعات مجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتاب، (١٣٩٥هـ).
- ١٩٤ - ديوان الطرماح: تحقيق: عزة حسن. ط: دار الشرق العربي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ).
- ١٩٥ - ديوان العباس بن مرداس: تحقيق: يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ١٩٦ - ديوان عبيد بن الأبرص: تحقيق: حسين نصار، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٧٧هـ).
- ١٩٧ - ديوان عروة بن حزام: تحقيق: أنطوان محسن القوال، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ١٩٨ - ديوان علقمة بن عبدة: شرح: سعيد نسيب مكارم. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).

- ١٩٩ - ديوان علي بن أبي طالب: جمعه: حسين الأعلمي. الناشر: مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ).
- ٢٠٠ - ديوان عمر بن أبي ربيعة: ط: الهيئة المصرية العامة، (١٩٧٨م).
- وكذا: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٠١ - ديوان أبي فراس: ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٠٢ - ديوان قيس بن الخطيم: تحقيق: ناصر الدين الأسد. ط: دار صادر، الطبعة الثالثة، (١٤١١هـ).
- ٢٠٣ - ديوان كثير عزة: شرح: قدرى مايو. ط: دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٢٠٤ - ديوان ليلى بن ربيعة: ط: دار صادر، بيروت، (١٣٨٦هـ).
- ٢٠٥ - ديوان المثقب العبدى: شرح: حسن حمد. ط: دار صادر، الطبعة الأولى، (١٩٩٦م).
- ٢٠٦ - ديوان مجنون ليلى: شرح: عدنان زكي درويش. ط: دار صادر، (١٤١٤هـ).
- ٢٠٧ - ديوان مهلهل بن ربيعة: عناية: طلال بن حرب. ط: الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، (١٤١٣هـ).
- ٢٠٨ - ديوان النابغة الجعدي: تحقيق: عباس عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٠٩ - ديوان أبي نواس: شرح: عمر فاروق الطباع. ط: شركة دار الأرقم، بيروت، (١٤١٨هـ).
- ٢١٠ - ديوان أبي الوليد مسلم بن الوليد: ط: بريل، لندن، (١٨٧٥م).
- ٢١١ - ديوان يزيد بن معاوية: ط: المجمع العلمي بدمشق. تحقيق: سامي الدهان.
- ٢١٢ - الرؤية: علي بن عمر الدارقطني. تحقيق: إبراهيم العلي وزميله. ط: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢١٣ - الرد على الجهمية: عثمان بن سعيد الدارمي. تحقيق: زهير الشاويش وتخریج: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٢هـ).
- ٢١٤ - الرد على من قال بفتاء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك: أبو العباس بن

- تيمية الدمشقي. تحقيق: محمد بن عبدالله السمهري، دار بلنسية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٢١٥ - الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي: عبدالمحسن العباد. ط: مطابع الرشيد، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢١٦ - الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي. تحقيق: أحمد شاکر.
- ٢١٧ - الرسل والرسالات: عمر سليمان الأشقر. ط: مكتبة الفلاح، الطبعة الثالثة، الكويت، (١٤٠٥هـ).
- ٢١٨ - رصف المباني في شرح حروف المعاني: أحمد بن عبدالنور المالقي. تحقيق: أحمد محمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
- ٢١٩ - رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار: محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٢٠ - الروح: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية. تحقيق: السيد الجميلي. ط: دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، بيروت، (١٤٠٨هـ).
- ٢٢١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين الألوسي. ط: دار الفكر، بيروت.
- ٢٢٢ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٢٣ - رياض الجنة بتخریج أصول السنة: محمد بن عبدالله الأندلسي (ابن أبي زمنين). تحقيق: عبدالله البخاري. ط: مكتبة الغرباء، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٢٢٤ - زاد المسير في علم التفسير: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).
- ٢٢٥ - زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠١هـ).
- ٢٢٦ - الزهد: عبدالله بن المبارك المروزي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: دار الكتب العلمية.
- ٢٢٧ - زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي القيرواني. تحقيق: علي

- محمد البجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثانية.
- ٢٢٨ - زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه: عبدالرزاق بن عبدالمحسن العباد. ط: مكتبة دار القلم والكتاب، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٢٢٩ - السبعة في القراءات: ابن مجاهد. تحقيق: شوقي ضيف. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ٢٣٠ - سبل السلام الموصلة إلى بلوغ المرام: محمد بن إسماعيل الصنعاني. تحقيق: محمد صبحي حلاق. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الثانية، (١٤٢١هـ).
- ٢٣١ - سبل الهدى والرشاد: محمد بن يوسف الصالحي. تحقيق: عادل عبدالموجود، وعلي معوض. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٢٣٢ - سلسلة الأحاديث الصحيحة: محمد ناصر الدين الألباني. (المجلد الأول والثاني) المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٥هـ)، (المجلد الثالث) نشر: الدار السلفية، الكويت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ)، (المجلد الرابع) نشر: المكتبة الإسلامية، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ) (المجلد الخامس) مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٢٣٣ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء على الأمة: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة، (١٣٩٨هـ).
- ٢٣٤ - السنّة: عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني. تحقيق: الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).
- ٢٣٥ - السنّة: محمد بن نصر المروزي. تحقيق: أبو محمد سالم بن أحمد السلفي. ط: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٣٦ - سنن الترمذي: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق: إبراهيم عطوة عوض. مطبعة البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ).
- ٢٣٧ - سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني. ط: حديث أكاديمي، نشاط، فيصل آباد، باكستان.
- ٢٣٨ - سنن الدارمي: الدارمي. تخريج وتحقيق: السيد عبدالله بن هاشم اليماني. ط: حديث أكاديمي للنشر والتوزيع. باكستان، (١٤٠٤هـ).

- ٢٣٩ - سنن سعيد بن منصور: سعيد بن منصور. تحقيق: سعد بن عبدالله آل حميد. ط: دار الصمعي، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٢٤٠ - السنن الكبرى: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالغفار البنداري، وسيد كسروي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٢٤١ - السنن الكبرى: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. ط: دار المعرفة، بيروت.
- ٢٤٢ - سنن النسائي: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، دار البشائر، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٢٤٣ - سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: شعيب الأرنؤوط وزملائه. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ٢٤٤ - السيرة النبوية: أبو محمد عبدالملك بن هشام. تعليق جماعة من العلماء. ط: دار الفكر، القاهرة.
- ٢٤٥ - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: دار إحياء الكتب العربية، ط: مطبعة البابي الحلبي.
- ٢٤٦ - شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: هبة الله بن الحسن الطبري اللالكائي. تحقيق: أحمد سعد حمدان. ط: دار طيبة، الرياض.
- ٢٤٧ - شرح تنقيح الفصول: شهاب الدين أبو العباس القرافي. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٣٩٣هـ).
- ٢٤٨ - شرح الجلال شمس الدين محمد بن أحمد المحلي على متن جمع الجوامع: ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية.
- ٢٤٩ - شرح ديوان أبي تمام: شاهين عطية. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٥٠ - شرح ديوان جرير: مهدي محمد ناصر الدين. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).
- ٢٥١ - شرح ديوان الخنساء: تحقيق: عبدالسلام الحوفي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

- ٢٥٢ - شرح ديوان زهير: أبو العباس ثعلب. تحقيق: فخر الدين قباة. ط: دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢٥٣ - شرح ديوان صريع الغواني: مسلم بن الوليد الأنصاري. تحقيق: سامي الدهان. ط: دار المعارف بمصر.
- ٢٥٤ - شرح ديوان أبي العتاهية: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٥٥ - شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة: عبد الأمير علي مهنا. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤١٢هـ).
- ٢٥٦ - شرح ديوان عترة: (بدون مؤلف). ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٥٧ - شرح السنة: البغوي. تحقيق: زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٠هـ).
- ٢٥٨ - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: عبدالله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن هشام الأنصاري.
- ٢٥٩ - شرح الشفا: الملا علي القاري. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- ٢٦٠ - شرح صحيح مسلم: محيي الدين النووي. تحقيق: عبدالله أحمد أبو زينة. ط: الشعب، القاهرة.
- ٢٦١ - شرح العقيدة الطحاوية: علي بن علي بن محمد بن أبي العز. تحقيق: عبدالله التركي، شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٢٦٢ - شرح القصائد المشهورات الموسومة بالمعلقات: ابن النحاس، أحمد بن محمد المرادي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٢٦٣ - شرح قصيدة كعب بن زهير: جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري. تحقيق: محمود حسن أبو ناجي. ط: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثالثة، دمشق، (١٤٠٤هـ).
- ٢٦٤ - شرح القصيدة الميمية: مصطفى عراقي. ط: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- ٢٦٥ - شرح قطر الندى وبل الصدى لابن هشام: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: إحياء التراث، لبنان، (١٣٨٣هـ).
- ٢٦٦ - شرح القواعد الفقهية: أحمد الزرقاء. صححه وراجعه: عبدالستار أبو غدة. ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

- ٢٦٧ - شرح الكافية الشافية: جمال الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الطائي الجبائي. تحقيق: عبدالمنعم أحمد هريدي. ط: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٢٦٨ - الشرح الكبير: شمس الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي عمر بن قدامة، دار الكتاب العربي، (١٣٩٢هـ).
- ٢٦٩ - شرح الكوكب المنير: محمد بن أحمد بن عبدالعزيز الفتوحي الحنبلي. تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، دار الفكر، بيروت، (١٤٠٠هـ).
- ٢٧٠ - شرح مختصر الروضة: نجم الدين أبي الربيع سليمان بن عبدالقوي الطوفي. تحقيق: عبدالله بن عبد المحسن التركي. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٧١ - شرح معاني الآثار: أبو جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي. تحقيق: محمد سيد جاد الحق. ط: الأنوار المحمدية، القاهرة.
- ٢٧٢ - شرح مقامات الحريري: يوسف بقاعي. ط: دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٨١م).
- ٢٧٣ - شرح منتهى الإرادات: منصور بن يونس البهوتي. ط: دار الفكر، بيروت.
- ٢٧٤ - شرح المواقف في علم الكلام: علي بن محمد الجرجاني. تحقيق: أحمد المهدي، مكتبة الأزهر.
- ٢٧٥ - الشرك الجاهلي وآلهة العرب المعبودة قبل الإسلام: يحيى الشامي، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٩٣م).
- ٢٧٦ - الشريعة: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: حديث أكاديمي، باكستان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٢٧٧ - شعر الدعوة الإسلامي في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: جمعه وحققه: عبدالله الحامد. ط: دار الأصالة للثقافة والنشر، الطبعة الثانية، الرياض، (١٤٠٥هـ).
- ٢٧٨ - الشعر والشعراء: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة. تحقيق: محمد عبدالمنعم العمران، دار إحياء العلوم، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ).
- ٢٧٩ - شعراء مقلون: حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- ٢٨٠ - شعراء النصرانية قبل الإسلام: لويس شيخو. دار المشرق، الطبعة الثالثة، (١٩٦٧م)، المطبعة الكاثوليكية، (١٩٨٢م).
- ٢٨١ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: ابن القيم الجوزية، دار المعرفة، بيروت، (١٣٩٨هـ).
- ٢٨٢ - شمائل الرسول ﷺ: ابن كثير. تحقيق: مصطفى عبدالواحد. دار القبلة، جدة، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٩هـ).
- ٢٨٣ - الصاحبي: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: السيد أحمد صقر. مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- ٢٨٤ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي. ط: كوستانتسوماس، القاهرة.
- ٢٨٥ - صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٢٨٦ - صحيح ابن خزيمة: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة. تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٩هـ).
- ٢٨٧ - صحيح سنن الترمذي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٨٨ - صحيح سنن أبي داود باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٢٨٩ - صحيح سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٢٩٠ - صحيح سنن النسائي باختصار السند: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٢٩١ - صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، المكتبة الإسلامية، استانبول.
- ٢٩٢ - الصواعق المرسله: شمس الدين ابن قيم الجوزية. تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله. ط: دار العاصمة، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤٠٨هـ).
- ٢٩٣ - الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقه: أحمد بن حجر الهيتمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

- ٢٩٤ - ضعيف الجامع الصغير وزيادته: تأليف: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩٩هـ).
- ٢٩٥ - ضعيف سنن ابن ماجه: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٢٩٦ - ضياء السالك إلى أوضح المسالك: محمد عبدالعزيز النجار.
- ٢٩٧ - الطبقات الكبرى: محمد بن سعد (كاتب الواقدي). ط: دار التحرير، القاهرة، (١٣٨٨هـ).
- ٢٩٨ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية: أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن قيم الجوزية. راجعه: أحمد عبدالحليم العسكري. ط: دار الفكر، بيروت.
- ٢٩٩ - طريق الهجرتين وباب السعادتين: شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).
- ٣٠٠ - ظلال الجنة في تخريج السنة: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ).
- ٣٠١ - العُجاب في بيان الأسباب: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. تحقيق: عبدالحكيم محمد الأنيس. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).
- ٣٠٢ - العذب الفائض شرح عمدة الفاراض: إبراهيم بن عبدالله بن إبراهيم الفرضي. ط: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، (١٣٧٢هـ).
- ٣٠٣ - العرف وأثره في التشريع الإسلامي: مصطفى عبدالرحيم أبو عجيبة. ط: المنشأة العامة، طرابلس، الطبعة الأولى، (١٣٩٥هـ).
- ٣٠٤ - عقد الدرر في أخبار المنتظر: يوسف بن يحيى المقدسي. تحقيق: مهيب بن صالح البوريني. مكتبة المنار، الأردن، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٠٥ - العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: عبدالرحمن بن الجوزي. تحقيق: إرشاد الحق الأثري. إدارة ترجمان السنة، لاهور.
- ٣٠٦ - العلل الواردة في الأحاديث النبوية: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني. تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله السلفي. ط: دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

- ٣٠٧ - علماء ومفكرون عرفتهم: المؤلف: محمد المجذوب. ط: دار الاعتصام، الطبعة الثالثة، القاهرة.
- ٣٠٨ - عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: شهاب الدين أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي. تحقيق: محمود السيد الدغيم. ط: دار السيد، تركيا، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٠٩ - عمل اليوم والليلة: أبو بكر بن السني. تحقيق: عبدالقادر أحمد عطا. ط: دار المعرفة، لبنان، (١٣٩٩هـ).
- ٣١٠ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٣٩٩هـ).
- ٣١١ - عيون الأخبار: أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. ط: دار الكتاب الإسلامي.
- ٣١٢ - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٣١٣ - غريب الحديث: أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي. ط: دار الكتاب العربي، الهند، الطبعة الأولى، (١٣٨٤هـ).
- ٣١٤ - غوث المكذوب بتخريج منتقى ابن الجارود: أبو إسحاق الجويني الأثري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٣١٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣١٦ - فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: زكريا الأنصاري. تحقيق: محمد الصابوني. ط: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣١٧ - الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: زين الدين عبدالرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبي بن نذير عالم السلفي. ط: دار العاصمة، الرياض، النشرة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٣١٨ - فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار الفكر.
- ٣١٩ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب. تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ط: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٢هـ).

- ٣٢٠ - الفروع: محمد بن مفلح. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٣٢١ - الفروق: شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس القرافي. ط: عالم الكتب، بيروت.
- ٣٢٢ - الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري. تحقيق: حسام الدين القدسي. ط: دار الباز، مكة المكرمة، (١٤٠١هـ).
- ٣٢٣ - فضائل الصحابة: أحمد بن حنبل. تحقيق: وصي الله عباس. ط: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣٢٤ - فضائل القرآن ومعالمه وآدابه: أبو عبيد القاسم بن سلام. دراسة وتحقيق: أحمد بن عبدالواحد الخياطي. ط: مطبعة فضالة، المغرب، (١٤١٥هـ).
- ٣٢٥ - فقه السيرة: محمد الغزالي، بتخریجات الشيخ ناصر الدين الألباني، دار الكتب الحديثة، مصر، الطبعة السادسة، (١٩٧٦م).
- ٣٢٦ - فقه اللغة وسر العربية: أبو منصور الثعالبي. تحقيق: فائز محمد، وإميل يعقوب. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٣٢٧ - الفقيه والمتفقه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي. تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٧هـ).
- ٣٢٨ - فيض القدير شرح الجامع الصغير: محمد عبدالرؤوف المناوي. ط: دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت، (١٣٩١هـ).
- ٣٢٩ - القاديانية: إحسان إلهي ظهير. الناشر: إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الخامسة عشر، (١٤٠١هـ).
- ٣٣٠ - القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً: سعدي أبو حبيب. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٨هـ).
- ٣٣١ - القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. تحقيق: مكتب تحقيق التراث. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٣٢ - القراءة خلف الإمام: أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: محمد السعيد

- زغلول. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٣٣ - قصص العرب: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الرابعة، (١٣٨٢هـ).
- ٣٣٤ - القطع والانتاف: أبو جعفر النحاس. تحقيق: أحمد خطاب العمر، مطبعة العاني، بغداد، (١٣٩٨هـ).
- ٣٣٥ - القواعد: محمد بن محمد المقرئ. تحقيق: أحمد عبدالله بن حميد مطبوعات جامعة أم القرى.
- ٣٣٦ - قواعد الأحكام في مصالح الأنام: عز الدين عبدالعزيز عبدالسلام. تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد. ط: مكتبة ابن تيمية، مصر.
- ٣٣٧ - قواعد الترجيح عند المفسرين: حسين بن علي الحربي. ط: دار القاسم، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٣٣٨ - قواعد التفسير جمعاً ودراسة: خالد بن عثمان السبت. ط: ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٧هـ).
- ٣٣٩ - القواعد الحسان لتفسير القرآن: عبدالرحمن بن ناصر السعدي. ط: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، الدمام، (١٤١٣هـ).
- ٣٤٠ - القواعد الفقهية الخمس الكبرى من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: إعداد: إسماعيل بن حسن علوان. ط: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ٣٤١ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى: محمد صالح العثيمين. دار ابن القيم، ومكتبة ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٤٢ - القواعد والفوائد الأصولية: أبو الحسن علاء الدين ابن اللحام. تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٣٤٣ - قواعد وفوائد لفقه كتاب الله: عبدالله بن محمد الجوعي. ط: دار الوطن، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٤هـ).
- ٣٤٤ - الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني [ملحق بتفسير الكشاف] دار المعرفة، بيروت.
- ٣٤٥ - الكافي في فقه أهل المدينة المالكي: أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).

- ٣٤٦ - الكافية في الجدل: عبد الملك عبدالله بن يوسف الجويني. تحقيق: فوقية حسين محمود. ط: عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، (١٣٩٩هـ).
- ٣٤٧ - الكامل: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٣٤٨ - الكامل في التاريخ: عز الدين بن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).
- ٣٤٩ - الكامل في ضعفاء الرجال: عبدالله بن عدي الجرجاني. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٣٥٠ - الكتاب: أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (سبويه). تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: عالم الكتب، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).
- ٣٥١ - كتاب مناهل العرفان للزرقاني دراسة وتقويم: خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٨هـ).
- ٣٥٢ - الكتاب الموضح في وجوه القراءات وعللها: نصر بن علي بن محمد الشيرازي الفارسي الفسوي. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٣٥٣ - كتاب الوقوف من مسائل الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: أحمد بن محمد الخلال. تحقيق: عبدالله بن أحمد الزيد. ط: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ٣٥٤ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: محمود بن عمر الزمخشري. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣٥٥ - كشاف القناع عن متن الإقناع: منصور بن يونس البهوتي. ط: عالم الكتب، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ٣٥٦ - كشف الأستار عن زوائد البزار: علي بن أبي بكر الهيثمي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثانية، (١٤٠٤هـ).
- ٣٥٧ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: إسماعيل بن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش. ط: مؤسسة الرسالة، سوريا، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).

- ٣٥٨ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤١٣هـ).
- ٣٥٩ - الكشف عن وجوه القراءات السبع: مكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: محيي الدين رمضان. مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٠ - كفاية الإنسان من القصائد الفرر الحسان: جمع: محمد بن أحمد سيد أحمد. ط: دار ابن القيم، الدمام، (١٤٠٩هـ).
- ٣٦١ - الكفاية في علم الرواية: الخطيب البغدادي. ط: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.
- ٣٦٢ - كلمة الحق: أحمد شاكر، دار الكتب السلفية، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٣ - الكلبيات: أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي. تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٣٦٤ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: علي بن حسام الدين الهندي. تحقيق: بكرى حياني. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠٥هـ).
- ٣٦٥ - الكنى والأسماء: أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي. ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٣هـ).
- ٣٦٦ - الكوكب الدرّي فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية: جمال الدين الأسنوي. تحقيق: محمد حسن عواد. ط: دار عمان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٣٦٧ - لامية الشنفرى: عناية: عبدالمعين الملوحى. ط: مديرية إحياء التراث القديم، دمشق.
- ٣٦٨ - لباب النقول في أسباب النزول: جلال الدين السيوطي. ط: دار قتيبة، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٦٩ - لسان الميزان: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الثانية، (١٣٩٠هـ - ١٩٧١م).
- ٣٧٠ - اللمع في أصول الفقه: إبراهيم بن علي الشيرازي. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).

- ٣٧١ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية: محمد بن أحمد السفاريني. ط: المكتب الإسلامي، مكتبة أسامة.
- ٣٧٢ - المبسوط: السرخسي. ط: دار المعرفة، بيروت، (١٤٠٦هـ).
- ٣٧٣ - المبسوط في القراءات العشر: أبو بكر أحمد بن الحسين بن مهران الأصبهاني. تحقيق: سبيع حمزة حاكمي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق، دمشق.
- ٣٧٤ - مجالس ثعلب: تحقيق: عبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، مصر.
- ٣٧٥ - المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان البستي. تحقيق: محمود إبراهيم زايد، نشر: دار الوعي، حلب، الطبعة الثانية، (١٤٠٢هـ).
- ٣٧٦ - مجلة الحكمة: مجلة بحثية علمية شرعية ثقافية. تصدر من بريطانيا.
- ٣٧٧ - مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني. تحقيق: أبو الفضل إبراهيم. ط: البابي الحلبي.
- ٣٧٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي. ط: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٢هـ).
- ٣٧٩ - مجمل اللغة: أحمد بن فارس الرازي. تحقيق: شهاب الدين أبي عمرو. ط: دار الفكر، بيروت، (١٤١٤هـ).
- ٣٨٠ - المجموع شرح المذهب: أبو زكريا محيي الدين النووي. ط: دار الفكر.
- ٣٨١ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام: أحمد ابن تيمية. جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه محمد. طبع بإشراف الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
- ٣٨٢ - محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي. ط: دار الفكر، لبنان، الطبعة الثانية، (١٣٩٨هـ).
- ٣٨٣ - المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق: علي النجدي وزملاؤه. يشرف على إصدارها محمد توفيق عويضة، القاهرة.
- ٣٨٤ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: عبدالحق بن غالب بن عطية. تحقيق: المجلس العلمي بفاس، (١٣٩٥هـ).

- ٣٨٥ - المحلى: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم. ط: دار الفكر.
- ٣٨٦ - محنة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل: تقي الدين عبدالغني المقدسي. تحقيق: عبدالله التركي. ط: هجر للطباعة والنشر، والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، (١٤٠٧هـ).
- ٣٨٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر: محمد بن مكرم المعروف بابن منظور. تحقيق: رياض عبدالحميد مراد وزملاؤه. ط: دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٣٨٨ - مختصر الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة لابن القيم: محمد بن الموصلي. ط: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- ٣٨٩ - مختصر العلو لعلي الغفار: شمس الدين الذهبي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ٣٩٠ - مختصر الفتاوى المصرية: بدر الدين أبو عبدالله محمد بن علي الحنبلي البعلبي. صححه: محمد حامد الفقي. ط: دار ابن القيم، الطبعة الثانية، الدمام، (١٤٠٦هـ).
- ٣٩١ - مختصر قيام الليل: أبو عبدالله محمد بن نصر المروزي. ط: المطبعة العربية، الطبعة الأولى، باكستان، (١٤٠٢هـ).
- ٣٩٢ - مختصر المزني: ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٣٩٣ - مختصر المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة: الزرقاني. تحقيق: محمد الصباغ. ط: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠١هـ).
- ٣٩٤ - مختصر من قواعد العلائي وكلام الأسنوي: محمود بن أحمد الحمودي (ابن خطيب الدهشة). تحقيق: مصطفى محمود البنجوني، (١٩٨٠م).
- ٣٩٥ - مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية الدمشقي. تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٩٢هـ).
- ٣٩٦ - المدخل إلى الصحيح: الحاكم أبو عبدالله النيسابوري. تحقيق: ربيع بن هادي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٣٩٧ - المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى: أبو النصر أحمد بن محمد بن أحمد

- السمرقندي المعروف بالحدادي. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. ط: دار القلم بدمشق، دار العلوم، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٣٩٨ - المدهش: أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزي. تعليق: مروان قباني. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٥هـ).
- ٣٩٩ - المدونة الكبرى: للإمام مالك التي رواها سحنون بن سعيد التنوخي عن ابن القاسم عن الإمام مالك. ط: مطبعة السعادة.
- ٤٠٠ - مذكرة أصول الفقه: محمد الأمين بن المختار الشنقيطي. ط: المكتبة السلفية، المدينة المنورة.
- ٤٠١ - المراسيل: أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. تحقيق: شعيب الأرنؤوط. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٠٢ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها: عبدالرحمن جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وزملاؤه. ط: دار التراث، القاهرة، الطبعة الثالثة.
- ٤٠٣ - مسائل الإمام أحمد بن حنبل: رواية صالح. تحقيق: فضل الرحمن دين محمد. ط: الدار العلمية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٠٤ - المساعد على تسهيل الفوائد: بهاء الدين بن عقيل. تحقيق: محمد كامل بركات. ط: دار الفكر بدمشق، (١٤٠٠هـ).
- ٤٠٥ - المستدرک: أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم. ط: دار الباز، مكة المكرمة.
- ٤٠٦ - المستصفي من علوم الأصول: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. ط: دار العلوم الحديثة، بيروت.
- ٤٠٧ - المسند: أبو عبدالله أحمد بن حنبل. ط: المكتب الإسلامي.
- ٤٠٨ - المسند: أبو بكر عبدالله بن الزبير الحميدي. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة المتنبى، القاهرة.
- ٤٠٩ - مسند أبي داود الطيالسي: سليمان بن داود بن الجارود. ط: دار المعرفة، لبنان.
- ٤١٠ - مسند أبي يعلى: أحمد بن علي بن المثنى التميمي. تحقيق: حسين سليم أسد. ط: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).

- ٤١١ - المسودة في أصول الفقه: أبو العباس الحنبلي الحراني. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ط: دار الكتاب العربي، لبنان.
- ٤١٢ - مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف: محمد عليان المرزوقي الشافعي. [ملحق بتفسير الكشاف]، دار المعرفة، بيروت.
- ٤١٣ - مشكاة المصابيح: محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي. تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٥هـ).
- ٤١٤ - مشكل الآثار: أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي. ط: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند، الطبعة الأولى، (١٣٣٣هـ).
- ٤١٥ - مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور: برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي. تحقيق: عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤١٦ - المصباح المنير: أحمد بن محمد الفيومي المقرئ. ط: مكتبة لبنان.
- ٤١٧ - المصنف: أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤١٨ - مصنف ابن أبي شيبة: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة العسبي. تحقيق: مختار الندوي. إدارة القرآن والعلوم الإسلامية، كراتشي، (١٤٠٦هـ).
- ٤١٩ - معارج الصعود إلى تفسير سورة هود: محمد الأمين بن المختار الجكني الشنقيطي. ط: دار المجتمع للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، جدة، (١٤٠٨هـ).
- ٤٢٠ - معارج القبول: حافظ بن أحمد حكيمي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٢١ - المعارف: ابن قتيبة. تحقيق: ثروت عكاشة. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية.
- ٤٢٢ - معالم التنزيل: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي. تحقيق: خالد العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).

- ٤٢٣ - معالم السنن: أبو سليمان الخطابي. تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد الفقي، دار المعرفة، لبنان.
- ٤٢٤ - معاني القرآن: يحيى بن زياد الفراء. تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وزميله. ط: دار السرور.
- ٤٢٥ - معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري الزجاج. تحقيق: عبد الجليل شلبي. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٢٦ - معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، (١٤٠٠هـ).
- ٤٢٧ - معجم الإعراب والإملاء: إميل بديع يعقوب. ط: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، (١٩٨٨م).
- ٤٢٨ - معجم الأمثال العربية: رياض عبدالحميد مراد. ط: جامعة الإمام، (١٤٠٧هـ).
- ٤٢٩ - المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: أبو معاذ طارق عوض الله وزميله. ط: دار الحرمين، مصر، (١٤١٥هـ).
- ٤٣٠ - معجم البلدان: ياقوت بن عبدالله الحموي. ط: إحياء التراث العربي، بيروت، (١٣٩٩هـ).
- ٤٣١ - المعجم الصغير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان. المكتبة السلفية، المدينة المنورة، (١٣٨٨هـ).
- ٤٣٢ - المعجم الكبير: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية.
- ٤٣٣ - معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي. تحقيق: مصطفى السقا. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٣هـ).
- ٤٣٤ - معجم مفردات الإبدال والإعلال في القرآن الكريم: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٠٩هـ).
- ٤٣٥ - المعجم المفصل في شواهد النحو الشعرية: إميل بديع يعقوب. ط: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ).
- ٤٣٦ - المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية. ط: المكتبة الإسلامية، استانبول، الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).
- ٤٣٧ - معرفة الصحابة: أبو نعيم الأصفهاني. تحقيق: محمد راضي بن حاج

- عثمان. ط: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، مكتبة الحرمين بالرياض، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ).
- ٤٣٨ - المعرفة والتاريخ: يعقوب بن سفيان البسوي. تحقيق: أكرم العمري. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤١٠هـ).
- ٤٣٩ - المغازي: محمد بن عمر بن واقد. تحقيق: مارسون جونس. ط: عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، (١٤٠٤هـ).
- ٤٤٠ - المغني: موفق الدين أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة. تحقيق: عبدالله التركي، وعبدالفتاح الحلو. ط: دار هجر، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٤٤١ - مغني اللبيب: جمال الدين بن هشام الأنصاري. ط: دار إحياء الكتب العربية.
- ٤٤٢ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة: محمد بن أبي بكر ابن القيم. تحقيق: علي حسن عبدالحميد. ط: دار ابن عفان، الخبر، الطبعة الأولى، (١٤١٦هـ).
- ٤٤٣ - مفحمت الأقران في مبهمات القرآن: جلال الدين السيوطي. تحقيق: إياد خالد الطباع. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٦هـ).
- ٤٤٤ - مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني. تحقيق: صفوان عدنان داوودي. دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٤٤٥ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، الطبعة الثانية، (١٤١٣هـ).
- ٤٤٦ - المفضليات: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي. تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون. ط: دار المعارف، القاهرة، الطبعة السابعة.
- ٤٤٧ - المقاييس في اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا. تحقيق: عبدالسلام هارون. دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٤٤٨ - المقتصد في شرح الإيضاح: عبدالقاهر الجرجاني. تحقيق: كاظم بحر المرجان.
- ٤٤٩ - ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. ط: دار الغرب، لبنان، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).

- ٤٥٠ - المنتخب: عبد بن حميد. تحقيق: أبو عبدالله مصطفى بن العدوي. ط: دار الأرقم، الكويت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٤٥١ - المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء: أحمد بن محمد الجرجاني. تحقيق: محمد شمس الحق شمس. ط: بإعانة وزارة المعارف والشؤون الثقافية للحكومة العالية الهندية، الهند، الطبعة الأولى، (١٤٠٣هـ).
- ٤٥٢ - المنهاج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى: زين محمد شحاته. ط: مكتبة المواسم، دار بلنسية، الرياض، الطبعة العاشرة، (١٤٢٢هـ).
- ٤٥٣ - منهج الجدل والمناظرة في تقرير مسائل الاعتقاد: عثمان علي حسن. ط: دار إشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤٢٠هـ).
- ٤٥٤ - منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات: محمد الأمين الشنقيطي. الدار السلفية، الكويت، الطبعة الرابعة، (١٤٠٤هـ).
- ٤٥٥ - الموافقات: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي. تحقيق: مشهور حسن سلمان. ط: دار ابن عفان، الطبعة الأولى، الخبر، (١٤١٧هـ).
- ٤٥٦ - الموسوعة الفقهية: إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
- ٤٥٧ - الموضح في وجوه القراءات وعللها: نصر بن علي بن محمد المعروف بابن أبي مريم. تحقيق: عمر حمدان الكبيسي. ط: بإشراف الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم بجدة، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ).
- ٤٥٨ - الموضوعات: أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي. تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن عثمان. ط: دار الفكر، الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ).
- ٤٥٩ - موطأ الإمام مالك: رواية يحيى بن يحيى الليثي. ط: دار النفائس، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٤٠١هـ).
- ٤٦٠ - موقف ابن تيمية من الأشاعرة: عبدالرحمن صالح المحمود. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٥هـ).
- ٤٦١ - ميزان الاعتدال: أبو عبدالله محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي بن محمد البجاوي. ط: دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٣٨٢هـ).
- ٤٦٢ - الناسخ والمنسوخ: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس. تحقيق: سليمان بن إبراهيم اللاحم. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).

- ٤٦٣ - الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز: أبو عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد المديفر. ط: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ).
- ٤٦٤ - النبوات: أحمد ابن تيمية. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٢هـ).
- ٤٦٥ - نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار: ابن حجر العسقلاني. تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي. ط: مكتبة المشي، بغداد، (١٤٠٦هـ).
- ٤٦٦ - نثر الورود على مراقي السعود: محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي. تحقيق: محمد ولد سيدي ولد حبيب الشنقيطي. ط: دار المنارة، الطبعة الأولى، جدة، (١٤١٥هـ).
- ٤٦٧ - النحو الوافي: عباس حسن. ط: دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة.
- ٤٦٨ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي. تحقيق: محمد عبدالكريم كاظم الراضي. ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٤٦٩ - النشر في القراءات العشر: أبو الخير محمد بن محمد ابن الجزري الدمشقي. تحقيق: علي محمد الصباغ، دار الكتاب العربي.
- ٤٧٠ - نصب الراية لأحاديث الهداية: جمال الدين أبي محمد عبدالله بن يوسف الزيلعي. ط: دار المأمون، القاهرة، الطبعة الأولى، (١٣٥٧هـ).
- ٤٧١ - النكت والعيون: أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. تحقيق: السيد عبدالمقصود. ط: المؤيد، الرياض، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ).
- ٤٧٢ - نهاية السؤل: جمال الدين عبدالرحيم الأسنوي. ط: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ).
- ٤٧٣ - النهاية في غريب الحديث: مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير. تحقيق: محمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية، اسطنبول.
- ٤٧٤ - النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى: محمد الحمود. ط: مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، الطبعة الثانية، (١٤١٧هـ).
- ٤٧٥ - نواقض الإيمان الاعتقادية: محمد بن عبدالله بن علي الوهبي. ط: دار المسلم، الطبعة الأولى، الرياض، (١٤١٦هـ).
- ٤٧٦ - نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح متقى الأخبار: محمد بن علي الشوكاني. ط: دار القلم، بيروت.

- ٤٧٧ - الهداية شرح بداية المبتدي: أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني. ط: مكتبة الحلبي، مصر.
- ٤٧٨ - الوافي في شرح الشاطبية في القراءات السبع: عبدالفتاح عبدالغني القاضي. ط: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (١٤٠٤هـ).
- ٤٧٩ - الوجيز في تفسير الكتب العزيز: أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي. تحقيق: المجلس العلمي بفاس. ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- ٤٨٠ - الوسيط في تراجم أدياء شنقيط: أحمد بن الأمين الشنقيطي. ط: مطبعة المدني، مصر. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، مؤسسة منير، موريتانيا، (١٤٠٩هـ).
- ٤٨١ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان. تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، بيروت.



فهرس الآيات القرآنية

١٦٩٨/٤ ، ٥٧٤/٢ ، ٢٢٠/١	١٤	● الفاتحة ●	
٢٠٢ ، ١٩٦ ، ١٧٥/١	١٨	٩٣٧/٢ ، ٢٧١/١	٦
١٢٨٨/٣	١٩	١٧٠٨ ، ١٥٧٥/٤ ، ٦٠٨/٢	٧
٩٧٧/٣ ، ٨٧٤ ، ٦٣٩/٢	٢٠	● البقرة ●	
١٢٠١		٩٥٧/٣	(٢ ، ١)
١٧٧٥/٤ ، ٣٦٠ ، ٩٣/١	٢١	١٨٠٢/٤ ، ٩٦٣/٣	٢
١٩٠٠ ، ١٧٩٩/٤ ، ٩١٧/٢	٢٢	١٩٩٧/٥	(٤ ، ٢)
١٩٠٠/٤ ، ٣٦٤/١		١٥٨٦/٤	٥
٢٠٩٦/٥ ، ٩٣٤/٢	٢٥	١٧٧٦ ، ١٤٨٢/٤	٦
١٦٦٦ ، ١٤٨٧/٤ ، ١٢٩٢/٣	٢٦	٥٦٢/٢ ، ١٩٧/١	٧
٢١٥١/٥		١٤٧١/٤	
١٦٢٧ ، ١٦١٥/٤	٢٨	١٤٧٢/٤ ، ٥٦١/٢	١٠
١٠٣٨ ، ١٠٣٧/٣	٣٠	١٩٩٨ ، ١٩٩٧/٥ ، ١٤٨٣	
٢٣٥٠/٥ ، ٤٩٠/٢	(٣٢ ، ٣١)	١٨٨٤/٤	١٣
١٢١١ ، ١٠٣٨/٣	٣١	١١٩٢/٣	(١٥ ، ١٤)

١١٥ ، ١٠٤/١	(٥٩ ، ٥٧)	١٠٣٨/٣ ، ٣٢٩ ، ٢٤٧/١	٣٢
١٠٣٢/٣ ، ٣٦٩/١	٥٧	١٤٢٢	
١٧٧٤ ، ١٦٤٧/٤		١٠٣٨/٣	٣٣
١٢٣١ ، ١٢٢٧/٣	٥٩	٩٦٨ ، ٩٦٧/٣	٣٤
٢١٩٥/٥ ، ١٦٥٥/٤		٩٩/١	٣٧
١٦٤٣/٤ ، ١٣٧/١	٦٠	٦٧ ، ٥٥/١	(٤٧ ، ٤٥)
١٠٣٢/٣ ، ١٠٨/١	٦١	٦٦٩/٢ ، ٢٣٨ ، ١٦١/١	٤٥
١٦٤٧/٤		٣/٣٥١ ، ٣/٤٣٣	
١٧٧٤ ، ١٦٩٤ ، ١٦٨٣/٤	٦٣	٢٣٩٦ ، ٢٣٧٢ ، ٢٢٧٨/٥	
١٦٥٧ ، ١٦٥٥/٤ ، ٦٦/١	٦٥	٦١١/٢	٤٦
١٦٦٩ ، ١٦٦٢		٣/٤٤٠	٤٧
١٣٢ ، ١١٥/١	(٦٧ ، ٧١)	٧٨ ، ٦٧/١	(٤٩ ، ٤٨)
١٣٢/١	٦٧	٩٠ ، ٧٨/١	(٥٣ ، ٥٠)
٢٣٩ ، ٢٣٨/١	٦٨	٣/٥٣٥	٥٠
١٤٣ ، ١٣٢/١	(٧٢ - ٧٤)	١٠٤ ، ٩٠/١	(٤٥ ، ٤٥)
١١٢٧/٣	٧٢	٣٠٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٠/١	٥٤
٣٩٤ ، ١٠٢/١	٧٣	٧٥٨ ، ٦٨٧ ، ٦٢٨/٢	
١٢٥١/٣ ، ١٩٠/١	٧٤	١٠٣٢/٣ ، ٢٦٧/١	٥٥
١٥٧ ، ١٤٣/١	(٧٩-٧٥)	١٥٩٧ ، ١٥٩٥ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٢/٤	

١٠٨٦/٣	١٢٣	٤١٩ ، ١٨٧ ، ١٨٦/١	٧٩
٤٩٢ ، ٤٩١/٢ ، ٣١٨/١	١٢٤	١٠٨٩/٣ ، ٧٣٤/٢	
١٢١٢ ، ١٠٩٨/٣ ، ٩٤٠ ، ٥٣٦		١٩٠٣ ، ١٦٧٧/٤	
١٠٨٦/٣	١٢٦	١٠٣٠ ، ٩٨٠/٣	٨٥
٥٥٢/٢ ، ٣٥٩ ، ٩٤/١	١٢٨	٢٢٨/١	٨٧
١٥٥٦ ، ١٥٥٥/٤		٢١٥٣/٥	٩٠
٩٠٥/٢	١٢٩	١٥٦١/٤	٩٥
٩٤٩/٢	١٣١	١٤٨٤ /٤	١٠٠
٩٤٨/٢	١٣٢	١٥٠٨/٤	١٠٢
٧٥٧/٢	١٣٥	٢٢٤٩/٥	١٠٦
١٨٨٠/٤	١٣٧	١٢٣٦/٣ ، ٤٢٠/١	١٠٩
٨٤٩ ، ٥٠٠/٢ ، ٢٧٣/١	١٤٠	٢٢٤٩/٥	
١٤٤٩/٤ ، ٨٩٧		١٥٣/١	١١١
١٢٣٤ ، ١٢٢٤/٣		٩٢٧/٢	١١٣
٩٦٦/٣ ، ٦٢٣/٢ ، ٢٤٦/١	١٤٣	١١١٥/٣ ، ٤٢٧/١	١١٤
١٤٤٠ ، ١٢٤٠ ، ١١٤٨ ، ٩٩٨		٢٢٤٣/٥	
١٦٠/١	١٤٤	٢١٢٠/٥	١١٧
٣٩٥/١	١٤٥	١٣٢٥/٣	١١٨
١٦٠٤/٤ ، ٥٨٦/٢	١٤٦	٣٩٢/١	١٢٠

١١١٤/٣	١٧٥	٩٦٣/٣	١٤٧
١٦٠١/٤ ، ٤٠٢/١	١٧٨	١٤٥٦/٤	١٤٨
٨٧٦ ، ٥٩٣/٢ ، ٤٠٢/١	١٧٩	١٢٩٦ ، ١٠٢٩/٣ ، ٢٨٨/١	١٥٢
١٠٤٦/٣	١٨٠	١٥٦٦/٤ ، ١٢٩٧	
١٦٠١/٤	١٨٣	٢٢٦/١	١٥٥
٢١٢٨/٥ ، ٣٩٨/١	١٨٤	٧٦٩/٢ ، ٢٨٦ ، ٨٨/١	١٥٨
١٢٣٦ ، ١١٥٤/٣ ، ٦٢٨/٢	١٨٥	١٢٩٦ ، ١١٢٢ ، ١٠٢٧/٣	
١٨٨٨ ، ١٨٠٢ ، ١٦٠٩/٤		١٨٨٨ ، ١٧٧١ ، ١٥٦٥/٤	
٢٢٧٤ ، ٢١٢٨/٥		٩٠١ ، ٧٧٢/٢ ، ٢١٧٨/٥	١٦٢
٢١٠/١	١٨٦	١٠٢٣/٣	١٦٤
١٣٧٨/٣	١٨٧	٢٠١١/٥	١٦٥
١٢٥٣/٣ ، ٤٥٢/١	١٨٩	١١٢٧/٣	(١٦٧ ، ١٦٦)
٥٢١/٢	١٩٠	١١٢٩/٣ ، ٤٣٩/١	١٦٦
٦٦٥/٢ ، ١٦٣/١ ، ١٣٣/١	١٩١	٢٤٠٠/٥ ، ١٩١٣/٤	١٦٧
٢١٢٩ ، ٢١٢٧/٥ ، ١٣٥٦/٣		١٧١٨/٤	١٧١
٢٣١٢ ، ٢١٤٣		٦٣٧ ، ٦٢٦ ، ٥٢٠/٢	١٧٣
٨٧٦/٢ ، ٢٨٠/١	١٩٣	٩٠٣ ، ٧٥٥ ، ٧٣٦	
١٥٩٧/٤ ، ١٠٩٢/٣		٢٢٦٨/٥ ، ١٦٢٣/٤	
٢٣١٢/٥	١٩٤	٢٠١١/٥	١٧٤
١٥٥٣/٤ ، ٣٩٧/١	١٩٦		

١٣٠٥ ، ١١٠٥/٣	٢٢٩	١١٧٠/٣ ، ٢٤٨/١	١٩٧
٢٠٢٤/٥ ، ١٨٠٨/٤		١١٩٠/٣	١٩٩
١٠٥٦/٣ ، ٧٤٤/٢	٢٣٠	١٥٩٩/٤	٢٠١
١٠٥٧/٣		٧٦٤/٢	٢٠٨
١٩٦٨/٥	٢٣١	٥٧٣/٢ ، ٢٣٤/١	٢١٠
١٢٣٩/٣ ، ٩٠٤/٢	٢٣٣	٩١٧ ، ٨٩٥	
٢٣٤٤/٥ ، ٣٣٤/١	٢٣٥	٢٨٢/١	٢١٢
١٠٣ ، ١٠٢/١	٢٤٣	١٠٩٨/٣ ، ٥٣٦/٢	٢١٣
١٠٣/١	٢٤٤	١٦٣٢/٤	
١٠١٩ ، ١٠١٥/٣	٢٤٥	٢١٧٢/٥ ، ١٦٦٦/٤	٢١٤
١٧١٢ ، ١٥٧٨/٤		١٨٥٧ ، ١٨٢٤/٤	٢١٦
٤٦٢/١ ، ١٤٠/٢	٢٤٨	٢٣٥٦/٥ ، ٨٧٦/٢ ، ٣٩٤/١	٢١٧
٤٦٢ ، ٥٤٨/٢		٢١٢٨/٥ ، ١٧٨٨/٤	٢١٩
١٧٢٦/٤ ، ١٠٢٢/٣		١٢٤١/٣ ، ٨٥٦/٢	٢٢٠
١١٣٦/٣ ، ٦١١/٢	٢٤٩	١٣٨٧/٣	٢٢٢
٢٢٠٧/٥		١٢٠٦ ، ١٣٨٦/٣	٢٢٣
٦٦٤/٢ ، ١٦٤/١	٢٥٣	١٧٥٣/٤ ، ١٣٨٨	
١٦١٩/٤ ، ١٣٢٨/٣		١٠٩٢/٣ ، ٥٠٤/٢	٢٢٨
٦٥٨/٢ ، ٢٢٨ ، ٨٥/١	٢٥٤	٢٢٠٥/٥	
١١٨٣ ، ١١٨١ ، ٩٩١/٣			

١٦٣٠ ، ١٦١٦/٤ ، ٢٣٤/١	٢٨٥	١٦٥٤ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٠/٤	
١٦٢٨ ، ١٦٢٧/٢ ، ٤٠٤/١	٢٨٦	٢٢٠١ ، ٢٠١٧/٥	
٢٢٣٥/٥ ، ١٥٩٠/٤ ، ٨٦٠		٧٧٣/٢ ، ٢٦٦ ، ٧٢/١	٢٥٥
		١١٧١/٣ ، ٩٠٢ ، ٨٩٩	
		١٢٤٤ ، ١٢٤٠ ، ١٢٣٦	
• آل عمران •		١٤٦٠ ، ١٤٥٧/٤	
٩٥٧/٣	(٣، ١)	٩٧٨/٣	٢٥٧
١٩٦٨/٥	٥	١٢٤٠/٣ ، ٣٧٥/١	٢٥٨
١٠٣٢/٣ ، ٤٩٤/٢ ، ٤٢٥/١	٦	١٠٢/١	٢٥٩
١٠٣٥ ، ١٠٣٣		١٠٢/١	٢٦٠
١٨٨٢/٤ ، ٨٠٤ ، ٥٨٧/٢	٧	٩٣٣/٢	٢٦١
١٨٨٢/٤	٨	٩٠٣/٢	٢٦٣
٦٩٥/٢	٩	٧١٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٣/٢	٢٦٧
١٩٧١ ، ١٩٥٩/٥ ، ٤٥٧/١	١٣	١٢٣٩/٣	٢٦٩
١٠٩٧/٣	١٤	٢٣٧/١	٢٧٠
٢٢٧٤ ، ٢٢٥٠ ، ١٩٥٩/٥	١٩	٥٣٥/٢	(٢٧٨-٢٧٩)
٧٦٢/٢ ، ٢٤٤/١	٢١	٨٩٩ ، ٦٠٩/٢ ، ٢٠٤/١	٢٨٢
٢١٢٠ ، ٢١١٩/٥		١٤٧٣/٤ ، ٩٣٩	
١٢٣٩/٣ ، ٩٠٣/٢	٢٦	١٧١٠ ، ١٥٧٥	
١٤٦٠/٤ ، ١٢٤٠		٩٠٧/٢	٢٨٤
٤٤٥/١	٢٧		

١٦٠٥/٤	(٨٢ ، ٨١)	٢١٧٤ ، ٢٠٨٩/٥	٢٨
٥٨٦/٢	٨١	٩٣٥ ، ٩٣١/٢ ، ٢٩٤/١	٣٠
٢٢٧٤ ، ٢٢٥٠ ، ١٩٥٩/٥	٨٥	، ١١٤٩/٣ ، ٤٠٦ ، ٣٠١/١	٣١
٦٧٧/٢	٩١	١٨٦٤ ، ١٦٣٠/٤	
، ٧٦٤ ، ٧٦٣/٢ ، ٤٢٢/١	٩٣	١٩٩٥/٥	٣٣
٢٢٧٥/٥ ، ١٦٦٨/٤ ، ٨٦٧		٣٨٦/١	٣٨
١٥٠٤/٤	٩٥	١٦١٦ ، ١٥٨١/٤	٣٩
١٩٨٨/٥	٩٩	١٣٨٨/٣	٤٠
١١٣٤/٣ ، ٨٧٣/٢	١٠٣	٥٧٧/٢ ، ١٦٤٠/٤	٤١
١٤٤٠ ، ١٤٣٩/٣ ، ٦٤/١	١١٠	١٦١٦/٤	٤٥
١٦٣٤/٤	(١١٤ ، ١١٣)	٧٦١/٢	٥٠
١٦٧٥/٤ ، ٩٣٨/٢	١١٣	، ٧٦٨ ، ٧٦٧ ، ٧٦٦/٢	٥٥
٢٣٩٣/٥	١١٤	١١٢٢ ، ١١٢١ ، ١١٢٠/٣	
٨٩١/٢ ، ٢٣٤/١	١١٩	١٠٦١/٣ ، ٤٦٥/٢ ، ٣٨٨/١	٥٩
١٥١٤/٤	١٢٠	٢٠٤٧/٥	٦٣
١٩٩٠/٥ ، ٥٣٩/٢ ، ٢٩٥/١	١٢٢	٨١٦/٢	٦٤
١٨٦٦/٤	(١٢٤ ، ١٢٣)	١٤١٨/٣ ، ٣٥٢/١	٦٧
٢٢٢٩/٥	(١٢٤ ، ١٢٣)	٤١٩/١	٧٨
١٨٦٧ ، ١٦٦٠/٤ ، ٨١٢/٢	١٢٣	٢٢٧٦/٥ ، ٨١٦/٢	٨٠

٢٠٣٢/٥ ، ١٧٨١/٤	١٧٥	١٨٤٠/٤	(١٢٥ ، ١٢٤)
٢٣٧٣/٥ ، ٢٨٤/١	١٧٨	١٨٦٦/٤	(١٢٥ ، ١٢٤)
٢١٧٣/٥ ، ١٩١٨/٤ ، ٣٣٣/١	١٧٩	١٨٦٧/٤	١٢٤
٢١٨٩/٥	١٨٥	٢٢٢٤/٥ ، ١٨٦٩ ، ١٨٦٦/٤	١٢٦
٢٢٣٨/٥	١٨٦	١٨٦٦/٤	١٢٧
٣٧٤ ، ٣٤٨ ، ١٤٠/١	١٩٠	٩٠٣/٢	١٢٩
١٧٢٧/٤ ، ٦٢٢ ، ٥٤٩/٢		٢١٧٢/٥	١٤٢
١٨٠٩/٤	١٩١	١١١٧/٣	١٤٥
٢٣٩٩/٥	١٩٢	١٩٨١/٥	١٥٢
١٦٧٥ ، ١٦٣٤/٤	١٩٩	١٨٧٢ ، ١٨٧١/٤	١٥٤
٥٦/١	٢٠٠	٢١٧١ ، ١٩٦٨/٥	
● النساء ●			
١٠٦١/٣ ، ٤٦٥/٢	١	٢٢٣٢ ، ٢٢٢٩/٥ ، ١٨٦٦/٤	١٥٥
١٧٥١ ، ١٧٥٠ ، ١٧٤٩/٤		٥٩٣/٢	١٥٩
٢٣١٦ ، ٢٠٥١/٥ ، ١٧٦٢		١٢٣٩/٣	١٦٤
١٥١٠/٤ ، ١٢٤٠/٣	٢	١٩٨٠/٥	١٦٥
١٧٦٤/٤	٣	٢١٧٢/٥	(١٦٧ ، ١٦٦)
٨٩٢ ، ٥٧٢/٢ ، ٢٣٤/١	٤	١٨٧ ، ١٨٦ ، ١٥٥/١	١٦٧
٨٥٢ ، ٧٧٢/٢ ، ١٧٠/١	٦	٢٣٦٤/٥	١٦٩
٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٩٠١		٢٠٥٠/٥	١٧٣

٦٧٠/٢	٤٢	١٢٣٩/٣ ، ٩٠٤/٢	٨
٢٣٢/١	٤٧	١٥٥٠/٤ ، ٧٧/١	٩
، ٨١٠ ، ٨٠٩ ، ٦٧٧/٢	٤٨	، ٨٥٦ ، ٧٤٣/٢	١٠
٩٤٩ ، ٨٤٣ ، ٨٤٢ ، ٨١١/٢		١٩٠٣/٤ ، ١٠٥٥/٣	
٢٠١٨/٥	٥١	٢١٠١/٥ ، ٥٠٤/٢ ، ٣٨٧/١	١١
٢٠١١ ، ١٩٩٦/٥ ، ١٨٨٢/٤	٥٦	١٠٥١/٣	١٢
٨٦١/٢	٥٨	١٣٨٥/٣	١٦
، ٩٧٥/٣ ، ٤٣٦ ، ٣٢٠/١	٦٠	٦٧٦/٢	١٨
٢٢٦٩ ، ٢٣٠٣/٥ ، ١٦٢٥/٤		١٢٤٠/٣	٢٠
٥٦٦/٢	٦٤	١٢٢٤ ، ١٠٨٨/٣ ، ٦٣٢/٢	٢٢
، ٨١٧ ، ٥٥٦ ، ٥٥٥/٢	٦٥	٥٠٤/٢	٢٤
٢٣٠٣ ، ٢٢٦٩/٥ ، ١٠٤٠/٣		٢٣٧٤ ، ٢٣٧٣/٥	٢٦
٢٣٤٩/٥	٦٦	٩٠٠/٢	٢٨
٨١٠/٢	(٦٩ ، ٦٨)	١٠٩٣/٣	٢٩
٢٣٤/١	٦٩	٢٣٦١ ، ١٩٢٢/٥	٣٣
٢٣٦٠/٥	٧٢	، ٩٠٢ ، ٨٥١ ، ٧٧٣/٢	٣٤
١٥٢٥/٤	٧٨	، ١٢٤٠ ، ١٢٠٣/٣	
، ١١٤٩/٣ ، ٤٠٦ ، ٣٠١/١	٨٠	١٧٥٧ ، ١٤٦٠/٤	
٢٣٩٥/٥ ، ١٦٣٠/٤		١٠٠٧ ، ٩٨٩/٣	٤٠

٧٢٠/٢	١١٩	٦٤٠/٢ ، ١٢/١	٨٢
٧٦٣/٢	١٢٢	٢٦٥ ، ٧١ ، ٧٠/١	٨٥
١٥٣/١	١٢٣	١٢٥٩/٣ ، ٧٢٩/٢	٨٦
١١٥٠/٣ ، ٣٠٢/١	١٢٤	٢١٤٠/٥	
٢٣٦٩/٥		٧٦٣ ، ٦٣٤/٢	٨٧
٨٥١/٢	١٢٧	١٢٢٤/٣ ، ٧٧٠	
١٧٦٣/٤	١٢٩	٢١٢١/٥	(٩٠ ، ٨٩)
٢٣٢١/٥ ، ٦٩٣/٢	١٣٣	٢٠٤٠/٥ ، ٩٥٢/٢ ، ٣٩٦/١	٩٢
٨٦٢/٢ ، ٢٣٧/١	١٣٥	٨٣٧/٢	٩٣
٢٢٧٨/٥ ، ١٤١١/٣ ، ١٠٩٤		٢٠٧٩/٥	(٩٩ ، ٩٧)
٢٠٨٣/٥	١٤١	١٨٤٤/٤ ، ١١١٧/٣	٩٧
٢٣٧٢/٥ ، ٢٥٠ ، ٦٠/١	١٤٢	١٩٩٩ ، ١٩٩٨/١ ، ١٨٤٥	
٦٨٨/٢	١٤٥	٦٠٠/٢	(١٠٣ ، ١٠٢)
١٠٠/١	١٥٣	٨٨١/٢ ، ٤٥٣/١	١٠٢
١٦٨٣/٤	١٥٤	١٩٧٥/٥ ، ١٩٠٣/٤ ، ١١٣٤/٣	
٥٦٣/٢ ، ١٩٨ ، ١٩٧/١	١٥٥	٢٠٣٤/٥	١٠٥
١٤٨٣ ، ١٤٧٢/٤ ، ٧٦٢		٢٣٩٦ ، ٢٢٧٨/٥ ، ٢٣٧/١	١١٢
٧٦٢/٢	(١٥٧ ، ١٥٦)	٢٢٦٩/٥ ، ٤٣٦ ، ٣١٩/١	١١٧
٧٦٦ ، ٧٦٥/٢	(١٥٩ ، ١٥٦)	٢٣٠٢	

١٢٠٢ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥١/٣	١٤٦/٢	١٥٦
١٧٦٢ ، ١٧٥٤/٤ ، ١٠٥٣/٣	٧٧٠/٢	(١٥٨ ، ١٥٧)
٢٣٤٣ ، ٢١٠١/٥	١١٢٠/٣	(١٥٨ ، ١٥٧)
● المائدة ●		
٨٦٤/٢	١	١٥٧
٨٧٩ ، ٧٥٦ ، ٦٤١/٢	٢	١٥٩
٢٣٩٠/٥ ، ١٩٠٧/٤	٢	(١٦١ ، ١٦٠)
٦٢٦ ، ٦٢٥/٢ ، ٣٩٥/١	٣	(١٦١ ، ١٦٠)
٧٦٠ ، ٧٥٣ ، ٧٣٦ ، ٦٢٧		١٦٠
١٥٣٣/٤ ، ١٤٣٨/٣		١٦٣
٢٢٤٨/٥ ، ١٩٥٩/٥		١٦٤
٢٣٥٦ ، ٢٢٧٤ ، ٢٢٦٨		١٥٦٩ / ١٥٦٨
١٤٦١/٤ ، ١٢٣٩/٣ ، ٩٠٥/٢	٤	١٦٥
٣٩٣/١	٥	(١٦١٩/٤ ، ٩٨٩/٣)
٨٩٢ ، ٥٧٢/٢ ، ٢٣٤/١	٦	١٦٨٨ ، ١٦٦٣
٢٣٨٥/٥ ، ٩٩٤/٣		١٠٠٤/٣ ، ٨٩٩/٢
٨٦٢/٢ ، ٩٧/١	٨	١٧٤٠/٤ ، ٩٧٥/٣
١٦٣٨/٤	١٢	١٧٤
٤٢٢ ، ٤٢٠ ، ٣٠٤/١	١٥	٢٢٧٣/٥ ، ١٦١٠/٤
٢٢٧٥ ، ٢٢٧٣/٥		١٧٦
		٨٨٨/٢ ، ٣٢٣/١

٤٠٢/١	٤٥	١٣٠٤/٣ ، ٦٨٢/٢	١٩
٧٦٢/٢	٤٧	١٤٣٩ ، ١٤٠٣	
٤١٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٤/١	٤٨	١٦٥٩/٤ ، ١٠٧/١	٢١
٢٢٧٥/٥ ، ٨٦٧ ، ٧٦٤/٢ ، ٤٢٢		١٦٥٩/٤ ، ٦٦/١	٢٢
١٠٤٩/٣	٤٩	١٦٣٩/٤	(٢٦ ، ٢٤)
٢٠٨٩/٥	٥١	٦٦ ، ٦٥/١	٢٤
١٧٨٦/٤ ، ٨١١/٢	٥٤	١٨٢٧ ، ١٦٥٩/٤	
٢٣٢١ ، ٢٠٩١/٥		٧٩/١	٢٥
٢٠٩١/٥ ، ١٧٨٢ ، ١٥٩٧/٤	٥٥	١١٩١/٣	٢٦
١٩٩١/٥ ، ٥٤٠/٢ ، ٢٩٦/١	٦٣	٤٣٠/١	٢٨
١٨٠٢/٤	(٦٨ ، ٦٤)	٥٨٠/٢	٢٩
١١٩٨/٣	٦٤	٨٣٩/٢	٣٣
١٦٣٤/٤ ، ١٤٤٤/٣ ، ٦٤/١	٦٦	١٤٥٦/٤ ، ٢٣٣٦/٣	٣٤
١٧٨٣/٤	٦٧	٢٤٠٠/٥ ، ٦٤٩/٢	٣٧
١١٩١/٣ ، ٦٧٧/٢	٧٢	١٧٨٠/٤ ، ١٠٩٤/٣	٣٨
١٧٤٠/٤ ، ٧٨٨/٢	٧٣	٨٦٨/٢ ، ١٧٤ ، ١٦٩/١	٤١
٢٢٣٦/٥ ، ١٥٨٧/٤ ، ٢٩٣/١	٧٤	٣/١٣١ ، ٣/٧٧١ ، ٢٠٨١	
١٤٧٩ ، ١٤٧٨/٤	٧٥	١٠٤٩/٣	(٤٧ ، ٤٤)
١٧٠٨/٤	٧٧	٩٤٩ ، ٧٦٢/٢ ، ٤٠٥/١	٤٤
		١٦٠٣/٤	

٤٦٥/٢	٢	١٦٥٥/٤	٧٨
٣٢٩/١	٥	٥٤٠/٢ ، ٢٩٦/١	٧٩
١٨٧٥ ، ١٨٢٨/٤	(٧ ، ١١)	١٩٩٢/٥ ، ١٦٦٣/٤	
٥٥٩/٢	٧	٢٣٧٩/٥	٨٠
٥٦٤ ، ٥٤٥/٢	٨	٢٢٣٨/٥	٨٢
١١٧٦ ، ١١٠٣/٣	٩	١٠٧٨ ، ١٠٧٧/٣	٨٧
٣٠٨/١	١٣	٣٩٧ ، ٣٩٦/١	٨٩
٣٦٠/١ ، ٥٨٩/٢	١٤	٤٨٧٨ ، ٥٩٥ ، ٥٩٤/٢	٩٠
٤١٦٠٠/٤ ، ٧٨٩/٢	١٩	٢١٢٨/٥ ، ١٠٩٣/٣	
١٧١٩ ، ١٦١٨		١٦٦٠/٤ ، ٦٦/١	٩٤
٩٨٠/٣ ، ٢٤٨/١	٢١	٧٣/١	٩٥
٥٠٩/٢ ، ٢٨١/١	٢٣	٩٦٧/٣	١٠٥
٤١٥٩٧/٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٠		٩٩٧ ، ٩٩٦/٣	١٠٩
٢٠٨٨/٥ ، ١٨٨٤		٧٦٦/٢	(١١٧ ، ١١٦)
٦٠٨/٢ ، ٢٠٣/١	٢٤	١١٢٠/٣	١١٦
٤١٥٧٥/٤ ، ٦٠٩		١١٢٠/٣ ، ٧٦٦/٢	١١٧
١٧٩٨/٤	٢٥	٢٠٥٦/٥ ، ١٨٤٦/٤	١١٨
٣٠٩/١	٢٦		• الأنعام •
٢٠٧٢/٥	(٢٨ ، ٢٧)	٥٧١/٢ ، ١٤١/١	١
		٢١٨٥/٥ ، ١٧٤٩/٤	

٤٣٣/١	٥٢	٤٨٩/٢ ، ٣٧٩ ، ٤٥٩/١	٢٧
٣٠٨ ، ٢٧٩/١	(٥٥ ، ٥٣)	١٢١٤ ، ١١١٢/٣ ، ٦٥٠	
١١٩٦/٣	٥٣	٢٤٠١ ، ٢٣٤٩ ، ٢١٧٢/٥	
١١٦٨/٣ ، ٣٤٩/١	٥٥	٤٨٩/٢ ، ٤٥٩ ، ٣٧٩/١	٢٨
١٤٧٩/٤ ، ١٤٠٨		١٢١٤ ، ١١١٢/٣ ، ٤٩٠	
٣٤٠ ، ٣٠٨/١	(٦٥ ، ٥٦)	٢٤٠١/٥ ، ١٤٨١/٤ ، ١٤٣١	
٩٢٧ ، ٥١٨ ، ٥٢١/٢	٥٧	١٧٨ ، ١٥٨/١	(٣٦ ، ٣٣)
١٧٤٠/٤ ، ٩٣٢		٥٦٨ ، ٥٢٧/٢	(٣٥ ، ٣٣)
١١٢٣/٣ ، ٤٦٨/٢	٦٠	١١٩٧/٣ ، ٩٦١/٣ ، ١٥٨/١	٣٣
١١١٧/٣	٦١	٥٦٨/٢ ، ١٦٤/١	٣٤
١٩٢٣/٥	٦٢	٧٨١ ، ٧٧٨ ، ٥٢٢/٢	٣٥
٢٢٤/١	٦٨	١٠٣/١	٣٦
٣٤١/١	٧١	٢١١ ، ١٨٤/١	(٤١ ، ٣٨)
٣٧١ ، ٣٤٠/١	(٨٢ ، ٧٤)	٦٣٤/٢ ، ١٥٥ ، ٢١٤/١	٣٨
١٣٧٤/٣ ، ٣٧٣/١	٧٤	١٩٠٣ ، ١٨٨٣/٤ ، ٧٣٤	
٩٤٥/٢	٧٥	٢٤٢ ، ٢١١/١	(٤٧ ، ٤٢)
٣٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٢/١	٧٦	١٧٢٨/٤ ، ١٠٣٩/٣	٤٤
٩٤٥ ، ٩٤٤ ، ٩٤٢/٢		٢٧٩ ، ٢٤٢/١	(٥٢ ، ٤٨)
١٤١٨ ، ١٣٧٧/٣		١٧٤٦/٤ ، ١٢١٢/٣	٥٠

٤٣٣ ، ٤٣٣ ، ٤٢٦ ، ٤١٥/١	٩٣	٣٧٥/١	(٧٩ ، ٧٨)
١٩٠٠/٤ ، ٦٢٥/٢ ، ٤٣٦		٣٧٦/١	٨٠
٢٠٠٤/٥		٢١٨٢/٥ ، ١٧٨١/٤ ، ٣٧٢/١	٨١
٤٤١ ، ٤٣٣/١	٩٤	٩٩١/٣ ، ٦٥٨/٢ ، ٨٥/١	٨٢
٤٦٣ ، ٤٤١/١	(٩٧ ، ٩٥)	١٦٥٤/٤ ، ١١٨١	
٥٠٨ ، ٤٩٢ ، ٤٨٧/٢	٩٥	٢٣٥٢ ، ٢٢٠١/٥	
٤٨٧ ، ٤٧٣ ، ٤٧٠/٢	٩٧	٣٨٨ ، ٣٧١/١	(٨٥ ، ٨٣)
٤٨٦ ، ٤٦٤/٢	(٩٩ ، ٩٨)	٣٥١/١	٨٣
٤٧٢ ، ٤٧٠ ، ٤٦٥/٢	٩٨	٣٥٨/١	٨٣
٤٩٢ ، ٤٨٧		١١٩٤/٣ ، ٣٩٩/١	٨٤
٤٩٢ ، ٤٨٧/٢ ، ٤٤٣/١	٩٩	٣٩١ ، ٣٨٨/١	٨٦
١٢٨٢/٣ ، ٤٩٣		٣٩٢ ، ٣٩١/١	٨٧
٥١١ ، ٤٨٦/٢	(١٠٤ ، ١٠٠)	٣٩٨ ، ٣٩٢/١	٨٨
٢٣٢٠/٥	١٠١	٤٠١ ، ٣٩٨/١	٨٩
١٥٦١/٤	١٠٣	٤١٤ ، ٤٠١ ، ١٧٣/١	٩٠
٥١٩ ، ٥١٨ ، ٥١٥/٢	١٠٤	١٨٠١/٤ ، ١١٩٤/٣ ، ٩٤١/٢	
٥١٥ ، ٥١١/٢	١٠٥	٤٢٠ ، ٤١٤ ، ١٥٤/١	٩١
٥٢٢ ، ٥١٥/٢	(١٠٧ ، ١٠٦)	١٦٧٧/٤ ، ٨٦٦ ، ٦٢٥/٢	
٥٢٢/٢	١٠٦	٨٦٦/٢ ، ٤٢٦ ، ٤٢٠ ، ٧/١	٩٢

١٦٢٤ ، ١٦٢٣/٤ ، ٣١٦١	١٢٢	٥٢٢/٢	(١٠٧ ، ١١٠)
٢٣٠١ ، ٢٢٤٠/٥	١٢٣	٧٧٧ ، ٧٧٨/٢	١٠٧
٨٧٣/٢ ، ١٧٧ ، ١٠٣/١	١٢٤	٨٢٨/٢	١٠٨
١٦٩٣/٤ ، ١٤١٧/٣	١٢٥	٨٩٣/٢	(١٠٩ ، ١١١)
٩٦٢/٣ ، ١٧٣/١	١٢٦	١٠٤٠/٣ ، ٨١٧/٢	١٠٩
٦٣٣ ، ٦٥٦ ، ٦٥٥/٢	١٢٧	١٤٨٣/٤ ، ١٩٨/١	١١٠
١١١١ ، ١١١٠/٣ ، ٦٥٤	١٢٨	٣٥٣ ، ٣٥٥/٢	١١١
٢٣٩٩/٥	(١٢٩ ، ١٣٤)	٥٦٧ ، ٥٦٤	
٦٩٧ ، ٦٥٤/٢	١٢٩	٦٠٧ ، ٥٦٨/٢	(١١٥ ، ١١٢)
٢٣٢١/٥ ، ١٦٨٦/٤	١٣٠	٥٣٨/٢ ، ٢٩٤ ، ٢٢٠/١	١١٢
٧٩٨ ، ٦٩٧/٢	١٣١	١٦٩٨/٤ ، ٥٨٤ ، ٥٦٧	
١٣٦/٤ ، ٨٠٣/٢	١٣٢	١٩٨٩/٥ ، ١٧٨٥	
٥٢٠/٢ ، ٤٣٦ ، ٣١٩/١	١٣٣	٥١٦/٢	١١٥
٧٩٧/٢	١٣٤	٦٣٢ ، ٦٠٦/٢	(١١٦ ، ١٢٠)
٧٩٧/٢	١٣٥	١٤٨٥/٤ ، ٩٢٨ ، ٦١٠/٢	١١٦
٥١٥ ، ٦٩٨ ، ٧١٨/٢	١٣٦	١١٥٣/٣ ، ٥٥٢/٢	١١٩
١٥٤٣/٤ ، ٧٧٦	١٣٧	١٠٨٨/٣ ، ٨٣٣/٢	١٢٠
٧٢٣ ، ٧٢٣ ، ٧١٥/١	١٣٨	٥١٩/٢ ، ٣١٦/١	١٢١
٧٢٥ ، ٧٢٣/٢	١٣٩	٦٣٧ ، ٦١٧ ، ٥٧٨ ، ٥٢٠	
٧٧٦ ، ٧٣٣		٣/٧٧٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٦	

١٤٧٨/٤ ، ٢٣/١	١٥٧	٧٣٣ ، ٧٢٥/٢	١٤٤
٩٢٧ ، ٨٩٣/٢		٦٢٦/٢ ، ٣٩٥/١	١٤٥
٩٣٢/٢	١٥٩	٧٥٧ ، ٧٣٣	
٩٣٦ ، ٩٣٢/٢	١٦٠	٦٢٥/٢ ، ٣٩٥/١	١٤٦
١١٥١ ، ١١٣٠/٣		٧٧٠ ، ٧٥٧ ، ٧٣٨	
٩٤٧ ، ٩٣٦/٢	١٦١	٧٧٥ ، ٧٧٠	
٩٥٠ ، ٩٤٧/٢ (١٦٣ ، ١٦٢)		٦٢٥/٢ ، ٣٩٥/١	١٤٨
٩٥٤ ، ٩٥٠/٢	١٦٤	٧٩٥ ، ٧٧٥ ، ٧٣٨	
٩٥٤ ، ٧٧٤/٢	١٦٥	٧٩٥ ، ٥٢٤/٢ ، ٢٠٠/١	١٤٩
		١٧٠٦ ، ١٤٩ ، ١٤٦٩/٤ ، ٧٩٧	
• الأعراف •		١٠٨٤/٣ ، ٨٠٣ ، ٧٩٧/٢	١٥٠
٩٨٢ ، ٩٥٥/٣ (٣ ، ١)		٨٦٦ ، ٨٠٣/٢ (١٥٣ ، ١٥١)	
١٠٤٩ ، ١٠٢٤/٣	٣	٨٦٦ ، ٦٢٥/٢ ، ٤١٥/١	١٥١
١٠٠٥ ، ٩٨٢/٣ (٧ ، ٤)		١٧٦٦/٤ ، ١٠٤٠/٣	
١٠٠٦/٣ (٧ ، ٦)		١٣٦/٣ (١٥٤ ، ١٥٣)	
١٢٢٧/٣ ، ٩٠٦/٢	٦	٨٧٣/٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥/١	١٥٣
٢١٩٣/٥ ، ١٤٥١/٤		٨٦٦/٢	١٥٤
٨٩٩ ، ٨٣٤ ، ٦٥٤/٢ ، ٣٣٥/١	٧	٨٨٧ ، ٨٦٦/٢	١٥٥
١٠٢٣ ، ١٠٠٥/٣ (٩ ، ٨)		٨٨٧/٢ (١٥٧ ، ١٥٦)	
١١٧٤/٣ ، ٩٣٣/٢	٨	٨٩٣ ، ٨٨٨	

١٠٢١/٣ ، ١٤٣٥/٣	٤٣	١٠٦٨ ، ١٠٢٤/٣	(١٣ ، ١٠)
١٧١٣/٤ ، ١٥٧٩/٤		٢٠٣٥/٥	(١٢ ، ١١)
١٤٣٧/٣	٤٤	١٧٧٤/٤	١١
١١٩٧ ، ١١٧٢/٣	(٤٦ ، ٥١)	٨١٧ ، ٥٥٥ ، ٤٧٤ ، ٢٠/١	١٢
٢٨٢/١	٤٩	٧٢٠/٢	(١٧ ، ١٦)
١١٨٦/٣ ، ٦٧٧/٢	٥٠	٧٢٣/٢ ، ٢١٣٥/٥	١٦
٢١١/١	٥١	٧٩٨ ، ٧٣٢/٢	٢٨
١٢١٩ ، ١١٩٧/٣	(٥٢ ، ٥٤)	٤٢٨/١	٣٠
٢١٥٥/٥	٥٢	٧١٤/٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٦٨/٣	٣١
٧٩١/٢	٥٣	١٠٨٧ ، ١٠٨٣/٣	٣٢
١٢٨٧ ، ١٢١٩/٣	(٥٤ ، ٥٧)	١٠٩٦ ، ١٠٨٧/٣	٣٣
١١٢٤ ، ٤٤ ، ٢١/١	٥٤	١١٢٤ ، ١٠٩٦/٣	(٣٤ ، ٣٧)
١٣٣٨/٣ ، ٩٠٥/٢		١٠٩٨/٣	٣٤
٤٧٤/٢ ، ٢١/١	٥٧	١١١٥/٣	٣٧
١٢٩٨ ، ١٢٨٧/٣	٥٨	١١٤٦ ، ١١٢٤/٣	(٣٨ ، ٤٣)
١٣٠٨ ، ١٢٩٨/٣	(٥٩ ، ٦٢)	٦٦٧ ، ٦٥٦/٢ ، ٢١٣/١	٣٨
١٣٥٠/٣ ، ٨٠٨/٢	٥٩	٢٣٥٩/٥	٤١
١٤٠٠ ، ١٣٩٧ ، ١٣٧٣		١١٧٢ ، ١١٤٦/٣	(٤٢ ، ٤٦)
١٣٢٢/٣	٦٠		

١٥١/١	٨٩	١٣٢٢/٣	٦١
١٤٢٦ ، ١٤٢٥/٣	٩٠	١٣٢٢ ، ١٣٠٨/٣	(٦٤ ، ٦٣)
١٤٣٦ ، ١٤٣٠/٣	(٩٢ ، ٩١)	١١٠٤/٣	٦٣
١٤٣٠ ، ١٤٢٧/٣	٩١	١٣٢٩ ، ١٣٢٢/٣	(٦٨ ، ٦٥)
١٤٤١ ، ١٤٣٦/٣	٩٣	١٣٧٣ ، ١٣٥٠/٣ ، ٨٠٨/٢	٦٥
١٤٤١/٣ ، ٢١٦/١	(٩٥ ، ٩٤)	١٣٤٩ ، ١٣٢٩/٣	(٧٢ ، ٦٩)
١٤٤٣		١٣٦٠/٣	٦٩
١٤٤٤/٣	٩٦	١٣٦٤ ، ١٣٤٩/٣	(٧٥ ، ٧٣)
٩٨٩ ، ٩٨٨/٣	(٩٩ ، ٩٧)	١٣٢٤/٣ ، ٨٠٨/٢	٧٣
١٤٨٣ ، ١٤٤٥/٤	(١٠١ ، ٩٧)	١٤٠٠ ، ١٣٩٧ ، ١٣٧٣	
١٤٤٦/٤	٩٨	١٣٧١ ، ١٣٦٥/٣	(٧٩ ، ٧٥)
١٤٦٢ ، ١٤٤٦/٤	٩٩	٩٩٨/٣	٧٧
١٤٦٣/٤	١٠٠	١٣٦٩/٣	(٩١ ، ٧٨)
١٤٨٠/٤	(١٠٥ ، ١٠١)	١٣٩٦ ، ١٣٧١/٣	(٨٤ ، ٨٠)
١٣٩٩/٣	١٠٣	١٤١١ ، ١٣٩٦/٣	(٨٧ ، ٨٥)
١٤٩٩/٤	١٠٦	١٤٢٦ ، ١٤١١/٣	(٨٩ ، ٨٥)
١٨٣٣/٤ ، ٦٣٣/٢	١١١	٨٠٨ ، ٥٨/٢	٨٥
١٥٠٠/٤	١١٤	١٤٢٨ ، ١٤٢٦/٣	
١٥١٣ ، ١٥٠٠/٤	(١٢٤ ، ١١٥)	١٦٨٢/٤ ، ٨٩ ، ٨٦/١	٨٦
		٢١٣٤/٥ ، ١٨٦٠ ، ١٧٦٦	

١٥٨٠ ، ١٥٦٩/٤ (١٥٠ ، ١٤٨)	١٥٠٨/٤	١٢٠
٨٤/١	١٥٢٢ ، ١٥١٣/٤ (١٢٩ ، ١٢٥)	
١٥٧٦/٤	١٥٤٠ ، ١٥٢٢/٤ (١٣٥ ، ١٣٠)	
١٥٩٨ ، ١٥٨٠/٤ (١٥٥ ، ١٥٠)	٢٠١٠/٥	١٣٢
١٤٥ ، ١٠٠/١	٢٠٠٩/٥ (١٣٥ ، ١٣٤)	
١٣١٢ ، ١٣١١/٣ (١٥٧ ، ١٥٦)	١٥٤٥/٤	١٣٦
١٦٦٦ ، ١٥٩٨/٤ (١٥٩ ، ١٥٦)	١٥٤٧ ، ١٥٤٤/٤ (١٣٨ ، ١٣٧)	
١/٢٩٢ ، ٢٩٢/٢	١٥٤٤ ، ١٥٤٠/٤	١٣٧
١٧٧ ، ٣/٢٦٠٢	٢٢٠٨/٥ ، ١٩٠٢/٤	١٣٨
١/٣٠٣ ، ٣٠٣/٢ ، ٢٢٨/٢	١٥٤٨ ، ١٥٤٧/٤ (١٤٠ ، ١٣٩)	
١٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣/٢٠٢٦	١٥٥١ ، ١٥٤٨ ، ١٥٤١/٤	١٤١
٣٠٣ ، ١٦٠٣ ، ٥/٣٧٢٢	١/١٧ ، ٣/٧٦٦	١٤٢
١/٣٢٣ ، ٣/٧٩٧	٣/٢٠٤٢ ، ١/٣٥٥٢	
١٧٢٤/٤ ، ٨٨١/٢	٢٠٣٥/٥ ، ١٥٨٢ ، ١٥٥٤	
١٦٤٦ ، ١٦٣٧/٤	١٥٦٨ ، ١٥٥٤/٤ (١٤٤ ، ١٤٣)	
٣/٧٣١ ، ٦٤١	٤٩٨ ، ٤٩٧/٢	١٤٣
٣/٦٤٦ ، ٦٤٦	١/١٧٧ ، ٠٩ ، ٣/٧٥٣١	١٤٤
٣/٦٥٢ ، ١٦٥٥	٢/٦٧٧ ، ٣/٦٥١	١٤٥
١/٦٦ ، ٣/٥٥١٦	١/٣٠٣ ، ٢/١٠٦٠	١٤٦
١٦٦١ ، ١٦٥٨	٣/٧٦٨ ، ٥/٣٥١٢	

١٨٧	١٦٨٢ ، ١٦٦١/٤ (١٧٠ ، ١٦٤)
١٧٤٥ ، ١٧٣٨/٤	١٦٥٦/٤ ١٦٥
١٧٦١ ، ١٧٤٥/٤ (١٩٠ ، ١٨٨)	١٦٥٩ ، ١٦٥٦/٤ ١٦٦
١٢١٢/٣ ، ٢٥٢/١ ١٨٨	١٥٥١/٤ ، ٢١٥ ، ٧٨/١ ١٦٨
١٧٦١/٤ (١٩٤ ، ١٨٩)	١٦٦١
١٧٧٧	٢٠٥٨/٥ ١٦٩
١١٦٩/٣ ، ٤٦٥/٢ ١٨٩	١٦٩٣ ، ١٦٨٢/٤ (١٧٤ ، ١٧١)
١٨٠٢ ، ١٧٧٧/٤ (٢٠٣ ، ١٩٤)	١٤٨٢/٤ ، ١١٦٦/٣ ١٧٢
٥٧٩/٢ ١٩٩	١٦٩١
٥٧٩/٢ ٢٠٠	١٧٠٣ ، ١٦٩٣/٤ (١٧٧ ، ١٧٥)
٥٦٢ ، ٢٠٤/٢ ٢٠١	١٢٩٢/٣ ١٧٦
١٨٠٦ ، ١٨٠٣/٤	١٧٣٨ ، ١٧٠٣/٤ (١٨٦ ، ١٧٧)
١٨٠٩ ، ١٨٠٧/٤ ، ١٢٦٥/٣ ٢٠٥	١٨٠١/٤ ١٧٨
١٨١٠/٤ ٢٠٦	١٧٥٦/٤ ، ٤٦٣/١ ١٧٩
• الأنفال •	٢١٥٠/٥
١٨٢٨ ، ١٨١١/٤ (٦ ، ١)	١٦٣٦/٤ ١٨١
١٩٢٨/٥ ١	١٣٦١/٣ ، ٢٨٤/١ (١٨٣ ، ١٨٢)
٩٦٦/٣ ٢	١٤٤٨/٤ ١٨٣
٢٠٩٣/٥ ٤	١٧١٣/٤ ، ٣٤٨/١ ١٨٥

١٨٦٠ ، ١٦٨٢/٤		١٩٧١/٥	(٦ ، ٥)
١٨٨٨ ، ١٨٨٧ ، ١٨٨٦		١٨٧٥ ، ١٨٢٦/٤ ، ١١٢/٢	٧
١٨٩٠ ، ١٨٨٨/٤	٢٧	٨١٣/٢ ، ٢٠٦/١	٩
١٨٩١ ، ١٨٩٠/٤	٢٨	١٩٦٦/٥ ، ١٨٧٥/٤	١١
١٩٠٨ ، ١٨٩١/٤	(٢٣ ، ٢٩)	١٨٤١ ، ١٨٢٤/٤	١٢
١٨٨٩/٤	٢٩	١٨٨٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٦٥	
١٤٤٧/٤ ، ٥٦٧/٢	٣٠	٢٢٢٩/٥ ، ١٨٦٧	
٢٣٢٤ ، ٢١٦١/٥		١٨٨٢ ، ١٨٨١/٤	١٣
٤٣٠/١	٣١	٢٣٥ ، ٢٣٤/١	١٥
١٣٣٧/٣ ، ٣٢٣ ، ٣١٣/١	٣٢	٢٢٢٩/٥	١٦
٢١٧٦/٥	٣٤	١٥١/١	١٩
١٩١٨ ، ١٩٠٨/٤	(٣٧ ، ٣٥)	٢٣٨ ، ٥٨/١	٢٠
١٩٢٤ ، ١٩١٩/٥	(٤٠ ، ٣٨)	٢٣٩٦ ، ٢٢٧٨/٥	
٢٢٣٦ ، ٢١٣٧/٥ ، ٢٩٣/١	٣٨	٢١٧٩/٥	٢١
١٠٩٢/٣ ، ٥٩٣/٢	٣٩	٦٥٠/٢	(٢٣ ، ٢٢)
٢٠٨٨/٥ ، ١٥٩٧/٤		١١١٣/٣	٢٣
١٩٥٣ ، ١٩٢٤/٥	(٤٢ ، ٤١)	٢٠٤٦/٥ ، ١٨٨٤ ، ١٨٨٢/٤	٢٤
١٩٧٣ ، ١٩٥٣/٥	(٤٤ ، ٤٣)	١١٨٦ ، ١٨٨٤/٤ ، ٣١٥/٣	٢٥
١٨٦٦/٤ ، ٤٥٧/٢ ، ٢٢/١	٤٣	١٩٧١/٥ ، ١٨٩٢	٢٦

١٨٤٧/٤	٧٠	٤٥٧/١	٤٢
١٤٥٧/٤	٧٥	١٩٩٦ ، ١٩٦٣/٥	(٤٨ ، ٤٥)
١٩٢١/٥	١٠٦	٤٨٢ ، ٦٠٠/٢ ، ٤٥٤/١	٤٥
● التوبة ●		١١٣٥/٣	
٢١٢٤ ، ٢١٠٧/٥	(٤ ، ١)	٢٠٣٧/٥ ، ١١٣٤/٣	٤٦
١٦٧٠/٤	٣	١٨٣٣/٤	٤٨
٢١٥١ ، ٢١٢٤/٥	(٨ ، ٥)	٢٠١٨ ، ١٩٩٦/٥	(٥٤ ، ٤٩)
٤٨٤٠ ، ٥٢١/٢ ، ٢٨٠/١	٥	١١١٩ ، ١١١٧/٣ ، ٤٣١/١	٥٠
٢١١١/٥ ، ٢٠٤٤ ، ٨٤٣		٢٠٤١ ، ٢٠١٨/٥	(٦١ ، ٥٥)
٢٢٥٥		١١٠١/٣	٥٧
١٤٥٨/٤ ، ٩٠٠/٢	٦	٢١١٤/٥	٥٨
٢١٥٥ ، ٢١٤٢/٥	(١١ ، ٧)	٨٧٢ ، ٦٨٧ ، ٥٩٩/٢ ، ٤٥٣/١	٦٠
٢٢٣٧ ، ٢١١٣ ، ٢١٢٢/٥	٧	٢٠٥٩ ، ٢٠٤١/٥	(٦٩ ، ٦١)
٢١٣٧/٥	١١	١١٣٣/٣	٦١
٢١٧٥ ، ٢١٥٥/٥	(١٦ ، ١٢)	٨٧٣/٢	٦٤
٢٣٣٦/٥	١٣	١٨٤٧/٤ ، ٢٥٩/١	٦٧
٢٣٦٥ ، ٢١١٥/٥ ، ١٨٦٨/٤	١٤	١٨٨٨ ، ١٨٤٧/٤	٦٨
٢١٨٨ ، ٢١٦٩/٥	(١٩ ، ١٧)	١٨٨٨ ، ١٨٤٧/٤	٦٩
١٦٨٦/٤ ، ٦٧٠/٢	١٧	٢١٠٦ ، ٢٠٥٩/٥	(٧٥ ، ٧٠)

٢٢٠٦ ، ٢١٨٩/٥	(٢٤ ، ٢٠)	٣٧	٢٢٠٦ ، ٥٨٠ ، ٥٧٠/٢ ، ٩٧٥/٣
٢٢٣٦ ، ٢٢٠٦/٥	(٢٧ ، ٢٥)		٢٠٤٨/٥ ، ١٦٢٩ ، ١٦٢٨/٤
٢٣٠/١ ، ٢٣٠/٢ ، ٩٨٢/٣	٢٥		٢٣١٢ ، ٢٢٩٦
٢٣١١/٥ ، ١٤٠٥	(٣٩ ، ٣٨)		٢٣٢٣ ، ٢٣١٢/٥
١٨٦٧/٤	٢٦	٣٨	١١٢٧ ، ١٣٣/١
٢٢٤٨ ، ٢٢٣٦/٥	(٢٩ ، ٢٨)	٤٠	١١٣٧/٣ ، ٦٠٢/٢
١٢٤١/٣	٢٨		١٩٨٤/٥ ، ١٨٩٩/٤
٢٢٧٣ ، ٢٢٤٨/٥	(٣١ ، ٢٩)		٢٣٣٩ ، ٢٣٢٣ ، ٢٢٢٨
٢١٢٩/٥ ، ٤٢٠/١	٢٩	(٤٣ ، ٤١)	٢٣٤١ ، ٢٣٣٩/٥
٢٢٣٩/٥	(٣١ ، ٣٠)	٤٣	٢٦٠/١
٢٢٧٥ ، ٢٢٦٦/٥	(٣٣ ، ٣١)	(٤٥ ، ٤٤)	٢٣٤٦ ، ٢٣٤١/٥
٥٢١/٢ ، ٤٣٦ ، ٣١٩/١	(٣١)	٤٤	٢١/١
١٦٢٥/٤ ، ٩٧٨/٣ ، ٦٣٨		(٤٧ ، ٤٦)	٣٧٩/١
٢٣٧٤/٥ ، ١٢٣٦/٣	٣٢	(٤٧ ، ٤٦)	٢٣٥٤ ، ٢٣٤٦/٥
١٩١٨/٤	(٣٥ ، ٣٤)	٤٦	٤٩٠/٢ ، ٤٥٩/١
٢٢٩٦ ، ٢٢٧٥/٥	(٣٦ ، ٣٤)		٢١٧٢/٥ ، ١٤٢١ ، ١٢١٤/٣ ، ٣/٣١٢١ ، ١٢٣١/٥ ، ٢١٧٢/٥
٢٣٩٦/٥ ، ٥٨ ، ٢٢/١	٣٤	٤٧	١٢١٤/٣ ، ٤٩٠/٢ ، ٤٥٩/١ ، ١/٩٥٣ ، ٣/٣١٢١
٢٣٨ ، ٢٣٧/١	٣٥		٢٠٧٢/٥ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢١
١٤٩٢/٤ ، ٩٣٦/٢	٣٦	(٤٧ ، ٤٥)	٢٣٦٥ ، ٢٣٥٤/٥
٢١٢٤/٥			

١٠٢	٢٣٩٢/٥	٤٩
١٠٣	٢٣٧٧ ، ٢٣٦٥/٥	(٥٧ ، ٥٣)
١٠٥	٢٣٩١ ، ٢٣٧٧/٥	(٦٠ ، ٥٨)
١١١	٢٠٤٩/٥	٥٩
١١٣	٢٣٩٤ ، ٢٣٩١/٥ ، ١٤٤/١	٦١
١١٤	٢٤٠١ ، ٢٣٩٧/٥	٦٣
١٢٣	١١٩٥/٣	(٦٦ ، ٦٥)
(١٢٥ ، ١٢٤)	١١٩٥/٣	٦٥
١٢٤	١٦٦٤/٤	٦٧
١٢٥	٢٠١٥/٥	٧٠
١٢٨	١٧٨٦/٤ ، ٨٨١/٢	٧٣
١٢٩	٢٣٦٦/٥	٨٠
١٥٧	٢٣٧٢/٥	٩٨
• يونس •	٢٠٩٤ ، ٢٠٩٣/٥	١٠٠
١	٢٤٠٣ ، ٢٠٤٠/٥	١٠١

١٠٣١/٢ ، ١٥٣/١ ، ٦١١/٢ ، ٧٩٢ ، ٣٦	١٣٣٠ ، ١١٠٤/٣ ، ٢٦٣/١	٢
١٠٤٩/٣	١٢٤٥/٣	(٦ ، ٣)
١٨٣/١	١١٧١/٣	٣
١٩٠٠ ، ١٧٩٩/٤	٣٣٨/١	٥
٢٠٠٨/٥	١١٥٩/٣ ، ٢٤٦/١	٩
٢١٣/١	٥١٤/٢	١٥
٢٢٦/١	٤٣٨ ، ٢٦٥ ، ٧٢/١	١٨
١٦٢٢/٤ ، ١٠٨٤/٣ ، ٦٣٨/٢	١٢١٩/٣ ، ٥٣٦/٢	
١٠٠٣/٣ ، ٤٠٧ ، ٣٣٤/١	٦٧٩ ، ٢٠٨/١	(٢٣ ، ٢٢)
١٧٨٢ ، ١٥٩٧/٤	(٦٣ ، ٦٢) ، ٨٤٠/٢	
٩٧٨/٣	١٨٦٣/٤	
١٣٣٩/٣ ، ٩٤٣ ، ٦١٢/٢	١٣٣/١	٢٤
٩٤٩/٢	٧٨٧/٢	٢٥
١٩٧/١	١١٨٥ ، ١١٢٧/٣	٢٤
١٥٠٩/٤	(٨٢ ، ٨١) ، ١٦٢٥/٤ ، ٥٠٤/٢	٢٦
١٥٣٩ ، ١٥٣٨/٤	(٨٩ ، ٨٨) ، ١٧٠٨/٤	٣٠
١٨٠٥	١٢١٩/٣ ، ٨٩٩/٢	٣١
٢٠٥٧/٥ ، ١٨٤٦ ، ١٥٣٨/٤	٥٨٨/٢	٣٢
١٢٦٧/٣	١٧٧٦ ، ١٥٧٣/٤	٣٥

٢٢٦/١	١٠	٥٠٢/٢ ، ٣٢٢/١	٩٠
٩٠٢/٢ ، ٢٢٤/١	١١	٩٦٣/٣	٩٤
١٦٠/١ ، ٩١٢		٢٢٠٦/٥ ، ٧٣٣/٢	(٩٧ ، ٩٦)
١٧٩٩/٤ ، ١٣٢٠ ، ٩٦٣/٣	١٢	٣٨٩ ، ٢١٤ ، ١٨٠/١	٩٨
١٩٠٠/٤	١٣	١٧٣٥/٤ ، ٣٤٨/١	١٠١
١٩٠٠/٤	١٤	٦٥٨/٢ ، ٢٢٨ ، ٨٥/١	١٠٦
١١٥١ ، ١١٥٠/٣ (١٦ ، ١٥)		١١٨١/٣ ، ٩٩١/٣	
٢١٧٨/٥		١٤٩١ ، ١٤٩٠/٤	
٢٣٦٩/٥ ، ٣٠٢ ، ٢١٩/١	١٦	٢٣٥٢/٥ ، ١٦٥٤ ، ١٥٧٤	
١١٩٨/٣ ، ٦٠٦ ، ٥١٣/٢	١٧		
١٨٠٣ ، ١٦١٨/٤		• هود •	
١٤٧١/٤	٢٠	٥٨٧/٢	١
٢٦٠/١	٢٤	١٢٣٩/٣ ، ٨٢٧/٢	٦
٢٣٢١/٥	٢٥	٦٥٤ ، ٦٠٥/٢ ، ٣٣٥/١	٧
٤٣٢ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧ ، ١٦٥/١	٢٧	١٢٧١ ، ١٠٠٣/٣	
٤١٣ ، ٢٧٩ ، ٢٧٧/١	٢٩	٢٠٧٤/٥ ، ١٦٥١/٤	
٢٧٩ ، ٢٧٧/١	٣٠	٣٢٣ ، ٣١٣ ، ٢١٣/١	٨
١٧٤٦/٤ ، ٣٢٩ ، ٢٥٢/١	٣١	١٠٩٨/٣ ، ٥٣٧/٢	
٣٨٢ ، ١٦٥/١	٣٢	١٦٣٣/٤ ، ١٠٩٩	
		٢٢٤/١	(١٠ ، ٩)

٢١٨٢/٥ ، ٣٧٢/١	(٥٦ ، ٥٤)	١١٤٦/٣	٣٥
١٤٤٠/٣ ، ٣٧٢/١	٥٤	١٣١٧ ، ١٣١٣/٣	٣٦
٦٩٣/٢	٥٧	١٣١٨/٣	٣٧
١٣٤٠/٣ ، ٢٤٢/١	٥٨	١٣١٤ ، ١١٩٢/٣	(٣٩ ، ٣٨)
١٣٦٨ ، ١٣٥٧/٣ ، ٤١١/١	٦٥	١٦٥/١	٣٨
٢٤٢/١	٦٦	١٣١٦ ، ١٣١٤ ، ١٠٩٩/٣	٤٠
١٣٦٨/٣	(٦٨ ، ٦٧)	١٣١٤/٣	(٤٣ ، ٤٢)
١٣٦٩/٣	(٦٧ ، ٦٤)	١٣١٧ ، ١٣١٣/٣	٤٣
٢٠١٤/٥ ، ١٣٥٨/٣	٦٧	١٣١٧ ، ١٢٤٧/٣ ، ٩٠٥/٢	٤٤
٣٣٠ ، ١٥٤/١	٦٩	١٣١٣/٣	(٤٦ ، ٤٥)
٤٩٢/٢ ، ٣٣٠/١	٧٠	١٢١٢/٣ ، ٣٣١/١	٤٥
٢٣٥٠/٥ ، ١٢١٢/٣		٢٣٥١/٥ ، ١٤٢٣	
٣٨٠/١	٧١	١٤٢٣/٣	(٤٧ ، ٤٦)
١٤٧٥/٤ ، ٣٨٠/١	٧٢	٢٣٥١/٥ ، ١٢١٣/٣ ، ٣٣١/١	٤٦
٨٠/١	٧٣	١٢١٣/٣ ، ٣٣٢ ، ٣٣١/١	٤٧
١٣٩٣/٣	(٧٨ ، ٧٧)	٢٣٥١/٥	
٦٦٨/٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٠/١	٧٧	١٢٦٨/٣ ، ٩٠٤/٢	٥٢
١٣٠٤ ، ١٢١٢/٣		٩٩٨/٣ ، ١٦٥/١	٥٣
٢٣٥٠/٥ ، ١٤٢٣		١٧٨١/٤	(٥٥ ، ٥٤)

١١١٠/٣ ، ٦٤٨/٢ (١٠٧ ، ١٠٦)	١٣٩٣/٣	٧٨
١١١١/٣ ، ٦٥١/٢	١٠٧ ١٤٢٣ ، ١٢١٢/٣ ، ٣٣١	٨٠
٢٣٩٩/٥	٩٨٨/٣ ، ٣٣١/١	٨١
٢١٩٨/٥ ، ١١٥٤/٣	١٠٨ ١٣٩٤ ، ١٣٩٣ ، ١٢١٢	
٢٠٦٢/٥ ، ١٠٧١/٣	١١٤ ٢٣٥١/٥ ، ١٤٢٣	
١٩٠٦/٤	١١٧ ١٣٩٦ ، ١٣٩٥/٣	(٨٣ ، ٨٢)
١٦٧ ، ١٦٥/١	١٢٠ ٢٠١٥/٥	٨٢
• يوسف •	١٤٠٩/٣	٨٤
٩٥٧/٣	١ ٨٥٨/٢	٨٥
١٧١٤/٤	٢ ١٨٨٢/٤	٨٨
١٧١٠/٤ ، ٣٢٣ ، ٣١٤/١	٣ ١٤١٤ ، ١٣٥٠/٣	٨٩
٥٣٥/٢ ، ١٩٤/١	٤ ٢٠٥٥/٥ ، ١٣٩٨/٣	٩١
١٧٠٩ ، ١٥٧٥/٤ ، ٦٠٩/٢	٨ ١٤١٥/٣	(٩٥ ، ٩٤)
٦٢٣/٢ ، ١٤٤/١	١٧ ١٤٢٨/٣ ، ٢٤٢/١	٩٤
١٦٢٧/٤ ، ٩٦٦/٣	١٤٣٧ ، ١٤٢٩	
٢٣٩٣/٥ ، ١٦٢٨	٢٢٦ ، ٢١٥/١	١٠٢
٤١١/١	١٨ ٢٠١٠/٥ ، ١٧٣٠/٤	
٢٢٢٥/٥	٢٤ ٦٠٧/٢	١٠٣
٤٠٩/١	٢٥ ٦١٣/٢	١٠٥

١٠٦٣/٣	٧٧	٤١٠ ، ٤٠٩/١	(٢٧ ، ٢٦)
١٥٦٢/٤	٨٠	٤٠٩/١	٢٦
١٤٢٣/٣ ، ٣٣١/١	٨٤	٤١٠/١	٢٨
١٢٦٩/٣ ، ٣٣١/١	٨٧	٢٤٠٩/٥	٢٩
٢٣٥١/٥ ، ١٤٢٤		٢١٠/١	٣٣
٧٧٢/٢ ، ٢٠٤/١	٩٥	٢٢٧٠/٥	٤٠
١٢٣٨/٣ ، ٩٠١		١٥٩١/٤ ، ١٢٤٠ ، ٩٠٣/٢	٤٣
١٧٠٩ ، ١٥٧٥ ، ١٤٥٨/٤		٥٣٧/٢ ، ٢١٣/١	٤٥
٢٣١٠/٥ (٩٧ ، ٩٦)		١٦٣٣/٤ ، ١٠٩٨/٣	
١٩٧٠/٥	١٠٠	٩٠٣/٢	٥٠
٩٤٩/٢	١٠١	١٢٤١/٣ ، ٩٠٤/٢	٥١
١٤٨٤/٤ ، ٩٢٩ ، ٩٢٨/٢	١٠٣	٩٠٠ ، ٧٧١/٢	٥٤
٣٤٨/١	١٠٥	١٤٦٠ ، ١٤٥٨/٤	
١٠٣١ ، ٩٧٩/٣ ، ٣٧٠/١	١٠٦	٤١١/١	٦٦
٦١٠ ، ٥٠٨/٢ ، ٣٠٣/١	١٠٨	٢٢٤٧/٥	٦٧
١٨٠٠/٤ ، ١١٦٨/٣		١٢١٣/٣ ، ٩٠٠/٢ ، ٣٣١/١	٦٨
٢١٥٣ ، ١٩٨٨/٥		١٤٥٧/٤ ، ١٤٢٣	
١٣٣٠ ، ١٣٠٩ ، ١١٠٤/٣	١٠٩	٢٣٥١ ، ٢٢٤٧/٥	
١٣٢٢/٣ ، ٤٠٤ ، ٢١٩/١	١١١	٤١١/١	٧٢
١٥١٣/٤ ، ١٣٧١			

٢٣٨١/٥	٣٠	• الرعد •	
٢٣٨١ ، ٢٠٠٦/٥ ، ٥٤٨/٢	٣١	٤٨٤/٢	(٤ ، ١)
١٦٣٦/٤	٣٦	٨٠٢/٢	(٥ ، ١)
١١٠٤ ، ١٠١٢/٣	٣٨	٩٥٧/٣	١
٥٢٧ ، ٥١١/٢ ، ١١٠١/٣	٤٠	١٢٤٦ ، ١٢٤٥/٣	(٤ ، ٢)
• إبراهيم •		١٤٥٤ ، ١٤٥٢/٤	٢
٩٥٧/٣	١	٩٠١ ، ٧٧٢/٢	٤
٢٢٠٠/٥	٣	٢١٨٠/٥	٥
٧٧٢ ، ٦٩٢/٢ ، ١٠٦/١	٨	٩٠٣ ، ٧٧٤/٢	٦
٢٣٢٣/٥ ، ٩٠١ ، ٧٨٠		١٢٤٠/٣ ، ٩٠٢ ، ٧٧٣/٢	٩
١٠٦٣/٣	١٠	١٤٦٠/٤	١٠
١٠٦٣/٣	١١	٢٥٥/١	١١
١٦٧/١	(١٤ ، ١٣)	١١٤١/٣	١٤
١٨٨٢/٤ ، ١٠١٨/٣	١٧	٤٩٥/٢ ، ٣٦٠ ، ٩٣/١	١٦
٢٤٠٠ ، ١٩٩٦/٥		١٧٧٥/٤	
٢٣٦٩/٥ ، ١١٥٠/٣ ، ٣٠٢/١	١٨	١٢٠١/٣ ، ٨٧٤ ، ٦٣٩/٢	١٩
٢٣٢١/٥	(٢٠ ، ١٩)	١٦١١/٤ ، ١٣٢٢	
٢٢٦٨ ، ٢٢٤٠ ، ١٩٩٥/٥	٢٢	٢٣٠٦ ، ٢٢٧٣/٥	
١٨٥٩/٤	٢٤	١٨٢٠/٤	٢٨

٧٢٣، ٧٢٠ / ٢	٣٩	٥٧٣ / ٢ ، ٢٣٥ / ١	٣٤
٧٢١ / ٢	٤٠	١٣٦٩ ، ٥٩١	
١٩١٧ ، ١٧١٤ / ٤ ، ٦٤٩ / ٢	٤٤	٣٥٩ / ١	٣٥
١١٥٨ / ٣	٤٧	٢٠٥٦ / ٥	٣٦
١١٤٧ / ٣ ، ٧٧٤ / ٢ (٥٠ ، ٤٩)		٣٨٠ / ١	٣٩
١٦٧٣ ، ١٦٧٢ / ٤		٦٨٩ / ٢	٤٢
١٨١٩ / ٤ (٥٣ ، ٥٢)		١٤٧٩ / ٤	٤٥
١٢١٢ / ٣ ، ٤٩٢ / ٢	٥٢	● الحجر ●	
٢٣٥٠ / ٥ ، ١٤٢٣		٩٥٧ / ٣	١
١٤٥٧ / ٤	٥٣	٥٨٤ / ٢	٣
٣٦٤ / ١	٥٤	٥٦٥ / ٢	٨
١٢١٢ / ٣ ، ٤٩٢ / ٢ (٥٨ ، ٥٧)		٦٤٠ ، ٦٣٣ / ٢	٩
٣٣٠ / ١	٥٧	١٧٩٩ / ٤ ، ٩٧٧ / ٣	
٦٩٧ ، ٥٧٣ / ٢	٦٨	٥٥٣ / ٢	١٥
١٣٦٩ / ٣ ، ٨٩٢		٢٥٢ / ١	٢١
١٣٩٣ / ٣	٧٠	٤٦٥ / ٢	٢٦
١٥٠٧ ، ١٥٠٦ / ٤ ، ١٣٩٥ / ٣	٧٤	١٠٣٧ / ٣	(٢٩ ، ٢٨)
١٣٥١ / ٣ (٨٣ ، ٨٠)		١٠٣٨ / ٣	٣٠
١٧٨٦ / ٤ ، ٨٨١ ، ٥٩٣ / ٢	٨٨	٧٢١ / ٢	(٤٠ ، ٣٩)

١٧٣٨ ، ٦٢٦/٢ ، ٣٩٦/١	٣٥	٩٩٨/٣ ، ٩٠٦/٢	(٩٣ ، ٩٢)
٧٨٢ ، ٧٧٧ ، ٧٧٥		٢١٩٣/٥ ، ١٤٥١/٤	
١٣٢٤/٣	٣٦	١٢٢٧/٣	٩٢
١٤٢٠/٣ ، ١٧٤ ، ١٦٩/١	٣٧	٩٦١/٣ ، ١٦١ ، ١٦٠/١	٩٧
١٧٣٧ ، ١٨٠٢/٤		١٦١/١	٩٨
١٦٦٧/٤ ، ١٢٥٨/٣	٤٠	● النحل ●	
٧٧٥/٢	٤٣	١٣٣٨/٣ ، ٧٩٠/٢	١
٢٨١ ، ١٢/١	٤٤	٧١٧/٢	٥
٩٨٩/٣	(٤٧ ، ٤٥)	٩٠٤ ، ٧١٥/٢	٧
١٤٦٠/٤	٤٧	١٢٧٤ ، ١٢٤١/٣	
١٦٤٠/٤ ، ٥٧٨/٢	٦٨	١٩٤٣/٥	٨
٢٢٤٨/٥	٧١	١٣١٨/٣	١٤
٨٩٧ ، ٤٩٩/٢ ، ٢٧٢/١	٧٤	٤٦٠ ، ٣٦٠/١	١٦
١٥٦٨/٤ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٤/٣		٩٣/١	١٧
٧٩٧ ، ٧٩٦/٢ ، ٢٣١/١	٧٨	٨٩٢ ، ٦٩٧/٢ ، ٦٢/١	١٨
١٥٢٤/٤ ، ١٣١١/٣ ، ٨٤٨		٥١٤/٢	٢٤
١٩٦٥/٥	٧٩	١١٢٩/٣ ، ٣٠٠/١	٢٥
٧١٧/٢ ، ١٧٨/١	٨٠	٣٦٤ ، ٣٥٤/١	٢٧
٣٠٨/١	٨١	١٢٤٧/٣ ، ٦٧٠ ، ٥٠٩/٢	٢٨

٧٣٧/٢	١٢٦	١١٣٠ ، ١١٢٩/٣ ، ٨٩١/٢	٨٨
٥٢٧/٢	١٢٧	٥٨٧/٢ ، ١٩٣/١	٨٩
١٩٨٤/٥	١٢٨	١١٦/١	٩٠
		٢١٥٦/٥	٩٢
١٩٥٨/٥	١	١١١١/٣ ، ٩٠١ ، ٧٧٢/٢	٩٦
٢٨٧/١	٣	٢٣٩٩/٥ ، ١٤٥٨/٤ ، ١٢٣٨	
١٦٧١/٤	(٥ ، ٤)	٩٩٤/٣	٩٨
٢٣٣٩/٥ ، ١٦٧١/٤	٧	٢٢٦٨ ، ٢٢٤٠/٥	١٠٠
١٦٧١/٤	٨	٥١٣/٢	١٠٣
١٧٦٩/٤ ، ٩٣٧/٢	٩	٦٢٩/٢	١٠٦
١٠٠٨ ، ١٠٠١/٣	(١٤ ، ١٣)	٤٣٧/١	١١١
١٠١٣/٣ ، ٩٣١ ، ٥٤٣/٢	١٤	٧٣٦ ، ٦٢٦/٢ ، ٣٩٤/١	١١٥
٦٧٨ ، ٦٧٦ ، ٦٧٤/٢	١٥	١٠٨٤/٣	١١٦
١٦٨٨/٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٢		٧٣٨ ، ٦٢٥/٢ ، ٣٩٥/١	١١٨
٢٣٧٠/٥	١٨	٥٣٦/٢ ، ٢١١٣/١	١٢٠
٥٤٦/٢	١٩	١٦٣٣/٤ ، ١٤١٨ ، ١٠٩٨/٣	
١٨٢٢/٤ ، ٦٨٨/٢	٢١	٣٥٢ ، ٣٥١/١	١٢٣
٢٠٣١/٥	٢٢	٩٤٢ ، ٩٤٠ ، ٤٩٢/٢	
٨٠٠/٢	(٢٤ ، ٢٣)	٦١٥/٢	١٢٥

• الإسراء •

٢٣١٥/٥	٦١	٧٤٢ ، ٥٠٣/٢	٢٣
٧٢٣ ، ٧٢٠/٢	٦٢	١٠٥٤/٣ ، ٨٢٠	
١٧٧٤/٤	٦٤	١١٢٦/٣	٢٧
٦٧٩/٢ ، ٢٠٨/١ (٦٩ ، ٦٧)		٨٠٠/٢	٢٨
١٨٦٣/٤ ، ٨١٤ ، ٨١٣		٢٠٣١/٥ ، ٧١٤/٢	٢٩
٢١٦٢/٥	٧٦	٨٢٧ ، ٨٢٥ ، ٨٢٢/٢	٣١
٩٦٧/٣	٧٨	١٢٤٠/٣ ، ٩٠٢	
١١٧١/٣ ، ٢٦٦ ، ٧٢/١	٩٧	١٧٦٦ ، ١٦٥٠ ، ١٤٦٠/٤	
١١٩٨ ، ٥١٥ ، ٥١٣/٢	٨٢	١٠٩٢/٣ ، ٥٩٧/٢	٣٢
١٨٠٢/٤ ، ١٢١٥		٤٠٢/١	٣٣
٢٣٥٠/٥	٨٥	٨٠٠/٢	٣٩
١٩٠١ ، ١٩٠٠ ، ١٧٩٩/٤	٨٨	١٢٤٠/٣ ، ٩٠٢/٢	٤٠
٥١٨/٢	٨٩	١٤٦٠/٤	
١٧٩٧/٤	(٩١ ، ٩٠)	٩٤٤/٢	٤٢
١٨٣/١	(٩٢ ، ٩٠)	١٢٥١/٣ ، ١٩٠ ، ١٨٩/١	٤٤
٥٤٥/٢ ، ٢٤٤٣/١ (٩٣ ، ٩٠)		١٧٠/١	٥١
١٧٩٨/٤ ، ١٨٣/١	٩٠	١٤٨٦/٤ ، ١٢٨/١	٥٨
١٨٣/١	(٩٣ ، ٩٢)	١٨٣ ، ١٨١ ، ١٨٠/١	٥٩
٥٦٤/٢	٩٢	١٧٩٩/٤ ، ١٣٥٨/٣	

١٢٥١ ، ٩٧٣/٣ ، ١٦٢٢/٤	٢٨	١٠٦٣ ، ١١٠٤/٣	٩٤
٢٣٠١ ، ٢٢٦٧/٥		١٣٣٠ ، ١٣٠٩	
٢٧١ ، ٢٧٠ ، ٥٦/١	٢٨	١١١١/٣ ، ٢٠٢/١	٩٧
١٩٨٤ ، ٤٣٣ ، ٢٩٠		٦٤٩/٢ ، ٢٣٩٩/٥	
١٩١٠/٤ ، ٥٨٤/٢	٢٩	٤٧٣/٢	٩٩
٢٣٥٩/٥		١٤٩٠/٤ ، ١٢٢٠/٣	١٠٢
١٦٨٢/٤	٣٠	١٦٣٤/٤ (١٠٨ ، ١٠٧)	
٩٩٤/٣ ، ٩١/١	٣٣	١٨٠٨ ، ١٧١٩/٤	١١٠
١٦٥٤ ، ١٤٩١/٤			
٢٣٥٤ ، ٢٢٠٠ ، ٢٠١٧/٥		• الكهف •	
١١٥٤/٣	٣٥	٦٥٩ ، ٥١٦/٢	١
٢٨٤/١	٣٦	١٢٩٥ ، ١١٦٩/٣	
١٨٨٣ ، ١٧٤٢/٤ ، ٦٣٤/٢	٤٧	١٧٠/١	٥
٤٤٠/١	٤٨	٥٢٧/٢ ، ١٦٨ ، ١٦٢/١	٦
٥٤٣/٢ ، ٤٤٠/١	٤٩	٩٦٣/٣	
١٠٠٠/٣ ، ٩٣٢		٦٥٤ ، ٦٠٥/٢ ، ٣٣٥/١	٧
٦٥٨/٢ ، ١٢٢١ ، ٨٦/١	٥٠	١٢٧١ ، ١٠٠٣/٣	
١٠٤٣ ، ٩٩٢/٣ ، ٧٢٠		٢٠٧٤/٥ ، ١٦٥١/٤	
١٤٨٧/٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٤		٦٢١ ، ٦٢٠/٢ (٢٤ ، ٢٣)	
٣٠١٠ ، ١٦٦٥ ، ١٦٥٤		٥٢٠ ، ٥١٨/٢ ، ٣١٦/١	٢٦

١٢٦٣/٣	(٣ ، ١)٠	١٩٩٤/٥ ، ٦١١/٢ ، ٦١/١	٥٣
٣٨٦/١	٢	٢٠٦٣/٥ ، ١٠٧٢/٣	٥٤
١٣٨٨/٣	٥	٥٦٢/٢ ، ٤٢٧ ، ١٩٧/١	٥٧
١٢٢٧/٣	٦	١٤٧١/٤ ، ١٣٢١/٣	
٧٨٩/٢ ، ٤٥٨/١	٩	٢٢٤ ، ٢٢٣/١	٦٣
١٦٠٠/٤ ، ٧٩٠		٩٠٥/٢	٦٥
١٦٤٠/٤ ، ٥٧٧/٢	١١	١٥٧٢/٤	٧٥
١٢٣٧/٣ ، ٨٩٩/٢	١٥	٩٨٥/٣ ، ٩٠٣/٢ ، ١٢٨/١	٧٩
١٤٥٧/٤ ، ١٢٤٤		١٤٨٥/٤ ، ١٢٤٠	
٢٢٤٧/٥	٢٥	٢٣٨٤ ، ١٩٥٦/٥	
١٧٩٢ ، ١٥٦١/٤	٢٦	١٤٧١/٤	١٠١
١٠٦١/٣ ، ٧٦٤/٢	٢٨	٤٢٨/١	(٣٠١ ، ٣٠٤)
١٤٥٧/٤		٢١٩٨/٥ ، ١١٥٤/٣	١٠٨
٧٦٧/٢	٣١	٥٩١/٢ ، ١٦٧/١	١٠٩
٨٩٩/٢	٣٨	١٦٣٠ ، ١٥٧٣/٤	
٢٣١٨/٥ ، ٤٢٦ ، ٣٢٤/١	٣٩	٩٧٣/٣ ، ٥١٨/٢	١١٠
٣٤٤/١	(٤٣ ، ٤١)	٢٣٠١ ، ٢٢٦٧/٥ ، ١٦٢٢/٤	
٣٧٣ ، ٣٤٥/١	٤٢		
٦٣٧/٢ ، ٤٣٥ ، ٣١٨/١	٤٤		
٢٣٠٢ ، ٢٢٦٩ ، ٢٢٤٠/٥		٩٥٧/٣	(٢ ، ١)

• مریم •

٤٤٠/١	٩٥	٦٧٨/٢	(٤٦، ٤٧)
١٧٤٧/٤، ٩٦٥/٣	٩٧	١٩٨٥/٥، ١٧٢٩/٤	٤٦
• طه •		١٧٤٣/٤	٤٧
٢٢٤٦/٣	(٨، ١)	٣٨١/١	٤٩
١٢٣٠/٣	٤	١٢٤٠/٣، ٩٠٢/٢	٥٠
٩٠٩، ٩٠٧، ٩٠٥/٢	٥	٣٨٨/١	٥٤
٤٥٣/٤		١٤٦٠/٤	٥٥
١٥١٢/٤، ١٢٦٣/٣	٧	١٢٢٤/٣	٥٦
١٧١٩/٤	١٨	١٢٤٠/٣، ٩٠٢/٢	٥٧
١٥٥٤/٤	٣٦	١٤٦٠/٤	
٢٨٤٨، ٢١٨/١	٤٤	١٦٧٦/٤	٥٩
١٥٢٤/٤، ١٢٨٧/٣		١١٦٣/٣	٦٣
٢١٦٠/٥، ١٦٣١		١٦٦٤/٤، ٢٢٣/١	٦٤
٢٣٣٨/٥	٤٦	٨٩٧، ٤٩٩/٢	٦٥
١٣٢٨/٣، ٦٦٤/٢	٤٧	٤٧٢/٢	(٦٦، ٦٨)
١٦١٩، ١٤٨١/٤		٧٨٩/٢	٦٧
٢٣٧١، ٢١٦٣/٥		٢٨٢/١	٧٣
٦٠٩/٢، ٢٢٣، ٢٠٤/١	٥٢	٢٨٤/١	٧٧
١٦٦٤، ١٥٥١/٤، ١١٩٦		١٧٧٩/٤، ٤٣٩/١	(٨٢، ٨١)
١٧١٠، ١٧٠٩		١٩١٧/٤	٨٦

١٠٤٢ ، ١٠٤١/٣	٩٢	٤٧٧/٢	٥٤
١٥٨٤/٤	(٩٤ ، ٩٣)	١٥٧١/٤	٥٧
٢٠٣٥/٥ ، ١٠٤٢ ، ٩٦٨/٣	٩٣	١٥٠١/٤	٦١
١١٩٤/٣	٩٤	١٥٠١/٤	(٦٤ ، ٦٢)
١٥٧٠/٤	(٩٦ ، ٩٥)	١٥٠٣/٤	(٦٧ ، ٦٥)
٨٤/١	٩٦	١٥٠٥ ، ١٥٠٤/٤	٦٦
١٥٧٢/٤	٩٧	١٥٠٣/٤	٦٧
٢٣١٩/٥	١٠٤	١٥٣٦/٤	٧١
٨٩٨ ، ٥٠٠/٢ ، ٢٧٥/١	١١٠	١٥١٣ ، ١٥١٠/٤	٧٢
٩١٦ ، ٩١٥ ، ٩٠٩		٢٣٩٩/٥ ، ١٠١٨/٣	٧٤
١٢٢٨ ، ١٢٢٧/٣		١٥٤٤/٤ ، ٧٩/١	٧٧
١٤٦٢ ، ١٤٥٠/٤		١٥٨٢/٤	٨٠
٢١٩٦ ، ٢١٩٣/٥		١٥٥٤/٤	(٨٤ ، ٨٣)
١٢٤٣/٣ ، ٢١٩٧		١٥٩٦/٤	٨٥
١٥٦٨/٤ ، ١٢٤٨		١٥٨٣/٤	٨٦
١٦٦٤/٤	١١٥	١٥٦٩/٤	٨٧
٧٢٠/٢	١١٧	١٥٧٢/٤	٨٨
٧٢١/٢	(١١٩ ، ١١٨)	١٥٨٤/٤	(٩١ ، ٩٠)
١٧٩٧/٤	١٢٢	١٠٤٠/٣ ، ٨١٧/٢	(٩٣ ، ٩٢)

١٣٧٧/٣ ، ٩٤٥/٢	٣٤	٢٣٧٣/٥	١٣١
١٥٩٦/٤ ، ٢١٥ ، ٧٨/١	٣٥	١٦٤٥/٤ ، ٦١٦/٢ ، ٥٧/١	١٣٢
٢٠٨٨/٥ ، ١٨٨٤		٦٧٦ ، ٦٧٤/٢	١٣٤
٢٣٥٩/٥	٣٩	١٦٨٨/٤ ، ٩٩٠/٣	
١٠١١ ، ١٠١٠/٣	٤٧		
٩٠/١	٤٨		
١١٩١/٣	٥٠		
٣٤٤/١	(٥٢ ، ٥١)	١٢٨٦/٣	٩
٣٤٥/١	(٥٤ ، ٥١)	٩٨٦/٣	(١٥ ، ١١)
٩٤٣ ، ٩٤٢/٢ ، ٣٥٢/١	٥١	١٩٠١ ، ١٤٦٥/٤ ، ١٧٢/١	١٧
٣٤٥/١	٥٥	٩٤٤/٢ ، ٣٧٤/١	٢٢
٣٤٦/١	٥٦	٨٠٨ ، ٧٨٨/٢ ، ١٨٥/١	٢٥
٣٤٦/١	(٦٣ ، ٥٧)	١٤٠٠ ، ١٣٢٤ ، ١٣٠٤/٣	
٦٧٩ ، ٩٠٢/٢ ، ٣٥٣/١	٦٣	١٠٤٣/٣	٢٦
٦٧٩ ، ٣٤٦/١	٦٥	١٠٤٣/٣	٢٧
٣٧٣ ، ٣٤٦/١	٦٧	٢٦٦ ، ٧٢ ، ٧١/١	٢٨
٣٤٦/١	(٧٠ ، ٦٨)	١٢٣٧ ، ٨٩٩/١	٣٠
٤٧٧/٢	٦٩	٤٤٢١/٤ ، ١٢٤٤	
٣٥٨/١	٧٤	١٤٩٥/٤	٣٣

• الأنبياء •

١٣٤٣/٣	٢٦	١٣١٣/٣	(٧٧ ، ٧٦)
٧٥١/٢ ، ١٨٨/١	٢٧	١٠٦٥/٣	٧٩
٧٥١/٢	٢٨	٣٨٦/١	٨٩
٢٠٣٤/٥ ، ٩٦٧/٣ ، ٨٦٣/٢	٢٩	٢٣٨٠/٥	٩٠
١١٤٣/٣ ، ٦٧٧/٢	٣١	١٦٦٣/٤ ، ١٠٩٨/٣ ، ٥٣٧/٢	٩٢
١٤٧٣/٤	٣٢	١٠٤٠/٣ ، ٨٠٧ ، ٥٥٥/٢	٩٥
٧٥٢ ، ٧٥١/٢	٣٧	٥٢٧ ، ٤٩٣/٢	٩٨
٢١٢٨/٥ ، ٥٢١/٢	٣٩	٤٧١/٢	١٠٤
٨٨٧/٢	(٤١ ، ٤٠)	٢٣٩٣/٥	١٠٧
٢١٦٢/٥ ، ١٥١٦/٤	٤٠	١٤٠١ ، ١٣٢٥/٣	١٠٨
٩٨٦/٣	٤٥	١١٦٦/٣	١٠٩
٥١٠ ، ٢٦١ ، ١٤٧/١	٤٦	• الحج •	
١٣٢١/٣ ، ٨٤٩ ، ٥٦٤/٢		٤٧١ ، ٤٦٥/٢ ، ٢٣٤/١	٥
١٧٣٤ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٢/٤		٨٩٢ ، ٥٧٢ ، ٤٧٢	
٢١٥٠/٥ ، ١٧٩٥		٢٣١٥/٥ ، ١١٧٠/٣	
٦٧١/٢ ، ١٢٢٢/٣	٤٧	٤٧٢/٢	(٧ ، ٦)
١٧٠٥/٤ ، ١٠٩٩/٣		١١٩٠/٣	٢٠
١٦٠٣/٤	٥٢	٢٤٠٠/٥	٢٢
١٢٤١/٣ ، ١٤٦١/٤ ، ٩٠٣/٢	٥٩	٩٣٦ ، ٩٣٥/٢	٢٥

٢٨٤/١	(٥٦ ، ٥٥)	١٢٣٧/٣	٦١
٢٣٧٣/٥ ، ١٧٢٩/٤		١٨٠٤ ، ١٨٠٣/٤	٧٢
٢١٧٢/٥	٦٣	١٧٧٥/٤ ، ١٢٩٢/٣	٧٣
٢١٧٥/٥	(٦٧ ، ٦٦)	٨٩٩ ، ٦٦٣/٢ ، ٢٤٣/١	٧٥
٨٩٢ ، ٥٧٢/٢ ، ٢٣٤/١	٦٧	١١٠٤/٣	
١٢١٤/٣ ، ٤٩٠/٢	٧٥	١٦٠٩/٤ ، ١١٥٤ ، ٩٦٢/٣	٧٨
٢٣٤٩/٥ ، ١٤٢٢			
٢٣٢/١	٧٨	• المؤمنون •	
١٧٨٦/٤ ، ٥٧٩/٢	(٩٨ ، ٩٦)	١٠١٦/٣	١
١٠١١/٣	(١٠٤ ، ١٠١)	٢٤٠٩/٥ ، ١٣٩٠/٣	(٦ ، ٥)
٦٣٥/٢	(١٠٨ ، ١٠٧)	١٣٩٠/٣	٧
١٦٦/٤	١٠٨	٤٩٦/٢ ، ٤٢٩/١	(١٤ ، ١٢)
٤٦٦/١	١١٥	٤٦٨/٢	(١٦ ، ١٢)
٤١٦/١	١١٦	٣٣١/١	٢٧
١٠٨٩/٣ ، ٣٦٩/١	١١٧	١٣٠٩/٣	(٣٤ ، ٣٣)
• النور •		١٠٦٣/٣	٣٣
١٠٩٢/٣ ، ٥٩٧/٢	٢	١١٠٤ ، ١٠٦٣/٣	٣٤
٨٧٨/٢	(٥ ، ٤)	١٠٩٨/٣ ، ٢١٤/١	٤٤
١٠٥٦/٣ ، ٢٥٠/١	٤	١٩٢٠/٥	
٢٣٦٧/٥ ، ١٦٦٦/٤ ، ١٠٩٣		٢١٣/١	٥٢

١٥٥٦/٤ ، ٥٥٢/٢ ، ٩٤/١	٥٢	٧٩٥/٢	١٠
١٤٣٨/٣ ، ٥١١/٢	٥٤	٤٩١/٢ ، ٣٣٠ ، ٢٥٠/١	١١
٨٥٥/٢	٥٩	٢١٩ ، ١٨٠/١	١٦
٢٣٥/١	٦١	١٦٠٢/٤ ، ٢١٨/١	٢١
، ٤٥٣ ، ٢٣٥ ، ٦٢/١	٦٣	١٠٥٦ ، ٧٤٤ ، ٧٤٣/٢	٢٣
، ٦٩٧ ، ٦٠٠ ، ٥٩١ ، ٥٧٣/٢		، ٤٩١/٢ ، ٣٣٠/١	٢٦
، ١٣٦٩ ، ٩٦٨ ، ٩٦٧/٣ ، ٨٩٢		، ١٤٢٢ ، ١٢١١/٣	
٢٠٣٥/٥ ، ١٨٠٥/٤		٢٣٥٠/٥ ، ١٤٢٣	
● الفرقان ●		٢٤٠٨/٥	(٣١ ، ٣٠)
، ٤٨٦/٢ ، ٤٢٣ ، ٢٦٣/١	١	١٥٨٨/٤ ، ٨٩١ ، ٥٧٣/٢	٣١
١٦١٨/٤		٩٠١ ، ٧٧٢/٢	٣٢
٥١٣ ، ٥١٢/٢	٤	٢٣٨٨/٥	٣٣
، ٥١٤ ، ٥١٣ ، ٥١٢/٢	٥	١٢٥٧/٣ ، ٤٨٤/٢	٣٥
١٩٠١/٤		٢٢٤٣/٥	٣٦
، ٥٦٤/٢ ، ٢٥٣/١	٧	، ١١٥١ ، ١١٥٠/٣ ، ٣٠٢/١	٣٩
١٣٠٩ ، ١١٠٤/٣		٢٣٧٠ ، ٢٣٦٩/٥	
١٤٧١/٤	٩	٢٣٠٦/٥	٤٠
٢١٨٠/٥	١١	١٨٩/١	٤١
، ١٠٠٥/٣ ، ٥٤٤/٢	١٣	، ١٢٧٧/٣ ، ٤٧٥/٢ ، ٤٤٢/١	٤٣
٢٣٥٩/٥		١٩١٨/٤ ، ١٢٧٩ ، ١٢٧٨	

٢١٩٤/٥	٥٩	١٣٠٩/٣ ، ٢٨١ ، ٢٥٣/١	٢٠
١١١٢/٣	٦٥	٥٦٤ ، ٥٥٥/٢	٢١
٧١٤/٢	٦٧	٥٦٥ ، ٥٠٩/٢	٢٢
٨١٠/٢	٧٠	١١٥٠/٣ ، ٣٠٢/١	٢٣
١٧٩٢/٤	٧٢	٢٣٦٩ ، ٢١٨٨/٥ ، ١٥٤٧/٤	٢٤
٥٧٢/٢ ، ٢٣٤/١	٧٤	٦٧٢/٢	٢٤
٥٧٢ ، ٨٩١/٢ ، ٢٣٥/١	٧٥	٦٧٢/٢	٢٦
● الشعراء ●		١٩٩١/٥ ، ٥٤٠/٢ ، ٢٩٦/١	٣٠
٥٢٧/٢ ، ١٦٨ ، ١٦٢ ، ١٦١/١	٣	٥٦٩/٢	٣١
٥٥٠/٢	٤	٣٠٦/١	٣٣
١٤٨٤/٤ ، ٩٢٨ ، ٦٠٧/٢	٨	٢٠١٤/٥	٣٧
١٣٢٨/٣ ، ٦٦٤/٢	١٦	١٣٩٥/٣	٤٠
٢٣٧١/٥ ، ١٦١٩ ، ١٤٨١/٤		٢٠١٨/٥ ، ١٢٢٠/٣ ، ٤٦٣/١	٤٤
١٤٩٣ ، ١٤٩٢/٤ (١٩ ، ١٨)		٤٥٠/١	٤٧
٢٣١ ، ٢٣٠ ، ٦٣/١ (٢٤ ، ٢٣)		١٢٨٢/٣ ، ٤٧٥/٢ (٥٠ ، ٤٨)	
١٣٠٧ ، ١٢٢٢/٣ ، ٣٩١		١٢٨٠ ، ١٢٧٩/٣ (٥١ ، ٤٨)	
١٥١١ ، ١٤٩٣/٤		٤٧٦ ، ٤٧٥/٢	٥٠
١٢٢٠/٣	٢٩	١٢٤٦/٣ (٥٩ ، ٥٨)	
١٢٣٣/٢	٣٦	١٤٥٧/٤ ، ١٢٤٤ ، ١٢٣٦/٣	٥٨

١٢٩	١٥٠٢/٤	٤٤
١٣٠	١٥١٠/٤	(٤٩ ، ٥٠)
١٥٥	١٥١٤/٤	٥٠
١٥٩	١٥١٤/٤	٥١
(١٦٦ ، ١٦٥)	١٢١٩/٣	٥٣
١٦٨	١٥٤٤/٤	(٥٤ ، ٥٥)
١٧٣	١٥٦٩ ، ١٥٤١/٤	٥٩
(١٧٧ ، ١٧٦)	٢٣٣٨/٥	٦٢
١٧٦	١٢٤٠/٣ ، ٩٠٢/٢ ، ٧٨/١	٦٣
(١٨٢ ، ١٨١)	١٥٥٠ ، ١٤٦٠/٤	
١٨١	٣٤٤/١	(٦٩ ، ٧٠)
١٨٩	٣٧٣/١	(٧٣ ، ٧٢)
١٩٥	١٢٣٨/٣ ، ٩٠١ ، ٧٧٢/٢	٧٦
٢١٤	٨٦/١	٨٦
٢١٥	٧١/١	١٠٠
٢٢٢	٤١٣/١	١٠٩
(٢٢٧ ، ٢٢٥)	٤٣٢ ، ٢٧٩/١	١١١
	٢٧٩/١	(١١٣ ، ١١٢)
	٢٧٩ ، ٢٧٧/١	١١٤

١٢٩٤ ، ١١٨١/٣ ، ٣٦٢/١	٤٣	١٥١٤/٤	٢٢٧
١٦٣٢ ، ١٥٤٠/٤ ، ١٤٠٣		• النمل •	
٢٣٢٢ ، ٢١٦١ ، ٢٠٨١/٥		١٤٧٨/٤	١
٢٤٠٨		١٢٢٠ ، ١٠٢١/٣	١٤
١٣٥١/٣	٤٥	١٥٢٣ ، ١٤٩٠/٤	
١٥٢٥/٤ ، ١١٢٧ ، ١٣٣/١	٤٧	١٩٠/١	١٨
١٣٥٥/٣	٤٨	١٠٢٧/٣ ، ٢٨٨/١	١٩
٩٩١/٣	٥٦	١٥٦٦/٤ ، ١٢٩٦ ، ١٠٢٩	
١٣٩٥/٣	٥٨	١٢١٣/٣ ، ٣٣٢/١	(٢١ ، ٢٠)
٨١٢/٢	(٦٤ ، ٥٩)	١١٣٣/٣ ، ٤١١/١	٢١
١٨٦٢/٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦/١	٥٩	٢٣٥١/٥	
١٨٦٢/٤	(٦٢ ، ٦٠)	٢٣٥١/٥	(٢٤ ، ٢٢)
٢٠٧/١	٦٠	٣٣٢ ، ١٩٠/١	٢٢
٢٠٧/١	٦١	١٤٢٤ ، ١٢١٣/٣	
٢٠٧/١	٦٢	٣٣٢/١	(٢٤ ، ٢٣)
٢٠٧/١	٦٣	٩٠٢/٢ ، ٢٢٥/١	٢٣
٢٠٧/١	٦٤	٣٣٢/١	٢٧
٣٣٥ ، ٣٣٣ ، ٣٢٩/١	٦٥	١٦٩٠/٤ ، ١٩١/١	٢٨
٢٣٥٢/٥ ، ١٤٢٤/٣		١٢٢٢/٣	٤٢

٨٦٦/٢	٤٨	١٤٤٩/٤	٧٤
١٦٧٤ ، ١٦٣٤/٤	(٥٤ ، ٥١)	٨٦٧/٢ ، ٤٢٠/١	٧٦
١٧٩٢/٤	٥٥	٩٢٣/٢	٨٢
١٧٤ ، ١٧٣/١	٥٦	١٧٤٢/٤	(٨٨ ، ٨٧)
١٧٣٧/٤ ، ٦٧٧/٢		١٢٤٣ ، ١٢٢٣/٣	٨٨
١٨٠١ ، ١٨٠٢ ، ١٨٠١		٢١٩٢/٥ ، ١٧٤٢ ، ١٤٤٩/٤	
٢٢٥/١	٥٧	١٩٤٩/٥	٩١
١٤٨٦/٤ ، ٩٨٥/٣ ، ١٢٨/١	٥٩	١٤٤١/٣	١٢٧
٩٩٦/٣	(٦٦ ، ٦٥)	● القصص ●	
٩٩٧ ، ٩٩٦/٣	٦٥	١٥٤٣/٤	(٦ ، ٥)
١٤٩٦/٤	٦٦	١٥٢٠/٤	٧
٢٣٠٥/٥	(٧١ ، ٧٠)	١١٩١/٣	١٢
٢٢٧٠/٥	(٧٣ ، ٧٠)	٤١٢/١	٢٧
٢٢٧٠/٥	٧٠	٢٠١٤/٥	٣٨
١٢٥٠/٣	(٧٢ ، ٧١)	٢١٥٧/٥	٤١
٤٥٠/١	(٧٣ ، ٧١)	٦٤٧/٢	٤٥
١٤٩٦ ، ١٤٩٥/٤	٧٦	٧٨٨ ، ٦٨٢/٢ ، ١٨٥/١	٤٦
٩٩٨/٣	٧٨	١٤٠٣/٣	
٢٣٢٨/٥ ، ١٨٩٦/٤	٨٥	١٦٨٨/٤ ، ٩٩٠/٣ ، ٦٧٤/٢	٤٧

١٢٩٢/٣	٤٣	١٦٠٠/٤ ، ٧٨٩/٢	٨٨
٣١٣ ، ٥٧/١	٤٥	٢٣٠٥ ، ٢٢٧١/٥	
١٦٣٠ ، ١٦٢٩ ، ١٦٠٤/٤	٤٨	• العنكبوت •	
١٨٠٠/٤ ، ٥٤٧/٢ (٥١ ، ٥٠)		٢١٧٢/٥	(٢ ، ١)
١٤٠٤/٣ ، ١٨٣ ، ١٨١/١	٥١	٢٠٣٠/٥	٤
٢٣٥٩/٥ (٥٥ ، ٥٤)		٦١/١	٥
١٨٦٣ ، ٦٧٩/٢ ، ٦٠٨/١	٦٥	٨٢١/٢	٨
١٤٧٢/٤	٦٩	٩٥١/٢	(١٣ ، ١٢)
• الروم •		١١٢٩/٣ ، ٣٠٠/١	١٣
٢٣١٨/٥ ، ٤٢٥/١ (١٦ ، ١٤)		١٣١٩/٣	(١٥ ، ١٤)
١١٧١/٣	١٤	١٣١٢ ، ٩٩٧/٣	١٤
١١٧١/٣ (١٦ ، ١٥)		١٣١٨ ، ١٣١٤/٣ ، ٧٦٩/٢	١٥
٤٧٤/٢ (١٩ ، ١٧)		١٧٧٩/٤ ، ١١٢٧/٣ ، ٤٣٩/١	٢٥
١٢٤٤ ، ١٢٣٦/٣	١٩	٣٩٠ ، ٣٨١ ، ١٤٤/١	٢٦
١٤٥٧/٤ ، ١٢٨٣		٢٣٩٣/٥ ، ١٣٧٤/٣	
٤٧٠/٢ (٢١ ، ٢٠)		٣٨٢/١	٢٧
٤٦٥/٢	٢٠	١٣٩٤/٣	٢٢
٢٠٣١/٥	٢٤	١٣١٣/٣	٢٣
١١٧٠/٣ ، ٤٢٥/١	٢٥	١٣٦٩/٣	٢٧

١٢٣٧/٣ ، ١٣٧/١	٢٨	٤٧١/٢	٢٧
٢٣٢٣/٥ ، ١٢٤٤		٤٠٨/١	(٣١ ، ٣٠)
١٢٥٥ ، ١٢٥٤/٣	٢٩	١٢٧٦/٣	٤٦
٦٧٩/٢ ، ٢٠٨/١	٣٢	١٦٢٧/٤ ، ١٢٧٦/٣ ، ٤٧٤/٢	٥٠
١٨٦٣/٤ ، ٨١٣		٢٠١٠/٥ ، ٩٠٤/٢	٥٤
١٧٤٠/٤ ، ٣٢٧/١	٣٤	٢٣١٨/٥	٥٥
● السجدة ●		● لقمان ●	
١٢٤٧ ، ١٢٤٦/٣	(٩ ، ٣)	٢٧٠ ، ٢٢٨ ، ٨٥/١	١٣
٦٨٢/٢	٣	١١٨١ ، ٩٩١/٣ ، ٦٥٨/٢	
٦٧١/٢	٥	١٥٧٤ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٠/٤	
٦٠٨/٢ ، ٤٣٩ ، ٢٠٣/١	١٠	٢٢٠١ ، ٢٠١٧/٥ ، ١٦٥٤	
١٧٠٨ ، ١٥٧٥/٤		٢٣٥٢	
١١١٧/٣ ، ٨٩٤/٢	١١	٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦/١	١٤
٧٨١ ، ٧٧٨ ، ٥٢٢/٢	١٣	١٠٢٩ ، ١٠٢٧/٣ ، ٨٢٠/٢	
١٩٦٢/٥ ، ٧٩٧		١٥٦٥/٤ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٦	
٢٢٣/١	١٤	١٧٧٢ ، ١٧٧٠ ، ١٥٦٦	
١٢٣٩/٣ ، ٩٠٥ ، ٤٨٢/٢	١٧	٨٢١/٢	١٥
٢١٩٨/٥ ، ١٥٧٨/٤		١٤٣٨/٣	١٧
٦٤٩/٢ ، ٢٤٩/١	٢٠	٥٩١ ، ٥٦٦/٢	٢٧
٢٤٠٠ ، ٢٣٦٧/٥ ، ١٦٦٦/٤		١٦٣٠ ، ١٥٧٣/٤	

١١٣٦/٣ ، ٤٥٥/١	(٢٧ ، ٢٥)	١٨٥٨/٤ ، ٧٩٦/٢	٢١
٢٠٦٨ ، ١٩٦١/٥ ، ٨٨٥/٢	٢٥	٣٢٣/١	٢٥
٨٨٥/٢	(٢٧ ، ٢٦)	١٤٢٥/٣	٢٩
١٩٦٢ ، ١٩٦١/٥	٢٧	• الأحزاب •	
٤٠٦/١	(٢٩ ، ٢٨)	٤٠٧/١	(٢ ، ١)
١٩٩٨/٥	٣٢	٥٨٩/٢	١
٢٠٣٥/٥ ، ٩٦٩/٣	٣٦	١٢٠٥/٣ ، ٩٥٢ ، ٨٦٠/٢	٥
١٤٣٧/٣ ، ٤٠٧/١	٣٧	٢١٠١ ، ٢٠٩١/٥ ، ١٧٨٢/٤	٦
٣٨٧/١	٤٠	١١٢٢/٣ ، ٧٦٨/٢	٧
١٢٧٤/٣ ، ٦٩٢/٢ ، ٣٠٣/١	٤٣	٢٢٢٨/٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٥/٢	٩
٥٠٤/٢	٤٩	٤٥٥ ، ٤٥٤/١	(١١ ، ١٠)
٢٠٦٤/٥ ، ٤٠٧/١	٥٠	٨٨٥ ، ٨٨٤ ، ٦٠٢/٢	
٢٠٦٤/٥	٥٣	١٩٥٩/٥ ، ١١٣٥/٣	
١٢٧٣/٣ ، ٥٥٨/٢	٦٣	١٢٣٦/٣ ، ٩٠٠/٢	١٣
١٧٤٥ ، ١٧٤٤ ، ١٧٣٩/٤		١٠٣/١	١٦
١١٣١ ، ١١٢٨/٣	٦٨	٧٩٩/٢ ، ١٦٠/١	١٨
١٦٤٢/٤	٦٩	١٩٦ ، ١٧٥/١	١٩
١٨٩٠/٤ ، ١٢٥١/٣ ، ١٩٠/١	٧٢	١٠٨١/٣ ، ٤٠٦ ، ٢٥٥/١	٢١
٢٤٠٨/٥	٧٣	٨٨٥/٢ ، ٤٥٥/١	٢٢
		٢٠٦٨/٥ ، ١٩٦٠/٥ ، ١١٣٦/٣	

● فاطر ●		● سبأ ●	
١١٠٤/٣ ، ١٨٧/١	١	١٦٩٠ ، ١٦٨٩/٤ ، ١١٦٥/٣	٣
١٩٩٩/٥	٥	١٣١٨/٣ (١١ ، ١٠)	
٧٢٠/٢	٦	١٣١٩/٣	١١
١٦٨ ، ١٦٢/١	٨	١٨٨٨ ، ١٧٧٠ ، ١٥٦٥/٤	١٣
١١٤١/٣	١٠	٧٢١/٢	٢٠
١٧٦٩ ، ١٧١١/٤	١١	٢٦٦ ، ٧٢/١	٢٣
١٧٧٨/٤ (١٤ ، ١٣)		١٤٢٥/٣	٢٦
٥٠٧/٢	١٤	١٦١٨/٤ ، ٤٢٣/١	٢٨
٦٩٣/٢ (١٧ ، ١٥)		١١٢٩ ، ١١٢٨/٣ (٣٣ ، ٣١)	
٦٩٢/٢ ، ١٠٧ ، ١٠٦/١	١٥	١١٤٠/٣	٣٢
٩٥٠ ، ٤٨٦/٢ ، ٢٦٣/١	١٨	٤٣٢/١	٣٤
١٧٤٩/٤ ، ١٢٩٤/٣ ، ٩٥١		٢٣٧٣/٥ ، ٥٧٢/٢ ، ٢٨٤/١	٣٧
١٧٧/١ ، ١٠٣/١	٢٢	٩٠٤/٢	٣٩
٢١٣/١	٢٤	٢٣٠٢/٥	٤٠
٥١٧/٢ (٣٦ ، ٢٩)		٢٣٠٢ ، ٢٢٦٨/٥	٤١
٤٢١ ، ٤٦٤ ، ٦٤/١	٣٢	٦٨٢/٢	٤٤
١٢٩٥/٣ ، ٦٥٩/٢		٢١٢٠/٥ ، ١٧٣٢/٤	٤٦
١٦٣٤ ، ١٤٩٢/٤		٤١٤ ، ٤١٣/١	٤٧
١٦٩٤ ، ١٦٨٩/٤		١٠٤٩/٣	٥٠

١١٠٤/٣	١٥	١٦٣٥/٤ ، ٦٦٠/٢	(٣٥ ، ٣٣)
١٥٢٥/٤	(١٩ ، ١٨)	١٦٣٥/٤ ، ٨٦ ، ٦٤/١	٣٣
٤١٣/١	(٢١ ، ٢٠)	١١٦٠/٣	(٣٥ ، ٣٤)
١٩١٣/٤	٣٠	١٠٢٧/٣ ، ٢٨٦ ، ٨٨/١	٣٤
٤٤٤/١	(٣٥ ، ٣٣)	١٥٦٥/٤ ، ١٢٩٦	
١٢٥٠ ، ١٢٤٩/٣	(٣٨ ، ٣٧)	١٨٨٨ ، ١٧٧١ ، ١٧٧٠	
١٢٥٤/٣	٣٨	١٦٨٩/٤ ، ٦٧٥/٢	(٣٧ ، ٣٦)
٩٠١ ، ٧٧٢/٢ ، ٣٣٨/١	٣٩	٦٥٠/٢ ، ٢٧٨/١	٣٦
١٤٥٨/٤ ، ١٢٣٨/٣		١٦٣٥/٤ ، ١٠١٨/٣	
١٣١٧/٣	(٤٤ ، ٤١)	٢٤٠٠ ، ٢٣٩٩ ، ٢٠١١/٥	
١٣١٨/٣	٤١	١٧١١ ، ١٥٧٩/٤ ، ١٤٣٥/٣	٣٧
٧٧٦/٢	٤٧	٨٩٣/٢	(٤٣ ، ٤٢)
١٧٤٣/٤	٥٠		• يس •
٢٢٤٠/٥ ، ٣١٨/١	(٦١ ، ٦٠)	٦٨٢/٢	٦
١٦٢٥ ، ١٦٢٤/٤	(٦٢ ، ٦٠)	٢٣١٠/٥	٧
٦٣٧/٢ ، ٤٣٥/١	(٦٥ ، ٦٠)	١٢٤٩/٣ ، ٦٤٥/٢	٩
٩٧٤/٣		٢٣٢٦ ، ١٨٩٥ ، ١٨٧١/٤	
٥٢٠/٢ ، ٤٣٥ ، ٣١٨/١	٦٠	٤٨٦/٢ ، ٤٦١ ، ٢٦٣/١	١١
٢٣٠١ ، ٢٢٦٩/٥ ، ٦٣٦		١٥٩١/٤ ، ١٢٩٤ ، ١٠٨٧/٣	
		١٧٤٩ ، ١٧٤٨	

٢٣١٥/٥ ، ٤٦٥/٢	١١	٢٣٠٢/٥	(٦٢ ، ٦١)
٦٦١/٢	٢٢	٦٣٨ ، ٦٣٦/٢ ، ٣١٨/١	٦٢
٩٩٩/٣	٢٥	١٦٢٥/٤ ، ٣١٨/١	(٦٥ ، ٦٣)
١٧٤٠/٤	٣٩	٢٣٠٢ ، ٢٢٤٠/٥	(٦٤ ، ٦٣)
١١٨٧/٣ ، ٢٨٣/١ (٥٧ ، ٤٨)		٦٧١ ، ٥٠٩ ، ٥٤٢/٢	٦٥
١٤٨٤/٤ ، ٩٢٨ ، ٦٠٧/٢	٧١	١٠٠٠٠/٣ ، ٩٠٠ ، ٧٧١	
٩٠١ ، ٧٧٢/٢ ، ٣٨٢/١	٧٧	١٤٥٨/٤	
١٣١٧ ، ١٢٣٨/٣		١٧٧/١	٧٠
١٤٥٨/٤		٧١٧/٢	(٧٢ ، ٧١)
٩٣٠/٢	٨٣	١٢٣٩/٣ ، ٩٠٥/٢	٧١
٣٥٣/١ (٩٣ ، ٨٨)		٧١٥/٢	٧٢
٣٤٥/١	٩١	٤٧٢/٢	(٧٩ ، ٧٨)
٣٤٥/١	٩٣	٤٧٢/٢	٧٨
٣٧٣/١	٩٥	١٠٦٢/٣	٨٩
٣٨١/١ (١٠٢ ، ١٠١)		١١٦٦/٣	٨١
١٢٤١/٣ ، ٩٠٣/٢	١٠١	١٢٥٨ ، ١٢٣٦/٣ ، ٧٨٩/٢	٨٢
١٤٦١/٤		٢٠٥٨/٥ ، ١٦٦٧/٤	
٣٨١ ، ٣٨٠/١	١٠٢		• الصفات •
١٣١/١	١٠٣	١٧٢٣/٤	٤

١٢٤١/٣ ، ٩٠٤/٢	٢٣	١٣١ ، ١٣٠/١	١٠٧
٢٣٣٩ ، ٢٠٠٠/٥ ، ١٨٧٠/٤		٣٨١/١	(١١٣ ، ١١٢)
٥١٨/٢	٢٤	١٠٨٦/٣	١١٣
٤١٦ ، ٤١٥/١	٢٧	٩٣٧/٢	١١٨
١٣/١	٢٩	٣٨٨/١	(١٢٦ ، ١٢٣)
٢٣٩٩/٥ ، ١١٥٤ ، ١١١١/٣	٥٤	٤٠٥/١	(١٣٨ ، ١٣٧)
١١١٢/٣ ، ٦٥٢/٢ (٥٨ ، ٥٥)		٣٩٠/١	(١٤١ ، ١٤٠)
٢٤٠٠/٥		٣٩٠/١	(١٤٤ ، ١٤٢)
١١٢٨/٣	٦٤	٣٩٠/١	(١٤٨ ، ١٤٧)
١٠٣١/٣ (٧٢ ، ٧١)		١٠٤٤/٣ ، ٦٣٦/٢	١٥٨
١٠٣٧/٣	٧١	١٦٧٤/٤	١٦٤
٨١٧ ، ٥٥٥/٢	٧٥	١٦٧/١	(١٧٣ ، ١٧١)
١٠٤٢ ، ١٠٤٠/٣			

• ص •

• الزمر •

١٢١٩/٣	٣	١٧٢٤/٤ ، ٣٦٣/١	٥
١٩٠١ ، ١٧٠٠/٤ ، ١٧٢/١	٤	١٧٩٨/٤	٧
٤٦٧ ، ٤٦٥/٢ ، ٤٢٥/١	٦	٦٩٦/٢	١٤
٧٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٦٩		٣١٤ ، ٣١٣ ، ٣١٣/١	١٦
١١٦٩ ، ١٠٣٥/٣		١٣٣٧ ، ١٠٩٩/٣ ، ٣٢٣	
٢٣١٦/٥ ، ١٧٥١ ، ١٧٥٠/٤		١٩٠/١	١٨

١٤٣٦ ، ١٠٢١/٣	٥٧	٧٧٧/٢ ، ٢٦٦ ، ٧١/١	٧
١٧١٣ ، ١٥٧٩/٤		٢٣٢٣/٥ ، ٧٨٧	
١٢٤١/٣ ، ٩٠٣/٢	٦٠	٥٨٤ ، ٢١٠/١	٨
٣٦٣/١	٦٤	١٥١٦/٤ ، ٥٦/١	١٠
٣١١ ، ٣١٠/١	(٦٦ ، ٦٥)	١١٥٠/٣ ، ٣٠١/١	١١
٥٩٠/٢ ، ٣٩٣/١	٦٥	٢٣٦٨/٥	
١٢٨٣/٣	٦٨	١١٥٠/٣	١٥
١٣٣٨/٣ ، ٧٩٠/٢	(٧٣ ، ٦٩)	٨٩١ ، ٥٧٢ ، ٢٣٥/١	٢٠
٩١٧ ، ٦٧٠/٢	٦٩	١٧٣٧ ، ١٧٣٦/٤	٢٣
٩٩٩/٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٠/٢	٧١	١١٦٩/٣	٢٨
١٩١٧ ، ١٦٨٩/٤		١١١٥/٣	٣٢
١١٦٤/٣	٧٤	١٧٨١/٤ ، ٣٧٢/١	٣٦
		٢١٨٢/٥	
• غافر •		٣٧٣/١	٣٨
١٦٧٣/٤ ، ١١٤٧/٣	(٣ ، ١)	٨٩٤ ، ٧٦٨/٢	٤٢
٧٧٤/٢	(٣ ، ٢)	١١٢٣ ، ١١١٧/٣	
١٦٢٩/٤	(٨ ، ٧)	٢٦٥/١	٤٤
١٦٢٩/٤	٧	١١٣١/٣	٤٧
١٦٢٧ ، ١٦١٤/٤	١١	٨١٠/٢ ، ٢٩٣/١	٥٣

١٢٢٠/٣	(١٢ ، ١١)	٥٢١ ، ٥١٩ ، ٣١٦/١	١٢
٥٣٥/٢ ، ١٩٤/١	١١	٢٣٠٥/٥ ، ١٦٢١/٤ ، ٩٧٤/٣	
٤١٣٣٣/٣ ، ٩٠٤/٢	١٥	٣٢٣ ، ٣١٤/١	٢٠
٢٠١٠/٥		١٥٢٠/٤	٢٥
٤١٤٦٣/٤ ، ١٧٣/١	١٧	٨٧٠/٢	٢٨
٢٢٠٠/٥ ، ١٨٠١		١٢٤١/٣ ، ٩٠٣/٢	٣٥
٤٦٧١ ، ٥٠٩ ، ٥٤٢/٢	٢١	٧٤٠/٢	(٣٧ ، ٣٦)
١١٢٤ ، ١٠٠٠/٣		٦٧٥ ، ٦٧٠/٢	(٥٠ ، ٤٩)
١٠٠٠/٣	(٢٣ ، ٢٢)	١٦٧/١	٥١
٦٧١ ، ٥٤٢ ، ٥٠٩/٢	٢٢	١٠٦٢/٣ ، ٤٧٣/٢	٥٧
١٣٢٣/٣	٢٥	١٤٨٤/٤	٥٩
١٩٠٩ ، ١٨٠٣/٤	٢٦	٨٩٩/٢	٦٥
١٢٥٠/٣	٢٧	٦٧٠/٢	٧٤
٩٤/١	٢٩	١٦٧ ، ١٦٦/١	٧٨
٤٨١٧ ، ٥٥٥/٢	٣٤	٧١٧/٢	٧٩
١٧٨٦/٤ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٠/٣		٣٢٢/١	٨٤
١٧٨٦/٤	(٣٦ ، ٣٥)		
١٧٨٦/٤ ، ٥٦/١	٣٥	١٦٠٢/٤	(٧ ، ٦)
١١٠١/٣ ، ٥٧٩/٢	٣٦	١٢٢٠/٣	(١٠ ، ٩)

• فصلت •

٢٣٤ ، ١٥١/١	١٥	١٠٦٢/٣ ، ٤٧٤/٢	٣٩
٣٦٢/١	١٦	٥٦٨/٢ ، ١٦٧ ، ١٦٥/١	٤٣
١٢٧٣/٣ ، ٥٥٨/٢	١٧	٤٦٣٩ ، ٥١٥ ، ٥١٣/٢	٤٤
١٧٣٩/٤ ، ٣١٣/١	١٨	١٢١٥ ، ١١٩٨/٣	
٢٣٦٩ ، ٢١٧٨/٥	٢٠	١٨٠٣ ، ١٨٠٢/٤	
٢٣٦٨/٥ ، ٣٠١/١	٢١	٢٨٤/١	٥٠
٤١٣/١	٢٣	• الشورى •	
١٩٠٣/٤ ، ١٢٤٧/٣	٢٨	٦١٣/٢	٧
١٨٥/١	٢٩	٢٣٠٥ ، ٢٢٧٠/٥ (١٢ ، ١٠)	
٩٨١ ، ٩٨٠/٣	٣٠	٢٣٠٥ ، ٢٢٧٠/٥ ، ١٥٢١/٢	١٠
٢٣٢٠/٥ ، ١٦٢٤/٤	٣٠	٢٧٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٢/١	١١
٩٠٣/٢ ، ٥٦/١	٤٣	٨٩٦ ، ٥٠١ ، ٥٠٠ ، ٤٩٩/٢	
١٥٤٩/٤	٤٩	٩١٦ ، ٩١٢ ، ٩٠٩ ، ٨٩٨ ، ٨٩٧	
١٧٤ ، ١٧٣/١	٥٢	١٢٢٦ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٤/٣	
١٢٠١/٣ ، ٨٧٤/٢	٥٢	١٢٣٥ ، ١٢٣٢ ، ١٢٢٧	
١٧١٠ ، ١٦١٠/٤		١٣٣٨ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٣ ، ١٢٣٧	
٢٢٧٣/٥ ، ١٨٠١		١٤٥٣ ، ١٤٥٠ ، ١٤٤٩/٤	
١٢٢٩/٣	١١١	١٥٦٨ ، ١٤٦٢ ، ١٤٥٥	
		٢١٩٢ ، ٢١٩١/٥	
		٤٠٥ ، ٥٩/١	١٣

٢٣١٤/٥	٦٠	• الزخرف •	
١١١٢/٣	٧٥	١٢٨٣/٣	١١
٢٠١١/٥ ، ١٢١٨ ، ١٠١٧/٣	٧٧	١٢٤٧/٣ ، ٩٠٥/٢	١٣
١٢١٩/٣	٨٧	١٧٥٥/٤ ، ١٢٠٣/٣	١٨
• الدخان •		٢١٨٥/٥ ، ٥٧١/٢	١٩
١٤٧٨/٤	٢	٧٨٢ ، ٧٧٥/٢	٢٠
٩٢٠ ، ٩١٩/٢	١٠	٥٣٧/٢	٢٢
١٨٥٧/٤	١٦	١٠٩٨/٣ ، ٢١٣/١	٢٣
١٥٤١/٤	٢٨	٢١٥٧/٥ ، ١٦٣٣/٤	
٥٦٤/٢	٣٦	٨٧٠/٢ ، ٢٨٥/١	٣١
٤١٦/١	(٣٩ ، ٣٨)	٢٢٤٨/٥ ، ٢٨٥/١	٣٢
٦٧٤/٢	٣٨	١٠٨٤/٣	(٣٥ ، ٣٣)
• الجاثية •		١١٣١/٣	٣٩
١٨٦٨ ، ١٧٤٨/٤	(٨ ، ٧)	١٧٩٢/٤ ، ١١٠١/٣	٤١
٩٠٣/٢	١٤	١٣٢٥ ، ١٤٠١/٣ ، ٨٠٨/٢	٤٥
٣١١/١	٢٣	١١٢٦/٣	٤٨
٥٦٤/٢	٢٥	٢٠١٤/٥	(٥٢ ، ٥١)
١٥٤/١	٣٢	١٢٢٠/٣	٥٤
١٩٧/١	٤٥	١٩١٣ ، ١٩٠٧/٤ ، ١١٦٨/٣	٥٧

● محمد ●		● الأحقاف ●	
٢٠٥٨ ، ٢٠٣٤/٥ ، ٩٦٨/٣	٤	١٧٧٨/٤ ، ٤٣٩/١	(٦ ، ٥)
١٠٦٢/٣	١٠	١٧٧٩	
١٩٢٣/٥	١١	١٧٧٩/٤	٥
٢٣٣٦ ، ٢١٦٢/٥	١٣	٨٦٨/٢	١٠
١١٥٩/٣ ، ٨٩٢ ، ٢٣٤/١	١٥	٢٨٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٢/١	١١
١٤٧٢/٤ ، ٣٨٥ ، ١١٠/١	١٧	١١٩٦/٣	
١٩٧/١	٢٣	٨٥٤/٢	١٥
١٣/١	٢٤	١٨٢٢/٤	١٩
٢٠٠٥/٥	(٢٨ ، ٢٥)	١٣٣١/٣ ، ٣٤٢ ، ٨٨/١	٢١
٢٤٠٣/٥	(٣٠ ، ٢٩)	١٨٦٠ ، ١٦٨٢/٤	
٢١٧٣/٥	٣١	١٣٤٣/٣	٢٤
٢٠٤٣/٥	٣٥	١٧١٦/٤ ، ٢٠٢ ، ١٧٦/١	٢٦
٢٣٢١/٥ ، ٦٩٣/٢	٣٨	٦٦٥/٢	٢٩
		٨٦٦/٢	٣٠
		١١٢٦/٣ ، ٦٦٧/٢	٣١
٢٠٩٧/٥	١	١٧١٥/٤ ، ١١٧٦	
١٨٢٠/٤ ، ٩٦٦/٣	٤	١٠٦٢/٣ ، ٤٧٣/٢	٣٣
٢٠٩٩/٥	١٠	٥٦٨/٢ ، ١٦٧/١	٣٥

● الفتح ●

١٢٣٩/٣ ، ٩٠٤/٢	٥٨	١٦٥٢/٤	٣٥
١٣٩٣/٣	(٣٣ ، ٣١)	١٤٧/١	٣٧
● الطور ●		٤٨٥/٢ ، ٤٦١ ، ٢٦٣/١	٤٥
٩٩٩/٣	١٥	١٥٩١/٤ ، ١٢٩٤ ، ١٠٨٧/٣	
٢٣٦٦/٥ ، ١٧٤٠/٤	١٦	٢١٥٥/٥	
١٧٣٢/٤	٢٩	● الذاریات ●	
١٨٩٤/٤	٣٠	٧٩٢ ، ٦١٢ ، ٦١١/٢	١٠
١٩٠٠ ، ١٧٩٩/٤	٣٤	٢٠٨٧/٥ ، ١٨٨٤/٤ ، ٢٨٠/١	١٣
٧٢٨/٢	٣٥	٤٩٥/٢	٢١
● النجم ●		٩٠٠/٢	٢٨
٢٧٣ ، ٢٦٠ ، ٢٥٩/١	(٤ ، ٣)	٣٨٠/١	٢٩
٨٩٧ ، ٨٤٩ ، ٥٠٠/٢		١٣٩٢/٣	(٣٦ ، ٣٥)
١٢٢٤ ، ١٢٠٠/٣		١٠٩٩/٣	٤٢
١٩٧٨/٥ ، ١٤٤٩/٤		١٨٨٧ ، ١٧٣٤/٤	٤٧
٦١١/٢	٢٨	٢٠٤٥/٥	
٩٤٠ ، ٤٩٢/٢ ، ٣١٨/١	٣٧	١٤٣٨/٣	٥٤
٢٠١٥/٥ ، ١٥٠٦/٤	٥٣	١٦٦٣/٤ ، ٩٦٦/٣	٥٥
١٨٧١/٤ ، ١٢٤٩/٣	٥٤	٦٤٣/٢ ، ٤٠١/١	٥٦
		١٦٥١/٤ ، ١٠٠٣/٣	

● الرحمن ●		● القمر ●	
١٤٦١/٤	(٢ ، ١)	١٨٢/١	١
١٢٣٩/٣	(٣ ، ١)	١٣١٤/٣	(١٢ ، ١٠)
٩٠٥/٢	(٤ ، ١)	١٣١٣/٣	١٠
٨٥٨/٢	(٩ ، ٧)	١٣٤٨/٣ ، ٤٧٩/٢	٢٠
١٧١٦/٤	١٣	٤٠٦٣/٣ ، ٢٨٤/١	٢٤
١٢١٨/٣	١٩	١٣٠٩ ، ١١٠٤	
١٢١٨/٣	٢٠	٢٨٤/١	٢٥
٢٧٢/١	٢٧	١٣٥٤/٣	٢٨
٦٦٦/٢	٣٢	١٩٠٥/٤ ، ١٣٥٦/٣	٢٩
٦٦٦/٢	٣٣	١٣٩٥/٣	(٣٩ ، ٣٧)
٩٨٩/٣	٣٩	١٢١٢/٣ ، ٣٣١/١	٣٧
١١٢٦/٣ ، ٦٦٨/٢	٤٦	٤٨٩١ ، ٥٧٣/٢ ، ٢٣٤/١	٤٥
١٧١٦/٤ ، ١١٧٦		١٨٥٨/٤	
١١٧٦/٣ ، ٦٦٨/٢	٤٧	٧٨٥/٢	(٥٠ ، ٤٩)
١٧١٦ ، ١٧١٥/٤ ، ٦٦٧/٢	٥٦	٩٨٤/٣	٤٩
١١٢٦/٣	٧٤	١٢٢٢/٣	٥٠
		٤٨٩٢ ، ٥٧٣/٢ ، ٢٣٤/١	٥٤
		١٢٤٠/٣	٥٥

● الواقعة ●

١٧٤٢/٤

٥

٣٨٢/١	٢٦	٣٦٧/١	(٢٦ ، ٢٥)
٧١/١	٢٨	٦٣٤/٢	(٥٠ ، ٤٩)
١٠٤١ ، ١٠٤٠/٣ ، ٨١٧/٢	٢٩	٢٠٣٠/٥ ، ٦٩٣/٢	(٦١ ، ٦٠)
● المجادلة ●		١٠٦٢/٣ ، ٤٧١/٢	٦٢
١٤٥٧/٤	١	١١١٣/٣	٧٣
١٠٧٨/٣ ، ٣٩٦/١	٣	١٦٢٠/٤	٧٦
٣٩٧/١	٤	● الحديد ●	
٢٣٩٨/٥	٥	١٢٤٧/٣	(٥ ، ٣)
١٩٨٤/٥	٧	١٢٣٨/٣ ، ٩٠١ ، ٧٧٢/٢	٣
٢٢٤/١	١٩	١٤٥٨/٤ ، ١٢٣٩	
٩٨ ، ٢٣/٥	٢٠	١٩٨٤/٥	٤
١٦٧/١	٢١	١٤٦٠/٤	٧
● الحشر ●		٢٠٩٤/٥	١٠
٢٢٥٩/٥	٢	٢٣٤٥/٥ ، ١١٧٣/٣ ، ٢٠٢/١	١٣
١٢٦٨/٣	٥	٢٣٤٥/٥	١٤
١٩٤٥ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٦/٥	٦	٢٣٦١ ، ١٩٢٢/٥	١٥
٣٠١ ، ١٩٣/١	٧	١٤٢/١	١٦
١٩٢٦/٥ ، ١١٤٩/٣		٢٣٦٢/٥	٢٢
١٩٣٥/٥	(١٠ ، ٨)	٢٣٦٢/٥	٢٣

٢٣٧٤ ، ٢٣٧٣/٥ ، ١٢٣٦/٣	٨	٢٠٩٤/٥	٨
١٤٣٤/٣	(١١ ، ١٠)	٢٠٩٤ ، ٢٠٩٣/٥	٩
١٧١٢ ، ١٥٧٨/٤		٢٠٩٥ ، ١٩٣٥/٥	١٠
١٠١٩/٣	(١٢ ، ١٠)	١٩٨٢/٥ ، ٨٧٣/٢	١٤
		٢٢٣/١	١٩
● الجمعة ●			
١٢٤٠/٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٢/٢	١	١٢٩٢/٣ ، ١٩٠/١	٢١
١٤٦٠/٤		٩٠٣ ، ٩٠٢/٢	٢٣
١٠٢٣/٣	٢	١٤٦٠/٤ ، ١٢٤٠/٣	
١٢٩٢/٣	٥	١٢٥٧/٣ ، ٩٢/١	٢٤
		● الممتحنة ●	
٩٠٤/٢ ، ٢٣٧/١	١١	٢٣٣٦/٥	١
٢٣٩٦ ، ٢٢٧٨/٥		٤٣٠/١	٢
● المنافقون ●			
١٤٨٣ ، ١٤٧٢/٤	٣	٢٠٨٩/٥ ، ٦٧٨/٢	٤
٢٠٤٠/٥ ، ١٩٦ ، ١٧٥/١	٤	٨٢١/٢	٨
١٧٦٦/٤ ، ٨٢٧/٢	٧	١٩٢٥/٥	١٠
		● الصف ●	
١٨٧٠/٤ ، ٢٣٣٩ ، ٢٠٠٠/٥	٨	١٧٠ ، ٥٩/١	٣
٨٨١/٢	٩	٥٦٣ ، ٥٦١/٢ ، ١٩٨/١	٥
٢١٨/١	١٠	١٤٨٣ ، ١٤٧٢/٤	

١١٦٩/٣	(٦ ، ٥)		• التغابن •	
٩٨٦/٣	(١٠ ، ٨)	٦١٣/٢		٢
٥٤٩/٢ ، ٤٦٣ ، ١٤٠/١	١١	٩٠١ ، ٧٧٢ ، ٦٩٢/٢ ، ١٠٦/١		٦
١٠٢٣/٣ ، ٦٢٢		٢٣٢٣/٥ ، ١٠٦٣ ، ١٣٠٩/٣		
		١٦٩٠/٤ ، ١١٦٥/٣		٧
• التحريم •				
١٠٧٩ ، ١٠٧٨/٣ ، ٤٠٧/١	١	١٢٠١/٣ ، ٨٧٤/٢		٨
١٠٨٠ ، ١٠٧٨/٣ ، ٤٠٧/١	٢	٢٢٧٣/٥ ، ١٦١٠/٤		
١٢٣٩/٣ ، ٩٠٥/٢	٣	٦٣٤/٢		٩
٨٩٢ ، ٥٨٢/٢ ، ٢٣٤/١	٤	٢١٩٩/٥ ، ٨٨١ ، ٥٩٢/٢		١٤
١٩٢٣/٥ ، ١٤٦١/٤		١٨٨٤/٤		١٥
٢٠٣٥/٥	٦	٦٢٨/٢ ، ٣٠١/١		١٦
٢٣٤٥ ، ٢٢٣٢/٥	٨		• الطلاق •	
٢٠٩١/٥	٩	٤٠٧ ، ٤٠٦/١		١
١٣٩٣ ، ١٣١٣/٣	١٠	١٧٦٦/٤ ، ١٤٤٤/٣	(٣ ، ٢)	
٢٤٠٨/٥	١٢	١٠٥٥/٣ ، ٧٩٣ ، ٧٤٢/٢		٢
		١٨٩١/٤		
• الملك •				
٦٥٤ ، ٦٠٥/٢ ، ٣٣٥/١	٢	١٢٦٨/٣		٣
١٦٥١/٤ ، ١٢٧١ ، ١٠٠٣/٣		٨٧٨/٢ ، ٥٠٤/٢		٤
٢٠٧٤ ، ١٩٦٩/٥		١٢٦٨ ، ١٠٩٢/٣		

		٤٨٨/٢ ، ٣٤٧/١	(٤ ، ٣)
	● الحاقه ●		٥
١٣٤٣/٣	(٧ ، ٦)	٤٦٥/١	
١٠٩٩/٣	٦	٤٦٧٦ ، ٦٧٤/٢	(٩ ، ٨)
٧٩٠/٢	(٨ ، ٧)	١٦٨٨/٤ ، ٦٨١	
٤٧٩/٢	٧	٩٧٦/٣ ، ١٤٨/١	١٠
١٧٣٨/٤ ، ٥٦٣/٢	١١	١١٢٤/٣ ، ٦٦٩/٢	١١
٦١/١	١٨	١٢٤٠/٣	١٢
٦١١/٢ ، ٦١/١	٢٠	١٦٢٥/٤ ، ٦٠٤/٢ ، ٤٥٩/١	١٤
١٦٥٠/٤	(٣٧ ، ٣٦)	٦٩٣/٢ ، ٤٤٩ ، ٤٤٥/١	١٩
	● المعارج ●	٢٣٧٦/٥	٣٠
١٩٠٢/٤	(٢ ، ١)		
٦٧١/٢	(٥ ، ٤)	٩٥٧/٣	١
٦٧١/٢	٤	١٧٣١/٤	٢
١٣٩٠/٣	(٣٠ ، ٢٩)	٢١٩٧/٥ ، ١١٥٤/٣ ، ٤٨١/٢	١٧
١٣٩٠/٣	٣٠	١٧٩٤ ، ١٥٣٠/٤	١٩
	● نوح ●	٨٦٨٥/٢	(٤٣ ، ٤٢)
٩٩٨/٣	(٧ ، ٥)	٤١٣/١	٤٦
١٣١٦/٣	(١٠ ، ٥)	٣٨٩/١	٤٨
			● القلم ●

● المزمّل ●	١٨٠٣/٤	٧
١٧٤٢/٤	١٤	١٤٣٩/٣ (٩ ، ٨)
١٣٠٥/٣ ، ٦٦٨/٢	١٧	١٤٤٤ ، ١٢٦٨/٣ (١٢ ، ١٠)
● المدثر ●	٤٩٥ ، ٤٦٧/٢	(١٤ ، ١٣)
١٤٩٥/٤	٣	٤٩٥/٢ ١٤
٦٧٢/٢	(١٠ ، ٩)	٦٦٤/٢ (١٦ ، ١٥)
٥١٣/٢	(٢٦ ، ١٨)	١٣٠٠/٣ ، ٣٨٢/١ (٢٤ ، ٢٣)
١٨٢٠/٤	٣١	١٨٤٦/٤ (٢٧ ، ٢٦)
٧١/١	٤٨	١٣١٢/٣ ٢٦
● القيامة ●	١٣١٢/٣	٢٧
٥٠٨/٢	(١٥ ، ١٤)	● الجن ●
٥٠٢ ، ٤٩٧/٢	(٢٣ ، ٢٢)	٦٦٦/٢ ٥
١٥٦١/٤ ، ١٥٥٩/٤ ، ٥٠٤		١١٧٦/٣ ، ٦٤٦/٢ ٦
٨٩٠/٢	٣١	٢١٣٣/٥ ٩
٤١٦/١	(٣٨ ، ٣٦)	٦٦٦/٢ ١١
٤١٦/١	٣٦	٢٠٨٨/٥ ، ١٨٨٤/٤ (١٧ ، ١٦)
٤٧٢/٢	(٤٠ ، ٣٧)	١٥٩٦/٤ ١٧
● الإنسان ●	١٢١٣/٣	(٢٧ ، ٢٦)
١٨٠١/٤	(٣ ، ٢)	

• التكوير •	٤٧٣/٢	(٣٢ ، ٢٧)
١٩٥ ، ١٨٨/١	٥	١٧٣٤/٤ ٢٨
٩٩٩/٣	(٩ ، ٨)	٢٩٥/١ (٤١ ، ٤٠)
• الانفطار •	١٧٤٥/٤ ، ٣٢٧/١	(٤٤ ، ٤٢)
١٠٣٥/٣	(٨ ، ٦)	٤٨٦/٢ ، ٤٦١/١ ٤٥
٨٣٤/٢	(١٢ ، ١٠)	١٢٩٤ ، ١٠٨٧/٣
٩٠٠/٢	١٢	٢١٥٤/٥ ، ١٥٩١/٤
• المطففين •		• عبس •
٨٥٨/٢	(٢ ، ١)	٥٥٨/٢ ٣
١٤٠٩/٣ ، ٨٥٩/٢	(٦ ، ١)	٨٦٩/٢ (١٤ ، ١١)
١٠٨٦/٣	(٦ ، ٤)	١١٩٩/٣ (١٤ ، ١٣)
١٦٧١/٤	٦	٩٥٨/٣ ، ١٩١/١ (١٥ ، ١٣)
٥٦١/٢ ، ١٩٨ ، ١٩٧/١	١٤	١٧٨٢/٤ (١٦ ، ١٣)
١٤٧٢/٤ ، ٥٦٣		١١٧٠/٣ ، ٤٢٥/١ ٢٠
٥٠٤ ، ٥٠٢ ، ٤٩٧/٢	١٥	٢٣١٢/٥
١٥٥٩/٤		٤٤٣/١ (٢٥ ، ٢٤)
١١٤٦/٣ ، ٣٠٦/١	٢٩	٤٤٢/١ ٢٤
٢٤٠٧/٥		١٢٨١/٣ ، ٤٧٤/٢

٥٢٧/٢	(٢٢ ، ٢١)	١١٩٢/٣	(٣١ ، ٣٠)
• الفجر •		١١٩٦/٣ ، ٢٨٢/١	٣٠
١٣٢٣/٣	(٨ ، ٦)	• البروج •	
١٣٣٢/٣	٧	١٥١٦/٤	٨
٢١٣٣/٥	١٤	١٥٩٦/٤ ، ٢٨٠/١	١٠
٨٩٥	٢٢	٢٠٨٧/٥ ، ١٨٨٤	
١٩٩٦/٥ ، ٢٤٨/١	(٢٦ ، ٢٥)	٩٨٩/٣	١٢
٢٠١١		١٢٣٦/٣ ، ٩٠٠/٢	١٦
• البلد •		٨٦٨/٢ ، ١٩١/١	(٢٢ ، ٢١)
١٠٤١/٣ ، ٥٥٥/٢	١	١٧٨٢/٤ ، ١١٩٩ ، ٩٥٨/٣	
• الطارق •			
١٥٧٢/٤ ، ٦٦٢/٢	٨	١٦٦٦/٤	٤
٢٣٩٧/٥ ، ١٦٨٠		٢٣١٥/٥	٥
١٠٣٦/٣	(١٧ ، ١١)	• الأعلى •	
١٩٥٦/٥	(١٦ ، ١٤)	٨٠١/٢ ، ٩٠/١	(٤ ، ١)
٢٣٨٣/٥	١٦	٢١٤٨/٥	
• الشمس •		٦١٩/٢	٩
١٣٥٦/٣	(١٤ ، ١١)	• الناشية •	
٢٣٤٦/٥	١٢	١٢٥٥/٣	٢٠

٨٦٩/٢	(٣ ، ١)	١٩٠٥/٤	١٤
٩٥٨/٣	(٣ ، ٢)	• الليل •	
١٦٩٤/٤	٤	٦١٣/٢	(١٠ ، ٥)
٢٣٦٨/٥ ، ١١٥٠/٣ ، ٣٠١/١	٥	٣٦٧/١	(٢٠ ، ١٩)
٢٢٣٨/٥	٦	• الضحى •	
• الزلزلة •		٤٥٠/١	٢
١٠٠٠/٣ ، ٥٤٣/٢	(٥ ، ١)	١٧١٠/٤ ، ٦٠٩ ، ٢٠٤/١	٧
٢٣١٨/٥ ، ١١٧١/٣ ، ٤٢٥/١	٦	• الشرح •	
١٠٥٤/٣ ، ٧٤٣/٢	(٨ ، ٧)	٢٣٩٧/٥ ، ١٥٧٢/٤ ، ٦٦٢/٢	١
• العاديات •		٢٣٨١/٥	(٨ ، ٧)
٤٤٩ ، ٤٤٥/١	(٤ ، ١)	• التين •	
٢١٧٧/٥ ، ٦٧٠/٢	(٧ ، ٦)	٤٧٢/٢	(٤ ، ١)
١٦٨٦/٤	٧	١٠٤١/٣ ، ٥٥٥/٢	٣
• القارعة •		٩٢٥/٢	(٦ ، ٥)
١٠١١/٣	(١١ ، ٤)	٤٧٢/٢	٧
١٧٤٢/٤	٩	• العلق •	
• التكاثر •		١٦٥٠/٤	١٦
٢٣١٧/٥	(٢ ، ١)	• البيئَة •	
١١٧٠/٣	١	٢٢٣٨/٥	١

٦٠/١	(٥ ، ٤)	• العصر •	
• الكوثر •		١٤٣٣ ، ١٠١٨/٣	(٣ ، ١)
٩٤٨ ، ٩٤٧/٢	٢	١٧١٠ ، ١٥٧٧/٤ ، ١٤٣٦	
• المسد •		١٧١١	
٢٣٧٣/٥	٢	• الهمزة •	
٧٨٩/٢	٣	٢٣٧٩/٥	١
• الإخلاص •		٢٤٨/١	٧
١٨٩٦ ، ٤٩٩/٢ ، ٢٧٢/١	٤	٢٣٥٩/٥ ، ٥٤٤/٢	(٩ ، ٨)
١٢٢٧ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٤/٣		• قريش •	
١٥٦٨ ، ١٤٤٩/٤		١٨٢٥/٤	٢
• الفلق •		• الماعون •	
٧٨٤/٢	(٢ ، ١)	٨٥٠/٢	(٢ ، ١)



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٩	تقديم للكتاب بقلم فضيلة الشيخ الدكتور عبدالله الأمين الشنقيطي (ابن الشيخ المفسر رحمه الله)
١١	المقدمة
١٦	لمحة عن دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير
١٨	منهج الشيخ (رحمه الله) في تدريس التفسير
٢٥	موقفه من الروايات الإسرائيلية
٢٦	القيمة العلمية لهذه الدروس
٢٨	وقفه مع تسجيل دروس الشيخ (رحمه الله) في التفسير
٣٠	ذكر محتويات الأشرطة التي أمكن الوقوف عليها
٣٤	الطريقة المتبعة في إخراج هذا التفسير
٣٨	شكر ورجاء
٣٩	ترجمة العلامة المفسر الأصولي محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله)
٣٩	أولاً: اسمه ونسبه
٣٩	ثانياً: مولده ونشأته
٤٠	ثالثاً: طلبه للعلم
٤١	رابعاً: همته في طلب العلم
٤٢	خامساً: غزارة علمه وسعة اطلاعه
٤٣	سادساً: عقيدته

الصفحة	الموضوع
٤٥	سابعا: الوظائف والأعمال التي تقلدها في بلاده
	ثامنا: سفره إلى الحج واستقراره في المدينة النبوية، وأثر ذلك عليه من
٤٥	الناحية العلمية
٤٦	تاسعا: الأعمال التي زاولها (رحمه الله) بعد استقراره في بلاد الحرمين ..
٤٨	عاشرا: زهده وورعه
٥٠	الحادي عشر: مؤلفاته
٥٣	الثاني عشر: تجافيه عن الفتيا في أخريات حياته
٥٣	الثالث عشر: رجوعه للحق إذا ظهر له ذلك
٥٤	الرابع عشر: وفاته
٥٥	تفسير سورة البقرة
١٥٨	تفسير سورة الأنعام
٩٥٥	تفسير سورة الأعراف
١٨١١	تفسير سورة الأنفال
٢١٠٧	تفسير سورة التوبة
٢٤١١	ثبت مصادر التعليق
٢٤٤٩	فهرس الآيات القرآنية
٢٥٢١	فهرس الموضوعات